عرائس البيان

في

حقائق القرآن

تأليف

الشيخ العارف بالله تعالى

أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقلي

المتوفى ٦٠٦ هـ

تحقيق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثالث

المحتوى :

أول سورة النور - إلى آخر سورة الناس

Title : ʿArāʾis al-Bayān
fī Ḥaqāʾiq al-Qurʾān
classification: *Exegesis of the Qur'an*

Author	: Rūzbahān al-Baqli
Editor	: Aḥmad Farīd al-Mizyadi
Publisher	: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages	: 1664 (3 volumes)
Year	: 2008
Printed in	: Lebanon
Edition	: 1st

الكتاب : عرائس البيان
في حقائق القرآن

التصنيف	: تفسير قرآن
المؤلف	: الشيخ العارف بالله روزبهان البقلي
المحقق	: الشيخ أحمد فريد المزيدي
الناشر	: دار الكتب العلميـــة – بيروت
عدد الصفحات	: 1664 (3 أجزاء)
سنة الطباعة	: 2008
بلد الطباعة	: لبنان
الطبعة	: الأولى (لونان)

ISBN 2-7451-5743-4 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5743-X (13 dig)
90000
9 782745 157430

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٨م – ١٤٢٩ هـ

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax.+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ١٢/١١/٨١٠ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ أنزل الله القرآن من سماء القدم على سيد أهل الكرم، وجعله سرجًا أسرجها من نوار الذات في مشكاة الآيات لألباء الحقيقة، وأدلاء الطريقة لينوروا بأنوارها طرق المعارف، وسبل الكواشف، وأوجب ما فيها من أحكام العبودية على العباد، وأنزل في هذه السورة آيات دالة على أسرار القدوسية، وأنوار السبوحية بينات واضحات لأولي النهي من العارفين، وأهل الفطنة من الموقنين ليتعظ بمواعظها المريدون، ويقتبس أنوارها العارفون، ويدرك حقائقها الموحدون.

قال سهل: جمعناها وبيناها حلالها وحرامها.

وقال بعضهم: لو لم يكن من آيات هذه السورة إلا براءة الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله لكان كثيرًا؛ فكيف وقد جمعت من الأحكام والبراهين ما لم يجمعه غيرها؟

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٨ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ﴾ أي: إن كنتم تشاهدون عظمتي وجلالي؛ فلا تداهنوا في ديني، وكونوا موافقين لأمري حيث أؤاخذ أحدًا بقهري فلا تلاطفوهم في حدٍّ من حدودي.

قال بعضهم: إن كنتم من أهل مودتي، ومحبتي فخالفوا من خالف أمري، أو يتركب نهيي؛ فلا يكون محبًّا من يصبر على مخالفة حبيبه.

وقال الجنيد: الشفقة على المخالفين كالإعراض عن الموافقين.

وقال الواسطي: للمؤمن في كل خطوة فائدة؛ فمن يتعظ استفاد، ومن غفل حجب وخاب(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ زجرًا لنفوسهم الأمارة لتتعظ برؤية عذاب الله وتنزجر عن معصية الله، وتعرف الله قطع أنساب الخليقة من جلال الحقيقة، فإن العبودية حقوق الربوبية.

قال أبو بكر بن طاهر: لا يشهد مواضع التأديب إلا من لا يستحق التأديب، وهم طائفة من المؤمنين لا المؤمنون أجمع.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ أي: لولا فضل الله لصرح بأسراركم، ولم يستر على أحوالكم، ولكن سبقت رحمته وتفضله لكم بأن ستر عوراتكم بحكمته البالغة، وشريعته الجامعة، وجعل رحمته موضع توبتكم بعد مباشرتكم مخالفته.

قال ابن عطاء: لولا فضل الله عليكم في قبول طاعتكم لخسرتم بما ضمن لكم في آخرتكم، ولكن برحمته نجاكم من خسرانكم، وتفضل عليكم.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا

---

(١) قال الغزالي في «الإحياء» في الحديث: «خيار أمتي أَحِدَّاؤُهَا» يعني: في الدين.

سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ زجر المدعين الذين يتكلمون بلسان الصديقين، ويخبرون بالتقليد عن أحوال المقربين، ويعتقدون أن ما يقولون حالهم، ويكذبون على الله، ويظنون أن ذلك ليس بعظيم، حاشا أن يقع الزور والبهتان موقع الحقائق والعرفان، وأن يكون محالهم وبهتانهم ليس بعظيم عند الله إذ عظمة الله بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [1] ثم أخبر أنه عظَّمه، فهم يصغرونه من جهلهم بغيرة الله بقوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ يا ليت لو يعلم المدعي الجاهل أن الكل مع شرائف أحوالهم، وفصاحة لسانهم في التوحيد، واطلاع قلوبهم على مراتب الحقيقة مندرجون تحت هذه الآية التي أخبرت عن غيرته بوصف جلاله وعزة عظمته بأنه ممتنعٌ بذاته عن مقالة كل واصفٍ صفته، وكل عارفٍ بقلبه نعته؛ إذ نعته ووصفه لا يدخلان تحت عبارة أهل الحدثان.

قال الحسين في بعض مناجاته: إلهي أُنـزِّهك عما يقول فيك أولياؤك وأعداؤك جميعًا.

وقال عبد الله بن المبارك: ما أرى هذه الآية نـزلت إلا فيمن اعتاد الدعاوى العظيمة، ويجترئ على ربه في الإخبار عن أحوال الأنبياء والأكابر، ولا يمنعه من ذلك هيبة ربه ولا حياؤه.

وقال الترمذي: مَنْ تهاون بما يجري عليه من الدعاوي؛ فقد صغَّر ما عظَّم الله إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) لعظمة المبهوت عليه ، واستحالة صدقه ، فإنَّ حقارة الذنوب وعظمتها باعتبار متعلقاتها، البحر المديد (٢٢٤/٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ بيّن أن تطهير العباد من الذنوب لا يكون إلا بفضله السابق، وعنايته الأزلية، كيف يزكي العلل ما يكون عللاً، فالمعلول لا يظهر المعلول، والمعلول أفعال الحدثان على كل صنف، ولطف القديم غير معلول له استحقاق ذهاب العلل بوصوله.

قال السياري: قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، ولم يقل: لولا عبادتكم وصلاتكم وجهادكم، وحسن قيامكم بأمر الله ما نجا منكم من أحد؛ ليعلم أن العبادات، وإن كثرت؛ فإنها من نتائج الفضل.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فيه بيان تأديب الله للشيوخ والأكابر ألا يهجروا صاحب العثرات، وأهل الزلات من المريدين، ويتخلقوا بخلق الله حيث يغفر الذنوب العظام، ولا يبالي، وأعلمهم ألا يكفوا أعطافهم عنهم، ويخبرونهم ما وقع لهم من أحكام الغيب؛ فإن من له استعداد لا يحتجب بعوارض البشرية عن أحكام الطريقة أبدًا، والعفو والصفح حالان شريفان، فأما العفو الإعراض عما جرى من الزلة، والصفح: الستر على ما يقع بعد الزلة في وقت الامتحان من المحنة، فلا يذكر حال الماضي، ولا يأخذ بما يأتي.

قال بعضهم: العفو هو الستر على ما مضى، وترك التأديب فيما بقي.

وقال الجرجاني: الصفح هو الإغماض عن المكروه.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ خبائث هواجس النفوس، ووساوس الشياطين، ومزخرفاتها للبطالين من المرائين والمغالطين، وهم لها وطيبات إلهام الله بوسائط الملائكة لأصحاب القلوب والأرواح، والقول من العارفين، وهم لها وأيضًا الترهات والطامات للسالوسين، والحقائق والدقائق من المعارف، وشرح الكواشف للعارفين والمحبين، وأيضًا الأوصاف المذمومة للنفوس، والأخلاق المحمودة للأرواح والقلوب.

وقال عبد العزيز المكي: الدنيا وخبائثها للخبيثين من الرجال المحبين لها ولهم تصلح الدنيا.

والمحبون للدنيا للخبيثات أي: للدنيا ولها يصلحون.

وقال: ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ هي الآخرة وكرامتها، ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ المحبين لها ولهم تصلح الآخرة، ﴿ٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ المحبون للآخرة، وإكرامتها ولها يصلحون.

وقال الأستاذ: ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من الأعمال هي الطاعات والقرب، ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ وهم المؤثرون لها المسارعون في تحصيلها، و﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من الأحوال هي تحقيق الموصلات بما هو حق الحق مجردًا عنه الحظوظ، ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال وهم الذين سمت هممهم عن كل مبتذل خسيس، ولهم نفوس تسمو إلى المعاني، وهي التحمل بالتذلل لمن له العزة.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ أي: يغضوا أبصار أسرارهم

عن الحدثان أجمع، وعن نفوسهم ومعاملاتهم وأحوالهم وأشخاصهم بنعت التلاشي في وجود الحق وظهور ذاته وصفاته ليكونوا بوصف ما وصف الله حبيبه عند قربه ومداناته بقوله: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ ﴾ [النجم:١٧].

قال ابن عطاء: أبصار الرءوس عن المحارم، وأبصار القلوب عما سواه، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ فيه استشهاد على أن لا يجوز للعارفين أن يبدوا زينة حقائق معرفتهم، وما يكشف الله لهم من عالم الملكوت، وأنوار الذات والصفات، ولا المواجيد إلا ما ظهر منهم بالغلبات من الشهقات والزعقات والاصفرار والاحمرار، وما يجري على ألسنتهم بغير اختيارهم من كلمات الشطح والإشارات المشكلة، وهذه الأحوال أشرف زينة للعارفين.

قال بعضهم: أزين ما تزين به العبد الطاعة، فإذا أظهرها فقد ذهبت زينتها.

وقال بعضهم: الحكمة في هذه الآية لأهل المعرفة أنه من أظهر شيئًا من أفعاله إلا ما ظهر عليه من غير قصد له فيه، فقد سقط به عن رؤية الحق؛ لأن ما وقع عليه رؤية الخلق ساقط عن رؤية الحق، قوله تعالى:

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١ ﴾ قرن التوبة بالإيمان ثم قرنها بالفلاح، معناه من رجع إلى الله من نفسه والأكوان وشاهد مشاهد الربوبية فاز من عذاب الفرقة، وظهر بالمشاهدة والوصلة.

قال الواسطي: التوبة عدم المألوفات أجمع.

قال يوسف: من طلب الفلاح والسلامة والنجاة والاستقامة؛ فليطلبه في تصحيح توبته ودوام تضرعه وإنابته؛ فإن تصحيح التوبة تحقيق الإيمان والوصول إلى حقيقة المعرفة قال الله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾، وقد وقع لي هنا إشارة لطيفة أن الله سبحانه طالب المؤمنين جميعًا بالتوبة، ومن آمن بالله، وترك الشرك؛ فقد تاب وصح توبته ورجوعه إلى الله، وإن خطر عليه خاطر أو جرى عليه معصية؛ فهو في حيز التوبة، فإن المؤمن إذا جرى عليه معصية ضاق صدره واهتم قلبه، وقدم روحه ورجع سره، هذا لعموم والإشارة في الخصوص أن الجميع محجوبون أصل النكرة، وما وجدوا به من القربة، وسكنوا بمقاماتهم ومشاهداتهم ومعرفتهم وتوحيدهم أي: أنتم بعد في حجاب هذه المقامات توبوا منها إليَّ فإن رؤيتها أعظم الشرك في المعرفة؛ لأن من ظن أنه واصل، وليس له حاصل من معرفة وجوده وكنه جلال عزته؛ فمن هذا وجب التوبة عليهم في جميع الأنفاس؛ لذلك هجم حبيب الله في

بحر الفناء، وقال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة»[1].

وسمعت أن الخضروية قال لأبي يزيد: أريد أن أتوب ولا أقدر، فقال: ويحك العزة لله وأنت تطلب العزة ويا فهم أن عقيب كل توبة توبة، حتى تتوب من التوبة، وتقع في بحر الفناء من غلبة رؤية القدم والبقاء.

﴿وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فضله هاهنا معرفته، ومعرفته الخروج من نعت الفقر والغنى؛ لأنهما علتان موجبتان الشغل عن الله، والعزيز في المعرفة من غنى بالله، وبالاتصاف بصفته، والاتحاد بنعت المعرفة بذاته تعالى عن كل علة؛ فإن موارد شرائع جود مشاهدته مصاهر كل وارد بنعت الفناء في لقائه.

قال بعضهم: من صحَّ افتقاره إلى الله صح استغناؤه بالله.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ الخير هاهنا: التوحيد والمعرفة والتوكل والرضا والقناعة، وصدق العمل والوفاء بالعهد والإشارة فيه أن الشيوخ إذا رأوا مريدًا بهذه المثابة جاز لهم أن يجوزه له الخلوة والانفراد والإسفار والاستقلال بنفسه.

وقال الجنيد في قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾: علمًا بالحق وعملاً به.

وقال بعضهم: محبة لأهل الصلاح وميل إليهم.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ

---

(١) رواه البخاري (٥٩٤٨)، ومسلم (٢٧٠١).

وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ﴾ إن الله سبحانه أوجد الكون من العرش إلى الثرى بالكاف والنون وكان بين الكاف والنون مظلمًا بظلمة العدم محجوبًا عن نور القدم؛ لأنه معلولة بعلة الحدث، ولم ينكشف الكون هناك نور الكاف، والنون فبقي كمشكاة بلا سراج، فجعل الكاف قنديلاً، والنون فتيلة، وجعل في القنديل دهن زيت فعله الخاص، وأبقاه بهيئته ما شاء ثم أسرج القنديل عند ظهور أنوار صفاته بنور الصفة، فأضاء الكون بنور الصفة، ثم وضع القنديل في زجاجة فعله العلم، ووضع زجاجة الفعل في الكون، ثم نوَّر الكون بعد تنويره بنور الصفات بأنوار الذات حتى يكون الكون كمشكاة منورة بمصباح الصفة التي معدنها الذات؛ فأضاء نور الذات في الصفة، وأضاء نور الصفة في نور فعله الخاص، وأضاء نور فعله الخاص في قنديل الكاف والنون، وأضاء نور الكاف والنون زجاجة فعله العام، وأضاء نور فعله العام في مشكاة الكون؛ فإذا رأيت المشكاة رأيت نور الكاف والنون، وإذا رأيت نور الكاف والنون رأيت نور فعله الخاص الذي هو غني بقوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ مباركة إذ هي أصلها مصدر الصفة التي أصلها الذات المنـزه عن البداية والنهاية: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لا من شرق ظهور الكون من العدم، ولا من غرب عدم الكون عند القدم: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ قبل أن يصل إليه نور الصفات؛ لأنها صدرت من الصفات، فوصل نور الصفات إلى نور الفعل الخاص، وصار نورًا كقوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ

نُورٍ ﴾، وإذا رأيت نور هذه الشجرة رأيت نور الصفة، وإذا رأيت نور الصفة رأيت نور الذات، وإذا رأيت نور الذات رأيت عين العين، وإذا رأيت الصفات رأيت العين، وإذا رأيت الفعل رأيت عين الجمع، وإذا رأيت عين الجمع رأيت الكون مرآة الفعل يظهر منها أنوار الذات والصفات لمن له استعداد النظر إلى مشاهدة القدم بنعت الاصطفائية الأزلية[١]، وذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ حتى تعرف بهذا المثال ظهور نعوت القدم في مرآة الكون لأهل الكرم من العارفين، قال الله: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ﴾ وهو باختصاصهم عليهم بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ عليم بكلِّ مثل وعبر وبرهان وسلطان.

وأيضًا فيه إشارة أخرى في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أراد بالسماوات والأرض صورة المؤمن رأسه السماوات وبدنه الأرض، وهو بجلاله وقدره نور هذه السماوات والأرض، إذ زين الرأس بنور السمع والبصر والشم والذوق والبيان في اللسان؛ فنور العين كنور الشمس والقمر، ونور الأذنين كنور الزهرة والمشتري، ونور الفم والأنف كنور المريخ وزحل ونور اللسان كنور العطارد، وهذه السيارات النيرات تسري في بروج الرأس، ونور أرض البدن الجوارح والأعضاء والعضلات واللحم والدم والشعرات وعظامها الجبال، وترى أنور الله لهذه السماوات والأرضين منورة بنور فعله، وفعله منَّور بنور أسمائه، وأسماؤه منورة بنور صفاته، ونور صفاته منور بنور ذاته، وذاته نور الكل إذا الكل قائم بذاته، فنور ذاته ونور صفاته لا يضاهي الأنوار؛ لأن نوره منـزه عن المشابهة بالأنوار؛ فمن نوره الشجر والثمر، ومن نوره الصدف والجوهر، ومن نوره الذهب والفضة، ومن نوره الدر والياقوت، ومن نوره العرش والكرسي والجنة وما فيها، ومن نوره السماوات

---

(١) قال المصنف: وذلك النُّور في مشكاة القلب، وهو مصباح يزيد نوره بدُهن العقل في قنديل الفؤاد، يتلألأ من صورة الإنسان، ويبرز منها أنوار الربوبية، وذلك الدُّهن لا من شرق ملكوت الأرض، ولا من غرب ملكوت السماء، إنما هو يخرج من برق سنا شجرة قدس القدم، يكاد أن يضيء بنفسه قبل تجلي القدم؛ لأنه نور صدر من الفعل الخاص، ولو لم تمسسه نيران أنوار الكبرياء، لكن غلب نور القدم على نور الحدث، نور على نور وما وهب الحق ذلك النور إلا من اصطفاه الله بما اصطفى آدم ونوحًا وموسى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وزكريا ويحيى ومحمدًا- صلى الله عليهم أجمعين-يهدي الله لنوره من يشاء. فبان لك بهذا البيان الشافي سبب وجود الإنسان، وشرفه على جميع البرية. انظر: تقسيم الخواطر: (ص١٢١) تحت الطبع بتحقيقنا.

والأرض، ومن نوره الأرواح والأشباح، ومن نوره العقل والقلوب، ومن نوره تنورت هذه النيرات، وأضاءت هذه الآيات نور قدرته زينها بالتركيب، ونور علمه نوَّرها بالانتظام، ونور سمعه نوَّرها بالقيام، ونور بصره زينها بأنوار العجائب، ونور إرادته زينها بالارتسام والبقاء، ونور كلامه زينها بالنماء والبركات، ونور حياته زينها بالحياة، ونور قدمه زينها بغرائب الألطاف، ونور بقائه زينها بالأرواح الفعلية والقدسية الفطرية، ونور ذاته زينها بالوجود سبحانه المنـزه بجلاله أوجد الكون بنور القدم وأنوره عن ظلمة العدم.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ صدر العارف كوة فعله ومشكاة أمره، وروح العارف قنديل قدرته، وفتيلة قنديله عقله الغريزي، وفطرته الفعلي، واستعداده الروحاني، ودهنه المعرفة، وقلبه زجاجة المشيئة، ومصباحه أنوار الصفة القديمة المنـزهة عن مباشرة الأكوان والحدثان والحلول في الزمان والمكان، أسرج بمصباح صفاته قنديل الروح وفتيلة العقل، وزاد نور المصباح من نور الذات؛ إذ الذات والصفات مكشوفان لها في جميع الأوقات بنعت السرمدية، ولو امتنع أنوارها عنها انطفأ مصباحها، ولم يكن ناظرة إلى الغيب، وأمد المصباح بدهن معرفته ذلك، وتلك الشجرة المباركة منابتها العقل الملكوتي، وصباغها الحكمة الجبروتية، وهي في جميع الأنفاس على مقابلة شمس الألوهية لا يقع عليها ظلال غدوة شرق القدم، ولا ظلال عشية غرب الفناء في أرض مشرق المشاهدة منورة بجمال شمس القدم والبقاء؛ لذلك نفى علة الحجاب بالحدثان بقوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، وتلك المعرفة التي هي الشجرة المباركة يكاد دهن نورها يضيء بنور الفعل.

قيل: إن يصل إليها نور الصفة، قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، فلما وصل نور الصفة إلى نور المعرفة والعقل الملكوتي، ونور الفعل يضيء بنور الله، ويبصر الله بالله لا بغير الله؛ قال الله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ مثل نور صفاته بالمصباح، وشبَّه الروح بالقنديل، وشبَّه القلب بالمشكاة؛ لأن الروح في القلب والنور في الروح، والمعرفة دهن قنديل الروح، وتلك الكوة هي القلب، والقلب في الصدر لا منفذ إليها لرياح القهر والشقاوة، إذ القلب في أصبع الصفة يقلبها كيف يشاء، والروح في يمين القدرة.

قال ﷺ: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبهما كيف يشاء»(١).

وقال: «الأرواح في يمين الرحمن»(٢)؛ فكيف ينطفئ هذا المصباح الذي نوره من نور

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن حبان (٣/ ١٨٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٠٦).

(٢) ذكره المصنف في مشرب الأرواح له (ص١٤).

الأزل، وضياؤه من ضياء الأبد؟

ثم وصف الروح، وشبَّه الزجاجة قنديلها في مشكاة القلب بالكوكب الدري الذي قال تعالى: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ إذ هي انقدحت من درر الجلال والجمال، وأعلمنا أن ذلك المصباح في تلك الزجاجة لا ينطفئ أبدًا؛ لأن المصباح إذا كان في تحت زجاجة لا تؤثر فيه الرياح لعواصف إذ لا سبيل إلى نور المشاهدة في نور المعرفة والعقل، ولا يزول بتغاير الحدثان، ولا بالزلة والعصيان، فهذان النوران ينفدان في رِوازن أبراج الدماغ فينوران تلك السيارات المذكورة، ويتلألأن من مرآة سماء وجه العارف.

ألا ترى كيف قال أبو يزيد -قدس الله روحه: يظهر نور الصمدية من بشرة وجه العارف، ومن هاهنا قال الحكماء: الأول صياحة الوجود من عكس الروح الناطقة هذا يفهم مما سنح لقلبي في إشارة الآية ما يوافق أقوال أئمتي وشيوخي.

قال ابن عطاء: زين الله السماوات باثني عشر برجًا، وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، وزين قلوب المؤمنين باثني عشرة خصلة الذهن والانتباه والشرح والعقل والمعرفة واليقين والفهم والبصيرة وحياة القلب والرجاء والخوف والحياء، فمادامت هذه البروج قائمة يكون العالم على النظام والسعة، وكذلك مادامت هذه الخصال في قلب العارف يكون فيه نور العارف، وحلاوة العبادة.

وقال ابن مسعود: مثل نور المؤمن كمشكاة في كوة، وهي التي لا منفذ لها أشار إلى صدر المؤمن ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، وهو نور قلب المؤمن، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، والزجاجة سر المؤمن.

قال النبي ﷺ: «إن لله أوانٍ فأحبها إليه ما صفا ورق»[1]، ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

قال ابن عطاء: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: لا قرب فيها ولا بعد فيها؛ فالله من البعد قريب ومن القرب بعيد.

قال الواسطي: لا دنيائية ولا آخرة جذبها الله إلى قربه، وأكرمها بضيائها، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ يكاد ضياء روحها يتوقد، ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: ولو لم يدعه نبي، ولا يسمع كتابًا ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ نور الهداية وافق نور الروح، ﴿ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ اجتهاد

---

(١) لم أقف عليه.

المجتهدين، وطلب الطالبين، وهرب الهاربين.

وقال الجنيد: لا هي مائلة إلى الدنيا، ولا راغبة في الآخرة، ولكنها فانية الحظ من الأكوان.

قال أبو علي الجوزجاني: في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بدأ بالنور والنور البيان، فالله نور السماوات، ومن نور اليقين سراج يضيء في قلب المؤمن كما قال الله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ يضيء في قلب المؤمن؛ لأن قلب المؤمن منور بالإيمان، فنور قلبه من نور الله بيانًا مبينًا؛ فهو ينظر بنور ربه إلى جميع ملكه، فيرى فيها بدائع صنعه، ويرى بنور المعرفة قدرة الله وسلطانه وأمره وملكه فيفتح له ذلك النور علم ما في السماوات السبع وما في الأرضين علمًا يقينًا، فيخضع له الملك، ومن نبَّه فيجب به كل شيء على ما يحب ويهوى مثل ذلك النور ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ﴾، فنفس المؤمن بيت، وقلبه مثل قنديل، ومعرفته مثل السراج، وفوه مثل الكوة، ولسانه مثل باب الكوة والقنديل معلق بباب الكوة إذا افتتح اللسان بما في القلب من الذكر استضاء المصباح من كونه إلى العرش، فالزجاجة هي التوفيق، وفتيلتها من الزهد، ودهنها من الرضا، وعلائقها من العقل، وهو قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

وقال جعفر بن محمد: الأنوار تختلف أولها نور حفظ القلب، ثم نور الخوف، ثم نور الرجاء، ثم نور الحب، ثم نور التفكر، ثم نور اليقين، ثم نور التذكر، ثم النظر بنور العلم، ثم نور الحياء، ثم نور حلاوة الإيمان، ثم نور الإسلام، ثم نور الإحسان، ثم نور النعماء، ثم نور الفضل، ثم نور الآلاء، ثم نور الكرم، ثم نور العطف، ثم نور القلب، ثم نور الإحاطة، ثم نور الهيبة ثم نور الحيرة، ثم نور الحياة ثم نور الأنس، ثم نور الاستقامة، ثم نور الاستكانة، ثم نور الطمأنينة ثم نور العظمة، ثم نور الجلال، ثم نور القدوة، ثم نور الحول، ثم نور القوة، ثم نور الألوهية، ثم نور الوحدانية، ثم نور الفردانية، ثم نور الأبدية، ثم نور السرمدية، ثم نور الديمومية، ثم نور الأزلية، ثم نور البقائية، ثم نور الكلية، ثم نور الهوية، ولكل واحد من هذه الأنوار أهل وله حال ومحل كلها من أنوار الحق التي ذكر الله في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولكل عبد من عبيده مشرب من نور هذه الأنوار، وربما كان حظه من نورين ومن ثلاث، ولا يتم هذه الأنوار لأحد إلا للمصطفى ﷺ؛ فإنه القائم مع الله بشروط تصحيح العبودية والمحبة فهو نور، وهو من ربه على نور.

قال بعضهم: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الملائكة ونور الأرض الأولياء.

وقيل في قوله: ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: نور المشاهدة يغلب نور المتابعة، وقيل: نور الجمع يعلو أنوار التفرقة، وقيل: نور الروح يهدي إلى السر شعاع الفردانية، ونور السر يهدي إلى القلب ضياء الوحدانية، ونور القلب يهدي إلى الصدر حقيقة الإيمان، ونور السر يهدي إلى الصدر آداب الإسلام؛ فإذا جاء نور الحقيقة غلب هذه الأنوار، وأفرد العارف عنها وأفناه فيها، وحصله في محل البقاء مع الحق متسمًا بسمته مترسمًا برسمه لا يكون للحدث عليها أثر بحال؛ لأن محل أنوار الأحوال هو القيام معها ورؤيتها، والسكون إليها، فإذا جاء نور الحقيقة أفناه عن الحظوظ والمشاهدات، وإذا غلب نور الحق خمدت الأنوار لها، وصارت الأحوال دهشًا في فناء، وفناءً في دهش؛ فهو بحصول اسم ورسم، وذهاب الحقيقة في عين الحق ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ يخص الله بهذه الأنوار من سبقت له المشيئة فيه بالخصوصية، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾.

قال: العقلاء الألباء الذين خصوا بالفهم عنه، والرجوع إليه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في أن الذي خصهم بهذه الأنوار والمراتب من غير سابقة لا يتقرب إليه إلا بفضله وكرمه دون عدِّ التسبيح والصلاة عليه[1].

وقال الحسين في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: منور قلوبكم حتى عرفتم ووجدتم، وختم بقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ فكان أول ابتدائه ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: مبتدأ النعم ومنبعها والآخر خاتمته، فالأول فضل، والآخر مشيئة؛ فهو المجتبي لأوليائه الهادي لأصفيائه.

---

(١) قال المصنف: فالإنسان من حيث المناسبة الروحانية والقوة الملكية يقبل الوحي من الغيب، ومن حيث المناسبة البشرية يلقى الوحي إليهم، وهم يواسون الخلق ويربونهم بواضحات الشرع، وهم بالإضافة إلى الناس كالناس إلى الحيوانات، وهم في الناس كالشموس والأقمار في سائر الكواكب، وكما أن نور القمر عكس نور الشمس، فإن نور الناس من أنوار الأولياء والأنبياء، وإن نور العقل وإن كان منورًا لا يتم إلا بنور الشرع والعقل كالبصر، والشرع كالنور، ولا يتم البصر إلا بالنور، قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام:١٠٤]، ولولا العقل ما جاء الشرع، ولولا الإنسان لم يأت العقل، والشرع من الحضرة والإنسان بالحقيقة من له عقل وعلم ويعرف الشرع ويستدين به حتى يكون كاملاً في الجمال الظاهر والباطن؛ لأن العقل نور الباطن والشرع نور الظاهر، قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾، والنور الثالث معرفة الله التي هي مستفادة من تعريفه إياهم، وإشهادهم مشاهدة ذاته وصفاته وهو مقام النبوة والولاية والمخصوصية، من اصطفاه الله في الأزل به، قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥]، وقال: ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

قال الحسين: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: هو نور النور، يهدي من يشاء بنوره إلى قدرته وبقدرته إلى غيبه، وبغيبه إلى قدمه وبقدمه إلى أزله وأبده، وبأزله وأبده إلى وحدانيته لا إله إلا هو المشهود شأنه بقدرته، تقدس وتعالى يزيد من يشاء علمًا بتوحيده ووحدانيته وتنـزيهه وإجلال مقامه وتعظيم ربوبيته.

وقال الواسطي: إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد نوَّرها بصفاته وخاطبها بذاته فاستضاءت واستنارت بنور قدسه؛ فأخبر عنها بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنه منور الأرواح بكمال نوره.

قال الخراز: من خلقه من نوره ثم أخرجه بنوره ثم أعاده في أكبر كبريائه من نور إذا تجلى له لم يحترق؛ لأنه يكون هو نورًا من نوره على نوره في نوره.

قال الله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

قال الحسين: في الرأس نور الوحي، وفي العينين نور المناجاة، وفي السمع نور اليقين، وفي اللسان نور البيان، وفي الصدر نور الإيمان، وفي الطبائع نور التسبيح فإذا التهب شيء من هذه الأنوار غلب على النور الآخر فأدخله في سلطانه، فإذا سكن عاد سلطان ذلك النور أوفر وأتم مما كان، فإذا التهبوا جميعًا صار نورًا على نور ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

قال الأستاذ: في قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: كذلك هممهم لا تسكن شرقيًّا، ولا غربيًّا، ولا علويًّا، ولا سفليًّا، ولا جنيًّا، ولا إنسيًّا، ولا عرشيًّا، ولا كرسيًّا، شطحت عن الأكوان، ولم تجد له سبيلاً إلى الحقيقة؛ لأن الحق منزه عن اللحوق والدرك، فبقيت عن الخلق منفصلة، وبالحق غير متصلة، ويقال: نور المطالبة يحصل في القلب بدءًا فيحمل صاحبه على المحاسبة؛ فإذا نظر في ديوانه، وما أسلفه من عصيانه يحصل نور المعاينة فيعود على نفسه باللائمة، ويتجرع كاسات ندمه فيرتقي عن هذا باستدامة قصده، والتنقي عما كان عليه في أوقات فترته، فإذا استقام فيه كوشف بنور المراقبة فيعلم دائمًا أنه سبحانه مطلع عليه، وبعد هذا نور المحاضرة، وهو لوائح تبدو في السرائر، ثم بعد ذلك نور المكاشفة، وذلك بتجلي الصفات، ثم بعده أنوار المشاهدة؛ فيصير ليله نهارًا، ونجومه أقمارًا، وأقماره بدورًا، وبدوره شموسًا، ليس في سماء أسرارهم سحاب، ولا في هوائها ضباب، ثم بعد هذا أنوار التوحيد، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد ثم ما لا يتناوله عبارة ولا يدركه إشارة في البيان عند ذلك خرس، والشواهد طمس، وشهود الغير عند ذلك محال؛ فعند ذلك ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ١، ٢]، ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ [التكوير: ٤] ﴿إِذَا

ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾[الانشقاق:١] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾[الانفطار:١]، هذه كلها أقسام الكون، وما من العدم لهم صار إلى العدم القائم عنهم غيرهم، والكائن عنهم سواهم جلت الأحدية، وعزت الصمدية، وتقدست الديمومية، وتنزهت الألوهية.

ثم بيَّن سبحانه أن ذلك المصباح والمشكاة في بيت صورة العبد العارف، وذلك البيت صدره يتنور بنور الله، ونور قربه ليبصر سواكنه بنوره ما ينفتح فيه من أنوار ملكوته وجبروته بقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ أن يرفع همها إلى مشاهدة الذات، وصرف الصفات، ولا ينزل على غيره من الآيات والكرامات والعقل، يذكر اسم الله هناك، والقلب يذكر وصفه، والروح يذكر ذاته وصفاته تعالى، وأيضًا ترفع الأسرار بنعت الاشتياق حوائج الوصال إليه بنعت المداناة والمناجاة.

وقال بعضهم: ترفع الحوائج من القلوب، وتشغل القلوب بالذكر؛ فإن النبي ﷺ يقول حاكيًا عن ربه: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»[1].

ويقال: «القلوب بيوت المعرفة، والأرواح مشاهد المحبة، والأسرار محال المشاهدة».

ثم وصف سبحانه أهل خالصة تلك البيوت بشهود الحضرة والمراقبة في القربة بنعت التجريد عن غير المشاهدة بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وصف الله العارفين بالرجولية حين أقبلوا عليه بأسرار طاهرة عن الحدثان، وبسرهم في صحاري الآزال والآباد بالأرواح القدسية والعقول الملكوتية بين سباع القهر وحيات الامتحان، وآساد الغيرة لا تشغلهم المستحسنات والمستقبحات عن بلوغهم إلى معالي الدرجات في رؤية الذات والصفات، ومثالهم كالبحار لا تتغير بالجيف كذلك أحوالهم تجري عليهم أحكام الكونين بنعت المباشرة والمعاملة، ولا تتغير أسرارهم عن شهود الوصال والنظر إلى الجمال.

قال ابن عطاء: هم خزائن الودائع ومواضع الأسرار.

قال النصر آبادي: أسقط عنهم المكون ذكر المكونات، فلا تشغلهم الأسباب عن المسبب بحال.

قال جعفر: هم الرجال من بين الرجال على الحقيقة؛ لأن الله حفظ سرائرهم عن الرجوع إلى ما سواه، وملاحظة غيره فلا تشغلهم تجارات الدنيا ونعمتها وزهراتها والآخرة،

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٣٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٤٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣١٣).

وثوابها عن الله؛ لأنهم في بساتين الأنس، ورياض الذكر، قال الله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٣٧].

قال بعضهم: أسقط الله اسم الرجولية عن الغافل إلا من عامل الله على المشاهدة، ولم يؤثر عليه الأكوان؛ فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

قال بعضهم: من أسقط عن سره ذكر ما لم يكن لكان سمي رجلاً حقيقة، ومن شغله عن ربه من ذلك شيء، فليس هو من الرجال المتحققين.

ثم زاد سبحانه في وصفهم بالخوف الدائم، والوجل القائم من صرف القلوب والأبصار من مشاهدة الجبَّار بقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ يفزعون من يوم الشهود حيث تتقلب القلوب عن مشاهدة صرف القدم في الجنان والأبصار في النظر إلى الحور والغلمان والروح والريحان، وأيضًا يخافون من مقلب القلوب في أنوار الصفات، والأبصار في أنوار الذات لئلا يقف في منازل الشهود ومشاهد الحقيقة، وينقطع عن السير في ألوهية الأولية، والسرمدية الأبدية، بل يطمعون أن يبقوا بحسن المعرفة، وكمال الأدب في زمان العبودية مع مشاهدة الأبد بنعت الدنو، ودنو الدنو، وكشف ما كان مكتومًا عنهم بقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ذلك الرزق كشف جمال القدم بغير حجاب.

قال النصر آبادي: النفوس في التنقيل، والقلوب في التقليب.

وقال الحسين: خلق الله القلوب والأبصار على التقليب، وجعل عليها أغطية وستورًا وأكنةً وأقفالاً، فتهتك الستور بالأنوار، وترفع الحجب بالذكر، وتفتح الأقفال بالقرب.

وقال الحسين: إذا علمت أنه مقلب القلوب والأبصار؛ فليكن شغلك في النظر إلى أفعاله فيك، وتوقى الخلاف والغفلة.

ثم وصف سبحانه أهل الغرة به الذين معولهم على الرسوم، وما عملوا من المعاملات على رؤية النفس والخلق بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ أي: إن الذين نسوا عهد الله الأزلي الذي أوجب عليه فيه الإقبال عليه بالكلية من الكون، وباشروا صورة العمل رياء وسمعة، شبَّه أعمالهم بسراب القيعان؛ لأنهم في الرياء والشرك من أهل الخسران والحرمان، فإذا احتاجوا إلى جزاء الأعمال، وهم في حسبانه لم يجدوا في الحضرة شيئًا من وصول المراد حيث جازى الله أصفياءه بأعمالهم التي وقعت على حسن القبول إذ كانت قيمتها من حسن اليقين والصدق والإخلاص، ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ بنعت الإعراض عنه يجازيهم

بالفرقة، والانقطاع عن المأمول، وهكذا شأن من رجع إلى الخلق، وسكن إلى الأسباب من المسبب.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ قلب ليس فيه شيء من أنوار الله، فقير بما فيه رجوعه إلى الأسباب، والفقير من يكون رجوعه إلى غير الحق، يحسب أن الرجوع إلى غيره يغني، وهو كسراب ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ إذا تبيَّن له أن الرجوع إلى الأسباب شرك يظهر إذ ذاك له أن الرجوع إلى الحق هو الإيمان.

قال الله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: وجد الطريق إليه، وقال أيضًا: كل منا دون الله فهو فقير، وكل قلب فيه محبة ما سوى الله؛ فهو فقير، وفقير عن الحق، وعن معرفته، ويعلم أنه تاه قوم في ميدان الجهد فتخلفوا عن واجبات الحق، وظنوا أنهم يصلون بجهدهم إلى الله، وما وصل أحد إليه إلا من سبق له من الله العناية، والمجتهد في مجاهدته، كما قال الله ﷻ: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه أن هؤلاء المحجوبين عن الله مترددون في ظلمات طبائعهم لم يصحبهم نور العناية، فيبقون في ظلمة عقولهم على ما عملوا لغير وجه الله بقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي: من لم يصحبه نور معرفة الله الذي صدر من كشف مشاهدة الله في بدور روحه إلى منتهى سيره، فما له هناك من نور المعرفة، ونور المشاهدة، ونور الوصال، والعارف الصادق في مشاهدة الحق يحتاج إلى ألف ألف نور في كل لمحة من نور الأزل والأبد ينظر بها إلى جمال القدم، ويعرف بها طرق الصفات، ويرى بها عجائب الذات.

قال القاسم: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا﴾ في وقت القسمة فما له من نور في وقت الخلقة.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ

ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ خاطب الحق سبحانه أهل التوحيد والمعرفة بأنه سبحانه ينشئ في سماء صحو القلب سحائب أنوار فعله على مقادير مشيئته، وقوة حملها واردات الغيوب، ويسريها برياح الكرم، ويجمعها بقوة القدم ثم يجعلها متكاثفات بأثقال أنوار الصفات، وذلك قوله: ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ ثم يُنْـزِل منها قطرات زلال بحر الصفة إلى صحاري القلوب بقوله: ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ﴾ فإذا كَمُل الحال ينكشف جبال أنوار الذات، وينـزل منها برد جواهر حقائق علوم القدم، فيقع على بحار عقول العارفين، ويتلقاها أصدف الأرواح فيربيها في حواصل الأفئدة والأسرار[1].

ثم بيَّن خاصية من سبق له الحسنى في الأزل في وصول تلك الجواهر القدوسية بقوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾.

ثم بيَّن أن سنا بروق تجلي الصفات ليغلب على أبصار الأرواح والقلوب حين عاينت الحق، بقوله: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾.

ثم بيَّن مقام المحو والصحو، والقبض والبسط، وأوقات الاستناد والتجلي بقوله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يقلب ليالي الهجران، ونهار كشف العيان لأهل البيان والامتحان.

ثم بيَّن أن هذه الإشارات لذوي البصائر من العارفين بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: بصيرة ومعرفة، وما بان من فحوى الخطاب من قوله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وحقائق غلبة مشيئة الأزل على كل مشيئة إذ كل مشيئة قائمة بمشيئته، وكل إرادة صدرت من إرادته، فإذا انسلخ الكون وأهله من محل التصرف والإرادة في نفاذ مشيئة تعالى الله من كل كائن يقع بخلاف إرادته.

قال الواسطي: ما خالفه أحد ولا وافقه، وكلهم مستعملون بمشيئته وقدرته أنى يكون

---

(١) (الوَدْقَ) : المطر ، يخرجُ من فُتُوقِهِ ووسطه، وقال القشيري : ترتفع بقدرته بُخَارَاتُ البحر، فيتصعد، بتسييره وتقديره إلى الهواء، وهو السحاب، ثم يديره إلى سَمْتٍ يريد أن ينزل به المطر، ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر، قطرة قطرة، ويكون الماء، حين حصوله في بخارات البحر، غير عذب، فيقلبه عذبًا، ويَسُحُّهُ السحابُ سَكْبًا، فيوصل إلى كلِّ موضع قَدْراً يكون له مُراداً معلومًا ، لا بالجهدِ مِنَ المخلوقين يُمْسَكُ عن المواضع الذي عليه ينزله ، ولا بالحيلة يُسْتَنْزَلُ على المكانِ الذي لا يُمْطِره.

الوفاق والخلاف، وهو يقلب الليل والنهار بما فيهما، وهو قائم على الأشياء بالأشياء في بقائها وفنائها لا يؤنسه وَجْد ولا يوحشه فَقْد، بل لا فقد ولا وجد، إنما هي رسوم تحت رسوم.

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ دعوا إلى مشاهدة الله بنعت المحبة والمعرفة، وعبوديته بنعت الإخلاص، ودعوا إلى رسوله بالمتابعة والموافقة في الشريعة والطريقة، وهنا أثقال من سارت مطيعة روحه بها في بيداء الأزل والأبد بقوة العناية والكفاية، وكيف لا يعرض عنها المعرضون، وليست هذه أحمال مطايا وجودهم المحروم في الأزل عن مشاهدة الأبد.

قال ابن عطاء: الدعوة إلى الله بالحقيقة، والدعوة إلى الرسول بالنصيحة، ومن لم يجب داعي الله كفر، ومن لم يجب داعي الرسول ضل.

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ من يطع الله في بذل وجودهم له، ورسوله بالقبول منه ما أتى به بلغت الحرمة، ﴿ وَيَخْشَ ٱللَّهَ ﴾ عرفه وعلم منه ما له من لطف صحبته وعزيز وصلته بنعت إجلاله وتعظيمه، ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ يتق من فرقته، ومن هجرانه ووصل إلى غفرانه، وعظم في عرفانه، وظفر بإحسانه، عين عاينه بلا كيف، ولا حيث، ولا حجاب، ولا حساب.

وقال الواسطي: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾: في آداب الفرائض، واجتناب المحارم، ويخشى الله على ما مضى من ذنوبه من أن يكون مأخوذًا بها، وما مضى من حسناته ألا يقبل منه، ويتقه أي: ويتق الله فيما بقي من عمره من ردة محبطة وعقوبة محجبة ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي: سبقت لهم السعادة.

﴿قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ إن تطيعوه بالعبودية تهتدوا به إلى أنوار الربوبية، وإن تطيعوه بالمحبة تهتدوا به إلى المشاهدة، وإن تطيعوه بالمعرفة تهتدوا إلى الوصلة، وإن تطيعوا الرسول تهتدوا إلى ما فيه من عجائب المكاشفات والمشاهدات والمعارف والمجاب، وإن تطيعوه بالحرمة والأدب تهتدوا به إلى سني الدرجات ومعالي الكرامات.

قال أبو عثمان: من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة؛ لأن الله يقول: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾.

قال محمد بن الفضل: إن تطيعوه في سنته يوصلكم بركتها إلى حقائق القيام بآداب الفرائض، فتكونوا من المهتدين، من المرافقين بشرط الأدب مع الله، قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾[1] الإشارة فيه أن من

---

(١) قال سعيد بن المُسَيِّب: كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج =

طمسته أنوار سطوات العظمة، فهو من رؤية الكل معذور، ومن كسرت رجل همته أحجار منجنيق الأزل في فقر الديمومية، فهو معذور إذا انقطع عن السير في بيداء الآزال والآباد؛ لأن القدم والبقاء غير محصورين، من أمرضته أسقام المحبة والشوق والعشق والمعرفة؛ فهو معذور عن الاشتغال بكثرة العبادة.

قال جعفر في هذه الآية: كل هذا في القعود عن الجهاد وتركه.

وقال بعضهم: إذا دُعي إلى دعوة أن يدخل معه قائده.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ الإشارة فيه إلى الانبساط إلى الإخوان والأصدقاء الصادقين الذين مصادقتهم لله، وفي الله على استواء السر والعلانية في الإخلاص لله.

قال أبو عثمان: الصديق من لا يخالف باطنه باطنك، كما لا يخالف ظاهره ظاهرك إذ ذاك يكون محل الانبساط إليه مباحًا في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وقوله: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ إذا دخلتم بيوت أولياء الله بالحرمة والاعتقاد الصحيح، فأنتم من أهل كرامة؛ الله فسلموا على أنفسكم بتحية الله؛ فإنها محل كرامة الله في تلك السلعة.

قال جعفر: تحية الله أي: سلامة من المحن والفتن، ومن الشر كله.

=

والمريض وعند أقاربهم، ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم، فكانوا يتحرجون من ذلك، ويقولون: نخشى أن تكون نفوسهم غير طيبة بذلك، فنزلت الآية، رُخْصَةً لهم. وقيل: كانوا يتحرجون من ذلك ويقولون: نخشى أن تكون نفوسهم غير طيبة بذلك، فنزلت الآية رُخْصَةً لهم وقيل: كانوا يتحرجون من الأكل معهم؛ لأن الأعمى لا يبصر الطيب من الطعام، والأعرج لا يستطيع المزاحمة عليه، والمريض لا يستطيع استيفاءه. البحر المديد (٤/٢٦٦).

وقال ابن عطاء: التحية الأمان.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ إشارة الآية إلى المريدين وموافقتهم مشايخهم في جميع الأحوال ألا يستبدوا بآرائهم في أمور الشريعة والطريقة، وألا يخالفوهم بالاستبداد بالخروج من عندهم إلى السفر والحضر والمجاهدة والرياضة.

قال عبد الله الرازي: قال قوم من أصحاب أبي عثمان لأبي عثمان: أوصنا، قال: عليكم بالاجتماع على الدين، وإياكم ومخالفة الأكابر والدخول في شيء من الطاعات إلا بإذنهم ومشورتهم وواسوا المحتاجين بما أمكنكم، فأرجوا ألا يضيع لكم سعي، قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ احترام الرسول من احترام الله، ومعرفته من معرفة الله، والأدب في متابعته من الأدب مع الله.

قال ابن عطاء: لا تخاطبوه مخاطبة، ولا تدعوه بكنيته واسمه واتبعوا آداب الله فيه بدعائه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة هاهنا والله أعلم فتنة صحبة الأضداد والمخالفين والمنكرين، وذلك أن من صاحبهم بسوء ظنه بأولياء الله؛ لأنهم أعداء الله، وأعداء أوليائه يقعون كل وقت في الحق، ويقبحون أحوالهم عند العامة لصرف وجوه الناس إليهم، وهذه الفتنة أعظم الفتن.

قال أبو سعيد الخراز: الفتنة هي إسباغ النعم مع الاستدراج من حيث لا يعلم العبد.

وقال رويم: الفتنة للعوام، والبلاء للخواص.

وقال أبو بكر بن طاهر: الفتنة مأخوذ بها، والبلاء معفو عنه ومثاب عليه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾﴾ ما في السماوات من خزائن قلوب الملائكة، وما في الأرض من خزائن معرفته وجوده في قلوب أهل المحبة يعلم السرائر والضمائر، وما يجري من داء شوقه ومحبته على قلوب المقبلين إليه فيجازيهم يوم كشف المشاهدة، ويخبرهم مما مضى من أيام الفراق، ويعتذر إليهم بحسن الانبساط، ورفع الحجاب أبد الآبدين.

سورة الفرقان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ وصف نفسه بالتنـزيه والتقديس وبركة جمال تجليه الذي آثاره في كل ذرة من العرش إلى الثرى فباركها ببركة جماله فتنمو من أصل مصادرها بقوة قيام الحق عليها بقيوميته، وبقيوميته قامت، ومن صولة عزت تفنى فيه، فلم تزل قائمًا بنفسه، ولا تزال باقيًا بوجوده، وخصَّ حبيبه بإنـزال الفرقان عليه ليفرِّق به بين كل دانٍ وعالٍ، وبين مقامٍ ومقال، وبين حال وإعمال، وبين كشف وخيال فيكون بجمهور السالكين معلمًا عن الحق مخوفًا عن عظمته واستغنائه عن الخلق، وعن قدسه عن إشارات الخلق إليه.

قال بعضهم: أصل البركات كلها ممن يقدر إنـزال مثل هذا القرآن الذي يفرق بين الحق والباطل على أجل عبيده وأولاهم بالبركة وهو محمد ﷺ.

وقال سهل: يريد بالفرقان الفرقان الذي فيه المخرج من كل شبهة.

وقيل: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ أي: على عبده الأخلص، ونبيه الأخص، وحبيبه الأدنى،

وصفيه الأولى ليكون للخلق سراجًا منيرًا.

قال الجنيد: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ كالكناية والكناية كالإشارة والإشارة لا يدركها إلا الأكابر.

وقال بعضهم: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعالى عن إدراك الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ أوجد الكون، وقدّر كل شيء قبل وجوده بما في علمه ومشيئته على قدر مقادير قوة الأشياء حمل أمانات معرفته لا يزيد عن ذلك، ولا ينقص إلى الأبد.

قال الحسين: أول ما خلق الله تعالى ذكره ستة أشياء في ستة وجوه، قدر بذلك تقديرًا الوجه الأول: المشيئة خلقها على النور، ثم خلق النفس ثم الروح ثم الصورة ثم الأحرف ثم الأسماء ثم الكون ثم الطعام ثم الرائحة، ثم خلق الدهر، ثم خلق المقدار، ثم خلق العماء ثم النور، ثم الحركة، ثم السكون، ثم الوجود، ثم العدم، ثم على هذا خلقًا بعد خلق في كل وجه من الستة خلقهم في غامض علمه لا يعلمه إلا هو قدّرهم تقديرًا، وأحصى كل شيء علمًا.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ

لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ تقاصرت أبصارهم عن معاني جوهره الذي هو حامل أثقال أنوار كشف الأزل والأبد، وهو روحه الذي سابق الأشياء بالقدس والأنس، فعاين الحق قبل الخلق، فدخل صورته كمصباح في جوهر زجاجة صافية يضيء، ولو لم تمسسه نار تضيء صورته بضياء الفعل، ويتنور روحه بنور الصفة، ثم صار صورته وروحه قنديل أنوار ذات الحق يتجلى منه للعالمين، فمن خصه الله بالأهلية منه فيراه بنور الحق، ويرى الحق منه؛ فلا يقع نظره إلا على قدس وطهارة.

قال جعفر: عيروا الرسول بالتواضع والانبساط، ولم يعلموا أن ذلك أتم لهيبتهم، وأشد في باب الاحترام لهم، وذلك أنهم لم يشاهدوا منه خصائص الاختصاص ألهاهم ذلك عن قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ... ﴾ الآية.

ثم بيَّن سبحانه أن الأكل والشرب والمشي والسعي في الحوائج لا ينافي النبوة والولاية والاصطفائية الأزلية، وأن جمهور الأنبياء ما خلوا من صفة البشرية إذ البشرية مركب الصورة والصورة مركب القلب، والقلب مركب العقل، والعقل مركب الروح، والروح مركب المعرفة، والمعرفة قوة القدوسية صدرت من كشف عين الحق، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ هذا سنة الله في الخلق والأنبياء والأولياء شاركوهم في البشرية، وفارقوهم في المعرفة والمحبة.

قال جعفر: ذلك أن الله لم يبعث رسولاً إلا أباح ظاهره للخلق بالكون معهم على شرط البشرية، ومنع سره عن ملاحظتهم والاشتغال بهم؛ لأن أسرار الأنبياء في القبضة لا تفارق المشاهدة بحال.

ثم بيَّن سبحانه أن العارف الصادق فتنة للجاهل الغبي، والمحب القريب فتنة للمنكر البغيض بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ الأغنياء فتنة الفقراء فالكل ممتحنون بنكاية قهره ومكره.

ثم استفهم منهم بقوله: ﴿ أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: أتصبرون يا أهل الحقائق في بلائي وامتحاني وأنتم بمرأى مني أجازيكم بمشاهدتي وكشف جمالي؟

قال القاسم: أتصبرون عن نظر بعضكم إلى بعض كأنه أمر بالإعراض عما جعل في نظره فتنة، ويدل عليه قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ (١) [الحجر:٨٨].

وقال الحسين: كسا كل شيء كسوة فانية لا ينفك عنها إلا من عصمة الله، وهو اضطرار في الأحوال لا اختبار في التلذذ بالشواهد والأعراض.

وقال الواسطي: ما أوجد موجودًا إلا لفتنة، وما أفقد مفقود إلا لفتنة، قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ أخبر سبحانه عن العمال، وأعمالهم التي عملوها بالرياء والسمعة، واستحسانهم ذلك من قصور نظرهم عن إدراك تنزيه ساحة كبرياء الحق الذي بوجوده مستغنى عن الكون وأهله؛ فلما استكثروها صارت هباءً منثورًا برياح الشرك والرياء أين هم من خوالص عبودية العارفين حتى تفنى عند ظهور عظمته وجلاله؛ فرفعها الحق عن أعينهم، وبقي في عيونهم أنوار عزته وجلال عظمته.

قال ابن عطاء: أطلعناهم على أعمالهم؛ فطالعوها بعين الرضا فسقطوا عن أعيننا بذلك، وجعلنا أعمالهم هباء منثورًا.

ثم أخبر سبحانه عن مقامات المخلصين في طاعته في جوار جلاله بقول الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ يعني أصحاب جنان المشاهدة في مستقر الوصلة، ومقيل المداناة في ظلال الجمال والجلال أبدًا بلا تحويل ولا تبديل.

قال بعضهم: في دار القرار على ميعاد لقاء الجبار من غير خوف ولا زوال، وأحسن مقيلاً استرواحًا.

---

(١) قال ابن عجيبة: لا تمدن عينيك إلى شهود الحس، ولا إلى ما متعنا به أصنافاً من أهل الحس، الواقفين مع شهود الحس؛ فإن ذلك يحجبك عن شهود المعاني القائمة بالأواني، بل المفنية للأواني عند سطوع المعاني، ولا تحزن عليهم حيث رأيتهم منهمكين في الحس؛ فإن قيام عالم الحكمة لا يكون إلا بوجود أهل الحس، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين بخصوصيتك، البحر المديد (٣/ ٢٤٢).

﴿يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ الخلة والمصادقة إذا كان الله يزيد الشرف والراحة والبسط والقربة في الدنيا والآخرة.

قال أبو حفص: الخلة إذا صحت أورثت صاحبها شفقة على خلانه وطاعة لربه، وإذا لم تصح أورثت صاحبها تحيرًا وتكبرًا على إخوانه، وانهماكًا في معصية ربه.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ يمتحن أولياءه وأنبياءه بأهل السالوس والناموس والمرائين، وحثهم على إيذاء أهله ليظهر شرف اصطفائيتهم، وفضائل عواقبهم، وينصرهم على عدوهم.

ألا ترى كيف قال: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ هداهم إلى نفسه بنفسه، ونصرهم بنفسه على أنفسهم وأعدائهم من شياطين الإنس والجن شاهدهم مشاهدته، وأيدهم بقوة جبروتية لئلا يتلاشوا في سطوات عظمته.

قال أبو بكر بن طاهر: رفعت درجات الأنبياء والأولياء بامتحانهم

بالمخالفين والأعداء.

قال ابن عطاء: هاديًا إلى معرفته، ونصيرًا عند رؤيته لئلا يتلاشى العبد عند المشاهدة.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[1].

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ غير الله سبحانه المتابعين هواهم؛ لأنهم بمعزل من رؤية الألوهية، ومشاهدة الأزلية، استفهم على وجه التعجب من حبيبه بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: اطلعت شموس أنوار الصفات من مشارق الآيات، وأن هؤلاء البطالين بقوا في ظلمات الطبائع.

قال أبو سليمان: من أتبع نفسه هواها؛ فقد شرك في قتلها؛ لأن حياتها بالذكر وموتها وقتلها بالغفلة، وإذا غفل اتبع الشهوات، وإذا ابتع الشهوات صار في حكم الأموات.

ثم خاطب نبيه ﷺ وأعلمه أن أهل الغباوة والجهالة لا يسمعون مقالته بآذان قلوبهم، ولا يعقلون إشاراته بالحقيقة حيث إن أسماعهم وقلوبهم وأبصارهم وعقولهم محجوبة عن مناداة الحق من الغيوب في القلوب، قال الله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾.

قال ابن عطاء: لا تظن أنك تسمع نداءك إنما يسمعهم نداء الأزل؛ فمن لم يسمع نداء الأزل، فإن نداءك له ودعوتك لا تغني عنه شيئًا، وإجابتهم دعوتك هو بركة جواب نداء الأزل ودعوته، فمن غفل أو أعرض، فإنما هو لبعده عن محل الجواب في القدم.

---

(١) اعلم أن الإنسان: إمَّا إنسان حقيقي، وهم الذين لهم قلوب يفقهون بها، ولهم أعين يبصرون بها، ولهم آذان يسمعون بها، فمتعلق فقههم هو العلم الإلهي، ومتعلق أبصارهم آثار الله، ومتعلق أسماعهم كلام الله، سواء كان بطريق الخطاب الغيبي، أو بطريق الخطاب البشري، أو بطريق غيرهما.

وإمَّا إنساني: وهو بعكس مَن ذُكر، وإنما قيل له: إنسان حيواني؛ لأنه إنسان من حيث حيوان من حيث السيرة؛ ولذا شُبه بالأنعام؛ لأن الأنعام لا تتجاوز الحس، والملك إلى عالم المعنى والملكوت، فالإنسان الحيواني: ليس له روح إنساني، وقلب، وسمع، وبصر بحكم غلبة الحيوانية، فمَن قال: إن الروح الإنساني مشترك فيه دون القلب ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] فهو ذهل عن الآية المذكورة، وفرَّق بين القلب والروح؛ بل القلب، والعقل، والروح جوهر واحد في الحقيقة، وإنما الاختلاف بحسب الاعتبارات، فالقلب محل الشهود، والعقل محل الإدراك، والروح محل المعرفة، فإذا كان الإنسان خاليًا عن الشهود، والإدراك الحقيقي، والمعرفة الإلهية كان حيوانًا حكمًا، وإن كان إنسانًا صورة بحكم المرتبة، فالاعتبار ليس بالمرتبة؛ بل بحقائقها، وأحكامها الظاهرة بالفعل، فاعرف جدًّا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [1] الإشارة في الآية أن للعارفين في مقام المراقبة والمحاضرة ثلاث مقامات: مقام كشف أنوار الفعل، وكشف أنوار الصفة وكشف أنوار الذات، فإذا ذهب ظلام ليالي الطبيعة من عالم الغيب، وتلاشى دخان النفس الأمَّارة، وصار سماء الروح، وهواء العقل، وأرض القلب صافية عن عللها، وظلمات هواها، ولم يكن هناك شمس الذات، وأنوار الصفات يمد الحق سبحانه ظلال بهاء فعله في ولاية القلب على مقادير تربية أسراره، فلما قويت الأسرار بظلال فعله يطلع عليها أنوار الصفات؛ فلما قويت بأنوار الصفة يطلع عليها شمس الذات فرباه أولاً في ظل الفعل ثم قوَّاه بنور الصفة.

ثم كشف له جلال الذات حتى صار مكاشفًا مشاهدًا عين الحقيقة، وأصل الأصول، وهناك محل الفناء والبقاء، ومقام الخطاب الصرف، وظهور أسرار الربوبية، فالأول: ظل العناية، والثاني: مقام الولاية، والثالث: مقام المشاهدة التي هي قبلة الكلية لجميع الأنبياء والصديقين والمقربين، ومنتهى مأمول الراغبين، هذه مسالك جميع السالكين، ولسيد العالمين

---

(١) أي: بسطه فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لأنه لا شمس معه وهو أطيب الأزمنة لأن الظلمة الخالصة سبب لنفرة الطبع وانقباض نور البصر وشعاع الشمس مسخن للجو ومفرق لنور الباصرة وليس فيما بين طلوعيهما شيء من هذين. تفسير حقي (٩ / ٢٣٨).

ﷺ في ذلك خاصية لم يكن لأحد فيها نصيب، وذلك أنهم يسلكون من مقام مشاهدة نور الفعل إلى مشاهدة نور الصفة، ثم إلى مشاهدة نور الذات، وهو ﷺ في أول حاله شاهد العين، ثم شاهد الصفة، ثم شاهد الفعل رحمة للعالمين، ولو بقي في مقام الأول لما استمتع به الخلق في متابعته.

ألا ترى إلى قوله سبحانه لحبيبه ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أشهده ذاته، وأبرز له صفاته، ثم أحاله إلى رؤية الفعل بقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ لئلا يفنى في سطوات عظمة ذاته وصفاته، فلما ضاق مكانه في رؤية الفعل، وطالب الأصل، وشقَّ عليه الاحتجاب به عنه كاشف الحق عنه ضرار الفعل، وأبرز له مشاهدة ذاته بقوله: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أي: خفيًّا سريعًا، ولولا فضله ورحمته في قبضه خفيًّا يسيرًا لاحترق الكل في أول بداية طلوع الجمال والجلال على قلوبهم، وهو تعالى خاطب الجمهور برؤية فعله، وخاطب حبيبه برؤية ذاته وصفاته، وهنا كما قال الواسطي: أثبت للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق، وأثبت للخاصة الخالق، فأثبتوا به المخلوق، ومخاطبة العام ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور:٤٣]، و ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية:١٧]، ومخاطبة الخاص ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾.

قال بعضهم: قال لنبينا محمد ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ العصمة قبل أن أرسلك إلى المخلوق، ولو شاء لجعله ساكنًا أي: جعله مهملاً، ولم يفعل، بل جعل الشمس التي طلعت من صدرك دليلاً، ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾، هذا خطاب من أسقط منه الرسوم والوسائط.

قال ابن عطاء: كيف حجب الخلق عنه، ومدَّ عليهم ستور الغفلة وحجبها.

وقال في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾: شموس المعرفة هي دلائل القلب إلى الله، وعن جعفر قال: حجب الخلق عنه.

وقال بعضهم: الظل حجاب بينك وبين الله، ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، وهو نور الهداية بالإشارة ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ وهو جذب القدرة التي يجذبك من الأشياء إليه.

وقال الأستاذ: ظل العناية على أحوال أوليائه، فقوم هم في ظل الحماية، وآخرون في ظل الرعاية، وآخرون في ظل العناية فالفقراء في ظل الكفاية والأغنياء الراحة والحماية، ويقال: أحيا قلبه بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾، ثم أفناه بقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ فكذا سنته

مع عباده يردهم بين إفناء وإبقاء.

ثم منَّ الله علينا براحة الليل وستره بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا ﴾ إذا هجم ظلال الليل على أهل شوقه هاج أسرارهم بنعت الشوق والأنس إلى قربه ووصاله؛ فينكشف لهم أسرار الملك والملكوت، وأنوار العزة والجبروت، وهم يتقلبون فيها بأشكال غريبة، وحركات عجيبة، ومناجاة لطيفة، ومواجيد عظيمة، وعبرات عزيزة، ولولا ستر الليل عليهم لفشا أحوالهم، وانكشف أسرارهم عند الخلق، فإذا كانوا في حالة اليقظة فحالهم الغلبات، فإذا أنسوا بنور الجمال يأخذهم النوم، ويقطعهم عن التهجد، وبرجاء الوجد، فيسكنون في روح الأنس وراحة القدس، وربما يرون المقصود في نومهم كما حكي عن شاه بن شجاع أنه لم ينم ثلاثين سنة، فاتفق أنه نام ليلة فرأى الحق سبحانه في منامه، ثم بعد ذلك يأخذ الوسادة معه، ويضطجع حيث كان، فسئل عن ذلك فأنشأ يقول:

فأحببتُ التَّنعسَ والمناما ... رأيتُ سُرُور قَلبي في منامي

يا فهم لهم في زمان الامتحان ليل الحجاب، وسبات الغفلات، فإذا ذابوا في مقام الفرقة أخذ الله أيديهم بكشف الوصال بقوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ أطلع عليهم بعد ذلك شمس العناية من مشرق الكفاية، نومهم سبب الزلفات، وسباتهم راحة المداناة، وهذا حال أهل النهايات.

لَعَل خَيالاً مِنكِ يَلقى خَيالِيا ... وَإِنّي لَأَستَغشي وَما بِيَ نَعسَةٌ

قال الأستاذ: الليل وقت لسكون قوم، ووقت لانزعاج آخرين؛ فأرباب الغفلة يسكنون في ليلهم، والمحبون يسهرون في ليلهم، وإن كانوا في روح الوصال؛ فلا يأخذهم النوم بكمال أنفسهم، وإن كانوا في ألم الفراق، فلا يأخذهم النوم لكمال قلقهم فالسهر للأحباب صفة أو ما لكمال السرور أو لهجوم الهموم.

ويقال: جعل النوم لقوم من الأحباب وقت التجلي، يريهم ما لا سبيل إليه في اليقظة، فإذا رأوا ربهم في المنام يؤثرون النوم على السهر، وهذا كما أنشد:

ولو لا مكان الطيفِ لم أتهجع ... فلولا رجاء الوصلِ ما عشتُ ساعةً

ثم زاد منته بأن نشق نسائم روح وصاله أهل شوق جماله بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ ﴾ إذا أراد سبحانه كشف لقائه لأرواح العاشقين يرسل رياح الواردات قبل حصول كشف المشاهدات، فيستنشقون منها نسيم الأنس، وهم يعلمون أن ذلك مبشر كشف القدس، والحكمة في ذلك أنه تعالى يكتسر بها قلوب المحبين غبار الحدثان، وهواجس النفس، والشيطان حتى لا يبقى فيها غير جمال الرحمن؛ فإذا رأوا آثار

ملك المبشرات علموا أن ذلك وقت ظهور المقصود وحصول المأمول.

إِذا أقبلتْ مِنْ نحوكم بهبوبِ وإني لأَسْتهدِي الرياحَ نَسيمَكم

قال ابن عطاء: يرسل رياح الندم بين يدي التوبة.

قال أبو بكر بن طاهر: إن الله يرسل إلى القلب ريحًا، فيكفه من المخالفات، وأنواع الكدورات، ويصفيه لقبول الموارد عليه؛ فإذا صادف القلب ذلك الريح فتنسم نسيمها ثم اشتاق إلى الزوائد من فنون الموارد فيكرمه الله بالمعرفة، ويزينه بالإيمان، ألا تراه يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ الاشتياق على قلوب الأحباب فتزعجها عن المساكنات، ويطهرها ما عن كل شيء إلا عن اللوائح؛ فلا تستقر إلا بالكشف والتجلي.

ويقال: إذا انتسمت القلوب نسيم القرب هام في ملكوت الجلال، وأُمحي من كل رسوم ومعهود، ثم زاد المنة سبحانه بذكره وصف مياه الكرم الذي يطهر به قلوب أحباب وجه القدم من لوث غبار العدم بقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ انشأ في الأول سحائب الرحمة، وبشر رياح الزلفة، ثم مطر مطر الخطاب والكلام من بحر الذات والصفات على أرض قلوب أهل المشاهدات، فطهرها عن صفات البشريات وأحياها من موت الغفلات، وأنبت فيها أشجار المعرفة، ورياحين المحبة، وذلك قوله تعالى: ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾، ثم جعل قلوبهم سواقي المعارف والكواشف، فيفيض سقيها إلى الأرواح والأشباح، قال تعالى: ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

قال بعضهم: طهَّر قلوبهم ببركاته عن المخالفات، وطهَّر أبدانهم بظاهر رحمته من جميع الأنجاس.

قال النصر آبادي: هو الرش الذي يرش من مياه المحبة على قلوب العارفين، فيحيي به نفوسهم بإماتة الطبع فيها، ثم يجعل قلبه إمامًا للخلق بفيض بركاته عليهم، فيصيب بركات نور قلبه من كل ذوات الأرواح، قال الله تعالى: ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ... ﴾ الآية.

قال الأستاذ: أنزل من السماء ماء المطر فأحيا به الرياض والغياض، وأنبت به الأزهار والأنوار، وأنزل من السماء ماء الرحمة، فغسل للعصاة ما تلطخوا به من الأوضار، وتدنسوا به من الأوزار، وماء الحياء يطهر قلوب العارفين عن الجنوح إلى المساكنات، وما في بعض الأحوال يتداخلها من الغفلات، وماء الرعاية فيحيي به قلوب المشتاقين مما يتداركها من أنوار التجلي حتى يزول عنها عطش الاشتياق، ويحصل فيها من سكنة الاستقلال، ويحيي به نفوسًا ميتة اتباع الشهوات، فيردها إلى القيام بالعبادات، ثم مرج سبحانه بحر المعرفة، وبحر

النكرة في قلوب العارفين بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ فبحر المعرفة بحر الصفات، وبحر النكرة بحر الذات[1].

ثم وصف البحرين فقال: ﴿ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ فبحر الصفات عذب للعارفين إذ هي فياضة لطائفها إلى الأرواح والقلوب والعقول، وهي أدركت نعوتها وأسماءها بنورها ففهمت وعرفت معارفها وكواشفها على قدر الطاقة لا على الحقيقة، وبحر الذات ملح أجاج إذ امتنع بحار حقائقه عن تناول العقول والقلوب والأرواح والأسرار، فإذا انحسرت هذه السائرات رأت في بيداء الأزل، وانقطعت ساحتها في بحار القدم فصارت نكراتها مهلكها، وبين بحر الصفات والذات برزخ المشيئة والإرادة لا يدخل أهل بحر الصفات بحر الذات، ولا يرجع أهل بحر الذات إلى بحر الصفات.

قال تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: ٢٠]، ولا يختلطان فمياه بحر الروح من بحار مشاهدة الألطاف، ومياه بحر النفس ملح أجاج، وهي من بحار القهريات.

قال ابن عطاء: تلاطمت صفتان فتلاقيتا في قلوب الخلق، فقلوب أهل المعرفة منورة بأنوار الهداية مضيئة بضياء الإقبال، وقلوب أهل النكرة مظلمة بظلمات المخالفات معرضة عن سنن التوفيق، وبينهما قلوب العامة ليس لها علم بما يرد عليها وما يصدر منها، ليس معها خطاب ولا لها جواب.

قال الأستاذ: القلوب بعضها معدن اليقين والعرفان، وبعضها محل الشرك والكفران.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ أخبر سبحانه عن حقيقة التوكل بهذه الآية، والإشارة فيها أن من له ذخيرة عظيمة غير منقطعة؛ فإنه ساكن القلب بها،

---

(١) قال حقي: من مرج الدابة خلاها وأرسلها ترعى ومرج أمرهم اختلط والبحر الماء الكثير عذبا كان أو ملحا عند الأكثر وأصله المكان الواسع الجامع للماء الكثير كما في المفردات. والمعنى خلاهما وأرسلهما في مجاريهما كما يرسل الخيل في المرج متلاصقين بحيث لا يتمازجان ولا يلتبس أحدهما بالآخر ويدل على بعد كل منهما عن الآخر مع شدة التقارب بينهما الإشارة إلى كل منهما بأداة القرب كما يجيء ويجوز أن يكون محمولاً على المقيد. تفسير حقي (٩ / ٢٤٨).

والحدثان بأسرها ليست بذخيرة غير منقطعة؛ فإنها ليست بقائمة بنفسها إنما قيامها بالله، وهو تعالى بذاته وصفاته مستند العارفين إذ عزته وجلاله قديم باقٍ لا يزول فإذا التوكل عليه حقيقة لمن عرفه بهذه الصفة؛ فقطع سر حبيبه عن الخلق جميعًا في أمر العبودية والربوبية والبلاء والعافية، والعيش في الدنيا والآخرة.

ثم أمره بتنزيهه وتقديسه حمدًا لكفايته ورعايته بقوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أولا ينقطع وجود أبد الآبدين، وبيّن أن أكثر خلقه محجوبون عن هذه الحقيقة، والمحجوبون عنها وقعوا في الأسباب، وهو في حقيقة التوكل ذنب الطريقة فخوفهم بها، وقال الله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾.

قال بعضهم: التوكل استيلاء الوجد على الإشارة، وجذب التشرف إلى الإرفاق حتى يبتدئ.

قال الواسطي: من توكل على الله لعلة غير الله، فلم يتوكل على الله، ولما أمر سبحانه حبيبه بالتوكل على نعت الحقيقة، وأخبر فيه عن صفته الخاصة في نفسه من الحياة الأزلية الأبدية، وعن ذاته السرمدي زاد الخبر في إعلامنا قدرته وبقاءه واشتمال قوته على جميع الحوادث وإنشائها بقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ بيّن أن الكون قائم به، وذكر رحمانيته من حيث إنه رحم الخلق بإيجادهم ثم أمر حبيبه أن يسأل في حقيقة هذا الأمر عن جلال عزته، وبقاء ديموميته والمعرفة بذاته، وصفاته عن خبراء عرفانه، وبصراء العلم بجبروته وملكوته بقوله: ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ وهم الذين عرف الله نفسه لأرواحهم في الأول بالأولية والآخرية والقدرة والمشيئة وكمال الرحمة، وهم باقون في الأشباح بنعت الأرواح في عبوديته وعرفان ربوبيته وفي كل لمحة يزيد معرفته بجلاله وقدره.

وقال الحسين: هم الذين أقامهم الله في البلاد أذلة للعباد منهم من يدل على سبيل الحق، ومنهم من يدل على آداب سبيل الحق، ومنهم من يدل على شرائع الإيمان، ومنهم من يدل على الحق، فهو الدليل على الحق؛ لأن الكل محتاجون إليه وهو مستغن عنهم، يرجعون إليه في السؤال، ولا يسأل هو أحدًا كالخضر ونظرائه؛ لأنهم أوتوا العلم اللدني.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا

سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ تقدس بذاته وجلاله عن أن يكون محلاً للأرواح والعقول والأسرار جعل في سماء ذات القدم لأرواح العارفين وأسرار الموحدين، وعقول المقربين، وقلوب الصديقين أبراجًا من أنور صفاته لتسري فيها بنعت المعرفة، وطلب زوائد علوم الربوبية بنجوم الأسرار، وسيارات العقول، وشموس الأرواح، وأقمار القلوب إلى أبد الآباد، لا ينقطع سيرها في سناء الصفات وأنوار الذات؛ لأنها غير متناهية، وأيضًا جعل في سماء القلوب في سائر القلوب بروج المقامات والحالات لشمس الروح وقمر العقل ونجوم الهمم والعزائم.

قال جعفر بن محمد: سمي السماء سماءً لرفعته وللقلب سماء؛ لأنه يسمو بالإيمان والمعرفة بلا حد ولا نهاية، كما أن المعروف لا حد له، كذلك المعرفة لا حد لها وبروج السماء مجاري الشمس والقمر وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وفي القلب بروج، وهي: برج الإيمان والمعرفة والعقل واليقين والإسلام والإحسان والتوكل والخوف والرجاء والمحبة والشوق والوله؛ فهذه اثنا عشر برجًا بها دوام صلاح القلب كما أن الاثنى عشر برجًا من الحمل والثور إلى آخر

العدد وصلاح الدار الفانية وأهلها.

وقال في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ في السماء سراج الشمس ونور القمر وفي القلب سراج الإيمان والإقرار بالوحدانية والفردانية والصمدية، وقمر المعرفة يشرق بأنوار الأزلية والأبدية فيتلألأ نور معرفته وإيمانه على لسانه بالذكر، وعلى عينيه بالعبر، وعلى جوارحه بالطاعة والخدمة، وتلك الأنوار من تمام أولية الله للعبد في الأحوال كلها.

ثم بيّن سبحانه تخالف الليل والنهار لاعتبار العارفين وموعظة المريدين بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ جعل تعاقب ليالي الفترة، وكشوف نهار المشاهدة لزوائد ذكر العارفين وشكر المستأنسين.

قال بعضهم: خليفة يخلف أحدهما صاحبه لمن أراد خدمة ربه أو عبادته.

ثم وصف سبحانه على الوقار من العارفين والمطمئنين من المتمكنين بقوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ وصفهم بالعبودية خاصة، ومن العرش إلى الثرى ملكه وعبيده أراد بأنهم بلغوا ميادين العبودية بأنوار الربوبية فانسلخوا من كل مراد دون وجه حبيبهم فتصح عبوديتهم؛ لانقطاعهم عن غيره، يمشون على الأرض على حد الوقار والهدوء والسكينة إذ على مطايا قلوبهم أثقال أوقار أنوار عظمة الذات وسطوات الصفات.

ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ إذا سمعوا غير ذكر الله الصافي بنعت الإخلاص والمحبة والشوق، يقولون للمتكلفين: ﴿سَلَٰمًا﴾ أي: سلامة من الله علينا من مصاحبتكم ومباشرة تكلفكم.

قال الجنيد: عباد صفة مهملة، وعبادي صفة بالحقيقة، وعباد الرحمن صفة حقيقية بالحقيقة.

قال جعفر: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ بغير فخر ولا رياء ولا خيلاء ولا تبختر بل بتواضع وسكينة ووقار وطمأنينة وحسن خلق وبشر وجه.

كما وصف النبي ﷺ المؤمنين؛ فقال: «هينون لينون كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن أنخته على صخرة استناخ»[1].

وذلك لما طالعوا من تعظيم الحق وهيبته، وشاهدوا من كبريائه وجلاله خشعت لذلك أرواحهم وخضعت نفوسهم وألزمهم ذلك التواضع والتخشع.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٢٧٢)، وابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٣٠).

قال سهل في قوله: ﴿سَلَـٰمًا﴾، قال: صوابًا من القول وسدادًا.

ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ۝﴾ أخبر عن أحوالهم في شهود عظمته، وجلال سلطان كبريائه حين كاشفهم جمال وجهه، فساعة يتمرغون في التراب، ويعفرون وجوههم به؛ لحب عظمته وهيبة بهائه، وساعة يصرعون من صولة أنوار صفاته وبروز جلال ذاته، وساعة في القيام بنعت البهت والحيرة، وساعة في الركوع في رؤية العظمة، وساعة في السجود في مشاهدة دنو الدنو، فهكذا يبيتون عشاقه في حضرته فيولهون من الذوق، ويتحيرون من الشوق، ويتيهون في تيه الكبرياء، ويستأنسون بعروس البقاء:

لِيَ اللَّيلُ هَزَّتنِي إِلَيكِ المَضاجِعُ ... نَهَارِي نَهارُ النَّاسِ حَتَّى إذا بَدا
أُقَضِّي نَهارِي بِالحَدِيثِ وبالمُنَى ... ويَجمَعُنِي وَالهَمَّ بِاللَّيلِ جامِعُ[1]

قال أبو عثمان: أفنوا أوقاتهم في الخدمة تلذذًا بالمناجاة، وتقربًا إليه، وتحننًا إليه، كما قال النبي ﷺ حاكيًا عن ربه: «لا ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه...»[2] الحديث.

ثم وصفهم بالإنفاق بالقصد بغير الإسراف والتقتير بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ الإسراف في النفقة إنفاق في غير مرضاة الله، الإنفاق بالرياء والسمعة والإقتار النجل والإمساك.

قال بعضهم: الإسراف في النفقة تعظيم المنفق نفقته، والإقتار فيه الامتنان به على من ينفق عليه.

وقال ابن عطاء: الإسراف في النفقة إنفاق في غير مرضاة الله، والإقتار الإمساك عن واجب حق الله.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ أي: إلا من انسلخ مما دون الله، ورجع بالله إلى الله، وعرف الله بالله وشرع في خدمة الله بنعت الإخلاص، والصدق في طاعة الله فيبدل الله تقصيرًا توفيرًا أو تحقيره توقيرًا، وغيبه حضورًا، ومعصيته طاعة هذا وصف من قام في حضرة جلاله عند

(١) البيتان من الطويل، وهما لابن الدمينة في «التذكرة الحمدونية» لابن حمدون ص (٣٦٢٦).
(٢) رواه البخاري (٦٠٢١)، وأحمد في مسنده (٦/ ٢٥٦).

شهود جماله بنعت الخجل والحيرة والحياء والفناء؛ فيكون أوزاره أنواره وأنواره أسراره، فإذا كان كذلك؛ فإنه تعالى يتوب عليه بكشف المشاهدة ومداناة الوصلة، وفتح خزائن جود القدم وحقائق ألطاف الكرم بقوله: ﴿فَأُولَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٧].

وقال ﷺ: «من تاب تاب الله عليه»[1].

ثم بيّن أن التائب الصالح العارف الصادق تقع توبته عند مشاهدة الله بقوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

قال ابن عطاء: التوبة الرجوع من كل خلق مذموم والدخول في كل خلق محمود.

وقال طاهر: التوبة أن يتوب من كل شيء سوى الله.

ثم وصفهم بالقدس والطهارة عن شهود قلوبهم مشاهد الرياء والسمعة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ لا يشهدون بقلوبهم وأسرارهم ما دون رؤية القدم؛ فإن ما دون القدم يكون بالمحل كالعدم في العدم بالحقيقة، وكل شيء يكون بنعت العدم فوجوده زور؛ إذ لا حقيقة لوجوده مع وجود الحق الذي لم يزل ولا يزال موجودًا حقيقيًا.

ثم زاد في وصفهم أنهم لم يلتفتوا في مرورهم على أهل الدنيا ومزخرفاتهم إلى دنياهم كرمًا وظرافة بقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾.

قال ابن عطاء: ﴿يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ هو شهادة اللسان من غير مشاهدة القلب.

وقال جعفر: الزور أماني النفس ومتابعة هواها.

قال سهل: الزور مجالس المبتدعين.

قال أبو عثمان فيما سأله عنه أحمد بن حمدان من قوله: ﴿يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال: لا يخالطون المدعين.

ثم زاد في وصفهم بالتنبه والتيقظ والاعتبار والفهم والإدراك في خطاب الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ إذا سمعوا كلام الله وقفوا عليه بنعت التدبر والتفكر فيه والاستكشاف والتبين، فإذا وجدوا حقائق الخطاب أخذوا منه لطائف كنوز علوم الربوبية اللدنية، وشاهدوا جمال الحق في كلام الحق.

قال ابن عطاء: لم ينكروها ولم يعرضوا عنها بل أقبلوا على أوامرها بالسمع والطاعة ونعمة عين.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٢٦)، ومسلم (٤٩٧٤).

ثم أخبر عن مقالتهم عند شهودهم مشاهدته بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ ﴾ أي: اجعل أزواجنا وذرياتنا من أهل معرفتك ومشاهدتك ليكونوا زيادة نور أبصارنا، واجعلهم مطيعين لك ومعاونين لنا في خدمتك.

قال جعفر: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا ﴾ معاونة على طاعتك، ومن أولادنا حتى تقر عيننًا بهم.

ثم وصفهم بزيادة الدعاء على أنفسهم بأن يجعلهم أئمة الهدى، وأن يجعلهم أئمة للمتقين أي: اجعلنا عرفاءك لنكون أئمة للزهَّاد والعبَّاد.

يا فهم، إن العارف واصل مراد يعرف من الله مكان الحقائق، ومثله كمثل عنقاء مغرب، ومثل الزهاد وأهل التقوى كمثل الطيور الصغار المختلفة.

قال أبو عثمان: لا يكون إمامًا في التقوى من لم يصحح تقواه مع ربه، وبقي عليه شيء من ذلك إنما الإمام المقدم في الشيء، وإمام المتقين من يتقي كل شيء سوى الله.

ثم أخبر سبحانه عما يجازيهم بمأمولهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾ يجزون بغرف الوصال كشف أنوار الجمال بما صبروا في شوقه عنه به لا بغيره يسمعون سلام الله وتحيته واعتذاره إليهم، والفرق بين السلام والتحية أن السلام سلامة العارفين في الوصال عن الفرقة، والتحية روح تجلي حياة الحق الأزلي في أرواحهم وأشباحهم، فيحيون بحياته أبد الآبدين ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ دائمين في مشاهدة الله ﴿ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ ﴾ حسنت مستقرًا بهم ومقامًا بهم بحسن جمال الحق.

قال الترمذي: أهل الغرف كائن في أوائل الآية لا في آخرها، وإنما وصف أهل الغرف بما يعقل من ظواهر أمورهم، وإنما نالوها بما في باطنهم، ألا تراه تعالى يقول: ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾، والصبر في الأخلاق والآداب.

قال الواسطي: التحية غير السلام، السلام من عند الله، والتحية صفرة الحياة مع الحق.

وقال أيضًا: التحية من الله إلى الروح كسوة يحيا الروح بحياته؛ فلا يلاحظ غير من حياه وأكرمه وأدناه تحية من عند الله مباركة طيبة.

وقال أيضًا: التحية في الأصل ما يحيا به، فيفرح الروح بذلك، ويأنس به، وقال: التحية في الدنيا على العقول بركات ما يقع عليها من طيب ما أجرى عليها.

وقال بعضهم: التحية أنس الأسرار بالحي، والسلام سلامة القلوب من القطيعة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾: طاب فيها المقام، وحسن فيها القرار.

وقال بعضهم: أحسن المقام، المقام في مشهد الحق، وأطيب القرار، القرار في جواره على فرش مرضاته.

❁❁❁

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ (١) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ (٤) وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ (٥) فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٦)﴾.

﴿طسٓمٓ (١)﴾ «الطاء» طهارة القدم من الحدثان، و«السين» سنا صفاته الذي ينكشف في مرائي البرهان، و«الميم» مجده الذي ظهر بوصف البهاء في قلوب أهل العرفان، طاحت أرواح السابقين في مشاهدة طهارة ذاته، وسكرت قلوب أهل الأسرار في رؤية سنا صفاته، وانمحت عقول المحبين في شهود مجد كبريائه، طابت قلوب الوالهين بطيب وصاله، وسارت عقول الهامين في ميادين أسراره، وطارت أرواح المحبين بأجنحة محبته في جنان مشاهدته فـ«الطاء» طرب المستأنسين في طلبه، و«السين» سرور المحبين بها، وجدوا من أسراره، و«الميم» مهابة العارفين في بسيط ملكه.

قال الجنيد: «الطاء» طرب التائبين في ميدان الرحمة، و«السين» سرور العارفين في ميدان الوصلة، و«الميم» مقام المحبين في ميدان القربة.

وقال بعضهم: «الطاء» شجرة طوبى، و«السين» سدرة المنتهى، و«الميم» محمد ﷺ، وقيل: «الطاء» طرب المشتاقين، و«السين» سرور المحبين بمحبوبهم، والعارفين بمعروفهم، و«الميم» مقام الموافقة.

قال الأستاذ: «الطاء» إشارة إلى طهارة عزة وتقدس علوه، و«السين» دلالة على سنا جبروته، و«الميم» دلالة على مجد جلاله في أزله، ويقال: «الطاء» طرب أرباب الوصلة على بساط القربة بوجدان كمال الروح، و«السين» سرور العارفين بما كوشفوا به من بقاء الأحدية باستظلالهم لوجوده، و«الميم» إشارة إلى موافقتهم لله بترك تخيير على الله، وحسن الرضا باختيار الحق لهم.

ويقال: «الطاء» إشارة إلى طهارة أسرار أهل التوحيد، و«السين» إشارة إلى سلامة

قلبهم عن مساكنة كل مخلوق، و«الميم» إشارة إلى منة الخالق عليهم بذلك(١).

قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾أخبر عن كمال شفقة حبيبه على أمته أنه كان يحب ألا يبقى في الأرض أحدًا إلا يكون لمحبوبة محبًّا خاضعًا ووليًّا صادقًا، وهو تعالى أخبره أن حرصك بإيمانهم لا يمنع سوابق حكمي فيهم، وفيه بيان أن الإيمان والمعرفة موهبة خاصة خارجة عن اكتساب الخلق.

قال سهل: تهلك نفسك باتباع المراد في هدايتهم وإيمانهم، وقد سبق مني الحكم في إيمان المؤمنين وكفر الكافرين فلا تغيير ولا تبديل.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾كما أنبت سبحانه من أرض الظاهر كل صنف ونوع من النبات الحسن الكريم أنبت في أرض قلوب العارفين كل لون من نبات المعارف وأنوار الكشف وأشجار المحبة ورياحين المودة والحكمة.

قال أبو بكر بن طاهر: أكرم زوج من نبات الأرض آدم وحواء؛ فإنهما كانا سببًا في إظهار الرسل والأنبياء والأولياء والعارفين.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ناداه بلسان الوصال وكشف الجمال.

ثم امتحنه بأعظم البلاء، وهو صحبة الأضداد إظهارًا للربوبية، وإيجادًا للعبودية فأشفق موسى على خلقه بأنهم إن كذبوه هلكوا؛ لأنه أخبر عن عظائم المقامات وحقائق

---

(١) الحروف المقطعة في أوائل السور يجمعها قولك: (سرّ حصين قطع كلامه) وأولى ما قال أهل التفسير في حق هذه الحروف الله أعلم بمراده لأنها من الأسرار الغامضة كما قال سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ: «إن لكل كتاب سرًا وسر القرآن في المقطعات».

الحالات بقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ وخوفه كان شفقة عليهم.

قال ابن عطاء: أمره بدعائهم إلى توحيده، وقد أشهده عظمته في القراءة وإحاطة علمه وقدرته بعباده؛ فقال ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ فنطق بخوفه بلسان إعظام الحق وإجلاله؛ خوفًا من أن يرى تكذيبهم بمقال، ورد عليهم من الحق خاف من استماعه إنكارًا وأشفق من مشاهدتهم على ذلك إكبارًا، ولما استطاب موسى مقام المداناة والمناجاة مع الحق سبحانه تعلل بقوله: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى ﴾ أي: ضاق صدري من حمل وارد كشف الألوهية، ومن غاية سكري بشراب المحبة والوصلة، ونظر روحي إلى جمال الديمومية ﴿لا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ ﴾ بإبلاغ الرسالة، ولا يحتمل صدري رحمة رؤيتهم ﴿ وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ بالعبارة عن مقامي بين يديك لهم.

قال الشبلي: كذلك صفة من يحقق في المحبة أن يضيق صدره عن حمل ما فيه من أنواع المحن، ويكل لسانه من الإخبار عن شيء منه لنفرح به؛ فيموت فيها كمدًا أو يعيش فيها فندًا.

ولما طاب وقت موسى في استماعه كلام الحق من الحق بلا واسطة، وحصل له لذة الحضور والمشاهدة ثقل عليه إحكام الرسالة مع الخلق، وإبلاغها إليهم فتعلل بقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾، وليس بعجب طريان خوف الطبيعة وصفات البشرية على الأنبياء في الأصل؛ فالمعرفة ثابت، وهذا شرط الانبساط، والسؤال عن سر القدر هل يكون مقتولاً بيدهم بالحكم السابق، فأخبره الحق سبحانه أن فرعون وقومه من الهالكين لأجل عصيانهم له بقوله: ﴿ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ أي: من كنت معه بالنصر والظفر لا يخذله أحد.

قال أبو بكر بن طاهر: السؤال سؤال الحق تعالى عن علمه فأجابه: ﴿كَلا﴾، ثم بدأ قال: ﴿فَٱذْهَبَا...﴾ الآية، وهو تقدير بسؤاله أي: هل في سبق علمك وواجب حكمك أن يقتلون، يستدل على ذلك بجواب الحق له ﴿كَلا﴾، ثم خاطبه وبعثه بالرسالة، وأمرهما بإظهار الدلالة.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ ظن الملعون أنه ربي موسى، وكان موسى مُربًّى في حجر وصلة الله سبحانه بألبان شفقته، ورعاية حسن عنايته حقيقة، فرجع إلى منة

المجاز، وكان ذلك من غاية جهله، وليته مَنَّ على كليم الله الذي كان مستغرقًا في بحار امتنان الحق وتربيته بألطافه بقوله سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه:٣٩]؛ فيكتفي.

قال محمد بن علي: ليس من الفتوة تذكار الصنائع، وتزداد على من اصطنعت إليه، ألا ترى إلى فرعون لما لم يكن له فتوة كيف ذكر صنيعه، وامتن به على موسى.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ إن الله سبحانه إذا أراد أن يُبلغ أحدًا من خلقه إلى مقام من النبوة والولاية، وهو في موضع شائن يلقي عليه رعبًا حتى يفر إليه من خلقه؛ فيكشف له خصائص أسراره كما فعل لموسى، وكان في الأزل مجتبى بالرسالة والنبوة؛ فالإخبار عنه بقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ أي: من قبح أعمالكم لما خفتكم من نـزول عقوبة الله عليكم، ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ معرفةً بجلاله وعزه، وفهمًا بحقائق ملكه وملكوته، وعلمًا بذاته وصفاته وربوبيته وعبوديته أي: كانت هذه المنـزلة لي بحق الاصطفائية في الأزل، ولكن ظهر عليَّ لطائفها لما فررت منكم إليه.

قال بعضهم: الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين.

قال الله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾.

قال ابن عطاء: فررت من مجاورتكم، وخفت من جرأتكم على ربكم لما لم تحفظوا حقوق الرسل، ولم أر عليكم علامات التوفيق.

وقال بعضهم: فارقتكم لما خفت نـزول العذاب عليكم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ

فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ كان الملعون مشبهًا لذلك قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: شيء هو؟ فوقع في الخيال، فأجابه موسى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: موجد الأشياء بلا كيف، وهو منزه عن التكييف والتصوير، وزاد الحجة عليه من حيث قطع نسبة التشبيه عنه بقوله: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ليس الخالق كالمخلوق أوجدكم وأوجد آباءكم من العدم بقوة القدم، ومن كان قديمًا انقطع عنه إشارات الأوهام والخيال، فلما سمع الملعون حجة كاملة، وعلم أن حجته القطع نسب موسى إلى الجنون لما لم يكن له جواب لموسى، وخاف أن يسقط من أعين قومه.

قال عمرو المكي: علم فرعون أن الحجة قد وجبت فخاف الافتضاح عند قومه، فأعرض عن مساءلة موسى، ورجع إلى قومه، وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

قال موسى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تبين بذلك حجته، وظهر افتضاحه في انقطاعه، فثبت الحجة عليه إذ لم يدفع الحجة بحجة، والإشارة في قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مشرق قلوب العارفين يشرق بطلوع شمس تجلي الصفات والذات، ومغرب نفوسهم التي هي معدن ظلمات قهره حين ابتلاهم بالاستتار بعد التجلي.

قال ابن عطاء: منور قلب أوليائه بالإيمان، ومشرق ظواهرهم به، ومظلم قلوب أعدائه بالكفر والعصيان، ومظهر آثار تلك الظلم على هياكلهم.

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ لما عاينوا مشاهدة الحق سهل عليهم البلاء لا سيما أنهم يطمعون أن يصلوا إليه بنعت الرضا والغفران بقوله: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾ خطاياهم: احتجابهم بالسحر عن رؤية لطائفه التي هي مرآة سر القدم، ولو وجدوا السحر بالحقيقة لم يكن ذلك خطأ، وإنما الخطأ وقع على الاحتجاب به عن الحق.

قال ابن عطاء: من اتصلت مشاهدته بالحقيقة احتمل معها كل وارد يرد عليه من محبوب ومكروه ألا ترى السحرة لما صحت مشاهدتهم كيف قالوا: «لا خير».

﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ احتجب القوم بالبلاء عن رؤية المبلي، وشاهد الكليم مشاهدة الحق في مقام الامتحان؛ لذلك أفرد نفسه من بينهم بقوله: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ أي: إن معي ربي بالرعاية والحفظ والعناية والمشاهدة سيهديني إلى وصاله الأبدي، وذخائر علمه الأزلي، وسر المعية في الحقيقة لا يتجاوز عن رؤية الذات والصفات والعلم والقدرة؛ لأن المعية إشارة المحب إلى المحبوب، ولو كان في محل الوحدة يكون حاله مرتفعًا من محل المعية إلى محل الاتحاد إلا أن في المعية مباشرة التجلي بنعت دنو

الدنو، حيث لا يبقى رسوم البعد والقرب.

قال الجنيد: حين سئل العناية أولاً أم الرعاية؟ قال: العناية قبل الماء والطين.

قال ابن عطاء: في قوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي: معي ربي بعلمه وقدرته سيهديني إلى قربه حتى أكون معه بالمراقبة والرعاية والمحافظة والمشاهدة.

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ رأي الخليل عليه السلام نفسه على مثابة في الخلة بألا يكون في زمانه له نظير يسمع كلامه من حيث حاله، فوقع العداوة بينه وبين الخلق جميعًا، وأيضًا هذا إخبار عن كمال محبته إذ لا يليق بصحبته ومحبته أحد غير الحق.

قال سمنون[1]: لا تصح المحبة لمن لم ينظر إلى الأكوان، وما فيها بعين العداوة حتى يصح له بذلك محبة محبوبه، والرجوع إليه بالانقطاع عما سواه.

ألا ترى الله تعالى حاكيًا عن الخليل قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ هجرت الكل فيك حتى صحَّ لي الاتصال بك.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ الذي خلقني بخلقه فهو يهديني بنفسه إلى نفسه، وعرفني بصفاته ذاته وبذاته صفاته ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩)﴾ يطعمني من موائد كشف جماله، ويسقيني شراب المحبة من بحر جلاله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾ إذا مرضت بداء محبته، وسقمت بسقم شوقي إلى لقائه؛ فهو يشفيني بحسن وصاله وكشف جماله.

وفي لقــــياك عجــــل لي شــــفائي بِمَقْــــدَمِكَ المــــبارَكِ زالَ دائـــــي

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾ الذي يفنيني بسطوات عظمته، ويحييني بروح كشف بقائه.

تُمــــيت بهـــا وتُحيــــي مـــن تـــريد لهـــا في طَـــرفها لحظـــات سِـــحر

---

(١) هو العارف بالله سمنون المحب، ويقال: سمنون المجنون.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٍ فِى ٱلۡأَخِرِينَ (٨٤) وَٱجۡعَلۡنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغۡفِرۡ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخۡزِنِى يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ (٨٧) يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ (٩٥) قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ (٩٦) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ (٩٨) وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (١٠٥) إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِنۡ أَجۡرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلۡمِى بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١١٢) إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوۡ تَشۡعُرُونَ (١١٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ (٨٢)﴾ أطمع أن يغفر لي خطيئتي في طلبي جمال القدم في مرآة الكون بقولي: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيۡفَ تُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠]، وتقصيري في حقائق التوكل بقولي: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، بأن يكشف لي الكشف الأكبر في اليوم الأعظم ﴿رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ (٨٣)﴾ أي: هب لي معرفة كاملة بجلال عزتك، وألهمني غرائب حكمك، وألحقني بمن وحدك وأفردك عن غيرك في تجريد توحيدك من المرسلين والنبيين والعارفين.

﴿وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٍ فِى ٱلۡأَخِرِينَ (٨٤)﴾ أي: اجعلني ممدوح العارفين إلى الأبد، ﴿وَٱجۡعَلۡنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥)﴾ أي: من ورثة جنة مشاهدتك ووصالك، ﴿وَلَا تُخۡزِنِى يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ (٨٧)﴾ أي: لا تحجبني من جمالك وكشف ووصالك، ولا ترد عليَّ شفاعتي في المذنبين، ولا تمنعني من الانبساط بين يديك، ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ يوم لا ينفع الاشتغال بغيرك، بل ينفع من أتاك بقلب

سقيم بمحبتك مملوء من شوقك، محترق بنيران عشقك، خال عن غيرك من العرش إلى الثرى، رفيق بلزوم أنوار كشف جمالك، له لطيف في تقلب ذاتك وصفاتك بنعت المحبة والمعرفة، وأيضًا بقلب طاهر عن الأدناس، وعن الهواجس والوسواس، بيّن سبحانه في هذه الآيات مقام خليله بين يديه من المراتب الشريفة والحالات الرفيعة، الإشارة الأولى بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ إلى محض وحدانية الحق وكمال قدرته الأزلية بنعت نفي الأنداد والأضداد.

وأشار في قوله: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى قطع الأسباب والاكتساب في النبوة والولاية والخلة بالإشارة إلى الاصطفائية السابقة، وأشار في قوله: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ إلى مقام التوكل والرضا والتسليم والتفويض، وقطع الأسباب، والأعمال إليه بالكلية، والإعراض عما سواه، وهكذا الإشارة في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ رفع الرجوع إلى غيره والسكون إلى التداوي والمعالجة بشيء؛ فهو كمال التسليم، وأشار بقوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أنه مشاهد سوابق القدر بنعت الرضا بالحكم والقضاء.

وأشار بقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ إلى مقام حسن اليقين، وحسن الرجاء، وخالص العبودية، وأشار بقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ إلى مقام الإجلال والتعظيم والخوف والخشية والهيبة، وأشار بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ إلى التخلق بخلق الله والاتصاف بصفته إذ لم يكن القلب سليمًا بلا عيب إلا إذا كان متصفًا بطهارة قدس الحق عن النظر إلى الخلق، واستعمل حسن الأدب في كمال خلقه ومعرفته في وصف الحق سبحانه بمكنيات ألفاظ حيث قال: ﴿ٱلَّذِى﴾، وهذا من غلبه حرمة الحق عليه، وتمكينه في الصحو بعد سكره في البداية، وجرأته حين غلب عليه سكر المحبة حيث خاطب الحق بتصريح القول في المواجهة بقوله: ﴿كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، و﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى﴾ [إبراهيم: ٤٠]، و﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٧]، والدليل على ذلك قول الواسطي قال: لما استغرق إبراهيم في الخلة احتشم من ذكر خليله بالتصريح، فرجع إلى الصفات جعل يقول: «الذي»، ولم يصرح بل كنى، والكناية فيها تصريح، ولما كان في ابتداء مقاماته وأوائل جذبه لم يستغرق في الخلة جعل يصرح، ويقول: «ربي» «ربي».

قال بعضهم: الذي خلقني لعبوديته يهديني إلى قربه.

وقال بعضهم: الذي خلقني لدعوة خلقه سيهديني إلى آداب خلته.

قال الأستاذ: أي: يهديني إليَّ فإلي محو في وجودي، فليس لي خير عني.

وقال النهرجوري: الذي يطعمني حلاوة ذكره، ويسقيني كأس محبته.

وقال الجريري: الذي يطعمني في حضرته، ويسقيني هو الذي يظهر عليَّ بركات ذلك المطعم والمشرب، وفي ذلك قال النبي ﷺ: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[١].

وقال ابن عطاء: إذا أمرضني رؤية الأغيار؛ فإن شفائي الرجوع إلى مشاهدة الملك الجبار.

وقال جعفر: إذا مرضت برؤية أفعالي وأحوالي شفاني تذكار الفضل والكرم.

وقال ذو النون: إذا أمرضني مقاساة الخلق شفاني مشاهدة الحق.

وقال ابن عطاء: الذي يميتني عنه ثم يحييني به.

وقال أبو عثمان: يميتني بخوفه، ويحييني برجائه.

وقال الواسطي: الذي يميتني بالاستتار، ويحييني بالتجلي.

وقال الجنيد: الذي يميتني بالافتقار إليه، ثم يحييني بالاستغناء به.

وقال أبو عثمان: أخرج سؤاله على حد الأدب، ولم يحكم على ربه بالمغفرة، ولكنه قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ﴾ طمع العبيد في مواليهم، وإن لم يكونوا يستحقون عليهم شيئًا، إذ العبد لا يستحق على مولاه شيئًا، وما يأتيه يأتيه من فضل مولاه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ أي: شكر ما خصصتني به من مقام الخلد، قال: الراضين عنك في جميع الأحوال، قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ أي: أطلق لسان أمة محمد ﷺ بالثناء عليَّ والشهادة لي فإنك قد جعلتهم شهداء مقبولين.

قال سهل: ارزقني الثناء في جميع الأمم والملل.

وقال في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ لا تقطع حجتي عنه المسألة، ولا تفضحني بالمناقشة، ولا تحشمني بالحياء عنه مواقعة الجزاء.

قال ابن عطاء: لا تشغلني بالخلة عنك، وأفض عليَّ أنوار رحمتك لئلا أغيب عن مشاهدتك برؤية شيء سواك.

وقال في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: قلب خالٍ من الاشتغال بشيء سوى مولاه، سلم له الطريق إليه، ولم يعرج على شيء سواه.

قال الواسطي: سلم من سوء القضاء، وسئل من القلب السليم.

قال: سلم عن الإعراض عن الله.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٧٧)، والترمذي (٣/ ١٤٨)، وأبو داود (٢/ ١٥).

وقال الجنيد: السليم الذي لا يكون فيه إلا حبه.

وقال ابن عطاء: السليم لا يشوبه شيء من آفات الكون.

وسئل بعضهم: بم ينال سلامة الصدر؟ قال: بالوقوف على حد اليقين.

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٤٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٥٩) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ أراد بالمؤمنين المؤثر من الله على من سواه بشرط المحبة والموافقة.

قال ابن عطاء: ما أنا بمعرض عمن أقبل على ربه، قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾.

وأخبر الله سبحانه أن قلب محمد ﷺ محل نـزول الكلام الأزلي؛ لأنه مصفى من جميع

الحدثان بتجلي مشاهدة الرحمن، فكان قلبه ﷺ صدف لآلئ خطاب الحق يسبح في بحار الكرم، فيتلقف كلام الحق من الحق بلا واسطة؛ وذلك سر عجيب، وعلم غريب بأنه سمع كلام الحق، وما اتصل به؛ لأن كلامه لم ينفصل منه، وكيف يفارق الصفات عن الذات لكن بقي في قلبه ظاهره وعلمه وسره؛ فجبريل في البين واسطة لجهة الحرمة، وذكر ذلك بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾؛ لأن القلب معدن الإلهام والوحي والكلام والرعاية والعرفان به يحفظ الكلام، وفائدة ذلك إعلام أن من وجود الإنسان ليس شيء يليق بالخطاب، ونـزول الأنبياء إلا قلبه، فكل قلب مسدود بعوارض البشرية لا يسمع خطاب الحق، ولا يرى جمال الحق.

قال أبو بكر بن طاهر: ما أنـزل على قلبه جبريل جعله محلاً للإنذار لا للتحقيق، والحقيقة هو ما يلقفه من الحق؛ فلم يخبر عنه، ولم يشرف عليه خلق من الجن والإنس والملائكة؛ لأنه ما أطاق ذلك أحد سواه، وما أنـزله جبريل جعله للخلق؛ فقال: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ بما نـزل به جبريل على قلبك لا من المتحققين به؛ فإنك متحقق بما كافحناك به وخاطبناك على مقام لو شاهدك فيه جبريل لاحترق.

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ بيّن سبحانه أن الغفلة والجهلة لا يرون بأبصار قلوبهم أنوار الغيب، وإن تمادوا في حياة طويلة؛ لأنها في غشاوة الضلالة.

قال يحيى بن معاذ: أشد الناس غفلة من اغتر بحياته الفانية، والتذّ بمراداته الواهية، وسكن إلى مألوفاته، والله يقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ وصف أهل الحرمان أن أسماعهم وأبصارهم وعقولهم وقلوبهم في غشاوة الغفلة عن سماع القرآن، والسامع بالحقيقة الذي له سمع خاصة قلبي عقلي غيبي روحي يسمع في كل لمحة من جميع الأصوات والحركات في الأكوان خطاب الحق سبحانه بحيث يصيح سره بنعت الشوق إليه، وهذا وصف أهل السماع

من الواجدين والمتحققين بسماع الخطاب من العارفين، ومن هذا السماع انعزلت أسماع العموم، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

قال ابن عطاء: لا يسمعون ولا يفهمون كما أخبر الله عن قوم أنهم ينظرون ولا يرون، كذلك هؤلاء يسمعون ولا يفهمون؛ لأنهم ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ حرموا فهم معاني السماع.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ بيّن أن حقيقة العامل ما يكون علي الأقرب والمواساة للأبعد؛ لأن الأقرب يكون في منازل المهابة والأمر عليه أشد أي: أخبر الأقربين من عظيم جلالي وعزتي وسطوات كبريائي وعظمتي، فإني أشدد على الأقرب ما أشدد على الأبعد وواس الضعفاء؛ فإنهم لا يحتملون أثقال حقائق الأمور ليحتملوا بك ما يكلفهم، وأيضًا أي: خوِّف أهل العناد وراع أهل المراد، أمر بالتسليط على المنكرين والعاندين، وأمر بالتواضع وخفض الجناح للمتواضعين والعارفين.

قال سهل: خوف الأقرب منك، واخفض جناحك للأبعدين، دلهم علينا بألطف الدلالة، وأخبرهم إلى جواد كريم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾: لـيِّن جانبك؛ فإنهم على حدِّ الترسم بالعبادة لا التحقق بها، والمتوثب على الله أشد من قارئ ألبس قميص النسك.

ثم أعلمه وأمره بالإعراض عن المعاندين بقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ أي: لا تراع قربتهم منك، وراع ما أمرناك، ولا تخف من خذلانهم، وارجع إليّ بنعت تفويض أمرك إليّ فذلك قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ أي: أقبل على العزيز ليعزك على الكل ويرحمك بمواصلتك وكشف اللقاء لك.

قال الحسين بن الفضل: برأ كل نبي عمن عصاه من أمته إلا النبي محمد ﷺ لشرف محله؛ فقال: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أي: إن خالفوك بعد الإقرار بارتكاب محرم؛ فقل: إني بريء من أعمالكم لا بريء منكم؛ فإن لك محل الشفاعة، والشفاعة تزيل عنهم ظلمات المعاصي.

وقال الجنيد: التوكل أن تقبل بالكلية على ربك، وتعرض بالكلية عما دونه؛ فإن إليه حاجتك في الدارين.

ثم بيَّن سبحانه مقام شهود نبيه ﷺ في عين الحق بنعت الرعاية والحفظ، أمره بالتوكل عليه.

ثم اعلم إنك إذا توكلت عليَّ، وفوضت أمرك إليَّ؛ فأنا أربيك بنظر عنايتي ثم أعلمه مقام الإحسان والمراقبة بقوله: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾ أي: توكل على من يراك حين تقوم بنعت الإقبال أي: مشاهدته والإعراض عما دونه.

قال رويم: تقوم إليه بالقعود عن الكل، ثم زاد ذكر إحاطة علمه به فقال الله تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ أي: الذي يراك في القيام بنعت الاستقامة في المشاهدة، وفي السجود بنعت الفناء في العظمة والكبرياء بين أهل شهود عظمتي وأزليتي وأبديتي، وأيضًا الذي يرى روحك في مشاهد عالم الملكوت بين الساجدين من المقربين.

قال الواسطي: إثبات رؤية الكون على الأزل، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾ أثبت للرؤية في الفقد والوجود، وتقلبه في الساجدين في أصلاب الأنبياء والمرسلين[1].

وقال بعضهم: تقلب وصفك على ألسنة الأنبياء والأولياء.

ثم أكمل حقيقة الرعاية بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ يسمع خفيات نداء المشتاقين من قلوبهم عليهم بآلام أرواحهم من داء المحبة فيجازيهم بكشف جماله ولطائف خطابه.

---

(١) في التأويلات النجمية: أي يرى قصدك ونيتك وعزيمتك عند قيامك للأمور كلها وقد اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخلق، فإن من علم أنه بمشهد الحق راعى دقائق حالاته وخفايا أحواله مع الحق وبقوله: (وتقلبك في الساجدين) هون عليه معاناة مشاق العبادات لإخباره برؤيته له ولا مشقة لمن يعلم أنه بمرأى من مولاه ومحبوبه وإن حمل الجبال الرواسي يهون لمن حملها على شعرة من جفن عينه على مشاهدة ربه ، ويقال كنت بمرأى منا حين تقلبك في عالم الأرواح في الساجدين بأن خلقنا روح كل ساجد من روحك أنه هو السميع في الأزل مقالتك «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» لأن أرواحهم خلقت من روحك العليم باستحقاقك لهذه الكرامة انتهى.

قال ابن عطاء: سميع لدعوات عباده عليم بوجود مصالحهم.

وقال جعفر: السميع من يسمع مناجاة الأسرار، والعليم من يعلم إرادات الضمائر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أي: الذين شاهدوا الله بنعت الإيقان والعرفان، وأصلحوا سرائرهم بتقديسها عما دون الله في قربة الله، وذكروا الله كثيرًا أي: سافروا بقلوبهم وأرواحهم وعقولهم في ميادين الآزال والآباد على مراكب الأسرار والأنوار بغير طريان الغفلة وهجوم الفترة، وبفهم الذكر الكثير فناء الذاكر في المذكور بعد أن ينكشف له لوائح أنوار الأزلية والأبدية؛ فهذا غاية المجهود من الذاكرين، وفيه نكتة عجيبة أن الله سبحانه وصفهم بالذكر الكثير، وما أخبر أنهم ذاكرون بالحقيقة؛ لأن حقائق الذكر لا يقع للحدثان في قدم الرحمن؛ لأن الذكر الحقيقي إحاطة ذكر الذاكر بالمذكور، وهو مستحيل في حق الأزل؛ لذلك قال الواسطي: من ذكره افترى، وانتصارهم بعد أن ظلموا انتصارهم من نفوسهم الأمّارة حين جهلوا حقوق الله بالمجاهدات الكثيرة والرياضات.

قال الجنيد: الذكر الكثير هو دوام المراقبة في جميع الأحوال، وطرد الغفلة عن القلب.

وقال أبو يزيد: الذكر الكثير ليس بالعدد، ولكنه بالحضور دون العاهة والغفلة.

قال النصر آبادي: حقيقة الذاكر أن يغيب الذاكر عن ذكره بمشاهدة المذكور ثم تغيب مشاهدته في مشاهدته حتى شاهد حقًّا.

ثم وصف الله سبحانه أهل الدعاوي الباطلة بأنهم يعلمون يوم القيامة منقلب دعواهم في مهوات البعد، بقوله: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ حين عاينوا مقامات أهل الولاية، وانقلبوا إلى معادنهم من الشقاوة.

قال ابن عطاء: سيعلم المعرض عنا ما الذي فاته منا.

قال الواسطي: ظلم نفسه من لا يراها في أسر القدرة، وفي قبضة العزة، فظن أنه مهمل في مصرفاته.

❁❁❁

سورة النمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿ طسٓ ﴾ أي: بحرارة وجود الأنبياء والمرسلين والأولياء والمقربين التي ضياؤها من سنا قدسي، ونضارتها من لطائف أنسي.

وقال بعضهم: بوجود نظري يطيب قلوب أوليائي، وبشهود وجهي يغيب أسرار أصفيائي.

وقال الأستاذ: أي: بطهارة قدسي وسنا عزتي لا أخيب أمل من أمل لطفي.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ كان روحه ﷺ حاضرًا مشاهدًا الكبر في قرب القرب في جميع أنفاسه يسمع من الحق كلام الأزلي على وفاق موارد الشرع والحقيقة بلا واسطة.

ألا ترى كيف قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ يعني: تلقف من الحق كفاحًا.

قال أبو بكر بن طاهر: إنك تتلقف القرآن من الحق حقيقة، وإن كنت تأخذه في الظاهر عن واسطة جبريل، قال الله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ كان موسى في بداية حاله في مقام العشق والمحبة، وكان أكثر أحوال مكاشفًا في مقام التباس؛ فلما حان بدو كشفه جعل سبحانه الشجرة والنار مرآة فعلية، فتجلى بجلاله وجماله من ذاته سبحانه لموسى، وأوقع موسى في رسوم الإنسانية حتى لا يفزع، ويدنى من النار والشجرة.

ثم ناداه منها بعد أن كاشف له مشاهدة جلاله، ولولا ذلك لفني موسى في أول سطوات عظمته وعزته، ومعنى ﴿ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ أنه تعالى وتقدس عن المثال والخيال أراد به نفسه المقدس الذي يزيد بركة مشاهدته لموسى؛ فالنداء منه، وهو كلامه السرمدي

المبارك ذاته وصفاته، ﴿بُورِكَ﴾ قدس عن إشارة كل مشبهي، أشار إليه بالأماكن والجهات هو تعالى تجلى بوصف النار والنور من الشجرة، والطور ذاته وصفاته منـزه عن الجملة، وهو قادر أن يُري نفسه لعاشقه بكل ما يليق بحاله، ولم يتجل له صرفا من عزة ذاته وجلال صفاته لا يحتمل الكون والكائنات بأسرها بل هذا تربية العاشق، ربما يرى نفسه من شجرة، وربما يرى نفسه من الشمس والقمر والكواكب وغيرها من آيات ملكوت السماوات والأرض، لذلك قال إبراهيم: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾ .

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يرى هيئة ذاته كيف شاء»[1].

ويجوز أن تلك البركة تعود إلى موسى من مشاهدة من النار، وفي وكل موضع تظهر بركة كشف مشاهدة الحق يكون مباركًا ذا بركة؛ ألا ترى إلى قول القائل:

إذا نـــزلتْ سَــلمَى بِــوادٍ فماؤُهَــا زُلال وسلــــسال وشـــيخانها وردُ

قال ابن عطاء: أصابتك بركة النار بموارد الأنوار عليك، ومخاطبة الحق إياك؛ فإنك أنست في الظاهر نارًا، وأنست به، وكان في الحقيقة أنوارًا؛ فأزال عنك أنسك بها، وخصك بالأنس بنورها فكلمك وثبتك عند الكلام خصصت بها من بين جميع الرسل.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: لا تخف من الثعبان؛ فإن ما ترى فهو ظهور تجلي عظمتي، ولا يخاف من مشاهدة عظمتي وجلالي في مقام الالتباس المرسلون؛ فإنهم يعلمون أسرار ربوبيتي ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ إلا من وقف منهم في حظ العشق والمحبة؛ فلما احتجب بهما يفزع عند ظهور عظمتي وجلالي، فإنه غير مستأنس بهما، فلما ارتفع ذلك الحجاب عنه، وعلم ما فات عنه ورجع إليَّ من حظه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ بسوء الحجاب، والوقوف بالحظ: ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ ﴿غَفُورٌ﴾ بلا حرم،

---

(١) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

﴿رَّحِيمٌ﴾ بأن أوصله إلى أعلى المقامات من المشاهدة، وتصديق ما ذكرنا ما قال الواسطي: ﴿إِلا مَن ظَلَمَ﴾ برؤية النفس والالتفات إليها.

وقال القاسم: إلا من خاف غيرنا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا﴾ افهم أن العلم علمان علم البيان وعلم العيان، علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية؛ فما ذكر الله سبحانه فيما أعطاهما، فهو من العلمين البياني والعياني، فالعلم البياني معروف بين العموم، والعلم العياني مشهور بين الخصوص لم يطلع عليه إلا ولي أو نبي؛ لأنه صدر من الحق لأهله، شهوده من المحبين والعارفين والموحدين والصديقين والأنبياء والمرسلين، ومن ذلك العلم علم اللدني، والعلم اللدني حقائقه علم المجهول، وعلم المجهول ما يكون صورته بخلاف علم الظاهر مثل صنيع الخضر عند موسى -عليهما السلام- من قتل الغلام وغيره، وهو حلم الأفعال وبطون حقائق المقدرات والأمور الغيبية، وما يتعلق بالملك والملكوت الذي هو المرتبة الأولى من علوم المعارف، والحكم المرتبة الثانية علوم الأسماء والنعوت والصفات مثل ما علمه الله آدم بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، والمرتبة الثالثة العلم بالذات: وهو علم الأسرار وهذه العلوم يجمعها قسمان قسم مستفاد من الخطاب والإلهام والكلام، وقسم يتعلق بكشف الذات والصفات والأفعال، وما أشرنا إلى هذه، وهو صورتها وحقائقها ذوقي كشفي لا يطلع عليها إلا من شاهد الحق بالحق، ويستغرق في بحارها، وعرف أنها غير محصورة للعقول؛ لأنها صفات قديمة لا نهاية لها؛ فلما عظم شأنها حمدا الله بما نالا منه من الله، بقوله: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: خصنا في الأزل بهذه الخاصية من بين عباده تفضلاً، وامتنانا واصطفائية مقدسة في سوابقات حكمه الديمومية عن علل الاكتساب.

قال ابن عطاء: علمًا بربه، وعلمًا بنفسه، وأثبت لهم علمهم بالله علم أنفسهم، أثبت لهم علمهم بأنفسهم حقيقة العلم بالله، لذلك قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1].

ثم بيَّن سبحانه أنهما مخصوصان بما ذكرنا من علوم الحقائق، وكل واحد منهما مخصوص بعلم من الله فورث سليمان علم أبيه الذي علمه الله من علوم الإلهية بقوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ ورث ما عند أبيه من علم العشق والمحبة والشوق وخصائص سره زيادة على ما علمه الله، والولي الصادق العارف يرث من شيوخه علوم الحقائق بعد كونه مستعدًا لذلك، فيصير تلك الحقائق مقاماته إذا كان صادقًا مستقيمًا في الإرادة، لذلك قال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[2].

قال ابن عطاء: ورث منه صدق اللجوء إلى ربه، وتهمة نفسه في جميع الأحوال.

ثم بيَّن سبحانه أن سليمان أخبر الخلق عما وهبه الله من علمه بمناطق الطيور بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾؛ لأن المتمكن إذا بلغ درجة التمكين يجوز له أن يخبر الخلق بما عنده من موهبة الله لزيادة إيمان المؤمنين، والحجة على المنكرين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١]، وافهم أن أصوات الطيور والوحوش وحركات الأكوان جميعًا هي خطابات من الله سبحانه للأنبياء والمرسلين والعارفين والصديقين والمحبين يفهمونها من حيث أحوالهم، ومن حيث مقاماتهم؛ فللأنبياء والمرسلين علم بمناطقها صرفًا قطعيًا، ويمكن أن ذلك يقع لولي، ولكن أكثر فهوم الأولياء بها أنهم يفهمون من أصواتها ما يتعلق بحالهم بما يقع في قلوبهم من إلهام الله لا بأنهم يعرفون لغاتها بعينها، وفي إشارة الحقيقة الطيور الأرواح الناطقة في الأشباح ينطق بالحق من الحق، ونطقها تلفظ رموز الأسرار بلغة الأنوار، ولا يسمعها إلا ذو فراسة صادقة قلبه وعقله شاهدان مشاهدة الحق ولطف الإشارة، علمنا مناطق أطيار الصفات التي تعبر علوم الذات، وأيضًا علمنا منطق أطيار أفعاله التي تخبر عن بطون حكم الأزليات، لذلك قال: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي: أوتينا كل شيء علمًا بالله، وطريقًا إلى الله ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ إخبار عن رؤية المتفضل في فضله غير محجوب بالفضل عن المتفضل.

---

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (١/ ٢٢٥)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٣٤٣).

(٢) رواه البخاري (٦٨)، وابن حبان (١/ ٢٨٩).

قال أبو عثمان المغربي: من صدق مع الله في جميع أحواله فهم عنه كل شيء، وفهم عن كل شيء فيكون له في أصوات الطيور، وصرير الأبواب علمًا بعلمه وبيانًا بتبيينه.

قال الأستاذ: من كان صاحب بصيرة، وحضور قلب بالله يشهد الأشياء كلها بالله، ومن الله ليكون مكاشفًا بها من حيث الفهم؛ فكأنه يسمع من كل شيء، وتعريفات الحق سبحانه للعبد بكل شيء من كل شيء لا نهاية له، وذلك موجود فيهم محكي عنهم، وكما أن صوت الطبل مثلاً دليل يعرفون لسماعه وقت الرحيل والنـزول، فالحق سبحانه يخص أهل الحضور بفنون التعريفات من سماء الأصوات، وشهود أحوال المرئيات في اختلافها كما قيل:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كلِّ شيءٍ له عبرة

وما قاله الأستاذ -رحمة الله عليه- دليل على قول خادمه: نشقني الله ما نشق أولياء وأنبياءه، فقد أشرط أن أصوات الطيور والوحوش وغيرها لا يعرف نعتها ومعينها إلا الأنبياء والأولياء، يعرفون معناها بغير نعتها، وهذا كما قال أهل التفسير في قوله: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ جعل ذلك من الطير كمنطق بني آدم إذ فهمه عنها.

وقال مقاتل: كان سليمان عليه السلام جالسًا إذ مرَّ به طير يصوت، فقال لجلسائه: هل تدرون ما يقول هذا الطائر الذي مرَّ بنا؟ قالوا: أنت أعلم، فقال سليمان: فإنه قال لي: السلام عليك أيها الملك المسلط على بني إسرائيل أعطاك الله سبحانه الكرامة، وأظهرك على عدوك، إني منطلق إلى فروخي، ثم أمر بك الثانية، وأنه سيرجع إلينا الثانية، فانظروا إلى رجوعه، قال: فنظر القوم طويلاً إذ مرَّ بهم؛ فقال: السلام عليك أيها الملك، إن شئت أن تأذن لي كي ما أكسب على فروخي حتى يشبعوا ثم آتيك فافعل ما شئت فأخبرهم سليمان بما قال فأذن له.

وقال فرقد السبخي[1]: مرَّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه، ويميل ذنبه؛ فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ فقالوا: الله ونبيه أعلم، فقال: يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء، فهذا وأمثالها معروف من سليمان ومن نبينا ﷺ، وذلك معجزة فوق الكرامة، ومما خصَّ الله سليمان به العلم بنطق النملة والحشرات؛ ليكون أدق في الفهم وأرق للسمع لكن صورة النملة وحركاتها بغير صوتها من حقائق الأفعاليات، خطاب من الحق للأولياء والصديقين، فلما لطف الأمر بعد قوله﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا﴾ ، وعرف قولها هاج سره إلى مزيد الشكر، وقال:﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ﴾ سأل لسان الشكر من الحق؛ فإنه كان عالمًا بأن شكره لا يمكن إلا به، وقوله:﴿ وَأَنۡ أَعۡمَلَ

(١) فرقد السبخي أبو يعقوب العابد، مات سنة ١٣١ هـ.

صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: أسرع إليك بنعت الشوق إلى لقائك، واترك ما دونك لك ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: اجعلني مستأنسًا للعارفين، ومحبوبًا للمحبين، وفهم قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ إن ضحك سليمان كان ظاهره تعجبًا من قول النملة، وباطنه فرحًا بما أعطاه الله من فهم كلام النملة.

قال الجنيد: قال سليمان لعظيم النمل: لم قلت للنمل: ادخلوا مساكنكم أخفت عليهن مني ظلمًا، قال: لا، ولكن خشيت أن يفتنوا بما يرون من ملكك؛ فيشغلهم ذلك عن طاعة ربهم.

وقال ابن عطاء: في قوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي﴾: حببني إلى عبادك الصالحين.

قال سهل: ارزقني خدمة أوليائك لأكون في جملتهم، وإن لم أصل إلى مقامهم.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ دقيقة الإشارة أن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه، فتفقده ساعة، وكان قلبه غائبًا في غيب الحق، مشغولاً بالمذكور عن الذكر فتفقده وما وجده، فتعجب من شأنه أين قلبه إن لم يكن معه؟! وما كان في الكونين، فظن أنه غائب عن الحق، وكان في الحق غائبًا، وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم، وهذا من كمال استغراقهم في الله فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية والغيبة في بحر النكرة في المعرفة ليفنى، ثم يفنى عن الفناء أو أذبحته بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنور أسرار

الأزل، وعلى صورة الظاهر نكتتها أن سليمان أحب الهدهد؛ لأنه رأى ذلك الهدهد في مكان العشق، ورأى عليه آثار العشق؛ فاستأنس به، وكان للهدهد خاصية أنه عرف مواقيت صلاته، ورأى الماء بين الطين والحجر، وكان يدل الجن على الماء لوضوئه وطهارته حيث نـزل، وكان بين هدهد سليمان، وهدهد بلقيس عشق، فغاب عن سليمان عند نـزوله، وتلاقيا الهدهدان؛ فلما تفقده علم أنه عند معشوقه، فغار عليه إذ اشتغل بغيره من خدمته فطلبه، وأمر العقاب أن يأتي به فطار العقاب، ورأى هدهد سليمان عند هدهد بلد سبأ، فأتى به على سليمان ﷺ؛ فقال: لأعذبنه عذابًا شديدًا، أي: لأحبسنه في موقع فراقه عن معشوقه، فلما جاء إليه الهدهد تحير في شأنه إيش يقول: فعلم أن سليمان في مقام أنس الله وعشقه، ويحب أن يستأنس بمستحسن فاحتال بأن يذكر عند سليمان ما رأى من حسن بلقيس وعظيم شأنها ليكون ذلك طريقًا له إلى قرب محبوبه، فلما مهد ذلك مع نفسه تعظم في شأنه، واجترأ من حيث جرأة العشيق ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ فلما قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ تعجب سليمان ثم أسرع في قوله: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾ فلما سمع سليمان قوله وجرأته عنده، علم أنه تكلم من رأس العشق، ويجلب قوله عجائب، فلما أخبر تمام الحكاية سكن سليمان عنه، واشتغل بإتيان بلقيس، وجعله رسولاً بينه وبين بلقيس، وما أطيب رسول العاشق والمعشوق، إذ كان عاشقًا، انظر إلى ظرافة الهدهد، ولطافة كلامه عند سليمان كيف ذكر ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ﴾ مرتين ساير ما رأى من الملك والبلاد والعساكر.

ثم ذكر محاسنها بألطف الإشارة بقوله: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وما ذكر وصف جمالها بالتصريح؛ لأنه علم أن ذلك من سوء الأدب، ولا تعجب ذلك؛ فإن الأنبياء والأولياء إذا استأنسوا بعالم الملكوت، لم يصيروا من رؤية المستحسنات، ألا ترى كيف كان سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه يحب الوجه الحسن، ومن فرط حب الله، قال: «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث الطيب والنساء»[1].

وحاشا أنهم يلتفتون إلى شيء لا يكون وسيلة إلى الله، وأحسن وسيلة إلى الله عند العارف الفعلي الوجه الحسن، والصوت الحسن، والطيب، ورؤية كل مستحسن في العالم من الأرواح والأشباح والجواهر والأعراض؛ لأن حسنها صدر من معدن حسن الأزل، ولذلك قال ﷺ برؤية الحُسن: «إن أحسن الحسن الوجه الحسن، والصوت الحسن،

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٦/ ١٣١)، والنسائي (١٢/ ٢٨٨).

والخلق الحسن»[1].

وقال ذو النون: من استأنس بالله استأنس بكل شيء مليح، ووجه صبيح، وبكل صوت طيب، وبكل رائحة طيبة.

قال الجنيد في قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾: لأفرقن بينه وبين إلفه.

وقال جعفر: لأبتليه بشتات السر.

وقال جعفر الخلدي: لألزمته صحبة الأضداد، فإن ذلك من أشد العذاب.

قال بعضهم: لأبعدنه من مجالس الذاكرين.

جئنا إلى قصة العشق في إشارة قوله سبحانه حاكيًا عن قول الهدهد: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الإشارة فيه أن القوم وقعوا في بحر عشقها فخدموها بالعشق، وهي كانت تحب وجهها، فهم بالحقيقة يسجدون لشمس الحسن، ثم هاج سر الهدهد بنعت غيرة التوحيد إلى إفراد القدم عن الحدوث؛ فقال: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ هذا التوحيد ذكر الهدهد؛ لأنه علم أن حال سليمان بداية العشق، ونهاية التوحيد، فذكر ما وافق حاله أنه ﷺ إذا شغله الصافنات الجياد، قال: ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝٣٣ ﴾ [ص: ٣٢، ٣٣].

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ ﴾ حكى الله سبحانه عن قول بلقيس حين أُلقي إليها الكتاب أن ذلك الكتاب كتاب كريم، وذلك أنها استنشقت منه رائحة المحبة، لذلك قالت: إنه كتاب كريم، وكان الكتاب مختومًا بخاتم الملك فألهمها الله منقوش الخاتم الذي هو اسم الله الأعظم.

---

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤١٧)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٦١) بنحوه.

قالت: إنه كتاب كريم، وأيضًا لما قرأت: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عرفت أنه كلام الله، ولا يشبه كلام الخلق، وقالت: كتاب كريم؛ فانبسطت من باء ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ إشارة بدء القدم والبقاء اللذين هما أصل جميع الصفات القديمة القائمة بذات الحق سبحانه من عرفه بالقدم والبقاء فقد عرفه بجميع الذات والصفات، وتلك المعرفة لا تكون إلا لمن شاهد مشاهدة الأزل والأبد، وعرفت من السين إشارة سنا الحق وأسراره، ومن الميم ملكه ومحبته، وإشارة الهيمنة المشاهدة المحيطة بكل ذرة من العرش إلى الثرى من حروف الله إشارة عين الذات الواحد الفرد من الألف، ومن اللامين الجلال والجمال، ومن إلهام الهوية، وغيوبات الغيب، ووجدت في الكلمة وجوب العبودية للربوبية ليصل برحمة الرحمانية العامة في الدنيا والآخرة ورحمة الرحيمية الخاصة في الآخرة لأهل الخصوص، وعلمت أنها بجميعها مقام الاتصاف من اتصف بها سهل عنده بتلفظها مراد أراده من معنى الإجابة القدرة بالأشياء بالآيات والكرامات.

قال الواسطي في قوله: ﴿كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾: مختوم مزين بزينته، وقيل: كرامة الكتاب ابتداؤه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقيل: كرامته عنوانه.

وقال الحسين في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: قولك منك بمنزلة «كن» منه، وإذا أحسنت أن تقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تحققت الأشياء بقولك: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ كما تحقق بقوله: «كن»، وقيل في قوله: ﴿كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾: لأن الرسول كان طيرًا، فعلمت أن من يكون الطير مسخرة له [فهو] عظيم الشأن.

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ لما وجدت في الكتاب تلك الكرامات، عرفت عظم شأن سليمان وجلاله، وما عليه من أنوار الحسن والجمال، فمال قلبها

إلى العشق والمحبة؛ فأرادت ألا تكون مخذولة حين دخل في بلدها سليمان، ولا تتأذى بنفسه في محبته، فإن العاشق لا يريد إيذاء معشوقه، ومن إشارة المعرفة إذا دخل سلطان الوجد والمحبة والمعرفة، والمشاهدة في قلوب العارفين، أغار ما دون الله من العرش إلى الثرى، ولا يبقى فيها إلا نور بلا ظلمة وصفاء بلا كدورة، وجمع بلا تفرقة، وذكر بلا فترة، وعشق بلا شهوة، وصدق بلا غفلة، ويقين بلا شك، وإخلاص بلا رياء، ويصير أوصاف النفس الأمارة محمودة، وصارت أبواب القلوب على الشياطين مسدودة، ويكون الروح مشاهد الحق بلا حجاب.

قال جعفر الصادق: أشار إلى قلوب المؤمنين أن المعرفة إذا دخلت القلوب زال عنها الأماني والمرادات أجمع؛ فلا يكون للقلب محل لغير الله.

قال ابن عطاء: إذا ظهر سلطان الحق، وتعظيمه في القلب تلاشى الغفلات، واستولى عليها الهيبة والإجلال، ولا يبقى فيه تعظيم شيء سوى الحق، فلا يشتغل جوارحه إلا بطاعته، ولسانه إلا بذكره، وقلبه إلا بالإقبال عليه.

وسئل أبو يزيد البسطامي عن نعت العارف[1]! فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾.

قال الواسطي في قوله: ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ أي: عطلوها عما سواه، ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ كل ما كان أعز في عينه وقلبه صار ذليلاً طريدًا عن قلبه، وحق لهم ذلك، وقد غيبهم الحال عن كل وارد في الحال؛ فأسرارهم عن سرهم نافذة، وأماكنهم عن مكانهم غائبة؛ لأن الحق لاحظهم بعناية القدرة، واشتمال التولي والنصرة؛ فحمل عنهم ما حملهم من أثقال هداية وولاية.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ۝٤٣ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ

---

(١) وفي رواية «المعرفة»، كما في كتابنا: «سلطان العارفين» (ص٢٢٢)..

عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ الإشارة في قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ الهاء راجع إلى العرش لا إلى الله، وكأن القائل به في درجة الاتحاد والأنائية والاتصاف وعين الجمع وجمع الجمع؛ لأن المتصف بالقدرة يجري عليه تصاريف الملك بغير رجوعه إلى الله بنعت العبودية والخضوع والدعاء كصنيع من كان في محل العبودية؛ لأن من شاهد الربوبية يجري عليه أوصاف الربوبية بغير اختياره وتكليفه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فإذا سأل فأجيبه، ويحصل مراده بالدعاء، فهو في درجة الكرامات لا في درجة الاتحاد والاتصاف، ووصف الله «آصف» بأنه كان عالمًا بالكتاب، والإشارة فيه أنه كان عالمًا بعلوم الظاهر، وعالمًا بعلوم الباطن، وعرف معاني الاسم الأعظم في الكتاب الذي أنـزل الله على موسى وهارون وإبراهيم وداود وسليمان، وأدق الإشارة فيه أن ما كان عنده من علم الكتاب ما كان يطلع عليه من علم أسرار الله المكتوم في ألواح النور، وذلك العلم كان مكاشفًا لقلبه بنعت السرمدية، لذلك قال: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، قوله: ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أيضًا فيه إشارة عين الجمع؛ لأن ما كان عنده؛ فهو عند الله، فإذا قال الله: ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ والانبساط منه إليه، وهو أشرف في الفضل، وفيه جواز الكرامات للأولياء في زمان الأنبياء، والعلم بالاسم الأعظم.

قال النبي ﷺ: «إن الاسم الأعظم الذي دعا آصف يا حي يا قيوم»[1].

قال بعضهم: هو آصف، نظر إلى عين الجمع، وتكلم عن عين حقيقة جمع الجمع؛ فقال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾، والهاء راجع إلى الحق أي: بالله وعونه ونصرته، وقيل: على لسان

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٩/ ١٦٣).

الجمع أيضًا ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ أي: الله يأتيك به كأنه يقول: إن الله قادر على أن يأتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك.

قال بعضهم في قوله: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: له نظر في الغيب، وعلم بمجاري الغيوب؛ فعلم أن الله يريد أن يأتي سليمان بذلك؛ فأخبر عن حقيقة الغيب.

ثم أخبر سبحانه عن رؤية سليمان فضله، والثناء عليه، والشكر له خاصة مفردًا عن النظر إلى الأغيار ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ في قوله هذا من فضل ربي غيرة سليمان على آصف، ودفع النظر عن الوسائط، وهذا أيضًا من غيرة التوحيد، فأشار بهذا اللفظ أن آصف وصنيعه عامل من عمل حضرته خلقه الله لنصرته ونفاذ مراده.

قال أبو حفص: من رأى فضل الله عليه أرجو ألا يهلك، قوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ فيه بيان أن شكر الشاكرين منصرف عن المشكور الأزلي إليهم لا إلى الحق؛ فإنه تعالى منـزه عن شكر الشاكرين، وصبر الصابرين، ومعرفة العارفين، وطاعة المطيعين، وإسلام المسلمين، وكفر الكافرين بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝﴾، واستعمال لفظ الكرم، والغنى هاهنا من إشارة علم المجهول إذ استغنى الحق بجلال عزته عن كفر الكافر، وإسلام المسلم؛ فقد أسقط الكل عن شرائع الربوبية ومشاهد القدسية وبقي الحق للحق منفردًا بنفسه، مستغنيًا عن غيره، وإذا كان الأمر كذلك؛ فهو كريم يتفضل على الجميع، ويؤديهم إلى ساعة غنى بقائه وقدمه، إذ لا يضر به كفر الكافر، ولا ينفع به إيمان المؤمن؛ فإذا اشتمل بغناه، وكرمه من العرش إلى الثرى، ولا يعاقب أحدًا من حيث استغنائه وكرمه.

قال الجنيد: الشكر فيه علة؛ لأنه يطلب لنفسه المزيد، وهو واقف مع ربه على حظ نفسه، قال الله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: طالبًا للمزيد.

وقال الواسطي: في الشكر إبطال رؤية الفضل، كيف يوازي شكر الشاكرين فضله، وفضله قديم، وشكرهم محدث، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأنه غني عنه، وعن شكره.

وقال الشبلي: الشكر هو الخمود تحت رؤية المنة.

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝﴾.

امتناع سر الأزلية عن مطالعة الخليقة؛ فإذا كان كذلك من ينجو من مكره، والحدث لا

يطلع على سوابق علمه في القدم، فمكره وقهره صفتان من صفاته لا يفارقان من ذاته أبدًا، قد أمر العارف قبل وجود العارف، ولا يعرفه منه إلا ما أراد منه، فكلما بقي عنه مستورًا، وهو لا يعرف شأنه حتى وقع عليه؛ فهو مكر، ومن يخلو عن مكره نفسًا، وأن قهره مباشر وجوده بنعت الإحاطة، وحقائقه مندرجة تحت غيوب خواطر القلوب، وهي أخفى من دبيب النمل، ولا يعرفها إلا المرادون الواصلون المحفوظون برعاية الأزل والأبد.

قال جعفر الصادق: مكر الله أخفى من دبيب النمل على صخرة سوداء في ظلمة ظلماء.

قال النوري: المعصية لا تخلو من الخذلان، والطاعة لا تخلو من المكر.

وقال الشبلي: اخترنا طريقة التصوف؛ سلامة من مكر الله، فإذا كله مكر.

وقال النوري: المكر لا يعرفه إلا الواصلون، فأما المريد فإنه لا يعلم ذلك؛ لأنه في حرقة.

قال ابن عطاء: ما كان منه في القرب؛ فهو مكر، وما كان منه في البعد؛ فهو حجاب.

وقال الشبلي: المكر نعم الظاهر، والاستدراج نعم الباطن.

وقال الجنيد: المكر هم المشي على الماء، والمشي في الهواء، وصدق الوهم، وصحة الإشارة، وإجابة الدعاء في كل هذا مكر لمن علم.

وقال النوري: لولا المكر لما طاب عيش الأولياء.

وقال بعضهم: في طريق الله ألف قاطع من قطاع الطريق، وألف خادع وماكر موكل بالمريد السالك، ولكل موكل غدر، ومكر وخداع خلاف الآخر؛ فإذا حاك السالك غدر الموكل معه بشيء يعطيه يمنعه عن قصده وإرادته، ويحجبه عن مولاه.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ .

قوله تعالى:﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ بيوت أسرارهم خربت بمباشرة شهوات الطبيعة، ومتابعة النفس الأمّارة.

قال أبو عثمان: قلوبهم قاسية بها عصوا.

وقال سهل: الإشارة في البيوت إلى القلوب؛ فمنها عامرة بالذكر، ومنها خراب بالغفلة، ومن أهمه الذكر؛ فقد خلَّصه من الظلم(١).

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أعظم الحمد علم الحامد بعجزه عن حمد الحق.

قال: فإن حمد الحامدين عند حمده مصروف عليهم؛ لأنه سابق بحمده في الأزل إظهارًا لاستغنائه عن حمد الحامدين، وقد وجب الحمد عند كل نعمة، وأعظم النعمة ذهاب النفس الأمَّارة من قلب العارف؛ لأنها أعظم الحجاب بينه، وبين الحق وأهل هذا الحمد الذين اصطفاهم الله لمشاهدته في الأزل، ووصاله إلى الأبد؛ فسلامه عليهم من سوابق نعمة الأزلية المقرونة باصطفائيتهم فالسلام والاصطفائية أزليتان وأبديتان.

قال الحسين: ما من نعمة إلا الحمد أفضل منها، والحميد النبي ﷺ، والمحمود الله، والحامد العبد، والحمد حاله الذي يوصل بالمزيد.

قال ابن عطاء: من سلم الله عليه في أزله سلم من المكاره في أبده.

قال جعفر بن محمد: سبحان من اصطفاهم لمعرفته، وسلَّم عليهم قبل المعرفة.

وقال الواسطي: لم يجعل الحق وسيلة إلى نفسه غير نفسه، ولا اختصاصًا غير ذاته؛ إذ يقول: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فلم يجعل هاهنا اسم نعت، وجعل اسم حقيقة؛ لأن الهاء تخبر عن حقيقة الذات لا غير.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ

---

(١) وفي قوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل:٥٧]. أي: المرآة التي هي صورة الدنيا إجمالاً، كما أن آدم إجمال العالم؛ لكن لَّما كانت الشهوات والزين من الأمور السالفة الدنيَّة؛ قيل للمرأة: صورة الدنيا بإضافة الصورة إلى الدنيا، ولَّما كانت المعالم والشواهد من الأمور العالية الشريفة؛ قيل أن آدم صورة العالم؛ لأن أصل العالم علم، ثم أدخل ألف الإشباع؛ وهو علم لوجود الله تعالى على أن العالم أعم من الدنيا؛ لأن الدنيا؛ إنما هي عالم الكون والفساد الذي مبدؤه مقعر السماء السابعة، ومنتهاه نهاية الأرضين.

يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ خلق سماوات الأرواح، وأرض القلوب ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي: مياه المعرفة من بحر الاصطفائية، ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أنبتنا به بساتين المحبة المنورة بنور المشاهدة.

قال ابن عطاء: إذا بهج السر بما ظهر على قلب العبد من الرب، والبهجة نور يظهر، فلا يبقى معها شيء من الظلمة لا ظلمة الجهل، ولا ظلمة الريب والشك، ولا اشتغال بشيء آخر، وعلامته السكون بالله، والانقطاع إلى الله، والاعتماد عليه.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ جعل قرار أرض القلوب بأنوار الغيوب لنوازل واردات المشاهدات، وكشف القربات، ولسكون الأرواح الملكوتية فيها ﴿ وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا ﴾ أجرى في خلال عقولها أنهار أنوار معرفته لإنبات زواهرات المحبة والمودة والزلفة ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾ رواسي تلك القلوب غلبات استيلاء استواء أنوار شهود جلاله على دوام الأنفاس، وقوله: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ جعل بين بحر مشاهدته القديمة بحر الأرواح المقدسة حواجز الإرادة، وبرزخ امتناع ذات القديم الأزلي عن النماذج بالحدوثية.

وقال جعفر: من جعل قلوب أوليائه مستقر معرفته، وجعل فيها أنهار الزوائد من بره في كل نفس، وأثبتها بحبال التوكل، وزيّنها بأنوار الإخلاص واليقين والمحبة، وجعل بينهما حاجزًا، أي: بين القلب والنفس لئلا يغلب عليه النفس ظلمانها فيظلمها، فجعل بينهما التوفيق والعقل.

قال الأستاذ: نفوس العابدين قرار طاعتهم، وقلوب العارفين قرار معرفتهم، وأرواح الواجدين قرار محبتهم، وأسرار الموحدين قرار مشاهدتهم، وفي أسرارهم أنوار الوصلة، وعيون القربة بها يسكن ظمأ اشتياقهم، وهيجان قلقهم، واحتراقهم، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾ من الخوف والرجاء والرغبة والرهبة.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطر مستغرق في بحار شوقه، متحير في أودية النكرة، دهش في ميادين المعرفة، واله في سراب الحيرة، يريد أن يفنى في الحق، ويغلب عليه محبة الوصال، وعشق الجمال، والأنس بالجلال، غائب عن الخليقة، واله بكشف الحقيقة، مجاب الدعوة بكشف الوصلة، يريد عشقه بعد معرفة جماله وجلاله، وعشقه بوصاله بنعت الافتقار إلى نوال دنوه، يرى بحار مشاهدته، وهو عطشان إلى قطرة منها، ويقول بوصف الاضطرار:

لَإِن كـانَ يُهـدى بَـردَ أَنـيابِها العُـلا لِأَفقَـرَ مِنّـي إِنَّنـي لَفَقـيرُ

وهذا الفقير بكرمه لمخلص من نفسه وجود الحدثان وجميع الحجاب والفراق وآلام البعد، ألا ترى كيف قال سبحانه: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾.

قال سهل: المضطر هو المتبرئ من الحول والقوة والأسباب المذمومة.

قال ابن عطاء: أحوال المضطر أن يكون كالغريق أو كالمتعطل في مفازة قد أشرف على الهلاك.

قال عمرو المكي: أوجب الله على الداعين له بصفة خصوص الإجابة، وهو المضطر.

قال الله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

وقال الحسين: من شاهد اضطراره؛ فليس بمضطر حتى يضطر في اضطراره عن مشاهدة اضطراره بمشاهدة من إليه اضطراره.

وقال الأستاذ: فصل بين الإجابة، وكشف السوء؛ فالإجابة بالقبول والكشف بالطول، الإجابة بالكلام، والكشف بالإنعام، ودعاء المضطر لا حجاب له، ودعاء المظلوم لا رد له، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، ومعنى قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ هذا وصف التمكين بعد التلوين، والتجلي بعد الاستتار، والحضور بعد الغيبة، والغنى بعد الفقر، والكشف بعد الحجاب، والوصال بعد الفراق، والوصلة بعد الحيرة، يجعل العارفين ملوكًا بعد كونهم مكدين على باب جلاله، مفتقرين إلى وصاله بكشف جماله، فإذا كانوا مستقرين على مساند الوصال في مجالس الجمال سكارى من شراب المؤانسة بين ياسمين القربة لا يذكرون أيام الفراق بعد الوصال كما قال القائل:

كـأَنَّ الفَتَـى لَمْ يَعْـرَ يـومًا إذا اكْتَـسَى ولم يَـكُ صُعْلُوكًا إذا مـا تَمَـوَّلا

قال الأستاذ: كما وعد للمضطر الإجابة، وكشف السوء، وعده أن يجعله من خلفاء الأرض ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦].

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يهدي العارفين بنور نوره إلى نور نوره حين غلب عليهم ظلمات النكرة بوسائل بحر الأفعال وبرها: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ يرسل رياح الكشف بين يدي نزول مطر بحال قربه ووصاله.

قال بعضهم: من يدلكم على عدو نفوسكم، وفساد طباعكم، ويزيل عنكم وساوس قلوبكم، ويعينكم على استقامتها إلا الله، ومن يرسل رياح فضله بين يدي أنوار معرفته إلا الله، وهل يقدر عليه أحد سواه.

قال بعضهم: من يرسل رياح كرمه على قلوب أهل صفوته، فيطهرها من أنواع المخالفات، ثم زيَّنها بأنوار الإيمان، ويرديها برحمة التوفيق إلا الله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ لا يخفى عليه ما تكن صدور أوليائه من شكاياتهم عنه، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من خفي المناجاة وقت اضطرارهم بنعت الشوق إلى وصاله.

قال الجنيد: ما تكن صدورهم من محبته، وما يعلنون من خدمته.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾التوكل عند العارف البقلي السكون على اصطفائيته السابقة بعد اطلاعه عليها حين عرف نعت الرضا عن الله في مشاهدة الله.

قال بعضهم: التوكل سكون القلب إلى الله، واطمئنان الجوارح عند مصادمة المهولات حينئذٍ يظهر للمتوكل الثقة بالله.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾الميت من ليس له استعداد قبول معرفة الحقيقة بغير الدلائل، والأصم من كان أذن قلبه مسدودة بغواشي القهر، ومن كان بهذه الصفة لا يقبل إلا ما يليق بطبعه وشهواته.

قال بعضهم: الميت على الحقيقة من خلى عن المعصية ورد إلى الحول.

وقال يحيى بن معاذ: العارفون بالله لله أحياء، وما سواهم موتى[١].

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾إذا

---

(١) أخطأ بوهمه من أنكر بهذه الآية سماع الصالحين، فإن الجمهور على حياة الروح، وسماع المسلمين منهم بالأحياء، وجواز التوسل والاستغاثة بهم بعد المهات، وانظر كتابينا: «الدلائل الواضحات في جواز التوسل والاستغاثة بالأولياء بعد المهات»، وكذا جمع المقال في إثبات الكرامات في الحياة وبعد الانتقال».

نفخ نفخ القهر في ناقور الهيبة حين تلاطمت بحار العظمة اضمحلت الأكوان والحدثان في سطوات عظمة الرحمن، فهناك أهل معرفته، ومحبته وشوقه لا يفزعون من رؤية ملك العظائم؛ لأنهم في أكناف الوصلة مستأنسون بجمال المشاهدة، وهم المستثنون بقوله: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ﴾، وهم الذين ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وقال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

ثم بيَّن سبحانه أن الكل في ميادين عظمته، وجلال كبريائه، يفنون في أنوار سطوات قدمه بقوله: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

قال بعضهم: صاغرين خاضعين لعظمته وكبريائه.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ أعلمنا الحق سبحانه من غلبة سلطان عظمته وكبريائه على قلوب الخليقة يوم القيامة بحيث لا يعلمون انقلاب الكون من صولة شهود عظمته على وجوههم، وأيضًا هذا وصف العارفين في طيران أرواحهم إلى الملكوت بأجنحة أنوار الجبروت حين أشباحهم مستقيمة في نعوت الخليقة في مقام العبودية.

قال ابن عطاء: الإيمان ثابت في قلب العبد كالجبال الرواسي، وأنواره تخرق الحجب الأعلى.

قال جعفر: ترى الأنفس جامدة عند خروج الروح، والروح تسري في القدس لتأوي إلى مكانها من تحت العرش.

وقال جعفر الصادق: نور قلوب الموحدين، وانزعاج أنين المشتاقين ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ حتى يشاهدوا الحق؛ فيسكنوا.

قال جعفر الخلدي: حضر الجنيد مجلس السماع مع أصحابه وإخوانه، فانبسطوا وتحركوا، وبقي الجنيد على حاله لم يؤثر فيه، فقال له بعض أصحابه: ألا تنبسط كما انبسط إخوانك؟ فقال الجنيد: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾.

قال الأستاذ: كثير من الناس اليوم من أصحاب التمكين الساكنين بنفوسهم السائحين

في الملكوت أسرارهم.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ﴾ مقام العبودية لكل عارف شعبها على قدر مواجيده ومعرفته ومشاهدته، فالكامل منهم أن يكون عبوديته حفظ الأسرار من النظر إلى الأغيار، وبذل وجوده بنعت الشوق إلى الله لله؛ لأن هذا حد الانقياد في جنات المراد، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ من الباذلين أنفسهم بنعت الفناء لله في الله.

قال بعضهم: العبودية لباس الأنبياء والأولياء.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أوجب على حبيبه الحمد بظفره بمشاهدة الحق، ونور كبريائه عند سقوط حجة أعدائه، آياته ظهور أنوار سطوات عزته لانهزام النفوس الأمّارة في هياكل البشرية عن جنود الأرواح القدسية.

قال الأستاذ: عن قربة آياته فطوبى لمن رجع قبل وفاته، والويل على من رجع بعد ذهاب الوقت وفواته.

❁❁❁

سورة القصص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ ﴾ اطلاع الحق على أسرار المحبين، وتجلي قدسه بنعت سنا الأزل لفؤاد المقربين، فما أطيب هيجان سر الموحدين إلى طيب وصال بساتين ملكوت الغيب وجبروت النور، طوبى لهم وحسن مآب.

وقال الأستاذ: الطاء يشير إلى طهارة نفس العارفين عن عبادة غير الله، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله، وطهارة أرواح المواجدين عن محبة غير الله، وطهارة أسرار الموحدين عن شهود غير الله.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إن فرعون النفس الأمّارة تكبر في الأرض القلوب من قوة ما عليها، من قوة لباس القهر، وغلبت على الهواء، واستولت على العقل القدسي بإنفاذ شهوات الإنسانية الشيطانية، ثم هيجت صاحبها بعد تطاولها بالدعاوى الباطلة كدأب فرعون أخبر عن نفسه ما ليس فيه بعد أن احتجب بجهله عن الحق.

قال الجنيد في تفسير هذه الآية: ادعى ما ليس له.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ حقيقة الإشارة إلى تخليص الأرواح الملكوتية عن حبس شهوات الناسوتية، لنجعلها في سبيل معارف الآزال والآباد قادة للعقول الهائمة بنعت الذكر والفكر في طلب الوصول في ميادين الآيات، وتكون وارثة لمواريث المشاهدات، أراد الحق سبحانه أن يكون القوم أئمة المعارف وسادات الكواشف يقتدي بهم في الطريقة بطلب الحقيقة.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ هداة نصحاء خيار أبرار أتقياء سادة نجباء حكماء كراماء أولئك الذين جعلهم الله أعلامًا للخلق منشورة، ومنارًا للهدى منصوبة، هم علماء المسلمين، وأئمة المتقين، بهم في شرائع الدين يقتدى، وبنورهم من ظلمات الجهل يهتدى، وبضياء علومهم في المسلمات يستضاء، جعلهم الله رحمة لعباده، وبركة في أقطار بلاده؛ يعلم بهم الجاهل، ويذكر بهم الغافل، من اتبع آثارهم اهتدى، ومن اقتدى بسيرتهم سعد، أحياهم الله حياة طيبة، وأخرجهم من الدنيا على السلامة منها، خواتيم أمورهم أفضلها، وآخر أعمالهم أكملها.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓ ﴾ رأى الحق سبحانه أم موسى في أول الخطاب فزعة ضعيفة الحال في رؤية أنوار إحاطة الحق بجميع الوجود؛ فأمرها أن ترضعه، وبعد ذلك أمرها بأن تلقيه في البحر بغير الإرضاع تسليمًا محضًا، لكن سبقت حكمته الأزلية في نظام تدابير الخليقة أي: إذا خفت عليه، فألقيه في بحار الرضا والتسليم، وانظري بعيون الأنوار إلى مشاهد الأقدار؛ فإني أربيه بكشف مشاهدتي، ولذة خطابي، وأجعله من المخبرين عني، وأجعله إمامًا لطلاب وصالي، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾.

قال الجنيد: إذا خفت حفظه بواسطة؛ فسلميه إلينا، وأقطع عنه شفقتك، وتدبيرك ليكون مسلمة إلى تدبيرنا فيه، وحفظنا له.

قال أبو بكر بن طاهر: أي: لا تخافي خلف الوعد، ولا تحزني على غيبوبة الولد.

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ ﴾ إن الله سبحانه ألبس وجه موسى نور قدسه، ولطائف ملاحة نور محبته؛ فرأت امرأة فرعون ذلك النور والبرهان على وجه موسى، فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي ﴾؛ لأني أرى في وجهه أنوار صفات الحق، ولك أن تراها بعين اليقين والإيمان، وحقيقة ذلك أن وجوه الأنبياء والأولياء مرائي أنوار الذات والصفات، ينتفع بتلك الأنوار الكافر والمؤمن؛ لأن معها لذة حالية نقدية، وإن لم يعرفوا حقائقها.

قال ابن عطاء: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي ﴾ أشارت إلى الحق، ﴿وَلَكَۖ لَا﴾؛ لأنك كفرت وأشركت.

﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ وقع على أم موسى ما وقع على آسية بأنها رأت أنوار الحق من وجه موسى، فعشقت عليه، ولم يبق في فؤادها صبر من الشوق إلى وجه موسى، وذلك الشوق من شوق لقاء الله، فغلب عليها شوقه، وكادت تبدي سرها ﴿ إن

كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾، وقوله: ﴿فَرِغًا﴾ من هلاك موسى لكن لم يكن فارغًا من الشوق إلى لقاء موسى؛ لأن شوق موسى وسيلة إلى شوق الله، وكشف لقائه، فلما قل صبرها في فراق موسى ثَبَّت الله قلبها بكشف جماله صرفًا، وذلك قوله سبحانه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ من المشاهدين جمالنا وجلالنا.

قال ابن عطاء: أصبح فؤاد أم موسى فارغًا عن الاهتمام بموسى لما أيقنت من ضمان الله لها فيه بقوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾، ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ أي: تظهر ما أوحي إليها في السر من حفظ موسى ورده إليها، ومنعه أيدي الظلمة عنه.

قال فياض: الصدر معدن الآفة، والقلب معدن الصحة، والفؤاد برزخ بين الصدر والقلب، والقلب معدن الأنوار.

وقال جعفر الصادق: الصدر معدن التسليم، والقلب معدن اليقين، والفؤاد معدن النظر، والصدر معدن السر، والنفس مأوى كل حسنة سيئة.

قال بعضهم: في قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ لولا أن أيدناها بالتوفيق والصبر لأبدت ما في ضميرها من الوجد بولدها، وافهم أن الصدر معدن نور الإسلام، والقلب معدن نور الإيقان، والفؤاد معدن نور العرفان، والعقل معدن نور البرهان، والنفس معدن القهر والامتحان، والروح معدن الكشف والعيان، والسر معدن لطائف البيان، ذكرت ذلك بمفهوم خطاب الغيب موافقة لأئمتي وسادتي.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ سقى الله روح موسى ألبان المعرفة من ثدي الوصلة، حين أخرجنا من العدم بنور القدم، وحرم عليها مراضع الأكوان والحدثان، ومنعها من الاستئناس بغيره من العرش إلى الثرى؛ لذلك أشار في القصة ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ولولا رضاعه الأول لاشتغل بإتيان غير مرضعته، فسقيه لبن المعرفة فطامه عن كل شيء سواه.

قال بعضهم: إشارة إلى العارف؛ فإنه لا يصلح لبساط القربة من لم يكن مرضعًا برضاعة الأنس، فمن كان رضيع مخالفة، أو رضيع وحشة، فإنه لا يصلح لبساط القربة، ألا ترى الكليم لما كان فيه تدبير الخصوصية بالكلام كيف حرم عليه المراضع.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ لما تمكنت فطرته السليمة القابلة نور الغيب بسنا العقل، وكمل عقله بتأييد الحق ونصرته على النفس والهوى، وقوى قلبه بصفات الإيمان والإيقان، وتجرد روحه مما دون الله، واستوى سره بنعت التمكين في العبودية عند جريان أحكام الربوبية عليه آتيناه حكمة الأزلية، وعلوم الأبدية؛ ليعرف بأنوارها حقائق الصفات، ويرى بسنائها جلال الذات.

قال الجنيد: لما تكامل عقله، وصحت بصيرته، وخلصت نحيزته، وآن أوان خطابه آتيناه حكمًا بيانًا في نفسه، وعلمًا مما يتجدد عنده من موارد الزوائد عليه من ربه.

قال أبو بكر الوراق: حكمًا على عبادنا، وعلمًا بنا.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۝ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: بما أنعمت عليَّ من كشف جمالك، وما أسمعتني من لطائف خطابك لا أساعد المخالفين، ولا أجالس البطالين، ولا أعين المدعين، ولا أكون موافقًا لمراد النفس والهوى، ولا أكون في قيد الشهوة والمنى.

قال ابن عطاء: العارف بنعم الله من لا يوافق من خالف ولي نعمته، والعارف بالمنعم لا يخالفه في حال من الأحوال.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أن الله سبحانه لما أراد بعبد عبادنا أن يكون له فردًا أوقع عليه واقعة شنيعة ليفزع من تبعاتها، فيفر مما دون الله إلى الله، فلما فرَّ إليه خائفًا من الامتحان بجد جمال الرحمن، ويعلم أن جميع ما جرى عليه واسطة لوصول المراد هذا حال موسى أفقره الحق إلى الافتقار إليه بسبب من الأسباب، والغرض منها كشف النقاب، وإسماع الخطاب، ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا ﴾ كان واجدًا في نفسه شغلات نيران المحبة، واستأنس بها، واستوحش من الخلق؛ فإذا أقبل إلى الحق بالكلية خاف وترقب أن يلحقه أحد من الضلال، فيمنعه من الوصول إليه، وأيضًا خرج مما دون الله خائفًا عظمة الله، يترقب طلوع شمس الوصال من مشرق الجمال.

وقال أبو بكر بن طاهر: ﴿ خَآئِفًا ﴾ على قومه العذاب يترقب لهم هداية من الله.

قال ابن عطاء: خرج منها خائفًا من قومه يترقب مناجاة ربه.

وقال بعضهم: مستوحشًا من الوحدة يطلب من يأنس به.

وقال محمد بن حامد: خائفًا من الشيطان راجيًا للعصمة.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ لما تخلص من مقام تربية الإرادة، وغار من صحبة الأضداد، ومقام الامتحان هاج سره بحق الحق، واستنشق روحه رائحة ورد الوصال، ورأى بردًا من سحائب القربة، قال في نفسه: ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: يهديني ربي إلى مشاهدته، ويسمعني كلامه، وذلك سواء سبيل المعرفة؛ لأن المعرفة بحقيقتها مستفادة من المشاهدة، ومن هناك تبدو سبل قدم الذات ومعرفة أزلية الصفات، فمدين إشارة إلى مشاهدة عالم الأزل والأبد، وتوجهه كان إليها بالحقيقة، فوجد نسائم ذلك من جانب مدين؛ لأن هناك مواضع الكشف والخطاب وصعود أنوار نبوة شعيب عليه السلام، وذلك، كما قال عليه السلام في إخباره عن وجدانه نسيم نفحه كشف جمال الحق في مزار قلب أويس

القرني -رحمة الله عليه: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن»[1]، قال تعالى حكايةً عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾[يوسف:٩٤].

قال جعفر: توجه بوجهه إلى ناحية مدين، وتوجه بقلبه إلى ربه طالبًا فيه سبيل الهداية، وأكرمه الله بالكلام، وكل من أقبل على الله بالكلية؛ فإن الله يبلغه مأموله.

قال أبو سعيد الخراز: حملته الفراسة، وتدابير المكالمة فيه إلى أن توجه أرض الأولياء، وهي أرض مدين، فصادف بها شعيبًا، وكان له في لقائه أوائل البركات، فلما كمل هيجانه إلى لقاء ربه قصد مدين بصورته، وقصد بروحه موارد المشاهدة والمكاشفة بقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ ورد سره موارد المكاشفة، وسواقي المشاهدة وأنهار القربة، وبحار القدس والأنس فشرب منها بأقدح الأقداح شربات المحبة والعشق والشوق فصار هائمًا في الملكوت حيران في الجبروت.

قال الواسطي: الوارد بطلب المقالة لثقل الحرمة، والقاصد يطلب اللقاء والظفر قال أبو بكر بن طاهر: ورد في الظاهر ماء مدين وورد في الحقيقة على مالك مياه الأنس وبساتين المعرفة ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ أي: خواص من العباد يرتعون في تلك الميادين، فأنس بهم، وشرب معهم من تلك المياه شربة أورثته ورود ذلك المورد المورود على مخاطبة الحق، وأورثه شرب ذلك الماء الثبات في حال المخاطبة، ثم بيَّن سبحانه مقام فراسة موسى بقوله: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، رأى موسى بنور النبوة أهله، وخاطبهما من حيث رؤية القلب ووجدان الأهلية وأعانهما نصحًا الطريقة وأداء شرائط الإرادة بقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، استظل ظل العناية وطلب من هناك حقائق الكفاية بنعت الرضا والتسليم وأظهر افتقاره إلى وصول المشاهدة حين عاين كنوز القدم مفتوحة وجلابيب الصفات مكشوفة فانبسط إليه بالسؤال حين انفرد من الخلق والخليقة.

قال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية فخشع وخضع وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من أنوار الربوبية، فافتقاره افتقار العبد إلى مولاه في جميع أحواله لا افتقار سؤال ولا طلب.

قال بعضهم: تولى إلى كهف الرعاية فإن فيه الراحة والاسترواح.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٥٤١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥/ ٥٧).

قال رويم في قوله ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾: مياه الرحمة والعناية لا تخلو من الواردين والطالبين والعاكفين عليها، فمن أُيِّد بالعناية سُقي ماء الرحمة، ومن أُيِّد بالشفقة سُقي ماء العناية، ومن أُيِّد بالكلاءة سقُي من ماء المعرفة، ومن أُيِّد بالأنس سُقي من ماء المحبة، ومن أُيِّد بالصدق سُقي من ماء الصفاء، وكل وارد مياه الحضرة يُسقى على مقدار عطشه، فمنهم من يروي من عطشه، ومنهم من يزيد عطشًا وهيمانًا، وكلما ازداد من الشرب ازداد من الظمأ، كما حكي عن أيوب ﷺ أنه قال: [من يشبع من رحمتك] كذلك قيل: والمشرب كثير الزحام.

شربت الحب كاسًا بعد كاس فما نفد الشراب ولا رويت

قال الأستاذ: ورد بقلبه موارد الأنس، والموارد المختلفة مورد القلوب رياض البسط لكشوفات المحاضرة، فيطرفون لأنواع الملاطفات ومورد الأرواح مشاهدة الأرواح، فيكاشفون بأنوار المشاهدة، ويسقطون عن الإحساس والنفس، وموارد الأسرار ساحات التوحيد، فعند ذلك الولاية لله فلا نفس ولا حسَّ ولا قلب، ولا أنس، استهلاك في الصمدية وفناء بالكلية، ويقال في قوله: ﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: إلى ظل الأنس وروح البسط واستقلال السر بحقيقة الوجود.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ الحياء صفة الكرام لكن، هاهنا زيادة على حكم الحياء؛ ولأن تلك السلالة المقدسة لما رأت الكليم ﷺ استغرقت في أنوار ما كسا وجهه من صولة الموسوية، وما ألبسه من نور العظمة فتحاشت واستحيت مما رأت منه بنور الفراسة، ذلك النور من أهلية المحبة بين روحها وروح الكليم، قال تعالى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ معناه كل من رآه أحبه واستأنس.

قال أبو بكر بن طاهر: لتمام إيمانها وشرف عنصرها وكريم نسبها أتته على استحياء،

فإن النبي ﷺ قال: «الحياء من الإيمان»[1] ثم بيّن سبحانه ما رمزنا من وصف فراستها بقوله: ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ رأت بنور الولاية قوة النبوة وأمانة الصديقية، وأيضًا قوة المعرفة والربوبية وأمانة المحبة والعبودية، وتكلمت مما رأت في المستقبل من أمانة موسى بالوفاء في شرطه شعيب في عهده بقوله، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ وقوة إرادته في خدمته عشر حجج، وهذه الكلمة أيضًا صدرت منها من رأس شقيقة روحها من روح موسى؛ لذلك صارت له أهلاً، فأبصر شعيب ما أبصرت من سوابق الحكم في المشيئة والمقادير في الأزل لذلك ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ﴾؛ لأنه رأى بنور النبوة أنه يبلغ إلى درجة الكمال في ثماني حجج ولا يحتاج إلى التربية بعد ذلك، ورأى أن كمال الكمال في عشر حجج؛ لأنه رأى أن بعد العشر لا يبقى مقام الإرادة، ويكون بعد ذلك مقام الاستقلال والاستقامة، ولا يحتمل مؤنة الإرادة بعد ذلك؛ لذلك قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾: افهم أن مواقيت الأنبياء والأولياء وقت سير الأسرار من بدء الإرادة إلى عالم الأنوار وأنفاسهم من بدو الإرادة بل من وقت الولادة، بل من كون الروح من العدم في مشاهدة القدم منقسمة على شرائف الأحوال، في كل نفس لهم سر وحال ووجد وخطاب ومقام وكشف ومشاهدة، فأجل الإرادة أجل المعاملات وأجل الحالات، فإذا تم أوائل المعارف وأمارات الكواشف لموسى ولم يبق عليه حق

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٦٨)، ومسلم (١/ ٦٣).

الإرادات والمقامات والمعاملات وظهر له عين القدم في عين الجمع وبان نور الأزل في النار بعد انقضاء الأجل قال: ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾ والحكمة في ذلك أن طبع الإنسانية يميل إلى الأشياء المعهودة؛ لذلك تجلى النور في النار لاستئناسه بلباس الالتباس، فأخبر عن حال الاستئناس، وقال ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾أي: أبصرتها وأنستها، ولا تخاط النار من الاستئناس خاصة في الشتاء، وكان شتاءً فتجلى الحق بالنور في لباس النار؛ لأنه كان في طلب النار، فأخذ الحق مراده وتجلى من حيث إرادته وهذا سنته تعالى، ألا ترى إلى جبريل أنه إذا علم أن النبي ﷺ أحب دحية فأكثر إتيانه إليه كان على صورة دحية، فلما وصل موسى إلى المقصود ذهب النار وبقي النور وذهب الأنس وبقى القدس، ثم ذهب النور وظهر عين الصفة، ثم عين الذات، فلما وله تحير في صولة الأزل، وبان العيان لم يبق له العرفان، وظن ظنونًا منها أنه كان في سره أين أنا وإيش ما أرى، هل يكون لموسى ما يرى موسى أو أن موسى نام عن موسى، وما يرى لا يرى أو يرى ولا يعرف، فكاد أن يضمحل في الحيرة إذ بان الكشف بالبداهة خارجًا عن العادة فناداه الحق: أين أنت يا موسى ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، فأوقعه بطيب الخطاب من الفناء إلى البقاء ومن التفرقة إلى الجمع حتى أنس بالأنس ثم بالقدس، وبقي مع الحق بنعت الفرقان في محل العيان، فأوائل الأحوال كان رسمًا ثم وسمًا ثم واسطة ثم حقيقة، فارتفع الوسائط وبقي الحقائق، وذلك بقوله ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ ﴾، أتى من الأكوان والحدثان إلى بساط الرحمن، ونودي له من شاطئ وادي الأزل في ساحة القدم من شجرة الذات بأصوات الصفات أن يا موسى ﴿إِنِّيٓ أَنَا﴾ إشارة البعد في القرب والقرب في البعد والغيبة في الحضور والحضور في الغيبة، أشار إلى الهوية، ثم إلى كشف العيان بقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾أي: اخرج أنت من أنت من حيث أنت؛ فإني أنا الله أبقى لك؛ فانظر إليَّ بعين منا؛ حتى ترى الألوهية وتعلم الحقيقة.

قال بن عطاء: في قوله ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾: لما تم أجل المحبة ودنا أيام القربة والزلفة وإظهار أنوار النبرة عليه سار بأهله ليشترك معه في لطائف الصنع.

وقال جعفر في قوله ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا﴾: أبصر نارًا دالة على الأنوار؛ لأنه رأى النور على هيئة النار، فلما دنا منها شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلابيب الأنس، فخوطب بألطف خطابًا، واستدعى منه أحسن جواب؛ فصار بذلك مكلمًا شريفًا مقربًا أُعطى ما سأل وأُمِّنَ مما خاف، وذلك قوله ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: أنس سره برؤية النار لما كان فيه من عظيم الشأن وعلو المتبة، فأخرج الرؤية بلفظ آنست أي: أرى هذه النار رؤية مستأنس بها لا مستوحش منها، فدنا منها فأنسه طهارة الموضع وما سمع فيه من مناجاة ربه وكلامه، فتحقق بالأنس.

وقال الواسطي: الوسائط في الحقيقة لا أوزان لها ولا أخطار، وإنما هي علل لضعف الطاقات، كما جعل الواسطة به موسى بيته الشجرة نادى في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى، ثم دفع الواسطة ثانيًا، فقال ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾.

قال أبو سعيد القرشي: تلك الشجرة في مخاطبة الكلام تعلل التطبيق، بذلك التعلل حمل موارد الخطاب عليه كما تعلل النبي ﷺ بقوله «حُبِّبَ إليَّ من دُنياكم ثلاثٌ»[1] أي: أنست منها ولا هي مني في شيء، إنما لي منها تعلل أتحمل به موارد الوحي عليَّ.

قال أبو علي الروذباري: الجبل الذي كلَّم الله موسى عليه كان من عقيق.

قال القاسم: لما سمع موسى الكلام خرَّ صاعقًا، فجاء جبريل وميكائيل فروَّحاه بمروحة الأنس حتى أفاق من الهيبة، واستأنس بالأنس مع الله، فزال بالرعب والفزع من قلبه، فقال له: يا موسى أنا الذي أكلمك من علوِّي، وأسمعك من دنوِّي، فلدنوِّي لا أخلو من علوِّي، ومن علوِّي لا أخلو من دنوِّي، يا موسى إني أنا الذي أدَّبتك قربتك وناجيتك، عند ذلك قال له موسى: أقريبٌ أنت فأناجيك أم بعيدٌ فأناديك؟ قال له: أنا أقرب إليك منك.

قال الأستاذ في قوله ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾: لاح له نارٌ ثم لاح نورٌ ثم بدا ما بدا فلا كان المقصود النار ولا النور، وظهر النداء ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ قيل شتَّان بين شجرةٍ وشجرةٍ؛ فشجرة آدم عندها ظهرت محنةٌ وفتنةٌ، وشجرة موسى عندها افتتحت نبوته ورسالته، يا صاحبي لو يعلم قائل هذا القول حقيقة شجرة آدم لم يقل مثل هذا في حق آدم؛ فإن شجرة آدم إشارةٌ إلى شجرة الربوبية، لذلك قال ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:٣٥]؛ فإن آدم إذا كان متصفًا بصفات الحق، أراد العينة بحقيقتها فنهى الحق عنها، فقال: هذا شيءٌ لم يكن لك؛ فإن حقيقة الأزلية ممتنعةٌ من الاتحاد بالحدثية، هكذا قال، ولكن أظهر أزليته من الشجرة، وسكر آدم ولم يصبر عن تناولها، فأكل منها حبة الربوبية، فكبر حاله في الحضرة، ولم يطق الجنة حملها، فأُهبط منها إلى معدن العشاق، فشجرة آدم الأسرار، وشجرة موسى شجرة الأنوار، وكم بين الأسرار والأنوار، الأنوار للأبرار والأسرار للأخيار، فلما صال آدم بصولة السكر انهزم من

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٠٥)، والمحب الطبري في الرياض النضرة (١/ ٢٦٥).

سطوات العظمة، ولم يحق له الجنة بعد ذلك، لذلك قيل (اهبط) وقيل في القصة أن موسى لما سمع كلام الحق سبحانه غشى عليه، فأرسل الله إليه الملائكة حتى روَّحوه بمراوح الأنس، كان هذا في ابتداء الأمر والمبتدئ مرفوقٌ به، وفي المرة الأخرى خرَّ موسى صعقًا وكان يفيق والملائكة تقول له: يا ابن الحيض مثلك من يسأل الرؤية يا ليت لو يعلم الملائكة أين موسى هناك لم يعيروه؛ فإن موسى كان في أول الأحوال مريدًا، وفي الآخر مرادًا مطلوبًا طلبه الحق واصطفاه لنفسه، وقال ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾، وهيجه إلى سؤال رؤيةٍ بعد أن ناجاه، وناداه بأصوات اللطف، وقال ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، فشاهد موسى بين الجلال والجمال حقيقة الذات، فظن أنه خارج الحجاب من غلبة العيان قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ﴾، فأجابه الحق وقال ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي: أنت في مشاهد وتراني، فمن أين تطلبني وهاً أنا في عينك تراني بعيني؟! وفيه ألف الاستفهام غائبة مضمرة، لا يدركها بالفهم إلا أهل الحقائق، فيا ليت لو يعلم الملائكة أن موسى في ذلك مراد الحق أراد أن يريه نفسه، وهيجه إلى سؤال رؤيته، ولولا ذلك فمن أين يجد الحدث ظهور وجود القدم؟! وتلك الصعقة لموسى أنه كان في بداية الخطاب طمع الرؤية، فلما تجلى الحق سبحانه للجبل له واسطة طمع وصول حقيقة القدم، فهاج بحر الربوبية موجًا، فألقت موسى إلى سراب الحيرة حتى صعق، كما كان آدم يراه من الشجرة، فتعربد كما تعربد الكليم، فأهبطه من دار الوصلة إلى دار المحبة، وكذا يكون من أقبل الأزل بنعت الأجل وصارع مع أسد القدم بوصف العدم:

نديمي غير منسوبٍ إلى شيءٍ من الحيفِ
سقاني مثلَ ما يشرب كفعل الضيف بالضيفِ
فلما دارتِ الكأسُ دعا بالنَّطعِ والسيفِ
كذا مَنْ يشربُ الرَّاح مع التنين في الصيفِ

قيل: في البداية لطف، وفي النهاية عنف، ويقال: في الأول ختل، وفي الآخر قتل.

وقال الأستاذ في وصف الشجرة: الشجرة هي شجرة الوصلة، ثمرتها القربة، أصلها في أرض المحبة، وفرعها باسقٌ في سماء الصفوة، أوراقها الزلفى، أزهارها وأنوارها تنفتق عن نسيم الروح والبهجة.

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾: افهم أن مقام الفصاحة هو

مقام الصحو والتمكين الذي يقدر صاحبه أن يخبر من الحق وأسراره بعباده لا يكون شفيعه في موازين العلم، وهذا حال نبينا محمد ﷺ حيث قال: «أنا أفصحُ العربِ[1]»، «وبُعثتُ بجوامعِ الكَلِم»[2]، وهذا قدرة قادرية اتصف بها العارف المتمكن الذي بلغ مقام مشاهدة الخاص ومخاطبة الخاص، وكان موسى في محل السكر في ذلك الوقت، ولم يطق أن يعبر عن حاله كما كان؛ لأن كلامه لو خرج على وزان حاله يكون على نعوت الشطح عظيمًا في آذان الخلق، وكلام السكران ربما يفتتن به الخلق؛ لذلك سأل مقام الصحو والتمكين بقوله ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾؛ لأن كلامه كان من بحر المكافحة والمواجهة الخاصة التي كان مخصوصًا بها دونه.

قال أبو بكر بن طاهر: هو أفصح مني لسانًا؛ لأنه لم يسمع خطابك ولم يخاطبك؛ فهو أفصح مني لسانًا مع الخلق، كيف أكون معهم فصيحًا وسمعت لذة كلامك؟ وكيف أخاطبهم مع مخاطبتك؟ وكيف أجعل لهم وزنًا مع ما أدبتني وخصصتني به؟ ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ معهم وأحسن بيانًا لهم، إني لم أستلذ مخاطبة بعدك، ولم ألتذ بكلام غيرك وأنشد:

هلْ كنتَ تعرفُ سرًّا يُورثُ الصَّمما ... أصمَّني سرُّهم أيامَ فُرقتِهم

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٢٣٢).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٠٨٧)، ومسلم (١/ ٣٧١).

ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا ﴾ سلطان الحق لهما ما كساهما من أنوار قدسه وأنسه ومحبته وهيبته.

قال جعفر: هيبته في قلوب الأعداء ومحبته في قلوب الأولياء.

قال ابن عطاء: سياسة الخلافة مع النبوة.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ كان روحه ﷺ في مشاهد قرب القدم، وجسمه في بطن العدم، علمه كان قائمًا بمجازاة روحه عند الله، وأخبر عن بعض مقاماته كليمه، فاشتاق إليه، فزفر وبكى من محبته وشوقه، فناداه الحق بوصفه ودنوه بين يديه، فسأل من الحق رؤيته، فناداه الحق، وخاطبه بلسان حبيبه محمد، فاستلذَّ بكلامه وسكن، كما أخبر ﷺ عن كمال حب عليٍّ بن أبي طالب في قلبه وفضله عند الله

بقوله: «إنَّ الله سبحانه خاطبني ليلة المعراج بلغة عليٍّ[(١)]»، فهو سبحانه وتعالى خاطب الكليم بلغة محمد ﷺ، وكان ﷺ في حضرة القدس، وموسى كان في مقام الأنس هو في مقام القدس سأل أمته، وموسى في مقام الأنس ذكر أمته، فبين ذكر الحبيب والكليم أمة محمد ﷺ مغفورة لذلك، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ .

قال الحسين: في هذه الآية خاطب منصوب القدرة في عين العدم.

وعن أبي يزيد أنه قرئت هذه الآية بين يديه فقال: الحمد لله الذي لم أكن، ثم سأل بعضهم عن معنى قوله هذا، فقال: معناه كيف كنت أستحق سماع النداء من الحق وجوابه فأجابه الحق عناء اللطف ونيابته عناء، ثم قال سهل في قوله ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ : عرضنا عليه لأمته ما أبى علينا فخصصنا به أمتك من قراءة الكتاب حفظًا والصلاة في غير المحاريب، كنا ننوب عنك وعن أمتك قبل الإيجاد.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ : كلُّ كلامٍ بغير خطاب الحال والواقعة فهو لغوٌ.

قال يوسف بن الحسين: اللغو ما يشغلك عن العبادة.

وقال حمدون: اللغو ذكر الخلق.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ .

قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ : الهداية مقرونةٌ بإرادة الأزل، ولو كان إرادة نبينا محمد ﷺ في حق أبي طالب مقرونةً بإرادة الأزل لكان مهتديًا، ولكن كان محبته وإرادته في حقه من جهة القرابة، ألا ترى أنه إذا قال: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإسلامَ بعمرَ»[(٢)] كيف أجابه؟!

قال ابن عطاء: إنك لا تسأل الهداية لمن تحبه طبعًا، وإنما تسأل الهداية لمن تحبه فتكون محبتك له حقيقة؛ لأنك لا تحب على الحقيقة إلا من تحبه، حاشا لنبينا المخالفة.

---

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه، ولم نقف على من خرجه.

(٢) رواه ابن ماجه (١/ ٣٩)، وابن حبان (١٥/ ٣٠٦).

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾[1].

قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا﴾ حرمهم بالحقيقة قلب محمد ﷺ، وهو كعبة القدس، وحرم الأنس، وسرادق مجد تجلي جلاله، وجماله يجبى إليه ثمرات جميع أشجار الذات والصفات، من دخل ذلك الحرم بشرط المحبة والموافقة كان آمنا من آفات الكونين والعالمين، وكان منظور الحق في العالم، وهكذا كل من دخل في قلب وليٍّ من أوليائه، وقلب العارف حرم المراقبات والمشاهدات، من دفع عنه خاطر الوسواس والهواجس يجبى إليه من أشجار الأنوار ثمرات الأسرار.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ﴾ الوعد الحسن: هو الوعد بالجنة، والوعد الأحسن هو الوعد بالرؤية، والموعود له من المؤمن بالإيمان الرسمي، فهو لاقيه يوم القيامة؛ لأنها جنة غير معجَّلة، والموعود له هو المؤمن بالإيمان الحقيقي فهو لاقيه في الدنيا؛ لأن قيامة العارفين دائمة، وهذا الوعد مطلقًا مما يقتضيه استعداد كل من الأبرار والمقرَّبين، فلا يتخطَّى أحدهم حدَّ الآخر بحكم اسم العدل دون الفضل؛ لكن فرق بين حالة وحالة، فإن الأبرار، وإن كانوا يرون ربهم؛ لكن ذلك في الآخرة لا في الدنيا، وكذا في الأسبوع مرة لا في كل لحظة، كما هو شأن المقربين؛ لأنه لا حجاب لهم أصلاً، كما دلَّ عليه قوله: «وصنف لا يتستر الرب عنهم، وذلك من نتائج شهودهم في الدنيا بالبصيرة».

قال بعضهم: من مكن من رعاية سرِّه وافتقاد أوقاته لن يعدم الزوائد من الله ودوام الفوائد، ومن ضيَّع أوقاته وأهمل ساعاته فهو مترددٌ في ميادين الغفلة وساعٍ في مسالك الهلكة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾: يخلق ما يشاء في قلوب العارفين والمحبين والموحدين من أطيار الإفهام والمعارف بخواطر الحق والإنعام، ويختار بها بمشيئة الأزل أهل محبته ومعرفته ومشاهدته وقربه ووصاله، ونفى عن هذه المواهب السنية علة الاكتساب بقوله: ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾.

قال الجنيد: كيف يكون للعبد اختيارٌ والله المختار له بقوله: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾.

إذا نظروا إلى الأحكام الجارية بجميل نظر الله لهم فيها وحسن اختياره فيما أجراه عليهم لم يكن عندهم شيء أفضل من الرضا والسكون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾: إذا أدام ليالي الهجران بظلمة النفس والشيطان والفترة والعصيان من يأتي بنهار الوصال وضياء الجمال إلا الله سبحانه، وإذا أدام نهار الوصلة واستقام شمس المشاهدة في وسط فلك العناية على قلب العارف الصادق من يأتي بليل الفقدان وظلمة الغفلة والنسيان.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ

إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾، ثم بيَّن سبحانه أن ليل الفترة ونهار المشاهدة من كمال لطفه بأوليائه؛ ليترفهوا في زمان الفترة، ويستريحوا لحظة من ثقل واردات المشاهدة، ويستبشروا في نهار الكشف والعيان برؤية الرحمن، ويتلذذوا بالروح والريحان، وذلك قوله: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾.

قال الحسين بن منصور: من علم من أين جاء علم أين يذهب، ومن علم ما يَصْنع علم ما يُصنع به، ومن علم ما يُصْنَع به علم ما يُراد به، وَمنْ عَلِمَ ما يُراد به علم ما له، ومن علم ما له علم ما عليه، ومن علم ما عليه علم ما معه، ومن لم يعلم من أين جاء وأين هو وكيف هو ولمن هو ومما هو وما هو وإلى أين هو فذلك ممن أهمل أوقاته، وترك ما ندبه الله إليه، بقوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾: شهداء الخلق أصحاب الفراسات والمشاهدات الذين يخاطبهم الله بفعله وصفاته وذاته بوسائط الكون أحيانًا، ويخاطبهم صرفًا بكلامه القديم بغير واسطة، فهم مشرفون عل أسرار الحق والخليقة، فهم ينطقون من بطون خواطرهم، ولكل طائفةٍ من المريدين شاهدٌ من أهل القصة، يشهدون لهم وعليهم في الدنيا والآخرة، وهو مخصصٌ مستخرجٌ من القوم بنعت الاصطفائية والولاية.

قال بعضهم: أخرجنا من كل قوم وليًّا وأطلعناه على أسرار قربنا، ثم أذنا في البرهان، فأظهر البرهان بنا لا به، فعلم الخلق أن لا قيام لأحدٍ بنفسه، ولا يخبر عن الحق سواه، ولا يجيب عن سؤاله غيره، ولا يقوى على مخاطبته إلا من أُيِّد بتأييدٍ خاصٍّ.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾: نصيب العارف من الدنيا الوجه الحسن، الصوت الحسن، ورائحة الطيب، والدار الحسنة، ومجالسة الفقراء الصُبَّر الصادقين في العشق القائمين بالله، بشرط المحبة والشوق

والبذل والإيثار في خدمتهم وصحبتهم، والنظر إلى كل مستحسنٍ والانفراد عن كل مستقبح وإجراء الحياة في السماع والوقت والوجد والحال والمراقبة والمحاضرة، وجميع ذلك مجموعٌ في قوله ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاثٌ: الطيب، والنساء، وقرة عيني في الصلاة»[1]، وإحسان الله على العارف كشف مشاهدته وتعريف نفسه له، وإحسان العارف الإقبال على الله بنعت التجريد عما دونه وشهوده مشاهدة جلاله وربوبيته في عبوديته.

سئل سفيان الثوري عن قوله ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: لا تغفل عن عمرك في الدنيا أن تعمل بالطاعة.

قال بعضهم: لا تغترَّ بها ولا تسكن إليها.

وقال الجنيد: لا تترك إخلاص العمل لله في الدنيا؛ فهو الذي يقربك منه ويقطعك عما سواه.

قال القاسم في قوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ﴾: اصرف وجهك عن الكل بالإقبال عليه كما أحسن إليك؛ حيث جعلك من أهل معرفته، وأحسن مجاورة معرفته؛ فإنه أحسن إليك؛ حيث أنعم عليك بالإيمان وهو من أعظم النعم، فأحسن جوار نعمه؛ فإنه أحسن إليك في أن وفَّقك لخدمته، فأحسن القيام بواجب عبوديته وإخلاص خدمته.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾: كل مريدٍ نظر إلى طاعته وعلمه وعمله وكراماته وحكمته ونطقه وفصاحته وما يسهل له من مراداته فهو مفتونٌ بدعواه ساقط عن نظر الشيوخ بترك آدابه وسقوط احتشامهم عن قلبه، نعوذ بالله من هذه الفتنة، والله رأيت أكثر أهل زماننا يسقطون من درجة الإرادة والصدق ومن قلوب أهل الحقيقة بإعجابهم بما هم فيه، فيصير حالهم أقبح من أحوال العصاة المفلسين؛ لأن مآل هؤلاء في أواخر أعمارهم الإنكار على أولياء الله وخروجهم بدعوى الشيخوخية عليهم، أعمى الله أبصار قلوبهم وهم لا يشعرون.

قال سهل: ما نظر أحدٌ إلى نفسه فأفلح، ولا ادَّعى لنفسه حالاً فتم له، والسعيد من الخلق من صرف بصره عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل الفضل والإفضال ورؤية من الله

---

(١) تقدم تخريجه.

عليه في جميع الأفعال، والشقي من زُيِّن في عينه أقواله وأفعاله، وافتخر بها وادَّعاها لنفسه، فشؤمه ومهلكه يومًا فيومًا، وإن لم يهلكه في الوقت، ألا ترى الله تعالى كيف حكى عن قارون بقوله ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ نسي الفضل، وادَّعى لنفسه فضلاً، فخسف الله به الأرض ظاهرًا، فكم قد خسف بالأسرار وصاحبها لا يشعر بذلك، وخسف الأسرار هو منع العصمة، والرد إلى الحول والقوة وإطلاق اللسان بالدعاوى العريضة، والعمى عن رؤية الفضل، والقعود عن القيام بالشكر على ما أولى وأعطى حينئذٍ يكون وقت الزوال.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ﴾: بيَّن سبحانه في هذه الآية شأن قارون وخروجه بالزينة على أهله، وهلاك من يخرج على أولياء الله بالدعاوى الباطلة والكبر والرياسة، لا محالة يسقط من عيون الخلق وقلوبهم بعد سقوطه من عين الحق، ويخسف أنوار إيمانه في قلبه لا يرى أثرها بعد ذلك، وأصل الزينة عند العارفين وجوه معفرة بالتراب عليها آثار دموع الشوق والمحبة، ساجدة على باب الربوبية.

قال ابن عطاء: أزين ما تزين به طاعة ربه، ومن تزيَّن بالدنيا فهو مغرورٌ في زينته.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ ﴾: وصف الله سبحانه أهل الفقر من الصادقين والعلم من العارفين بمشاهدتهم جمال الغيب وشهودهم مشاهدة الحق مع تصاغر زينة الدنيا في عيونهم، وإن ذلك المقام لا يناله إلا صابرٌ في بلائه راضٍ في قضائه مشتاقٌ إلى جماله والهٌ في رؤية جلاله.

قال بعضهم: العالم بربه من رؤي دوام نعمته عليه، وتتابع آلائه لديه، وقصور شكره

عن نعمه، وإفلاسه عما يظهر منه، هذه صفة العلماء بالله.

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾: نبهنا الله سبحانه أن الوصول إلى قربه ووصاله ومراتب دُنوِّه في جنان مشاهدته لمن لا يكون له حبُّ الرياسة والجاه في قلبه، ولا يباشر حظوظ نفسه وهواه، ومن خُصَّ بهذه الدرجات الشريفة لا يأتي منه أفعال المخنثين من أهل الرياء والسمعة، الذين تركوا الدين بالدنيا وجاهها، وأفسدوا وجه الأرض بسالوسهم وناموسهم، ضرب الله أعناقهم؛ فإنهم قرناء الشياطين في جهنم، نعوذ بالله من شؤم معصيتهم.

قال يحيي بن معاذ: الدنيا خمر إبليس، من شرب منها شربةً لا يفيق إلا في عسكر القيامة.

وقال ابن عطاء: العلو النظر إلى النفس، والفساد النظر إلى الدنيا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٨٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾: إن الله سبحانه خلق روح المصطفى ﷺ بين نورين: نور الجمال، ونور الجلال، حين أظهر ذاته سبحانه، فوصل نور الذات إلى نور الجمال والجلال، ثم تجلَّى من جميع الصفات والذات بين الجلال والجمال المكمن غيب الغيب، فظهر روحه ﷺ، وصار أهلاً للقرآن؛ لأنه كان مخصوصًا بأهلية رؤية الذات والصفات جميعًا، فنـزل القرآن على معدن أهلية، ليأخذه ويرجع به إلى معدنه الذي بدأ منه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إن الذي خاطبك بكلامه القديم لرادُّك إليه بمراكب القرآن، وذلك المعدن معدن التنـزيه المنـزه عن التشاكل والتباعض والاجتماع والافتراق، نظر إلى شوقك في قلبك إلى معدنك من عالم الملكوت والجبروت يردك بأنوار صفاته إلى مشاهدات ذاته، تعالى الله عن إشارة الزنادقة والثنويين؛ لذلك قال ﷺ: «حبُّ الوطن من الإيمان»[1].

قال الواسطي في ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: مجالسة ليلة المسرى وإلى مخاطبات الروح بالقرآن.

---

(١) ذكره القاري في المصنوع (١/ ٩١).

قال ابن عطاء: الذي يسَّر عليك القرآن قادرٌ أن يردَّك إلى وطنك الذي منه ظهرت، حتى تشاهده بسرك على دوام أوقاتك.

قال الحسين: إن الذي فرقك برسم الإبلاغ إلى الخلق سيردُّك إلى معنى الجمع بالفناء عن ملاحظاتهم والترسم معهم على حد الإبلاغ رسومهم، ويخصصك بالمقام الأخص والبيان الأخلص.

وقال ابن عطاء: الذي حفظك في أوقات المخاطبة لرادُّك إلى وطنك من المشاهدة.

قال الواسطي: إلى حيث شاهد روحك وإلى الكرم الذي أظهرك منه.

قال الأستاذ: إن الذي أقامك شواهد العبودية فيها أثبتك لرادُّك إلى الفناء عنك بمحوك في وجود الحقيقة.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ .

قوله تعالى:﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ ﴾ : اطَّلع الحق على قلب حبيبه ﷺ ورأى بحار عشقه ومحبته وشوقه ومعرفته وأنسه وتوحيده وتفريده تكاد تموج بأمواج الاتحاد والفردانية في الأنانية، فأشهده على نفسه لا يتحرك من مقام الاتحاد، فإن ذلك مكمن عين الجمع، ولا ينبغي أن يكون محجوبًا عنه به بقوله:﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ ؛ فإن اتحادك وأنانيتك صدرت من كشوفِ جلاليٍّ وجماليٍّ، ولا يبقى أثرها عند بروز سطوات عظمة قدمي، ألا ترى كيف قال:﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نفى عن ساحة كبريائه أنانية كل عارفٍ سكرانَ، وأفنى مدارج التوحيد والمعارف في سبحات ذاته بذاته بقوله﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ ، فإذا تبين الحقيقة للخليقة تفنى الخليقة في الحقيقة، ولا تبقى أنانية العارف في ألوهية المعروف، وتعالى الله عن الأضداد والأنداد.

قال الواسطي: إذا تحقق ذلك عنده أخذ العبد من العبد لقيام الحق به.

قال ابن عطاء: في كشف الذات هلكةٌ ومحرقةٌ، قال الله تعالى:﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ .

❁❁❁

سورة العنكبوت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ

فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝﴾.

﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝﴾: أقسم الحق سبحانه بإشارة الألف إلى استواء فردانية أزليته على قلوب المفردين من أهل التفريد، وبإشارة اللام إلى كشف جماله للأرواح العاشقين الذين استقاموا مع الله بنعت التجريد، وبإشارة الميم إلى محبة القدمية السابقة لسباق المحبين الذين استغرقوا في بحار التوحيد أنه تعالى لا يدفع من ادَّعى محبته ومعرفته في مقام وصاله، وكشف جماله في الدنيا بوصف السرمدية إلا ويبتليهم بعد التجلي بالاستتار وبعد كشف الأنوار بتعذيب الأسرار؛ لاستيفاء حق الربوبية من العبودية وغيرة الأزلية على كون الحدث بالأسامي والنعوت في نعوته الأبدية.

قال ابن عطاء: ظن الحق أنهم يتركون مع دعاوى المحبة، ولا يطالبون بحقائقها، وحقائق المحبة هي صبُّ البلاء على المحب وتلذذه بالبلاء، فبلاءٌ يلحق جسده، وبلاءٌ يلحق قلبه، وبلاءٌ يلحق سره، وبلاءٌ يلحق روحه، وبلاء النفس في الظاهر الأمراض والمحن، وفي الحقيقة منعها عن القيام بخدمة القوي العزيز بعد مخاطبته إياه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، وبلاء القلب تراكم الشوق ومراعاة ما يرد عليه في الوقت بعد الوقت من ربه والمحافظة على أحواله مع الحرمة والهيبة، وبلاء السر هو المقام مع من لا مقام للخلق معه والرجوع إلى من لا وصول للخلق إليه، وبلاء الروح الحصول في القبضة والابتلاء بالمشاهدة، وهذا ما لا طاقة لأحدٍ فيه، ثم بيَّن سبحانه أنه لا ينجو أحدٌ من الأولين والآخرين من دركات الامتحان بقوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝﴾، ميز بالتبوء بين الصادق والكاذب؛ فتبين شكر الشاكرين في النعمة وصبر الصابرين في المحنة ودعوى الكاذبين بفرارهم عن البلاء والطاعة.

قال ابن عطاء: يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، من شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين، ومن بطر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين، ثم بيَّن سبحانه أن الذين عاشوا في البطالة لم يبلغوا منازل الصديقين بالتمني والتجلي وأبواب مقادير سعادة الآزال مسدودة عليهم، أيحسبون أن ينقضوا قضيات الحق السالفة فيهم بوصف الشقاوة والطرد والقطيعة، ويبدلوها بقضياته السابقة بنعت الاصطفائية في حق المحبين المطيعين؟! كلا ليس كما يحسبون؛ فإن أحكام الأزلية مقدسةٌ من

النقوض والنقائض بهوسات المفلسين البطالين.

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾، قال القاسم: أن يسبقوا ما كتبنا عليهم من محتوم القضاء وما قدر عليهم مما مضى الحكم فيهم، ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ ﴾ أي: باطلٌ ما يعملون.

قال الواسطي: إنما ذكر الله تنبيهًا للخلق ووصفًا لهم بصفاتهم ونعوتهم قبل أن خلقهم؛ كي يوقنوا أنهم لا يسبقونه بالقول والفعل، وأنهم مرتبطون بما سبق لهم من الصفات، وفيهم قال الله ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ﴾، ثم سلى قلوب المشتاقين إليه بقوله: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ ﴾: من كان مستغرقًا في بحر أشواقه فإن أوان كشف جماله وجلاله قريبٌ من مشتاقيه الناجين من حبس النفس وحجابها، فيرون الحق بلا حجابٍ وهو سميعٌ لأهل الصفوة أسرارهم، عليم بالتهاب قلوبهم بنيران محبته وشوقه، قيل فليسأل ربه سؤال الملح المحتاج، وليطلب منه طلب الراغب المشتاق.

وقال أبو عثمان في قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾: تعزية للمشتاقين أي: أعلم اشتياقكم إليَّ، وأنا أجَّلت لكم أجلاً، فعن قريبٍ يكون وصولكم إلى من تشتاقون، فتطيبوا نفسًا، وتنبهوا.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾.

قوله: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾[1]: نبَّه الخلق أن ربوبيته منـزَّهةٌ عن عبودية الخلق، وأن صفات الحدث يرجع بنعوتها إلى الحدث؛ لأنه مقدسٌ عن النفع والضر، وهو غنيٌّ عن وجود الخلق وعدمه، فبيَّن قيمة المجاهدة أنهم إذا جاهدوا ولم يظفروا بمأمولهم يعلمون أنهم يدورون حواليهم، وأن الفضل من الله خاصٌّ لأهل الخصوص ممن عرفهم الله نفسه بلا كدٍّ ولا عناءٍ.

---

(١) لأن نفع ذلك له فيتعبها ليريحها، ويشقيها ليسعدها، ويميتها ليحييها، وعبر بالنفس لأنها الأمارة بالسوء، وإنما طوى ما ادعى تقديره لأن السياق للمجاهدة.

قال الواسطي: بالنعم ابتدأ الحق الخلق تفضيلاً من غير استحقاقٍ، جلت نعمه وعطاياه أن تستجليها الحوادث بحال الكنه المبتدئ بالنعم والمتفضل بها، قال الله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: من يظهر على نفسه آثار العبودية وزينتها لا يطالب بها قربة إلى ربه؛ فإن الحق لا يتقرب إليه إلا به وبها منه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾: وصف المتكلفين بدعاوى المعرفة والمحبة، فإذا لحق بهم ملامة الخلق تركوا الطريق، والعارف الصادق المحب المشاهد لا يبالي بأقوال الخلق وأفعالهم في حقه؛ فإن الأكوان والحدثان ومن فيها من الخلق أقل من خردلة في عين العاشقين؛ لأنهم يعرفون غباوة الخلق وجهلهم بحالهم؛ وبلاؤهم لا وزن له كما لا وزن لهم عندهم.

قال الواسطي: لا يُؤذى في الله إلا الأنبياء وخواص الأولياء والأكابر من العُبَّاد، ومن تعززت نفسه نازع الله في ربوبيته.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ

ٱلۡأَخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ ﴾: اطلبوا رزق المشاهدة والوصلة من مقام المحاضرة مع الله، ﴿ وَٱعۡبُدُوهُ ﴾ بشرط المعرفة والإحسان، ولا تظنوا أن الكشف العيان والمعرفة والبيان يتعلق بالاكتساب، ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ ﴾ أي: اشكروا ما أنعم عليكم بتعريفه إياكم نفسه له لا بغيره من العرش إلى الثرى.

قال ابن عطاء: اطلبوا الرزق بالطاعة والإقبال على العبادة.

وقال سهل: اطلبوا الرزق في التوكل لا في الكسب؛ فإن طلب الرزق في الكسب سبيل العوام.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾: يعذب من يشاء بالاستتار، ويرحم من يشاء بالتجلي، يعذب من يشاء بالقبض، ويرحم من يشاء بالبسط، يعذب من يشاء بالمجاهدة، ويرحم من يشاء بكشف المشاهدة.

قال بعضهم: يعذب من يشاء بالحرص، ويرحم من يشاء بالقناعة.

وقال بعضهم: يعذب من يشاء بالإعراض عن الله، ويرحم من يشاء بالإقبال عليه.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ ﴾: عاين الحق، ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ ﴾ من نفسي ومن الكون إليه بالانفصال عما دونه، ولا يصحُّ لأحدٍ الرجوع إليه، وهو متعلقٌ بشيءٍ من الكون حتى ينفصل عن الأكوان أجمع ولا يتصل بها.

وقال ابن عطاء: أي: راجعٌ إلى ربي من جميع مالي وعليَّ الرجوع إليه.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ

فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾: أجر الخلة كشف المشاهدة والقربة في الدنيا بالقلب والروح وفي الآخرة عيانًا بالعين، وذلك لصلاح الكل.

قال ابن عطاء: أعطيناه في الدنيا المعرفة والتوكل، وإنه في الآخرة لمن الراجعين إلى مقام العارفين.

قال بعضهم: آتيناه ثناءً وحسنًا في دنياه، وآتيناه ذكرًا حسنًا في عقباه، وهو ما خُصَّ به من أنه خليل الله.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾: كل مجلسٍ ليس بمجلس العارفين بالله وبأحكامه فهو مجلسٌ منكرٌ؛ لأن مجالسهم مجالس السماع والوجد والحضور والمراقبة والذكر والفكر والنصيحة، وأهل الغفلة مجالسهم مجالس سهوٍ ولهوٍ، سئل الجنيد عن هذه الآية قال: كلُّ شيءٍ يجتمع الناس عليه إلا الذكر فهو منكرٌ.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾: بيَّن الله سبحانه أن من اعتمد على غير الله في أسباب الدنيا والآخرة فهو ينقطع عن مراده غير واصلٍ بربه.

قال ابن عطاء: من اعتمد شيئًا سوى الله فهو هباءٌ لا حاصل له، وهلاكه في نفس ما اعتمد، ومن اتخذ سواه ظهيرًا قطع من نفسه سبيل العصمة، ورُدَّ إلى حوله وقوته.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾: دقائق المعارف لا يعرفها إلا صاحب حال مخاطبٌ من الله بنعت الكشف والعيان والبيان.

قال سهل: شواهد القدرة يدل على القادر ولا يعقلها أي: لا يتنبه بها إلا العالمون به وبأسمائه وصفاته؛ لأنهم علماء النسبة والباقون علماء المنهج، والعالم على الحقيقة من يحجره علمه عن كل ما لا يبيحه العلم الظاهر.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾: حقيقة الصلاة

حضور القلب بنعت الذكر والمراقبة بنعت الفكر، فالذكر في الصلاة يطرد الغفلة التي هي الفحشاء، والفكر يطرد الخواطر المذمومة وهي المنكر هذا في الصلاة، وبعد الصلاة تنهى الصلاة الحقيقة التي تنهى صاحبها عن رؤية الأعمال والأعراض، فإذا كان كذلك الصلاة يتكون قرة عيون العارفين، بقوله ﷺ: «قرَّةُ عيني في الصلاة»[1].

وقال ابن عطاء: بركات الصلاة تذهب بعقاب الفحشاء ونيات المنكر.

قال جعفر: الصلاة إذا كانت مقبولةً فإنها تُنهى عن مطالعات الأعمال وطلب الأعراض، وقوله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ للعارف بذكرٍ خالصٍ في السرِّ غير مشوبٍ بحركات الصورة، وذلك نورٌ صدر من أنوار كشوف صفات الحق حين أظهر جلاله وجماله لروحه، وله ذكرٌ مشوبٌ بالأعمال الظاهرة مثل الصلاة وجميع الأعمال، والذكر الأول أصفى وأجل؛ لذلك قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ لأنه غير مكتسبٍ مقدسٌ عن العلل، وأيضًا ذكر الله الأزلي للعارف حين اصطفاه بمعرفته أكبر وأعظم من أن يدركه أحدٌ بالكسب والأعمال، وأن يلحقه نقضٌ أو نقصٌ من جهة الحدث، وإذا قلت ذكر الله للعباد أكبر من ذكر العباد له قابلت الحادث بالقديم، وكيف تقول الله أحسن من الخلق، ولا يوازي قدمِه إلا قِدمه ولا يقابل ذِكره إلا ذكره، وأنَّى يكون الأكوان والحدثان في سرادق الرحمن؟! وكيف يبقى الكون في سطوات المكون؟!

قال الواسطي: من شاهد نفسه في ذكره فقد شاهد نفسه في مقابلة من لا يقابله شيء، والله يقول: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من أن يكون أحدٌ فيه بحق العبودية، فكيف بحقوق الربوبية؟!

قال أيضــًا: ذكر الله لكم في الأزل أكبرُ وأحكمُ وأقدمُ وأتمُّ.

وقال ابن عطاء: ذكر الله أكبر من ذكركم؛ لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوبٌ بالعلل والأماني والسؤال.

قال القاسم: ذكر الله أكبرُ من أن يحويه أفهامكم وعقولكم، وحقيقة الذكر طرد الغفلة، وإذا لم تكن الغفلة فما وجه الذكر؛ لأنه أكبر من أن يلحقه ذكرٌ أو يدنيه إشارةٌ؛ لأن الإشارة تطلب الأين، والأين يلحقه الحين.

وقال الأستاذ: لذكر الله أكبر من أن يعرف قدره أحدٌ وأكبر من أن يعارضه ذكرٌ، ويقال ذكر الله أكبر من أن يبقى معه وحشةٌ.

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾: إن الله سبحانه أزال عن ساحة الاصطفائية الأزلية وشرف النبوة والرسالة المصطفوية لنبيه صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والرسل علل التكلف والأسباب بما أخبرنا بهذه الآية ما علمناه من إنبائه تقديس الولاية، والفضل العميم القديم السابق في حق العارفين والمحبين.

قال أبو سعيد الخراز في هذه الآية: أبيدت عنه الرسوم وأشكال الطبائع؛ لما فيه من تدبير المحبة والاختصاص بخصائص القربة، فلم يتدنس بمرسوم، ولم يرجع إلى معلوم؛ لذلك لما بدهه الحق أثّر فيه حيث وجده خاليًا عما فيه الأغيار، ألا ترى أنه لما قيل له: ﴿ٱقْرَأْ﴾ قال: ما أنا بقارئ، فقيل له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فلما قيل له: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ سكن إليه وألفه؛ لخلوه عن التدنس بالمرسومات.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾: عرائس حقائق القرآن لا تنكشف إلا لأرواح المقربين من العارفين والعلماء الربانيين؛ لأنها أماكن أسرار الصفات وأوعية لطائف كشوف الذات، وما سواها من الوعاء أليق بظواهر الخطاب وصورتها مع أهل الشرائع.

قال أبو بكر بن طاهر: علوم الدراية جعل وعاءها صدور العلماء ربانيين، وآيات ذلك ظاهرةٌ عليهم، وأنوارها مشرقةٌ فيهم، فلا ترى عالمًا مستعملاً بعلمه راعيًا لأحكام الحق عليه،

وموارد الحق إياه إلا وأنوار هيبته تشتمل على قلوب حاضريه فلا يكون مجلسه إلا مجلس أدبٍ.

﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾: بسط الحق بساط عطايا الكرم ونورها بشروق شموس القِدم لطلاب مشاهدته وقربه ووصاله من العارفين والمحبين.

قال سهل: إذا عمل بالمعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: قهر سلطان كبريائه أعدم كل موجودٍ سواه وإن بقي؛ لأن بقاء الخلق ببقاء الحَق يكون ليس لهم بقاء بالحقيقة، إنما البقاء لمن له أزلٌ وقِدمٌ.

قال الجنيد: النفوس وإن عظمت خطرتها فإنها مردودةٌ إلى قيمتها لا يثبت لها حال ما دامت قائمة بأنفسها، إلا أن يُفني الحق شاهدها عنها ويحييها بشواهد إشهادٍ منه إياها إذ ذاك تحيا ويزول عنها العلل، قال الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: ما دامت ما فيه قائمة بذواتها، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بما لنا، فتسقط عنها العوارض والعلل، ويقيمها مقام الصدق.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾: حثَّ سبحانه العباد بالتوكل عليه

والتيقن بلطيف صنعه والكرم العميم منه على جميع البرية، وبأن يرضى العباد بما يجري عليهم من الأقدار السابقة في الأزل، ولا يكونوا مهتمين بما يستقبلون من الأيام الباقية والأعمار الماضية بجهة الرزق؛ لأنه تعالى قدَّر مقادير الخلق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنةٍ، وما قدَّر في الخلق والرزق والأجل لا يتبدل بقصد القاصدين وجهد الجاهدين، ألا ترى إلى الوحوش والطيور لا تدَّخر شيئًا إلى الغد «تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[1]؛ لاتكالها على الله بما وصل إلى قلوبها من نور معرفة خالقها، كيف يكون الإنسان يهتم لأجل رزقه ويدَّخِر شيئًا لغده ولا يعرف حقيقة رزقه وأجله، فربما يأكل ذخيرته غيره ولا يصل إلى غده؛ لذلك كان ﷺ لا يدَّخر شيئًا لغدٍ؛ إذ الأرزاق مجددةٌ كالأنفاس المجددة في كل لمحة، ولذلك وصف الله سبحانه في أوائل الآية أهل التوكل والرضا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢]، ثم بيَّن أنه تعالى رازق جميع ذوات الأرواح بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾؛ ليسقط عن القلوب اهتمام الرزق من قلوب الخصوص والعموم؛ لأجل نفوسهم ولغيرهم؛ لأنه سميعٌ مقالة السائلين في طلب حوائجهم منه، عليمٌ بما ادخره من أرزاقهم في خزائن جوده، ودقيقة إشارة التوحيد أن الأرزاق في أماكن العدم معدومةٌ ولا يوجدها بالحدثان؛ لأن إيجادها من نعوت قوة الرحمانية الأزلية، ولو يحصرها بجميعها كيف تحملها الدابة، وأصل حقيقة الرزق مشاهدة العدم والأرواح لا تحمل سطواتها في وقت التجلي، بل الله يكسبها قوةً أزليةً تحمل بها منه ما عليه من كنه كشفه.

قال بعضهم في تفسير قوله: ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ قال: لا تدَّخر شيئًا لغدٍ.

قال النهرجوري: لا تجزعوا من التوكل؛ فإنه عيشٌ لأهله، قال الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾.

وقال ابن عطاء: يرزقها بالتوكل، ويرزقكم بالطلب.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾: افهم يا غافل أن الله سبحانه اختار أهل صفوته بالاصطفائية القدمية، وخصَّهم بعرفان نفسه والإيقان فيما بان منه لهم من أنوار الربوبية في مقام العبودية، فطارت أرواحهم من عالم الملكوت بأجنحة أنوار الجبروت في أوائل إيجادها إلى الأكوان؛ لحصول عبودية الرحمن، فصحبها سنا قربه وضياء دنوه وحلاوة أنسها بما رأت من جلاله وجماله، فتحركت من الأزل إلى الأبد بنعت شوقها إلى صانعها، وما

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٥٧٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٤)، وأحمد (١/ ٥٢).

طرأ عليها السكون، بل غلب عليها شوق معادنها، فحركاتها جذبًا منه تعالى إليه ومحبّةً وشوقًا، فلما هامت في ميادين الشوق من غلبة السكر والذوق ولا تعرف مسالك الربوبية بالحقيقة فيكشف الله لها سنا القدس فتصل به إلى حجال الأنس، وتعرف هناك سبيل الصفات، وتتطرق من مدارجها إلى معارج طرق معارف الذات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: جاهدوا بالله في الله لله، فيعرفون الله بالله، وهو معهم بإعطائه إياهم كشف جماله؛ لأنهم يشاهدونه بنعت المراقبة، وبذل وجوههم لحب المشاهدة[1]، وذلك معنى قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾، وأصل المجاهدة فطام النفس عما دون الله من العرش إلى الثرى، سبل المجاهدة من العبد إلى الله أو من الله إلى العبد.

فقال: ما من شيء إلا الله موجده قال الله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: أوجدكم وأوجد أعمالكم بلا شريك ولا عون فالخلق فأنتم بالخلق قائمٌ بالخلق.

قال ابن عطاء: ﴿وَٱلَّذِين جَـٰهَدُواْ فِينَا﴾ أي: في رضانا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُم﴾: الوصول إلى محل الرضوان.

قال الجنيد: لنهدينهم سبيل الإخلاص.

قال ابن عطاء: المجاهدة صدق الافتقار إلى الله بالانقطاع عن كل ما سواه.

قال النهرجوري: والذين جاهدوا في خدمتنا لنفتحنَّ عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا والمشاهدة لنا، ومن لم يكن أوائل أحواله المجاهدة كانت أيامه وأوقاته موصولة بالتواني والأماني، ويكون حظه البعد من حيث يأمن القرب.

قال عبد الله بن منازل: المجاهدة علم أدب الخدمة لا المداومة عليها، وأدب الخدمة أعزُّ من الخدمة.

قال الشيخ أبو عبد الله بن خفيف: وكل محتملٍ لثقل العبودية في اختلاف ما وضع الله من عوضٍ وفضلٍ فهو داخلٌ في أحوال المجاهدين.

قال الأستاذ: شغلوا ظواهرهم بالوظائف، فأوصل إلى سرائرهم اللطائف.

---

(١) وفي التأويلات النجمية قوله: هذا مثل ضربه الله تعالى للخلق تعريفًا لذاته وصفاته، فلكل طائفة من عوام الخلق وخواصهم اختصاص بالمعرفة من فهم الخطاب على حسب مقاماتهم وحسن استعدادهم فما العوام فاختصاصهم بالمعرفة في رؤية شواهد الحق وآياته بإرآته إياهم في الآفاق، وأما الخواص فاختصاصهم بالمعرفة في مشاهدة أنوار صفات الله تعالى وذاته تبارك وتعالى بإرآته في أنفسهم عند التجلي لهم بذاته وصفاته.

سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝﴾.

﴿الٓمٓ﴾ : إشارة الألف هاهنا إلى اشتياق قلوب المشتاقين إلى لقائه، وإشارة اللام والميم إشارة كيف جماله لأرواح المحبين العاشقين لوجهه بقوله تعالى:﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ : إشارةٌ إلى أن الأرواح وإن كانت مغلوبة من النفوس الأمّارة والشياطين الكافرة امتحانًا من الله وتربية لها بمباشرة القهريات، فإنها تغلب على النفوس حين يخرج من مقام الاختيار.

قال تعالى:﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝﴾ : نفى كل نفس قاتل الأرواح النفوس، فالمؤيد من أعانه الله على نفسه بأن قوّاه في العبودية بشراب المحبة والقربة، ثم بيّن أن القهر واللطف يتعلقان به، والنصر والخذلان يصدران منها بقوله:﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: له أمر الاصطفائية في الأزل ورعايتها له إلى الأبد، فإذا انكشفت أنوار العناية انهزمت ظلمات الطبيعة تفرح الأرواح بتأييد الله حين عاينت ملكوت الله بقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ : من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء؛ لأنه المبدئ والمعيد.

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝ وَيَوۡمَ تَقُومُ

ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾: وصف المدققين من أهل السالوس والطرارير من أهل الناموس بأنهم عرفوا الأحكام الدنيوية، وهم محجوبون عن معاملات الله، غافلون عما فتح الله على قلوب أوليائه الذين غلب عليهم شوق الله، وأذهلهم حبُّ الله عن تدابير عيش الدنيا ونظام أمورها؛ لذلك قال ﷺ: «أنتم أعلمُ بأمور دنياكم، وأنا أعلمُ بأمور آخرتكم»[1].

قال القاسم: من كان عن الآخرة غافلاً كان عن الله أغفل، ومن كان غافلاً عن الله فقد سقط عن درجات المتعبدين.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

---

(١) رواه ابن حزم في الإحكام (٥/ ١٢٨).

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ : من كان في الدنيا على حد التفرق فيوم القيامة يرجع إليها، ومن كان في الدنيا على حد الجمع فيكون في الآخرة جمعًا، ومن كان مع الله فهو جمع ومن كان مع غير الله فهم متفرقون إلى أماكنهم من السعادات والشقاوات والبعاد والقربات، فأهل القرب في مشاهدة الأنس والقدس، وأهل البعاد في الوحشة والتفرقة.

قال أبو بكر بن طاهر: يتفرق كلٌ إلى ما قُدِّر له من محل السعادة ومنزل الشقاوة، ومن كان تفرقه إلى الجمع كان مجموع السر، ينقلب إلى محل السعداء، ومن كان تفرقه إلى فرقة كان متفرق السر، ثم لا يألف الحق أبدًا فيرجع إلى محل أهل الشقاوة، ثم فسر الله سبحانه حال الفريقين بالنعتين المتضادين بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ : وصف أهل الحبور بالإيمان والعمل الصالح، فأما إيمانهم فشهود أرواحهم مشاهد الأزل في أوائل ظهورها من العدم، وأما أعمالهم الصالحة فالعشق والمحبة والشوق، فآخر درجاتهم في منازل الوصال الفرح بمشاهدة الله والسرور بقربه، وطيب العيش بسماع كلامه وخطابه، يطربهم الحق بنفسه أبد الآبدين في روح وصاله وكشف جماله، فابتداء أحوالهم في صباح الأزل تنـزيه القدم، وفي مساء الأبد قدس البقاء بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي: إذ طلع في قلوبكم صبحٌ مشرق الأزل فكونوا بنعت التنـزيه في طلب عيشكم بالمشاهدة، وإن تروا جلال ذاته وأنوار صفاته في سربال الأفعال فإن هناك مكر الفعل غالبٌ، لئلا تقعوا في التشبيه من غلبة ذوق العشق، وكذا كونوا إذا تخفى عليكم الكشوف ويأتي عليكم مساء الصحو هذا نعمة عظيمة لا يقوم الحدثان بشكرها، فحمد سبحانه نفسه بألسنة كل ذرةٍ من العرش إلى الثرى فعلاً وصفةً بقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فهذا وصف تنـزيه العارفين في يدي سماعهم ومنتهى حالهم في السماع، وهم في روضة شهود الأنس سمعوا بأرواحهم القدسية وعقولهم الملكوتية سماع الحق من نفسه حيث قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ كيلا يقعوا في بحار الأنانية من حدة سكرهم في المحبة والمشاهدة، فيخرجوا عليه بدعوى الربوبية، ليس هاهنا مقام هذا المقال، إنما أردنا

شرح مقام السماع فإن الله بجوده وجلاله يُطَيِّب أوقات عشَّاقه بكل لسانٍ في الدنيا وكل صوتٍ حسن في الآخرة.

قال الأوزاعي في تفسير قوله: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ : إذا أخذ في السماع لم يبق في الجنة شجرة إلا وردت.

وقال: ليس أحدٌ من خلق الله ﷻ أحسن صوتًا من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطع على سبع سماوات صلواتها وتسبيحها.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين منها كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها سموًّا وأوسطها محلة، ومنها يتفجر أنهار الجنة وعليها يوضع العرش يوم القيامة. فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله إني رجلٌ حُبِّب إليَّ الصوت الحسن فهل في الجنة صوتٌ حسنٌ؟ فقال: أي والذي نفسي بيده إن الله ليوحي إلى شجرة في الجنة أن أسمعي عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي وذكري عن البرابط والمزامير، فترفع صوتًا لم يسمع الخلائق مثله قط في تسبيح الرب وتقديسه»(١).

وعن أبي الدرداء قال: «كان رسول الله ﷺ يذكِّر الناس فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي آخر القوم أعرابيٌّ فجثا لركبتيه، فقال: يا رسول الله هل في الجنة من سماع؟ قال: نعم يا أعرابي، إن في الجنة لنهرًا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قط، وذلك أفضل من نعيم الجنة، قال: فسأل أبو الدرداء: بما يتغنين؟ قال: بالتسبيح إن شاء الله. قيل الخوصانية المرهفة الأعلى الخمصة الأسفل»(٢).

وعن مغيرة عن إبراهيم قال: «إن في الجنة لأشجارًا عليها أجراسٌ من فضةٍ، فإذا أراد أهل جنة السماع بعث الله ريحًا من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار، فتحركت تلك الأجراس بأصواتٍ، لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربًا»(٣).

وسئل أبو هريرة: «هل لأهل الجنة من سماع؟ قال: شجرةٌ أصلها من ذهبٍ وأغصانها من فضةٍ وثمرها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، يبعث الله ريحًا فيحكُّ بعضهَا بعضًا، فما سمع أحدٌ شيئًا أحسن منه»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٠٢٨)، والترمذي (٤/ ٦٧٤).

(٢) رواه ابن حبان في المجروحين (١/ ٣٣١)، وابن عدي في الكامل (٣/ ٢٨٥).

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٣).

(٤) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٤٦٠).

فافهم، مثل هذه الأحاديث كثيرة وههنا غاية مقاصدنا تفسير قوله سبحانه: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾، ورُبَّ روضةٍ في الدنيا للعارف الصادق العاشق بالله يرى الحق فيها ويسمع من الحق السماع بغير واسطة، وربما يكون بواسطة، فيسمعه الحق من ألسنة كل ذرة من العرش إلى الثرى أصواتًا قدوسية وخطابات سبوحية.

قال جعفر: بالله فابدأ في صباحك، وبه فاختتم في مساءك، فمن كان به ابتداؤه وإليه انتهاؤه فلا يشقى فيما بينهما.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: الدين طريق القدم، والحنيفية التبرؤ من الكون، وإقامة الوجه الإعراض عن الكل والإقبال بعد فناء النفس والكل على الأزل، فهذه بمجموعها فطرة الحق التي فطر الخلق بتلك الفطرة، ولا يبتدأ هذه الفطرة من حالها؛ فإنها طرق القدم في مكمن العدم، وإذا استقام في السير من العدم إلى القدم وكمل من الحقائق بحيث لا يعوج عن الإقبال على الحق بشيء من الحدوثية، فمحض ذلك الانفراد مع الوصول أصل الدين؛ لذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، خاطب الحق حبيبه في بداية تخلصه من نفسه، ومن الكون بعد إقبال الحق عليه أن يستقيم بنعت التجريد في توحيده، ومسيره إلى جلاله في طريق محبته وعبوديته.

قال أبو علي الجوزجاني: دعا الله عباده إلى الإخلاص من كل وجهٍ، وأخبر أن من كان في ظاهره وباطنه شيءٌ سوى الحق لم يكن مخلصًا في قوله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: معرضًا عن الكل، مقبلاً عليه أي: مطهَّرًا عن الأكوان وما فيها.

قال ابن عطاء: الفطرة ما فطرهم عليه وثبَّتها في اللوح المحفوظ.

وقال: الدين القيم الطريق الواضح لأهل الحقائق.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ

لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾: راجعين إليه من الحدوثية بعد الاتصاف بالربوبية والقوة أي: لا تدَّعوا الأنائية؛ فإنكم في منازل التوحيد وحقيقة التوحيد ألا تنسى صولة القدم على الحدث، وإن كان مستغرقًا في بحر القدم.

قال ابن عطاء: راجعين إليه من الكل خصوصًا من ظلمات النفوس، مقيمين معه على حد آداب العبودية لا يفارقون عرصته بحال، ولا يخافون سواه، هذا حد المنيبين.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: الزكاة بذل الوجود، فإذا بذلت بحد إرادة طلب جماله جلَّ جلاله فيقع التضعيف في أجر الوصول، وهو دنو الدنو بعد الدنو.

قال سهل: وقع التضعيف لإرادة الله وجه الله به لا إلى إيتاء الزكاة، والزكاة زكاة البدن في تطهيرها من المعاصي وزكاة المال في تطهيره من الشبهات.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: خلقكم بحكمته، ورزقكم بمحبته ومعرفته، ثم يميتكم عنكم وعن الكون، ثم يحييكم بحياته، وأيضًا يميتكم بسطوة عظمته، ثم يحييكم بجمال وصلته، ثم بقي في مواهبه السنية على الاكتساب والخليقة بقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾، ثم نـزَّه نفسه عن تناول أحدٍ بسببٍ ما أو أن يكون عطاؤه بعلة، وقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قال الحسين: خلقكم بقدرته ورزقكم معرفته، وأماتكم عن الأغيار وأحياكم به.

قال ابن عطاء: رزقكم العلم به والرجوع إليه.

قال شقيق: كما لا تستطيع أن تزيد في خلقك ولا في حياتك كذلك لا تستطيع أن تزيد في رزقك، فلا تتعب نفسك في طلب الرزق.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى

عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾: إن الله سبحانه غلب الإنسانية على الكون طاعةً ومعصيةً، فإذا رزق الإنسان الطاعة صلح الأكوان ببركتها، وإذا رزقه العصيان فسد الحدثان بشؤم معصيته؛ لأن طاعته ومعصيته من تأثير لطفه وقهره، ولطفه وقهره هذا بنعت الاستيلاء على الوجود، فإذا فسادها يؤثر في بر النفوس وبحار القلوب، ففساد بر النفوس فترتها عن العبودية، وفساد بحر القلب احتجابه عن مشاهدة أنوار الربوبية.

قال الواسطي: البر النفس، والبحر القلب، وفساد النفس متعلقٌ بفساد القلب، فمن لم يعمل في إصلاح قلبه بالتفكر والمراقبة وفي إصلاح نفسه بأكل الحلال ولزوم الأدب ظهر الفساد في ظاهره وباطنه.

وقيل: في البر والبحر أنه السرائر والظواهر.

قال جعفر: شاهد البر من عرف نفسه، وشاهد البحر من عرف قلبه، وصلاح هذين بالهيبة والحياء، فهيبة الرب تزيل فساد الظاهر، والحياء منه يميت فساد الباطن.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾: رياح اللطف تهب في قلوب العارفين، وتبشر بأنوار المشاهدة والكشف ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾: من وصلته بعد الكشف والعيان، ﴿ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾: يجري القلب في بحر مشاهدته، ويسري في

أنوار الصفات والذات بإرادته ومحبته، ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾: تبتغوا من وجوده، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾: ظهور الربوبية في العبودية، قيل رياح القدس تبشِّر بمنازل الأُنس.

وقال النصر آبادي: هو أن يظهر عليك أوائل الاسترواح إلى ذكره، فيكون ذلك إشارة بالوصول إلى المذكور.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾[1] إن الله سبحانه يزين الأرض بأنوار فعله، فينبت الحضر بورد الورد، ويضيء الزهر والنبات، ويتجلى من أنوار صفته فيها لا عين العارفين الذين شاهدوا الله بنعت الحسن، ووصفهم الأنس بالورد والريحان والسماع ووجوه الحسان، ألا ترى إلى النبيِّ ﷺ كيف أشار بقوله «النظرُ إلى الوجهِ الحسنِ يُزيدُ في البصرِ»[2]، وقال ﷺ: «النظرُ إلى الخضرة والماء الجاري يُزيدُ في البصر»[3].

قيل: أي يحيي الأنفس الميتة بالشهوات، والقلوب الميتة بالغفلات بأنوار معرفته وآثار هدايته.

قال الأستاذ: يحيي الأرواح بعد حجبتها بأنوار المشاهدات، فتطلع شموسها من برج

---

(١) اعلم أن وجه الإنسان عند مسِّ الهمِّ، ووقت الغمِّ؛ كوجه الأرض في الشتاء حيث إن كلاًّ منهم يتغيَّر عن حاله؛ وهو موته، ثم يحييه الله برحمته التي هي المطر بالنسبة إلى الأرض، والسرور بالنسبة إلى القلب، وأثر تلك الرحمة؛ الخضرة في وجه الأرض، والانبساط في البشرة، فقد أشارت الآية بأن ذلك الموت ليس بمستمر؛ بل يتعقَّبه الحياة على ما يقتضيه الأسماء الإلهية الحاكمة على هذا العالم، المدبِّرة في الأنفس، والآفاق المؤثِّرة في الظاهر والباطن، ولمَّا كان ذلك موقوفًا على النظر الصحيح؛ قال: فانظروا، ونظير ذلك الليل والنهار والنوم واليقظة، والسحابة على وجه الشمس، والانكساف والكدورة للماء وصفوته، ثم الموت والحياة المذكوران، وإن كانا مجازيين عند أرباب الظاهر؛ لكنهما حقيقتان عند أهل الباطن، فإن للأرض روحًا نباتيًا، كما أن للإنسان روحًا حيوانيًا بل للإنسان روح نباتي أيضًا به يشتهي الأكل والشرب، وبه تربيته في بدنه لا بالروح الحيواني، وإن كان الروح الحيواني مبدأ الحسِّ الحركة.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٨٧).

(٣) رواه الشهاب في مسنده (١/ ١٩٣).

السعادات، ويتصل بمشام الكافة، فيتم ما نقص عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحب يقين إلا حظي منه بنصيب.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾: فطرة آدم ﷺ خلقت بنعت الضعف عن حمل وارد أنوار الربوبية وعرفان حقائق الألوهية؛ لأنها كانت حادثةً وقعت في موازاة القدم، ففنيت بسطوة بقاء الأزل.

قال الواسطي: خلقه خلقة لا يمكنه أن يجر نفعًا ولا يدفع ضرًّا، هل هو إلا الضعف التام.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: سلى نبيه ﷺ في احتمال جفوة المعاندين والمخالفين، وحثه على الصبر في أداء الرسالة ومباشرة الشريعة التي شغلته عن مشاهدة القدم، قال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ في العبودية، فإن بعد أداء العبودية كشف الربوبية لك، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: بكشف الحجاب لك، ويا عاقل إن أشد الصبر، الصبر في الحجاب، ثم الصبر في العتاب، ثم الصبر في كشف النقاب، ثم الصبر في الخطاب، ثم الصبر في القربات، ثم الصبر في المداناة، ثم الصبر في الوصلات، ثم الصبر في لطف الأنس، ثم الصبر في سطوة القدس، ثم الصبر في الانبساط، ثم الصبر في العربدة، ثم الصبر في الاتصاف، ثم الصبر في الاتحاد، ثم الصبر في السكر، ثم الصبر في الغيبة عن الحق، ثم الصبر في رؤية نفسه بعد غيبة الحق، ثم الصبر في غلبة الأنائية، هذا أشد جميع الصبر والاصطبارات، ولا يعرف هذه المقامات في الصبر إلا ذو الكمال من العارفين.

وقال رويم: الصبر ترك الشكوى. وقال المحاسبي: الصبر التهدف بسهام البلاء.

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾.

﴿الٓمٓ ۝﴾ : الألف إشارةٌ إلى ألفة العارفين، واللام إشارةٌ إلى لطيف صنعه في المستحسنين، والميم إشارةٌ إلى معالم أنوار محبته في قلوب المحبين، ثم لين زمام الخطاب إلى الإشارة في معنى الحروف بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝﴾ أي: هذه الرموز آيات الكتاب المحكم المبين لطائف الحكم التي لا يدركها إلا أهل الفهم الذين هداهم نوره إلى ما كان فيه من الشرف والفضل والإرشاد إلى معدن الصفة، هم الذين وصفهم الله بالإحسان والهداية والمغفرة والعرفان بقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝﴾ عرفهم حقائق مراد الله، وأوقعهم في بحار مشاهدة الله.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝﴾ : أنوار الخطاب المحكم لك وعليك.

قال شاه الكرماني: ثلاثةٌ من علامات الهدى: الاسترجاع عند المصيبة، والاستكانة عند النعمة، ونفي الامتنان عند العطية.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: الإشارة فيه إلى طلب علوم الفلسفة من علم الإكسير والسحر والنيرزجات وأباطيل الزنادقة وترهاتهم؛ لأن هذه كلها

سبب ضلالة الخلق بقوله: ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾.

قال سهل: الجدال في الدين والخوض في الباطل.

قال أبو عثمان: كل كلام سوى كلام الله وسنة رسوله أو سير الصالحين فهو من لهو الحديث.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ الحكمة ثلاثة: حكمة القرآن، وهي حقائقها، وحكمة الإيمان، وهي المعرفة، وحكمة البرهان، وهي إدراك لطائف صنع الحق في الأفعال، وأصل الحكمة إدراك خطاب الحق بوصف الإلهام.

قال شاه: ثلاثةٌ من علامات الحكمة: إنزال النفس من الناس منزلتها، وإنزال الناس من الناس لظنهم، ووعظهم على قدر عقولهم، فيقوموا بنفع حاضرٍ.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾: رؤية ما دون الله شركٌ في التوحيد من العرش إلى الثرى، والشرك على ثلاثة أقسام: شرك النفس، وهو حظُّها من الدنيا، وشرك العقل، وهو حظُّها من الآخرة، وشرك القلب، وهو حظُّها من صفاء العبودية، وأخفى من الشرك ما تستلذُّ الروح من تروح أنس الله، وهو أعظم الحجاب؛ لأن من بقي من حظه الأكبر فقد احتجب عن الغوص في بحار الألوهية والسير في ميادين الأزلية، والوصل زجر النفس عن الاشتغال بها دون الله.

قال بعضهم: وعظ لقمان ابنه في ابتداء وعظه على مجانبة الشرك وهو التفرد للحق بالكل نفسًا وقلبًا وروحًا، فلا تشتغل بالنفس إلا بخدمته، ولا تلاحظ بالقلب سواه، ولا تشاهد بالروح غيره، وهو مقام التفريد في التوحيد.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾: بيَّن سبحانه طريق الجمع والتفرقة في هذه الآية فالجمع ما قال: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى ﴾، فإذا أضاف الشكر إلى الغير فقد شغله بالتفرقة؛ لأن السبب غير المسبب، والعارف إذا كَمُل في معرفته فقد سقط عنه رؤية

السبب والاشتغال بالوسيلة، ألا ترى كيف دعا العارف من التفرقة إلى الجمع بقوله: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لأن من بلغ إلى الحق فالرجوع إلى غيره، وإن كان وسيلة الحسنة فهو شركٌ، وشكر المفرد معرفة المشكور بنعت الاعتراف بالعجز عن شكره؛ لأنه تعالى أجلُّ وأعظم من أن يشكره أحدٌ سواه، وشكر الوالدين؛ لأنهما مدارج أفعال الربوبية، وإذا شكرت الفعل شكرت الصفة، وإذا شكرت الصفة شكرت الذات، وإذا كنت كذلك فقد وصلت إلى عين الجمع، فالأول جمع الجمع، وهو قوله ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾، والثاني عين الجمع، وهو قوله: ﴿وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾، فإذا كنت مشاهد الكل في عين الجمع فصار عين الجمع جمع الجمع، كذلك أدق الإشارة بقوله: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لأن عين الجمع وجمع الجمع واحدٌ في صورة التوحيد لا في حقيقة التوحيد؛ لأن حقيقة التوحيد إفراد القدم عن الحدوث.

وقال ابن عطاء: اشكره حيث أوجدك، وكثيرًا ما سمعت سيدي الجنيد يقول في خلال كلماته: (اشكر من كنت منه على بال حين خلقك، واشكر والديك إذ ههنا سبب كونك، فمن استغرقه شكر المسبب قطعه عن شكر السبب، ومن لم يتحقق في شكر المسبب رد إلى شكر السبب).

قال الأستاذ: شكر الحق بالتعظيم والتكبير، وشكر الوالدين بالإشفاق والتوقير.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾: والمعروف ههنا أن تعرفهما مكان الخطأ والغلط في الدين عند جهالتهما بالله.

قال بعضهم: عاملهما معاملةً جميلةً، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: إذ قال فلا تطعهما نفى عنه متابعة المغالطين وحثَّه على متابعة المنيبين إليه من الصادقين.

قال ابن عطاء: صاحب من ترى غلبة آثار أنوار خدمتي عليه.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾: كيف يخفى على موجد الأشياء شيءٌ وهو منشئه؛

فهذا تنبيهٌ منه لإحاطة علمه القديم بكل ذرةٍ من العرش إلى الثرى ظاهرها وباطنها؛ حتى يفرغ المراقب الصادق من اطلاع الحق بوصف العظمة والكبرياء على نوادر الخطرات وبطون الحركات، فإن كان خاطره بادرًا من قهره سبحانه تستتر في جريانه في صخرة النفوس أو في سماء الأرواح أو في أرض القلوب، يظهره الحق إلى عرصة العقل لعين السر، فيحاسبه بذلك، ويعرفه مكان نفعه وضره؛ ليعرف صاحبه وصف جلال علمه كيف يحيط بأسرار الضمائر وبطون الخواطر، ألا ترى إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ !

قال عبد العزيز المكي: مثال ﴿ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ ﴾ مجتمعة أو في سبع سماوات وأرضين متفرقة يأتي بها الله مجتمعة على صاحبها؛ لأن الله لطيفٌ خبيرٌ لطف أفعاله عن أن يدركه أحدٌ بعقل.

﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ : الأمر بالمعروف أن ترشد الخليقة إلى الحقيقة بعدما ذقت طعم القربة، والنهى عن المنكر زجرك نفسك عن النظر إلى ما دون خالقها.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي: اصبر على طوارق القهر وامتحان الريب، واسكن تحت جريان القضاء والقدر؛ فإن ذلك من عزائم الحقيقة والمعرفة، وأيضًا: واصبر على ما أصابك من لطائف كشف جماله وحقائق أنوار ذاته وصفاته، ولا تفشِ تلك الأسرار بالغلبة والسكر حين يظهر الشَّطَّاح السكران دعوى الأنائية، فإن كتمانها من عزائم أهل الصحو في المعرفة.

قيل: الأمر بالمعروف الدلالة على الرشد، والنهي عن المنكر المنع عن الغي.

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ : إن العارف إذا شرب من بحر الوحدانية شربةً فرح بوجه الحق وكاد أن يتبختر بالعز والكبرياء من صولة الحال، فيؤدبه الله بأن يلقي عليه عزة الوحدة، فيفنيه تحت أنوارها حتى يخرجه من حد السكر إلى حد الصحو؛ فتكون خطواته خطوات أهل التمكين لا خطوات أهل التلوين، وكل مريدٍ يشرب

من سواقي صفاء العبودية شربةً تفرحه بفرحة الوقت وصفاء الذوق، فيهيجه إلى الزفرات والشهقات، ولا يجوز ذلك له؛ فإن أصواته ممزوجةٌ بخطوات الطبيعة، مخلوطةٌ بهواجس النفسانية، فإذا صاح صارت صيحته صيحة الطبيعة لا صيحة الحقيقة؛ لذلك نهاه الله بقوله: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

قال سفيان الثوري: صوت كل شيء تسبيحٌ إلا صوت الحمير؛ فإنها تصيح لرؤية الشيطان؛ لذلك سماه الله منكرًا.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾: كن فانيًا عن شواهدك، مصطلمًا عن حولك، مأخوذًا عن قوتك وحولك، متنسقًا بما استولى عليك من كشوفات سِرِّك، وانظر من الذي يسمع صوتك حتى تستفيق من حمار غفلتك: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ في الإشارة أنه يتكلم في لسان المعرفة من غير إذن من الحق.

وقالوا: هو الصوفي يتكلم قبل أوانه.

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾: النعمة الظاهرة: الخَلْق الحسن، والخُلُق الحسن، والأدب الحسن، والظرف، والهيئة اللطيفة، ومتابعة السنة، والاجتناب عن المعصية، والتواضع في أولياء الله، والعبادة الصافية، والعافية والصحة والسلامة، وأن تكون مكسوًا بشمل نور الروحانية والربانية، والنعمة الباطنة: الفطرة السليمة، والاستعداد لقبول الغيب والعقل الكامل والفطنة والذكاء والحكمة والفهم وطمانينة النفس وصفاء الروح، واتصال الذكر على الدوام والإيمان والإيقان والعرفان والإخلاص والتوحيد، وثمرات هذه الأشياء الوجد والحال والمراقبة والأنس والحياء والمحبة والشوق والعشق، فإذا بلغ الرجل إلى هذه المراتب يهيئ الله له بالظاهر مجالسة الأولياء مع السماع بصوتٍ طيبٍ وموضعٍ طيبٍ فيه وجهٌ حسنٌ، والطيب والريحان بلا كدورة ولا فترة ولا صحبة الأضداد، ويلقي في قلبه بروق نيران الأشواق المهيجة لسره إلى مواصلة الحق بنعت المحبة والأنس، فهو ممن أسبغ الله عليه نعمه الظاهرة والباطنة.

قال بعضهم: النعم الظاهرة العافية والأمن، والنعم الباطنة الرضا والغفران.

قال الجنيد: النعم الظاهرة الأخلاق، والنعم الباطنة المعرفة.

قال أبو بكر الوراق: النعم الظاهرة استواء الخلق، والنعم الباطنة حسن الخلق، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ كما حسَّنت خَلْقِي فحسِّن خُلُقي»(١).

قال بعضهم: النعمة الظاهرة اتباع ظاهر العلم، والنعمة الباطنة طلب الحقيقة في الاتباع.

وقال الأستاذ: النعمة الظاهرة نفس بلا ذلة، والباطنة قلب بلا غفلة.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أي: من بذل وجوده لوجدان وجود الحق سبحانه وهو يعرفه وتكون معرفته مستفادة من مشاهدته لا بتقليد العلم والأدلة العقلية فقد استمسك بعروة المحبة الأزلية لا يتكدر بعلل الحدثان، والإحسان مشاهدة الربوبية في العبودية، والعروة الوثقى المحبة المتصلة بالألوهية.

قال سهل: من يخلص دينه لله ويحسن آداب الإخلاص، وقال العروة الوثقى هي السنة.

وقال أبو عثمان: العروة محمد ﷺ.

وقال أيضًا: هي كتاب الله وسنة رسوله.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾: افهم كيف تنفد كلمات الحق وكلماته الأزلية السرمدية وللعارف بكل نفس منه من الحق سبحانه بالمثل ألف خطاب، ولا ينقطع عنه خطابه أبدًا، ولكل خطاب له وجد وله

---

(١) رواه ابن حبان في الصحيح (٣/ ٢٣٩)، والديلمي في الفردوس (١/ ٤٨١).

كشف وعيان وبيان وبرهان ولسان وعلم وحكمة وعمل وإخلاص وعجز وإدراك.

قال ابن عطاء: كلماته علم كتابه وعجائب حكمته.

وقال أبو سعيد الخراز: كلام الحكماء لا ينقطع عن عيون الحكمة كما أن ماء العين لا ينقطع عن عينه؛ لأن حكم الحكيم تلقين من رب العالمين من خزائنه، وخزائنه لا تنفد، ألا تراه يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾!

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: بيَّن سبحانه أن وجوده الأزلي لا يتغير بوجود الخلق وعدمهم، وقدرته شاملة للإيجاد والإعدام.

قال أبو سعيد الخراز: ليس على الحق أثرٌ من الكون من إيجادهم وعدمهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصبَّار: من اتصف بصفة صبره، والشكور: من اتصف بصفة شكره؛ لأنه بصفات صبره وشكره يحتمل بلاءه ويشكر نعمه، والصبار: من كان الصبر له مقامًا، وكذلك الشكور لا أن يكون هما له خطرات، بل يكونان له وطنات.

قال أبو حفص: الصبَّار الذي لا يغيره تواتر المحن والبلايا عليه، ولا يورثه ذلك جزعًا ولا شكوى.

وقال أبو عثمان: الصبَّار الذي عوَّد نفسه للهجوم على المكاره.

وقال ابن عطاء: الشكور الذي يكون شكره على البلاء كشكره على النعماء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: لله علومٌ، منها عامٌّ، ومنها خاصٌّ، ومنها خاص الخاص، فالعلم العام: علم الشريعة، وعلم الخاص علم الحقيقة، وعلم خاص الخاص علم السر، وهو علم الغيب، ومن علم الغيب ما يطَّلع عليه الأنبياء والأولياء والملائكة بقوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، ومنه ما استأثر لنفسه لا يطَّلع عليه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ بقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، ومنه أيضًا علم الساعة، وهذه الآية برمتها، أما الساعة خاصة سرَّها عن جميع الخلق حتى أكد الأمر بقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، إلا أن أماراتها بانت من لسان صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه، ولا تخفى هذه الأمارات إلى وقوع الساعة على بعض أولياء أمته، حتى قال يوسف بن الحسين رحمة الله عليه: علمت متى ينـزل عيسى عليه السلام، ومن أي قبيلة يتزوج.

وأما قوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾: لا يعلم أحدٌ في أي لحظة ينـزل، ولكن كثيرًا ما سمعت من الأولياء يقول: يمطر السماء غدًا أو ليلاً فيمطر، كما قال: كما سمعنا أن يحيى بن معاذ كان على رأس قبر ولي وقت دفنه، وقال لعامة من حضروا إن هذا الرجل من أولياء الله إلهي إن كنت صادقًا فأنـزل علينا المطر، قال الراوي: فنظرت إلى السماء وما رأيت فيها راحة سحاب فأنشأ الله سبحانه سحابة مثل ترس فمطرت فرجعنا مبتلين.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾: وسمعت أيضًا من بعض أولياء الله أنه أخبر ما في الرحم من ذكر أو أنثى، ورأيت بعيني ما أخبر، ولكن الله سبحانه يطلع على ما في الرحم، بل ماء الرجل والمرأة أي: شيء يخلق منه حين نـزل ولا يعلمه غيره، وربما سمعت حديث واقعة الغد منهم قبل المجيء، وبما قالوا أني أموت بموضع كذا، ومنهم أبو الغريب الأصفهاني -قدس الله روحه- مرض في شيراز في زمان الشيخ أبي عبد الله بن حنيف -قدس الله روحه- وقال: إذا مت في شيراز فلا تدفنوني إلا في مقابر اليهود؛ فإني سألت الله أن أموت في طرطوس، فبرئ ومضى إلى طرطوس ومات بها رحمة الله عليه.

وقال القاسم في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾: من كافر ومؤمن ومطيع وعاص، وهذا دليل على أن الله يعرف الأشياء بالوسم والرسم، الرسم يتغير، والوسم لا يتغير.

وقال سهل في قوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ : ما له في الغيب من المقدور له وعليه.

وقال في قوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: على أي حكمة تموت من السعادة أو الشقاوة(١)، والله أعلم.

❁❁❁

سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾ : الألف إشارةٌ إلى الإعلام، واللام إشارةٌ إلى اللزوم، والميم إشارةٌ إلى الملكة، أعلم من نفسه أهل الكون، وألزم العبودية عليهم، وملكهم قهرًا وجبرًا حتى عبدوه طوعًا وكرهًا، فمن علم وقع في الاسم، ومن عبد وقع في الصفة، ومن تسخر لمراده كما أراد وقع في نور الذات، وعلى هذا من الله سبحانه تنزيل كتابه أنزل على عبده إشارةً للخصوص وعبارةً للعموم بقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، لا يتعلل بعلل الكون.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ : أفرد نفسه لعباده بأنه لهم ولي ولا شفيع، لا غير حتى لا يلتفتوا إلى الأسباب، ثم ينبههم بحقيقة ذلك فقال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ .

قال القاسم: أولا تنبهون أن من أسقطته الملك لا يصلح لخدمة الملك، ثم بيّن سبحانه

---

(١) أي : أين تموت ، فربما أقامت بأرض ، وضربت أوتادها ، وقالت : لا أبرحُها ، فترمي بها مرامي القدر حتى تموت بمكان لم يخطر ببالها. البحر المديد (٥ / ٤٥).

أن أمر العباد في العبودية يكون بمشيئته وإرادته لا لغيره مدخل في تدبير العباد بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، ينزل الوحي إلى حبيبه ﷺ بواسطة أخيه جبريل عليه السلام لنظام الشريعة وانتظام الحقيقة والطريقة لا لطبع البشر ومقالة أهل البدع، فيه أثر والإشارة فيه أن تدبير العباد عند تدبيره لا أثر له إذا أراه العباد في قضائه وقدره منفسخة؛ إذ تدبيره إرادته وإرادته مشيئته المقرونتان بالعلم الأزلي الذي لا يشوبه علل الحدثان.

قال سهل: طوبى لمن رزق الرضا بتدبير الله له، وأسقط عنه سوء تدبيره، ورده إلى حال الرضا بالقضاء والاستقامة في جريان المقدور عليه أولئك من المقربين.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾: أوجد الأشياء بأمره، وألبسها نور أمره، وأحسن خلقها بحسن فعله، لا يدخل نقص القبح في أفعاله؛ لأنه أحكمها وركبها ودبرها بعلمه الأزلي وجلاله الأبدي، ولا يرجع إليه علة فالقبيح قبيحٌ من جهة الامتحان، وحسنٌ من حيث صدر من أمر الرحمن، ذكر الحسن في جميع الأشياء، ولم يذكر ههنا في الإنسان، ثم قال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾، وهو معدن الخصوصية المستعدة لمباشرة صفته بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [صٓ: ٧٥]، ثم ذكر تسويته بكمال الصفة بقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾: سوّاه بتجلي أنوار جميع صفاته حتى صدرت صورة آدم من الغيب منعوتًا بأنوار الصفات ومتصفًا بسناها، ثم ذكر أخصَّ الخصائص، وهو ما سقط من حسن تجلي ذاته في صورته بقوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾، حتى يكون مجموعها مشكاة أنوار الذات والصفات، ويفيض الحسن من آدم إلى العالم؛ لأنه المعدن الثاني من الحسن، والمعدن الأول من الحسن حسن الأزل، فأي حسنٍ يبقى في حسن آدم وذريته، ذكر حسن الأشياء، ولم يذكر ههنا حسن غيره؛ لأنه موضع محبته واختياره الأزلية، كقول القائل:

وكـمْ أبـصرتُ مـن حـسنٍ ولكـنْ عليـكَ مِـنَ الـورَى وقـعَ اختيـارِي

قال الواسطي في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: روح اخترته على الأرواح،

وهو روح مكنه من صحبته وآثر قربه.

وقال أيضًا: الجسم يستحسن المستحسنات، والروح واحدية فردانية، لا يستحسن شيئًا لسقطه أبدًا.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾: قوَّمه بفنون الآداب، ونفخ فيه الروح الخاص الذي فضَّله على سائر الأرواح لما كان له عنده من محل التمكين، وما كان فيه من تدبير الخلافة ومشافهة الخطاب(١).

قال الأستاذ: أحسن صورة كل أحد، فالعرش ياقوتة حمراء، والملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وجبريل طاوس الملائكة، والحور العين كما في الخبر من جمالها وشكلها، والجنان كما في الأخبار ونص القرآن، فإذا انتهى إلى الإنسان قال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن طِينٍ﴾، ولكن ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [التوبة: ١١٩]، و﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن طِينٍ﴾، ولكن قال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا ﴾: قطع مشيئة الخلائق عن مشيئة الأزل، ولو أراد أن يكون كلهم عارفين به يكون؛ ولكن وقع خاصية الأنبياء والأولياء بنعت الاصطفائية من إرادته، ووقع الأضداد من إرادته سابق لطفه لأهل لطفه، وسابق قهره لأهل قهره.

قال ابن عطاء: لو شئنا لوفقنا كل عبد لطلب من مرضاتنا، ولكن حق القول بالوعد والوعيد ليتم الاختيار.

وقوله تعالى: ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣ ﴾: إن جهنم فم قهره انفتح ليأخذ نصيبه ممن له استعداد مباشرة القهر، كما أن الجنة فم لطفه، انفتح ليأخذ من له استعداد مباشرة لطفه، فاللطيف يرجع إلى اللطيف، والكثيف يرجع إلى الكثيف، لذلك مضى القسم في الأزل في الوعيد؛ لأن الحدث لا ينفك عن حظ القدم فالعارف الصادق إذا

---

(١) أضافه إلى نفسه، تشريفاً، إشارة إلى أنه خلق عجيب، وأن له شأناً ومناسبة إلى حضرة الربوبية، ولذلك قيل: من عرف نفسه عرف ربه. وقد تقدم في سورة الإسراء، في الكلام على الروح، وجه المعرفة منه. البحر المديد (٥/ ٥١).

كان في جهنم فإن جهنم له مأوى قهره، وقهره مأوى لطفه، ولطفه مأوى أنوار جوده وجوده، مأوى أنوار وجوده فيرى مقصوده في العذاب كما كان أيوب عليه السلام يرى رؤية المبلي في بلائه.

سُئل الشبلي عن هذه الآية، فقال: يا رب أملأها من الشبلي، واعفُ عن عبيدك ليتروح الشبلي بتعذيبك كما يتروح جميع العباد بالعوافي.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾: وصف الله سبحانه أهل معرفته الذين إذا سمعوا خطابه سقطوا على وجوههم في جناب كبريائه وعظمته حبًّا له وشوقًا إليه، ولا يكون هذا إلا وصف الواهين من عشقه، الصادقين في توحيده ومعرفته.

قال القاسم: إذا وعظوا بها خرُّوا سجَّدًا عند أوقاته، وذلك صفة المؤمنين، ومن أبى ذلك في أوقاته لا يلحقه اسم الإيمان ولا وسمه.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾: وصف سبحانه أهل ودِّه ومحبته وعشقه وشوقه الذين إذا ناموا ناموا بالحق من كمال سكرهم، وإذا انتبهوا من ركضة آلام حزن فوت وصاله ولذيذ مناجاته، فانصرفت جنوبهم عن مضاجعهم بغير اختيارهم كأن الأرض ألقتهم من نفسها، وذلك مما ينكشف لهم من أستار الملك والملكوت، ويظهر لهم أنوار مشاهدة الحق ويفتح لهم أبواب قربه ووصاله، ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ خوفا من هجرانه وإجلالاً لجلاله وطمعًا في وصاله، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: يعني يبذلون أرواحهم وأشباحهم لله، ثم ذكر ما يجازيهم من جمال قربه وكشف لقائه بقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: قرة أعينهم أنوار جماله وجلاله، وذلك جزاء احتراقهم في حبه بقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾: إن الله وهب لقوم هبة، وهو أن أذن لهم في مناجاته، وجعلهم من أهل وسيلته وصفوته وخيرته، ثم مدحهم على ذلك إظهارًا لكرامته بأن وفَّقهم بها وفَّقهم له فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

وقال ابن عطاء: جفت جنوبهم وأبت أن تسكن على بساط الغفلة، وطلبت بساط

القربة والمناجاة، وأنشد:

جفَّت عيني عن التغميض حتَّى ... كأنَّ جفونَها عنها قصارُ

كأنَّ جفونَه سملتْ بشوكٍ ... فليسَ لنومِه فيها قرارُ

أقولُ وليلتِي تزدادُ طولاً ... أيا ليلي لقد بَعُدَ النَّهارُ

وقال جعفر: خوفًا منه وطمعًا فيه.

وقال بعضهم: خوفًا من القطيعة وطمعًا في الوصلة.

وقال ابن عطاء: قرت أعينهم بما سبق لهم من حسن الموافقة مع ربهم.

وقال سهل: قرت أعينهم بما شاهدوا من ظاهر الحقائق وباطنها الذي يكشف لهم من علم المكاشفة مراده، وتمسكوا به، فقرت بذلك أعينهم، وسكنت إليه قلوبهم.

وقال الجنيد: تجافت جنوب العارفين عن أنفسهم، وتقطعت قلوبهم للحق، وجنبت أسرارهم بالصدق.

قال محمد بن علي الباقر: تجافت جنوب الزهَّاد من نعيم الدنيا لما وجدوا من حلاوة نعيم العقبى وجنوب العارفين عن التدبير والاختيار؛ فاستقروا على أحكام الرضا.

وقال ابن عطاء: أخفى لهم من مبارزة ما تعجز النفوس عن التفكر فيها فلن تأملها.

قال الأستاذ: أما الأحباب فالليل لهم إما طربٌ في التلاقي أو هرب الفراق، فإن كانوا في أنس القربة فليلهم أقصر من اللحظة، كما قالوا بوصال مجدد ووداد:

زارنِي مَنْ هويتُ بعد بعادِ ... بوصالٍ مجددٍ ووداي

وإن كان الوقت وقت مقاساة فرقة وانفراد بكونه فليلهم طويل كما قالوا:

كمْ ليلةٍ فيكَ لا صباحَ لها ... أفنيتُها قابضًا على كبدي

قَدْ عصتِ العينُ بالدموعِ وقد ... وضعتُ خدِّي على بنانِ يدي

وقال قوم: خوفًا من العذاب وطمعًا في الثواب.

وآخرون: خوفًا من الفراق وطمعًا في التلاقي.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾: أفمن كان

عارفًا بذاته وصفاته كمن كان جاهلاً بجلاله وقدرته، لا يستويان أبدًا كما لا يستوي البصير والأعمى.

قال ابن عطاء: من كان في بصيرة الطاعة والإيمان لا يستوي مع من هو في ظلمات الفسق والطغيان.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾: العذاب الأدنى حرمان المعرفة، والعذاب الأكبر الاحتجاب عن مشاهدة المعروف، وأيضًا العذاب الأدنى المعرفة، والعذاب الأكبر النكرة.

وقال بعضهم: العذاب الأدنى الهوان، والعذاب الكبر الخذلان.

قال أبو الحسن الوراق: العذاب الأدنى الحرص في الدنيا، والعذاب الأكبر هو أن يعذبه الله عليه.

وقال بعضهم: العذاب الأدنى التعب في طلب الدنيا، والعذاب الأكبر شتات السر.

قال الأستاذ: العذاب الأدنى وقفة في سلوكهم، والأكبر حجبه عن مشاهدة مقصودهم، قال قائلهم:

أدَّبتني بانصراف الطرف يا ثقتي ... فَانظرْ إليَّ فقد أحسنتَ تأديبي

ويقال: العذاب الأدنى الخذلان في الزلة، والأكبر الهجران في الوصلة.

ويقال: العذاب الأدنى تكدر مشاربهم بعد صفوها، كما قالوا:

لقد كان ما بيني زمانًا وبينه ... كما بين ريح المسك والعنبر الورد

والعذاب الأكبر لهم تطاول أيام العذاب من غير تبين آخرها وبقاء ضرهم ونفاد صبرهم وقيام قيامتهم، كما قالوا:

تطاول عهدُنا بالأمر حتَّى ... لقد نسجتْ عليه العنكبوتُ

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا

يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: لما شاهدوا جلالنا وجمالنا عيانًا بنعت المعرفة والمحبة، وصبروا فيها وجدوا من كشف الذات والصفات وما أفشوها عند الأغيار، جعلناهم أئمة المعارف والكواشف، يمدون طلابي إليَّ بنوري.

قال أبو عثمان: لما صبروا على حقوق العبادة.

وقال أيضا: لما صبروا مع الله في جميع الأحوال.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾: سوق مياه معرفته من بحار تجلي جلاله إلى أرض القلوب الميتة الجرزة[1]؛ فينبت به فيها نرجس الوصلة وياسمين المودة ورياحين المؤانسة وبنفسج الحكمة وزهرة الفطنة، وورد المكاشفة وشقائق الحقيقة.

قال ابن عطاء: تصل بركات المواعظ إلى القلوب القاسية المعرضة عن الحق فتتعظ بتلك المواعظ.

قال الأستاذ: الإشارة منه تسقى حقائق وصلتهم بعد جفاف عودها وزوال المأنوس من معهودها، فيعود عودها مورقًا بعد ذبوله حاكيًا بحاله حال حصوله.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ﴾: فأعرض عنهم حين لا يكونون في عينيك من أهل المعرفة، وأقبل علينا لتستأنس بمشاهدتنا عن مشاهدة الأغيار، ﴿وَانتَظِرْ﴾ كشوف جلالنا لك وتخليصك من شرهم، ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾: الحجاب والعتاب والهجران والعذاب.

قال بعضهم: لا تشغل سرك بهم، وانتظر بركات الموارد عليك من أنواع الكرامات إنهم منتظرون منا المقت والبعد.

قال الأستاذ: أعرض عنهم باشتغالك بنا وإقبالك علينا وانقطاعك إلينا، وانتظر زوائد

---

(١) يعني: اليابسة الملساء التي ليس فيها نبات، يقال: أرض جرز أي: أرض جدب لا نبات فيها، يقال جرزت الجراد إذا أكلت، وتركت الأرض جرزاً. بحر العلوم للسمرقندي (٣ / ٣٨٦).

وصلنا وعوائد لطفنا؛ إنهم منتظرون هواجم مقتنا، وخفايا مكرنا، وعن قريب يجد كل منتظر محتضر.

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ : كان عليه الصلاة والسلام ألطف خلق الله من الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين، وأعرفهم به ومن كمال معرفته طار بجناح الربوبية في الربوبية، وشاهد مشاهد الألوهية ففي كل شهود له منها لذة وحلاوة كادت توقفه عن طيرانه من جلال لذتها فخوفه الله من نفسه أن يحتجب به عنه فينقطع عن سفر الآزال إلى الآباد.

وقال ابن عطاء: أي أيها المخبر عني خبر صدق والعارف في معرفة حقيقة اتق الله في أن يكون لك التفات إلى شيء سواي.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: عرَّفه مكان الوحي منه إليه معرفة حقيقة لا معرفة إبهام، فإن من موجبات معرفة الوحي ألا يكون للنفس والقياس فيه سبيل ولا يدخل فيه حظ النفس بحال بل فيه اتباع حقيقي بلا اعوجاج ولا اضطراب.

وقال سهل: قطعه بذلك عن اتباع أعدائه، وأمره بالاتباع في كل أحواله؛ ليعلم أن أصح الطريق شريعة الاتباع والاقتداء.

وقال الأستاذ: أي: أيها المشرق حالاً المفخَّم قدرًا منا، المعلى رتبة من قبلنا، يأيها المرقَّى إلى أعلى الرتب الملقى بأسنى القرب، يأيها المخبر عنا المأمون على أسرارنا المبلِّغ خطابنا إلى أحبابنا: اتق الله أن تلاحظ غيرنا معنا، وتستأنس شيئًا من دوننا.

وقال في قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾: اتبع ولا تبتدع، واقتدِ بها أمرك، ولا تبتدئ باختيارك غير ما اختياره لك.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾أي: توكل عليَّ فيما أجزيك بمشاهدة وصالي، وحلاوة رؤية جمالي أن تبقى فيها؛ فإني أبلغك منك ومما تخدمني إليَّ أبدًا إلى محل الكمال، ولا تفزع من غشيان غمار بحار البلاء فإن المبلى معك في البلاء.

قال ذو النون: التوكل التفويض لأمر الله.

وقال بعضهم: اعتمد على من دعاك إليه وضمن لك الكفاية، وكِّل إلى الله أمرك وكفى بالله وكيلاً.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾: إن الله سبحانه أخبر أن القلب واحد لا يحتاج إلى قلب سواه، فإن القلب خلق على استعداد قبول وقائع أنوار جميع الذات والصفات، وفيه عقل قدسي يعرف الأشياء بحقيقتها، ونفس هي مجرى الأقدار الفعلية القهرية من الله، وفيه روح لطيف قدسي مخاطب من الله بجميع طرق المعارف، وفيه سر هو مرآة كشوفات الغيب، فإذا هُدي القلب ميادين ربوبية الأزل والأبد لا يحتاج إلى شيء سواه؛ فإنه الكون الأصغر بالصورة، وفي المعنى الكون الأكبر ومن عرفه فقد عرف الحق، وعرف ما دونه من العرش إلى الثرى، فالقلب الحقيقي ما لم يكن بينه وبين الحق حجاب ولا يكون شغله بشيء سوى الله.

قال الصادق: قلب يرى به أمور الدنيا وقلب يعلم أمور الآخرة وذو القلب الصحيح السليم من كان قلبه حرًّا من الاشتغال بشيء سوى الحق.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾: ما صدر من الحق فهو حق حقيقي لا يشرب بشيء من الحدثان من الهواجس والوسواس، وهو يهدي بنفسه العارف إلى سبيل معرفة الصفات، ثم إلى طرق معرفة الذات.

قال جعفر: والله يقول الحق؛ لأنه الحق، ومنه بدت الحقائق وكلامه حق.

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: نفس المؤمن تطلب حظها والنبي ﷺ طلب حظ الله من أنفسهم، وحظ الحق منهم أولى من حظ أنفسهم فيهم.

قال سهل: من لم ير نفسه في ملك الرسول ﷺ، ولم ير ولاية الرسول ﷺ في جميع الأحوال لا يذوق حلاوة سنته بحال؛ لأن النبي هو الأولى بالخلق من أنفسهم وأموالهم، ألا ترى الله يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، والنبي ﷺ يقول: «لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين»[1].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾: الميثاق الغليظ الذي أخذ الله من الأنبياء ميثاق المحبة ألا يشتغل أحد منهم بغيره من العرش إلى الثرى، ويوافق بعضهم بعضًا فيما أخبر الحق بلسانهم من نفسه، فأخذ الميثاق من الجميع بالوسائط ومن نبينا ﷺ كفاحًا بلا واسطة، بيَّن فضله على الجميع، ثم بيَّن فضل شيخ الأنبياء وفضل الخليل والكليم وعيسى عليهم السلام.

وقال بعضهم: أخذ ميثاق النبيين بالعموم على لسان السفر والوسائط، وأخذ ميثاق الرسول مشافهة بلا واسطة، فأظهر الأنبياء مواثيقهم لعمومها، وأخفى النبي ﷺ ميثاقه؛ لأنه في محل الخصوص، فأخبر الله عنها كفاية بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، وأخبر النبي ﷺ تعجبًا وقال: «لو تعلمون ما أعلم»[2]، كذلك مواثيق خصائص الأحباب يكون سرًّا لا يطَّلع عليهم سواهم.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٢/ ٣٠٢).

(٢) رواه البخاري (١/ ٣٥٤)، ومسلم (٢/ ٦١٨).

بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَـٰهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى الْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ الصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾: إن الله سبحانه أراد بذلك السؤال أن يعرِّف الخلق شرف منازل الصادقين، فرُبَّ قلب يذوب من الحسرة حيث ما عرفهم وما عرف قدرهم.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، ولصدقهم استقامت أسرارهم مع الحق في مقام المحبة والإخلاص.

قال القاسم: لا سؤال أصعب من سؤال الصادق عن صدقه؛ فإنه يطالب بصدق الصدق، وعجز المخلوق أجمع عن الصدق، فكيف يبحث عن صدق الصدق؟!

قال الواسطي: الباطن منه أن يسألهم عن التوسل إلى من لا وسيلة إليه إلا به، عندها تذوب جسومهم، وينقطع آمالهم، وصار صدقهم كذبًا، وصفاؤهم كدرًا، واستوحشوا من مطالعته فضلاً عن التزين به وذكره.

قال سهل: يقول الله تعالى لهم: عملتم وماذا أردتم؟ فيقولون: لك عملنا، وإياك أردنا. فيقول: صدقتم. فوعزته لقوله لهم في المشاهدة صدقتم ألذ عندهم من نعيم الجنة[1].

---

(١) التَّغَابُن: فاعل من الغبن في البيع والشراء على الاستعارة، وهو أخذ الشيء بدون قيمته.

وقيل: الغبن: الإخفاء، ومنه غبن البيع لاستخفائه، والتفاعل هنا من واحد لا من اثنين، ويقال: غبنت الثوب وخبنته، أي: أخذت ما طال منه من مقدارك: فهو نقص وإخفاء. انظر: اللباب لابن عادل (٣٠٨/١٥).

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: أسوة النبي ﷺ أسوة المحبة، وقدوة الشوق، وطريق المعرفة التي يبلغ المقتدي إلى الحق بلا حجاب وإلى محبته الكبرى، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال محمد بن علي: الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع بسنته وترك مخالفته في قول وفعل.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾: إن الله سبحانه وصف العارفين بالرجولية في حمل أمانة الأزل، وعرض الأكبر عاهدوا الله ألا يختاروا شيئًا من العرش إلى الثرى، وصدقوا عهدهم، وبلغوا إلى منازل الأمن: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، فمن بقي في سيره ولم يصل إلى الوصال وهن في عزم وفاء العهد فهو منتظر لتمام سعيه واستيفاء حظه من الله، ومن معرفته وخدمته، ومراقب لكشف جمال الحبيب، ليأخذ يده ويبلغه إلى مراده من مشاهدته، ليس المنتظر أقل درجة ممن قضى نحبه؛ فإنهم كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره.

قال محمد بن علي: خص الله الإنس من بين الحيوان، ثم خص المؤمنين من الإنس، ثم خص الرجال من المؤمنين، فقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا﴾، فحقيقة الرجولية الصدق، ومن لم يدخل في ميادين الصدق فقد خرج من حد الرجولية.

قال بعضهم: منهم من يبذل وسعه ومجهوده في الطاعة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ التوفيق من ربه، ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾: ما غيروا عن محبة نبيه ﷺ تغيرًا.

أو قيل: ما استعانوا بغيره في مهماتهم بعد أن ضمن الله لهم الكفاية في كل الحوائج.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ

فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾: لما صدقوا في عهدهم يجازيهم الله بأن يزيد صدقهم في محبته، ويزيد صدقهم في شوقه، ثم يزيد صدقهم في عشقه ومعرفته هذا في الدنيا، ويجازيهم مشاهدته وكشف جماله في الآخرة.

قال الأستاذ: يجزي الله الصادقين في الدنيا بالتمكين والنصرة على الأعداء، وفي الآخرة بجميل الثواب وجزيل المآب.

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي: ومن يقنت لله لحب لقائه وللرسول لحقوق صحبته، والإيمان به، ومتابعته، والعمل الصالح ألا يطلبن الدنيا من رسول الله ﷺ ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ الأولى: من الأجر حب الرسول لقاءهن، وأجر الآخرة كشف مشاهدة الله، وحسن جواره، والرزق الكريم ظهور مشاهدته لهن على الدوام بلا حجاب.

قال ابن عطاء: من يختار صحبة الرسول منهن على الدنيا فهي من القانتات، وهي التي تخضع للرسول وتذل له ولا تخالفه وتعمل صالحًا وتتبع مراد الرسول فيما يريده.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ ﴾: الرجس ههنا حيث ما دون الله في صحبة رسول ﷺ، فهن مخصوصات بالصديقية من الله سبحانه، وهن مقدسات حيث قدس الله أرواحهن وأشباحهن بنظر الاصطفائية إليهن في إنشائهن.

قال أبو بكر الوراق: الرجس الأهواء والبدع والضلالات ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾ من دنس الدنيا والميل إليها.

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ ﴾: المنقادين لأمر الله بحسن الإرادة، ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾: المشاهدين حضرته بنعت الإيقان، ﴿ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ﴾ : القانتين هم المتمكنون في العبودية، ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾: الصادقين في محبة الله المتصفين بصدقه الأزلي الذي لا يتكدر بطريق الامتحان، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾: الصابرين في الغيبة تحت أثقال الشوق، والصابرين في الحضرة في مشاهدة الله تحت جريان سطوات عزته، بألا يبتغوا من الحق سر القدم من حدة السكر كما فعل موسى حيث قال: من مني أنت يا رب، ﴿ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ ﴾: المذابين تحت سلطان عظمته وقهر سلطان كبريائه، ﴿ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾: المباذلين أنفسهم لقربان القدم، ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾: الفاطمين أنفسهم عن النظر إلى ما دون الله وحب ما سوى الله، ﴿ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ ﴾: الساترين عورات الحقائق عن نظر الأغيار، ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾: الذاكرين في البداية بنور الأفعال، ثم الذاكرين بالأسماء، ثم الذاكرين بالنعوت، ثم الذاكرين بالصفات بنعت رؤية أنوارها، وإدراك أسرارها، وفي النهاية الذاكرين الذات في الحالين ذاكرين الذات قبل مشاهدة الذات صرفًا وعيانًا، وذلك ضمن ظهور أنواره في قلوبهم، الذاكرين ذاته في عيانه كفاحًا؛ لأن الذات لا يتناهى، فهم في أول الكشف مرهونون بما بدا لهم من جلال ذاته ويفنون، فإذا فنوا استغاثوا

منه إليه أن يعينهم بالقوة الأزلية حتى يدخلوا بهممهم في بحار الأولية التي لا ساحل لها، فيبقون في الذكر أبدًا؛ لأنهم لا يتلقون إلا ما يليق بأحوالهم من الكشوفات والقربات، وهؤلاء المذكورون من أول المقام إلى مقام الذكر عشرة أقوام، بعضهم أهل البداية في الإسلام، وبعضهم أهل الإيقان في الإيمان، وبعضهم أهل العبودية الجامعة لجميع المعاملات، وبعضهم أهل الصدق في المحبة وترك ما دون الله والوفاء في الحقيقة، وبعضهم أهل مقام الرضا والتوكل، وبعضهم أهل التواضع في المشاهدة، وبعضهم أهل السخاء والكرم، وبعضهم المتصفون بالصمدانية، وبعضهم أهل الغيبة في الغيب الذين لا يكشفون أسرارهم عند الخلق والمنتهى منهم المستغرق في ذكر الذات والصفات كما وصفنا، والجميع مأجورون من الحق بقدر منازلهم في مقاماتهم بأن يغفر قصورهم في بذل المهج له، ويكاشفهم أستار الغيرة عن جمال المشاهدة بقوله: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

قال سهل: الإيمان أفضل من الإسلام، والتقوى في الإيمان أفضل من الإيمان، واليقين في التقوى أفضل من التقوى، والصدق في اليقين، أفضل من اليقين، وإنما تمسكتم بأدنى الإسلام فإياكم أن يتقلب من أيديكم.

وقال: الإسلام حكمٌ، والإيمان أصلٌ، والإحسان ثوابٌ.

وقال ابن عطاء: لم يبلغ أحد إلى مقام الصدق بالصوم والصلاة ولا بشيء من الاجتهاد، ولكن وصل إلى مقام الصدق بأن طرح نفسه بين يديه فقال: أنت أنت ولا بد لنا منك.

وقال أيضًا: ليس من ادَّعى الذكر فهو ذاكر، والذاكر على الحقيقة من يعلم أن يشاهده فيراه بقلبه قريبًا منه فيستحي منه، ثم يؤثره على نفسه، وعلى كل شيء من جميع أحواله.

سُئل سهل: ما الذكر؟ قال: الطاعة قيل: ما الطاعة؟ قال: الإخلاص.

قيل: ما الإخلاص؟ قال: المشاهدة.

قيل: ما المشاهدة؟ قال: العبودية. قيل: ما العبودية؟ قال: الرضا.

قيل: ما الرضا؟ قال: الافتقار. قيل: ما الافتقار؟ قال: التضرع والالتجاء سلم سلم إلى الممات.

قال بعضهم: الخشوع استحقار الكبر، وجميع الصفات تحت هيبة الحق.

قال بعضهم: الصابر هو الحابس نفسه عند أوامر الله، والخاشع هو المتذلل والخاضع له، والمتصدق هو الباذل نفسه وروحه وملكه في رضا مالكه، والصائم الممسك عن كل ما لا يرضاه الله، والحافظ فرجه المراعي لحقوق الله عليه في نفسه وقلبه، والذاكر لله الناسي بذكره

كل ما سواه، أوجب على نفسه لمن هذه صفته ستر الذنوب عليه ومغفرتها له وأجرًا عظيمًا ثوابًا لا حدَّ له وهو رضا الله ورؤيته.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾: أنعم الله عليه بمعرفته، وأنعمت عليه بصحبتك ونظرك إليه بالمحبة.

قال ابن عطاء: أنعم الله عليه بمحبتك، وأنعمت عليه بالتبني.

قال بعضهم: أنعم الله عليه بالمعرفة، وأنعمت عليه بالعتق.

وقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾: إن الله سبحانه ابتلى نبيه ﷺ بالعشق الإنساني، وذلك أنه انفرد بالحق مما دون الحق، وخاض في بحر الوحدانية على شريطة الفناء، فكاد يفنى عن الفناء، ويغيب في غيب من غلبات سطوات العظمة عليه، فأراه جمال جلاله صرفًا، فلم يحتمل أيضًا حقيقة ذوق المشاهدة والجمال عيانًا، فسهله الله عليه بأن تجلى له بنور المحبة ونور الجمال من مرآة وجه الإنساني، فطاب سره بذلك، واحتمل روحه لطائف تلك المحبة، واستأنس بشقيقة شقائق ورد مشاهدة القدس في محل الأنس، لكن خاف على الخلق أن يظهر لهم أحواله لا يعرفون سر العشق، فيهلكون فرفع الله عنه وحشة ذلك، وأمره بأن يُظهر ذلك، ولا يلتفت إلى غير الله في العشق، فإن العشق باقٍ في العشق، ويسقط عنه ملامة اللائمين وخوف النبي ﷺ من الخلق رحمة وشفقة على أمته بقوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، كان -عليه الصلاة والسلام- أخفى ذلك السر في نفسه من حيث التمكين، والله مبديه بأنه يقهر على المتمكنين بصولة العشق القديم، وكيف يوازي الحدث القدم، وقد ذكرت معنى قوله تعالى:

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي: لا تراع الخلق في مقام المحبة، وراع الحق؛ فإنه أحق أن تراعيه، لأن الحدث يفنى ويبقى القدم.

قال ابن عطاء: تُخفي في نفسك ما أظهر الله لك من أن يزوجها منك، وتخشى أن تُظهر للناس ذلك فيفتتنوا.

قال أيضًا: تخشى الناس أن يهلكوا في شأن زيد، فذلك من تمام شفقته على الأمة،

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾: أن تبتهل إليه ليزيل عنهم ما تخشى فيهم[1].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا ﴾: حكم الله في ذلك أن غيرة الأزل سابقة على عشق النبي ﷺ المتفرد عما دون الله حتى تزيله بنعت الغيرة وسر الجبروت من كل ما سوى الله، وذلك أن زيدًا قضى وطره منها، ليذكره النبي ﷺ ذلك في حال معاشرته معها، فيضيق صدره بذلك، ويضطرب حاله، وينقبض سره، ويرجع إلى الله بالكلية؛ لأن هناك له طيب العشق هنيئًا سرمدًا، ومقصود الحق من ذلك عذر العاشقين من أمته حتى لا يقدح الناس في أحوالهم، قال الله: ﴿ لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ﴾، فإن العشق المحمود العفيف المطهر من غبار الوسوسة وهواجس النفسانية والشيطانية مقرب العاشقين إلى عشق الألوهية ومشاهدة الأزلية.

قيل: قرئ عند ذي النون هذه الآية فتأوّه تأوّها، ثم قال: ذهب بها والله زيد وما على زيد لو فارق الكونين بعد أن ذكره الله من بين أصحاب محمد ﷺ باسمه بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ﴾.

قال يوسف بن الحسين: سئل ذو النون وأنا حاضر عن قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ﴾: ترى كان النبي ﷺ يحتشم زيدا إذا رآه؟ فقال ذو النون: كيف لا يقول فترى كان زيد يحتشم النبي ﷺ إذا رآه إذا قيم لالتماس شيء كان العاقبة قد حكمت لرسول الله ﷺ آجلاً، وإنما كانت عارية عند زيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧ ﴾: رضا الحق في الأزل في حالة عشق النبي ﷺ كان سنة الأنبياء.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ ﴾.

قال سهل: أي: معلومًا قبل وقوعه عندكم، وهل يقدر أحد أن يجاوز المقدور.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

---

(١) أي: وحده ولا تجمع خشية الناس مع خشيته في أن تؤخر شيئاً أخبرك به لشيء يشق عليك حتى يفرق لك فيه أمر ، قالت عائشة رضي الله عنها : لو كتم النبي ﷺ شيئًا مما أوحي إليه لكتم هذه الآية، نظم الدرر (٦/ ٤٣٠).

حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ ﴾: خشية الأنبياء من العتاب وخشية الأولياء من الحجاب وخشية العموم من العذاب.

كما قال ابن عطاء في هذه الآية: هذه خشية السادة والأكابر، وإنما خشية عوام الخلق من جهنم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾: الذكر الكثير انحسار القلوب في أودية الغيوب عن السير في أنوار النعوت والصفات واضمحلال أسرارها في سنا الذات في جميع الأنفاس بلا فترة ولا غشية.

قال النصر آبادي: وقَّت الله العبادات كلها بأوقاتٍ إلا الذكر؛ فإنه أمر أن يذكر ذكرًا كثيرًا، والذكر الكثير للقلب، وهو ألا يفتر القلب عن المشاهدة، ولا يغفل عن الحضرة بحال، ألا تراه لما رجع إلى المعلوم وقَّت[1] وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وأنشد:

الله يعلم أنّي لستُ أذكرُهُ ... وكيف أذكرُ مَنْ لستُ أنساه

قال أبو الحسين بن هند: ناداهم، ثم خص النداء، ثم كنَّاهم، ثم أشار إليهم بالتوحيد، ثم أمرهم بإقامة العبودية، ثم مَنَّ على نبيهم بذلك، ولم يَمُنَّ عليهم؛ فإنه إنما خصهم بسببك، والذكر إقامة العبودية.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ ﴾: صلاة الله اختياره العبد في الأزل بمعرفته ومحبته، فإذا خصه بذلك جعل زلاته مغفورة، وجعل خواص ملائكته مستغفرين له؛ لئلا يحتاج إلى الاستغفار بنفسه من اشتغاله بالله وبمحبته، وبتلك الصلاة يخرجهم من ظلمات

---

(١) اعلم أن الكثرة هنا عبارة عن: الاستيعاب والإحاطة بجميع الأوقات والحالات، كما أن القلة في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:١٤٢] عبارة عن العدم: أي لا يذكرون الله تعالى إلا ذكرًا هو ليس بذكر عنده تعالى؛ لأنهم إنما يذكرون باللسان فقط، والذكر اللساني المجرَّد عن اعتقاد الجنان وإخلاصه قليل معدوم بالنسبة إلى الذكر القلبي؛ لأن المقصود عمارة الباطن لا عمارة الظاهر، فظهر أن الخلوص بمنزلة الإكسير الخالص في القلب.

الطباع إلى نور المشاهدة، وهذا متولد من اصطفائيته الأزلية ورحمته الكافية القدمية ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ : كان رحيمًا قبل وجودهم حيث أوجدهم وهداهم إلى نفسه بلا سبب ولا علة.

قال أبو بكر بن طاهر: علامة صلاة الله على عبده أن يُزينه بأنوار الإيمان، ويحليه بحلية التوفيق، ويتوجه بتاج الصدق، ويسقط عن نفسه الأهواء المضلة والإرادات الباطلة، ويبذله الرضا بالمقدور.

قال الأستاذ: الصلاة من الله بمعنى الرحمة، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة؛ ليعصمكم من الضلال بروح الوصال.

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ﴾ : سلام الله وتحيته أن يخاطب العباد بخطاب الرضا والعفو عما مضى، وأن يجلسهم على بساط القرب، ويناجيهم بمناجاة البسط والدنو.

قال ابن عطاء: أعظم عطية للمؤمن في الجنة سلام الله عليهم من غير واسطة.

قال الأستاذ: إذا قربت التحية بالرؤية واللقاء إذا قرن بالتحية لا يكون إلا بمعنى رؤية البصر، والتحية الخطاب يفاتح بها الملكوت إخبارًا على علو شأنهم، فهذا السلام يدل على عالي رتبتهم التي جعلها الله لهم، فاللقاء حاصلٌ والخطاب مسموعٌ لهم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَن

ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾: شاهدًا لأحوال العارفين وعلى أسرار الصديقين كيف يكونون في الشوق إلى لقائي، وأنت شاهدنا شهدناك وشهدت علينا، فألبستك أنوار ربوبيتي، فمن شهدك بالحقيقة فقد شهدنا، ومن نظر إليك فقد نظر إلينا؛ لذلك قال ﷺ: «مَنْ عَرفني فقد عَرَفَ الحق ومن رآني فقد رأى الحق»[1]، ومبشرًا للمحبين بحسن وصالي، ونذيرًا للمريدين من عتابي؛ لئلا يفتروا عن خدمتي وعبادتي، وداعيًا إلى الله للمقبلين إليه بأن تصف لهم جمالنا وجلالنا، وذلك بإذنه الأزلي وإجازته القديمة، وسراجًا منيرًا أسرجت نورك من نوري، فتنور بنوري عيون عبادي المؤمنين، فيأتون إليَّ بنورك، ثم أمره بأن يبشر المؤمنين بأنهم يصلون إلى مشاهدته، وينالون فضائل قربته بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾: الفضل الكبير مشاهدته بلا حجاب ولا عتاب.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾: إنا شرفناك برسالتنا، وتخبر عنا خبر صدق، فنهدي بك قلوبًا عمياء، أرسلناك شاهدًا لنا لا تشهد معنا سوانا، جعلنا الخلق كلهم

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧٧٦).

يشهدونك، ويشهدوننا فيك، ولا يشهدك إلا من أثر فيه بركة نظرك، فيشهدك ويشهد فيك، ومن لم يجعلك الدليل علينا عمي وضل؛ فإنك البشير تبشر من أقبلنا عليه بالرضوان، وتنذر من أعرضنا عنه بالخذلان، وأنت محل مشاهدة الخلق إيانا بك أخذناك عنهم، فلا تشهد شهودهم، وغيبناك عنهم فلا يشهدون منك إلا ظاهرك، وأنت لا تشهد سوانا بحال.

قال الواسطي: شاهدًا بالحق للحق إلى الحق مع الحق ليوم لا يقبل فيه الحق إلا الحق.

وقال جعفر: داعيًا إلى الله لا إلى نفسه افتخر بالعبودية، ولم يفتخر بالنبوة ليصح له بذلك الدعاء إلى سيده، فمن أجاب دعوته صارت الدعوة له سراجًا منيرًا يدله على سبيل الرشد، ويبصره عيوب النفس وغيها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾: صلوات الله على النبي أن بلّغه إلى المقام المحمود، فالمقام المحمود صلواته عليه وهو الشفاعة لأمته، وصلوات الملائكة

عليه دعاؤهم له بزيادة مرتبته بحبهم إياه واستغفارهم لأمته، وصلوات الأمة عليه متابعتهم له ومحبتهم إياه والثناء عليه بالذكر الجميل.

قال ابن عطاء: الصلاة من الله وصلة، ومن الملائكة رفعة، ومن الأمة متابعة ومحبة.

قال الواسطي: صل عليه بالوقار، ولا تجعل له في قلبك مقدار.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سألت عبد الواحد الساري عن هذه اللفظة، وكأني أستفتحه. فقال: لا تجعل بصلواتك عليه في قلبك مقدارًا تظن أنك تقضي به من حقه شيئًا بصلواتك عليه، فإنك تقضي به حق نفسك؛ إذ حقه أجل من أن يقضيه أمته أجمع؛ إذ هو في صلاة الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾، فصلواتك عليه استجلاب رحمة على نفسك به.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾: التقوى ههنا سقوط احتشام الخلق عن قلوب العارفين عند أداء أمانة الله التي فتح الله على قلوبهم من أسرار الملك والملكوت، ولا يلتفت إلى ما سوى الله من أنوار الحدثان، فإذا كان كذلك يصلح الله ما يخافون من فوقه ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾، ويستر الهفوات في تقصير الطريقة، ثم جمع هذه المعاني بمجموعها بقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ : أطاع الله بالحقيقة، وأطاع الرسول بالشريعة، فقد فاز من الحجاب، ووصل إلى اللقاء والمآب.

قال الواسطي: التقوى على أربعة أدعية: للعامة تقوى الشرك، وللخاصة تقوى المعاصي، وللخاص من الأولياء تقوى التوسل بالأفعال، وللأنبياء تقواهم منه إليه.

وقال الوراق: القول السديد ما أريد به وجه الله لا غير.

وقال سهل: من وفقه الله لصالح الأعمال، فذلك دليل على أنه مغفور له ذنوبه؛ لأن الله يقول: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

وقال بعضهم: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بقبولها منكم فإن صلاح العمل في قوله.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: هو أن يصلح باطنه وقلبه فإنهما موضع نظر الحق، ويعمرهما بدوام التفكر، ويصلح ظاهره بالطاعات الظاهرة واتباع السنن، فمن فعل ذلك فقد فاز من وساوس الشياطين وهواجس النفس.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ

ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾: لما لم يكن للكون استعداد حمل أمانة الربوبية بنعت الانفراد والفناء والسكر في العشق، والخروج بنعت الألوهية أبى أن يحملها؛ لأن سطوات الألوهية إذا بدت اضمحلت الأكوان والحدثان فيها، وبقى آدم؛ لأنه كان مستعدًا لقبول ذلك؛ لأنه كان مخلوقًا بخلقه، موصوفًا بصفته، مستحكمًا بتأييده الأزلية، ومباشرة نور صفته الخاصة بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [صٓ: ٧٥] قويًا بقوة الروح القدسية التي بدت من ظهور نور الذات حين تجلى من القدم لآدم بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]، فإذا كان كذلك حمل أمانة الله بالله لا بالحدثان، فإنه تعالى قائم بنفسه منـزه عن مباشرة الحدوثية، فقد حمل أنوار جميع الصفات والذات حيث صدر وجوده عن تجلي الذات والصفات، فخرج موصوفًا بالصفات منور بنور الذات، وهذه بجميعها الأمانة، ولا يكون لتلك الأمانة موضع إلا آدم، ومن كان بوصفه من ذريته من الأولياء والأنبياء فإذا قابل القدم، وقبل الأمانة فقد جهل بالقدم أصلاً حيث قَبِل الكل بالبعض، كذلك قال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾؛ إذ وازى الأزل والأبد مع علة الحدوثية جهولاً حيث لم يعلم أن حقيقة التوحيد بالحقيقة مزلة أقدام الموحدين، وكيف يكون صفوان القدم موضع أقدام الحدث، فمجاز الأمانة بعد ذلك المحبة والعشق والمعرفة وحقيقتها الأمانية[1].

قال ابن عطاء: الأمانة هي تحقيق التوحيد على سبيل التفريد.

قال الجنيد: إن الله لما عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبوا حملها وعرض على آدم فقبلها، أبوا حين ظنوا أنهم إياهم يحملون، وحمل آدم حين علم أنه به يحمله لا بنفسه.

وقال أيضًا: نظر آدم إلى عرض الحق فأنساه لذة العرض ثقل الأمانة، ولما عرض على

---

(١) قال في الأسئلة المقحمة كيف عرض الأمانة عليه ما علمه بحاله من كونه ظلومًا جهولاً.

والجواب هذا سؤال طويل الذيل، فإنه تعالى قد بعث الرسل مبشرين ومنذرين إلى جميع الخلق ليدعوهم إلى الإيمان مع علمه السابق، بأن يؤمن بعضهم ويكفر بعضهم والخطاب عم الكل مع علمه باختلاف أحوالهم في الإيمان والكفر، فهذا من قبيله وسبيله، فإنه مالك الأعيان والآثار على الإطلاق. وقد قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: كان ظلوما بحق الأمانة جهولا بها يفعل من الخيانة يعنى لم تكن الخيانة عن عند وقصد بل كانت عن جهل وسهو. تفسير حقي (١١ / ١٥٥).

الخلائق والجمادات فأشفقوا وهربوا، ظنوا أن الأمانة تحمل بالنفوس، فكشف لآدم أن حمل الأمانة بالقلب لا بالنفس، فقال: أنا أحملها؛ فإن القلب موضع نظر الحق واطلاعه، فإذا أطلق ذلك يطيق حمل الأمانة، فإن الأمانة حدث وإطلاع الحق وتجليه لم تطقها الجبال وطاقتها القلوب، وأنشدنا:

ومَنْ على أثره حملتُ بالقلبِ ما لا يحملُ البدنُ والقلبُ يحملُ ما لا يحملُ البدنُ

يا ليتني كنتُ أدنى مَنْ يلوذُ بكم عينًا لأنظركم أم ليتني أذنُ

❁❁❁

سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ .

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : حمد نفسه قبل الكون ورفع حقوق الحمد عن الخليقة، ثم حمد نفسه بعد الكون علمًا بعجزهم عن أداء شكره، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ حيث يقبل الحسنات، ويعفو عن السيئات، ويدني العارفين من المشاهدات، ويكشف لهم جمال الذات والصفات.

قال أبو العباس بن عطاء: المحمود من لم يربط عباده بشيء من الأكوان قطع أملاكهم عن الجميع لئلا يشتغلوا بها، ويكون اشتغالهم بمن له الأكوان وما فيها وله الحمد في الآخرة حيث لم يناقش بالمحاسبة مع عباده، وهو الحكيم فيما دبر والخبير عما عفا وستر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ

مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: وصف نفسه بالإحاطة على كل ذرة من العرش إلى الثرى كيف يعزب عن علمه شيء من علمه وإرادته وقدرته، بدأ ذلك الشيء وبه قيامه ووجوده.

قال الواسطي في هذه الآية: كيف يخفى عليه ما هو أنشأها، أو كيف يستعظم شيئًا هو أبداها.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾: علمًا بجلاله وجماله ومحبته للقائه، وشوقًا إلى وصاله وحكمه بأمور العبودية، وعلمًا بأنوار الربوبية، وكشفًا من أسراره له، وإلباسه إياه وصف جلاله حتى يطيب قلبه بالعشق، وروحه بالمحبة، وعقله بالبصيرة وسره بالأنس، وصدره باليقين، وحلقه بالصوت الحسن، فهذه بركة أوصاف الأزل التي ألبسها الله إياه بنعت التجلي والتدلي، ألا ترى إلى قوله: ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾، وذلك الفضل اتصافه بأنوار الذات والصفات؛ لذلك أجابته الجبال بالتسبيح والتهليل بقوله: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾[1]، وكذلك الطير بقوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾، إذا زمزم من طيب عشقه قام العالم معه.

---

(١) قوله: «أَوِّبِي» العامة على فتح الهمزة ، وتشديد الواو، أمراً من التَّأويب وهو التَّرجيع، وقيل: التسبيح بلغة الحَبَشَة، وقال القُتَيبِيُّ: أصله من التأويل في السير وهو أن يسير النهار كله، وينزل ليلاً كأنه قال: أدأَبِي النَّهار كُلَّهُ بالتسبيح معه، وقال وهب: نوحي معه، وقيل: سيري معه، وقيل: سيري معه، والتضعيف يُحتمل أن يكون للتكثير، واختار أبو حيان أن يكون للتعدي قال: لأنهم فَسَّروه برجع مع التسبيح ، ولا دليل فيه لأنه دليل معنى.

وقرأ ابنُ عباس والحَسَنُ وقتادةُ وابنُ أبي إسحاق: أُوبِي بضم الهمزة أمرًا من آبَ يَؤُوبُ أي ارجع معه بالتسبيح.

قال جعفر في قوله: ﴿فَضْلًا﴾: ثقة بالله وتوكلاً عليه.

وقال النهرجوري: حلاوة صوته في المناجاة.

وقال ابن خلا: أفضل الفضل من الله على عباده أن يعرفهم أقدارهم وأن يمكن لهم سبيل الرجوع إليه.

قال عبد العزيز المكي: حبًّا للمساكين ورحمة على الضعفاء.

وقال الأستاذ: حسن خلقه مع أمته وفيما أوحى الله إليه: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ﴾ أنين المذنبين أحب إليَّ من صراخ العابدين.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾: لما بلَّغ الله داود وسليمان إلى محل التمكين من المعرفة والتصرف في المملكة الذي هو آخر درجة من درجات الصديقين طالبهم بشكر تلك النعمة ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾، الشكر الحقيقي أي: ابذلوا أنفسكم في خدمتي، واعرفوا معطيكم بسقوط نظركم عن العطاء؛ فإن الشكر الحقيقي معرفة المشكور على ما هو به.

قال ابن عطاء: اعملوا من الأعمال ما تستوجبون به الشكر.

وقال الأنطاكي: أصل الشكر الطاعة والتوبة والندم بالقلب، قال الله: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾، ثم شكا عن الأكثر من قلة شكرهم بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ أي: قليل من واقف بوقف الفناء في مقام الحياء، حين عاين قدم الألوهية ورؤية مواهب السنية بغير علة قيل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ﴾ من يرى الطاعة منة مني عليه.

قال بعضهم: الشاكرون من العبّاد قليل، والشكور من الشاكرين قليل، والشكّار من الشكور قليل.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: وصف الله سبحانه أهل الوجد من الملائكة المقربين، وذلك من صولة الخطاب، فإذا سمعوا كلام الحق من نفس العظمة وقعوا

في بحار هيبته وإجلاله، حتى فنوا تحت سلطان كبريائه، ولم يعرفوا معنى الخطاب في أول وارد السلطنة، فإذا أفاقوا سألوا معنى الخطاب من جبريل ﷺ، وهو من أهل الصحو والتمكين في المعرفة بقوله: ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ﴾: لا تُنال زلفته إلا بزلفته، وأين الحدثان من أن يقرب المعارف من الله، فإنه بنفسه جل جلاله قربهم منه إليه.

قال سهل: الزلفى هي التقرب إلى الله.

وقال بعضهم: الزلفى هي قطع الأسباب والتعلق بالنجاة.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾: كل عارف ينفق في عشقه ومحبته قلبه وروحه، فهو بذاته جل جلاله يخلف نفسه مكان قلبه وروحه، فيفنى القلب عنه، ويبقى الرب معه، فإذا فنيت صفات العارف في صفات المعروف صارت صفات المعروف صفته، ألا ترى إلى قوله كيف قال: «لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقلبه الذي يعقل به،

ولسانه الذي ينطق به»[١].

قال سهل: الخلف على الإنفاق الأنس والعيش مع الله والسرور به.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: أوصيكم خصلة واحدة هي أن تقوموا لله لأجل الله ﴿مَثْنَىٰ﴾ الشيخ والمريد، ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ العارف المتمكن القيام لله لا يكون إلا بالله، ومن يقوم من الحدثان لله، وقهارية الأزلية أفنت الحدوث في القدم حقيقة فإذًا لا يقوم لله إلا الله.

قال سهل: يرجع الحساب يوم القيامة إلى أربعة: وهي الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والاستقامة مع الله في جميع الأحوال، ومراقبة الله على كل حال.

سورة فاطر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤).

وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾: حمد قدمه بما أوجد من العدم بعين صورة ولا مثال، وجعل حمده إعلامًا للحامدين له بأن الحمد منه له حقيقة، ويفنى حمد الحامدين في حمده نفسه، جعل للملائكة أجنحة المعرفة على مراتب المقامات، فضَّل بعضهم على بعض في ذلك بقوله: ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، وللأرواح القدسية أجنحة، منها جناح المعرفة، ومنها جناح التوحيد، ومنها جناح المحبة، ومنها جناح الشوق، فبجناح المعرفة تطير إلى عالم الصفات، وبجناح التوحيد تطير إلى عالم الذات، وبجناح المحبة تطير إلى المشاهدة، وبجناح الشوق تطير إلى الوصال.

قال جعفر: أجنحة المؤمنين أربعة: أجنحة التوحيد، وأجنحة الإيمان، وأجنحة المعرفة، وأجنحة الإسلام، والموحد يطير بأجنحة التوحيد إلى الجبروت، والمؤمن يطير بأجنحة الإيمان إلى المشاهدة، والعارف يطير بأجنحة المعرفة إلى الملكوت، والمسلم يطير بأجنحة الإسلام إلى الجنان.

قيل: الأجنحة أربعة: أجنحة التعظيم، وأجنحة التفريد، وأجنحة الحياة، وأجنحة الحياء، فأجنحة التعظيم للمقرَّبين، وأجنحة التفريد للروحانيين، وأجنحة الحياة للوالهين، وأجنحة الحياء للواصلين.

قال الجنيد: الحمد لله الذي جعل ما أنعم على عباده من أنواع نعمه دليلاً هاديًا إلى معرفته، ثم بيَّن سبحانه أنه بفضله يزيد في حالات العارفين، ومعاملات المحبين، وحسن العاشقين والمعشوقين بقوله: ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾، يزيد في قلوب العارفين المعرفة، وفي قلوب المحبين المحبة، وفي قلوب المشتاقين الشوق، وفي قلوب العاشقين العشق، وفي قلوب المريدين الإرادة، وفي أبدان الصديقين قوة العبادة وصفاء المعاملة، وفي وجوه المستحسنين الحسن، وفي حلوق الروحانيين حسن الصوت.

وقال ابن عطاء: حسن المعرفة بالله، وحسن الإقبال عليه، وحسن المراقبة له والمشاهدة إياه.

وقال بعضهم: يزيد في الخلق ما يشاء محبة في قلوب المؤمنين.

وقيل: التواضع في الإشراف، والسخاء في الأغنياء، والتعفف في الفقراء، والصدق في

المؤمنين، والشوق في المحبين، والوله في المشتاقين، والمعرفة في الوالهين، والفناء في العارفين.

قيل: الخلق الحسن، وقيل: الصوت الحسن.

قال الأستاذ: الفصاحة في النطق، ثم بيَّن سبحانه أن هذه النعم غير مكتسبة ولا لها مانع بدفع عمن اختاره الله بها، ولا هي مستجلبة بتمنى المتمنين بقوله: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾: الرحمة هاهنا المعرفة بالله والاصطفائية الأزلية، فإذا فتح على ولي من أوليائه أبواب كنوز لطائف أنوار صفاته وذاته وجعله بصيرًا لأمر الكونين وعالمًا بمراد الله منه لا يدفع عنه ذرة من ذلك جميع الخلق؛ فإنه يختص برحمته من يشاء.

قال أبو عثمان: ما يفتح الله لقلوب أوليائه من القربة والإنابة والأنس لو اجتمع الخلق كلهم على أن يمسكوه عن ذلك لعجزوا عنه وما أمسكوا ما أرسل الله، ومن أغلق الله قلوبهم عن الإنابة إليه والقرب منه، فلو اجتمع الناس على أن يفتحوه ما قدروا على ذلك وعجزوا عنه، ثم إنه تعالى لما بيَّن موضع الخاصية في افتتاح نعمه على الصادقين حثهم على تذكر نعمه وشكر ما أنعم عليهم من لطائف جوده بنعت إفراد قدمه عن الحدوث بوصف نفي الأنداد عن جلال كبريائه بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾، ذكره معرفته ونعمته ومشاهدته، فوجبت حقوق المعرفة والمشاهدة على من عرفه وشاهده بأنه أسقط الأسباب بينه وبين خالقه فيما أولاه من أرزاق وصلته ولطائف قربته.

قال ابن عطاء: من علم أنه لا رازق للعباد غيره ثم يتعلق قلبه بالأسباب فهو من المبعدين عن طريق الحقائق.

قال القاسم: يرزقكم من السماء الهداية ومن الأرض أسباب الغذاء والحفظ والبقاء وما سنح لي من معنى السماء والأرض هاهنا السماء عالم الربوبية يرزقهم منها لطائف علوم المعارف وأنوار جلاله الكواشف، والرزق هناك التجلي والجذب والكشف بالبديهة وواردات المواجيد وسني المخاطبات، والأرض عالم العبودية يرزقهم منها صفاء المقامات ولطيف المعاملات وسنا الحكم والفِراسات، وأيضًا السماء إشارة إلى الروح، والأرض إشارة إلى القلب، والرزق الذي يبدو من عالم الروح علوم المعرفة، وما ينبت من أرض القلب فهي علوم الحكمة.

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى

مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾: إنه عدونا؛ لأنه من عالم القهر خلق، ونحن من عالم اللطف خلقنا، والطبعان مخالفان أبدًا؛ لأن القهر واللطف تسابقا في الأزل فسبق اللطف القهر؛ فعداوته من جهة الطبع الأول والجهل بالعصمة وأنوار التأييد والنصرة، ومن لا يعرفه بما وصفنا كيف يتخذه عدوًّا وهو لا يعرف مكائده ولا يعرف مكائده إلا ولي أو صديق.

قال الواسطي: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بما نصركم عليه، واحذروا ألا يغلبنكم؛ فإنه إنما يدعو حزبه، وحزبه هم الراكنون إلى الدنيا والمحبون لها والمفتخرون بها.

وقال جعفر الصادق: من سمع هذا النداء من الله تعالى وجب عليه بهذا النداء نصب آلة العداوة بينه وبين عدوه، ولا ينفكّ من محاربته طرفة عين كلما عارضه بشيء قابله بغيره إن عارضه بزينة الدنيا قابله بسرعة الفناء، وإن عارضه بطول الأمل قابله بقرب الأجل، فهو دائمٌ منتبهٌ مستعدٌ لمحاربته؛ لما يعلم أن الشيطان لا يغفل عنه، وأنه يراهم من حيث لا يرونه.

قال سهل في قوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾: أهل البدع والضلالات والأهواء الفاسدة والسامعين ذلك من قائلها.

قال الواسطي: حذر حزبه ومتابعته، وأمر بطرده بضياء المبادرة في العهود وحفظ الحدود ورعاية الود بطرد الوساوس، كما أن بضياء النهار طرد الكلاب من المحابس، وأنشد:

ومَنْ رعى غنمًا في الأرض مسبعةً ونام عنها تولَّى رعيَها الأسدُ

وما فهمت من هذه الآية أن الله سبحانه أراد أن يعرف عباده من محاربة الشيطان معالم قهرياته وحفظ الأوقات والأنفاس من خطراته؛ لأن الشيطان يغوي المصطفين بالولاية، ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ من أصحاب الضلالات الذين طردهم الله عن بابه وهو يعرفهم، وإنما هو يدعوه لا أن الضلالة بيده كما لا تعلق الهداية بالأنبياء.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾: سهَّل الله سبحانه طريق الوصول إلى العزة القديمة لطلاب العزة، وهو الاتصاف بصفاته والتخلق بخلقه، فإذا عرَّفه بالعزة صار منورًا بنور عزته، عزيزًا بها كساه الحق من سناء عزته، فإذا كان مزينًا بنور العزة صار سلطانًا من الحق يذل عنده جبابرة العالم، ولا يكون ذلك إلا بعد فنائه في بقاء الله.

قال سهل: العزة النصرة؛ فليطلب ذلك من عند الله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، ثم بيَّن سبحانه ألا يصل إليه إلا ما بدا منه بقوله: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾، الكلم الطيب ما تلقفه الأرواح القدسية في بدو الأزل من الحق سبحانه حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، ولا يصل ذلك إلا إليه؛ لأن الحدثان لا يكونا محل الإفراد الفردانية بل الأزلية مصادر التوحيد، ألا ترى كيف قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ يعني لا إلى غيره، والعمل الصالح عمل القلب، وهو محبة الله والشوق إلى لقائه، والمحبة والشوق أيضًا مصدرهما صفة الحق فيصحبان الكلمة؛ لأن الكلمة والمحبة خرجتا من معدن الألوهية، فمنه بدأتا، وإليه تعودان.

قال سهل: ظاهره الدعاء والصدقة، وباطنه عمل بالعلم والاقتداء بالسنة يرفعه، أو يوصله الإخلاص[1].

---

(١) في قوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي ابتداء خلقكم من التراب في ضمن خلق آدم منه؛ لتكونوا متواضعين؛ كالتراب ساكتين تحت الأقدار. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلقكم من نطفة خلقًا تفصيليًا؛ لتكونوا قابلين لكل كمال؛ كالماء الذي هو سرُّ الحياة، ومبدأ العناصر الأربعة، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافًا أحمر وأبيض وأسود، وذكرانًا وإناثًا، ﴿تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى﴾ هو فاعل تحمل، ومن مزيدة لاستغراق النفي وتأكيده، ﴿وَلاَ تَضَعُ﴾ كون تلك الحامل والواضع ملتبسة بعلمه، تابعة لمشيئته، ﴿إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ حال من الحامل دون المحمول؛ لأن العلم بالحامل والواضع يتضمَّن العلم بالمحمول والموضوع، فيعلم تعالى مكان الحمل، ووضعه، وأيامه، وساعاته، وأحواله، وأحواله من النقصان والتمام، والذُّكورة =

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾: فطرة الإنسانية وقعت من الغيب مضطربة متحركة إلى الأزل بنعت الافتقار إليه كانجذاب الحديد إلى المغناطيس؛ لأنها بنعت وقعت، العشق والعاشق مفتقر إلى معشوقه انفعالاً، فمن عرفه بالأزلية والأبدية يفتقر إليه افتقارًا قطعيًا؛ لأن بقاءه لا يكون إلا به، وإذا كان كذلك صار غنيًا بالله متصفًا بغناه غنيًا به عن غيره مفتقرًا إليه، فإذا كان في محل الصحو يكون مفتقرًا إليه، وإذا كان في محل السكر بقي في رؤية غناه عنه، فصار محجوبًا عنه ولا يدري.

=

والأُنوثة، وغير ذلك. وقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ ما نافية، والتعمير عُمر، وهو مدة عمارة البدن بالحياة، والمعمَّر مَن أطيل عمره، (مِن مُّعَمَّرٍ): أي من أحد، ومن زائدة لتأكيد النفي، وسُمِّي معمَّرًا باعتبار مصيره؛ فهو من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه؛ والمعنى وما يُمدُّ في عمر أحد. ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ من النقص؛ وهو متعدٍ؛ بمعنى: كم، والضمير للمعمَّر على الاستخدام، فيراد بضميره ما؛ مَن شأنه أن يُعمَّر: أي ولا ينقص من عمر أحد؛ ومعنى، (لا ينقص من عمره) بعد كونه زائدًا؛ إذ العمر لا يزيد، ولا ينقص؛ بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصًا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي اللوح، أو علم الله، أو صحيفة كل إنسان؛ لأن الملك يكتب والمولود في بطن أمه سعادته وشقاوته، وأجله ورزقه، فلا يتغيَّر ذلك؛ لأن بطن الأم لوح العلم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه عن الأسباب؛ فكذا البعث، فمَن آمن به على هذا الوجه؛ سلم من الاعتراض، والإنكار، واتَّبع الهدى والحكمة في كل الأفعال والآثار.

قال الحسين: على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غناه بالله، وكلما ازداد افتقارًا ازداد غنىً.

قال الواسطي: من استغنى بالله لا يفتقر، ومن يتعزَّز بالله لا يذل.

وقال جعفر الصادق: أنتم الفقراء بذل العبودية والله الغني بعز الربوبية؛ لأن الربوبية القهر والغلبة والعبودية الخضوع والاستكانة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ : الخوف عموم والخشية خصوص، وقد قرن سبحانه الخشية بالعلم بالله وجلاله وقدره وربوبيته والعبودية له، وحقيقة الخشية وقوع نور جلال الحق في العارفين ممزوجًا بسنا التعظيم ورؤية الكبرياء والعظمة، ولا يحصل ذلك إلا لمن شاهد القدم والأزل والبقاء والأبد، فمن زاد علمه بالله زادت خشيته؛ لقوله عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام: **«أنا أعرفكم بالله وأخشاكم منه»**[1].

قال ابن عطاء: الخشية أتم من الخوف؛ لأنها صفة العلماء.

وقال النصر آبادي: خشية العلماء من الانبساط في الدعاء والسؤال.

قال حارث: العلم يورث الخشية، والزهد يورث الراحة، والمعرفة تورث الإنابة.

وقال الواسطي: أوائل العلم الخشية ثم الإجلال ثم التعظيم ثم الهيبة ثم الفناء، فإذا فنيت هربت ثم نسيت حتى نسيت أفعالها.

وقال الأستاذ: الفرق بين الخشية والرهبة أن الرهبة خوف يوجب هرب صاحبه فيجري في تفرقته، والخشية إذا حصلت كبحت صاحبها، فيبقى مع الله، فتقدمت الخشية الرهبة في الجملة.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٣١) بنحوه.

مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾: مَنَّ الله على عباده المصطفين في الأزل بمعرفته ومحبته بأن أعطاهم كتابه وعلمهم عجائبه وغرائبه، فالاصطفائية تقدمت الوراثة اصطفاء بمحبته ومشاهدته، ثم خاطبهم بما له عندهم وما لهم عنده، وهذا الميراث الذي أورثهم من جهة نسب معرفتهم به واصطفائيته إياهم، وهو محل القرب والانبساط؛ لذلك قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾، ذكر ﴿ثُم﴾ للتأخير، ثم قسَّمهم على ثلاثة أقسام: ظالم، ومقتصد، وسابق، والحمد لله الذي جعل الظالم من أهل الاصطفائية، ألا ترى أنه ذكر الاصطفائية، ثم ذكر الظالم وقرنه بالمقتصد والسابق، فالظالم عندي -والله أعلم وأحكم- الذي وازى القدم بشرط إرادة حمل وارد جميع الذات والصفات وطلب كنه الألوهية بنعت إدراكه، فأي ظالم أعظم منه إذ طلب شيئًا مستحيلاً، ألا ترى الله سبحانه كيف وصفه بهذا الظلم بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾، وهذا من كمال شوقه إلى حقيقة الحق وكمال عشقه ومحبته وجلاله وجماله، وأيضًا الظالم من أظهر سرَّ الأسرار من غلبة المواجيد عن الخلق، وأيضًا الظالم من أخرج قدم المعرفة من جادة الرسوم من كمال سكره؛ لأنه خرج من حد التمكين، وأيضًا الظالم الذي غلب عليه عشق الأزل، ويريد أن يكون الأزل بعينه، وهذا نعت متحد، وأي ظالم أعظم من الحادث الذي يدَّعي الأنانية على نعوت الحدوثية، وإن كان معذورًا من جهة السكر والوله، وأيضًا الظالم الذي وقف في مقام لذة المشاهدة عن السير في الألوهية، وأيضًا الظالم الذي احتجب منه به ولا يعرف أن ذلك مكر الأزل، وأيضًا الظالم الذي يحب الحق لراحة مشاهدته، وأيضًا الظالم الذي يطلب منه الكرامات والآلاء والدرجات، وأيضًا الظالم الذي آثر البقاء على الفناء، والمقتصد -والله أعلم- الذي عرف الحق بالحق وجعل الخلق للحق، ولا يتجاوز عن حدود العبودية إلى عالم الربوبية، والمقتصد أيضًا الذي استوت أعماله وأفعاله وأقواله وسكره وصحوه وفناؤه، والسابق الخيرات هو المستقيم في جميع الأحوال وصحوه أكثر من سكره وبقاؤه أقوى من فنائه، وهو السابق في الأزل بالتقدم على أهل الاصطفائية من أهل الولاية، وأيضًا الظالم المريد والمقتصد المحب والسابق العارف.

وقال الحسن البصري: السابق من رجحت حسناته، والمقتصد من استوت حسناته

وسيئاته، والظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته.

قال جعفر الصادق: فرّق المؤمنين ثلاث فرق، سماهم مؤمنين أولاً عبادنا، أضافهم إلى نفسه تفضلاً منه وكرمًا، ثم قال: ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ جعلهم كلهم أصفياء مع علمه بتفاوت معاملاتهم، ثم جمعهم في آخر الآية يدخلون الجنة فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ ثم بدأ بالظالمين إخبارًا أنه لا يتقرب إليه إلا بصرف كرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفائية، ثم ثنَّى بالمقتصدين؛ لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحدٌ مكره، كلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص.

قال الجنيد: لما ذكر الميراث دلَّ على أن الخلق فيه خاصٌّ وعامٌّ، وأن الميراث لمن هو أقرب وأصح نسبًا، فتصحيح النسبة هو الأصل.

قال: الظالم الذي يحبه لنفسه، والمقتصد الذي يحبه له، والسابق هو الذي أسقط عنه مراده لمراد الحق فيه، فلا يرى لنفسه طلبًا ولا مرادًا لغلبة سلطان الحق عليه.

سُئل النوري عن قوله: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾ على ماذا عطف بقوله [ثُمَّ]؟ قال: عطف على إرادة الأزل والأمر المقضي، قال: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾ من الخلق الذين سبقت لهم منا الاصطفائية في الأزل.

وقال عبد العزيز المكي: المغفرة للظالمين، والرحمة للمقتصدين، والقربة للسابقين.

وقال الحسين: الظالم الباقي مع حاله، والمقتصد الفاني في حال، والسابق المستغرق في فناء حاله.

وقال النصر آبادي: لا ميراث إلا عن نسبة صحح النسبة، ثم ادَّعى الميراث.

وقال أيضًا: ميراث الكتاب للذين فهموا عن الله خطابه، فكل فهم على قدره، فالظالم فهم منه محل المغفرة والثواب والعقاب، والمقتصد فهم منه محل الجزاء والأعواض والجنان، والسابق استغرقه التلذذ بالخطاب عن أن يرجع منه إلى شيء سواه.

وقال أبو يزيد: الظالم مضروب بسوط الأمل، مقبول بسيف الحرص، مضطجع على باب الرجاء، والمقتصد مضروب بسوط الحسرة، مقتول بسيف الندامة، مضطجع على باب الكرم، والسابق مضروب بسوط المحبة، مقتول بسيف الشوق، مضطجع على باب الهيبة.

قال أبو يزيد: الظالم في ميدان العلم، والمقتصد في ميدان المعرفة، والسابق في ميدان الوجد.

قال محمد بن علي: الإيمان للظالمين، والمعرفة للمقتصدين، والحقيقة للسابقين.

قال ابن عطاء: الظالم معذب، والمقتصد معاتب، والسابق ناجٍ مقرَّب.

قال بعضهم: الظالم لنفسه آدم، والمقتصد إبراهيم، والسبَّاق محمد صلوات الله عليهم.

وقال الأستاذ: الظالم من نجم كواكب عقله، والمقتصد من طلع بدر علمه، والسابق من درت شمس معرفته.

﴿وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ : أهل المعرفة إذا دخلوا جنان المشاهدة، وأدركوا أنوار المكاشفة، وجلسوا على بساط القربة، وشربوا شراب الزلفة، وفازوا من آلام الفرقة في حجال الوصلة هيجهم حالهم إلى حمد خالقهم، والثناء عليه بما أولاهم من لطيف كراماته وسنا مشاهداته حين فازوا من هجوم الأحزان في قلوبهم من خوف أليم

الفراق وطريان النفاق بعد حقيقة الاشتياق، وأقروا بأن ذلك من لطفه الخاص بلا امتحان بقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾، ثم بينوا ألا يلحقهم فيها وجدوا من نعم الله نصب المعاملات ولا لغوب الطبعيات.

قال النصر آبادي: ما كان حزنهم إلا تدبير أحوالهم وسياسة أنفسهم، فلما نجوا منها حمدوا وقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

وقال أبو سعيد الخراز: أهل المعرفة في الدنيا كأهل الجنة في الآخرة، قال الله حاكيًا عن أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾، وإنما أحزانهم للاشتغال بالأعراض، فتركوا الدنيا في الدنيا، فتنعموا، وعاشوا في الدنيا بعيش الجنانين.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾: شكر الله العبد رضاه بما أجرى عليه، وشكر العبد ربه أن يرى النعمة من الله ابتداء وانتهاء.

قال أبو بكر التيمي: إن كانت أعمالك مكتسبة فبفضل الله عملت، والفضل غير مكتسب، وإن كان مكتسبًا لم يسمَّ فضلا؛ ألا ترى الله يقول: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وافهم أن ذلك الحزن الذي نجا القوم منه وحمدوا الله بإخراجهم عنه هو الحزن الذي صدر من رؤية قهر الأزل، فلما فروا من الله إلى الله فازوا من قهره بلطفه، ولا يبقى لهم استتار، بل يبقون في المشاهدة بلا حجاب وامتحان واضطراب.

قال ابن عطاء: حزن إبهام العاقبة.

سورة يس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾.

﴿يسٓ ۝١﴾: افهم أن حروف يس كحروف الطواسين وحروف الحواميم وغيرها من حروف التهجي، الياء إشارة إلى يد القدرة الأزلية، والسين إلى سنا الربوبية، أقسم سبحانه بثلاث صفاتٍ: بالقدرة، وسنا الربوبية، والكلام الأزلي بقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾، مخاطبة المواجهة بعد شرف القسم بنفسه وصفاته؛ لأن المقسم به قديم، فأقسم بالقدم لا بشيء خرج من العدم لشرائفه وفضائله.

قيل: الياء يشير إلى يوم الميثاق، والسين يشير إلى سره مع الأحباب، فقال: وبحق يوم

الميثاق وسري مع الأحباب والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين يا محمد.

قال جعفر الصادق: يا سيدًا مخاطبًا لنبيه ﷺ بذلك؛ لذلك قال النبي ﷺ: «أنا سيِّدُ»[1]، ولم يمدح بذلك نفسه، ولكن أخبر عن معنى مخاطبة الحق إياه بقوله: ﴿يس﴾.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾: حق القول الأزلي في الأزل إن أكثر الخلق لا يعرفونه؛ لأنه غريب الأزل، والأزلي لا يعرفه إلا الأزلي، والحمد لله الذي حكم على الأكثر بالشقاوة، وما حكم على الأقل الذين عرفوه به لا بغيره، وهم أوراق بساتين قدسه ونسائم نرجس أنسه.

قال ابن عطاء: حق القول على أهل الشقاوة في الأزل، إنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، والنبي ﷺ يُسْمِع خطابه من أسمعه الحق في الأزل نداء السعادة، فإذا سمع نداء النبي ﷺ أجاب لما سبق له من إجابة لنداء الحق.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾: سدَّ ما خلفهم سدَّ قهر الأزل، وسدَّ ما بين أيديهم شقاوة الأبد، فينفسه منهم من نفسه لا جرم أنهم في غشاوات الغيرة ولا يبصرونه أبدًا.

قال ابن عطاء في ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾: وهو طول الأمد، وطمع البقاء، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾: وهو الغفلة عما سبق منه من الجنايات، وقلة الندم والاستغفار عليه أعماه تردده في الغفلات عن الاعتذار لما سبق منه من الجنايات.

وقال الأستاذ: أغرقناهم اليوم في بحار الضلالة، وأحطنا بهم سرادقات الجهالة، وفي الآخرة نغرقهم في النار والأنكال، ويضيق عليهم الحال بالسلاسل والأغلال.

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢١٥)، ومسلم (١/ ١٨٤).

إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾: الإنذار لا يؤثر إلا في أصحاب الذكر؛ لأنهم في مشاهدة عظمة المذكور يفزعون منه بأقدار ما شاهدوه من العظمة والكبرياء، فبركة موعظة الصادق تزيد لهم تعظيم الله وإجلاله، وتابع الذكر تابع السنة، ثم تابع الحال والوقت والوجد حتى فني هو في ذكره، وفني ذكره في رؤية مذكوره؛ لأنه شاهد العظمة بنعت الفناء في الحضرة حين غاب عن الخلق بقوله: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ علم الرحمن في غيب الرحمن، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ لما جرى عليه من وقفة الحال وكشف المشاهدة الكريمة الأزلية الأبدية.

قال الحسين: أشرف منازل الذاكرين من نسى ذكره في مشاهدة المذكور، وحفظ أوقاته من الرجوع إلى الرؤية والذكر.

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ﴾: العبودية ممزوجة بالفطرة، والمعرفة فوق الخليقة والفطرة، وهذا المعنى مستفادٌ من قول النبي ﷺ حيث قال: «كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة»[1]، ولو كانت المعرفة ممزوجة بالفطرة لما قال: «فأبواه يُهودانه أو يُمجسانه أو يُنصِّرانه»[2]، بل المعرفة تعلق بكشف جماله وجلاله صرفًا بالبديهة بغير علة ولا اكتساب بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

(١) رواه البخاري (١/ ٤٦٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧).

(٢) تقدم في سابقه.

قال ابن عطاء: الفطرة جعل الأشخاص في قبضة القدرة والأرواح في قبضة العزة.

قال بعضهم: العبد الخالص من عمل على رؤية الفطرة لا غير، وأجل منه من يعمل على رؤية الفاطر.

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ : ضاق صدر حبيب النجار -قدس الله روحه- لأجل قومه الذين شاهدوا قتله، وضاقت صدورهم لأجله حتى تبرأ لأمر فراقهم، إنه في رؤية الخلق بعد خلاصه من الخلق.

قال حمدون القصار: لا يسقطه عن النفس رؤية الخلق بحال، ولو سقط عنها في وقت لسقط في المشهد الأعلى في الحضرة، ألا تراه في وقت دخول الجنة يقول: ﴿يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾، تحدثه نفسه إذ ذاك برؤية الخلق.

﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾: خلق الأصناف من العرش إلى الثرى بغير رؤية ولا تفكُّر، بل على ما سبق في علمه في الأزل لا على مثال، ولا على أشخاص، وهو منـزهٌ أن يكون له شبيهٌ أو نظيرٌ.

قال عبد العزيز المكي: خلق الأزواج كلها ثم قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾؛ ليستدل بذلك أن خالق الأشياء منـزهٌ عن الروح مستغنٍ عنه.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ

كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾: عرَّف الله سبحانه أهل معرفته نفسه بآيات المكاشفات وطلوع شموس المشاهدات والغيبة والاستتار بعده، حين هم في ضياء المشاهدة ونور المكاشفة، فيقبض منهم أنوار المواجيد والحالات قبضًا يسيرًا بحيث لا يعرفون ذهابه حتى بقوا في الحجاب، فإذا دحا ليل الفقدان عليهم وهاموا في أودية الحيرة من طلب شمس المشاهدة فتلك الشمس تجري لمستقر لها تنكشف شمس الجلال من مشارق الآزال على أوقاتهم بمقادير الإرادة الأزلية، فيكون الوقت سرمدًا بغير فترة ولا انتقال بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾، فإذا غابت عنهم شمس الذات طلع عليهم قمر الصفات في أبراج قلوبهم على منازل المقامات بقوله: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ ﴾[1]، يبدو لهم في أوائل الأحوال أنوار الصفات، فيزيد لهم وضوحًا

---

(١) قال حقي: (منازل) وهي ثمان وعشرون مقسومة على الاثني عشر برجا، ينزل القمر كل ليلة في واحدة من تلك المنازل لا يتخطاها ولا يتقاصر عنها فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين أو ليلة إن كان تسعة وعشرين وقد صام ﷺ ثمانية أو تسعة رمضانات خمسة منها كانت تسعة وعشرين يومًا، والباقي ثلاثين وقد قال ﷺ: «شهرا العيد لا ينقصان» أي حكمهما إذا كانا تسعا وعشرين مثل حكمهما إذا كانا ثلاثين في الفضل وقد صح أن دور هذه الأمة هو الدور القمري العربي =

وكشفًا، فيربيهم على سنن الواردات حتى صاروا في مشاهدة بدر كمال الصفات، فإذا كادوا يفنوا في تلك الحالة يغيب عنهم أنوار الصفات حتى يبقى لهم اللمعان والبروق، ويصير البدر لهم هلالاً، فيتراءون هلال جمال الصفات بأبصار قلوبهم في سماء اليقين، وهذا من لطف الله لهم الذي يربيهم على قدر الأحوال في مقامات مشاهدة الذات والصفات قبضـًا وبسطـًا حتى لا يفنوا.

قال الأستاذ: نهار الوجود يدخله على ليالي التوقف، ويقود بيد كرمه عصا من عمى عن سلوك رشده، فيهديه إلى سواء طريقه.

وقال في قوله: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ ﴾ الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيق الحال ضعيف اليقين مختصر الفهم، فيتفكر حتى تزداد بصيرته ويكمل حاله، ثم يصير كاملاً، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً، وكلما ازداد من الشمس دنوًّا ازداد في نفسه نقصانًا إلى أن يتلاشى ويخفى ولا يُرىَ، ثم يبعد عن الشمس، لا يزال يتباعد حتى يعود بدرًا من الذي يصرفه على ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم، فشبه الشمس عارف أبدًا في ضياء معرفته صاحب تمكين غير متلون يشرق بروج من سعادته دائمـًا، لا يأخذه كسوف، ولا يستره سحاب، وشبه القمر عبد يكون أحواله في التنقل، صاحب تلوين له من البسط ما يرقيه إلى حد الوصال، ثم يردُّ إلى الفترة، ويقع في النقص بما كان به من صفاء الحال، فيتناقص ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يجود عليه الحق سبحانه، فيوفقه لرجوعه عن فرقه وإفاقته عن سكرته، فلا تزال تصفو حاله إلى أن يقرب من الوصال، ويرزق صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص والزوال، كذلك حاله إلى أن يحق له بالمقسوم ارتحاله، فكما قالوا: [إن كنت أدري فعلي بدنه من كثرة التلوين إليَّ من أنه]، وفي معناه أنشدوا:

كـلُّ يـومٍ تـتلونُ غـير هـذا بك أجملُ

﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ : إذا دخل أهل الجنة في الجنة وتنعموا بها يكشف الله جماله لهم بالبديهة، فيكونون في شغل من المشاهدة عن نعيم الجنة ناظرين إلى الحق بالحق، ويفرحون بما نالوا من جماله وجلاله.

قال ابن عطاء: شغلهم في الجنة استصلاح أنفسهم لميقات المشاهدة، وهذا من أعظم

=

الذي حسابه مبني على الشهر لا الدور الشمسي الذي مبنى حسابه على الأيام.

الاشتغال.

وقال الجنيد: أحيا أقواماً بالراحة ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، فهم متقلبون في الراحة واللقاء والرضوان والمشاهدة، ثم مَنَّ عليهم زيادة منه، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾ : شغلهم حظوظ الأنفس عن هذا المعدن وهذا المشهد.

وسئل بعض المشايخ عن قول النبي ﷺ: «أكثر أهل الجنة البُله»[1] قال: لأنهم في شغل فاكهون، شغلهم النعيم عن المنعم.

وقال الحسين: إن الحق قطع أهل الجنة بتجليه عن الالتذاذ بالجنة؛ لأنه أفناهم بتجليه عنها؛ لئلا تدوم بهم اللذة، فيقع بهم الملك فرجوعهم إلى إياهم بعد تجلي الحق لهم يوفر اللذة عليهم، والحق لا يلتذّ به.

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ : سلام الله أزلي الأبد غير منقطع من عباده الصادقين في الدنيا والآخرة، لكن في الجنة يرفع عن آذانهم جميع الحجب، فسمعوا سلامه، ونظروا إلى وجهه كفاحاً.

قال ابن عطاء: السلام جليلُ الخطر، عظيم المحل، وأجله خطر ما كان في المشاهدة والمكافحة من الحق حين يقول: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ : من استقام عليه فقد ظهر عليه سرُّ الربوبية، وشغله ذلك السرُّ به عن الطاعة والمعصية، قد حضر لي نكتة أن السلام يكون بالقول والكلام من رب رحيم يربيهم بمشاهدته ويرحمهم؛ لئلا يحجبهم عن جماله أبدًا.

قال الأستاذ: الرحمة في تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية في حالة ما سلم عليهم ليكمل لهم النعمة.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١/ ٣٦٢)، وابن عدي في الكامل (٣/ ٣١٣).

قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾: طلب الحق منهم ما خلق في فطرتهم من استعداد قبول طاعته أي: اعبدوني بي لا بكم، فهذا صراطٌ مستقيمٌ حيث لا تنقطع العبودية عن العباد أبدًا، ولا يدخل في هذا الصراط اعوجاجٌ ولا اضطرابٌ.

قال النوري: الأنفاس ثلاثٌ: نفس في العبودية، ونفس بالربوبية، ونفس بالرب.

قال الواسطي: من عبد الله لنفسه فإنها يعبد نفسه، ومن عبده من أجله فإنه لم يعرف ربه، ومن عبده بمعنى أن العبودية جوهرة تظهرها الربوبية فقد أصاب.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ﴾ : من عمَّره الله وذهب أوقاته بالغفلات، ولا يظهر بالمشاهدات نقص وضعف في ميادين العبودية والربوبية.

قال أبو بكر الوراق: من عمَّره الله بالغفلة فإن الأيام والأحوال تؤثر فيه حالاً فحالاً من طفولية، وشباب، وكهولية، وشيبة إلى أن يبلغ ما حكى الله عنه من قوله: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾، ومن أحياه الله بذكره فإن تلوين الأحوال لا يؤثر فيه، فإنه متصل الحياة لحياة الحق، حي به، ويقر بهن، قال الله: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي: من كان عارفـًا بالله وبصفاته، عاشقـًا بوجهه، مشتاقـًا إلى لقائه، والهـًا في جماله، ذاهلاً في عظمته وكبريائه، متصفـًا بحياته.

قال ابن عطاء: أي من كان في علم الله حيـًا أحياه الله بالنظر إليه والفهم عنه والسماع منه والسلام عليه.

قال الجنيد: الحي من يكون حياته بحياة خالقه، لا من يكون حياته ببقاء هيكله، ومن يكون بقاؤه ببقاء نفسه فإنه ميت في وقت حياته، ومن كان حياته بربه كان حقيقة حياته

وفاته؛ لأنه يصل بذلك إلى رتبة الحياة الأصلية، قال الله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾: إن في خلق الإنسان ووجوه الحسان من علامات قدرته أكثر مما يكون في الكون؛ لأن الكونين والعالمين في الإنسان معجون وفيه عمله معلوم، ولو عرف نفسه فقد عرف ربه؛ لأن الخليقة مرآة الخليقة تجلت في الخليقة لأهل المعرفة، ورُبَّ قلبٍ ميتٍ يحيا بجماله بعد موت جهالته، وإحياؤه بمعرفته.

قال الواسطي: ضرب الأمثال في القرآن إعلامًا لصحة الطرق للموحدين على حدة، وللعالمين على حدة؛ ليعلموا أن قليلاً من روائح نفحاته خيرٌ من كثير توحيدهم ومعاملاتهم.

وقال في قوله: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: من يحيي القلوب الميتة بالقسوة والإعراض عنه، فيردها إلى التفويض والتسليم والتوكل والإقبال عليه.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: الفهم فيه أن الأمر بالقول، والقول القديم سبب إيجاد الكون، ولا يكون الكون إلا بإرادة المكون، وإرادته قبل الأمر، فلو كان القول وافق الإرادة لصار الكون قديمـًا، لكن بقوته الأزلية وجلاله الأبدي أراد وجود الأشياء إلا في وقت معين، فالأشياء مطيعةٌ له بإجباره الأزلي عليها وغلبة سلطانه على متون العدم بعزة القدم، لا إرادة لها؛ إذ الأمر كله يتعلق بجبروته.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: منزَّهٌ عن النقائص الحدثية، لا شريك له في ملكه، من قدرته بدء الأشياء، وإلى قدرته رجوع الأشياء[1].

---

(١) الملكوت هو الملك العظيم على ما يقتضيه الزيادة التركيبية؛ كالعظموت بمعنى: العظمة الزائدة.

والرهبوت بمعنى: الرهبة الشديدة، والرحموت بمعنى: الرحمة الغالبة، وعلى هذا المراد بالملك العظيم هنا هو: ملك الروح؛ لأنه أعظم من ملك الجسد؛ لأن الجسد من عالم الصورة، والروح من عالم المعنى، والمعنى أوسع من الصورة، وإن كان كل من الروح والجسد مخلوقين على ما دلَّت عليه النصوص.

قال الحسين: أبدى الأكوان بقوله﴿كُن﴾ إهانة لها وتصغيرًا؛ ليعرف الخلق إهانتها، فلا يركنوا إليها، ويرجعوا إلى مبدئها ومنشئها، فشغل الحق زينة الكون، فتركهم معه، فاختار من خواصه خصوصًا أعتقهم من رقّ الكون، وأحياهم به، فلم يجعل للعلل عليهم سبيلاً ولا للآثار منهم طريقًا.

سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ .

﴿وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ۝١﴾ : والقلوب المتآلفة في مقام المحبة صفت بنعت الإقبال إلى جمال الأزل، وهي قلوب المحبين، وأيضًا صفوف العقول المقدسة صفت في مقام العبودية لمشاهدة الربوبية، وهي عقول العارفين، وأيضًا الأرواح العاشقة صفت في حظائر القدس في مقام الأنس، وهي طيور الله في بساتين الله، وهي أرواح الموحدين،﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ : إلهامات الحق التي تأتي على خواطر أهل الحق[1]،﴿فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا﴾ : الملائكة التي تلم على قلوب الحاضرين في الحضرة بوحي الله، فأقسم الحق بهذه النيرات أنه تعالى واحدٌ لا انقسام في ذاته ولا افتراق في صفاته، لا تكون وحدانيته من حيث العدد ولا ألوهيته من حيث المدد، فأظهر وحدانيته بنعت التجلي والظهور للوحدانيين بقوله:﴿إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ ، ثم أوضح طرق الدليل إليه بقوله:﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ﴾ : المشارق مطالع قلوب العارفين التي تطلع منها أنوار الحق للأرواح والعقول، ثم بيّن أنه تعالى زيّن سماء الظاهر بالكواكب، وزيّن سماء الأرواح بأنجم المعارف ونور الكواشف بقوله:﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ : من نور معرفة العارفين ينـزجر الشياطين المتمردة ولا

---

(١) أقسم بطوائف الملائكة، الصافّين أقدامهم في مراتب العبادة، كل على ما أمر به، فالزاجرات السحاب سوقًا إلى ما أراد الله ، أو: عن المعاصي بإلهام الخير. أو: الشياطين عن التعرُّض لهم. البحر المديد (٥/ ٢٢٤).

يطيقون إلقاء الخواطر الرديئة.

قال ابن عطاء: زيَّن قلوب أوليائه بكواكب المعرفة، وهي الأنوار الظاهرة.

قال الحسين في قوله ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾: دلَّهم على الوحدانية؛ ليكونوا وجدانيي الذات؛ ليصلحوا لمعرفة الواحد، فمن لم يتحد بإسقاط كل العلائق عنه لا يصلح لمعرفة الواحد.

وقال أيضًا: الواحد لا يعرفه إلا الآحاد من العباد.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: جاء الشيطان إلى قلب العارف فألقى من بعيد إليه وسوسةً كاد أن يختطف حظًّا من حظوظ مواجيد العارف، وأن يشوش وقته، فلحقه نور غيرته فأحرقه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا

يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾: الجميع في حيز الجزاء الكفار يجزون بالعذاب، والمؤمنون يجزون بالثواب، والمخلصون خارجون من علل الفريقين، هم مختارون بالولاية، مختصون بالمشاهدة، لهم مقامٌ معلومٌ في القربة والوصلة بقوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ﴾، رزقهم جمال الحق أبد الآبدين بلا حجابٍ ولا حسابٍ، والمخلص في المعرفة الخارج بنور الربوبية عن علل الحدوثية.

وقال أبو بكر بن طاهر: صحة البقاء مع الله إخلاص العبودية لله، وفناء رؤية العبد مع الله ببقاء حظِّه من الله.

وقال الأستاذ: الإخلاص أن تلاحظ محل الاختصاص.

﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾: من شاهد الحق يكون مطلعًا على ما دون الحق، واطلاع أهل المعرفة على الغيب من قوة نور جمال الحق في أبصارهم، فيبصرون

مغيبات الغيب بنظر الغيب.

قال القاسم: الاطلاع اطلاعان: اطلاع التخصيص فيه الحياة والبقاء، واطلاع التخصيص فيه الفناء والهلاك.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾: جاء ربه بقلبٍ محبٌّ مملوءٍ من شوق الله منقاد لأمر الله، ومراد الله فَارٌّ منه إليه، سالمٌ مما دون الله من العرش إلى الثرى، مقدسٌ من شوائب الطبيعة، قيل أي: مستسلم مفوض في كل حال إلى ربه، راجع إليه بسره لا تتخالَّه الأكوان بما فيها.

سئل الجنيد بمَ ينال سلامة الصدر؟ قال: بالوقوف على حق اليقين.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾: لما طلب القوم من الخليل ﷺ المطايبة والعيش النفساني من قلة معرفتهم بحاله فأخرج غرائب معاني العشق والمحبة في صورة العلم التي يكون حجة عليهم وامتناعه من صحبتهم لأنسه بالله، فحكى الحق سبحانه عنه: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾، وهذا إشارةٌ يعني طالع أنجم الصفات التي تطلع من مشارق الذات، أي: شاهد جمال القدم، واستغرق في بحر المحبة، فأخبر عن آلام لدغات حيات المحبة والمودة التي أسقمته بدائه، ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾: سقيم مشاهدة الأزل، ومريض جمال الأبد، ولا أقدر أن أشتغل بسواه، وإني أطلب مداواة سقمي ممن أسقمني.

قد لسعتْ حيةُ الهوى كبدِي ... بلا طبيبٍ لها ولا راقي

إلا الحبيبَ الذي شغفتُ به ... فعنده رقيتي وترياقي

قال ابن عطاء: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ مما أرى من مخالفتكم وعبادتكم الأصنام.

قال بعضهم: إني سقيم القلب؛ لفوت مرادي من خليلي؛ فإن الحبيب أبدًا سقيم القلب

في القرب والبعد.

وأنشد:

ومـا في الدهـر أشـقى مـن محـبٍّ	وإن وجـد الهـوى حلـو المـذاق
تـراه باكـيًا في كـلِّ حـينٍ	مخافـة فـرقةٍ أو اشـتياق
فيبكـي إن نـأوا شـوقًا إلـيهم	ويبكـي إن دنـوا خـوف الفـراق
فتـسخن عيـنه عـند التـباني	وتـسخن عيـنه عـند التلاقـي

وقيل: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ شائق إلى لقاء الحبيب[1].

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾: لما حصر صدره من معاشرة الحدثان، وضاق قلبه في محل الامتحان، واشتاق سره إلى مشاهدة الرحمن، قال إني ذاهب مني إلى ربي، أي: إني أخرج من الحدثان إلى عالم العرفان، أسير في بيداء الأزل إلى الأبد، سيهديني ربي طرق الذات والصفات؛ فأكون فانيـًا فيه باقيـًا به معه.

قال الخراز: لما فني الموجود وانقطع القدرة ثبت المشهود بلا شاهد قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالرجوع عما سواه، فلا ذاهب في الحقيقة إليه إلا من أعرض عن الأكوان وما فيها، فمن بقي فيه ذرة من الكونين يكون ذهابه لعلة.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾: لما استوى الولد خلة أبيه وكل حقائقه صار أهلاً لقربان الحق، وفداء كشف جماله، وذلك أيضـًا محل امتحان الخليل به؛ فإنه لما وجده أهل الحق استأنس به، فغار به الحق، وأراد أن يتجرد سره من الغير حتى لا يبقى بين الخليلين شيء من الحدثان.

قال ابن عطاء: لما سعى في الطاعة سعيه وقام بحقوق الله حسب ما رضي به الخليل وقرت عينه بقيامه بحقوق مولاه أنس الخليل به، وفرح بمكانه، فقيل له اذبحه فإنه لا يصلح

---

(١) فأوهم أن مراده أنه مريض الجسد وأراد أنه مريض القلب اسبب آلهتهم، مقسم الفكر في أمرهم لأنه يريد أمراً عظيماً وهو كسرها، ومادة «سقم» بتقاليبها الخمسة.

للخليل أن يفرح إلى شيء دون خليله، ولا يُفرح بسواه، فابتُلي بذبحه، ثم لما سلَّم وقام مقام الاستقامة واتَّبع الأمر فداه بذبح عظيم.

قال الواسطي: نقل الله إبراهيم من حال البشرية إلى غيرها، وهو أنه لما امتحنه بذبح ابنه أراد أن يزيل عن سره محبة غيره، ويثبت في قلبه محبته؛ لأن وجود محبة الله في قلب إبراهيم مع رحمة الولد محال، فنظر إلى أقرب الأشياء إلى قلبه، ووجد ابنه أقرب، فأمر بذبحه، وليس المبتغى منه تحصيل الذبح، إنما هو إخلاء السر منه، وترك عادة الطبيعة، وحينئذٍ نودي: ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: قد حصلت ما طالبناك به وافيًا، وحصل لنا منك ما أردناه، ولما وجد الذبيح رؤية المبلي في البلاء ومشاهدته ولذة وصاله وجد نفسه في موقع البلاء على محل حلاوة شهود جمال الحق إياه مستلذة ببلائه حين شاهدته بوصف الاستئناس به بنعت سقوط الآلام عنها، فسلمها إلى مولاها بوصف الرضا والتسليم، وأخبر عن كمال استقامة حاله في الصبر والرضا، وذلك قوله: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾، صفا حاله في سكر وصال الحق، فاجترأ على استقبال البلاء، وأسقط التجلد عن صفة وجوده، استعان بالله في الصبر في بلائه حيث استثنى بقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

قال أبو سعيد الخراز: أسرع الإجابة بقوله: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾؛ لأنه قد أخلاهما من علم ما يراد بهما؛ كيلا يعرجا على رؤية السلامة، فيزول معنى البلاء، ومن يقع موضع الخصوص لا يتقرب بالصبر على حقيقة موجودة.

قال رويم: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، يقبح الخليل مخالفة خليله أو التقصير في أمره، وهلاك الولد وذهابه أهون من مخالفة من اتخذك خليلاً.

وقال بعضهم: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، فإني قد شاهدت من قلبي رشدي وجوارحي كلها راضية بما أمرت به.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾: لما استوى سرهما في كمال التسليم صرعه في مذبح العشاق الذين قُتلوا بسيوف المحبة حتى استوفيا حظوظ العبودية في دعواهما من شهود أنوار الربوبية.

قال جعفر: أخرج إبراهيم من قلبه محبة ابنه إسماعيل، وأخرج إسماعيل من قلبه محبة الحياة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾: أخبر سبحانه أن هذا بلاء ظاهر أي: هذا بلاء في الظاهر، ولكن لا يكون في الباطن بلاء؛ لأنه في الحقيقة بلوغ منازل المشاهدات، وشهود لأسرار حقائق المكاشفات، وهذه من عظائم القربات، وأصل البلاء ما يحجبك عن مشاهدة الحق لحظة، ولم يقع هذا البلاء بين الله وبين قلوب المصطادين بشبكات محبة القدم قط؛ فإن قلوبهم تحت غواشي أنوار سبحات وجهه فانية، وكيف يقع عليها البلاء وهي تفنى في جمال الحق؟! إن كنت تريد بلاءهم فإنه تعالى بلاؤهم، وذلك البلاء لا ينقطع عنهم أبدًا، ويمنع هذا البلاء جميع البلاء عنهم.

قال الجريري: البلاء على ثلاثة أوجه: على المخالفين نقم وعقوبات، وعلى السابقين تمحيص وكفارات، وعلى الأولياء والصديقين نوع من الإخبات.

قال الحسين: البلاء من الله، والعافية من الله، والأمر عزُّ الله، والنهي إذلاله.

﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾: سمى الحق الذبح عظيمًا، وفي ذلك إشارةٌ لطيفةٌ، وهو أن العاشق الصادق أراد كل وقت أن يذبح نفسه لمعشوقه، وإذا كان المعشوق صادقًا في عشق عاشقه يمنعه عن ذبح نفسه عنده، بل يذبح نفسه لعاشقه، فلما قدس ساحة جلال الكبرياء عن علة الحدثان فداه له مكان نفسه الذبح؛ إعلامًا لكمال محبته له، ولذلك سماه عظيمًا؛ لأنه صدر من العظيم لعظيم محبته وعشقه لعشاقه وأخلائه وأحبائه.

قال بعضهم: عظيم محلها عند الله؛ لأنه قتل عليها نبي ابن نبي، وأحيا عليها نبي ابن نبي، كذلك ذكر في التفسير أنها كانت الشاة التي تقبل من أحد ابني آدم فرتع في الجنة إلى زمان إبراهيم، ففدى به ابنه إسماعيل.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: أخبر سبحانه عن سر ما ذكرت أي: كما جزينا إحسانك ببذل وجودك وقتل ابنك وذبحه لكشف مشاهدتنا لكما، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾: نفدي مشاهدتنا لكل قتيل محبتي بسيوف شوقي إلى جمالي.

قال الكتابي: بين العبد وبين الله ألف مقام من نور وظلمة، وإنما كان اجتهادهم في قطع الظلمة حتى وصلوا إلى النور، فلم يكن لهم رجوع، وذلك جزاء المحسنين.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[1]: كان يونس ﷺ من أهل التوحيد والمعرفة والعشق، وكان يسبح في بحار الألوهية والربوبية، ويجد منها جواهر الأزليات والأبديات ولآلئ أسرار المعارف والكواشف، فبلغ قعر عين الأولية والآخرية، وصار متلاشيًا في لجج بحار الذات، وخارجًا بنعوت الاتحاد من لجج الصفات، وكاد يدَّعي ما يدَّعي أهل السكر في الأنانية، فالتقمه حوت قهر غيرة الإلهية، وهو ملام حيث ما انسلخ من أوصاف الحدوثية، وكاد يبقى في بطن حوت القهر، فأغاثه عرفان بقاء الحق بعد عرفانه بفنائه فيه، ونجَّاه من طوفان قهر الأزل، ولم يبق في الحيرة والغيرة بقوله: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ أي: فلولا كان من العارفين بقدم الأزل وتنزيه الأبد للبث في حجاب الغيرة، وفيه حقيقة شطح العارفين أنه كان ﷺ في حجال الخلوة في بطن الحوت، وهي كانت له معاريج مشاهدة القدم أي: لولا أنه كان من الأنبياء والمتمكنين من أهل القدوة والأسوة لبقي في مشاهدة القدم إلى يوم البعث، إلى محشر مساقط تجلي الجلال والجمال التي قال سبحانه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، ولكن كان رحمة البلاد والعباد؛ ليعرفهم منازل الأبرار والأتقياء ومقام العبودية والربوبية.

وقال سهل: من المسبحين من القائمين بحقوق الله قبل البلاء.

قال ابن عطاء: من العارفين بنا المتعرفين إلينا قبل وقوع ما وقع.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾: أهل البدايات في مقام الطاعات والأوساط في المقامات، مثل التوكل والرضا والتسليم، والمحبون في مقام الحالات والمواجيد، وأهل المعرفة في مقام المعارف ينقلون في المشاهدة من مقام إلى مقام، ولا يبقى المقام للموحدين؛ فإنهم مستغرقون في بحار الذات والصفات، وليس لهم مقامٌ معلومٌ؛ لأن هناك لم يكن لهم وقوفٌ؛ حيث أفناهم قهر الجلال والجمال والعظمة والكبرياء عن كل ما وجدوا من الحق، فبقوا في الفناء إلى الأبد.

قال ابن عطاء: لك مقام المشاهدة، ولهم مقام الخدمة.

---

(١) قال في كشف الأسرار: فصادفه حوت جاء من قبل اليمن فابتلعه، فسفل به إلى قرار الأرضين حتى سمع تسبيح الحصى (وهو مليم) حال من مفعول التقمه أي داخل في الملامة ومعنى دخوله في الملامة كونه يلام سواء لاموه أم لا يقال ألام الرجل إذا أتى أو آتى بما يلام عليه فيكون المليم بمعنى من يستحق اللوم سواء لاموه أم لا يقال ألام الرجل إذا أتى بما يلام عليه أو يلوم نفسه.

وقال جعفر: الخلق مع الله على مقامات شتى، من تجاوز حده هلك، فللأنبياء مقام المشاهدة، وللرسل مقام العيان، وللملائكة مقام الهيبة، وللمؤمنين مقام الدنو والخدمة، وللعصاة مقام التوبة، وللكفار مقام الطرد والغفلة واللعنة.

قال الحسين: المريدون في المقامات يجولون من مقام، والمرادون جازوا المقامات إلى رب المقامات.

وقال الجنيد: المقامات معلومة كما ذكره الله تعالى، وأرباب الحقائق يأنفون من المعلومات والمرسومات؛ لأنهم في قبضة الحق وأمره.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ : لما كانوا من أهل المقامات المعلومات افتخروا بمقاماتهم في العبودية من الصلاة والتسبيح، ولو كانوا من أهل الحقائق في المعرفة لفنوا عن ملاحظة طاعاتهم من استيلاء أنوار مشاهدة الحق والاستغراق في بحار منن الألوهية.

قال بعضهم: لذلك قطعت بهم مقاماتهم عن ملاحظة المنة حتى قالوا بالتفخيم: إنا لنحن وإنا لنحن، فلما أظهروا وسرائرهم عارضوا إظهار أفعال الربوبية بالمعارضة حتى قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ : سبقت لهم كلمة الحسنى باصطفائية الله في الأزل بالولاية والنبوة والرسالة بغير علة الاكتساب ونقائص الحدوثية، أخبر عن محض مننه الأزلية عليهم، ونفى عنهم الانقطاع عنه من جهة تغاير الامتحان أنهم مؤيدون بوصف الظفر بالبقية على مرادهم بكل ما أرادوا له، أنـزل عليهم جنود أنوار تجلي ظهور جلاله في قلوبهم، تقدست سرائرهم عن كل غالب من الشهوات وعلل النفسيات.

قال سهل: جنوده ترد على الأسرار، وترد على الظواهر، وجنده في السرائر صحة عقد الإيمان في القلب وشرحه به، وما يتولد فيه من صحة إيمانه والتوكل وما يريد فيه بتوكله ومحبة الله تعالى، فإذا نـزلت المحبة في القلب وسكنت فيه طهَّرها من كل ما سواه؛ فإن المحبة لا يسكن معها ما يضادها، وجنوده في الظواهر هو أن يوفقه بالقيام إلى العبادات والأوامر على حدود السنن والتبرؤ من الحول والقوة لما يتقن من حسن قيام الله لعبده بالكفاية في كل أسبابه، ثم أنه سبحانه لما وصف صنائع لطفه بأنبيائه وأوليائه نـزَّه نفسه أن يلحق به وبتنـزيه جلاله علل كل حادث ووصف كل واصف وحمد كل حامد؛ حيث قام حمده وتنـزيهه مقام أداء حقوق ربوبيته على أهل العبودية بقوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾، ضاق صدر سيد المرسلين عن مقالة أهل الزور والبهتان من الكفرة في حق جلاله، فواسى الله قلبه بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ﴾ شرفه مخاطبة المواجهة وإضافة تربيته إليه، ثم وصف نفسه بالعزة المنيعة من كل إشارة إليه، ثم أظهر منته على أهل عرفانه من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين بسلامه عليهم بقوله: ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾، وحمد نفسه بما وهب لهم من سنيات القربة وحقائق المشاهدة والمكاشفة بقوله: ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾؛ حيث لا يقوم حمد الحامدين مقام حمده له.

سورة ص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ صٓ ﴾ : هذا الحرف من كنـوز إشارات الحق إلى حبيبه عليه الصلاة والسلام؛ حيث صادف بنعت الوصال الذي يفنى عنه بصولة صدمات الأزلية عند كشوف قهر القدم صفات الحدثية، حتى صار صدق جواهر أسرار الربوبية في بحار الذات والصفات، واصطاده الحق بزمام محبته من صحاري البريات، وصفَّاه بصفاء عن كدورات الكون، فكان صفوًا من بحر النبوة، صاحبًا في مشاهدة البقاء بنعت صدق العشق في رؤية أنوار الكبرياء، ما صدق عن

مشاهدة جمال الحق إلى الأكوان حين عارضه صواعق الامتحان، فخرج منها بوصف الصدق في المحبة، وصفو الصحو في المعرفة، حين أسكر الحق صفوة أرواح الصادقين بشربات بحر وصله ووصفه، أخبر بحرف صاد من صفاوة قلوب العارفين، وصدق حقائق محبة المحبين، وتلهب نيران صدور العاشقين، وصبابة أسرار الوالهين، وصفوف أهل الاستقامة في مقام مشاهدة القدم، حين وازنوا بنعت الفناء جلال البقاء، وإشارة التوحيد فيه أنه كان بجلاله وعظمته في قدم القدم، وأزل الأزل بحار الصمدية صافية عن غبار الحدثان، فأشار به عنه، وبان كل مصدر كل الكل، صدر منه الوجود؛ إذ كان وجوده منزهًا عن الاجتماع والاقتران والعلل والانقسام أي: أظهرت لك يا صادق ما كان وما سيكون، وجعلتك بصيرًا ببصري؛ حتى تطلع على غيبوبة جلال وصالي، فكنت مصورًا بصورة روح الأول التي صدرت مني بيعتي.

ثم قال: شطح من مقام السكر رمز حقيقة الاتحاد سيد أهل الصحو ﷺ بقوله:

«مَنْ رآني فقدْ رأى الحقَّ»[1]،[2] ثم أراد أن يبين للعالمين بحرف الصاد وصف الربوبية، وحقيقة محبة حبيبه ومنازله الرفيعة في مقام وصاله، فأقسم بصفاته التي هي مفاتيح كنوز ذاته التي أخبر عنها بحرف الصاد، فقال: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي: أنت بالوصف الذي وصفتك بحق صفاتي ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾، ثم وصف القرآن بأنه تجلى به من نفسه فيه لقلوب العارفين، فيورث منه أسرارهم أنوار ذكره؛ إذ هو ذكر القدم بذكر جميع الصفات، والذات فؤاد المقربين وأرواح الشائقين، وهذا قوله: ﴿ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝ ﴾ يتذكر به العقول الراسخة معتبرات لطائف حقائق الربوبية التي برقت أنوارها في صنائع ملكه، وملكوته ومقدورات قدرته، ويدرك بنور قلوب الصادقين أنوار مشاهدته حين خاطبهم به أي: بك وبالقرآن إن المحجوبين عن هذه الشواهد في عزة وظلمة عن معرفتك، وفي خلاف عن إدراك شرفك وفضلك وفضل أمتك بقوله: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، لا يخرجون من مضيق غفلتهم إلى فضاء المعرفة؛ لأنهم طُردوا بسوط قهر الأزل عن جناب القدم، ما وهب لهم استعداد قبول نور المعرفة، فبقوا إلى الأبد في شر النفاق وظلمة الشقاق.

قال ابن عطاء: في معنى الصاد قسم صفاء قلوب العارفين، وما أودعت فيها من

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧٧٦).

(٢) أي: رأى الله على قول بعض أهل الإشارات حيث جعل رؤية العبد له ﷺ يقظة أو مناماً رؤية للحق سبحانه.

لطائف الحكمة، وشريف الذكر ونور المعرفة.

قال الأستاذ: صاد مفتاح اسمه الصادق، والصبور، والصمد، والصانع أقسم بهذه الأسماء ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾.

وقال ابن عباس: صاد كان بحرًا بمكة، وكان عليه عرش الرحمن؛ إذ لا ليل ولا نهار.

وقيل في صاد: أن معناه صاد محمل قلوب الخلق وأسمائها حتى آمنوا به.

وقال بعض المشايخ في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: ذي البيان الشافي والاعتبار، والموعظة البليغة وقال الجنيد: ذي الموعظة البليغة، والنور الشافي وقيل: ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي: في غفلة وإعراض عما يراد بهم، وذلك منهم قريب قوله: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، وصف الله سبحانه ضعف قلوب الكافرين عن حمل وارد أنوار ربوبيته حين هجمها صولات العظمة، فانهزموا عن سطوات عزته، ورجوعهم إلى المحدثات أي: اصبروا على مشاهدة أمثالكم؛ حتى لا تجذب قلوبكم أنوار سلطانه المحيطة لوجودكم جميعًا؛ كيلا تحترقوا فيها، وأيضًا اصبروا على آلهتكم حين دفعكم عن شهودها قهر جبروت الأزل التي تصدر من كل ذرة من العرش إلى الثرى، فإن الصبر مع الحدث ممكن ومع القدم لا يمكن، وهذا دأب ضعفاء المريدين في مشاهدة جلال الحق يفرون منه من عظم سطوات قدوسيته إلى مقامات العبودية، وهذا من غلبة شفقتهم على نفوسهم؛ حتى لا يفنوا في أنوار الكبرياء، ويشتغلون منه بالوسائط مثل رؤية المستحسنات من الكونين، وهذا علة طارئة على الجمهور من السالكين.

قال بعضهم: هذا توبيخٌ لمن ترك الصبر من المؤمنين على دينهم.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾: كانوا منطمسة العيون عما ألبسه الحق من أنوار ربوبيته وسنا جلاله وجماله، لم يروه إلا بالصورة الإنسانية التي هي ميراث آدم من ظاهر الخلقة، فهذا كقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، وهم لا ينظرون،

استبعدوا اصطفائية حبيبه بالوحي، ولم يعرفوه بأنه أثر الله في العالم، ومشكاة تجليه حتى قالوا مثل ما قالوا: ﴿عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ رأوه ونفوسهم خالية عن مشاهدة الغيوب، وإدراك نور صفات الحق، فقاسوا نفس محمد ﷺ بأنفسهم، ولم يعلموا أنه كان نفس النفوس، وروح الأرواح وأصل الخليقة، وباكورة من بساتين الربوبية، يا ليت لهم لو رأوه في مشاهد الملكوت، ومناصب الجبروت أن خاطبه الحق بـ (لولاك لما خلقت الأفلاك).

قال بعضهم: في قوله: ﴿عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾: لما أكرمناهم به من أشرف الرسل، فلم يعرفوا حقه، ولم يشاهدوا ما خصوا به من فنون المباركات والكرامات.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾: كان خاطر النبي ﷺ أرق من ماء السماء بل ألطف من نور العرش والكرسي من كثرة ما ورد عليه نور الحق، فكان ملطفًا بنور نوره،س مرفقًا بلذائذ محبته وشوقه، لا يحتمل زحمة مقالة المنكرين، وهذا من كمال جلاله في المعرفة، لا أنه لم يكن صابرًا في مقام العبودية، بل كان جليس الحق وأهل ملكوته، وسرادق مجده كيف يسمع سخرية المستهزئين على دينه وشريعته! فمع ذلك أمره الحق بالصبر على ما قالوا، وأعلمه بأن ذلك امتحانٌ من ولاية القهر، والواجب على العاشق الصادق أن يستقيم في مشاهدة القهر كما يستقيم في مشاهدة اللطف، وأصل الصبر التلّبس بنعت صبر الأزل حتى يمكن احتمال أثقال امتحانه به، وإلا كيف يحمل الحدث وارد القدم وأمره له بالاتصاف به! ومع ذلك ذكره شأن داود عليه الصلاة والسلام في صبره على ما قالوا فيه حين عشق بعروس من عرائسه حين تجلى الحق منها له، فإنه كان عاشق الحق، وكان في مبادئ عشقه، فسلاه بواسطة من وسائطه حتى لا يفنى فيه به، ثم زاد في وصفه حين قوى في المحبة بالقوة الملكوتية بقوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾: واهب نفسه له حامل أثقال قهره به راجع من الوسيلة إلى الأصل بقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: رجع إلى الحق بنعت الندم على ما سلف من أيامه في الفترة من عين القدم بغيره من أهل العدم، وإن كان طريقًا منه إليه، أي: كن يا محمد كداود في بلائي، فأنا بلاء الأنبياء والمرسلين والعرفاء والصديقين.

وقال شاه الكرماني: الصبر ثلاثة أشياء: ترك الشكوى، وصدق الرضا، وقبول القضاء بحلاوة القلب.

وقال بعضهم: هو الفناء في البلاء بلا ظهور اشتكاء.

قال بعضهم: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ ذا الصبر في أمر دينه[1].

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾: هذا التسخير وقوع نور الفعل معها، ومباشرة أنوار الصفات فيها بواسطة الفعل، فيظهر روح الفعل فيها، فتقبل فيض الصفة من الصفة، فصارت خاضعة متخشعة في نور عظمته تعالى، فلما وصل إليها ألحان داود من حيث روحه العاشقة ترنمت بألحان العشق من أغصان ورد الجمال والجلال، فتحركت من لذة سماع صوت داود وتسبيحه وتنـزيهه، فوافقت داود في الذكر والتسبيح، وكذلك الطيور إذا سمعت أصوات الوصلة منه صفرت بصفير التنـزيه وتقديس من وجدان حلاوة وجد داود وإدراك روح الملكوت؛ لأنهن مقدسات خلقن مستعدات لقبول أنوار فعل الخاص وأشكال الروحانيات، وفيهن خويصات لهن عشق ومعرفة كالهدهد والبلبل والعندليب والقمري والحمامة ومالك الحزين، وكان ﷺ يعرف أصواتهن وتسبيحهن من حيث المحبة والعشق، ألا ترى كيف أنشد:

رُبَّ ورقاءَ هتوفٍ بالضُّحى ... ذاتَ شجوٍ صرخت في فتنٍ

فبكائي ربَّما أرَّقها ... وبكاؤها ربَّما أرَّقني

هي أن تشكوَ فما تشكو فما أفهم ... وإذا أشكو فما تفهمني

غيرَ أنِّي بالجوى أعرِفُها ... وهي أيضًا بالجوى تعرفني

وخاصية العشي والإشراق أن فيهما زيادة ظهور أنوار قدرته القديمة وآثار بركة عظمته العظيمة، وأن وقت الضحى وقت صحو أهل السكر من خمار شهود المقامات المحمودة، وأن العشي وقت إقبال المقبلين إلى مشاهد المناجاة وإدراك أنوار المشاهدات واستماع طيب الخطابات.

قال محمد بن علي الترمذي: لما أخلص هو في تسبيحه لربه جعل الله الجماد يوافقه في تسبيحه ويعينه على عبادته.

قال ابن عباس: كان يفهم تسبيح الحجر والشجر بالعشي والإشراق.

وقال الأستاذ: كان يفهم تسبيح الجبال على وجه تخصيصه به؛ كرامة له ومعجزة،

---

(١) أي القوى العظيمة في تخليص نفسه من علائق الأجسام، فكانت قوته في ذلك سبباً لعروجه إلى المراتب العظام. نظم الدرر (٧/ ١٧٨).

وكذلك الطير كانت تجتمع إليه، فتسبح لله، وداود كان يعرف تسبيح الطير، وكل من تحقق بحاله ساعده كل شيء.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝٢٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ ملكه: معرفته بالله وما وصل إليه من الله من النبوة والولاية والمحبة أي: قويناه بتأييدنا في مقام المشاهدة حتى احتمل بنا حمل واردات سطوات عظمتنا، والحكمة ههنا الفهم على مواقع معاني إلهام الخاص ولطائف الوحي والمعرفة على بطون حقائق فعل الحق والعلم بأحكام العبودية وآثار الربوبية، ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠ ﴾ فصاحة اللسان وشرح هذه المقامات به بأحسن البيان حيث لا اعوجاج فيه ولا لكنة فيه، أدى به مراد الخطاب على وفق مراد الله وأيضـًا: شددنا ملكه أي: ملكته على نفسه بالعدل والإنصاف ومعرفته بها وشرح دقائق أفعالها.

قال بعضهم: شددنا ملكه بالعدل.

وقال سهل: آتيناه الحكمة أي: أعطيناه علمًا بنفسه، وألهمناه مواعظ أمته ونصيحتهم.

قال ابن عطاء: العلم والفهم.

قال أيضا: العلم بنا والفهم عنا.

قال جعفر: صدق القول، وصحة العقل، والثبات في الأمور.

وقال ابن طاهر: مخالطة الأبرار ومجانبة الأشرار.

وقال بعضهم: شددنا ملكه بالعصمة فيه وقلة الاعتماد عليه.

وقيل: آتيناه الحكمة النطق بالصدق وقول الحق.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾: هذه القصة

تسلية لقلب نبينا محمد ﷺ؛ حيث أوقع الله في قلبه محبة زينب، فضاق صدره، فقال سبحانه: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧]، ففرح بذلك، وزاد له محبة الله والشوق إلى لقائه، فافهم أيها الممتحن بالمحبة؛ إن الله سبحانه خلق قلوب عشاق الأنبياء والأولياء من آثار تجلي جماله وجلاله ومحبته وشوقه وعشقه وبهائه ولطفه، وأوقعها في بحار نور نوره، وغسلها بمياه التنـزيه والتقديس، ثم كاشف بها عين الألوهية حتى غرقت فيها وانهزمت من سطوات أنوار كبرياء قدمه إلى أكناف أنوار فعله، فعلم الحق ضعفها عن حمل وارد شهود جلال كبريائه، فتلطف عليها، وأراها في أنوار أفعاله وآياته جمال ذاته وصفاته حتى سكنت بها وبقيت بعد فنائها فيه، فمنها واقعة آدم بحواء والحنطة، وإبراهيم بالشمس والقمر والكواكب وحسن سارة، وموسى بالجبل والشجرة، ويوسف بزليخا، ويعقوب بيوسف، وداود بامرأة أوريا، وسليمان ببلقيس، ومحمد ﷺ بزينب، والمراد من ذلك أن جذبهم بنور حسن فعله إلى مشاهدة جمال قدمه، فربَّاهم بمقام التباس في العشق في أول المعرفة حتى وصلوا إليه بوسائط حسن فعله بعد أن تجلى بنفسه منه لهم، فيا محب انظر إلى مقام الاتحاد؛ فإن الكل هو لا غير في البين، ألا ترى كيف خاطب موسى من الشجرة وتجلى له منها مرة، ثم تجلى له من الجبل مرة، ثم تجلى له من العصا مرة بنعت العظمة حيث صارت حية؟! وتلك بروز أنوار قهر عظمته، رأى داود ذلك بصورة الطير في الخلوة، ومن في البين إبليس كان تلبيساً من حيث الالتباس، ثم رأى ذلك في صورة امرأة حسناء، وأين الصور والعلل، بل هناك حيل ومكر وقع نظره على جمال الأزل، فظن أن ذلك حاصل له، فلما وصل إليها غاب ذلك عنه، فعلم أنه ممتحن، فرجع من الفعل إلى الفاعل بنعت الخجل والحياء، ومن مقام التفرقة إلى مقام الجمع، ومن مقام الالتباس إلى مقام التوحيد، قال سبحانه في وصف حاله في قصة دخول ملكين إليه بقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ﴾: استغفر من مقام الالتباس، كما استغفر موسى حيث قال: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وكما استغفر آدم بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وكقول إبراهيم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، وكما مَنَّ على صفي المملكة وعندليب ورد بساتين المشاهدة محمد ﷺ بقوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، ثم تضرع بنعت الفناء في البكاء في مقام الإنابة، وفرَّ منه إليه بعد أن احتجب منه به[1].

---

(١) هذا يدلُّ على أنه كلَّما كانت معرفة الله أتمَّ، كان الخوف منه أعظم، وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الإجلال والكبرياء.

قال أبو عثمان: أيقن داود بأوائل البلاء فالتجأ إلى التضرع.

قال أبو سعيد الخراز: زلات الأنبياء في الظاهر زلات وفي الحقيقة كرامات وزلفى، ألا ترى إلى قصة داود حين أحس بأوائل أمره كيف استغفر وتضرع؟! فأخبر الله عنه بما ناله في حال ظنه من الزلفى.

وقال: ظن داود أنما فتناه فتضرع ورجع، فكان له بذلك عندنا لزلفى وحسن مآب.

صدق الشيخ أبو سعيد الخراز فيما قال أن بلاء الأنبياء والأولياء لا ينقص اصطفائيتهم بل يزيد شرفهم على شرفهم بقوله سبحانه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ زلته كانت التفاته من الذات إلى الصفة ومن الصفة إلى الفعل، فإذا رجع إلى أوائل الحقائق في التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث ستر مقام البلاء عنه بعد ذلك، حتى لم يطق الرجوع من النهاية إلى البداية، ومعنى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾، زاد زلفته حيث أوقعه في بحار الديمومية والأزلية والأبدية، وفي كل لمحة كان له استغراق، وحسن المآب له بأن آواه الحق إليه منه، ووقاه من قهره، حتى كان لا يجري عليه بعد ذلك أحكام الامتحان.

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً﴾: لما خرج من امتحان الحق وبلاياه كساه خلعة الربوبية وألبسه لباس العزة والسلطنة، كآدم خرج من البلاء وحبس في الأرض على بساط ملك الخلافة، وذلك بعد كونهما متخلقين بخلق الرحمن مصورين، بصورة الروح الأعظم، فإذا تمكن داود في العشق والمحبة والنبوة والرسالة والتخلق صار أمره أمر الحق ونهيه نهي الحق، بل هو الحق، ظهر من لباس الملك والملكوت، كقول سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه حيث قال: «جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير واستعلى من جبال فاران»[1]، ثم لما وضع الحق معجون سر قهر الأزل في الطبع الإنساني وهو محل الاستدراج الذي يجري عليه أحكام مكر القدم دقق عليه الأمر، وحذَّره أن يرى نفسه في البين في إجراء الحكم بين الخليقة،

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير (١٣/ ١٥٩)، وياقوت الحموي في معجم البلدان (٤/ ٢٢٥).

فقال: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾ أي: فاحكم بحكمي حين عاينتني فيك، واخرج منك، ولا تتبع الهوى بأن تنظر إليك، فيضلك ذلك عن رؤيتي وحكم الاتحاد فينطمس عليك سبيل الصواب في ظهور لطائف حكمتي وحقائق أمور ربوبيتي، فمن احتجب به مني فهو محجوبٌ به عني، لا يسلك بعد ذلك طرق الحقائق، فيقع في أليم عذاب الحجاب، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾.

قال ابن عطاء: جعلتك خليفة في الأرض لتحكم في عبادي بحكمي، ولا تتبع هواك فيهم ورائك، وتحكم لهم كحكمك لنفسك، بل تضيق على نفسك وتوسع عليهم.

﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴾ : المتقين الذين وقعوا في رؤية أنوار عظمته وكبريائه التي تبرز من مرائي الأكوان ومقدوراته، فتنـزهوا عن كل ما سواه في رؤية جلاله وإجلاله أي: ليس هؤلاء كالذين بقوا في حجاب النفوس، لا يخرجون من غشاوات الهوى، ولا يرون أنوار الهدى.

قال ابن عطاء: أم نجعل المقبلين علينا كالمعرضين عنَّا.

وقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ ﴾ : ذكر النـزول في الكتاب شرط رسوم الأمر، وفي البرهان ظهور نور الصفة له بحكم التجلي، وفي الحقيقة لا افتراق في صفاته عن عينية الذات، هو منـزَّهٌ عن التغاير، ألا ترى إلى قوله: ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ أي: منـزَّهٌ عن التفرق بل هو ثابت في أصل الأصول، ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ عليك وعلى أمتك الذين يفهمون حقائقه حيث وقعوا في بحار التدبر والتفكر فيه، هو مرآة الصفة أعطاها عباده؛ لينظروا فيها بعيون الأهلية له؛ حتى يبصروا فيها حقائق الأنوار، ويدركوا منها دقائق الأسرار، فعمَّ التدبر لعموم العلماء والفهماء، وخصَّ التذكر لخصوص العقلاء؛ لأن التدبر للفهم، والتذكر لوقوع الإجلال وخشية الخاص في قلوب أكابر أهل العلم الذين يرون بعيون الأرواح عرائس الصفات فيه، وينكشف لهم فيه غوامض علوم الألوهية.

قال ابن عطاء: ﴿مُبَـٰرَكٌ﴾ على من سمعه منك، فيفهم المراد منه وفيه، ويحفظ آدابه وشرائعه، وفيه موعظة لأولي العقول السليمة الراجعة إلى الله في المشكلات.

قال بعضهم: من أصابته بركة القرآن رُزق التدبر في آياته، ومن رُزق التدبر في آياته لم يُحرم التذكر والاتعاظ به.

قال الله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ﴾.

قال بعضهم: ﴿مُبَـٰرَكٌ﴾ عليك بإنـزاله عليك، فإنك المخاطب به، وأنت المبين له، ﴿مُبَـٰرَكٌ﴾ على من يسمعه، ويتبع أوامره، و﴿مُبَـٰرَكٌ﴾ على من يتذكر فيه الأوامر والنواهي والمواعظ، فيتعظ بما يعظ به الكتاب، علمًا بأنه من عند سيده فيفتخر بأنه خاطبه بها خاطبه.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ﴾: ذكر منته على عشقه داود بعد جريان حكم القدر في أمر الامتحان الذي أخرج من نفس العشق والمحبة العبد المحمود بثناء الحق عليه بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾، وذلك أنه لما خلعه الحق كسوة الربوبية نظر إلى تلك الكسوة ولم ير منها لنفسه شيئًا علم أنها هي الحق ظهر منه للعالمين، فأحالها إليه بنعت رجوعه إليه فزعًا خاشعًا صابرًا شاكرًا مقرًّا بالعبودية، هذا وصف من ألبسه الحق لباس القدم، فرجع منه إليه بنعت التضرع والفزع؛ حيث قال: «**أعوذُ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»[1]، فرَّ منه إليه بعد ذوق مباشرة الصفة قال: «**أنا العبد لا إله إلا الله**»[2]؛ لأنه كان عالمًا بخفيات مكر الأزل، ليس كمن سكر واغترَّ بسكره فقال أنا الحق؛ فإنه من أوائل قطرات جرعة أقداح أفراحه التي امتلأت من أشربة بحار الآزال والآباد، فوصف الله سليمان بهذا الوصف؛ لعلمه بمكره القديم.

قال بعضهم: العبودية هي الذبول عند موارد الربوبية، والخمود تحت صفات الألوهية.

وقال الأستاذ: كان أوّابًا إلى الله، رجّاعًا في جميع الأحوال في النعمة بالشكر، وفي المحنة بالصبر.

﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾: هذا من جملة امتحان

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢)، والترمذي (٥/ ٥٢٤).

(٢) ذكره المصنف في مشرب الأرواح.

الله سبحانه عبده سليمان في مقام المعرفة والمحبة، هو بجلاله وعزته ذوَّقه طعم عشقه ومحبته، ثم عرض نفسه بنعت ظهور حسن جمال تجليه؛ ليزيد عليه شوق جماله، فرأى ذلك الحسن والجمال قد ظهر من الصافنات الجياد، فشغلته تلك الرؤية عن حقائق الفردانية وتجرد الوحدانية من الوسائط، وغاب عنه شمس جمال القدم صرفًا، فأدرك نفسه خاليًا عن شهود عين العين؛ فغار على أحواله فقال: «ردوها عليَّ»، فلما قدس طرق الوحدانية بمكنسة الغيرة رجعت إليه أنوار الألوهية والفردانية بنعت الكشف وذهاب الحجاب، فلما مسح الصوافنّ شكرًا لإنعامه وغيرة على سلطانه سخَّر الله له الريح التي جناحاها بالمشرق والمغرب.

قال أبو سعيد القرشي: من غار لله وتحرك له فإن الله يشكر له ذلك، ألا ترى سليمان لما شغله الأفراس عن الصلاة حتى توارت الشمس بالحجاب قال: «ردوها عليَّ»، فطفق مسحًا بالسوق والأعناق، قيل: إنه كان عشرون ألف فرس منقش ذوات أجنحة أخرجته الشياطين من البحر فشكر الله له صنيعه، فسخرنا له الريح، وأبدله مركبًا أهنأ منها وأنعم.

وقال ابن عطاء: شكر الله صنيعه وأبدله فرسًا لا يحتاج إلى رائض ولا إلى علف ولا يبول ولا يروث.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾: هذه الفتنة أيضًا فتنة العشق، التي ظهرت له من محبته بنت الملك، وهكذا كل فتنة لو تراها بالحقيقة ما ولدت إلا من العشق، شغف في محبتها بحسنها وجمالها، فغار عليه الحق، وأسقطه من منازل الملك حتى غرَّبه في القفار والبوادي، وأنساه ذكرها غيرة عليه حتى لا يبقى في قلبه غيره، وأجلس مكانه في الملك صخرًا حتى أفسد في الأرض، فتلطف عليه الحق، وأرجعه إلى مكانه ومكانته، فسأل الحق تمكينه في الملك والمملكة، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾، سأل المغفرة فيما قصَّر في واجب المعرفة وحقيقتها التي يوجب انفراد القلب عن غير جمال الحق من العرش إلى الثرى، ثم سأل ملك تمكينه في ذلك المقام، وسأل ألا يحتجب بالملك عن المالك، ولا يجري عليه بعد ذلك الامتحان، ولا يسلط عليه جنود المكر والقهر؛ حتى لا يحتجب بنفسه عن نفسه، وقوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ ليس هذا من البخل هذا شفقة على المقصرين لو كانوا مبتلين بذلك الملك؛ ليكونوا محتجبين به عنه، وأيضًا يبلغ السالك في المعرفة والمحبة إلى ألا يطيق أن يرى غير نفسه مقام المشاهدة.

قال ابن عطاء: مكني من مخالفة نفسي حتى لا أوافقها بحال.

وقال بعضهم: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾: أي المعرفة بك حتى لا أرى معك غيرك ولا تشغلني كثرة عروض الدنيا عنك.

قال الجنيد: هب لي ملكًا ثم رجع ونظر فيما سأل فقال: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أن يسأل الملك؛ فإنه يشغل عن المالك[1].

وقال ابن عطاء: سأله ملك الدنيا؛ لينظر كيف صبره من الدنيا مع القدرة عليها.

وقال ابن دانيار: استغفر ثم سأل الملك أعلم بذلك أن الملك لا يخلو من الفتن ظاهرًا وباطنًا، فجعل أول سؤاله الاستغفار.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾: كان ﷺ من فرط حبه جمال الحق يحب أن ينظر إلى صنائعه وممالكه ساعة فساعة من المشرق إلى المغرب؛ حتى يدرك عجائب ملكه وملكوته، فسخر الله له الريح الرخاء، وأجراها بمراده حيث أصاب، وهذا جزاء صبره في ترك حظوظ نفسه، وفي إشارة الحقيقة سهل له هبوب رياح الشوق والمحبة، فتسري بروحه إلى قرب مولاه إذا قصد بسره إليه.

قال محمد بن الفضل: انظر إلى ما أوتي سليمان من الملك الريح التي لا حاصل لها، والشياطين الذين هم أعداؤه ليعلم أن الركون إلى الدنيا ركون إلى ما لا حاصل له ومجاورة الأعداء.

﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: فيه إشارة الحقائق أي: ما أعطيتك فهو مقام الاتحاد، وهو عطاء عظيم جعلتك خليفة لي، فامنن بمنتي على عبادي، أو أمسك عنهم بإمساكي، وهذا كما قال في إشارة عين الجمع إلى سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وكما قال سبحانه في بعض الحديث: «فإذا أحببته كنتُ له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا»[2]، بيَّن لسليمان

---

(١) دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مُهِمّ الدين على مُهِمّ الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم طلب المملكة بعده ، ثم دلت الآية أيضاً على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ، ثم توسل به إلى طلب المملكة. اللباب (١٣/ ٣٦٩).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٩)، وابن أبي الدنيا في الأولياء (١/ ٩).

محل تمكينه في نيابة الحق في ملكه، وأعلمنا أن من لا يكون بوصف سليمان لم يجز له أن يدخل في سعة الدنيا وذكر المنة، وجوزه أن يمنَّ على عباده بنعمة الدنيا؛ إذ كان منته منة الحق صافيًا عن حظ نفسه، لكن ما أمره بمنة المعرفة على عباده، فليس في معرفة الله لأحدٍ على أحدٍ؛ فإنها فضلٌ منه على عباده بغير واسطة.

قال ابن عطاء: امنن على من أردت بعطائنا، وإنا لا نمنُّ عليك بذلك، ولا نمنُّ عليك إلا بالمعرفة والهداية، قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٠ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٤٣﴾.

قوله تعالى ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾: ذكر الله سبحانه رتبته ومحله في تمكينه، أعطاه ملك الدنيا مع ملك الآخرة من المعرفة والمحبة والنبوة بألا مضرة فيه عليه ولا في مقاماته وأحواله الشريفة، بل كان له مزيدًا في حاله ورفعة، وشرفًا في معرفته، وأخبر من حسن مآبه بأنه تعالى ستره بأنوار قربه حين آواه من قهره بلطفه ورجوعه إلى الحق بحسن التضرع والبكاء والخشوع والحياء في كل لحظة ولمحة.

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٤٤ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗا﴾: افهم يا حبيبي أنه تعالى بوجود جلال قدمه أبلى أهل محبته، ولا يوازي بلاؤه صبر أهل الحدثان، بل كان خارجًا عن صبر المخلوق والتصبر المكتسب، ورجع إلى الحق بلا صبر نفسه، وانخلع من حوله وقوته، وسأل أن يعطيه الله صبرًا يحتمل به بلاء القديم، فلما رآه الحق خارجًا من صبره ألبسه من صبره القديم كسوة، فاحتمل به بلاءه، فأثنى عليه الحق بعد اتصافه به وانخلاعه من دعوى الأنانية بعد الاتحاد به الذي لو ألقى ذرة على جميع قلوب العارفين يدَّعون دعوى الأنانية، فلما لم يؤثر فيه سكر الاتحاد والاتصاف وبقي متمكنًا في العبودية واستلذ بحلاوة مشاهدته من قهره كما استلذ بمشاهدته من لطفه، فقال: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٤٤﴾ أي: راجع من دعوى الأنانية إليَّ بنعت العبودية، ومن لم يحمل بلاءه إلا به كيف يحتمل بلاءه بنفسه.

قال ابن عطاء: واقفًا معنا بحسن الأدب لا يؤثر عليه دوام النعم، ولا يزعجه تواتر البلاء والمحن؛ لمشاهدته المنعم والمبلي، ونعم العبد عبدٌ لا يشغله ما لنا عنا.

وقال أبو الحسين بن زرعان في هذه الآية: إنه يستلذ وجود البلاء مع الله، فاستزاد ابن البلاء، وذلك قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، ظهر على آثار العافية، فإن العيش في البلاء مع الله عيش الخواص، وعيش العافية مع الله عيش العوام، ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾؛ لفقدان عيش الخواص والرجوع إلى عيش العوام. قال الحسين: سهَّل عليه البلاء.

قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ﴾: فمن كان في وجدانه كان فانيًا عن رؤية الأغيار.

قال جعفر بن محمد: لما أظهر الله البلاء بأيوب وكثر عليه الدود عقد لسانه عن الدعاء؛ لإنفاذ الحكم والمشيئة فيه، وتحكم له بالصبر، فلما دامت أحكام الصبر أورثه الرضا؛ لما وجد من حلاوة القرب مع الله، فأثنى عليه في الأولين والآخرين بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: أخلصناهم مما سوانا حتى خلصوا في محل التمكين في دار التفريد وعين التجريد وحق التوحيد ومشاهدة الجبروت والملكوت، دعوا المريدين إلى مقامات القربات والمداناة والمشاهدات والمكاشفات، وما

اعوجُّوا من حد الاستقامة إلى حد التلوين، وما احتجبوا بشيء عنه تعالى؛ فإنهم أولو القوة الألوهية والبصائر الربانية.

قال ابن عطاء: ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ لنا، وخصصناهم بنا ومعنا.

وقال: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ تلك الخالصة خلو سره عن ذكر الدارين وما فيهما حتى كان لنا خالصًا مخلصًا.

قال سهل: أخلصهم له دون ذكرهم له، وليس من ذكر الله بالله كمن ذكر الله بذكر الله.

قال أبو يعقوب السوسي: لما قال ﴿أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ صفت قلوبهم لذكره عند ذلك، ورقت أرواحهم له بإرادته، فهم في مكشوف ما تقدم لهم في الغيب سبقت لهم منه الحسنى، فصاروا بدرجة المخلصين، ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ ذكر العندية، وقرن بها الاصطفائية، وبيـَّن أن اصطفائيتهم في العبودية أزلية قبل وجود الكون، فإذا كانت الاصطفائية أزلية يسقط عنها أسباب الحدثان، فصار شرفهم خاصًا وموهبة خالصة بلا علل؛ لذلك قال: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾: بيـَّن الله سبحانه ههنا تفضيل آدم على الملائكة المقربين؛ فالخطاب لأكابرهم؛ إذ كان روحه خلقت قبل أرواحهم؛ إذ روحه تكونت من ظهور تجلي الحق بجميع الذات والصفات كاملة بخلعة كسوة الربوبية التي ألبسها الحق حتى صارت مرآة يتجلى منها للعالمين، وبقيت في أول الأول في مشاهدة أنوار

الأزليات والأبديات، ولو كانت الملائكة بهذه المثابة لكانت معها في الكينونية من سنا برق تجلي الحق، وعرفتها بالأهلية، فإذا كانت الملائكة نازلة من درجاتها وصارت محجوبة عن رؤية ظهورها في العالم احتاجت إلى إعلام الحق بذلك، فلما علم الحق أنهم جهلوا حقائق وجود آدم لم يذكر ههنا ذكر روحه معهم، وقدم ذكر الصورة من قلة عرفانهم شرف روحه، وقال: ﴿إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[1]، مكر بهم حتى وقعوا في التشويش والنظر إلى أنفسهم بالخيرية حتى يظهر بعد ذلك كمال آدم، فإذا كانوا مخالفين في صورته بأول الخطاب كيف كانوا في قوله: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾؟! وذلك من أعظم عجائب الربوبية، وفيه تفهيم تحقيق عبوديته؛ حتى لا يجري في قلوب الملائكة أنه بمعنى من الربوبية في وقت سجوده أي: إني خالق بشرًا من طين أي: من عجز وضعف أكسية أنوار جلالي وعظمتي، فإذا كمَّلته اتصف بصفاتي منورًا بنور ذاتي، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: أحييه بحياتي وبروحي التي ظهرت من تجلي الجلال والجمال، ﴿ فَقَعُوا لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾؛ إذ يكون قبلة أنوار عزتي وكبريائي ومواقع تجلي ذاتي وصفاتي، فلما رأته الملائكة بتلك الصفات سجدت له كلهم من حيث أراهم الحق آدم منورًا بنوره مصورًا بصورته إلا إبليس؛ لأنه كان من الكافرين المحجوبين؛ لطمس الحق إياه، وبأنه لم يكن مكتحلاً بكحل نور جمال الأزل، فلما لم يكن له أهلية لرؤية وقع في رؤية نفسه ورؤية خيريته حتى ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[2]، وقع في قياس النار والطين، ولم ير أنوار جمال الحق التي ظهرت من وجه آدم، وهكذا حال المدعين والسالوسيين والمرائين المداهنين في حق أوليائه، لا جرم كان مخاطبًا بالطرد والإبعاد إلى يوم الميعاد، حتى لا يذوق حلاوة برد الوصال، ولا يرى أنوار الجمال والجلال، ولا يدرك فضائل الأنبياء والأولياء إلى أبد الآباد، بل إذا يرى أثر سلطنة ولايتهم وعزة أحوالهم، يذوب كما يذوب الملح في الماء، ولا يبقى له حيل، ولا يطيق أن يمكر بهم، بل ينسى في رؤيتهم جميع مكرياته، ولا يطيق أن يرمي إليهم من أسهم وسوسته، سبل وسوسته تلحق بأهله لا بأهل الحق، وذلك قوله: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾: المتجردين في قصودهم نحو قدم الحق وبقائه الأبدي وجماله الأزلي عن الأكوان والحدثان، واحذر ألا

---

(١) فهو عين هذا النفس بفتح الفاء، فقبلته الصورة على حسب استعدادها، وقابليتها.

(٢) هذه أول معارضة ظهرت من إبليس في صنعة الجدال، فإنه جادل ربه وما أحسن في جداله؛ لأنه ما أعطي حقه إن الحق تعالى أراد بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ أي: يد تنزيه وتشبيه، وإن شئت قلت: يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم مُلكًا وفلكًا.

يجري على خاطرك أن لإبليس قدرة بأهله، بل يغويهم بإغواء الحق إياهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ظاهره القسم، وباطنه الآلة والاستعانة بقهره، يا ليت الملعون أدرك الخطاب الثالث بعد الخطاب الأول والثاني؛ حيث قال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، وحيث قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، ثم قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لم يعرف مفهوم الخطاب، وهو أن من كان له مباشرة أنوار يد الأزل ويد الأبد في ظاهره وروح تجلي جلال الذات في باطنه يكون مستحقًّا في جميع الأحوال لكرامات سنية وأحوال رفيعة وخدمة أهل الملكوت له وسجود الملائكة له؛ إذ كان مشرق أنوار جلال الأزلي وجمال الأبدي.

جئنا إلى مقالة المشايخ رحمة الله عليهم فيما قالوا في هذه الآية:

قال بعضهم في قوله: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾: امتحنهم بالإعلام، وحثَّهم بذلك على طلب الاستفهام، فيزدادوا علمًا بعجائب قدرته، ويتلاشى عندهم نفوسهم.

قال بعضهم في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أي كاملاً، يستحق التعظيم بخصائص الاختصاص التي خص بها من خصوص الخلقة، ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَاجِدِينَ﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾: أبديت عليه آثار شواهد عزتي، وروَّحت ستره بما يكون به العبيد روحانيين.

قال بعضهم: هو روح ملك، وهو الذي خصصه به، فأوجبت تلك الخصوصية سجود الملائكة له.

وقال بعضهم: وهو قول الفناء، جذبهم بشهود التعظيم، فلم يستجيزوا المخالفة، وحجب إبليس برؤية الفخر بنفسه عن التعظيم، ولو رأى تعظيم الحق لما استجاز الفخر عليه؛ لأن من استولى عليه الحق قهره.

قال جعفر في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾: سخطي الذي لم يزل جاريًا عليك، وواصلاً إليك في أوقاتك المقدرة وأيامك الماضية.

قال بعضهم في قوله: ﴿إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾: الذي يكون سره بينه وبين ربه، بحيث لا يعلم ملك فيكتبه، ولا هوى فيميله، ولا عدو فيفسده.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: القرآن صفته الأزلية، يذكر للعالمين شمائل جماله وجلاله، ويظهر كنوز أسراره وأنوار ذاته وصفاته لمن له فهم عقل ومعرفة.

قال ابن عطاء: يطرد به عند الغفلة ليعتبر به المعتبرون.

وقال عبد العزيز المكي في قوله: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: لم يعلم المسكين بأي سهم رمى، وبأي سيف قتل، وبأي رمح طعن، وبأي نار أحرق، وفي أي جبٍّ ألقى، ولو علم ذلك لما قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، بل مات ترحًا وحزنًا، وتفتت كآبةً وغمًّا، ولكنه ستر عليه ما عومل به حتى لم يجد من ذلك ألمًا وما أحس منه وجعًا، فلم يبالِ بما قيل له حتى قال لقلة مبالاته: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾، فاغترَّ المسكين بالمدة الطويلة، ولم يعلم أن ما هو آت قريب، ولا يزداد بطول المهلة إلا الذلة والتخيب، وما وقع ههنا نكتة؛ إنه كان في الأزل ذائقًا طعم بعض الوصال في عالم اللطفيات، ولم يكن مع الخبر من عالم القهريات شيئًا، فلما وصل إليه بطش قهر الجبروت استنظر حتى يخوض في بحار قهره، كما غاص في بحار لطفه؛ لكي لا يدركه في سعة رحمته؛ ليستوفى سريات القهريات كاستيفائه شربات اللطفيات، حتى يكون من كلا الجانبين على حظٍّ وافرٍ من علومه وربوبيته، وغلط المعلون؛ لو وافق الأمر لوجد معاني الصفات والذات والقهريات واللطفيات على صورة الأنس والراحة كالأنبياء والأولياء والملائكة المقربين.

سورة الزمر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي: هذا تنزيل الكتاب، وهو القرآن، وهو وصفه القديم، بدا منه بنعت التجلي، وأنزل من عنده للأمر ولأحكام ظهوره بنعت الصفة للخصوص وبنعت النزول للعموم، هو العزيز من حيث لا تفارق صفته عن ذاته، وهو الحكيم من حيث منع عباده التمتع بكشفه وإنزاله رحمة للعموم والخصوص.

قال الأستاذ: كتابٌ عزيزٌ نزل من ربٍّ عزيزٍ على عبدٍ عزيزٍ بلسان ملكٍ عزيزٍ في شأن أمة، عزيز بأمر عزيز ورد الرسول عن الحبيب الأول بعد التلاقي بعد طول يزيل نزهة قلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها في كتب الأحباب عند قراءة فصولها والعجب منها، كيف لا ترهق سرورًا بوصلها وارتياحًا بحصولها!

قوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾: أمر حبيبه ﷺ أن يعبده بنعت ألا يرى نفسه في عبوديته ولا الكون وأهله، ولا يتجاوز عن حد العبودية في مشاهدة الربوبية، فإذا سقط من العبد حظوظه من العرش إلى الثرى فقد سلك مسلك الدين، وهو طريق العبودية الخالصة عن رؤية الحدثان بنعت شهود الروح مشاهدة الرحمن، وذلك هو الدين الذي اختاره الحق لنفسه؛ حيث خلص عن غيره بقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، والدين الخالص وجدان نور القدم بعد تلاشي الحدث في بوادي سنا العظمة والوحدانية، كأنه تعالى دعا عباده بنعت التنبيه إلى خلوص الأسرار عن الأغيار في إقبالهم إليه.

قال الواسطي: ذكر وعيده على اللطافات، فقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، وهو الذي يخلص فيه صاحبه من الشرك والبدعة والرياء والعجب ورؤية النفس.

وقال سهل: أخبر الله تعالى أن الذي له من الدين هو الذي يخلص من الرياء والشك والشبهات[1].

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾: نكتة الآية في الحقيقة بعد رسوم

---

(١) قال الأستاذ: الدين الخالص ما تكون جملته لله؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد، اللهم أن يكون بأمره؛ إذا أَمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به، ولولا هذا لَمَا صحَّ أَنْ يكونَ في العَالَمِ مُخْلِصٌ. تفسير القشيري (٧ / ١٢).

العلم أن العبد العارف إذا تحقق في العبودية ووصل إلى رؤية أنوار الربوبية يصل إلى نور الانبساط وذوق الوجد والسكر في رؤية الجمال، فيطيب وقته، ويصير مملوءًا من نور الحق، فلا يرى إلا الحق بالحق، وينسى الحق دون الحق، فيدَّعي هناك الأنانية، فهدده الحق من ذلك، وقال: إن تخرجوا من عندي بدعوى الأنانية تكونوا محجوبين بالحال عن المحول، وهو منزَّهٌ عن أن يحول عليه حال مقدس عن المواصلة والمفارقة، ولا يرضى، ولا يستحسن لعبده الاحتجاب به عنه، لكن مكر به بمشيئته القديمة وإرادته السابقة؛ لأنها سبقتا على الأمر، والأمر يتغير، والرضا لا يتبدل، وفي قوله: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ بيان أن الكفر أن نسيان وجوده في غلبة الوجد وذكر الواجد نفسه، ولا يرضى بذلك، بل يرضى أن يفنى نفس الواجد فيه تعالى، وهو باقٍ له لا هو، فإذا فني عنه شكر الله بفنائه في بقائه، وذلك قوله: ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ وفي الآية من الشطح أن الله سبحانه أعدم الكفر، وبيَّن أن ليس الكفر لأحد من العرش إلى الثرى، وكيف يكون الكفر! ولا يرضى الله الكفر لأحد، فخرج الكفر من البين بذلك؛ لأن الرضا نعته الأزلية، فإذا بقي الكفر في القدم لا يكون الكفر إلى الأبد ومنبع الرضا والسخط والإرادة والمشيئة ذاته القديم، وهذه الصفات والذات واحدةٌ من جميع الوجوه، وبيان ذلك أن حقيقة الكفر في كونه أن يكون العبد محيطًا بجميع ذاته وصفاته، ثم ينكره بحيث إنكاره يقارن إحاطته وكذلك الإيمان، وذلك مستحيلٌ، فإذًا لا يكون الكفر الحقيقي ولا الإسلام الحقيقي.

قال القاسم: لا يرضى لهم الكفر، ولكن يقدر عليهم، وليس الرضا من المشيئة والإرادة والقضاء في شيء.

وقال سهل: أول الشكر الطاعة، وآخره رؤية المنة.

قال عبد العزيز المكي: الكفران للنعمة هو أن يظن العبد أنه عرف وأدى شيئًا من شكر النعمة.

وقال ابن عطاء: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ أي: لا حاجة به إليكم، ولكن من كفر وأعرض عنه ممن خلقه لنفسه ولجواره لا يرضى له ذلك حتى يجذبه إليه بتوفيقه، ويربيه بفضله ويرضاه.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾: إن وفقتم لشكر نعمتي أوجبت لكم به رضاي.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً

إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾: وصف الله أهل الضعف من اليقين إذا مسه ألم امتحانه دعاه بغير معروفه، وإذا وصل إليه نعمته احتجب بالنعمة من المنعم، فبقي جاهلاً من كلا الطرفين، لا يكون صابرًا في البلاء ولا شاكرًا في النعماء، وذلك من جهله بربه، ولو أدركه بنعت المعرفة وحلاوة المحبة لبذل نفسه له حتى يفعل به ما يشاء.

قال الواسطي: الخلق مجبورٌ تحت قسمته، مقهورٌ في تحت خلقته وتقديره، ألا ترى إذا ضاقت القلوب واشتدت الأمور كيف تفرغ بالإخلاص إلى الملك الغفور!

وقال الحسين: من نسي الحق عند العوافي لم يُجب الله دعاءه عند المحن والاضطرار، لذلك قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة»[1].

قال النهرجوري: لا يكون نعمة من تحمل صاحبها على نسيان المنعم نعمة، بل هو إلى النقم أقرب.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ : وصف الله سبحانه أحوال أهل الوجود والكشوف والمستأنسين به الذين قنتوا في أجواف الليالي قائمين على أبواب الربوبية بنعت الفناء والخضوع حين عاينوا مشاهدة جلاله وجماله من وراء ستور الغيب وحجب الملكوت، فساعة دهشوا، وساعة ولهوا، وساعة بكوا عليه وبه، وساعة ضحكوا بها أولاهم الحق من نيل أنوار مشاهدته وفيض حلاوة وصلته ولذائذ خطابه ومناجاته وكشفه أسراره عندهم، فصرعوا، وبكوا، وزفروا، وصاحوا، إذا قاموا، قاموا بشرط رؤية جمال بقاء الحق، وإذا سجدوا سجدوا على شرط رؤية جلال قدمه، وعلموا من لطائف خطابه مكنون أسرار غيبه من العلوم الغريبة والأنباء العجيبة؛ لذلك وصفهم بالعلم الإلهي الذي استفادوا من قربه ووصاله وكشف جماله، بقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، كيف يستوي الشاهد والغائب، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟!

قال ابن عطاء: الغائب الذي يجتهد في العبادة، ولا يرى ذلك من نفسه، ويرى فضل الله عليه في ذلك، فإذا رجع إلى نفسه في شيء من أفعاله فليس بغائب.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٠٧)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣).

وقال سهل: العلم الاقتداء واتباع الكتاب والسنة.

وقال الجنيد: العلم أن تعرف قدر ربك ولا تعدو قدرك.

وقال ابن عطاء: العلم أربعةٌ: علم المعرفة، وعلم العبادة، وعلم العبودية، وعلم الخدمة.

وقال ذو النون: العلم علمان: مطلوب، وموجود.

وقال أبو يزيد: العلم علمان: علم بيان، وعلم برهان.

وقال رويم: العلم مطبوع ومصنوع.

وقال: المقامات كلها علم، والعلم حجاب.

وقال الشبلي: العلم خبر، والخبر جحود، وحقيقة العلم عندي بعد قول المشايخ رحمة الله عليهم الاتصاف بصفة الرحمن من حيث علمه حتى يعرف بالحق ما في الحق.

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾: وصف الله القوم بأربع خلالٍ: بالإيمان، والتقوى، والإحسان، والصبر، فأما إيمانهم فهو المعرفة بذاته وصفاته من غير استدلال بالحدثان، بل عرفوا الله بالله، وتقواهم تجريدهم عن الكون وأنفسهم؛ خوفًا من الاحتجاب بها عنه، وإحسانهم إدراكهم رؤيته بقلوبهم وأرواحهم بنعت كشف جماله، وهذا الإحسان بمعنى العلم، ويكون بعد أن خلعوا شوائب الحدوثية عن طريق الربوبية، وصبرهم استقامتهم بمواظبة الأحوال وكتمان كشف الكلي، وحقيقة الصبر ألا يدعي الربوبية بعد الاتصاف بها، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: أرض القلوب ووسعها بوسع الحق، فإذا كان العارف بهذه الأوصاف فله أجران: أجر في الدنيا، وأجر في الآخرة، أجر الدنيا المواجيد البديهية والواردات الغريبة والفهوم بغرائب الخطاب والوقوف على مشاهدة الحق بعد كشفها، وأجر الآخرة غوصه في بحار الآزال والآباد والفناء في الذات والبقاء في الصفات.

قال حارث المحاسبي: الصبر التهدف بسهام البلاء.

وقال طاهر المقدسي: الصبر على وجوه: صبر منه، وصبر له، وصبر عليه، وصبر فيه، وأهونه الصبر على أوامره، وهو الذي بيَّن الله ثوابه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقال يوسف بن الحسين: ليس بصابر من يتجرع المصيبة ويبدي فيها الكراهية، بل الصابر من يتلذذ بصبره حتى يبلغ به إلى مقام الرضا.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾: بيَّن الله سبحانه مراتب حبيبه ﷺ في منازل التوحيد والعبودية هاهنا، فإذا لم يكن غيره في محل موازاة الأزل توجه إليه خطاب الحقيقة في أمر العبودية وعرفان الربوبية، فإخلاصه في العبودية خروجه من رسم الحدثان في مشاهدة الرحمن، وبيَّن سبحانه في أمره إياه بقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي: حين تظهر طوارق أنوار أزليته وسنا جلال أحديته هو أول من يقبل إليها بنعت قبول حقائقها ومعرفة إجلالها وجلالها بنعت الانقياد في معارك عساكر سلطانها، والفناء عن أوصاف الحدوثية في ملكوتها وجبروتها هذا شوق الإخلاص والإسلام من يشتري حلاوة وجه المحبوب ببذل وجوده من العرش إلى الثرى، فالكل مخاطبون بخطابه، فمن يرغب أن يفنى في هذه المقامات السنية حتى يبقى ببقاء الحق.

قال الجنيد: الإخلاص أصل كل عمل، وهو مربوطٌ بأوائل الأعمال، ومنوطٌ بأواخر الأعمال، ومضمرٌ في كل الأقوال، وهو إفراد الله بالعمل.

وقال أيضًا: أمر جميع الخلق بالعبادة والتعبد، وأمر النبي ﷺ بالإخلاص في العبادة، علم الحق تعالى أن أحدًا لا يطيق تمام مقام الإخلاص سواه، فخاطبه به.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى

ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: أصل كل طاغوت النظر إلى النفس، وإلى ما سوى الله من العرش إلى الثرى في طريق إفراد القدم عن الحدوث على وجه الإقبال إلى شيء دونه، فالذين جانبوا الكل وأنابوا إلى أصل كل أصل بنعت الاستعانة به فلهم النظر إلى جماله، ولهم النظارة والبشارة في وجهه، والفرح بمشاهدة جماله، فهم مربوطون في الدنيا عند كل نفسٍ ببشارة منه، بأنهم يرونه على وفق مرادهم ومحبتهم، ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾، أمر حبيبه ﷺ بأن يبشرهم بالرضوان الأكبر، ثم بيَّن استحقاق البشارة لهم بأي وجه يلحق بهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾[1]: يستمعون الحق من الحق من حيث الحق، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾: يتبعون كل الخطاب بالإيمان وعلى ما يوافق مراد الحق منهم بالعمل، فإذا الكل حسنٌ مباركٌ، فمن حيث رسوم الأمر أحسن ما يطيقون حمله من وارد الخطاب بنعت متابعته، وفي الحقيقة الأحسن ما لم يوافق طباع الحدثان، وذلك مثل آي المتشابه في عرفان الذات والصفات؛ فالأوامر والنواهي أحسن لهم، والأنباء من علوم الذات والصفات أحسن للحق، ولكن من حيث إن القول صفته؛ فالكل حسنٌ من حيث معاني الصفة، وأيضًا يتبعون أحسنه من الأعمال السنية والأخلاق الكريمة، وبيَّن أن هذه المتابعة منهم من هدايته لهم وتعريف نفسه إياهم، وأنه تعالى جعلهم الألباء المستعدين بقبول قوله وإدراك خطابه بالفهوم النورية والعقول الصافية والذكاء العجيب بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: الدنيا، وأصلها الجهل، وفرعها المآكل والمشارب، زينتها التفاخر، وثمرتها المعاصي، وميراثها القسوة والعقوبة.

وقال الأستاذ: طاغوت كل أحد نفسه، وإنما يجتنب الطاغوت من خالف هواه وعانق رضا مولاه.

قال أبو بكر بن طاهر في قوله: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾: بشَّر الله تعالى من فتح سمعه لاستماع الأحسن من سماعه لا من سمعه على العادة والطبع؛ فإن المتحقق في السماع من يعرف حاله في وقت السماع، فيتبع الأحسن مما يسمع، ويدعَّي ما فيه شبهة واشتباه، وصفهم الله تعالى

---

(١) ولذلك قالوا: الصوفي: دمه هدر، وماله مباح؛ لأنه لا ينتصر لنفسه، بل يدفع بالتي هي أحسن السيئة، البحر المديد (٣/ ٣١٠).

بالهداية إليه والعلم به العقل فيما يسمع، بيَّن الشيخ أبو بكر بن طاهر -قدس الله روحه- أن المراد به سماع القول، وأن العارف العاشق بجمال الحق يلقى سمع الخاص في مقام المراقبة على بساط القرب، والحق سبحانه يتكلم بكل لسان من العرش إلى الثرى، فلحظة نطق على ألسنة الطيور في ألحانها، وساعة نطق في أصوات الخلائق المختلفة، وعلى ألسنة السماوات والأرضين والجبال وحركات الرياح والأشجار والمياه، وعلى ألسنة الملائكة والأرواح والنفوس، فبعض إلهام، وبعض إلمام، وبعض وحي، وبعض كلام، فالأحسن منها أن يتكلم معهم بكلامه العزيز الخاص الصفاتي الذاتي الخارج من الوسائط والوسائل، فذلك العارف العاشق يسمع الكل من روحه ونفسه وعقله وقلبه وعدوه والملك والأولياء والأنبياء وحركات الأكوان وأهلها، فيتبع جميع الخطابات من حيث إدراك حقائقها ما يوافق حاله وعلمه وعمله رسمًا، ويتبع الكلام الأزلي الذي هو أحسن الخطاب بالفهم العجيب والعلم الغريب والإدراك الصافي وانفراد الحق من المخلوق بالمحبة والشوق والعشق والمعرفة والتوحيد والإخلاص والعبودية والربوبية والحرية، فهذا فضل ورد بالبديهة من حيث ظهور الأنباء الغيبية والروح القدسية والإلهامات الربانية.

قيل: هذا فضيلةٌ لمحمد ﷺ على غيره أن الأحسن ما يأتي به، وإن كان الكل حسنًا، ولما وقعت له صحبة التمكين ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون، ظهرت عليه الأنوار في الأحوال، وكان معه أحسن الخطاب، وله السبق في جميع المقامات، ألا تراه ﷺ يقول: «نحنُ الآخرون السابقون يوم القيامة»[1]: يعني الآخرون وجودًا السابقون في الخطاب الأول في الفضل في محل القدس.

وقال الأستاذ: اللام في قوله القول للعموم يقتضي حسن القول، الاستماع يكون لكل شيء، والاتباع يكون للأحسن.

وقيل: للعبد دواع من باطنه هواجس النفس ووسواس الشيطان وخواطر الملك والخطاب الحق يلقى في الروع، فوسواس الشيطان يدعوه إلى المعاصي، وهواجس النفس تدعوه إلى ثبوت الأشياء منه مما له فيه نصيب، وخواطر الملك تدعو إلى الطاعات، وخطاب الحق في حقائق التوحيد.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٩٩)، ومسلم (٢/ ٥٨٥).

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾: بيّن الله سبحانه تفضيل شرائف الصديقين من أهل مشاهدته المنورين بأنوار قدسه، أوجد أرواحهم في فضاء ديموميته وميادين أزليته، فأبدى لها نور جماله وجلاله، فهم منورون بنوره؛ حيث ألبسهم قموص سنا عظمته وبهاء كبريائه، فهذا معنى شرح صدورهم، وبعد نشر نور تجليه في أرواحهم وعقولهم حتى وقع فيها نور العبودية وما بدا من نور اليقين والعرفان والإيمان والإسلام، فأول شرح صدورهم بدو أنوار صفاته فيها، وآخر انفساخها ظهور سناء ذاته فيها، فهم على نور منه، وبذلك النور يلبسون؛ فيرون الحق بنور الحق، ويرون ما دون الحق من العرش إلى الثرى بنوره، ثم وبخ أضدادهم بقساوة القلوب وتباعد النيات، واحتجابهم عن نور ذكره، بعد أن قهرهم بخذلانه، وحرمهم من نور إسلامه وإيمانه، وهددهم بعقوبته بقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾: قساوة قلوبهم من اتباعهم نفوسهم وإعراضهم عن قبول طاعة مولاهم، ثم بين أنهم في ضلال عن الوصال بقوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

قال بعضهم: شرح صدره لمعرفته فهو على نور من ربه فيشهد بذلك النور الغيوب ويكون حاضرًا بروحه وسره مراقبًا ببركات ذلك الشرح.

قال بعضهم: المعرفة تتولد من الشرح والتنوير، قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾ .

وقال جعفر الصادق: شرح صدور أوليائه؛ لأنها موضع خزانته، ومعدن إشارته، وبيت أمانته، ومفتاح البيت عنده، وحارسه الله، وهو في كنفه، لا يطالعه أحد سواه، كما قال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى صورِكم»[1].

وقال الشبلي: أنارت بالشرح قلوبهم، وأنطقت بالحكمة ألسنتهم، وأكملوا بكمال الآداب ورياضة النفوس، فوصلوا بالولاية، وسقوا بكأس الصدق.

وقال النوري: استسلم سره بنور القربة، وذلك الشرح.

وقال بعضهم: فهو على نور من ربه، على يقين من مشاهدة ربه بالغيبوبة عن الملك والملكوت، فلم يبق عليه مقام إلا سلكه، ولا حال إلا استوفاه.

وقال الواسطي: منحة عظيمة، لا يحتملها أحد إلا المؤيدون بالعناية والرعاية، فإن العناية تصون الجوارح والأشباح، والرعاية تصون الحقائق والأرواح.

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٧)، وأحمد (٢/ ٢٨٤).

وقال بعضهم: عرف إليهم حتى عرفوه، وبَصَّرهم حتى أبصروه، وذلك حين شرح قلوبهم برؤية الصنع، وأعمى أبصارهم عن النظر إلى سواه، فبشرح الصدر عرفوه، وبالعمى عن غيره أبصروه.

وقال يحيى بن معاذ: قساوة القلب من اتباع الهوى.

وقال: عقوبة القلب الرين والقسوة.

وقال الحسين: قساوة القلب بالنعم أشد من قسوته بالنسيان والشدة؛ فإن بالنعمة يسكر، وبالشدة يذكر، وأنشد في معناه:

قَـدْ كُـنتُ فِي نعمـةِ الهـوى بَطِـرًا ... فأدركتنِـي عقـوبةُ البطـرِ

وقال: من هَمَّ بشيء مما أباحه العلم تلذذًا عُوقب بتضييع العمر وقسوة القلب وتعب الهم في الدنيا.

وقال الأستاذ: النوري الذي من قبله سبحانه نَوَّر اللوائح بنجوم العلم، ثم نَوَّر اللوامع ببيان الفهم، ثم نَوَّر المحاضرة بزوائد اليقين، ثم نوَّر المكاشفة بتجلي الصفات، ثم نَوَّر المشاهدة بظهور الذات، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد، وعند ذلك فلا وجد ولا قصد ولا قرب ولا بعد، كلا بل هو الله الواحد القهار.

وقال في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾: الصلبة قلوبهم التي لم يفتر عنها خواطر التعريف، فبقيت على مكاره الجحد، أولئك في الضلالة الباقية والجهالة الدائمة، نعم ما قال المشايخ في تفسير هذه الآية، ولكن حقيقة تفسيرها ما قال النبي ﷺ حين سُئل عن تفسير الشرح المذكور في القرآن فقال: «ذلك نور يقذف في القلب. فقيل: هل لذلك أمارة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نـزوله»[1]، قوله ﷺ بيَّن هذه الأقوال في الآية كالشمس بين الكواكب، بل نوره بين أنوار الأنبياء والأولياء والملائكة المقربين كنور الشمس بين أنوار الكواكب، إذا برز نور شمسه أدرج ضوء نورها ضوء الكواكب.

كما قيل: فلما استبان الصبح أدرج ضوءه بأنواره أنوار ملك الكواكب.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٤٦)، والطبري في تفسيره (٨/ ٢٧).

لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ : وصف الله سبحانه كلامه القديم حديثه الباقي الذي أحسن من كل حسن، إذ جميع الحسن منه بدا، وحسنه بأن يكون بحسن الأشياء، وأنه صفته الأزلية التي خارجة بنعوتها عن رسوم الأصوات وعلل الحروف ومصنوعات الكون، لا يشابهها كلام الخلق من فعله صدر، وكلامه تعالى من ذاته صدر، فكيف يكون مشابهًا لكلام الحدثان، ومعنى قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ أنه خبَّر عن كلية الذات والصفات التي منبعها أصل القدم، وصفاته كذاته وذاته كصفاته، وكل صفة كصفة أخرى من حيث التنـزية والقدس والتقديس، والكلام بنفسه متشابه المعاني، وكل معنى يتكرر في موضع غير موضعه بلغة أخرى، ووضعها مذكورة بحروفها، والمتشابه في القرآن خاصٌّ، مذكورٌ مبينٌ لأهل الخصوص من أهل شهود وصفات الخاصة الأزلية الذين يشهدون الأرواح والأشباح في المراقد العبودية، يسمعون من الحق بأسماع القلوب، فإذا سمعوا خطاب الحق من الحق يستولى على أسرارهم أنوار التجلي، ثم تستولي من الأسرار على الأرواح، ثم تستولي من الأرواح على العقول، ثم من العقول على القلوب، ثم من القلوب على الصدور، ثم من الصدور على الجلود، فتقشعر منها جلودهم من حيث وقوف أسرارهم على مشاهدة العظمة بنعت الخشية والإجلال والعلم به، وإذا وصل نور الأنس بنور العظمة ونور الجمال بنور الجلال سهل على وجودهم سطوات الكبرياء، فتلين جلودهم وقلوبهم بنور البسط والأنس، فزاد شوقهم إلى سماع الكلام من العلاَّم؛ لهيمانهم إلى رؤية جماله، ذلك قوله: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وخطابه سبحانه سراج يستضيء بنوره كل راشدٍ في المعرفة، مرشدٍ في التوحيد، راسخٍ في المحبة، قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾أي: من الأولياء والأصفياء والمقربين والمؤمنين الصادقين.

قيل في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ و ﴿تَلِينُ﴾ أي: تقشعرُّ بالخوف، وتلين بالرجاء.

وقيل: بالقبض والبسط.

وقيل: بالهيبة والأنس.

وقيل: بالتجلي والاستتار.

وقال الأستاذ: بالوعد والوعيد.

وقال النهرجوري: وصف الله بهذه الآية سماع المريدين وسماع العارفين.

وقال: سماع المريدين بإظهار الحال عليهم، وسماع العارفين بالطمأنينة والسكون.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾: قرآنا قديمًا ظهر من الحق على لسان حبيبه ﷺ، لا يتغير بتغير الأزمان، ولا ترهقه عبارات أهل الحدثان، يعوجه الحروف، ولا يحيط به الظروف، بل صفاته قائمة بالذات، تنتشر أنوار تجليه في ساحات الصدور، وعرصات القلوب، وصمائم الأرواح، وأماكن الأسرار، وأصداف الألسنة، وأوراق المصاحف، يخرج بوصف الحقيقة، فيلين منه الحق لأهل الحق.

سُئل مالك بن أنس عن هذه الآية قال: غير مخلوق.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾: شبَّه الله المتشتتين همومهم المائلين إلى غير الله بالرجل الذي يملكه الشركاء المتشاكسون المتخالفون، وشبَّه المتفردين بنعت الإخلاص بالله ولله وفي الله بالرجل السالم لرجل الخالص له لا يملكه غيره بل عبدٌ قنٌّ له لا يدخل في صحة عبوديته خلل لأجل مدخل غيره، فالأول المحتجب بنفسه عن الحق، والثاني الشاهد بالحق على الحق، لا يحويه غبار العلل، ولا يدخل في قلبه قتام الخلل؛ إذ هو محفوظٌ برعايته القديمة وحراسته الأبدية، مثل هذا العبد لا يعرفه إلا عبدٌ مثله، ولذلك حمد الله نفسه حيث يجهله أكثر الخلق بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾، وحقيقة الحمد ههنا ظهور تقديس نفسه منه بألا يعرف حقيقة جلاله أحدٌ غيره، وهو منزهٌ عن أن يكون ممدوحًا لألسنة الحدثان، بل حمد نفسه لعلمه بعجز الحامدين عن حمده.

قال ابن عطاء: ما لهم في حمد الله من الذخر والفخر.

قال جعفر: لا يعلمون أن أحدًا من عباده لم يبلغ الواجب في حمده، وما يستحق من الحمد على عباده بنعمته، وأن أحدًا لم يحمده حق حمده إلا حمده لنفسه.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى

لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: فرَّق الله بين موت حبيبه ﷺ، وبين موت غير في مضمون الخطاب ومظنة الإشارة أي: إنك ميتٌ عند صعقات سطوات تجلي أزلياتي؛ حيث تفنى ضباب عصمتي عند ظهور أنوار كبريائي؛ حتى لا تحاسب عن وجودك في ظهور وجودي لك، فإن الحادث إذا قورن بالقديم زال الحادث وبقي القديم، ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ بنـزع الأرواح منهم، وأيضًا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ منسلخ من العلل الإنسانية حي بالأنوار الربانية، ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ عن رؤية شرفك وعن إدراك مقاماتك، إنك ميت عن غيرنا حي بنا، وإنهم ميتون عن الدنيا، فإذا كان يوم المعاد تظهر مقامات كل أحد، فيخص بعضهم بالانبساط، وبعضهم من الكمود على ما فات عنه من كرائم مواهبه السنية ولطائفه الكريمة.

قال ابن عطاء: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي: غافل عما هم من الاشتغال بالدنيا، ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ عما كوشفت به من حقائق التقريب والقرب.

وقال بعضهم: إنك ميت عن بشريتك باطلاع بركات الحق عليك.

وقيل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ عن رؤية الأكوان بما فيها بمشاهدة المكون[1].

وقال أبو العباس بن عطاء: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ عن شواهد ما استتر، ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ عن شواهد ما أظهر.

﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾: وصف الله كل صادقٍ يعرف مقامه وحاله بين يدي الله، فصدق بما أعطاه الله من الولاية والكرامات والمشاهدات والفراسات والخطابات والمكاشفات، ولا يجري على قلبه شكٌّ ولا ريبٌ مما نال من الحق، ولا يتردد في حاله، بل متمكنٌ مستقيمٌ، لا يضطرب عند طوارق الامتحان، وأيضًا وصف الحبيب صلوات الله وسلامه عليه والصديق الذي هو أول من قبل منه الرسالة ﷺ.

---

(١) إشارة إلى نعيه ﷺ ونعي المسلمين إليهم ليفرغوا بأجمعهم عن مأتمهم ولا تعزية في العادة بعد ثلاث ومن لم يتفرغ عن مأتم نفسه، فإذا فرغ قلبه عن حديث نفسه وعن الكونين بالكلية، فحينئذ يجد الخير من ربه وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم. حقي (١٢/ ٢٧٩).

قال ابن عطاء: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وأفاض من بركات أنوار صدقة على أبي بكر ﷺ، فَسُمِّي صديقًا، وكذلك بركات الأنبياء والأولياء.

قال الطمستاني: كل من استعمل الصدق بينه وبين الله شغله صدقه مع الله عن الفراغ إلى خلق الله.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾: فيه من العتاب نبذةٌ من الحق، عاتب عباده بلفظ الاستفهام أي: هل يجري على قلوبهم إن تركهم عن رعايتي وحفظي؟ كلا بل أنا أراعيهم وأحفظهم عن منازل الخطرة، يضربهم جريان امتحاني؛ فإني أحببتهم في أزل أزلي، فبقيت محبتي لهم إلى أبد الأبد، لا تسقطهم عن عيني، ومن يجترئ أن يقوم لمخاصمة من في نظري! وهذا مذهب كل متوكِّلٍ راضٍ عن ربه من حيث ما رأى من محافظته وخفايا ألطافه ما يطمئن به صدره عند كل مهالك.

قال أبو بكر بن طاهر: من لم يكف بربه بعد قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فهو في درجة الهالكين.

قال ابن عطاء: خلع حبل العبودية من عنقه من نظر بعد هذه الآية إلى أحد من الخلق، أو رجاهم، أو خافهم، أو طمع فيهم.

وقال الأستاذ: ﴿أَلَيْسَ﴾ استفهام، والمراد منه التقرير، و﴿ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ اليوم في عرفانه لتصحيح إيمانه ومنع الشرك عنه، وغدًا في إحسانه بإدخاله جنته وتأخير العذاب عنه وما بينهما، فكفايته تامة ولأمته عامة.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ

ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾: خلق الله الأرواح قبل الكون بين النور والسرور، وتجلى لها من حسنه وجماله، فارتاحت بروح ملكوته، واستبشرت بجمال جبروته، فلما أدخلها في الأجساد انقبضت من الاحتجاب بها عن تلك النسائم، فتشامت، واستنشقت نفحات معادنها في الأشباح، فيتلطف عليها الحق سبحانه، فيخرجها كل ليلة من الأشباح، ويطيرها في بساتين ملكوته، ويلبسها سربال نوره، حتى تجددت عليها لذائذ المحبات وحلاوات المشاهدات، وتزيد رغبتها في قرب مولاها وخدمته، فمن حان أجلها من خروجها من الدنيا إلى الحضرة يمسكها عند توفيها إما بالموت وإما بالنوم، ومن بقي لها بعض سيرها في عالم الامتحان يرسلها إلى محلها إلى وقت خروجها بالكلية إلى عند مولاها، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ أرواحَ المؤمنين تصعدُ كُلَّ ليلةٍ إلَى تحتَ العرشِ، فمَنْ نامَ على طهارةٍ أُذِنَ لها بالسجود، ومن لم ينم على الطهارة لم يُؤذن**»[1].

قال سهل: إن الله إذا توفى الأنفس أخرج الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيفي، فالذي يُتوفَّى في النوم من لطيف نفس الطبع، لا لطيف نفس الروح، والنائم يتنفس تنفسًا لطيفًا، وهو نفس الروح الذي إذا زال لم يكن للعبد حركة وكان ميتًا.

وقال: حياة نفس الطبيعي بنور لطيفٍ، وحياة لطيف نفس الروح بذكر الله.

وقال أيضًا: الروح يقوم بلطيفة في ذاتها بغير نفسي الطبع، ألا ترى أن الله خاطب الكل في الذَّر بنفس وروح وفهم وعقل وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف؟!

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾: بيَّن أنه مرجع الكل الشافع والمشفع؛ حتى يرجع العبد العارف إليه بالكلية، ولا يلتفت إلى أحدٍ سواه.

قال الواسطي: قطع أطماع العباد عن أن يصل إليه أحدٌ إلا به بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾، و﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٣/ ١١٦) بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾: صورة الآية وقعت على الجاحدين والمنكرين الذين ليس في سجيتهم إلا متابعة الأشكال والأمثال من حيث التشبيه والخيال؛ لأن قلوبهم خلقت على مشاكلة الأضداد والأنداد وقبولها، ولم يكن في قلوبهم سجية طباع أهل المعرفة بالله، فإذا سمعوا ذكر من لا يدخل في الخيال والمثال انقبضت قلوبهم وصدورهم، ونفرت عقولهم عن الاستقامة في الإقبال إلى الموجود الواحد بالوحدانية، القديم بالأزلية، الباقي بالأبدية، المنـزَّه عن إدراك الخليقة، فإذا سمعوا ذكر غير الله من الصورة والأشباح سكنت نفوسهم إليها من غاية غباوتهم وكمال جهالتهم، وهم مثل الصبيان؛ إذ هم يفرحون بالأفراس الطينية والأسود الخشبية، ولا يطيقون أن ينظروا إلى عدو العاديات، وأن ينظروا إلى صوارم الباديات، ومعنى الآية يقع على ضعفاء المريدين الذين طابوا برؤية الالتباس في مقام المحبة، فإذا بدا بادٍ من أنوار سطوات عظمته جلَّ جلاله بقلوبهم فنيت قلوبهم، وطاشت عقولهم، واضمحلت أرواحهم، فإذا خرجوا من تلك البحار ورأوا أنوار الصفات في الآيات يستبشرون بقوة الوسائط في رؤية الصفات.

قال سهل: جحدت تلك القلوب مواهب الله عندها.

قال أبو عثمان: كل قلبٍ لا يعرف الله فإنه لا يأنس بذكره ولا يسكن إليه ولا يفرح به، ألا ترى قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ ؟!

﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾: هذه الآية خبرٌ من الله للذين فرحوا بما وجدوا في أوائل البدايات مما يغترُّ به المغترون، وقاموا به، وظنوا ألا مقام فوق مقامهم، فلما رأوا ما بخلاف ظنونهم لأهل معارفه وأحبائه وعشاقه من درجات المعرفة وحقائق التوحيد ولطائف المكاشفات وغرائب المشاهدات ماتوا حسرة، وأيضًا سكن قوم إلى الأنوار وظهور بدائع صنيع الحق، واطمأنوا إليها، وظنوا أنها هو، وهم أهل الغلطات، فلما بدا لهم من الله جلال عزته وعزائم قدرته علموا أنهم ليسوا على شيء من معرفة الله، وظاهر الآية يتعلق بأهل الرياء والسمعة الذي يعجبون قبول الخلق واستحسانهم ظواهرهم من الزيِّ والعبادة، واغترُّوا بمراعاتهم، وظنوا أنهم على شيء عند الله من ذلك، فإذا بدا لهم من الله بيانًا يوم القيامة أنهم مشركون بالرياء والسمعة افتضحوا هنالك عند العارفين

والصديقين، وافهم أيها الناظر في هذا الكتاب أن لنا من العلوم المجهولة ذوقًا، وذلك الذوق لا يليق بفهم أهل الطيلسان والطرق، ومن ذلك أن الكفر والإيمان طريقان من القهر واللطف إلى عرفان وحدانيته، فبلغ المؤمن إليه بطريق الإيمان واللطف، ويبلغ الكافر إلى رؤية قهرياته بالحقيقة عند المعاينات، فإذا عرف أنه هالكٌ فيها واقتحم في ظلماتها يبدو له في أحايين من الله سبحانه كشوف جلاله وجماله وعلومه الأزلية وألطافه الأبدية ما يضمحل فيها نيران جميع جهلهم، وهو لا يحتسب ذلك منه، ومن أنت من العبد، والرب قوله صدقٌ، ووعده حقٌّ، وإشارته حقيقةٌ، فأول الآية واضحةٌ، وآخر الآية إشارةٌ.

قال سهل في قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم﴾: أثبتوا لأنفسهم أعمالاً، فاعتمدوها، فلما بلغوا إلى المشهد الأعلى رأوها هباءً منثورًا، فمن اعتمد الفضل نجا، ومن اعتمد أفعاله بدا له منها الهلاك.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ ضُرࣱّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَـٰهُ نِعۡمَةࣰ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَاۤ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةࣱ وَلَـٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٩ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَاۤ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُوا۟ يَكۡسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنۡ هَـٰۤؤُلَاۤءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥١ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوۤا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَاۤءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَ ٰلِكَ لَـَٔایَـٰتࣲ لِّقَوۡمࣲ یُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ ضُرࣱّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَـٰهُ نِعۡمَةࣰ مِّنَّا﴾[1]: شكا الله سبحانه عن المدعين الذين يقولون نحن أهله، فإذا وصل إليهم بلاؤه فزعوا إليه؛ ليرفع عنهم البلاء، ولا يفزعون إليه من وجدان ذوق رؤية المبلي في بلائه؛ ليستزيدوا منه الذوق، بل يطلبوا منه راحة أنفسهم، وهم مشركون في طريق المعرفة، وإذا وصل إليهم نعمة الظاهر تركوه، واحتجبوا بها، فإذا هم الحجاب من كلا الطرفين احتجبوا بالبلاء من المُبلي وبالنعمة من المنعم.

قال الجنيد: من يرى البلاء ضرًّا فليس بعارفٍ؛ فإن العارف من يرى الضر على نفسه رحمة، والضر على الحقيقة ما يصيب القلوب من القسوة والران، والنعمة هي إقبال القلوب على الله، ومن رأى النعمة على نفسه من حيث الاستحقاق فقد جحد النعمة.

---

(١) أي أعطيناه على عظمتنا متفضلين عليه محسنين القيام بأمره وجعلناه خليقاً بحاله جديراً بتدبيره على غير عمل عمله محققين لظنه الخير فينا وأحسنا تربيتنا له والقيام عليه مع ما فرط في حقنا (نعمة منا) ليس لأحد غيرنا فيها شائبة منّ ولولا عظمتنا ما كانت. نظم الدرر (٧/ ٢٦٥).

﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: بسط الحق في هذه الآية بساط عطايا، وفجَّر أبحر كراماته لعطاش الرحمة، ورفع سجوف الغيرة عن أطباق الأسرار أي: إيش بكم عبادي، مني تخافون، ومن رحمتي تقنطون، لا تخافوا، ولا تحزنوا؛ فإني أحببتكم في الأزل، وحكمت بإجراء الذنوب عليكم، وأنا عالم في الأزل بذنوبكم قبل وجودكم، ولو كنت غضبان عليكم بذنوبكم ما أحببتكم، في الأزل أجريتها عليكم؛ لافتقاركم إليَّ؛ وعجزكم بين يديَّ، كيف يقدح ذنوب الأولين والآخرين على بحار رحمتي الواسعة، وجميع الحدثان أقل من قطرة في بحار رحمتي! فأنا فتحت خزائن جودي يدخل عصيان جميع خلائقي في حاشية من حواشيها، وهذه الآية من أعظم توجيه العباد جميعًا، يُسلِّي الله بها قلوب الخائفين الذين يحتشمون من دقائقه، فيقول: لا بأس بكم؛ فإني أغفر الصغائر والكبائر والأسرار والضمائر، أطهركم عن الجميع، وألبسكم أنوار رحمتي حتى تبقوا معي أبدًا، وتنظروا إلى وجهي الكريم بلا حساب ولا عتاب ولا حجاب ولا عذاب.

قال سهل: أمهل عباده تفضلاً منه على آخر نفس، فقال لهم: لا تقنطوا من رحمتي، ولو رجعتم إلى بابي إلى آخر نفس لقبلتكم.

قال الجريري: أمر الله عباده ألا يعتمدوا أعمالهم، ولا يقنطوا من التقصير فيها؛ فإن الرعاية والعناية سبقت بالعبادة، ألا تراه يقول: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ﴾.

وقال يحيى بن معاذ: في كتاب الله كنوزٌ موجبةٌ للعفو عن جميع المؤمنين، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ﴾.

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: ارجعوا بنعت التفريد عن غيره، إليه خاشعين، متضرعين مشتاقين إلى جماله، مستحيين منه مما مضى في سالف الدهور عنكم بغير أنفاس مراقبة هلال جماله، نادمين من ذلك، وانقادوا له كالعاشق الواله المشغف الشائق المتضرع بين يدي معشوقه احتياجًا منه إليه حين تدركونه بوصف الجلال والجمال

والعز والبقاء.

قال سهل: ارجعوا إليه بالدعاء والتضرع والمسألة.

وقال في قوله: ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾: فوِّضوا الأمور إليه.

قال محمد بن علي: اعتذروا إليه مما سلف عنكم من التقصير، وأخلصوا على دوام الموافقة بعده.

وقال محمد بن حنيف: همة المنيب حنين القلب إلى أوقاته العامرة وعبادته الكاملة.

قال الحسين: الإنابة جاءت من قبل المعرفة، وأحسن الخلق إنابة إلى الله ورجوعًا إليه أحسنهم به معرفة.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾: بيَّن الله سبحانه أن من لم يرجع إليه بنعت الشوق والمحبة واشتغل بحظوظ نفسه ووافق طبعه أيام الفترة تأسف على ذلك، وعلى ما قصر في فناء نفسه لله وفي الله في وقت كسوف الأعظم، وأيضًا أي: اطلبوا الحق بالحق؛ حتى تعرفوا أنكم لا تعرفونه بالحقيقة، وانظروا إليه بعينه؛ لتعلموا أن الحادث لا يدرك القديم، ولا تغتروا بصفاء أوقاتكم وطيب مواجيدكم؛ فإنه أعزُّ وأعظم من أن يكون لأحد من أهل الحدثان، إنما هو لنفسه لا للغير، ولا لأحد إليه سبيلٌ لدرك حقائق نعوته الأزلية، فإن لم تكونوا كذلك كثيرًا تقولون وقت كشف جماله وجلاله: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ مما ترون من عزة كبريائه التي تقدست من أن يلحقه أحدٌ بنعت المعرفة الحقيقية.

قال سهل: من ترك المراعاة لحق الله وملازمة خدمته اشتغل بعاجل الدنيا ولذة الهوى ومتابعة النفس، وضيع في جنب الله أي: في ذاته من القصد إليه والاعتماد عليه.

وقال فارس: يقول الله من هرب مني أحرقته أي: من هرب مني إلى نفسه أحرقته بالتأسف على فوتي إذا شاهد غدًا مقامات أرباب معارفي، يدل عليه قوله: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، وهذا لا يقوله إلا محترقٌ.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ انقطعوا عن الكل بالكلية، فما يرجع إلينا بالحقيقة أحدٌ، وللغير إليه أثرٌ، وللأكوان على سرِّه خطرٌ، ومن كان لنا كان حرًّا مما سوانا.

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: يُنجِّي الله الذين تقدس أسرارهم من الالتفات إلى الحدثان في محبة الرحمن عن الحجاب والحرمان يوم الكشف والعيان، ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾[1]: بما كان لهم في الله في أزل أزله من محبتهم وقبولهم بمعرفته وحسن وصاله ودوام شهود جماله، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: لا يلحق بهم في منازل الامتحان تفرقة عن مقام الوصلة وحجابًا عن جمال المشاهدة، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ بفوت المراد في المعاد.

قال الواسطي: ينجيهم بما سبق لهم من الفوز، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾: زوال النعمة، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على الفوات.

وقال القاسم: بسعادتهم السابقة وقضيته فيهم الماضية لهم وعليهم، لا بنفوسهم المتعبة في العبادات.

وعن عليِّ بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد قال: بسعادتهم القديمة صدق أكابر القوم في هذه الآية بأن نجاة الصديقين بالسعادة الكبرى مما يحل يوم القيامة على أهل الدعوى الذين ما شموا رائحة المقامات، وما سلكوا مسالك المجاهدات، وما أدركوا من لوائح أنوار المشاهدات ذرة، فيفتضحون يوم القيامة عند وجوه الصادقين، بقوله سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ﴾، بل هم يفتضحون في الدنيا عند أهل معرفة الله.

قال يوسف بن الحسين: أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة من ادَّعى في الله ما لم يكن له بذلك، وأظهر من أحواله ما هو خالٍ عنها، قال الله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ﴾.

---

(١) بفوزهم، مصدر ميمي، يقال: فاز بالمطلوب : ظفر به، والباء متعلقة بمحذوف، حال من الموصول، مفيدة لمقارنة نجاتهم من العذاب بنيل الثواب، أي: ينجيهم الله من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم أو: بسبب فوزهم بالإيمان والأعمال الحسنة في الدنيا، ولذا قرأ ابن عباس: (بمفازتهم بالأعمال الحسنة) البحر المديد (٥/ ٣٣٧).

وقال النوري في هذه الآية: هم الذين ادَّعوا محبة الله، ولم يكونوا فيها صادقين.

﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾: افهم يا مبارك سر هذه الآية؛ فإن الله سبحانه أخبر فيها من سر نفسه كان في أزل الأزل بحار الألوهية متلاطمة قهارة زاخرة، ولم يكن لمكان قهره مقهور ولعزته ذليل، فغلب عزُّه قهره وجلال سلطانه ونور مشيئته وإرادته، فأوجد الكون، فجاء الكون من العدم مقهورًا ذليلاً لقهره وعزته قهر المخلوقات؛ إذ لم يكن في القدم مكان القهر والمقهورية، فإذا تصاغر الأكوان في قدم الرحمن وسطوات كبريائه، وكادت تضمحل أمسكها بلطفه من قهره، وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وقال الحسين: كل شيء أراد الله به الإهانة والتذليل ألبسه لباس المخلوقية؛ ألا ترى كيف نـزَّه عن ذلك صفاته وكلامه؟! قال: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، المخلوقات ليس لها عزٌّ إلا بالنسبة إلى خالقها، وأنها مخلوقةٌ، فبنسبته إليها أعزها.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مقاليده قدرته القديمة، وإرادته الأزلية، أبواب الأكوان متعلقة بأفعال المشيئة، في خزائنها أنوار القدوسية، وعرائس المشاهدة في حجال الأفعالية، فإذا أراد للعبد العارف السعادة الكبرى يفتح أبوابها بمقاليده حتى يبرز منه لأبصار عشاقه أنوار جماله، فيعيشون بلذة مشاهدته، ويطيبون في لذة المواجيد، ويفرحون بما يجدون من نضارة وجهه الكريم، ويطيرون في سنا قربه وهواء هويته بأجنحة المحبة والمعرفة والمودة.

قال سهل: بيده مفاتيح القلوب، يوفِّق من يشاء لطاعته وخدمته بالإخلاص، ويصرف من يشاء عن بابه.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾: إن الله سبحانه حثَّ حبيبه عليه الصلاة والسلام على تعبير الغالطين والمقبلين إلى الدنيا بأنهم جاهلون حق الله وحق عبوديته؛ إذ لا يقع للحدثان عبودية، بل لا يستحق للعبودية إلا الرحمن القديم أي: كيف أعبد غير الحق، وأنا أعرف عجز الحدثان، وكيف أنصرف من الخالق إلى المخلوق، وأنوار سلطان قهره محيطة بكل ذرة من العرش إلى الثرى أي: أنا محفوظ مصون بصون الأزلية

وعناية الأبدية عن أن يجري على قلبي الشرك في ربوبية خالقي.

قال أبو عثمان: عبادة الله على الإخلاص تنفي عن صاحبه الجهل والريب والشبهة.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾: هذا من أوائل أحوال النبي ﷺ حين دخل فرسان أسراره في ميادين الآزال والآباد، ورأى جبروتًا في جبروتٍ وملكوتًا في ملكوت وعزًّا في عزٍّ وبحرًا في بحرٍ وسلطانًا في كبرياء وكبرياء في عظمة، فما رأى للقديم الأزلي أهلاً من الحدثان، وما رأى أثرًا من نفسه في جناب الربوبية، فكاد يخطر بقلبه أنه معطلٌ، قال الله: كلا ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾: يعني الرسالة والنبوة والأنباء العجيبة، ولا شك في حالك؛ فإنك مكرَّمٌ بسابق عنايتي واصطفائيتي الأزلية، ولك إخوان حَلَّ بهم ما حَلَّ بك من الأحوال السنية وغرائبات أنوار العزة، انظر إلى ما وهبت لك من تلك الكرامات، ولا تنظر إليها مني؛ فإن الالتفات إلى المقامات في المكاشفات والمشاهدات شركٌ، وإذا وقفت عني على حظك مني لتحبطن أحوالك؛ فإن الكلَّ قائمٌ بي.

قال أبو العباس بن عطاء: أي: لئن طالعت بسرِّك إلى غيري لتُحرمنَّ من حظك من قربي.

وقال ابن عطاء: هذا شرك الملاحظة والتفاتٌ إلى غيره.

وقال جعفر: لئن نظرت إلى سواه لتحرمن في الآخرة لقاءه، ثم أكَّد إلا وعليه الحق سبحانه في إفراده عن غيره وإقباله إليه بنعت ترك ما سواه.

قال: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: كن خالصـًا لله لا لغيره فيك نصيب، وكن شاكرًا له بنعت ألا ترى صنيعك في البين شيئًا، وأظهر عجزك في معرفة المشكور؛ فإنه الشكر لا غير، واسكن عن الشوق إلى إدراك كل القدم؛ فإنه لا يدخل تحت إدراك الحوادث، وهو أجلُّ عن أن تدركه بنعته بمعنى الإحاطة، وخذْ ما آتيتك، وكن من الشاكرين؛ فإن الخلق لا يصلون إلى كنه الأزليات والأبديات، وذلك قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: كيف يقدرون حق قدره ونعوته الأزلية جلت من أن تحويها الحوادث، وتحيط بها الأماكن، وتدركها الأبصار، وتفطنها الأفهام والأفكار، والأرواح محترقة في أول بوادئ

أنوار قدرته، والعقول فانية في لمعان بديع صنائعه، والقلوب مضمحلة في لزوم واردات تقلب قضائه وقدرة؟! علم سبحانه عجز الخليقة عن وصف جلاله وإدراك كماله؛ فإنهم لا يحتملون ذرة من أنوار ذاته وصفاته عند ظهور كشفها بنعت غلبة قهره على الأكوان والحدثان، فأجمل القول بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ حيث وصفوه بنعت الأنداد والأضداد، ثم فَصَّل من بطون الأفعال ولوائح أنوار بعض الصفات، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾: لو وصف حقيقة نفسه بغير ذكر الأكوان والأفعال لغابوا في مهمة الأوهام، وما تخلصوا أبدًا من تراكم الأفكار في طلب الأسرار، بل أحالهم إلى رؤية الفعل المحيط به صفاته أي: كيف تدركون من كان قهره وعظمته في مباشرة فناء العالم هكذا من حيث عقولكم، وأن السماوات والأرضين أقل من كرة في ميادين قهر صفاته؟! وعندكم أن العظيم لو يكون من يقلع جبيلة من الجبال، فذكر فعله على حد عقولهم، فلما علم ترددهم في مماثلته أفعاله ووقوع عقلهم في أودية الإشكال ومخائيل الأبعاض نـزَّه نفسه عن ذلك في آخر الآية، كما نـزَّه نفسه في أولها، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٧﴾ أي: تقدَّس عن أن يقيسه المتقايسون أو يشير إليه المشيرون، أول الآية ذكر قدم القدم لأهل الفناء في التوحيد الذاتي، وأوسط الآية ذكر ظهور جلاله وجماله بنعت الالتباس في آياته الأفعال للعاشقين، وآخر الآية ذكر حقيقة السر الصفاتي بنعت التقديس والتنـزيه، ووصف إفراد قدمه عن الحدوث، فرؤية الذات لأهل الفناء، ورؤية الصفات لأهل البقاء، ورؤية الجمال والجلال في الأفعال لأهل العشق، وكلهم معزولون عن ساحة الكبرياء بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[1]: ما عرفوه حقَّ معرفته في الأصل ولا في الفرع.

وقال الحسين: كيف يعرف قدره من لا يقدر قدره سواه.

---

(١) القدر بمعنى التعظيم كما في القاموس فالمعنى ما عظموا الله حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكا بما لا يليق بشأنه العظيم ويقال قدر الشيء قدره من التقدير كما في المختار. فالمعنى ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حق عظمته، وقال الراغب في المفردات ما عرفوا كنهه.

يقول الفقير: هذا ليس في محله فإن الله تعالى وإن كان لا يعرف حق المعرفة بحسب كنهه؛ ولكن تتعلق به تلك المعرفة بحسبنا فالمعنى ههنا ما عرفوا الله حق معرفته بحسبهم لا بحسب الله إذ لو عرفوه بحسبهم ما أضافوا إليه الشريك ونحوه فافهم. تفسير حقي (١٢/ ٣٢٥).

قال الواسطي: لو طالعوا حق حقه في محبتهم لعلموا العجز عن ذلك بالكلية، فلم يعرف قدره من ادَّعى لنفسه معه مقامـًا، قال الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾.

سئل الجنيد عن قوله: ﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾: متى كانت منشورة حتى صارت مطوية؟! سبحانه! نفى عن نفسه ما يقع على العقول من طيِّها ونشرها؛ إذ كل الكون كخردلة أو كجناح بعوضة أو أقل منها، كذلك قال في قوله: ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾: كيف لا يستحيل قيامه على هذا الكون الذي لا يزن ذرة عنده، بل قيامه بنفسه لنفسه؟!

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أول النفخ والصعقة ترشح أنوار قهر العظمة على الأكوان والأماكن والأزمان والهياكل والأمثال والصور والأشكال والأرواح القدسية الملكوتية في أكناف لطافة قائمة بوجوده، لا يقع عليها تلوين الصفات والفزع والعقوبات، وثاني النفخ والصعقة ظهور أنوار جماله في أنوار جلاله، فمن ذلك تحيا الأنفس، وتقوم الأشباح بنور الأرواح، ينظرون إلى سرادق الكبرياء وساحة العظمة والبقاء، ينتظرون وقوع نور الكشف بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، يتجلى الحق سبحانه أرض أرواح العارفين والأنبياء والمرسلين، وأرض قلوب الصديقين والمقربين، ويظهر نور جماله لأبصار الوالهين العاشقين، ثم يستضيء بأنوارها أرض المحشر للعموم والخصوص، تعالت صفاته من أن يقع على الأماكن، أو أن يكون محلاً للحدثان، يا عاقل لا يكون ذرة من العرش إلى الثرى إلا وهي مستغرقة في أنوار إشراق آزاله وآباده.

قال سهل: قلوب المؤمنين يوم القيامة تشرق بتوحيد سيدهم والاقتداء بسنة نبيهم ﷺ.

قال القاسم: أشرقت الأرض بأولياء الله؛ فهم فيها أنوار الله ومواضع حججه وغياث عباده وملجأ خلقه.

وقال جعفر في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أهل الاستثناء محمد ﷺ وأهل بيته وأهل المعرفة.

قال بعضهم: هم أهل التمكين والاستقامة الذين استقاموا لله على بساط العبودية،

فمكَّن الله أسرارهم لحمل الموارد.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾: في هذه الآية سرٌّ لطيفٌ، ذكر الله سبحانه وصف غبطة الملائكة على منازل الأولياء والصديقين، وذلك قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ أي: أنتم في مشاهدة جماله أبدًا طيبون بلذة وصاله، سالمون عن الحجاب أبدًا، وأيضًا هذا سلام الله ولكن بالواسطة، والسلام الخاص بعد دخولهم في الحضرة بقوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾.

قال ابن عطاء: السلام في الجنة من وجوهٍ: منهم من يسلم عليهم خزنة الجنة، ومنهم من يسلم عليهم الملائكة، ومنهم من يسلم عليهم الحق لقوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾: هذا حمدٌ بعد الوصول، وثناءٌ عليه بعد مشاهدة وصاله من فرح وجدان مواعده الجليلة ومواهبه السنية، حمدوه بعدما وجدوه بألسنة ربانية ملتبسة بنور مدحه، استعاروا لسان المدح من الحق، فأثنوا به على الحق، وإلا كيف يحمدونه بألسنة حدثية معلولة قاصرة عاجزة؟!

قال ابن عطاء: إن العبيد إذا شاهدوا في المشهد الأعلى آثار الفضل وما أنعم عليهم من فنون النعم التي لم تكن يبلغونها بأعمالهم: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ بفضله من غير استحقاقٍ منا لذلك، بل فضلاً وجودًا وكرمًا.

وقال جعفر الصادق: هو حمد العارفين الذين استقروا في دار القرار مع الله، وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾: حمد الواصلين.

وقال أيضًا: نظروا في الدنيا من الله إلى الله، وإلى موعوده واثقين في الله، ساكنين إلى ما أعدَّ الله لهم.

قال سهل: منهم من حمد الله على تصديق وعده، ومنهم من حمده لأنه يستوجب الحمد في كل الأحوال لما عرف من نعمه وما لا يعرفه.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾: هذا خطابٌ مع النبي ﷺ حين كان يمر على الصفائح الأعلى فوق الملكوت رأى حراس المملكة طائفين حول العرش بالتحميد والتسبيح والتمجيد والتقديس، يحمدون الله على إنجاز وعده لأهل محبته وشوقه، وبما لحق بهم من بركات العاشقين عند شروق أنوار المشاهدة وعند إقرار المتحققين من المدعين، فلما وصل الكل إليه يحمدونه بحمده إذ هم يحتاجون إلى حمده، وهو محمود بحمده القديم، لا يختلط حمده بحمد الحامدين، وذلك قوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

وقال أبو علي الجوزجاني: ما تقرَّب أحدٌ إليه إلا بالافتقار والعبودية والتذلل والتنـزيه له من كل ما نسب إليه مما لا يليق به؛ ألا ترى إلى مواضع الملائكة يحفُّون بالعرش يسبحون؟! وذلك عبادتهم وتنـزيههم.

سورة غافر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ

وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾».

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ «الحاء» عين جنات الأزل، و«الميم» مناهل المحبة الخاصة الصفاتية الأبدية، ومن خصه الله بقربه سقاه من عين حياته حتى يكون حيًّا بحياته لا يجري عليه بعد ذلك طوارق الفناء؛ لأن الحق إذا تجلى من حياته التي هي صفته الأزلية لروح قدسي يخرجها من ضرر الفناء والموت؛ لأنه هو محل الاتصاف بصفته، وصفاته ممتنعة من تغاير الحدثان، قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ثم سقاه من منهل محبته فيصير سكران شوقه وعشقه والهًا بجمال وجهه، لا يمنعه من ذلك الأكوان بأسرها، فمن حيث الحياة يحيي العالم بأنفاسه الربانية مثل عيسى ﷺ، ومن حيث المحبة يطيب بجماله قلوب الخلائق أجمعين حتى يشتاقوا من النظر إليه إلى جمال الحق مثل محمد ﷺ، ثم ينطق من جاء الحياة بعبارات الحكمة، ومن ميم المحبة من إشارات العلوم المجهولة التي لا يعرفها إلا الواردون على مناهل القدم والبقاء، ومعنى قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذان الحرفان اللذان هما مطيتان أحمالها مظنات هذه المعاني المنزلة من عند الله الحي القيوم الملك المهيمن العزيز المتكبر العليم الحكيم إلى الحبيب المحب الذي هو وسيلة الحق من الحق إلى الحق، والسفير منه إلى عباده وأحبائه ومشتاقيه أي: من الله الذي ألوهيته عزيزة ممتنعة عن مطالعة الخليقة الغالبة على كل ذرة من العرش إلى الثرى، عالم ببطون

الغيوب ومضمرات القلوب وحركات الأرواح وعلل الأشباح، يعز العارفين بعزته، ويشوق المحبين إلى جمال مشاهدته بمحبته الأزلية التي سبقت في الأزل لأهل خالصته، أنـزل هذا التنـزيل إلى سيد المرسلين، وإمام العالمين ليبشر بنـزوله أهل نـزل مواهبه السنية، ومعارفه المقدسة، وليفرح فؤاد المهتمين على ما جرى عليهم خطرات الامتحان، وهواجس النفس، والشيطان بقوله: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ يستر ذنوب المذنبين بحيث يرفع عن أبصارهم حتى ينسوها ويقبل عذرهم حين افتقروا إليه بنعت الاعتذار بين يدي ربه.

﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لا يرجع إلى المآب بأن عذبه بذل الحجاب.

﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ لمن أفنى نفسه لنفسه، وطوله طول كشف جماله في أوقات الواردات والمواجيد، من خصه بالقرب والجمال، ثم وصف نفسه بالتنـزيه والتقديس، ونفى الأنداد والأضداد في ربوبيته وغفران عباده، وتعذيب عصاته بقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾ إليه يرجع كل مشتاق، وكل عارف محب عاشق، يقبل منهم عذرهم في تقصيرهم في العبودية، وقلة عرفانهم حقوق الربوبية، هو مصدر الكل، ومصير الكل مصادر القدم ومعادنهم، لا العدم، فإن العدم لا شيء في شيء، وهو موجد الأشياء بلا علل ولا حيل، ثم من غيرته يعدم الكل حتى لا يبقى في ساحة الكبرياء أهل الفناء، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨].

قال سهل في قوله: ﴿حمٓ﴾: الحي الملك، وفي قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: هو الذي أنـزل عليك الكتاب، وهو الله الذي ولهت به قلوب العارفين، والعزيز من درك الخلق العليم بما أنشأ وقدر، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾: أي: ساتره على من يشاء، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾: أي: ممن تاب إليه، وأخلص العمل بالعلم له، ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾: ذي الغنى من الكل.

قال بعضهم: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾: كرمًا، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾: فضلاً، ﴿شَدِيد ٱلْعِقَابِ﴾: عدلاً، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: فردًا، ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾: تصديقًا للوعد.

قال بعضهم: غافرًا لذنب المذنبين، وقابلاً توبة الراجعين، شديد العقاب على المخالفين، ذي الطول على العارفين.

قال الأستاذ: غافر الذنب لمن أصر وأجرم، وقابل التوب لمن أقر وندم، وشديد العقاب لمن جحد وعند، وذي الطول لمن عرف ووحد.

قوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي: ما يخاصم في هذه الإشارات التي رمز الحق فيها من غوامض علومه الإلهية إلا أهل التقليد من المنكرين.

قال سهل: هو المجادلة في الذات دون الفروع.

وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: ابتدعوا غير الحق.

قال الخواص: ما كانت زندقة، ولا كفرًا، ولا بدعةً، ولا جرأةً في الدين، إلا من قبل الكلام، والجدال، والمراء، والعجب، وكيف يجترئ الرجل على الجدال والمراء، والله يقول: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ وصف الله عراف ملائكته الذين ألبسهم الله قوة جبروته، ونور ملكوته، وهم اللاهوتيون يحملون كنز الأعظم بعظمة الله وقوته، والسكر من شراب قربه ومحبته، وفيض مشاهدته، يطيرون في هواء هويته بالأجنحة القدوسية، والرفارف السبوحية، مع مرآة الوجود، وكنوز الجود حيث يشاء الحق سبحانه من الأماكن والمشاهد، يسبحون مما يجدون منه القدس والتنزيه، حمدًا لأفضاله، وبأنه منزه عن النظير والشبيه، يؤمنون به في كل لحظة بما يرون منه من كشوف صفات الأزليات، وأنوار حقائق الذات التي تطمس في كل لمحة مسالك رسوم العقليات، وهم يقرون كل لحظة بجهلهم عن معرفة وجوده.

ثم بيّن أنهم أهل الرقة والرحمة والشفقة على أوليائه؛ لأنهم إخوانهم في نسب المعرفة والمحبة، يستغفرون لهم حين أقروا كلهم بأنه تعالى لا يدركه غوص الأوهام، ولا يحويه بطون الأفهام، سألوا غفرانهم لما جرى على قلوبهم من أنهم على شيء في معرفته: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ أوجدت الوجود برحمتك القديمة، وعلمك الأزلي حتى لا يخلو ذرة من العرش إلى الثرى من رحمتك وعلمك، وجعلت الكل مرآة لنفسك، تجليت منها لأهل الخضوع من العارفين تظهر أنوار جمالك منها لأهل رحمتك، وهم أهل المحبة والعشق والشوق، وتبرز منها بنعت الجلال والألوهية والقدم والبقاء لأهل المعرفة والتوحيد.

﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾ أي: اغفر للذين تابوا من وجودهم في وجودك، ورجعوا من دونك إليك، واستقاموا سبيل المعرفة بعظمتك وجلالك، وعجزهم عن إدراك عزتك بأنك تأويهم إلى أكناف قربك، وتريحهم من صولة جبروتك، بما تكاشف لهم من جمال سرمديتك، عجبت من رحمة الملائكة المقربين كيف تركوا المصرين على الذنوب عن استغفار هذه قطعة زهد وقعت في مسالكهم؟ أين هم من قول سيد البشر ﷺ حين آذوه قومه، قال: «اللهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون»[1].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٨٢)، ومسلم (٣/ ١٤١٣).

أعموا الأشياء بالرحمة ثم أخصوا منها التائبين، يا ليت لو بقوا على القول الأول، وسألوا الغفران للجميع التائبين والعاصين.

قال ابن عطاء في هذه الآية: من خلقوا مطيعين قائمين لله بالتسبيح والتنـزيه، يستغفرون لمذنبي المؤمنين، وهم غافلون عن الندم على ذنوبهم والاستغفار منها.

قال بعضهم: الطالب للمغفرة من يتبع الرشد، ويخالف نفسه ومراده.

وقال سهل في قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾: من الغفلة وأنسوا بالذكر واتبعوا سنة المصطفى ﷺ.

قوله: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾ يرفع درجات المريدين إلى الكرامات، ويرفع درجات المحبين إلى المشاهدات، ويرفع درجات العارفين إلى معرفة الذات والصفات، ويرفع أهل المواجيد إلى شهود الجمال، وأهل السلوك إلى مشهد العظمة والجلال، ويرفع الزاهدين إلى الجنان، ويرفع المنقطعين إليه إلى درجة الإيقان والعرفان، ويرفع النفوس بعد تقديسها بالمجاهدة والرياضة إلى جنته، ويرفع العقول إلى رؤية أنوار سلطانه في برهانه، ويرفع الأرواح إلى قرب مجالس الأنس، ويرفع الأسرار إلى مراقي القدس، ويرفع إليه سرًّا خالصًا من جميع الدرجات حتى لا يبقى بينه وبين الحق درجة، وصار أنوار الذات والصفات منازل شهوده فيكشف كل نور له فيغيب في الأنوار، ويفنى في الأسرار، ثم يفنى في البقاء، ويبقى الحق بالحق ولا فوق الحق إلا الحق، وهو فوق كل الدرجات بقهر الربوبية وسلطنة الكبرياء، وذلك قوله: ﴿ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ﴾ أي: ذو العرش الذي يحيط بجميع الكائنات، وهو أقل من خردلة في جلال عزة كبريائه ذكر العرش على حد العقول؛ لأن العقل لا يصل إلا إلى مثله وهناك عالم العقل فتستقر العقول هناك، وهو متعلق بأفعاله تعالى، والأفعال قائمة بصفاته، وصفاته قائمة بذاته، وذلك سر استوائه على العرش فجواب الاستواء قوله: ﴿ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ﴾ أي: مقهور لسلطان عزته، محتاج إلى لباس نور قدرته، مكون بإيجاده تعالى الله بذاته وصفاته عن أن يشهده الأماكن والجهات، هو منور بنور تجلي صفاته، وهو مرآة فعله يظهر منها مقدرات الآيات، وقضيات العلم والقضاء والقدر، وهو روح فعلي فوقه روح صفتي، وفوق تلك الروح روح ذاتي، وذلك تجلي الصفات، وتجلي الذات يلقى تلك الأرواح على من يشاء من خلقه، فروح الأفعال للمؤمنين، وروح الصفات للمحبين، وروح الذات للعارفين، وذلك قوله: ﴿ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ ﴾ فيقع الأمر على ما ذكرنا، فأمره فعله، وقوله وصفاته وذاته، فظهور نور الذات أمر خاص للأنبياء والمرسلين، وظهور نور الصفات أمر خاص لأهل المعرفة والتوحيد، ونور العقل أمر بديهي لأهل محبته والموقنين في رؤية آياته، فهؤلاء مخصوصون

بتلك الأرواح من حيث الوحي والرسالة والإلهام والحديث والكلام والكشف والعيان ليخوفوا العباد من المشهد العظيم، وبروز سطوات عظمة العظيم يوم المشاهدة ويوم المكاشفة ويوم المخاطبة حيث يلقى المحب المحبوب، والعاشق المعشوق، والعبد الرب، والعارف المعروف، والموحِد الموحَد، تعالى بقوله: ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ أي: يوم كشف اللقاء.

ثم وصف ذلك اليوم بقوله: ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ﴾ أي: يوم بروزهم في ميادين ملكوته، وصحارى جبروته، بارزون على مراكب النور في ميادين السرور، لو رأيت يا حبيبي هنالك زفرات الوالهين، وعبرات الشائقين، وشهقات المشتاقين، وغلبات المحبين، وعربدة العاشقين، وانبساط الصديقين، وسكر العارفين، وولـه الموحدين، وذلك عند كشف نقابه وظهور جمال وجهه تعالى، وهو يعلم أسرار الجميع لا يخفى عليه أحوالهم وأسرارهم، قال الله سبحانه: ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾، محيط بضمائرهم، ويعلم مراداتهم، فلما تمكنوا يرفع عن أبصارهم جميع الحجب، ويريهم سبحات جمال القيومية، فيفنى فيها الأولون والآخرون، فلما سكنت الأرواح، وهدأت الأصوات، ولا يبقى إلا حي قيوم قديم، يقول بعزته: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي: أين المدعون في المعارف والتوحيد والمبارزة بالعربدة والانبساط في مقام المحبة؟ لمن البقاء السرمدي؟ ولمن الجلال الأزلي؟ ولمن الكبرياء القدمي؟ أين أصحاب الأنانية؟ فأخرس الكل، وأفنى الكل، فيجيب نفسه إذ يستحق بجواب خطابه إلا هو؛ فيقول: ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ الواحد في وحدانيته، القهار في فردانيته، ثبت نسبة الوحدانية إذ الكل مبهوتون في غشاوة التفرقة، القهار من حيث قهر الجمهور، ولا يبقى عند سطوات عظمته أحد من خلقه، فلما أوجدهم من صعقات الفناء؛ يجازي الكل على قدر مقاماته، يجازي الزاهدين بالجنة، ويجازي العابدين بالدرجة، ويجازي المحبين بالمشاهدة، ويجازي المشتاقين بالمكاشفة، ويجازي العارفين بالوصلة، ويجازي الموحدين بمطالعة سر الأولية والآخرية، قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي: من هموم فراقه، ومقاساة بلائه، ودوام الحزن في عبوديته، والكآبة في خدمته، وانتظار الفرج من سجنه؛ فهذه المقاساة عقوباته وبلاياه التي امتحنهم بها في الدنيا، فيرفع الله بذلك عنهم أبد الآبدين، ويفرغ على الجميع من بحار كرمه سيول الرحمة والإنعام، ولا يبقى ذرة من بلائهم إلا وهو يجازيه بحسن صحبته، وكشف نظارة وجهه، تعالى الله عن التشبيه، وقال الله تعالى: ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ سرعة حسابه تعالى أن لو كان مثل ما خلق ألف ألف مرة، وبكل ذرة منها عالم، وفيه على قدر كل ذرة خلق، وهم يعملون على أضعاف ما عملوا، فيريهم جميع

ذلك في أقل لمحة، بحيث هم يعرفونها ويرونها ثم يجازيهم بأقل من لمحة، وهو قادر بذلك، وهاهنا أن يسأل عنهم أعمالهم؛ فيغفر لهم ذنوبهم في أقل من لمحة، وهو غفور شكور رحيم ودود.

قال سهل في قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: يرفع درجات من يشاء بالمعرفة به.

وقال في قوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾: أي: ينـزل الوحي من السماء بأمره.

وقال ابن عطاء: يرفع درجات من يشاء في الدارين، فيجعله عزيزًا فيها، والعرش إظهارًا لقدرته، لا مكانًا لذاته.

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ على ضروب، فمن ألقى إليه روح الصفا أنطقه بها وأحياه حياة الأبدي، والروح روحان؛ روح بها حياة الخلق، وأخرى لطيفة بها ضياء الحق.

وقال فارس: زين العرش بأنوار ذاته؛ فلا يوازيه شيء، ولا يقابله مثل.

وقال الحسين: العرش غاية ما أشار إليه الخلق.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾: حياة الخلق على حسب ما ألقى إليهم من الروح؛ فمنهم من ألقى إليه روح الرسالة، ومنهم من ألقى إليه روح النبوة، ومنهم من ألقى إليه روح الصديقية، ومنهم من ألقى إليه روح الشهادة، ومنهم من ألقى إليه روح الصلاح، ومنهم من ألقى إليه روح العبادة والخدمة، ومنهم من ألقى إليه روح الهداية، ومنهم من ألقى إليه روح الحياة فقط فهو ميت في الباطن، وإن كان حيًّا في الظاهر.

وقال جعفر: يخص من يشاء من عباده بترويح سره بمعرفته، وتزيين نفسه بطاعته.

وقال الأستاذ: روح هو روح الإلهام، وروح هو روح الإعلام، وروح هو روح الإكرام.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾: لولا سوء طباع الجهَّال، وقلة معرفتهم لما ذكر الله قوله﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ فإن الملك لم يزل ولا يزال له، وهو الملك على الحقيقة، ولكن لما جهلوا حقه، وحجبوا عن معرفته في الدنيا، وشاهدوا الملك وحقيقته ألجأهم الاضطرار إلى أن قالوا: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

وقال: الواحد الذي بطل به الإعداد، والقهار الذي قهر الكل على العجز بالإقرار له بالعبودية طوعًا وكرهًا.

قال جعفر: أخرس المكونات ذوات الأرواح عن جواب سؤاله في قوله: ﴿لِّمَنِ

﴿ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، فلم يجسر أحد على الإجابة، وما كان بتحقيق أن يجيب سؤاله سواه، فلما سكنت الألسن عن الجواب أجاب نفسه بما كان يستحق من الجواب؛ فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ﴾: من طالع من نفسه أفعاله وأذكاره وطاعته جُزي على ذلك، ولا ظلم عليه فيه، ومن طالع فضله ومنه أسقط عن درجة الجزاء على مقام الأفضال والرحمة بقوله: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٌ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس: ٥٨].

وقال أبو بكر بن طاهر: يريك جزاء كسبك، وما تستحق بذلك، لترى بعد ذلك محل الفضل والكرم.

قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ وصف الله خيانة العيون وخفايا الصدور، وقال: لا يخفى عليَّ منها شيء، وذلك أن العين باب من أبواب القلب، فإذا رأت العين شيئًا يكون حظ القلب منه، يعلم ذلك نفسه فيطلب الحظ منه، ومن القلب إلى العين باب يجري عليها حركة هواجس النفس تحثها على النظر إلى شيء فيه لها نصيب، فإذا تحققت ذلك علمت أن خيانة العين متعلقة بما تخفي الصدور، وإذا كان العارف عارفًا بنفسه ويروضها برياضات طويلة، ويقدسها بمجاهدات كثيرة، ويزمها بزمام الخوف، وآداب الشريعة، صارت صافية من حظوظها، فبقيت في سرها جلتها على الشهوات، ففي كل لحظة يجرى في سرها طلب حظوظها، ولكنها سترتها على العقل وأخفتها، عن الروح من خوفهما، فإذا وجدت الفرصة خرجت إلى روزنة العين، فتنظر إلى مرادها، وتسرق حظها من النظر إلى المحارم، وذلك النظر خفي، وتلك الشهوة خفية، وصفهما الله سبحانه في هذه الآية، واستعاذ منها النبي ﷺ حيث قال: «أعوذ بك من الشهوة الخفية»[1].

وقال أبو حفص النيسابوري: زنا العارف نظره بالشهوة، وافهم واسمع حقيقة ذلك أن الروح العاشقة إذا احتجبت عن مشاهدة جمال الأزل تنقبض وتطلب حظها، ولا تقدر أن تنظر إلى، الحق فتطلب ذلك من صورة الإنسانية التي فيها آثار الروحانية، فتنظر من منظره إلى منظر العقل، ومن منظر العقل إلى منظر القلب، ومن منظر القلب إلى منظر النفس، ومن منظر النفس إلى منظر الصورة، وتنظر من العين إلى جمال المستحسنات، لينكشف لها ما يستر

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٢٥).

عنها من شواهد الحق، فتذهب النفس معه وتسرق تحته حظها من النظر بالشهوة، فذلك النظر منها غير مرضٍ في الشرع والطريقة.

وفي سر الحقيقة نظر الروح إلى الحق بالوسائط أيضًا خيانة، وخيانته في الصدر ألا يصبر في مقام القبض ليجري عليه أحكام الحقيقة، ثم ينكشف له عالم البسط، فنبهنا الله بهذه الآية أنه يعلم بعلمه القديم هذه الخفايا ولا يستحسن.

قال أبو عثمان: خيانة العين هو ألا يغضها عن المحارم، ويرسلها إلى الهوى والشهوات.

وقال أبو بكر الوراق: يعلم من يمد عينه إلى الشيء معتبرًا، ومن يمدها لإرادة وشهوة.

وقال الأستاذ: خيانة أعين المحبين استحسانهم شيئًا، ولهذا يقال:

بمنظرٍ حسنٍ مُذ غبتَ عَنْ عيني ... يا قرةَ العينِ سلْ عيني هل اكتحلتْ

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ سبيل الرشد طريق المعرفة، ومعرفة الله موافقة الله، ومتابعة الأنبياء والأولياء، ولا يحصل الموافقة إلا بترك مراد النفس، لذلك قال: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾.

قال محمد بن علي الترمذي: لم تزل الدنيا مذمومة في الأمم السالفة عند العقلاء منهم، وطالبوها مهانون عند الحكماء الماضية، وما قام داعٍ في أمة إلا حذَّر متابعة الدنيا وجمعها والحب لها.

ألا ترى إلى فرعون كيف قال: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ كأنهم قالوا: وما سبيل الرشاد؟ قال: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: لن تصل إلى سبيل الرشاد، وفي قلبك محبة الدنيا، وطالبًا لها.

﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ

ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ مرد العارفين إلى الله بالتفاوت، ومرد المؤمنين إلى الجنة، ومرد المحبين إلى المشاهدة، ومرد العارفين إلى الوصلة، ومرد الكل إلى قضيات الأزلية.

وقال حمدون القصار: لا أعلم في القرآن آية أرجى من قوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛

فقد حُكي من بعض السلف أنه قال: الكريم إذا قدر عفا، وإنما يكون مرد العبد إلى ربه إذا أتاه على حد الإفلاس والفقر، لا أن يرى لنفسه مقامًا في إحدى الدارين، وهو أن يكون في الدنيا خاشعًا لمن يذله، ولا يلتفت إليه هاربًا ممن يكرمه ويبره، ويكون في الآخرة طالبًا للفضل، مشفقًا من حسناته أكثر من إشفاق الكفار من كفرهم.

قوله تعالى: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: أفوض أمري في الدنيا والآخرة إلى الله فهو بصير بعجزي وضعفي عن رد القضاء والقدر، وكمال التفويض ألا يرى لنفسه، ولا للخلق جميعًا قدرة على النفع والضر، ويرى الله إيجاد الوجود في جميع الأنفاس بنعت المشاهدة والحال لا بنعت العلم والعقل.

وقال بعضهم: التفويض قبل نـزول القضاء، والتسليم بعد نـزول القضاء.

وقال ذو النون حين سُئل عنه: متى يكون العبد مفوضًا؟ قال: إذا آيس من فعله ونفسه، والتجأ إلى الله في جميع أحواله، ولم يكن له علاقة سوى ربه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ نصرة الرسل بالعرفان، ونصرة المؤمنين بالإيقان، وأيضًا نصرة الرسل بالوحي، ونصرة المؤمنين بالإلهام، وأيضًا نصرة الرسل برؤية الصفات، ونصرة المؤمنين برؤية الآيات، نصرتهم يوم الإشهاد على وفق سرهم في المعرفة؛ فنصرة الرسل الوصلة، ونصرة المؤمنين المشاهدة، نصرهم على كل شيء يكاد يحجبهم عن المشاهدة في الدنيا والآخرة.

وقال جعفر: ينصر رسلنا بالمؤمنين ظاهرًا، وينصر المؤمنين بالرسل باطنًا.

وقال سهل: أكرمهم بالمعرفة والعلم، ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ بالرضا والرؤية.

وقال يحيى بن معاذ: لم يرض بما ضمن لهم من النصرة في الدنيا حتى ضمن لهم النصرة في القيامة، ومن كان الله ناصره في الدنيا والآخرة؛ فلا سوء عليه.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ ظلمهم وضع المعذرة في غير موضعها؛ فإن معذرتهم أن يكون في الدنيا لا في الآخرة، وظلمهم أيضًا عدولهم عن الحق إلى الحق، يا ليت لو كان لهم عناية الأزلية التي تؤثر في الإحسان جميعًا، ومن لم يكن له سوابق القدم بنعت العناية لم يؤثر فيه الأعمال والأوقات.

قال بعضهم: يؤثر في العباد السوابق على الأوقات، ولو كان للوقت أثر لنفع الظالمين معذرتهم، فلما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ علمت أن السوابق هي المؤثرة لا الأوقات.

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ أي: فاصبر في بلائنا؛ فإن النصر مع الصبر، وإن الظفر مع تحمل البلاء، وإن وعد كشف الجمال الأزلي من الله لك ولمحبتك حق، واستغفر لما جرى على قلبك من أحكام البشرية، وأيضًا استغفر لوجودك في وجود الحق، فإن كون الحادث في كون القدم ذنب في إفراد القدم عن الحدوث، وأيضًا استغفر من وقوفك على مقامك بين يديَّ، فإن الوقوف في ميادين الآزال والآباد ذنب لسُلاَّك المحبة، ونـزهني وقت إشراق أنوار شمس وجودي لك من أن تدركني بالحقيقة، وحمدني ومجدني حين تغيب عنك، وبقيت في الصحو من السكر.

سُئل بعضهم: الصبر على العافية أشد أم على البلاء؟ فقال: طلب السلامة في الأمن أشد من طلب السلامة في الخوف.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي: ادعوني في زمان الدعاء الذي جعلته خاصًا لإجابة الدعوة، فادعوني في تلك الأوقات، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ فإن وقوع الإجابة فيها حقيقة بلا شك، ومن لم يعرف أوقات الدعاء فدعاؤه ترك أدب؛ فإن الدعاء في وقت الاستغفار من قلة معرفة المقامات، فإن السلطان إذا كان غضبان لا يسأل عنه، وإذا كان مستبشرًا فيكون زمانه زمان العطاء والفضل، ومن عصى السلطان، ويسأل منه شيئًا فيضرب عنقه، ومن يطع السلطان ثم يسأل؛ فإنه أجدر أن يعطيه مأموله، وأيضًا ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ في وقت غليان قلوبكم بالشوق إلى لقائي، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بكشف جمالي، وأعطيكم مأمولكم لذلك قال ﷺ: «ادعوا الله على رقة قلوبكم».

وأيضًا ادعوني بلا سؤال ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بلا محال، فإنك إذا شوقت إلى جمالي تدعوني لنفسي، فوجب من حيث الكرم أن أجيب لك بنعت مرادك، فإنك إذا سألت شيئًا لم تدعني بل دعوت مرادك.

قال بعضهم: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ بلا غفلة، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بلا مهلة.

قال الوراق: ادعوني على حد الاضطرار والالتجاء حيث لا يكون لكم مرجع إلى سواي ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وقال محمد بن علي: من دعا الله، ولم يعمر قبل ذلك سبيل الدعاء بالتوبة والإنابة وأكل الحلال واتباع السنن ومراعاة السر كان دعاؤه مردودًا، وأخشى أن يكون جوابه الطرد واللعن.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ أي: لتسكنوا في حضوركم بما تجدون من روح الملكوت، وتستنشقون نفحات الجبروت، وفي النهار تشاهدون أنوار صفاتي في آياتي.

قال بعضهم: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ إلى روح المناجاة، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ لتبصروا فيه بوادي القدرة.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أي: ﴿قَرَارًا﴾ لمراقبتكم، وطلب مشاهدتي وخدمتي، ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ لنظركم إلى ديوان ملكوتي، ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ بأن ألبستكم أنوار جلالي وجمالي وخلقي، وإيجادكم بنفسي، ونفخت من روحي فيكم الذي حسن الهياكل من حسن الهياكل من حسنه، ومن عكس جماله؛ فإنه مرآة نوري أتجلى منه للأشباح أرزاقه ذكره، وصفاء كشوف أنواره للأرواح والعقول، فقوت النفوس من أفعاله، وقوت القلوب من صفاته، وقوت الأرواح من ذاته، وهو أحسن الأرزاق، إذ قامت به حقائق المحبة ولطائف المعرفة، ودقائق التوحيد.

ألا ترى إلى رمز الحق فيه بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ ﴾ ثم نـزَّه نفسه عن الأشكال والأبعاض والحلول في الأماكن بقوله: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ من بركته وجود العالمين، ومن تربيته تكونت الخلائق أجمعون.

قال أبو سليمان: القرار لمن استقر على طلب الموافقة، واجتنب التخطي إلى المخالفة.

قال بعضهم: جعل الأرض قرارًا لأوليائه، والسماء بناءً لملائكته.

ثم زاد في وصف عزته وجلاله، وحياته الأزلية، وبقائه الأبدي بقوله: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ بيَّن أن الحياة الحقيقية القدمية له لا لغيره؛ إذ حييت بحياته الأرواح والأشباح، وبه قامت الكائنات والحوادثات، لا بذواتها تجلى من حياته للعدم، فأوجد الكل حيًّا بحياته.

ثم نفى عن الكل الألوهية، ونفى الحياة الأزلية عن الكل في إفراد قدمه عن الكون بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ثم أمر العباد بالعبودية الخالصة له، والتضرع إليه بقوله: ﴿ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي: مخلصين عن النظر إلى الأكوان في مشاهدة الرحمن.

ثم حمد نفسه ألا يعرفه أحد سواه بقوله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ بألا

يعرفني غيري.

قال الواسطي: هو الذي أحيا القلوب بفوائد أنواره، وسواطع عزته عن هواجس الهياكل، وظلمات الأجسام.

وقال الحسين: هو الذي أحيا العالم بنظره؛ فمن لم يكن به وبنظره حيًّا؛ فهو ميت، وإن نطق أو تحرك.

وقال الجنيد: الحي على الحقيقة من به حياة كل حي.

﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا

سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ بيَّن أن مراد الحق سابق على كل مراد لا تتغير سوابق مقاديره، فإذا جاء ما قد يظهر حقيقة القضية الأزلية.

قال الواسطي: من ذكر القسمة، وما جرى له في السبق ينقطع عن السؤال والدعاء، ويعلم أن المقضي كان من الحق وبالحق.

قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ آياته أنبياؤه وأولياؤه، وهم أعظم الآيات، إذ يتجلى الحق من وجوههم بنعت العزة والكبرياء للعالمين، وأي منكر أعظم ممن ينكر على هذه الآيات الساطعة، والبراهين الواضحة.

قال سهل: أظهر آياته في أوليائه، وجعل السعيد من عباده من صدقهم في كراماتهم، وأعمى أعين الأشقياء عن ذلك، وصرف قلوبهم عنهم، ومن أنكر كرامات الأولياء؛ فإنه ينكر قدرة الله، فإن القدرة تظهر على الأولياء بالآيات لا هم بأنفسهم يظهرونها، والله يقول: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ بيَّن الله سبحانه أنه لا ينفع إيمان المنكرين أولياءه وأنبياءه عند معاينة جزاء إنكارهم؛ فإنه بجلاله وعزته منتقم لأوليائه من أعدائه.

قال سهل: السنة مشتقة من أسماء الله: السين سناء الله، والنون نور الله، والهاء هداية الله، بقوله: ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ أي: فطرة الله التي جبل عليها خواص عباده هداية منه لهم؛ فهم على سنن الطريق الواضح إليه.

سورة فصلت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾: معنى الحاء والميم أن هذا الخطاب وهذا التنزيل من الحبيب الأعظم إلى المحبوب الأعظم، وأيضًا هو قسمٌ أي: بحياتي ومجدي هذا التنزيل نزل من عين الرحمانية الرحيمية الأزلية الأبدية، نزل برحمتي على عبادي ومحبتي لهم، وأيضًا بحياتك ومشاهدتك يا حبيبي ويا محبوبي هذا تنزيل أنزلت إليك بالرحمة

والكرم عليك وعلى أمتك.

قال سهل في قوله: ﴿حمٓ﴾: قضى في اللوح المحفوظ وكتب فيه ما هو كائن.

وقال الأستاذ: أي: بحقي وحياتي ومجدي في ذاتي وصفاتي إن هذا تنـزيل من الرحمن الرحيم.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: بشيرًا لمن أقبل إلى الله بنعت الشوق، وطلب معرفة جلاله وجماله، وكشف لقائه أن مأمولهم حصل لهم، ونذيرًا لمن أعرض عنه، وأقبل إلى نفسه، وينظر إلى طاعته ومعاملته، وأيضًا بشيرًا للأولياء بنيل المقامات، ونذيرًا لهم يحذرهم من المخالفات لئلا يسقطوا من الدرجات.

قال محمد بن علي: بشيرًا بمطالعة الرجاء، ونذيرًا بمطالعة الخوف.

وقال سهل: بشيرًا للعاصين بالغفران والشفاعة، ونذيرًا للمطيعين؛ ليستعملوا آداب السنن في طاعتهم.

قال الأستاذ: بشيرًا لمن اخترناهم واصطفيناهم، ونذيرًا لمن أغويناهم وعن شهود آياتنا أعميناهم.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: قلوبنا في أكنان قهريات الأزليات وفي بطش جبروت العظمة ألقتها في غيابات الغيِّ وظلمات الريب، وأبعدتها عن مشاهدتك وما أخبرتنا من أحكام العبودية وأنوار الربوبية، وفي آذاننا وقرا لضلالة وغشاوة الغفلة، لا تسمع خطاب الخاص بفهم الخاص وسمع الخاص، وبيننا وبينك حجاب الشقاوة وغطاء الغباوة والغواية.

قال سهل: أي: قلوبنا في أغطية الإمهال، فمالت إلى الشهوة والهوى، ولم تسمع داعي الحق، وفي آذاننا وقر أي: بها صمم من الخير، ولا يسمع هواتف الحق.

وقال بعضهم: قلوبهم في حجاب من دعوة الحق، وأسماعهم في صمم من نداء الحق، كلَّت ألسنتهم عن ذكر الحق، وجعل بينهم وبين الحق حجاب الوحشة، وهو الحجاب الذي لا يُرفع أبدًا.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ

وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: استقيموا في إقبالكم إليه بنعت التفريد عن الأكوان والحدثان وعن وجودكم، واصبروا في ساحة كبريائه حين شاهدتم أنوار عظمته وجلاله حتى يجري عليكم أحكام الفناء في بقائه وقميص الاستقامة لم يحظ للحدثان، لذلك قال ﷺ: «استقيموا ولن تُحصوا»[1]، وقال «شيَّبتني هودٌ وأخواتُها»[2]؛ لما فيه من قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، فإذا وقع عليكم العلم بمعرفته فاستغفروه من إدراككم وعلمكم به ومعاملتكم له ووجودكم في وجوده؛ فإنه تعالى أعظم من درك الخليقة، وتلاصق الحدثان بجناب جلاله.

قال بعضهم: الاستقامة مساواة الأحوال مع الأفعال والأقوال، وهو ألا يخالف الظاهر الباطن والباطن الظاهر، فإذا استقمت واستقامت أحوالك فاستغفر من رؤية استقامتك، واعلم أن الله هو الذي قوَّمك لا أنك استقمت.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ١٠١)، وأحمد (٥/ ٢٧٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ١٤٨)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٢٤٧).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾: يوم القضاء ويوم القدر ويوم الأمر، والقول ويوم الظاهر والباطن أي: تجحدون من أوجد سبع أرضين في يومين لكم، وتكفرون نعمته، وتقبلون إلى غيره.

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: صاحب هذه النعم، ثم زاد ذكر نعمته عليهم بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾: رواسي أوتاد الأرض من الأولياء، مشرفون على قلوب الخلائق بسر من الله معهم، ونور منه في قلوبهم، ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بإظهار آياته فيها، وخلق منافع الكل فيها، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾[1]: أرزاق الخلائق بكل خلق منهم عنده رزق، فرزق الروحانيين المشاهدة، ورزق الربانيين المكاشفة، ورزق الصديقين المعرفة، ورزق العارفين التوحيد، ورزق الأرواح الروح، ورزق الأشباح الأكل والشرب، وهذه الأقوات تظهر من الحق لهم في هذه الأرض التي خلقت معبدًا للمطيعين ومرقدًا للمقبلين وقبرًا للعارفين، ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾: يوم ظهر نور الفعل العام، ويوم ظهر نور الفعل، ويوم ظهر نور الصفة، ويوم ظهر نور الذات، الأول: نور الإرادة، والثاني: نور المشيئة، والثالث: نور القدرة، والرابع: نور القضاء والقدر، فنور الأفعال بركةٌ على الأشباح، ونور الفعل الخاص بركةٌ على القلوب، ونور الصفة بركةٌ على العقول، ونور الذات بركةٌ على الأرواح؛ فأقواتها على مقادير تلك البركات، وهذان اليومان مع الأول أربعةٌ، ثم بيَّن أنه تعالى قدَّر هذه المقادير فيها على سنن مستوية بقوله: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾، لا يزيد الرزق بالسؤال ولا ينقص، وفيه تأديبٌ لمن لم يرض بقسمته، وبيَّن أن ما سبق منه في الأزل من السعادة والشقاوة لا يتغير بجهد الجاهدين وسؤال السائلين، بل جفَّ القلم بما أنت لاقٍ، ثم ذكر صنيعه المبارك في تسويته السماء وتزيينها بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، بسط نور قدمه عليها، فسوَّاها سبع سماواتٍ، كما بسط نور قدرته على الأرضين، فلما أدخل في السماوات والأرضين روح فعله وكساها نور قدرته وقهرهما بجبروته دعاهما إلى خدمته، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: ائتيا من العدم إلى ساحة القدم، وائتيا بما قدرنا فيكما من أنوار فعلنا، ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ طوعًا: من حيث الحدوثية والعجز، أو كرهًا من حيث أنكما تعلمان أنكما لا

---

(١) أي: حكم أن يوجد فيها لأهلها ما يحتاجون إليه من الأقوات المختلفة المناسبة لهم على مقدار مُعين، تقتضيه الحكمة والمشيئة، وما يصلح بمعايشهم من الثمار والأنهار والأشجار، وجعل الأقوات مختلفة في الطعم والصورة والمقدار، وقيل: خصابها التي قسمها في البلاد. البحر المديد (٥/ ٣٩١).

تطيقان حمل وارد أمري وطاعتي بالحقيقة، فتشققا من قهري، ائتيا وإن أنتما خائفان من قهر سلطاني وبطش جبروتي، وأيضًا ائتيا طوعًا من حيث باشركما روح فعلي، فيقسمان على العجز، وائتيا كرهًا من حيث الحدوثية والعجز، أو كرهًا من حيث إن عليكما لباس ربوبيتي وما وجدتما من سر الألوهية ونظرتما إلى ذلك وظهور جرأتكما بنعت البقاء؛ فإن عليكما نور صفاتي، وأنتما خارجان من عز الربوبية، فائتيا وإن عليكما كسوة جباريتي حتى تكونا في جلال كبريائي أقل من خردلة، فلما سمعا خطاب الغيرة ولم يبق فيهما كره ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ في حمل أنوار ضيائك؛ حيث عجزنا عن حمل أمانتك وأنوار صفاتك التي حملها الإنسان، ثم بيَّن أن خلقهن أيضًا كان في يومين حتى يكون ستة أيام، كما قال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾، فأتمهن جميعًا في يومين: يوم أشرقت أنوار القدم عليها، ويوم طلعت شمس البقاء عليها، ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ بما أودعها من خزائن أسراره ولطائف أنواره وحقائق مقاديره التي لا يطلع عليها إلا من يكشف له منها شيئًا من الأنبياء والأولياء والملائكة، ثم خصَّ السماء الدنيا من بينهن بالزينة وشرف إلباسه إياها أنوار قدرته الخاصة، وأفعاله المقدسة من الشمس والقمر والنجوم بقوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾: زينها بأنوار الكروبيين كما زيَّن الأرض بالأنبياء والأولياء، أيضًا زيَّن سماء قلوب العارفين بشموس تجلي الذات وأقمار تدلي الصفات ونيرات سيادات أسرار الملكوت والجبروت.

قال سهل بن عبد الله في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾: أي: قضى خلقها في يومين، كما قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾.

وقال في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: استوى أمره على الأرض والسماء وما بينهما وما تحت الثرى.

قال ابن عطاء: استوى علمه فيها قرب منه وبعد إذ لا قرب ولا بعد.

وقال القاسم في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾: الرواسي الأجل من الأولياء الذين هم المشرفون على الخلق؛ لأنهم الخواص منهم وقيل في قوله: ﴿مِن فَوۡقِهَا﴾ أي: من فوق عامة الأولياء وأشرافهم نظرهم أصح وبركاتهم أعم ولا يشرف عليهم أحد إلا القطب الذي هو الواحد في العدد وبه قوام كل الأولياء والرواسي دونه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ قال: زيَّنا قلوب العارفين بأنوار المعرفة وجعل فيها مصابيح الهداية وضياء التوحيد.

وقال جعفر: زيَّنا جوارح المؤمنين بالخدمة.

وقال الجنيد: زيَّنا الجنة بنور مناجاة العارفين وزهرة خدمة العابدين.

قال الأستاذ في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾: الجبال أوتاد الأرض في الصورة، والأولياء أوتاد الأرض في الحقيقة، فبارك فيها البركة والزيادة، يأتيهم المطر ببركة الأولياء، ويندفع عنهم البلاء ببركتهم[1].

وقال في قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾: جعل نفوس العابدين أرضًا لطاعته وعبادته، وجعل قلوبهم فلكًا لنجوم علمه وشمس معرفته، فأوتاد النفوس الخوف والرجاء والرغبة والرهبة، وفي القلوب ضياء العرفان وشموس التوحيد ونجوم العلوم والعقول والنفوس والقلوب بيده، يصرفها على ما أراد من أحكامه.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: هذه الهداية ظهور برهان نبوة الأنبياء بالبراهين الساطعة والدلالات الواضحة بالظاهر، لكن لم يسبق لهم الهداية الأزلية، وبتلك الهداية تقبل هذه الهداية، فالسوابق تؤثر في العواقب، والعواقب لا تؤثر في السوابق، فكان جبلة القوم جبلة الضلالة، فمالوا إلى ما جُبلوا عليه من قبول الضلالة.

قال الواسطي: لحاجة ما سبق فيهم من شؤم الجبلة.

قال ابن عطاء: ألبسوا لباس الهداية ظاهرًا عواري، فتحقق عليهم لباس الحقيقة، فاستحبوا العمى على الهدى، فردوا إلى الذي سبق لهم في الأزل.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ

---

(١) وقال القشيري أيضًا: أي: جبالاً مرتفعات، وجعلنا بها الماء سقياً لكم، يُذكِّرهم عظيم مِنَّتِهِ بذلك عليهم. والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنَّته أنّه لم يخسف بكم الأرض، وإن عملتم ما عملتم (٨/ ١٧).

ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ﴾: من باشر المعصية تظهر آثارها على جوارحه، لا يقدر أن يسترها، ولو كان عالمًا بنفسه يستغفر في السر عند الله حتى تضمحل آثارها، ولا يرى من وجوده تلك الآثار صاحب كل نظر.

قال أبو عثمان الحيري: من لم يذكر في وقت مباشرته الذنوب شهادة جوارحه عليه يجترئ على الذنوب، ومن ذكر ذلك جَبُن عن مباشرتها، وربما تلحقه العصمة والتوفيق، فتمنعانه عنها.

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: فزيّن الكل النفس والشيطان، النفس تزين لهم الشهوات، والشيطان يزين لهم التسويف والإمهال، وهذا ما بين أيديهم وما خلفهم.

قال الجنيد: النفس لا تألف الحق أبدًا.

وقال ابن عطاء: النفس قرين الشيطان وإلفه ومتبعه فيما يشير إليها، مفارق الحق مخالف له لا تألف الحق ولا تتبعه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من طول الأمل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من نسيان الذنوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾: وصف الله أهل التمكين من العارفين الذين شاهدوا الله بالله، وعاينوه به، واستقاموا في محبته، فتعرضت لهم الأكوان

والحدثان، فرفعوا أبصارهم عنها، ولم يستحسنوها في ديوان المعرفة من النظر إلى الخلق والخليقة، وقالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: يكفينا الله من كل ما سواه، استقاموا بالله لله في الله؛ فإن عين الألوهية تحرق مطالعيها من العرش إلى الثرى، فإذا أراد الله استقامة المستقيمين من أهل شهوده ألبسهم أنوار بقائه وصمديته، فيسبحون بنور البقاء في بحار الأزليات الأبديات.

قال ابن عطاء: استقاموا على إفراد القلب بالله.

وقال أيضًا: استقاموا على المشاهدة؛ لأن من عرف الله شيئًا لا يهاب غيره، ولا يطالع سواه، فتركوا المنازعة والاعتراض مع الحق.

سُئل الشبلي عن هذه الآية، فقال: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هو خالقنا، فاستقاموا معه على بساط المعرفة، وداموا بأسرارهم على سرير الجنة، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ بانقطاع المدة ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ من دار الهوان، ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ على ما فاتكم من دار الامتحان، ﴿وَأَبۡشِرُواْ﴾ [1] بدوام النعيم، وهو لقاء الله تعالى الذي ليس بعده بؤس ولا شدة.

صدق الشيخ في هذا التفسير، وعجبت ممن استقام مع الله في مشاهدته وإدراك جماله كيف يطيق الملائكة أن يبشروه، أين الملك والفلك بين الحبيب والمحب ليس وراء بشارة الحق بشارة، فإن بشارة الحق سمعوها قبل بشارة الملائكة في نداء الأزل بقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾، ليس لهم خوف القطيعة، ولا لهم حزن الحجاب، وهم في بِشر مشاهدة الجبار، قول الملائكة معهم تشريف للملائكة ههنا؛ لأنهم يحتاجون إلى مخاطبة القوم، وهم أحباؤنا في نسب المعرفة من حيث الحقيقة ألا ترى كيف سجدوا أبانا قال الله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، هم أحباؤنا، ونحن أحباء الله، والله تعالى أحبنا في الأزل، واختارنا بالمعرفة والمشاهدة.

قال جعفر: من لاحظ في أعماله الثواب والأعواض كانت الملائكة أولياؤه، ومن تحقق في أفعاله وعملها على مشاهدة أمرها فهو وليه؛ لأنه يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

قال الأستاذ: استقاموا على دواء الشهود وعلى انفراد القلب بالله.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) قال محمد بن علي الترمذي: تتنزل عليهم ملائكة الرحمة، عند مفارقة الأرواح الأبدان، ألا تخافوا سلب الإيمان ، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان، وأبشروا بدخول الجنان، التي تُوعدون في سالف الأزمان. البحر المديد (٥/ ٤٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: ممن عرف الله بعد أن رآه وأحبه واشتاقه، وعشق به ودعا الخلق إليه من حيث هو فيه وصدقه في حاله، يدعو الخلق إلى الله بلسان الأفعال وصدق المقال وحلاوة الأحوال، ويذكر لهم شمائل القدم وخلق الربوبية، ويعرفهم صفات الحق وجلال ذاته، ويحبب الله في قلوبهم، وهذا عمله الصالح، ثم يقول بعد كماله وتمكنه إنني واحدٌ من المسلمين من تواضعه ولطف حاله خلقًا وظرافة، وإن كان إسلامه من قصارى أحوال المستقيمين.

قال سهل: أي: ممن دلَّ على الله وعلى عبادة الله وسنة رسول الله واجتناب المناهي وإدامة الاستقامة مع الله.

وقال حسن بن أبي الحسن البصري: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا خيرة الله، هذا أحب الخلق إلى الله، أجاب الله دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحـًا في إجابته، وقال إنني من المسلمين، هذا خليفة الله.

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: بيَّن الله سبحانه ههنا أن الخلق الحسن ليس كالخلق السيئ، وأمرنا بتبديل الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة، وأحسن الأخلاق الحلم؛ إذ يكون به العدو صديقـًا والبعيد قريبـًا، حين دفع غضبه بحلمه وظلمه بعفوه وسوء خاتمته بكرمه، وفي مظنة الخطأ أن من كان متخلقـًا بخلقه متصفًا بصفاته مستقيمًا في خدمته صادقًا في محبته عارفًا بذاته وصفاته ليس كالمدعي الذي ليس في دعواه معنىً.

قال ابن عطاء: لا يسوِّي بين من أحسن الدخول في خدمتنا والخروج منها وبين من أساء الأدب في الخدمة؛ فإن سوء الأدب في القرب أصعب من سوء الأدب في البعد فقد يصفح عن الجهَّال الكبائر، ويأخذ الصديقين باللحظ والالتفات.

وقال الأستاذ: أي: ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة يعني بالعفو عن المكافآت بالتجاوز والصفح عن الزلة.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: بيَّن الله

سبحانه ألا يبلغ أحدٌ إلى درجة الخلق الحسن وحسنات الأعمال وسيئات الأفعال إلا من يصبر في بلاء الله وامتحانه بالوسائط وغير الوسائط، ولا يحتمل هذه البليات إلا ذو حظٍّ من مشاهدته وذو نصيبٍ من قربه ووصاله، صاحب معرفة كاملة ومحبة شاملة، وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر الله، ثم الصبر في مشاهدة الأزل، فبالصبر الاتصافي والمشاهدة الأبدية والحظ الجمالي يوازي طوارق صدمات الألوهية وغلبات القهارية.

قال بعضهم: لا يطيق أحدٌ الهجوم على المعارف إلا من يصبر على احتمال النوائب والشدائد فيها، ولا يرى لنفسه قيمةً، ولا لروحه خطرًا؛ إذ ذاك يمكنه مجاورة المعارف والهجوم عليها.

وقال ابن عطاء: لا يوفق لجميل الأخلاق إلا الصابرون على خفض الخلاف.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: ما يوفق لهذا المقام إلا ذو حظٍّ من عناية الحق فيه.

قال ابن عطاء: ذو معرفة بالله وأيامه.

وقال الجريري: أي: ذو علم بالله، وذو فهم منه، وراجع إليه في كل أحواله، ثم داوى الحق سبحانه المتصبرين في احتمال البلاء، وعليهم جذب الصبر والتحمل بالاستعانة بعد طيران خطرات الشيطان على قلوبهم بقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾: علَّم حبيبه ﷺ كيف يدفع شرَّ الشيطان عن نفسه حين ألقاه سهم الغيرة عن كنانة مخائيله وحيله، وهذا تعليمٌ لأمته؛ إذ كان شيطانه أسلم على يده أي: فروا إلى الله إذا نـزغكم قهر الله يدفع عنكم شر الشيطان، ويؤويكم من قهره بلطفه، ألا ترى كيف استعاذ النبي ﷺ منه إليه بقوله: «أعوذُ بك منك»[1].

وقال بعضهم: من طرد الشيطان عن نفسه بنفسه فهو قرينه أبدًا، ومن طرده بالالتجاء إلى الله والاستعاذة به منه لم يجعل الله للشيطان عليه سبيلاً؛ فإن الله يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

وسئل أبو حفص: بماذا يتخلص المؤمن من الشيطان؟ قال: بتصحيح العبودية؛ ألا ترى الله يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

وقال الأستاذ: لا يتخلص العبد من نـزغات الشيطان إلا بصدق الاستعانة بالله وصدق الاستغاثة فيه.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى (١/ ٤٥٢).

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾: أظهر الليل؛ ليطلع على العاشقين صبح وصال جماله، ويؤنسهم إلى مجالس مشاهدته وحجال أنسه ورياض قدسه، وجعل النهار؛ لظهور أنوار صفاته في لباس آياته، وليشرفهم على رؤية نيرات ملكوته وجبروته، خلق الشمس والقمر مرآتين، يتجلى من مرآة الشمس للناظرين إليه والعارفين به من أنوار ذاته، ويتجلى من مرآة القمر للعاشقين من سنا صفاته، ثم حذرهم أن يلتفتوا إلى الوسائط، وحثَّهم على أن يرجعوا إليه بالكلية كالخليل في أوائل مقام الالتباس، ﴿قَالَ هَـٰذَا رَبِّى﴾، فإذا عزم الأمر وبلغ صرف الرؤية قال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

قال عبد العزيز المكي في هذه الآية: سبحان الذي من عرفه لا يسأم عن ذكره! سبحان الذي من أنس به استوحش من غيره! وسبحان الذي من أحبَّه أعرض بالكلية عما سواه! ثم أكد التخويف عليهم في وقوفهم على الوسائط، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾، وصف المتمكنين من الكروبيين والعارفين من أهل الملكوت بأنهم مستغرقون في بحار ربوبيته، يسبحون فيها بلذائذ الأذكار والأفكار لمزيد الكواشف وأنوار المعارف، يتجردون عن الأكوان والحدثان في جمال الرحمن، يستأنسون به، لا يسأمون منه؛ إذ الأنس والوحشة منفيان عن ساحة كبريائه، وهذا شكاية عن المحجوبين به عنه.

قال أبو عثمان: إن الله مستغنٍ عن عبادة عبيده ومجاهدتهم؛ فإن لله عبادًا من الملائكة لا يفترون عن عبادته دائمًا أثناء الليل والنهار، ولم يذكرهم، ولم يجعل لعبادتهم جزاءً ولا قيمةً.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ

وَرَبَتۡ﴾[1]: كل قلبٍ مستعدٌ لقبول وبل المحبة والمعرفة، فيكون بلا زرع الحكمة قبل نـزول مطر لطفه، فإذا وصل إليه بحر قرب الحق سبحانه اهتزَّ بنبات الحقائق والدقائق، وتبهج بنور الحكمة، والمقامات السنية، ورياض لطائف العلوم الإلهية التي نطق بها صاحبه بلسان الحق والحقيقة، فأحيا بعبارتها وتعبيرها القلوب الميتة والصدور الخامدة؛ فهو تعالى أحيا قلوب العارفين بنظره، وبنظر العارفين يحيى قلوب المريدين، وهم وسائل حياة القلوب من الحق للخلق، كما أحيا الأرض الميتة بالمطر أحيا بهم قلوب العالمين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾، فهذا المثل ضربه الله للمعتبرين بلطيف صنعه ونعيم لطفه.

قال عمرو بن عثمان المكي: إن لله تبارك وتعالى قلوبًا في أوعيةٍ من الأجسام أودع فيها ودائع، وأخفاها عن الخلق، فإذا أنـزل عليها مياه رحمته وبركات نظره استخرج ودائعه، فعرَّف القلوب محل تلك الودائع، وأظهر على النفس بركاتها، وألقى على الحق هيبة صاحبها، فهو في هيبةٍ عند الخلق وانكسارٍ عند نفسه وشفقة ونصيحة للخلق وخوف دائم من ذنوبه، وذلك من آيات الله الظاهرة، وهو حقيقة قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ﴾ أحيا تلك النفوس بتلك الودائع قادرٌ أن يحيى ببركة نظره قلوبًا غفلت عنه وأنفسًا ماتت عن القيام بخدمته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾: خَوف الله أهل الطامات الذين يديرون رؤوسهم عند العامة ويزعقون ويُخرِّقون ثيابهم، ويجلسون في الزوايا، ويتـزهدون، وينظرون في تصانيف المشايخ، ويتقوَّلون عليها ما يتخيلون، ويتزخرفون عند العامة، وينتظرون دخول الأمراء عليهم، ويدَّعون المكاشفة والأحوال والمواجيد، لا يخفى على الله كذبهم وزورهم وبهتانهم ونياتهم الفاسدة وقلوبهم الغافلة، وعلى أوليائه من الصديقين والعارفين الذين يرون خفايا قلوب الخلق بنور الله، لو رأيتهم كيف يفتضحون يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وترى أهل الحق ينظرون إلى الحق بأبصارٍ نافذةٍ نورية وأرواح شائقة وقلوب عاشقة، ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾، قال الله: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، ثم حذَّرهم بقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ من الفتاوى بغير علمٍ واستبداع الضلالة في دين محمد ﷺ، قال الله: ﴿وَلَا

---

(١) (اهتزّتْ) أي: تحركت (ورَبَتْ) انتفخت؛ لأن النبات إذا دنا أن يظهر ارتفعت به وانتفخت، ثم تصدّعت عن النبات، وقيل: تزخرفت وارتفعت بارتفاع نباتها، البحر المديد (٥/ ٤٠٧).

تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، ووصف النبي ﷺ هؤلاء الملحدين وشبههم بالفراعنة، وشبَّه قلوبهم بقلوب الذئاب، قال ﷺ: «يخرجُ في أمّتي أقوامٌ لسانهم لسانُ الأنبياء وقلوبهم كقلوب الفراعنة»(١)، وفي موضع آخر قال: «قلوبهم كقلوب الذئاب، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، أفتوا بغير علمٍ ضلُّوا وأضلُّوا»(٢).

قال أبو عبد الله بن جلا: معنى هذه الآية إن الذين يخبرون عنا على غير سبيل الحرمة فإنه لا يخفى علينا جرأتهم علينا، ونعذبهم في دعائهم.

وقال ابن عطاء في هذه الآية: إن المدعي عن غير حقيقة سيرى منا ما يستحقه من تكذيبه على لسانه وتفضيحه في أحواله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ۝٤٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾: عزيز من حيث امتنعت أسراره عن تفهم الأفهام وإدراك الأوهام؛ لأنه كنوز غيب الذات والصفات، وهو صفات الأزلية، مفاتيح كل صفةٍ، لا يدركه بالحقيقة عوض الفطن، ولا تحويه الخواطر والذهن، لا يزيله أباطيل الأولين ولا ترهات الآخرين؛ لأنه لا يحل في الحدثان، ولا يفارق عن ذات الرحمن، فإذا كان الحق موصوفًا به أزلاً وأبدًا فكيف تغيره الحوادث؟! وكيف تخلفه الأزمنة والدهور؟!

قال ابن عطاء: عزيز؛ لأنه لا يبلغ أحدٌ حقيقة حقه؛ لعزِّه في نفسه، وعزٌّ من أنـزله، وعزٌّ من أُنـزل عليه، وعزٌّ من خُوطب به من أوليائه وأهل صفوته.

وقيل: البعد أوهام العباد عن حقيقته.

قال ابن عطاء: كيف يأتيه الباطل وهو الحقيقة ونزل من عند الحق؟! وهو كلامه، فكيف يلحقه باطلٌ وبه تتحقق الحقائق، وبه تصحُّ أحوال المتحققين؟! وهو الحق على كل الأحوال، والباطل ضده، فكيف يجتمع المتضادان وهما متباينان من كل الوجوه؟!

قال أيضًا: كيف يكون لباطلٍ عليه سبيلٌ وهو من حقٍّ بدأ وإلى حقٍّ يعود؟! وهو

---

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه.

(٢) كسابقه.

الحق، فلا يتحقق به إلا محقٌّ.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[1]: هدى لعقول العارفين إلى معدنه، وهو ذات القديم، وشفاء القلوب العاشقين المشتاقين، وأرواح مرضى المحبة وسقمى الصبابة؛ لأنه حبيبهم، وكتاب مشوقهم، يستلذونه من حيث العبارات، ويعرفونه من حيث الإشارات.

وقال جعفر: شفاءٌ لمن كان في ظل العصمة، وعمىً على من كان في ظلمة الخذلان، فكما وصف الله أهل خالصته وما يقع لهم بخطابه وصف المنكرين كلامه والجاحدين وجوده بأن في آذان قلوبهم وأسماع عقولهم وقر الخذلان والضلالة، ولا يرون جمال خطابه بأن ليس في عيونهم أنوارٌ لحمل مشاهدته، ولا سنا عزِّ هدايته بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، إذا لم يروا جمال القرآن بنور الفهم والإيمان زاد طغيانهم بالإنكار عليه؛ لأنهم في مكان الضلالة، وهو بعيدٌ من أن يسمعوا بوصف الفهم والإدراك والمتابعة.

قال ذو النون: من واقر سمعه، وأصمَّ عن نداء الحق في الأزل، لا يسمع نداءه عند الإيجاد، وإن سمعه كان عليه عمىً، ويكون عن حقائقه بعيدًا، وذلك أنهم نودوا عن بعدٍ، ولم يكونوا بالقرب.

---

(١) الضمير للقرآن؛ يعني أن الله تعالى هدى مَن استعد للإيمان إلى الإيمان بسبب القرآن، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]؛ والمقصد هداية الله تعالى بسببه، فوصفه بصفته؛ لقوته في السببية.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾: وصف الله من لم يعرفه ولم يعرف لطائف برِّه بأوليائه ويكون مقلدًا في الدعاء ومعرضًا بسرِّه عنه وبظاهره عن طاعته ليس هو يدعوه بالحقيقة، إنما يدعو مراده، فإذا حصل مراده قام على تكلفه وتقليده، وإن لم يحصل مراده ويمسه بلاؤه يفرُّ منه، ولا يدعوه، ولو كان على محل التحقيق في دعائه ومعرفته بربه فإنه لا يفرُّ من بلائه، ولا يقنط من رحمته؛ فإن العارف الصادق يستلذُّ بلاءه، كما يستلذُّ نعمه في لسان الخلائق.

لنا فيه إشارةٌ؛ وذلك أن العارف المشتاق الذي من كمال شوقه يريد أن يشرب جميع بحار الأزل والأبد والربوبية والألوهية والذات والصفات المنـزهة عن مباشرة الحدثان بشرية واحدة وهو لا يقدر؛ لأنه تعالى منـزَّهٌ عن أن يحيط به أحدٌ من خلقه وإن كان نبيًّا مرسلاً، فإذا وجد نفسه أنه يسهل عليها شربها على قدر مذاقها وزيادة يستقيم في طلبها، وإذا نظر إلى امتناع الألوهية عن إدراكه ييأس ويقنط عن أن يدركه بالحقيقة، وهذا إذا كان هو مطالعًا في بطون الأزل وأكناف القدم وغيوب الأبد، لو رأيته يا عاقل كيف يفرُّ من الحق وهو غضبان عليه معربدًا شطاحًا بتكلُّمه عن سرِّ الانبساط، ويخاصمه، وهذا كله من حيرته في الله واشتياقه إلى درك الحقائق.

قال سهل في قوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾: يملُّ العبد من ذكر ربه وشكره وحمده والثناء عليه.

وقال أبو عمرو الدمشقي: لا يسأم العارف من مناجاة معروفه، بل لا يصبر عنه لحظة ولا نفسًا.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾: رسم ظاهر الآية أن المضطرب في المعرفة إذا أنعم عليه من نعم الكرامات

اشتغل بها عن الحق، وفرح بما وجد منه، واحتجب عن مشاهدته، وإذا لم ينل مأموله من الكرامات وجزاء الطاعات فيدعو ويتضرع، ويسأل مأموله على الرغبة في جميع الأنفاس، وإشارة الحقيقة في الآية إذا ألبس الحق أنائيته العارف ويكون مستقلاً بقدرته، متصفًا بصفاته، ينظر من القدم إلى ما بدا من القدم، فيسكر، ويخرج بدعوى الأنائية، وذلك حين ينسى القدم في نفسه بما غلب من القدم عليه، وإذا زاد الحق عرفانه بإفراد قدمه عن الحدوث وبمعرفة فنائه في بقائه وما ترى فهو هو تعالى لا غير يرجع إلى معادن العبودية، ويكون متضرعًا عاجزًا فانيًا في سبحات جلاله، يكدي على باب الربوبية بنعت الفقر والافتقار إلى ذرة من معرفته.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: أظهر الآيات، وجعلها مرآة لصفاته وذاته سبحانه، ويتجلى منها أنوار الذات والصفات للشاهدين مشاهدة القدم، سرٌّ يسرُّ في حقائق التوحيد، وظاهرًا يرونه من الآيات في زمان العشق في لباس الفعل؛ استقامة للمحبة؛ والتباسا لأمر الحقيقة، ولو ظهر بنعت الألوهية ظاهرًا وباطنًا لتعطلت الأشباح، ولفنيت الأرواح، واضمحلت النفوس والعقول؛ لأن بروز سطوات الأحدية لا تحتمله الآيات ولا الأشباح ولا الأبصار ولا الأفكار، ذكر في الأول آيات ومقصوده صفاته التي تشرق أنوارها في آفاق الأسرار، والآيات العالم الفعلي، والمقصود من الصفات ظهور الذات لنظار حقيقة الحقيقة، وإلا فأين الآيات في ظهور الصفات، والذات الآيات للعيون، والصفات للقلوب، والذات للأرواح، وسرُّ القدم للأسرار، لا ينكشف السر، والعارف الصادق إذا كان في عين الجمع لا يرى شيئًا إلا ويرى الحق بعينه؛ لأنه في حقيقة الحقيقة، ما بدا منه هو فعله، وفعله غرق في صفاته، وصفاته قائمةٌ بذاته، فإذا شاهده في نفسه كما شاهده في آياته يختلط الأمر، ويغيب الحدث في القدم، ويحلُّ عليه سكر الأنائية، فيدَّعي الربوبية؛ لأن مشاهدة الآيات تقتضي العشق والمحبة، ومشاهدة الحق في مرآة النفس تقتضي الاتحاد من تأثير مباشرة سر التجلي، وهذا حال الحلاج -قدس الله روحه- حيث قال: أنا الحق. وحال الأول حال الواسطي؛ حيث قال: ضحكت الأشياء للعارفين بأفواه القدرة بل بأفواه الرب. لو ترى يا شاهد مشاهدة الحق في الآيات ترى أنوار العظمة والكبرياء من عيون الآساد وأنياب الثعابين، وترى أنوار جماله من أوراق الورد والنرجس والياسمين ووجوه الحسان، وتسمع أصوات الوصلة من ألحان الطيور والبلابل والعنادل، وأصوات الرياح والسحاب والإنسان

والأوتاد، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «الوردُ الأحمرُ من بهاء الله، مَنْ أرادَ أن ينظرَ إلى بهاء الله فلينظرْ إلى الورد الأحمر»[1].

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: سنريهم هذه الحقائق في الآيات وفي أنفسهم؛ حتى يتبين لهم أنها هي الحق بعينه لا الآيات ولا الآفاق ولا الأنفس إن لاح الحق من الحق لأهل الحق، وتأكيد ذلك برهان ظهوره من كل شيء وشهوده على كل ذرة من العرش إلى الثرى بنعت التجلي، وتبسم صبح الأزل في عيون المشاهدين جلاله.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ أي: ظاهرٌ من كل شيء بسطوع نور أزليته منه لكل مستأنس شاهد به فيه، ثم بيَّن أن المحرومين في الأزل بسبق الشقاوة لا يرونه حقيقة وبيانًا وكشفًا وعيانًا وعزًّا وسلطانًا وبرهانًا بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: إنهم مطموسون عن مشاهدته بلطمات قهره، فهم في شكٍّ وريبٍ من حيث عماهم وجهالتهم، ثم أكَّد أمر ظهوره على الكل بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ : أحاط علمه وقدرته وجلاله وجماله بكل شيءٍ من العرش إلى الثرى، لكن لا يراه بنعوتها إلا العاشقون الوالهون العارفون.

قال القحطبي[2]: لا يزال العبد يرتقي من حالٍ إلى حالٍ حتى يبلغ إلى الأحوال السنية العلية؛ فيرى الله قائمًا بالأشياء، ثم يرقى به من ذلك الحال حتى يرى الأشياء فانيةً في رؤية الحق، ويتيقن أن القديم إذا قُورن بالحدث لا يثبت له أثرٌ، وإن جلَّ قدره وعظم خطره، وهو معنى قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، وهو النظر إلى الكون بمشاهد الحق، ثم النظر إلى الحق بالفناء من الكون، وهو أن تصير النعوت نعتًا، ولا يشهد إلا حقًّا صرْفًا.

وسُئل أبو عثمان عمن يقول بالشاهد؟ فقال: لا أنكر القول بالشاهد لمن يشهد الأشياء كلها شيئًا واحدًا.

وقال الواسطي: ظهر من كل شيء بما أظهر منه، وإظهاره الأشياء ظهوره بها، فإذا فتَّشها لا يجد غير الله، قال الله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١/ ١٧١).

(٢) أبو القاسم القحطبي: الصوفي كان أحد الصلحاء الصوفية بطرسوس، وذكره أبو عمرو الطرسوسي. بغية الطلب في تاريخ حلب (٤/ ٣٧٥).

﴿ٱلْحَقُّ﴾ دون غيره؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «أصدقُ كلمةٍ تكلَّمت بها العرب كلمة لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ»(١).

وقال بعضهم: يرى الأشياء عدمها وجودها ووجودها عدمها، كما أن كل قربٍ بعدٌ، وكل بعدٍ قربٌ؛ لأن إحاطة القدرة بالشيء وجود الشيء.

وقال الواسطي في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: لو شهدوا شواهد الحق فيما جرى عليهم من المخالفة والموافقة لما اضطربوا فرحًا ولا حزنًا نفيًا للشرك والمقارنة.

وقال أيضًا: أوائلها للطائعين والعابدين، طالعوه، وراقبوه، وأواخرها للواجدين، شاهدوه على آباده وسرمده الذي فيه فناء معاينهم.

وقال ابن عطاء: آيات الحق باديةٌ لمن كُحِّل بنور التوفيق، ونظر إليها بعين التحقيق، وكل ما أظهر الله تعالى من خلقه ناطقٌ بتوحيده إما صريحًا وإما دليلاً منه للحق إن شاهدوا ونظروا عن بصر وبصيرة ولا دليل عليه وإليه سواه، فإن الكل حدثٌ وهو القديم، ومتى يُستَدل بالحدث على القديم؟!

سورة الشورى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾ : هذه الأحرف رمز الله مع حبيبه ﷺ، يخبره بهنَّ ومن كان أهله من سرِّ الذات والصفات والأفعال، الحاء رمز الحياة الأزلية، والميم رمز محبة القديم، والعين رمز عينية ذاته وعلمه القديم وعيانه لأهل العيان، والسين رمز سرِّه وسرِّ سرِّه وغيبه وغيب غيبه وسنا سبحات وجهه وكشفه لأهل الكشوف، والقاف عن قديمية وجوده، وقوله القديم الذي منه بدأ العالم، وآدم بالحاء الحياتي، أحيا قلوب العارفين حين تجلت منها حياته لها، وبالميم المحيى بملك الأرواح المحبين بحلاوة محبته، التي برقت سناها في عيونها، ثم بسرِّ الحرفين ورمز النعتين حمى أسرار الواصلين عن خطرات الريب، وكاشف لها أسرار الغيب، ومن العين عاين ذاته وصفاته للعالمين به وبأوصافه ونعوته، وبالسين سار سنا برق سبحاته في

---

(١) رواه مسلم (٧/ ١٧٦٨)، والترمذي (٥/ ١٤٠).

أسرار السابقين، وبالقاف ظهر قاف كبرياء قدم ذاته وقيوميته صفاته للقائمين به في قربه عند ظهور قيامه عليهم، وافهم أن الحروف على أوائل السور رموز الحق، أخفى أسرارها عن غير أهلها، ثم أخفى من تلك الخفيات هذه الأحرف على أوائل هذه السورة بأن رفع عن السين نقوش الشين، فأراد بالسين الشين وبيان ﴿حمٓ﴾عشق أي: يحيى الأزلي، وجمال الأبدي عشق العاشقون، وأنا عشيقهم، وبرمز العشق أخاطبهم، حتى لا يطَّلع على أحوالها أهل الرسوم فيهلكوا، لأن من بين العاشق والمعشوق ارتفع حشمة الربوبية وكلفة العبودية في مقام المشاهدة، ثم أقسم الحق بهذه النعوت أي: بحياتي يا حبيبي ومجدي وجمالي وملكي ومحبتي لك والأولياء أمتك يا محب يا محمد، وبعلو شأني وعلمي المحيط وعزي وعياني، وخلقي يا عارف يا عالم يا عالي الهمة يا عزيز، وبسنائي وقدسي وسرمديتي، وسبق وجودي على كل شيء، يا صاحب سري، ويا سبَّاق كل سابقٍ بالشرف والفضل والتقدم، ويا سبَّاح بحر قدسي وأنسي ومقدمي وقيوميتي وقيامي على كل شيء، وبقولي الحق، وبقدرتي القديمة، وبقضائي وقدري، وبعشقي يا عاشقي، وبصدقي يا صادق، إن هذه الإشارة قد أشرتها إليك، كذلك أشرتها إلى أنبيائي قبلك وأوليائي وأهل خالصتي، وذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾: عزيز بعزي عززتك وعززت أوليائي، وبحكمتي اصطفيتك واصطفيت أحبائي، وأعطيتك وأعطيتهم حكمي ومعرفتي، ومنعت عنك وعن أهل محبتي كيد الكائدين وغلبة الجاهلين.

قال ابن طاهر: الحاء من الحكيم، والميم من الملك، والعين من العالم، والسين من السيد، والقاف من القادر، هو الذي ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾: يوحى إليك أنباء من قد سلف من الأمم، ويوحي إلى الذين من قبلك فضلك وفضل أمتك.

وقال أبو بكر الوراق: الحاء حلمه حليم ملكه، والعين علوه وعلمه، والسين سناؤه، والقاف قدرته، يقول: بحلمي وملكي وعلوي وعلمي وسنائي وقدرتي أني لا أعذِّب من عرف ربوبيتي وأحسن ظنه فيَّ وأحبَّ الرجوع إليَّ.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم

مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ينهانا الله سبحانه عن عظيم قدره وجلال عزه، وبأنه سبحانه خلق قومًا من الجهلة، وأطلقهم في مهمة الضلالة حتى وقعوا في مقالة السوء، ويقولون على الله ما لا يعلمون من أعظم افترائهم، تكاد السماوات تنشق من فوقهن من الغضب عليهم، وذلك بعد أن ألبسها الله إقرار قدرته، وأدخلها روح فعله حتى عقلت عبودية صانعها، وعرفت قدسه وطهارته عن قول الزائغين وإشارة الملحدين، والملائكة يقدسون الله عما يقولون فيه من الزور والبهتان والدعاوى والباطلة، ويستغفرون للمؤمنين الذين لم يبلغوا حقيقة عبوديته، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: غفر ذنوب المقبلين ورحمهم بأن يرزقهم قربه ووصاله.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: وليُّ كل وليٍّ، في الأزل أجادهم بتجلي القدم من موت العدم، تولى أسرارهم بنعت حفظها من قهره، ويحيي بجماله قلوبهم عن موت الجهل به، بعد أن عرَّفهم نفسه، وألبس أرواحهم أنوار حياته، وفيه شكاية عن المشغولين بغيره، الباقين في حجاب الوسائط، يعرض نفسه بنعت الجلال والجمال على المقصرين؛ ليجذب بحسنه وجماله قلوبهم إلى محبته وعشقه، ويحييها بنور أنسه وسنا قدسه.

قال ابن عطاء: الحق يتولى أولياءه في كل نفسٍ برعايته وعناية طربه، ومن كان الحق متوليًا سعاياته وحركاته كان في أصون صونٍ وأحرز حرزٍ، وهو الذي يحيي القلوب بمشاهدته وبالتجلي بعد الاستتار.

وقال الواسطي: يحيي القلوب بالتجلي، ويميت الأنفس بالاستتار.

وقال سهل: لا يحيي النفوس حتى تموت.

قال بعضهم: قلوب أهل الحق مصانةٌ عن كل معنىً؛ لأنها موارد الحق، ولما بيَّن أن

المعرضين عن ساحة قدسه وجمال وحدانيته عزيز عزته وعظيم نور كبريائه المقبلين إلى وسائط الحدثان، وطلب لذة الحال من رؤية الأكوان، وكشف الحقيقة عن مرآة الخليقة، إنهم من حقيقة التوحيد عبدة الأصنام إذا انعزلوا من ضعف قلوبهم عن طوارق سطوات عظمة القدم، المنـزه في ظهوره عن أن يحل في الحوادث، المقدس من أن تكون ذاته وصفاته في الكوائن والمشاهد، قدَّس نفسه عن المشابهة بغيره بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: كل ما وقفتم عليه من العرش إلى الثرى فأنا منـزَّهٌ عن ذلك، ولو أتجلى من قدس جلالي بالحقيقة لاضمحلَّ الحدثان، وفنيت الأكوان، سبحاني تعاليت عن خطرات الأوهام وعما يحل في الأفهام، وعما تدركه العقول وتشاهده القلوب ويعاينه الأرواح ويصادقه الأسرار! من ذكرني بحظِّه فقد افترى، ومن شكرني بحظِّه فقد ابترى، ومن صبر في موازاة قدمي فقد اجترأ، لولا رحمتي الواسعة على جميع خلقي ما أوجدتهم وما خاطبتهم؛ إذ خطابي معهم من وراء كل حادثٍ، وليس في عزة قدمي وراء ولا ملأ ولا خلاء ولا مكان ولا زمان، من أشار إليَّ بنعت العشق فهو محجوبٌ بحظِّه عني، ومن أشار إليَّ بنعت المعرفة فأنا منـزَّهٌ عن أن كون معروفه بمعرفته، ومن أشار إليَّ بالتوحيد وتوحيده راجعٌ إليه وأنا واحدٌ في وحدانيتي، ما فارقت عن اثنين حتى توحدت؛ فإن وحدانيتي منـزَّهةٌ عن الكثرة والقلة، ولم يكن للحدثان وجودٌ بالحقيقة حتى يكون مثلاً لي؛ إذ قيامها بي، وكيف تكون الأشياء مماثلي والأشياء قائمة لقدرتي؟! ولولا قدرتي ما تكونت الأشياء، ليس لصنعي مثلٌ، فكيف لصفاتي وذاتي؟! يا حبيبي احترق في نيران الغموم والهموم واليأس والقنوط من إدراك عين حقيقته، وإن كنت مشاهدًا إياه أبدًا فإن الكون غائبٌ في بحر لا إله إلا الله، ولام ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، نفى الكيفية والأينية والحيثية في أول إبراز نور قدسه بقوله ليس، وقد كفى به أهل التوحيد إذا عدم التشبيه والمشابهة، ولو فهم المخاطبون حروف أول السورة لرأوا معنى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ في رمزها سبحانه، سبحانه هام فؤادٌ، عرفه كل لسان وصفه، سبحانه ما أعظم شأنه!

قال الواسطي: رموز التوحيد كلها خرجت من هذه الآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لأنه ما عبَّر عن الحقيقة بشيء إلا والعلة مصحوبةٌ والعبارة منقوصةٌ؛ لأن الحق لا ينعت على أقداره؛ لأن كل ناعتٍ مشرَّفٌ على المنعوت، وجلَّ أن يشرف عليه مخلوقٌ.

وقال الشبلي: كل ما ميزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم فهو مصروفٌ إليكم، ومردودٌ عليكم، محدثٌ مصنوعٌ مثلكم؛ لأن حقيقته جلَّ أن تلحقها عبارةٌ، أو يدركها وهمٌ، أو يحيط بها علمٌ، كلاً كيف يحيط به علمٌ وقد اتفقت فيه الأضداد بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ أيُّ عبارة تخبر عن حقيقة هذه الألفاظ؟! كلا

قصرت عنه العبارة، وخرست الألسن؛ لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(١).

وقال الواسطي: احتجب بخلقه عن خلقه، ثم عرَّفهم صنعه بصنعه، وساقهم إلى أمره بأمره؛ فلا يمكن للأوهام أن تناله، ولا العقول أن تحتاله، ولا الأبصار أن تتمثله، ولا الأسماع أن تشمله، ولا الأماني أن تمتهنه، هو الذي لا قبل له ولا بعد له، ولا يقصد عنه، ولا معدل ولا غاية وراءه، ولا منتهى، ليس له أمدٌ ولا نهايةٌ ولا غايةٌ ولا ميقاتٌ ولا انقضاءٌ، لا يستره حجابٌ ولا يقلُّه مكانٌ، ولا يحويه هواءٌ، ولا يحتاطه فضاءٌ، ويتضمنه خلاء، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، فلما قطع أطماع الحقيقة عن إدراك جلاله رغَّبهم في إقبالهم إليه؛ لطلب عرفان وجوده، ووجوده بقوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مقاليده مشيئته الأزلية وإرادته القدمية، يفتح بها أبواب كنوز سنوات ذاته وصفاته، وأعرض فعله للمصطفين في الأزل بمحبته، وينثر على أسرارهم جواهر أنوار معرفته، ويعرَّفهم شمائل وجوده ومحاسن أفعاله وغرائب صفاته، ثم زاد وصف كرمه لطلاب قربه وعشاق مشاهدته بقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾: يبسط رزق مشاهدته لمن يشاء من أهل صبابته وأهل الاشتياق إلى جماله، وهو قادرٌ بذلك، لا ينقص جلاله، وأن ينظر إليه أهل شوقه أبد الآبدين؛ إنه عالمٌ بحرق فؤادهم ولهيب نيران أسرارهم، يميل بذلك أزمَّة طلاب الحوائج إلى ساحة جوده؛ حتى لا يميل أحدٌ لكل معنىً إلى غيره، يا أخي مقاليد سماواته ما في قلوب ملائكته من أحكام الغيوب، ومقاليد أرضه ما أودع الحق صدور أوليائه من حجائب القلوب.

قال ابن عطاء: مقاليد السماوات الغيوب، ومقاليد الأرض الآيات والبينات.

وقال: عاتب الله أولياءه بنظرهم إلى ما سواه.

---

(١) قال سيدي علي وفا: اسمع: إن قيل لك المِثل بكسر الميم وسكون الثاء وبفتح الميم والثاء واحد، فكيف الجمع بين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وبين قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] وبين قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ فقل: وما توفيق العبد إلا بالله سيده ومولاه: إن كانا واحدًا لغةً فالمثل قد أُثبت للحقيقة التي هي الهوية بقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾، ولاسم الجلالة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾، ولنور الله بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ ونُفي عن مثل الهوية بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأثبت المثل للنور بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ هذا المشكاة أمرٌ وهميٌّ ليس غير؛ لأنه في الحس فراغ متوهم وخلاء، والخلاء ثابت وهمًا فقط، فهو في الحس والكون لا شيء، فلا يلزم من كونه كائنًا أن يكون ذلك الأمر شيئًا. وإنما قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]؛ ليثبت أنه ليس له مثل حقيقي؛ إذ الظاهر منه في المظاهر هو بالحقيقة، ومثاله بالوهم ليس إلا كالذي تراه منك بواسطة المرايا الصقيلة، ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [النور: ٣٥]: أي يبين الله الأمثال للناس، فافهم.

وقال: بيدي مقاليد السماوات والأرض؛ فلا تشتغلوا بها ولا بما فيها وعليها؛ فإن كلها قامت بي، كونوا إلى حقًّا؛ أسخر لكم الأكوان وما فيها، ألا ترى كيف قطعهم عن الاعتماد على الأنبياء بقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

وقال: مقاليد الأرزاق صحة التوكل، ومقاليد القلوب صحة المعرفة بالله، ومقاليد العلوم الجوع.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ أي: بسط لكم بساط العبودية التي هي مرقاة عرفان الربوبية، فإذا كنتم تصعدون عليها تبلغون إلى مشاهدة جلالي وكشف جمالي، عرفتكم نفسي كما عرفت نفسي حبيبي وخليلي وكليمي وروحي، ووصيتكم بألا تختاروا عليَّ شيئًا من دوني، فإذا تجردتم عن غيري واستقمتم على بساط خدمتي وأقبلتم إلى جمال مشاهدتي بنعت المحبة والشوق فقد بلغتم نهاية الدين الذي اصطفينا به نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا ﷺ وعليهم أجمعين، لا تتفرقوا من مقام الجمع؛ فإن عين الجمع غاية ذوق العارفين، والتفرقة غاية الحجاب بيني وبينكم.

قال بعضهم في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أي: من تعظيم محمد ﷺ الأنبياء السابقة.

وقال سهل: الشرائع مختلفة، وشريعة نوح هي الصبر على أذى المخالفين.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾: ألبس الله حبيبه أنوار نعوته الأزلية بنعت التجلي والكشوف لقلبه وعقله وروحه وسره وصورته، فلما جعله كاملاً من كل الوجوه قال له: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أي: استقم بي على مرادي منك؛ بحيث تستقيم بصفتي عند كشف حقائق ذاتي؛ فإن الكون وأهله لا يستقيم في موازاة ذرة من عين الألوهية، والاستقامة في الأمر عمومٌ، وفي المعرفة والمشاهدة خصوصٌ، الاستقامة في العبودية للأولياء، والاستقامة في مشهد الربوبية للأنبياء.

قال بعضهم: حقيقة الاستقامة لا يطيقها إلا الأنبياء وأكابر الأولياء؛ لأنها الخروج من المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الحق على حقيقة الصدق، ولذلك قال النبي ﷺ: «استقيموا ولن تُحصوا»[1] أي: لن تطيقوا الاستقامة التي أُمرت بها.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: لطيفٌ بأوليائه وأهل معرفته ومحبته، بأن أودع أرواحهم في الأزل ودائع العلم اللدني وأنوار محبته الأزلية، واصطفاهم بقربه ووصاله، وأغرقهم في بحار شوقه وعشقه ومعرفته، ثم طالع أسرارهم بعلومه القديمة، فرأى لهب نيران قلوبهم من شوقه، لا يخفي عليه هيجانهم وشوقهم إليه، فجذبهم من مكمن العدم أولاً إلى نور القدم، وأشهدهم على مشارب بحار الذات والصفات، ثم جذبهم إلى بساط العبودية، وتلطَّف عليهم بأن رفع عنهم أثقالها تلطفًا وكرمًا حتى سهَّل عليهم مسالك الاستقامة، ثم جذبهم إلى مشاهدة الربوبية، وأدناهم منه، ودنا منهم؛ حتى يبقى البين في البين، قال تعالى في وصف حبيبه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾[2]: ثم حماهم من قهر غيرته، وألبسهم قباء أنوار بقائه، وتوَّجهم بتيجان المسرة، وشدَّ في أوساطهم مناطق الحرمة، وأجلسهم على أرائك المملكة، وخاطبهم بأسرار ملكه وملكوته، وجعلهم أهل سرِّه، وأكرمهم بكشف ملكه لهم حتى حكموا فيه بشرط الانبساط، لا يثقل عليهم حقوق المعارف، ولا يجري عليهم إلا أنوار الكواشف، هم طيور مناهل الوصال، يطيرون في بساتين الجمال والجلال، ويترنمون بألحان الصفات، ويخبرون أهاليهم من أسرار الذات، طوبى لهم، ثم طوبى له، ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾، فأرجو من كمال كرمه القديم وجوده العميم أن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) فإذا ارتفع الأين والبين والمكان والجهات، واتصل أنوارُ كشوف الذات والصفات بالعارف، فذلك حقيقة المعية، إذ هو سبحانه مُنزّه عن الانفصال والاتصال بالحدث، البحر المديد (٦/ ٢٦٦).

أكون طيرًا من ملك البلابل، أصفِّر بصفير الصفات، وأترنم من بطنان غيب الذات، سكران من رؤية الذات، والهًا بالصفات، ووالهًا من شراب الصفات، مشغوفًا بسنا الذات، ثم أفنى في الذات، وأبقى في الصفات، ولا يجري عليَّ بعد ذلك طوارق الفناء؛ فأبقى بقاء الأبدي، وأتدارك ما فات مني من المعية القدمية مع القدم؛ فإن الآخر بالحقيقة أولُ، والأول آخرُ، والظاهر باطنٌ، والباطن ظاهرٌ، فنحن الأولون حيث قام الحق بأوليته مقام أوليتنا وإن كنا معدومين، ونحن الآخرون من حيث ألبسنا الحق وصف بقائه، ونحن الظاهرون بظهوره علينا، ونحن أهل الباطن والغيب؛ إذ لا غيب في الكشف، ولا باطن في الظهور، تعالى الله من أن يدركه بوصفه غيره، رزق الله هذه المراتب العلية والمواهب السنية من آمن بنا، وبكل وليٍّ صدر من بساتين الغيب، ومشارب القرب الذي يتكلمون بمثل هذه الكلمات البديهية الإلهية الربانية، كما قال سبحانه: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾: قويٌّ باصطفائيتهم مما اختار لهم في أزله إلى أبده.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: يعلم من أنفسهم ما لا يعلمونه من نفوسهم، فربط كلا بحده، فمن بقي مع حده حجب، ومن تجاوز حده هلك.

قال أبو سليمان الداراني: من لطف الله بعبده أن قصر له كنه معرفته حتى لا تتكدر عليه نعماؤه.

وقال الجنيد: اللطيف الذي لطف بأوليائه حتى عرفوه.

وقال ابن عطاء: اللطيف الذي يعرف الغيوب بلا دليل.

قال بعضهم: اللطيف الذي يُنسى العباد في الآخرة ذنوبهم لئلا يتشردوا.

وقال بعضهم: الذي لم يدع أحدًا يقف على مائة أسمائه فكيف الوقوف على مائة وصفه وذاته؟!

وقال أبو سعيد الخراز في قوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: موجودٌ في الظاهر والباطن، والأشياء كلها موجودةٌ به، لكن يوجد ذكره في قلب العبد مرةً، ويفقده مرةً؛ ليجدد بذلك افتقاره إليه.

وقال القاسم في قوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾: الفطنة والحكمة، ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾: القوي يقوِّي الفطن، والعزيز عزَّز عنايته ورعايته، ولا يبذلها لكل أحدٍ.

قال الأستاذ: اللطيف هو العالم بدقائق الرموز وغوامضها.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ

ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾: حرث الآخرة مشاهدته ووصاله وقربه، وهذا للعارفين، وحرث الدنيا الكرامات الظاهرة، ومن شغلته الكرامات احتجب بها عن الحق، لو يزيد من حرث الدنيا فهو معرفة الله ومحبته وخدمته، وإلا فلا يزن الكون عند أهل المعرفة ذرةً.

قال بعضهم في هذه الآية: من عمل لله محبة له لا طلبًا للجزاء صَغُرَ عنده كل شيء دون الله؛ فلا يطلب حرث الدنيا ولا حرث الآخرة، بل يطلب الله من الدنيا والآخرة.

قال سهل: حرث الدنيا القناعة، وحرث الآخرة الرضا.

وقال أيضًا: حرث الآخرة القناعة في الدنيا والمغفرة في الآخرة والرضا من الله في كل الأحوال، وحرث الدنيا قضاء الوطر منها والجمع منها والافتخار بها، ومن كان بهذه الصفة فما له في الآخرة من نصيب.

قال الأستاذ: نـزيده اليوم في الطاعات توفيقًا، وفي المعارف وصفاء الحالات تحقيقًا، ونـزيده في الآخرة ثوابًا واقترابًا وفنون النجاة وصنوف الدرجات.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: قدَّس الله تعالى بهذه الآية حال نبيه ﷺ أن يكون قلبه مشوبًا بشيءٍ من الحدثان في دعاء الخلق إليه، وأنه يريد منهم جزاء دعوته أن يتقربوا إلى الله ببذل الأرواح في محبته، وبذل الأشباح في خدمته، وأن يستنُّوا بسنته، ويتبعوا أسوته في جميع الأنفاس؛ طلبًا لزيادة محبة الله إياهم ومتابعته، قال سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال سهل: أن تقربوا إليَّ باتباع سنتي.

قال ابن عطاء: لا أسألكم على دعوتكم أجرًا لا أن تتوددوا إليَّ بأن تعملوا من الأعمال ما يقربكم إلى ربكم.

وقال الحسن: كل من تقرب إلى الله بطاعته وجبت عليك محبته.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ﴾: بيّن الله سبحانه قدس استغنائه عن المخلوقين حتى من نبيه وصفيه وجميع الملائكة والرسل بأنهم لو خالطوا حاشاهم في آياته وبيان شريعته ليمحو وجودهم وقلوبهم وما لا يليق بدينه، ويثبت الحق والحقيقة بكلماته الأزلية التي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، وفيه تقديس كلامه وطهارة نبيه ﷺ عن الافتراء، وكيف يفتري وهو مصونٌ من طريان الشك والريب والوساوس والهواجس على قلبه، وفيه من النكت الغريبة أي: لو تظهر سرَّ السر وغيب الغيب نربط على قلبك لطف الصحو؛ حتى لا تفشي سرَّنا من سكرك، فيهلك العباد فيه.

قال سهل: يختم على قلبك ختم غلبة الشوق والمحبة، فلا تلتفت إلى الخلق، وتشتغل بإجابتهم.

وقال الواسطي: إن يشاء الله يختم على قلبك بما شاء، ويمحو الله الباطل بنفسه ونعته، حتى يعلم أنه لا حاجة به إلى أحدٍ من خلقه، ثم يحقق الحق في قلوبٍ أنشأها للحقيقة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾: يقبل توبتهم حين خرجوا من النفس والكون، وصاروا أهله مقدسين بقدسه، ويعفو عن سيئاتهم ما يخطر بقلوبهم من ذكر غيره، ويعلم ما يفعلون من التضرع بين يديه في الخلوات.

قال الأستاذ: إن لم يتب العبد خوفًا من النار ولا طمعًا في الجنة لكان من حقه أن يتوب؛ ليقبل الحق سبحانه توبته.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾: يعني يعطي سؤال السائلين في مشاهد قربه، ويزيدهم ما لا يعلمون؛ إنه مدخرٌ لهم من غرائب لطفه وعجائب كرمه؛ لأنهم شاهدوا مشاهد ربوبيته حين غاب عنها أكثر الخلق،

وعملوا في بذل وجودهم لحب وجهي الكريم، واقتحموا في بلياتي بصالح أعمالهم وحسنات نياتهم، فيجازيهم بما هو أهله، قال الله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: علمًا ومعرفة بنا وبما لدينا وتوفيقًا للزيادة والرغبة في طاعتنا، ونـزيده لطفًا وكرمًا من عندنا، ونلبسه نورًا من نورنا، ونجعله حسنًا بحسننا.

قال بعضهم: من تقرَّب إلينا بطاعتنا أكرمناه بالتوفيق، وزدناه من الإحسان إليه، وهو أن نكرمه بالإقبال علينا والاحتراز عما سوانا.

قال الأستاذ في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: الرؤية.

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟﴾: أراد بالرزق في الحقيقة والبسط كشف مشاهدته على السرمدية في هذا العالم للعارفين، يشكرون، ويشطحون، ويعربدون، ويخرجون من سكرهم وغلبتهم عن الحدود والأحكام، ويدعون بالدعاوي العظام، ويفسد بهم عقائد العباد، ولكن يكشف لهم على ما وافق قوة أسرارهم وثبوت أرواحهم حتى لا يفنوا في سبحات جلاله، وأنهم يعطشون إلى بحار جمال مشاهدته؛ لأنه خبيرٌ عالمٌ بضعفهم عن تحمل أثقال الربوبية، بصيرٌ بنياتهم وشكوتهم في خلواتهم؛ حيث يسألون أن يفنوا في وجوده، وذلك حين أبطأ هجوم الواردات عليهم، وهم وقعوا في بحر اليأس بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ أي: يكشف لهم أنوار جماله بعد أن آيسوا من وجدانها في مقام القبض، وينشر عليهم لطائف بسط القرب؛ لأنه وليهم وحبيبهم، محمودٌ بلسان افتقارهم ومعاينة اللقاء لهم.

قال ابن عطاء: إن الله تعالى يربي عباده بين طمعٍ ويأسٍ، وإذا طمعوا فيه آيسهم بصفاتهم، وإذا آيسوا أطمعهم بصفاته، وإذا غلب على العبدِ القنوط وعلم العبد ذلك وأشفق منه أتاه من الله الفرح، ألا تراه يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾[1]:

(١) أي: يئسوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضا لتذكير كمال النعمة، فإن حصول النعمة بعد اليأس والبلية أوجب لكمال الفرح فيكون أدعى إلى الشكر.

معناه ينزل غيث رحمته على قلوب أوليائه، فينبت فيها التوبة والإنابة والمراقبة والرعاية.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾: إن الله سبحانه قدَّر المقادير في الأزل، ومن مقاديره المقدرة كسب العباد، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾، وجزاء اكتسابهم من الثواب والعقاب منها صدر، فإذا كسب العبد شيئًا من الجرائم فهي من أسباب القهر، ويكون محجوبًا به، فإذا كان أهلاً لله تعالى يعاقبه الله في الدنيا ببعض المصائب، ويخرجه به من ذلك الحجاب، وإن لم يكن من أهل الحق فمصائبه إمهاله له في ضلالته، وإن ترك العبد الصالح بما بدا منه المعصية يكون محجوبًا بها، ولكن يداويه ببعض الامتحان حتى يكون صافيًا عن كدر الخليقة، ولكن بكرمه وفضله لا يؤاخذه إلا بقليل من عمله، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝﴾، وبعفوه ورحمته يخرجهم من ظلماتها، ولم يأخذهم بالقليل سخطه، لكن أراد أن يعرف العبد بالمصيبة عيوب نفسه ومواقع خطره.

قال ابن عطاء: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه، وإنما عفا عنه مولاه أكثر كان قليل النظر في إحسان ربه إليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾، ومن لم يشهد ذنبه وجنايته ويندم عليه لا ترجى له النجاة من المصائب والفتن.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۝ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ۝ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ۝ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۝ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾: في هذه الآية إشارةٌ إلى أن سفن قلوب العارفين في بحار أنوار ذاته وصفاته، تجري على اضطراب من غلبات صدمة عواصف سطوات أحديته وأزليته وأبديته، من حيث إنها محدثةٌ عاجزةٌ خائفةٌ من قهرٍ وعظمةٍ والفناء في معارف قاموس كبريائه، فيتلطف الحق بإمساك قهر عظمته عنها، فيمسكها بنور جماله، ﴿فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ﴾: سواكن في جريانها بشمال جماله، ولولا فضله ورحمته لتفتتت في كشوف العظمة وبروز الكبرياء، وهذه الأحوال السنية لا تكون إلا لصبَّار بالحق في الحق، شكورٍ برؤية فنائه في بقائه ووجوده، قائمٍ بجوده، قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ۝﴾.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: ما أوتيتم من المقامات والدرجات والكرامات والمعاملات فمتاع المتمتعين بذكر الله، وما عند الله من كشف مشاهدته وظهور أنوار وصاله وعجائب علومه الغيبية وأحكامه المخفية للذين شاهدوا الله وعليه يتوكلون في امتحانه إياهم واستغراقهم في بحار ألوهيته، فهو بجلاله ورحمته يخرجهم من لججها إلى سواحل وصاله؛ حتى لا يفنوا فيه، ويتمتعون بجماله في بقائه.

قال بعضهم: ما ظهر من أفعالك وطاعتك لا يساوي أقلَّ نعمة من نعيم الدنيا من سمعٍ وبصرٍ، فكيف ترجو بها النجاة في الآخرة؛ لتعلم أن النعم كلها بفضلٍ لا باستحقاقٍ.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي: بعد ظلم الظالم عليه، هذا بيانٌ من لطف عدله، تعالى الله من أن يجور، عدل كما حكم، وصرح بخطابه طرفين من العلم: بيان شرف الظالم؛ إذ جاوز الأمر وجار في العبودية، وبيان ضعف المظلوم وقلة صبره في البلاء، وانخلاعه من شعار الأنبياء والصديقين وأولي القوة من الرسل، وأولي العزائم من أهل الاستقامة؛ حيث صبروا في احتمال الجفاء، وغفروا لمن لم يعرف أقدارهم، وبذلك وصفهم الله بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾، وما قال لحبيبه: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، والصبر في البلاء من نعوت أهل الرضا، والعفو من شعار أهل الكرم والرضا.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾: خاطب العوام بالانتصار بعد المظلمة، وأباح لهم ذلك، واختار للنبي ﷺ الأخصّ، وندب إليه بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾، ثم لم يتركه ومخاطبة الندب حتى أمره بالأفضل وحثَّه عليه بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾.

وقال جعفر: صبر على إيذائه، وعفا عن مؤذيه؛ ذلك من أحكم الأمور في الدين وأحمدها عند الله وأجلّها عند الناس.

قال أبو سعيد القرشي: الصبر على المكاره من علامات الانتباه، فمن صبر على مكروهٍ يصيبه ولم يجزع أورثه الله حالة الرضا، وهو أجلُّ الأحوال، ومن جزع من المصائب وشكا وكَّله الله إلى نفسه لم تنفعه شكواه.

قال الأستاذ: صبر على البلوى من غير شكوى، وعفا بالتجاوز عن الخصم، فلا يبقى لنفسه عليه دعوى، بل يبرئ خصمه من جهته عليه من كل دعوى في الدنيا والعقبى، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾: الأمر للعموم في إجابة دعوته، ولا يسمع نداءه إلا من اصطفاه في الأزل لمحل خطابه وسماع دعائه، وكيف يجيب من لم يسمع بأسماع التنبيه والمعرفة والمحبة والفهم هواتف أطيار الإلهام والخطاب والكلام، من خاطبه الحق بلا واسطة؛ فيسمع أيضًا الخطاب بالوسائط، من كان خاليًا عن استعداد قبول الخطاب لا يجيب، ولو ناداه الحق بكل لسانٍ؛ قال الله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾.

قال الجنيد: استجابة الحق لمن يسمع هواتفه وأوامره وخطابه، فتتحقق له الإجابة بذلك السماع، ومن لمن يسمع الهواتف كيف يجيب، وأنَّى له محل الجواب؟!

وقال الأستاذ: الاستجابة الوفاء بعهده والقيام بحقه والرجوع من مخالفته إلى موافقته.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾: كان لي واقعةٌ في ابتداء الأمر، وذلك أني شاهدت الحق بالحق، وكاشف لي مشاهدة جماله، وخاطبني من حيث الأرواح لا الأشباح، فغلب على سكر ذلك، وأفشيت حالي بلسان السكر، فتعرضني واحدٌ من أهل العلم، وسألني: كيف تقول ذلك وأن الله سبحانه أخبرنا بأنه لم يخاطب أحدًا من الأنبياء والرسل إلاّ من وراء حجاب، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾؟! فقلت: صدق الله، هذا إذا كانوا في حجاب البشرية، فإذا خرجوا بشرط الأرواح إلى علم الغيب والملكوت ألبسهم الله أنوار قربه، وكحَّل عيونهم بنور نوره، وألبس أسماعهم قوة من قوى الربوبية، وكشف لهم سرَّ الغيرة وحجاب المملكة، وخاطبهم كفاحًا وعيانًا، ولنبينا ﷺ أخصَّ خاصيةٍ؛ إذ هو مصطفىً في الأزل بالمعراج والمشاهدة، فإذا صار جسمه روحه ويكون واحدًا من كل الوجوه صعد إلى الملكوت، ورأى الحق منـزَّهًا عن أن يحجبه المحل من الحدثان، أو احتجب بشيء دونه فهو الممتنع بذاته القديم من أن يطالعه إلا بعد أن يكشف له جلال أبديته وجمال سرمديته، وتصديق ما ذكرنا ما قال الواسطي في هذه الآية؛ قال: أخبر أن أوصاف الخلق على سننٍ واحدٍ، وخصَّ السفير الأعلى والواسطة الأدنى بمشافهة الخطاب ومكافحته، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾، وهو قائمٌ بصفة البشرية حتى ينـزع عنه أوصاف البشرية، ويحلى بحلية الاختصاص، يكلم شفاهًا[1]؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

تفسير قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي: كما خصصنا الأنبياء والرسل بالأرواح الروحانية والأرواح الملكوتية والأرواح الجبروتية والأرواح الجمالية والأرواح الجلالية خصصناك بروح قدسية أوجدتها من جملة الأرواح، بتجلي قدسي قدمي من العدم، وفضَّلناك برؤية القدس والجوهر القدسي المشروح برقوم تجلي جمالي وجلالي، المكسو بكسوة جميع صفاتي، المنور بنور ذاتي، خصصنا روحك المشرقة بهذه الأنوار،

---

(١) قال الشيخ المصنف: وإذا دخل القلب في عالم الغيب فما يراه فهو كشف، وما يسمعه فهو كلام وما يتكلم به فهو وحي، فيتولد مما يسمع الفهم، وما يتولد مما يبصر فهو بيان وكشف ونظر، وما يتولد مما يتكلم به فهو حكمة ومعرفة وعلم، وما يقع في موضع العقل من القلب فهو علم لدني، وما يقع في الفؤاد وهو الرؤية والإدراك. تقسيم الخواطر (ص٩٥) بتحقيقنا.

بأن أحييتها بما أودعتها من روح فعلي وروح صفتي وروح ذاتي، وذلك على الغيب وغيب الغيب، وسر الغيب الأول أمر الفعل، والثاني أمر الصفة، والثالث أمر الذات، فإذا صارت جامعةً هذه الخصائص وأن جميع الأرواح صدرت من نورها أرسلناها إلى جسمك المبارك، ونفختها في صورتك كما نفخت في صورة أبيك، فصار آدم العالم فأنت أنت، وآدم والعالم من العرش إلى الثرى يظهر من مرآة وجودك، كما ظهر الكون من جوهرك القدسي الذي هو أول ما خلقت، فمن يرى نورها منك فقد رآني، فإنك مرآتي للعالمين؛ لذلك قال ﷺ: «مَنْ رآني فقدْ رأى الحقَّ، ومَنْ عرفني فقد عرف الحقَّ»[1]، وقال: «أولُ ما خلق الله نوري، ثم خلق منه ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[2]، فمن كان له من بحر نوره روحٌ صار بين العالمين مرآة جمال الحق وجلاله، ويكون شاهد الحق في العالم؛ من نظر إليه عشق بالحق؛ إذ الحق يظهر منه من حيث التجلي لا من حيث الحلول، تعالى عن أن يحل في شيء من الحدثان، ثم بيَّن الحق تفصيل مواهبه التي وهبها لحبيبه ﷺ من خصائص النبوة والرسالة، وشرائف المعارف والكواشف التي خفيت عنه في أوائل حاله؛ إذ كان في غواشي صورة الإنسانية من أحكام أزليته، وما سبق له من حسن العناية والكفاية بقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ أي: ما كنت واقفًا على أسرار الخطاب وحقيقة المعرفة في زمان غيبتك؛ إذ زيَّنتك بألطافٍ في حجب الغيب، ثم تجلى لك نور القرآن الذي ظهر منه نور العرفان، فصار العرفان إيمانك والقرآن عرفانك، فإيمانك العرفان، وعرفانك القرآن، فصار الإيمان والعرفان والقرآن من حيث عين الجمع واحدًا؛ إذ جميعها صدر من صفة القدم بالتجلي والتدلي والظهور؛ والصفة صدرت من الذات من حيث المعاينة، والكشف للأرواح الجلالية الجمالية القدسية؛ لذلك تعود الكناية إلى الواحد من الاثنين، إذ هذا الاثنان واحدٌ في الحقيقة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

قاله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: هذه المعاني التي كشفتها لك نورٌ وهدايةٌ تهدى به إلى معرفتنا وشرفك عندنا، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾: من العارفين والموحدين والمحبين الذين كانوا في سوابق الغيب منك صدروا، وعلى رؤية جمالنا

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧٧٦) بأوله فقط.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣١١).

وجلالنا، وأنت سيدهم وإمامهم، تعرِّفهم سبل وصولنا، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾، ثم أضاف ذلك السبيل بنعت الخصوصية إلى نفسه، وقال: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صراطك المستقيم هو طريق الله الذي مهَّد للعارفين والمشتاقين؛ ليسلكوا فيه إليه بنوره وهدايته، ثم وصف نفسه بأنه مالك الأعيان من العرش إلى الثرى حتى طابت أرواح الصديقين بوحدانيته؛ إذ لا منصرف إلا هو، ولا مصرف من جميع الوجوه إلا ساحة كبريائه وعظمته، وذلك قوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾: تعود إليه أمور الخلائق من الحكم والقضاء والقدر والمشيئة والفعل والقدرة كما بدأ منه.

قال الواسطي: أظهر الأرواح من بين جماله وجلاله مكسوةً بهاتين الكسوتين، لولا أنه سترها لسجد لها كل ما أظهر من الكونين، فمن رداه برداء الجمال، فلا شيء أجمل من كونه في ستره يظهر منه كل دركٍ وحذاقةٍ وفطنةٍ، ومن رداه برداء الجلال وقعت الهيبة على شاهده، وهابه كل من لقيه، ولصحة الأرواح علاماتٌ ثلاثٌ: صحة الثقة، والتحقيق بالأخلاق، والتخطي في طريق الآداب.

وقال ابن عطاء: الكتاب ما كتبت على خلقي من السعادة والشقاوة، والإيمان ما قسمت للخلق من القربة.

قال القاسم في قوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾: لأنه مبتدأ كل شيءٍ وإليه منتهى كل شيء، فمن كان منه وله فهو الساعة به.

قال سهل في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾: تدعو إلى ربك بنور هداية ربك.

وقال بعضهم: دعونا أقوامًا في الأزل فأجابوا، فأنت تهديم إلينا، وتدلهم علينا.

سورة الزخرف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمٗا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدٗا

وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ أي: بحياتي منك وحياتك بحياتي، ومحبتي لك ومحبتك لي، وبهذا الكتاب المبارك الظاهر بنوره وبرهانه في صدرك ولسانك، وصدور العارفين المبرهن بيانه للمؤمنين، المبين لطائفه لقلوب الصديقين، إن هذا القرآن أنـزلته على قلبك، وبلسانك الفصيح؛ ليعرفه كل مؤمنٍ صادقٍ، ويعقل به طريق العبودية وحقوق الربوبية.

قال سهل: بيَّن فيه الهدى من الضلالة، والخير من الشرِّ، وبيَّن فيه سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء.

قال الأستاذ: الحاء يدل على حياته، والميم على مجده، وهذا قَسمٌ، ومعناه: وحياتي وملكي وهذا القرآن المبين إن الذي أخبرت أن رحمتي لعبادي المؤمنين حقٌّ وصدقٌ، ثم وصف القرآن بأنه ليس بمخلوقٍ، وأنه صفته الأزلية التي هي قائمة بذاته أزلاً وأبدًا بقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: إنه صفتي، كان في ذاتي منـزَّهًا عن التغاير والافتراق؛ إذ هما من صفات الحدث، وأم الكتاب عبارةٌ عن ذات القدم؛ لأنه أصل جميع الصفات لدينا، معناه ما ذكرنا أنه في أم الكتاب لعليٌّ، علا من أن يدركه أحدٌ بالحقيقة، ممتنعٌ من انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، حكيمٌ محكمٌ مبينٌ.

قال سهل: أم الكتب هو اللوح المحفوظ أي: رفيعٌ مستولٍ على سائر الكتب.

قال جعفر: عليٌّ عن درك العباد وما يتوهمون، حكيمٌ فيما دبَّر وأنشأ وقدَّر.

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[1].

قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾: أجلُّ نعمة الله على

---

(١) أي: مطيعين، وكم سَخَّرَ لهم الفُلْكَ في البحر، والدوابَّ للركوب، وأعظم عليهم المنة بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فَحَمَلهم عليه إلى بساط الطاعة، وسَهَّلَ للمريدين مركبَ الإرادةِ فَحَمَلهم عليه إلى عرَصَات الجود، وسَهَّل للعارفين مركبَ الهِمَم فأناخوا بعِقْوةِ العِزَّةِ وعند ذلك مَحَطُّ الكافة؛ إذ لم تخرق سرادقاتِ العزَّةِ هِمَّةُ مخلوقٍ سواء كان مَلَكاً مُقَرَّباً أونبياً مُرْسَلاً أو وليًّا مُكَرَّماً فعند سطواتِ العِزَّةِ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ، ويقف وراءَها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوق، القشيري (٧ / ٢١٠).

العباد أن يقويهم على نفوسهم الأمّارة، وينصرهم عليها حتى يركبوا عليها، ويميتوها بالمجاهدات، حتى استقامت في طاعة الله، فإذا استقامت وجب عليهم شكر نعمته، وذكر كرامته، وتذكر تلك النعمة أن يعرفوا لطيف صنعه في إبداعهم، ويروا أنوار صفته في ظهورها من صنائعه، ثم ينظروا بنورها إلى غيبه، ويعرفوا في الغيب عين ذاته بعد أن شاهدوه به، وهذه النعم لا تفارق عن العبد لمحة، وشكرها واجبٌ عليه بنعت المعرفة على السرمدية.

قال بعضهم: من لم يعرف نعم الله عليه إلا في مطعمه ومشربه ومركبه فقد صغَّر نعم الله عنده، ثم بين الله أن تسخير النفس بعد استوائها في طاعة الله يكون بتسخير الله لا بالكسب والمجاهدة؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾: أخرج تسخيرها من كسبهم أي: وما كنا مطيقين بتذليلها.

﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون إلى الله في جميع الحوائج بنعت الشوق إلى جماله والعشق بجماله.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾: لما كان الخليل عليه الصلاة والسلام

موقع نظر جماله وجلاله وكشف وصاله وتجرد من غيره في خلته ومحبته وخدمته وأفرده بتوحيده عن غيره جعل الله توحيده كلمته العليا الشجرة الثابتة، أصلها في أرض قلبه، وفرعها إلى سماء الأبد، وثمرها الرسل والأنبياء والأولياء، وأشهى ثمرها محمد ﷺ، وبقي ذلك التوحيد في قلوب أمته إلى يوم ورودهم على موارد المشاهدة الكبرى.

قال سهل: هي التوحيد في ذريته إلى يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: جهلوا العظمة، وظنوا أن العظيم من هو له غنىً وقوةٌ نفسانية، ولو يعلموا أن العظيم هو من عظَّمه الله بعظمته، وكساه أنوار سلطانه وبرهانه، وهو المصطفى ﷺ أنه عظَّم قدره في الدارين بقدر الله، وخصَّه بما قسم له في الأزل بالرسالة والنبوة والشرف والكرامة، ووبَّخهم الله بما تمنوا في القسمة بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾: جعل معيشة البعض إرادةً، وجعل معيشة البعض علمًا وخدمة، وجعل معيشة البعض إيمانًا وصدقًا، وجعل معيشة البعض توبةً وإنابةً، وجعل معيشة البعض محبَّةً وشوقًا وعشقًا، وجعل معيشة البعض معرفةً وتوحيدًا، وجعل معيشة السالكين الفِراسات، وجعل معيشة الزاهدين الكرامات، وجعل معيشة العارفين تراكم الواردات، وجعل معيشة الفقراء القناعة والتوكل والرضا والتسليم، هذا للمقبلين إليه، وللمدبرين عنه الغيُّ والضلالة والجهل والغباوة والدنيا الكثيرة الشاغلة عن الله، وهم أيضًا في ذلك متفاوتون؛ فبعضهم أعلى من بعض بالمعرفة، وبعضهم أعلى من بعض بالمشاهدة، وبعضهم أعلى من بعض في المكاشفة، وبعضهم أعلى من بعض في المحبة، وكذلك في جميع المقامات، كما فضَّل بعض أصحاب الدنيا في الرزق والمعيشة.

قال الواسطي في قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾: رزق قومًا حلالاً ومدحهم عليه، وقومًا شبهةً وذمَّهم عليه، وقومًا حرامًا وعاقبهم عليه، موسرًا بالحرام المحض ولم يلمه عليه، قال

النبي ﷺ: «إنَّ روحَ القدسِ نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتَّى تستكملَ رزقَها ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»[1]، وقال الله لهم: ﴿يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ .

وقال سهل: فضَّلنا بعضهم على بعضٍ في المعرفة والطاعة عيشًا لهم في الدنيا والآخرة.

قال الجنيد: بالتمييز وحفظ السرِّ.

وقال بعضهم: بالثقة والتوكل.

وقال بعضهم: بمعرفة كيد النفس ووسواس الشيطان، ثم بيَّن الله سبحانه بآخر الآية أن ما عنده من الاصطفائية الأزلية وكشف مشاهد العزيزة الكريمة التي هي مقدسةٌ من شوائب الاكتساب ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من جميع الفضائل، وأن عيش الآخرة للمؤمنين خير من العيش في الدنيا بقوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ .

قال سهل: ذكر الله خالصًا خيرٌ من كثرة الأعمال لطلب جزاءٍ.

وقال ابن عطاء: ما يعطيهم على سبيل الفضل خيرٌ لهم مما يجازيهم.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي: من نسي الله وترك مراقبته ولم يستحِي منه وأقبل إلى شيء من حظوظ نفسه قيَّض الله له شيطانًا يوسوس له في جميع أنفاسه، ويغوي نفسه إلى طلب هواها حتى يسلطه على عقله وعلمه وبيانه، وهذا كما قال أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ: «الشهوةُ والغضبُ يغلبان العقل والعلم والبيان، وهذا جزاءُ من أعرضَ عن متابعة القرآن ومتابعة السنَّة».

وقال سهل: حكم الله تعالى أنه لا يرى قلب عبد يسكن إلى شيء سواه إلا أعرض عنه، وسلَّط عليه الشيطان؛ ليُضلَّه عن طريق الحق، ويغويه.

وقال ابن عطاء: من لم يداوم على الذكر فإن الشيطان قرينه، ومن داوم عليه لم يقربه الشيطان بحالٍ.

وقال الواسطي: من صرفنا قلبه عن مواعظ القرآن وحجبناه عنه نقيِّض له شيطانًا،

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٧)، وهناد في الزهد (١/ ٢٨١).

فقارنه حتى يصرفه عن الحق، وذلك بإذن الله وخذلانه، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

قال جعفر: من جهل معرفة ما أنعم الله عليه بذكره ولم يشكر ذلك قرن به شيطانًا لا يفارقه في جميع أفعاله وأحواله وأقواله.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝٤١ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝٤٢﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾: إن الله سبحانه نظر في قلب حبيبه ورأى فيه غلبة الشوق إلى جماله واهتمامًا لأمته كيف يعيشون بين أضدادهم من الضلال، فقال: لا تهتم؛ فإني أوصلك إليَّ، وأدفع شرَّ الظالمين عنهم، وأنتقم منهم ما فعلوا بك وبأمتك؛ فإنك أمانهم الساعة.

قال ابن عطاء: أنت الأمان فيما بينهم، فإن قبضناك انتقمنا منهم، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «حياتي خيرٌ لكم، وموتي خيرٌ لكم»[1].

وقال يحيى بن معاذ: لله على عباده حجتان: حجةٌ ظاهرةٌ، وحجةٌ باطنةٌ، فأما الظاهرة الرسول، وأما الباطنة فالعقول.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٦ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝٤٧ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤٨ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝٤٩ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل (٣/ ٧٦).

﴿فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: لا تسمع قول الزائغين الذين يؤذونك ويقولون لست بحقٍّ؛ فأنت على الحق المبين، فاستمسك بالقرآن الذي هو شاهدٌ على شرفك، فأنت على الطريق المستقيم، وهذا تسليةٌ لقلب نبيه وتأديبٌ لأمته، وهذا عارفٌ يتعرضه نفسه وشيطانه من الإنس والجن بالمعارضات العريضة بعد مكاشفاته ومعرفته، ويمنعونه من سلوك الحقائق التي لا يعرفها أهل الرسوم من المقلدين في ظاهر العلم والعمل، ويخاصمونه؛ فإنه سبحانه أيّده بنصره، ويسلي قلبه بهذا الخطاب المبارك.

قال ابن عطاء: أمر الله النبي ﷺ بالاستمساك والتمسك بالدين، وهو ﷺ الإمام فيه، ولم يخل من التمسك بما أمر به لحظةً، لكنه خاطبه لرفع درجاته وعظم محله، لتكون أنت متأدبًا بآداب التمسك والاقتداء والاستقامة، وتعلم أن مثله إذا خوطب بمثل هذا الخطاب ما الذي ألزمك من الاجتهاد والمجاهدة، ثم بيّن سبحانه أن نـزول القرآن يوجب شرف نبينا وشرف أمته بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: هو وصفك، ووصف من اتبعك من العارفين الصادقين، يصفك القرآن، ويصف قومك من الصادقين بما أنت عليه وما هم فيه من الأخلاق الجميلة والأعمال الزكية والدرجات الرفيعة والكرامات السنية والمقامات العلية، ألا ترى إلى قول أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها حين سُئلت عن خلق محمد ﷺ قالت: «كانَ خلقُه القرآنُ»[(٢)]، وأيضًا أنه شرفك وشرف أمتك بأنك أهله، وهم أهلك.

---

(١) فيه إشارتان: الأولى: إن القلب إذا كان خفيفًا؛ فالقوي أيضًا كذلك؛ لأنها تابعة له كما أن الرعايا تابعة للسلطان، كما قيل: الناس على دين ملوكهم، وثقله، ومتانته، إنما هو من خوف الله تعالى، فإن الخائف من الله لا يميل إلى المنكرات؛ بل يثبت عندما عُيِّن له من الشرائع، وبقدر الخوف والعمل بمقتضاه، يُعرف مقادير الناس، ومراتبهم في التقوى.

والثانية: إن الملوك لا بد لهم من الرزانة، والوقار، والحياء في الصورة بلا تقليد، وتلوين، ورياء، فإن ذلك مما يدلُّ على ما في قلوبهم من المعاني والحقائق، وقد طلب بعض الأولياء من الله تعالى أن يلقي في قلوب الناس هيبته في حقه؛ لكون ذلك أقرب لقبول ما عنده من الحق؛ فكأنه طلب أن يُلقى ذلك في قلبه، فإنه إذا كانت حقائق الصفات والأحوال في باطن الإنسان؛ فظاهره يكون أهول وأهيب.

ولذا ترى ملوك الزمان وأمراءه يتكلّفون في الأوضاع، ويرون من أنفسهم ما ليس في قلوبهم، ومن ثم لا يعدُّهم الناس في جملة المراجيح الرزان؛ بل يسخرون بهم في خلواتهم، والمتحققون المتشيِّخون، فما اشترى العارفون ذلك منهم بفلس؛ لفرقهم بين الجيد والرديء، والطيب والخبيث.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ١١٥)، وأحمد (٦/ ٩١).

قال ابن عطاء: شرفٌ لك بانتسابك إلينا، وشرف لقومك بالانتساب إليك.

قال جعفر: ذكرٌ لك بنسبتك إلينا، وذكرٌ لقومك بحسن قدومهم بك واتباعهم لسنتك.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: فلما قاموا على دعاويهم الباطلة وكلماتهم المزخرفة وبدعهم الباردة فأصروا على إيذاء أوليائنا وأحبائنا غضبنا وسلَّطنا عليهم جنود قهرياتنا، وأمتناهم في أودية الجهالة، وأغرقناهم في بحار الغفلة، وجرَّدنا قلوبهم عن أنوار المعرفة، وطمسنا أعين أسرارهم حتى لا يروا لطائف برِّنا على أوليائنا.

قال سهل: لما أقاموا مصرِّين على المخالفة في الأوامر وإظهار البدع في الدين وترك السنن اتباعًا للآراء والأهواء والعقول نـزعنا نور المعرفة من قلوبهم وسراج التوحيد من أسرارهم، ووكلناهم إلى ما اختاروه، فضلُّوا وأضلُّوا.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: بأنه كلمته التي ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وأنه كان متصفًا بصفاته، ومشكاةٌ لأنوار قربه ووصاله وولايته ونبوته ومعرفته ومحبته وعصمته وتوفيقه.

قال يحيى بن معاذ: أنعمنا عليه بأن جعلنا ظاهره إمامًا للمريدين، وباطنه نورًا لقلوب العارفين.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ

ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: كل خلةٍ لا تكون لله تتولد منها العداوة في الدنيا والآخرة، والمتحابون في الله لا يقع بينهم العداوة؛ إذ ارتفعت من بينهم أسباب الكونيين والعالمين، وهم مقدَّسون بتأييد الله ورعايته عن كل خلافٍ يورث الوحشة.

قال ابن عطاء: كل وصلةٍ وأخوةٍ منقطعةٌ إلا ما كان لله وفي الله؛ فإنه كل وقت في زيادة، بأن الله يقول: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: في انقطاعٍ وبغضةٍ إلا المتقون؛ فإنهم في راحة أخوتهم يرون فضل ذلك وثوابه، ثم خاطب الله سبحانه هؤلاء المتقين بقوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾: ليس عليكم خوف الفراق ولا حزن الأصحاب.

قال ابن عطاء: لا خوف عليكم اليوم في الدنيا وخوف مفارقة الإيمان، ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة بوحشة البعد والمفارقة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾: مشاهدون آياتنا التي هي مشكاة أنوار صفاتنا، وكانوا مسلمين منقادين بجبروتنا بنعت المحبة، ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾: ادخلوا جنان مشاهدتي، ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾: مسرورين بوصالنا.

قال سهل: بلذة النظر؛ لما مَنَّ عليهم من التوحيد عند تجلي المكاشفة لأوليائه، فهو البقاء مع الباقي، ألا ترى كيف خصَّهم بالإيمان على شرط التسليم؟! ثم زاد في وصف أحوالهم في جنة مشاهدته بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾: ما تشتهي الأنفس الروحانية القدسية الروحية العاشقية بجمال القدم التي ترى جمال الحق بعين الصورة، فإذا ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين هو وصال الحق والنظر إلى جماله أبد الآبدين.

قال سهل: فيها ما تشتهي الأنفس من ثواب الأعمال، وتلذُّ الأعين مما يفضل الله به من التمكين في وقت اللقاء.

قال جعفر: شتَّان بين ما تشتهي الأنفس وبين ما تلذُّ الأعين؛ لأن جميع ما في الجنة من النعيم والشهوات واللذات في جنب ما تلذُّ الأعين كأصبع تغمس في البحر؛ لأن شهوات الجنة لها حدود نهاية؛ لأنها مخلوقة؛ ولا تلذُّ الأعين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الباقي -جلَّ

وتعالى- ولا حدَّ لذلك ولا صفة ولا نهاية.

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: قارن ثواب الجنة بالأعمال، وأخرج المعرفة واللقاء والمحبة والمشاهدة من العلل؛ لأنها اصطفائية خاصة أزلية، يورثها من يشاء من العارفين الصديقين.

وقال ابن عطاء: الجنة ميراث الأعمال؛ لأنها مخلوقةٌ، فوازى المثل والكتاب ميراث الاصطفائية؛ فإنهما صفتان من صفات الحق.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ وصف الله سبحانه نفسه وإحاطته ببطون المغيبات وحقائق المضمرات بالعلم القديم، وسماعه حركات صميم أسرار الخلق بسمعه القديم المنزه عن الإصغاء، وكيف يخفى عليه ما أبدع وأوجد في بطون القلوب والغيوب! بل له كرامٌ كحَّل عيونهم بنور نوره، حتى يروا حقائق الأمور الغيبية كما قال ﷺ: « اتقوا فِراسةَ المؤمنِ؛ فإنَّه ينظرُ بنورِ الله»[1]، والملائكة يسمعون من الحق بالإلهام بعد ما وقع الغيب لله الخاص له.

والعارف الصادق له درجتان في ذلك: درجة الملائكة التي هي الإلهام، ولهم خاصية الرؤية والفراسة بنور الله، وهو أن يكون متصفًا بعلمه وصفاته، وهذه الآية وعيدٌ وتحذيرٌ لمن كان له قلبٌ يخطر عليه شيءٌ غير ذكر الله.

قال يحيى بن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيءٌ من السماوات والأرض فقد جعل ربه أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

قال الله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ ما يسرون من الذنوب، ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ ما يخفون من المعاصي، ﴿بَلَىٰ﴾ وكرام الكاتبين شهدوا على ظواهرهم وأنا شاهد على

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢٩٨)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٣٥٤).

بواطنهم، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: من لم يزجره عن المخالفات رؤية الحق وسماعه فإنه لا يزجره شيءٌ غير ذلك.

وقال أيضًا: دلَّ قومًا من عباده إلى الحياء منه، ودلَّ قومًا إلى الحياء من الكرام الكاتبين، فمن استغنى بعلم نظر الله إليه والحياء منه أغناه ذلك عن الاشتغال بكرام الكاتبين.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: أمر الله سبحانه حبيبه الأول صلاة الله عليه أن ألق رغام الهوان على أنوف أهل الخيال من الكفرة والمشبهة والزنادقة والثنوية والنصارى واليهود والمشركين بإظهار تنـزيه عزَّة أوَّليته، وتقديس جلال قدسه من علل الحدوثية، وأوصاف المخلوقية حتى يموتوا في غمار الغفلة من ضربات قدس الألوهية وقهر الجبارية أي: إن كنتم تزعمون لله المنـزه القديم شيئًا لا يليق بجلاله فأنا أول من يقدسه من طرآن علل الحدثان عليه، وأنا أول من أفنى من حياتي فيما أسمع منكم له فيه، وهذا كما قال الله تعالى في وصف السماوات والأرض والجبال كيف تخشَّعت من أقوال الكفرة فيه بقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾، ويلٌ لمن يتقاعد بعقله من الجهادات في معرفة الله، وإشارة أوليته ﷺ في عبودية الله إشارةٌ إلى بدو وجوده في إتيانه من القدم بنور القدم وانقياده في أول تجلي جلاله، وهذا كما قال الصادق: «أوَّلُ ما خلقَ الله نورُ محمدٍ ﷺ قبل كلِّ شيءٍ، وأوَّلُ من أوجدَ الله ﷺ من خلقه ذريةُ محمدٍ ﷺ، وأوَّلُ ما جرى به القلم لا إله إلا الله محمد رسول الله»[1]، قال: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: أحقُّ بتوحيد الله، وذكر الله تأكيد تقديسه بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣١١) بأوله فقط.

وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، ذكر غلبة قهره على السماوات والأرض والعرش والكرسي، حتى عرفوا أن ما يرون من أعظم الخلق يكون عاجزًا في خضوعه لسلطانه كيف يليق به ما تصف الكفرة، نـزَّه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، منـزَّهٌ عمَّا وصف به الموحدون والعارفون، فكيف عما وصف به الجاهلون.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: عظَّم أقدار العارفين بهذه الآية؛ حيث شاهدوا جلاله وجماله بأرواحهم وقلوبهم وأسرارهم وعقولهم، وهم يخبرون حقائقها بألسنةٍ عجيبةٍ ربَّانيةٍ إلهاميةٍ، يصفون الحق بها بما يليق بوحدانيته، وهم يعرفونه بما عرفهم نفسه تعالى، ولولا قول الله سبحانه في وصفهم بهذه الحالة وما وصفهم بالعلم به لعجبت من الحدثان كيف شاهدوا حق الحقيقة وكيف عرفوا حقيقة الحق.

قال الصادق: هم يعلمون أن الحق غير موصوفٍ بصفات الخلق، أقرُّوا باللسان بوحدانيته، وآمنوا بقلوبهم، وعملوا ما أقرُّوا به، وعملوا لمن أقرُّوا له بالربوبية علمـًا بأنه لا يستحق العبودية سواه.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾: أمر الله سبحانه حبيبه ﷺ بالصفح عن الجاهلين بأن يعذرهم من حيث جهلهم بالله، ومن حيث إنه قهرهم وطردهم، وبأنهم يعرفون خصائصه، ومعنى قوله: ﴿وَقُلْ سَلَـٰمٌ﴾ أي: لاطفهم في دعوتك إياهم إليَّ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قدرك بعد أن أعرفهم منازلك بتوفيقي لهم، لعل فيض كرمي يدركهم، وهذا تأديبٌ لدعاة الخلق إلى الحق.

قال ابن عطاء: أعذرهم في جهلهم بحقك، وتركهم لحرماتك، وسلِّم عليهم؛ ليسلموا من توابع البلاء.

سورة الدخان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾.

﴿حمٓ﴾ : الحاء الوحي الخاص إلى محمدٍ، والميم محمدٌ ﷺ، وذلك الوحي الخاص بلا واسطةٍ خبرٌ من سرٍّ في سرٍّ، لا يطَّلع على ذلك السر الذي بين المحب والمحبوب أحدٌ من خلق الله، ألا ترى كيف قال سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، وذلك إشارةٌ إلى وحي السر

في السر، وجملتها قَسَمٌ أي: بحقِّ الوحي السري والمحب والمحبوب والقرآن الظاهر الذي ينبع عن الأسرار ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾، الليلة المباركة ليلة المعراج التي وصل الحبيب إلى الحبيب، وذلك مباركٌ عليه؛ حيث رأى ربه، وأنـزل على قلبه القرآن من سماء الأزل إلى روحه، ووصل إليه بركات جماله وخطابه، سمع من الحق كلامه شفاهًا، ونـزل إليه من الحق أنوار كلامه، وكلمه تسعين ألف كلمة، وما نـزل القرآن في أي وقتٍ كان إلا وذلك الوقت مباركٌ عليه وعلى أمته، وليلة نصف شعبان ليلة يتجلى الحق بعزته وجلاله للعالمين، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «إنَّ الله تعالى ينـزلُ مِنَ السماءِ فِي ليلة النصف من شعبانَ»[1]، وما بارك تلك الليلة؛ حيث يصل بركات جماله إلى كل ذرة من العرش إلى الثرى، وفي تلك الليلة اجتماع جميع الملائكة في حظيرة القدس.

قال ابن عطاء: ليلةٌ مباركةٌ لمجاورة الملائكة ومقارنتهم.

وقال سهل: أنـزل القرآن في هذه الليلة من اللوح المحفوظ على روح محمد ﷺ، وهو الروح المبارك، فسمَّى الله الليلة مباركة لاتصال البركات بعضها ببعضٍ.

قال جعفر الصادق: هذا من العلوم المكتومة، إلا أن العلماء يخبرون عنها بلطائف الفهوم، فالحاء هو وحي كتابه المنـزل على رسوله ﷺ، والميم كتابه إلى محمد ﷺ.

وقال أيضًا: إن نـزوله كان ليلة القدر.

وقال الأستاذ في ﴿حمٓ﴾: فالحاء تشير إلى حقه، والميم تشير إلى محبته، ومعناه: وحقي ومحبتي لعبادي وكتابي العزيز إليهم إني لا أعذِّب أهل محبتي بفرقتي ولا بشيءٍ دونها.

وقال في قوله: ﴿لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾: لأنها ليلة افتتاح الوصلة لأهل القربة.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾: يفصِّل في تلك الليلة أمور الخلق من العرش إلى الثرى، ويجددها على العقول والأرواح والقلوب على عيون الملائكة قضيات الأولية؛ لإدراك فُهُومَهم صورة المقدرات، ويعطى كل ذي فضل جزاءه من القربات والمداناة، ويوصل بركات جماله إلى كل ذرة في العالم، فتحملها ببركاته حتى تلد في أوان

---

(١) رواه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٢٩).

المواليد بنيرات أفعاله وواضحات آياته، ألا ترى كيف تحمل الأشجار من نسائم اللواقح، وتضع حملها في الربيع، فتهتزُّ الأرض بأنواع الرياحين، وذلك من بركة وصول شمال جماله إليها، ألا ترى كيف قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؟!

قال ابن عطاء: يعطي كل عاملٍ بركات أعماله؛ فيلقي على لسان الخلق مدحه، وعلى قلوبهم هيبته.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾: بيّن أن الشك في الله يوجب الغفلة عن الله.

قال محمد بن حنيف -رحمة الله عليه-: من استولت عليه الغفلة أدَّاه ذلك إلى الشك، ومن لزم الشك كان بعيدًا عن عين الصواب، قال الله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾: ظاهر الآية دخان الكفرة من الجوع في الظاهر ودخان بواطنهم ودخان النفس الأمَّارة والأهواء المختلفة التي تغير سماء قلوبهم بغبار الشهوات وظلمة الغفلات.

قال سهل: الدخان في الدنيا قسوة القلب والغفلة عن ذكر الله.

﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾: ضعف الإيمان ما يكون عند نـزول البليات، بل الإيمان الأصلي ما يكون أعظم في العافية مما يكون في البلاء، ولا ينكشف العذاب والحجاب إلا بصدق الافتقار والحياء من الله في النظر إلى غيره.

وقال بعضهم: لا يستكشف العذاب إلا بتمام الإيمان وصحة الالتجاء والرغبة والدعاء.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾: أخبر الله سبحانه بهذه الآية أن المفارقة من الأضداد واجبةٌ.

قيل: إن بعض أصحاب الجنيد وقع له إنكارٌ عليه في مسألة جرت له معه؛ فبكَّر إليه ليعارضه فيها، فلما دخل على الجنيد نظر إليه وقال: يا فلان ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾.

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾: خاطب الله موسى بأن يرفع تقاضي سره حقائق المقادير ولا يتفحص، ولا يغوص في بحار الربوبية، حتى لا يستغرق بنعت الفناء في قلزم العدم، ولا يخرج منه أبدًا إلى سواحل النبوة؛ فإن بحار الألوهية لو تكون متلاطمة يستغرق فيها الأولون والآخرون أي: لا تشوشها حتى تغرق المدعين بالربوبية والسلطنة في أول بواديات بحار القهريات.

قال سهل: أي: اجعل قلبك ساكنًا في تدبيري، ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي: فإن المخالفين قد غرقوا في التدبير.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾: كيف تبكي السماء والأرض على من يدَّعي الأنانية في ساحة كبرياء الأزل، والسماوات والأرضون في عظمها تصير هناك أقل من خردلة من هيبة عزة جبروته وملكوته، فغارت عليهم السماوات والأرض؛ إذ ادَّعوا ما ليس لهم في أمر الربوبية، وهي تبكي على العارفين الذين لا يجترئون أن يصفوا معروفهم بجميع الألسنة حياءً منه، إذا فارقوا من الدنيا تبكي السماوات والأرض بمفارقتهم حين لا تصعد عليهم أنوار أنفاسهم ولا يجري عليها بركات آثارهم كما روي في الحديث أن: «السماءُ والأرضُ تبكي بموت العلماء»[1].

قال بعضهم: كيف تبكي السماء على من لم يصعد إليه منه طاعة؟! وكيف تبكي الأرض على من يعصي الله عليها؟! معناه ما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء، ولا مواضع عبادتهم من الأرض.

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٤/ ١٤٣) بنحوه.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: على علم بصفاتنا، ومعرفةٍ بذاتنا، ومشاهدةٍ على أسرارنا، وبيانٍ على معرفة العبودية والربوبية ودقائق الخطرات من القهريات واللطفيات في زمان المراقبات.

قال الواسطي: اخترناهم على علم منا بجناياتهم وما يقترفون من أنواع المخالفات، فلم يؤثر ذلك في سوابق علمنا بهم؛ ليُعْلَم أن الجنايات لا تؤثر في الرعايات.

وقال الخراز: علمنا ما أودعنا فيهم من خصائص برِّنا، واخترناهم بعلمنا على العالمين.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أرجى آية للعارفين هذه الآية؛ حين فصل الله بينهم وبين الحدثان، وأوصلهم إلى مشاهدته ووصله بنعت القربان.

قال بعضهم: يوم يفصل بين كل عاملٍ وعمله، ويطلب بإخلاص ذلك وبصحيحه، فمن صحَّ له مقامه وأعماله قبل منه وجزي عليه، ومن لم يصلح له أعماله كان عمله عليه حسرةً.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾: إن يوم القيامة يوم يكشف السرائر والضمائر، من كان ميله إلى غير الله يحتجب به عن الله، ولا ينقذه ذلك عن البعد منه إلا من كان محفوظـًا برعايته، محروسـًا بعنايته، مجتبىً بسوابق الاصطفائية الأزلية.

قال سهل: من رحم الله عليه في السبق فأدركته في العاقبة بركة تلك الرحمة، حيث

جعل المؤمنين بعضهم في بعض شفعاء.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسۡتَبۡرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [1] أي: إن المفردين عن الأكوان وما فيها بنعت التجريد والتوحيد والتبري من غير الله واستحسانه في محبة الله بعين الرغبة فيه هم في مقام وصلة الحق، حين لا يجري عليهم اضطراب الفراق، ولا يحجبهم غير الحق في مقام الأشواق، آمنين منه به حين ألبسهم أنوار كماله وجلاله وجماله.

قال جعفر الصادق: كانوا في الدنيا على خوف العذاب ووجل الفراق وذلك مقام المتقين في الدنيا، فأورثهم ذلك أمانًا وأمنًا أن يسلب ذلك منهم.

وقال أيضًا: المقام الأمين وصلة الجبار.

وقال بعضهم: المقام الأمين مجالسة الأنبياء والأولياء والصديقين والشهداء.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾: افهم يا فَهِم لو تدرك حقائق أمور المعارف لا تتهمني بالجهل فيما أقول لك؛ فإن الموت الأصلي هو العدم، وكيف يموت من أوجده الحق بنور القدم، الموتة الأولى هي عدمهم قبل وجودهم، فبعد الوجود لا يكون القدم بالحقيقة، إنما يجري عليهم أطوار فنون امتحانات الحق كالذهب ساعة في طين، وساعة في نار، وساعة في بوتقة، وساعة في سواد، وساعة في بياض حتى يعود إلى ما خرج من المعدن ،فأطوار الخليقة إلى الأبد في تقلبها بقاء في بقاء، وكيف يفنى بالحقيقة من أوجده الحق من مكمن الغيب إلى قضاء ربوبيته، فإذا أحضرهم في ساحة كبريائه ويتجلى لهم بالبداهة من عين الجبارية والقهارية يكونون في محل الفناء وفي فناء الفناء من عليات سطوات ألوهيته، فإذا صاروا فانين ألبسهم الله لباس بقائه؛ فيبقون ببقائه أبد الآبدين، فإذا الاستثناء وقع على

---

(١) لما ذكر وعيد الكفار أردفه بآيات الوعد فقال: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ» قال أهل السنة: كل من اتقى الشرك صدق عليه أنه متق ، فوجب أن يدخل الفساق هذا الوعد فقال: (فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) وقرأ أهل المدينة والشام بضم ميم «مُقَام» على المصدر ، أي في إقامة وقرأ الباقون فتح الميم أي في مجلس أمنين آمنوا فيه من الغير. تفسير ابن عادل (١٤/ ١٧٦).

التحقيق لا على التأويل فيأرب موت هناك؛ ويأرب حياة هناك؛ لأن الحدث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القدم، ألا ترى إلى إشارة النبي ﷺ كيف قال: «حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[١].

قيل للجنيد: أهل الجنة باقون ببقاء الحق؟ فقال: لا، ولكنهم مبقون ببقاء الحق، والباقي على الحقيقة من لم يزل ولا يزال باقيـًا، ثم بيَّن الله سبحانه أن هذه الكرامات فضلٌ منه عليهم؛ حيث اختارهم بها في الأزل، وأخرجها من علل الاكتساب بقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: عطاء واصطفائية لا جزاء للأعمال المعلولة.

قال الواسطي: هو الفضل لا استحقاق بعمل العبد وكسبه وحركته.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ افهم أن الكلام الأزلي ما فارق من الأزل، وكيف يحل القديم في الحديث؟! وهو مستحيلٌ من كل الوجوه، لكن لما أراد أن يخبر عن نفسه ألبس نور كلامه لسان حبيبه ﷺ، فيحتمل كلام الحق بنور الحق، فإذًا الحق مع الحق لا مع غيره؛ فلسانه فعل الحق، وفعل الحق مجرى نور صفاته، جعله فصيحـًا بتيسره، وسهَّل عليه جريان لسان الحديث به؛ لعلهم يدركون من لسانه معاني صفات الحق، فإن الله لو أسمعهم بغير الوسائط لماتوا جميعـًا.

قال ابن عطاء: يسَّر ذكره على لسان من شاء من عباده، فلا يفتر عن ذكره بحالٍ، وأغلق باب الذكر على من شاء من عباده، فلا يستطيع ذكره بحال.

قال جعفر الصادق: لولا تيسيره لما قدر أحدٌ من خلقه أن يلفظ بحرفٍ من القرآن، وأنَّى لهم ذلك؟! وهو كلام من لم يزل ولا يزال.

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: انتظر وقوع مقاديري عليهم؛ فإن في رؤيتها عبر العارفين وموعظة المتقين.

قال جعفر: الانتظار معدن الإيمان، وهو سبيل أهل الحق إلى الحق، النبي بنبوته، والولي بالولاية.

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٦١).

سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝﴾.

﴿حمٓ﴾: الحاء يدل على أن في بحر حياته حارت الأرواح، وفي ميادين محبته هامت الأسرار.

قال الأستاذ: أي: بحياتي ومودتي لا شيء أحبُّ على أحبائي من لقائي.

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في السماوات والأرض ظهور أنوار قدرته وسنا جماله لأبصار العارفين وبصائر المحبين.

قال سهل: علامات لمن أيقن بقلبه، واستدل بكونها على مكون هذه الآيات الظاهرة.

﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: ما بان في السماوات والأرض بان في خلق الإنسان والحيوان أيضًا، فما بان في السماوات والأرض للمؤمنين بان في خلق الإنسان والحيوان للموقنين؛ لأن ما بان في خلق الإنسان حقيقة مباشرة الصفة في الفعل، وذلك يوجب حقيقة اليقين، وبين اليقين والإيمان فروقٌ كثيرةٌ، وحقيقة الإيمان هو اليقين؛ حين باشر الأسرار بظهور الأنوار، ألا ترى كيف سأل النبي ﷺ بقوله:

«اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك إيمانًا يباشرُ قلبي ويقينًا ليس بعده كفرٌ»[1].

قال بعضهم: في شواهد القدرة وآثار الصنع دلالاتٌ وآياتٌ على وحدانيته، فمن استشهد بها على وحدانيته فهو الموحِّد، ومن كان نظره إلى القادر الصانع المبدي لها ثم يرجع إلى الصنع والقدرة فهو العارف.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ١١٨).

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾: اتخذوها هزوًا لما لم ينكشف لهم أنوار الشاهد في الشواهد، لم يتمتعوا بلطائفها، وصارت لهم زيادة الحجاب.

قال ابن عطاء: من لم يجد في طاعة الله ولم يصرف همه إلى الدخول فيها بشرط الأمر والخروج منها بشرط الآداب نـزع الله حب الطاعة من قلبه، وردَّه إلى حوله وقوته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، علمها علم استدلال لا علم حقيقة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾: تسخير ما في السماوات والأرض التمتع بمشاهدة مكونها فيها؛ لأنها منه بدت منورة بنوره.

قال النهرجوري: سخر لك الكون وما فيه؛ لئلا يسخرك منها شيءٌ، وتكون مسخرًا لمن سخر لك الكل، فمن ملَّكه شيئًا منها وأسرته زينتها وبهجتها فقد جحد نعمة الله عنده، وجهل فضله وآلاءه عنده؛ إذ خلقه حرًّا من الكل عبدًا لنفسه، فاستعبده الكل، ولم يشتغل لعبودية الحق بحالٍ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ

سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾: شريعته منهاجه إلى الحق، وذلك المنهاج جامعٌ؛ إذ فيها جميع شرائع الأنبياء ومقامات الأولياء أي: أنت لا تحتاج إلى من مضى من الأولين؛ فأنت أكمل الخلق اتبع ما اختار الله لك من الطرق المستقيمة؛ لذلك قال: «بُعثت بالحنيفية السهلة السمحة البيضاء، لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي»[1].

قال سهل: المنهاج سنن من كان قبلك من الأنبياء والأولياء؛ فإنهم على منهاج الهدى والشريعة هي الشارع الممتد الواضح إلى طريق النجاة وسبيل الرشاد.

قال الصادق: الشريعة في الأمور محافظة الحدود فيها.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: من نظر إلى ما وصل إليه مما ابتلي به المريدون، فقد اتخذ هواه إلهًا؛ إذ بنفسه محجوبٌ، ومن باب المشاهدة مطرودٌ، وذلك بإضلال الحق إياه بما سبق في علمه بأنه يكون محجوبًا منه به، قال الله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

قال سهل: من اتبع مراده لم يسلك مسالك الاقتداء، وآثر شهوات الدنيا على نعيم الآخرة، ثم طمع أن له في الآخرة ما للمؤمنين من الدرجات الرفيعة والمنازل السنية.

وقال في قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: ضلَّ عليه علم نجاته، ثم إن الله سبحانه أكد أمر ضلاله بقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً﴾: ختم على سمعه وقلبه ختم الضلال والغيرة والقهر القديم، وغطى بصره بعمى الكفر.

قال سهل: ختم على سمعه، فحوى عليه سماع خطابه، وحرَّم على قلبه فهم خطابه وعلى عينه مشاهدة آثار القدرة في صنعه.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١/ ٢٠٠) بنحوه.

ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: يحييكم بمعرفته وتجليه، ويميتكم باستتاره، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لمشاهدته.

قال سهل: يحييكم في بطون أمهاتكم، ثم يميتكم بجهدكم، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لمشاهدته.

قال سهل: يحييكم في بطون أمهاتكم، ثم يميتكم بجهلكم، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة أولكم وآخركم لا ريب فيه.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾(١): هذا إذا بدا سلطان أنوار عزته تجثو على بساط القيامة من ركوب عظمته عليهم، لا يتكلم منهم إلا من له انبساط.

وقال سهل: على ركبها يجادل عن نفسها عند الموافق الصادق، يجتهد في تحقيق صدقة، والجاحد يجحد في الدفع عن نفسه، وكلٌّ محكوم عليه بالكتاب الذي أملاه مداده ريقه، وقلمه لسانه، وقرطاسه جوارحه.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾: كتاب الحفظة منقوش ما سبق به

---

(١) فهي عامة للناس في حال الموقف قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، فإن أهل الموقف جاثون على الرُّكب، كما هو المعتاد في مقام التفاؤل والخصام، قلت: ولعل هذا فيمن يُناقش الحساب، وأما غيرهم فيلقى عليهم سحابة كنفه، ثم يقررهم بذنوبهم ويسترهم. البحر المديد (٣ / ٤٧٩).

القدر، يشهد بما جرى على العبد.

قال ابن عطاء: حكم الأزل ينطق عليهم بتصحيح ما في كتبهم وتحقيقها.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: حقيقة الحمد لله لا لغيره، وهو مستحقُّ الحمد؛ إذ النعم بالحقيقة، وهو المنعم لا غيره، ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ففي الحق الكبرياء عن الحدثان؛ لأنه هو المستحق للكبرياء، وكبرياؤه ظاهرٌ في كل ذرةٍ من العرش إلى الثرى؛ إذ هي كلها مستغرقةٌ مقهورةٌ في أنوار كبريائه، يعزُّ بعزَّة الأولياء، ويقهره بقهر الأعداء، حكيمٌ في إبداع الخلق وإلزامهم عبوديته التي هي شرائعه المحكمة بحكمه.

قال سهل في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾: العلو والقدرة والعظمة والحول والقوة، له في جميع الملك، فمن اعتصم به أيّده بحوله وقوته، ومن اعتمد على نفسه وكّله الله إليها.

سورة الأحقاف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

﴿حمٓ﴾: إشارة الحاء والميم إلى حمايته أسرار الواصلين عن حركات الضمائر؛ لأنها حمائم أبراج الملكوت والجبروت، حمد نفسه بما أولاهم لهم، ومَنَّ عليهم حتى ارتفع حمده عن الحدثان؛ إذ حمده لا يستطيعه أحدٌ من خلقه أي: بحمدي على نفسي وحمايتي قلوب العارفين هذا تنـزيلٌ مني، وأنا العزيز الغالب بقهري على سلب أرواح العاشقين بجمالي وجلالي، وأنا الحكيم في اصطفائيتك من اصطفائيته كل نبيٍّ ورسولٍ ووليٍّ وملكٍ مقرَّبٍ، يا حبيبي ويا محبي حكمت في نفسي أن أوصلكم إلى وصالي، وأسقيكم من بحار حياتي شرابات أنوار القيومية الباقية الأزلية الأبدية.

قال الأستاذ في قوله ﴿حمٓ﴾: حميت قلوب أهل عنايتي، فصرفت عنها خواطر التجويز، وأثبتها في شاهد اليقين بنور التحقيق، فلاحت فيها شواهد برهانهم، وأضفنا إليها لطائف إحساننا، فكمل مناها من عين الوصلة، وغذيناها بنسيم الأنس في ساحات القربة.

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا

عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: كان في علم الله في أزل أزله أنه يوجد الكون من العدم، فأوجده بحق العلم السابق، وذلك الحق حقُّ سوابق إرادته الأزلية على وجود الأكوان والحدثان؛ لتحقق بأنوار حقائق اصطناعه حقائق أنوار قلوب العارفين، وليتطرقوا بوسائط الشواهد إلى مشاهد جلاله وجماله؛ لئلا يحترقوا بالبديهة في بروز سطوات قدسه وكبريائه.

قال ابن عطاء: خلق السماوات والأرض، وأظهر فيهما بدائع صنعه وبوادي قدرته، فمن نظر إليهما فرأى فيهما آثار الصنع فهو لتيقظه، ومن نظر وشاهد الصنائع فهو لتحققه.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾: بيَّن الله سبحانه أن حال حبيبه عليه الصلاة والسلام حالةٌ معروفةٌ في الملكوت والعالمين، وهي ما جرت على جميع الأنبياء والمرسلين من كشوف أسراره، وبروز أنوراه، وظهور نفسه لهم، وإخباره عن نفسه، وملكه إياهم ليدعوا العباد إلى ساحة قربه وخدمته، أي: ما كنت بأول من الأنبياء والرسل، ولست عجيباً بحالتي ونبوتي؛ فإن النبوة سنة الله التي جرت على إخواني من الأنبياء والرسل، وهي معروفةٌ بأنه دعا الخلق بلسان الأنبياء إلى طاعته ومعرفته

ومشاهدته، وما أعلم ما حُكِم في الأزل عليَّ ولا عليكم؛ فإنه شاهد القلوب وعلام الغيوب، أوجد من العدم بنور القدم، ولا أدري أين استغرق في بحار وصال جماله الأبدي، فهناك لججٌ تغيب في ذرة منها جميع الأرواح العاشقة والأسرار الوالهة والقلوب الحائرة، وما أدري كيف يفعل بكم فيما جرى من السعادة والشقاوة في الأزل؛ فإن علم العواقب عنده، لا يطَّلع عليه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ؛ لأنه من علم ما استأثره لنفسه خاصة، وليس لأحدٍ منه نصيبٌ إلا لمن أظهر له شيئًا منه، كقوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

قال سهل: ما كنت عجيبـًا في المرسلين؛ فإني لم أدعوكم إلا إلى التوحيد، ولم أدلكم إلا على مكارم الأخلاق، وبهذا بعث الأنبياء وﷺ قبل.

قال الواسطي في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾: إن الله تعالى ستر أمر الروح على جميع خلقه، وستر ماهيته ذاته، وستر ما يعامل به الخلق عند معاينته فقال: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾: ما قال القوم هذا القول حتى شاهدوا بقلوبهم وعقولهم وأرواحهم وأسرارهم مشاهدة الحق سبحانه، فإذا رأوه قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، كطلاب الهلال سكتوا في طلبه، فإذا رأوه يقولون: هذا الهلال، وصاحوا، وصفقوا، وضحكوا لهذا القول منهم بعد كشف مشاهدة الحق لهم، فلما رأوه أحبوه، وعرفوه، وشربوا من بحار وصاله وجماله وجلاله شربات المحبة والشوق، وتمكنوا شربها حتى استقاموا بقوتها في موازاة رؤية أنوار الآزال والآباد، واستقاموا في مراد الله منهم، وأداء حقائق عبوديته، فلا يتبقى عليهم خوف الحجاب ولا حزن العتاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قال ابن طاهر: استقاموا على ما سبق منهم من الإقرار بالتوحيد، فلم يروا سواه منعمـًا، ولا شكروا سواه في حال، ولا رجعوا إلى غيره، وثبتوا معه على منهاج الاستقامة.

وقال جعفر: استقاموا مع الله بحركات القلوب مع مشاهدات التوحيد.

وقال بعضهم: أفردوا الله بالملك والربوبية والقدرة، واستقاموا على هذه الشروط، فلم يخالفوه.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾: وصَّى الإنسان بالإحسان إلى أبويه؛ لأنهما أسباب وجوده ومصادر أفعال الحق، بدا منهما بدائع قدرته، وأنوار ربوبيته؛ فحرمتهما حرمة الأصل، ومن صبر في طاعتهما رزقه الله حسن المعاشرة على بساط حرمته وقربته.

قال بعضهم: أوصى الله العوام ببرِّ الوالدين لما لهما عليه من نعمة التربية والحفظ، فمن حفظ وصية الله في الأبوين وفقته بركة ذلك لحفظ حرمات الله تعالى، وكذلك رعاية الأوامر والمحافظة عليها توصل بركاتها بصاحبها إلى محل الرضا والأنس.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾: وصف الله الصدّيقين في طرفين من أعمارهم أنهم في عنفوان شبابهم، وأشد أسنانهم أهل الاجتهاد والرغبة في الطاعات، وفي أربعين سنة هم أهل الكمال في العقول والفهوم والاستعداد لقبول الوحي والإلهام والكلام والكشف والعيان، ألا ترى كيف عرف شأنه الصديق ﷺ حين بلغ أربعين سنة في صحبة النبي ﷺ في أول شبابه بما أخبر الله عنه بقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾: ألهمني رشد التوفيق، وألبس قلبي ولساني نور عرفانك وقوة فيض مشاهدتك، أشكر بهما نعمة مشاهدتك ومعرفتك وصحبة رسولك؛ فإنه أعظم النعم منك عليَّ وعلى والدي.

قال ابن عطاء: خاطب الله الأنبياء، وبعثهم عند كمال الأوصاف وتمام العقول، وهو الوقت الذي أخبر الله تعالى عن تمام خلقه عباده، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

وقال سهل في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ أي: ألهمني التوبة والعمل بالطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾: العمل الصالح المقرون بالرضا بذل النفس لله والخروج مما سوى الله للوصول إلى مشاهدة الله.

قال سهل: العمل المرضي ما كان أوائله على الإخلاص مقيدًا باتباع السنن.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾: اجعلهم أولياءك وأهل معرفتك وطاعتك.

قال سهل: اجعلهم لي خلفَ صدقٍ، ولك عبيدَ حقٍّ.

وقال محمد بن علي: لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلاً.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾: وصف الله أهل معرفته من الجن كيف حبست ألسنتهم هيبة الخطاب وحشمة المشاهدة، وهكذا من ألبس أنوار الهيبة والعظمة يخرس لسانه عن الانبساط والمخاطبة وإفشاء السر، وهذا بعد شهود القلوب أنوار الغيوب بنعت إصغاء الأسرار إلى وقوع الخطاب وكشف النقاب.

قال محمد بن سليمان: ليس في مقام الحضرة إلا الخمول والذبول والسكون تحت

موارد الهيبة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾.

قال النصر آبادي: هيبة المشاهدة إذا طالعت السرائر بحقائقها أخرست الألسن عن النطق في ذلك المشهد، كالجن لما حضروا النبي ﷺ، فأراد أن يقرأ عليهم أوصى بعضهم بعضًا بالإنصات، فلما حضروا قالوا أنصتوا.

وقال الواسطي: شاهدوا عز الربوبية ظاهرًا في أوصاف البشرية أخرسهم المشهد لشدة الهيبة.

﴿قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: يرشد إلى مشاهدة الحق، وإلى طريق معرفته بنعت الخروج عما دون الله، القرآن صفة الحق، وصفته تدل على ذاته، ترشد ظواهره إلى بواطنه، وبواطنه إلى مصادره الأزلية الأبدية.

﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾[1]: أخبر الله عن مقالة كبراء الجن وعلمائهم لمريديهم أي: سمعتم بآذان الأرواح والأسرار مناداة الأزل قبل الكون،

---

(١) إنما اقتصر على مغفرة الذنوب، والإجارة من العذاب، وطوى ذكر إدخال الجنات، والإثابة بالنعيم؛ لأنه كقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢]، وذلك لا يقتضي ألا يكون للجن نعيم ورؤية، فإن أول الدعوة الإنذار للنجاة من النار، ثم التبشير للفوز بالنعيم، كما هو مقتضى الإيمان.

ودخل في النعيم الرؤية؛ لأنها أعلى النعيم الإلهية؛ ولذا ورد: «وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك الكريم».

حيث أثبت اللذَّة للنظر؛ لأن الرؤية من اللذات المعنوية، والنعم الروحانية، فظهر من هذا أن المؤمنين من الجن؛ كالمؤمنين من الإنس في الإجارة والإثابة؛ لأن كلاً منهم داخلون تحت التكلُّف والدعوة، فمشاركتهم في ذلك تقتضي مشاركتهم في النعيم مطلقًا.

فأجيبوها بنعت الطاعة على لسان حبيبه ﷺ؛ فإنه مرشد الحق بهدي إلى الحق، ثم أتبع الإجابة بالإيمان والتصديق فيما أخبر عن الحق سبحانه بقوله: ﴿وَءَامِنُوا بِهِۦ﴾ أي: بكلامه وخطابه ورسوله ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ، هذا شرطٌ بعد الإيمان والإجابة والمتابعة أي: يغفر لكم جهالتكم الأولية، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ﴾ الحجاب.

قال سهل: لا يجيب الداعي إلا من أسمع اقتداءً ووُفِّق للجواب ولقن، وإلا فمن يجسر على إجابة هذه الدعوة.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ : أدَّب حبيبه ﷺ بآداب أكابر الأنبياء الذين هم أهل عزائم بذلك الموجود لله وفي الله، بعد أن عاينوه، وعرفوه، وأحبوه، وصبروا له وفيه أي: أنت في بحر بلائي أمتحنك بعظائم الامتحان التي لا يثبت بإزائها الصخور الصم، وأعظم البلاء كشف جمال قدسي لك، الذي يفنى فيه من العرش إلى الثرى، ﴿فَاصْبِرْ﴾ به في مشاهدتي، ولا تفش سري بيني وبينك عند الخلق، فإن بدت منه ذرةٌ لخلقي تضمحل الأكوان والحدثان وحقيقة الإشارة أي: أنت عزمت بسرك وروحك أن تسري من عالم الحدثية إلى ميادين الوحدانية، وتطير بأجنحة المعرفة في هواء القدم والبقاء الذي لا نهاية له؛ إذ الدهر الدهار أقل من لمحة في زمانها فيه، فاصبر فيما عزمت؛ فإنك تفنى في كل لمحة منك في سطوات ألوهيته كما صبر أولو العزم في أسفار الديمومية، وإدراك حقائق الأزلية والأبدية، صبروا في تقلبهم في لطمات بحار القدمية حين استغرقوا في مقام سر الكبرياء، وما وجدوا نهايتها، فكادوا يفرون، ويخرجون منها، فأغرقتهم أمواجها، فاستغاثوا منه إليه، فألبسهم قوى الربانية، فسبَّحوا فيها بالحق، وذهبت بهم بحار الربوبية إلى معادن الأولية، فلما بلغوا أقصى غايات هممهم وظنوا أنهم وصلوا ورأوا أنفسهم أنهم في أوائل أسفار الغيب كادوا أن يفنوا، فصبروا بالله في الله، وآيسوا من الوصول إلى كنه القدم، ولم ينقطعوا من أسفارهم، وأيضًا فاصبر؛ فإنك في تلك الأسفار، ولا يصح حين لم تجد هنالك نفار الخروج منها، فإن من عرفني غرق في بحر كبريائي وعظمتي أبد الآبدين، ألا ترى كيف قال: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل﴾ أي: ولا تستعجل؛ فإن أموري لا تدرك بحلاوة العقول، ولا يدركني غوص الفهوم، ولا لباب القلوب، ولا الدهر الدَّهار، ولا تقلب الأفكار، فإن جميع الأزمنة والدهور مقصرةٌ عند أوليتي وآخريتي، ألا ترى كيف وصف الهالكين في بحار قهره بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا

﴿يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ أي: ما مضى من بدو الوجود إلى زمان الفناء في أيام القدم المنزَّه عن الأدهار والأعصار كلا شيء في شيء، ثم بيَّن أن هذه الأسرار والحقائق المكشوف ذلك ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي: مني إليك ومنك إلى العالمين، ثم بيَّن أن عند معاينة سطوات القهريات لا يهلك فيها إلا الخارجون من نعوت استعداد معرفتي حين يحتجبون بظلمات ظنونهم بقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون بالدعاوي الباطلة.

قال سهل في قوله: ﴿أُوْلُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾: إبراهيم أُبتلي بالنار، وذبح الولد، فرضي وأسلم، وأيوب بالبلاء فصبر، وإسماعيل بالذبح فرضي، ونوح بالتكذيب فصبر، ويونس ببطن الحوت فدعا والتجأ، ويوسف بالجب والسجن فلم يتغير، ويعقوب بذهاب البصر وفقدان الولد، فشكا بثه إلى الله، ولم يشكُ إلى غيره، وهم اثنا عشر نبيًّا صبروا على ما أصابهم، وهم أولوا العزم من الرسل.

وقال الواسطي في قوله ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ إلى قوله ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾: لما جعل الأزل والأبد كساعة من نهار، فأين تقع في ساعة من نهار من طاعته ومعصيته من كرمه؟!

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: ستر وأنعم الله بنسيانهم عن ذكره وتجهلهم بالمنعم، وخاصموا أولياء الله، وأنكروا عليهم، أبطل الله ما عملوا بالرياء والسمعة والنفاق.

قال سهل: كفروا بتوحيد الله، وصدوا عن دين الإسلام أبطل أعمالهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن

يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾: اتبع الكفرة ما وقع في مخاييلهم من هواجس النفس ووساوس الشيطان، ولم يقبلوا طريق الرشد من حيث الوحي والإلهام، وأن الذين صدقوا في دين الله وشاهدوا الله بالله اتبعوا سنة رسوله وخطابه، وما يقع في أسرارهم من النور والبيان والإلهام والكلام بنعت الإخلاص في طاعته، والأدب في خدمته، والإعراض عن غيره.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ﴾: اتباع الباطل ارتكاب الشهوات وأماني النفس، واتباع الحق اتباع الأوامر والسنن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾: نصرة العبد لله أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه؛ فإنهم أعداء الله؛ فإذا خاصمها يقويه الله وينصره عليهم، بأن يدفع شرهم عنه، ويجعله مستقيماً في طاعة الله، ويجازيه بكشف جماله حتى يثبت في مقام العبودية وانكشاف أنوار الربوبية.

قال ابن عطاء: هو أن يكون عون الله على النفس، فإن الله ينصرك عليها حتى تنقاد لك، ولا يكون عون النفس فتضرع ضرعة لا تقوم بعدها أبدًا.

قال الترمذي: إن أكرمتم أوليائي أكرمتكم.

قال بعضهم: يرزقكم الله الاستقامة في كل أحوالكم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: إني محبهم وحبيبهم في الأزل حين اصطفيتهم بولايتي، واجتبيتهم بمعرفتي، وآثرتهم على بريتي، وجعلتهم مواقع نظري،

ومواضع ودائعي، وناصرهم على عدوهم، محبته لا تزول، ونصرته لا تحول.

قال أبو عثمان: معين من أقبل عليه، وناصر من استنصره.

قال سهل: ولي الذين آمنوا بالرضا والمحبة لجملتهم.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [1] أي: على مشاهدة ويقين، وبراهين واضحة، ومتابعة على وفق ما وقع في قلبه من طريق الخطاب، والإلهام الذي وافق الكتاب والسنة؛ فمن هذا وصفه لا يكون كمن يستحسن ما زين له نفسه وهواه شيطانه من حيث الجهل والغرور.

قال أبو عثمان: البينة هي النور الذي يفرق بها المرء بين الإلهام والوسواس، ولا تكون البينة إلا لأهل الحقائق في الإيمان، والبينة نورٌ، والمترجم عنها البرهان.

قال أبو سعيد الخراز: البينات مختلفةٌ، منهم من كانت بينته الإلهام، ومنهم قلوب أقفلت عن أن يدخلها شيءٌ في المعرفة بنفسه، ومنهم من كانت بينته المعرفة ببلاء الوقت وفتنته، ومنهم من كانت بينته في كشف ما كشف الله له من صحة الرجوع إليه واضح البينات ما يشهد له شاهد الحق ويتلوه شاهد منه.

قال الأستاذ: البينة الضياء والحجة والاستبصار لواضح المحجة والعلماء في ضياء برهانهم، والعارفون في ضياء بيانهم.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾: لأهل الحق في هذا العالم جِنان في قلوبهم وعقولهم، وأرواحهم وأسرارهم، فجنة القلوب روضة الإتقان،

---

(١) أي: من شهد مقام الله عز وجل بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زُين له سُوء عمله، واتبع هواه، فآثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده هـ. البحر المديد (٣/ ٣٩).

وجنة العقول بستان العرفان، وجنة الأرواح حديقة البيان، وجنة الأسرار فردوس العيان، ولكل جنة منها نهرٌ وشجرٌ وثمرٌ وزهرٌ، فنهر جنة القلوب ماء حياة الأزل التي تجري بنعت التجلي فيها من عيون الوحدانية، وهو لا يتغير بكدورات البشرية، يحيي القلوب بنور اليقين حتى لا يجري عليها موت الجهالة، وأشجارها أشجار الإيمان، وثمرها أنوار الإيقان، ونهر جنة العقول من ألبان القدرة يسقيها الحق منه؛ ليريها لصفاء أنوار قدرته التي يورث معرفتها بعزته وجلال قدرته وأشجارها الحكمة وأزهارها الفطنة، ونهر جنة الأرواح نهر كشف الجمال الذي مورده بحر الجلال، يسقيها الحق منه ليطيبها بلذة الجمال ورؤية الجلال، وأشجارها المحبة، وأزهارها الشوق، وأثمارها العشق، ونهر جنة الأسرار كشوف الذات المقدس عن انقطاع فيضه المسرمد، فيقويها الحق بشربة حتى استقامت في وصله، فهناك أشجارها التوحيد، وأزهارها التفريد، وأثمارها التحقيق، فأصحاب القلوب هم أهل الشهود، وأصحاب العقول هم أهل الكشوف، وأصحاب الأرواح هم أهل السكر والوجود، وأصحاب الأسرار هم أهل المحو والصحو، فأهل الشهود أصحاب المراقبات، وأهل الكشوف أهل المقامات، وأهل الوجود أهل الحالات، وأهل المحو والصحو أهل الاستقامة، فطوبى لمن كان له مثل هذه الجنان في دار الامتحان.

قال الأستاذ: اليوم للأولياء لهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفة، ثم شراب الولاء، ثم شراب في حال اللقاء، ولكل من هذه الأشربة عملٌ، ولصاحبه سكرٌ وصحوٌ، فمن شرب بكأس الوفاء لم ينظر في غيبته إلى غيره، كما قيل:

وما سُرَّ صدري منذ شطتْ بك النَّوى ... أنيسٌ ولا كأس ولا متصرفُ

ومن شرب بكأس الصفاء خلص له عن كل شرب وكدورة في عهده، فهو في كل وقت صافٍ عن نفسه، خالٍ من مطالبته، قائم به بلا شغل في الدنيا والآخرة، ولا أرب، ومن شرب بكأس الولاء عدم فيه القرار، ولم يغب سره لحظة لا الليل ولا النهار، ومن شرب في حال اللقاء أنس على الدوام بقائه، فلم يطلب مع بقائه شيئًا آخر لا من عطائه ولا من لقائه؛ لاستهلاكه في عَلائه عند سطوات كبريائه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: الذين اهتدوا بنور الله سبل الوصول إلى المشاهدة لله، وطلبوا عرفانه بنية صادقة، وقلوب شائقة راسخة، وعقول صافية، وأسرار طاهرة زادهم الله هدى، بأنه يُعرِّفهم طرق معارف صفاته،

وشهودهم مشاهد جلال ذاته، وأتاهم وقاية منه، بحيث جعلهم متصفين بصفاته، ثم عصمهم بها عن حجب الكدورات ونكايات الخطوات.

قال ابن عطاء: الذين تحققوا في طلب الهداية أوصلناهم إلى مقام الهداية، وزدناهم هدى بالوصول الهادي.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾: ليس في القرآن ذكر الذات المجرد عن ذكر الصفات والأفعال إلا ههنا، والله أعلم؛ فهاهنا خبر عن عين الألوهية التي تقتضي التوحيد المجرد الخالي عن التفرقة في طلب الصفة والفعل، فدعا حبيبه إلى رؤية عيان الذات بنعت العلم، وأراد أن يعجزه في رؤية ذاته عن إدراك الكل، ويذوق طعم الفناء في سطوات عزة ذاته، لا أنه دعاه إلى أن يعلم كنه عين القدم، فإنه منـزَّهٌ عن إدراك الخليقة بل عرَّفه نعوت الأولية المنـزهة عن الإدراك عن درك المتحيرين فيه، بأن يدركوه بعجزهم، فإن العاجز منقطعٌ بعجزه عنه بكل حال، وأيضًا دعاه إلى علم إفراد القدم عن الحدوث بقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فأفاد علمه طرفين من العلم: الأول نفي الأضداد، والثاني إثبات الذات، والمقصود منه هذان الحالان من النفي والإثبات، إلا أنه أعلم كنه الألوهية، ألا ترى كيف قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾ ؟! وهو نفي الأضداد و﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إثبات الألوهية، وكيف دعاه إلى العلم ببطون الأزل، وهو مستحيل أن يعلمها الحقيقة بالحقيقة، وإشارة قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [1]أي: من وجودك في مطالعتي ووجود جلالي، فإن بقاء وجود

---

(١) أمر تعالى بالعلم مع أنه هو العالم، كما أنه هو الشاهد في قوله: ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ والرامي في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ إشارة إلى ذنب الوجود المغفور؛ ولذا قال عقيبه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد:١٩]، وهي نسبة الوجود التي بها أُضيف العلم إليه، فإذا غفر وستر؛ كان الوجود وما يتبعه لله تعالى؛ وإنما أمره بالعلم مع أن هذه الشهادة أول ما صدر منه ﷺ، وهو في مرتبة العقل الأول، إشارة إلى الفرق بين مرتبتي الروح والجسد، فمرتبة الروح لكونها مرتبة التجرُّد؛ لا تحتاج إلى التذكير والأمر بالعلم، وأمَّا مرتبة الجسد =

الحدث في بقاء الحق أعظم الذنوب، وأيضًا إذا دعاه إلى العلم بوحدانيته وقع له ﷺ أنه يعلم الحق بالحقيقة في سرعة شوقه إليه، وكمال محبته له، فعرفه الحق موضع خاطره في شوقه أنه لا يمكن ذلك، وهو مستحيلٌ، وهو ذنبٌ، فأمره بالاستغفار منه بنعت عرفانه عجزه عن درك حقائق وجود القدم، وأيضًا ألبس روح محمد المصطفى ﷺ نورًا من نور علمه، جعله عالمًا بعلمه، ومتصفًا بصفته، فلما باشر ذلك النور نور روحه وتجلى الحق لسره من عين علمه صار عالمًا بعلم الحق على الحق، فلما وجده بهذه المثابة دعاه إلى العلم بحقيقة أحديته بنعت زوال الشواهد والجواهر والأعراض، والنظر إلى الأفعال وطلب الصفة إلى الذات بالحق إلى الحق ليعلمه، فحار سرُّه في ميادين الأزل والأبد، واستغرق في بحار أولية روحه وسره، ولم يدركه، وكلما وجد علمًا فني في علم آخر، وذهب العلم الأول في العلم الثاني، فلما وجده الحق عاجزًا عن دركه أمره بالاستغفار؛ لما فيه من بقايا وجوده في مقام الاتصاف، فإن في الاتصاف بقي العبد، وبقاء العبد في الاتصاف حجاب الاتصاف، فإذا بقي وجوده يحتجب به عن الإدراك، فإذا لم يبق بقي الحق، وهو عالم بنفسه أزلاً وأبدًا، فوجوده تكلفٌ في البين؛ إذ الحق عالم به لا هو، فأمره الحق بالاستغفار عن بقائه في الاتصاف، فإنه ذنبٌ عظيمٌ؛ إذ به محتجبٌ عن مقصوده، لذلك عرف حاله صلوات الله عليه، وقال: «إنَّه ليُغانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفرُ الله في كل يوم مائة مرة»[1]، ومن وقع في هذا البحر فقد وجب عليه في كل نفس ألف استغفار؛ لأن في أول الحال فرح بوجدان المقام والسكون إلى المقام، فلما انكشف إليه مزيد القرب والمعرفة عن الأول وقد وجب عليه الاستغفار من الفرح به والوقوف عليه، ولذلك قال الجنيد: اعلم حقيقة أنك بنا ولنا وبنا علمتنا، وإياك أن ترى نفسك في علمك، فإن خطر بك خاطرٌ غيره فاستغفر من خاطرك، فلا ذنب ولا خطرة أعظم ممن رجع عنا إلى سوانا ولو في خطرة ونفس.

=

فكونها مرتبة التعلُّق؛ تحتاج إلى ذلك؛ ولذا لَمَّا خلقه الله تعالى، وهو أول المبدعات قال: (لا إله إلا الله)، ولم يقل: وأنا العبد؛ لأن تلك المرتبة ليست مرتبة العبودية؛ بل مرتبة الحامدية بلسان الروح، ولَمَّا وقع المعراج، ودخل على الله تعالى قال: (لا إله إلا الله أنا العبد) فأثبت العبودية حينئذ لِما يقتضيه الموطن، فلكل من المواطن اعتبار غير اعتبار الآخر، ولَمَّا كانت الأُلوهية من الإضافات؛ لأنها تقتضي ألوهية العبد؛ وقع عليها العلم الذي هو نسبة من النسب أيضًا، وليس فوق مرتبة العلم والأُلوهية إضافة أصلاً؛ لأن ما فوقها ذات بحت لا اسم هناك، ولا رسم، ولا وصف، فإلى مرتبة الأُلوهية ينتهي علوم العلماء، ومكاشفة المكاشفين، ومن ثَمَّ حكم على العالم؛ بل المكاشف أيضًا بالحيرة لكنها هي الحيرة الممدوحة الناشئة عن علم وتجلٍّ، لا عن جهل واحتجاب، والله الهادي إلى عين ذاته.

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥)، وأبو داود (٢/ ٨٤).

قال الواسطي: من قال لا إله إلا الله على العادة فهو أحمق، ومن قالها تعجبًا فهو مصروفٌ من الحق، ومن قالها على الإخلاص فأشرك وطعنه؛ لأنه بإياه يخلص حتى يصير مخلصًا، ومن قالها على الحقيقة فقد تبتل عن الشواهد.

وقال القاسم: العلماء أربعة: عالم متروك، وعالم متمكن، وعالم موصول، وعالم مجذوب، فالعالم المتروك هم العامة، والعالم المجذوب وهم الذين جذب الله سرائرهم إلى سره، والعالم الموصول هم الذي يطلبون المعالية، والعالم المتمكن وهو محمد ﷺ وحد القرار في محل المشاهدة؛ لذلك خوطب بقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ولم يقل فاعرف؛ لأن الإنسان قد يعرف الشيء ولا يحيط به علمًا، ما علمه وأحاط به علمًا فقد عرفه.

وقال الواسطي: هما دعوتان: دعا إبراهيم إلى قوله: ﴿أَسْلِمْ﴾، ودعا محمد ﷺ إلى قوله: ﴿فَٱعْلَمْ﴾، دعا أحدهما إلى العلم، والآخر إلى الإسلام، وأعلاهما العلم؛ فهو مرتبة الأجلَّة، والإسلام هو الانقياد، والانقياد إظهار العبودية، والعلم إظهار الربوبية، لا جرم أُبتلى حين قال: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ بالنار وذبح الولد وغيرهما.

وقيل: قال لإبراهيم: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾: ابتلى لما قال، ونبينا ﷺ لم يقل علمت فعوفي، وما ينكث في سري من الحال هواتف أطيار الغيب التي تنبه أهل الأفهام أنباء الربانية أن الله اختبر الخليل بروية الفعل والعلم بالصفة؛ حيث قطع الطيور ليرى أنوار الشاهد في الشواهد بقوله بعد أن أحياها: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وحبل قدر المصطفى ﷺ، فامتحنه الله بالعلم بالذات هاهنا بقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهناك حيث قال للخليل: ﴿أَسْلِمْ﴾ ، فهناك امتحانٌ بالعبودية، وما قال للحبيب: ﴿فَٱعْلَمْ﴾ امتحان بالربوبية، فكم فرق بين هذين المنزلين! فالخليل اجترأ من حيث شوقه، وقال: ﴿أَسْلَمْتُ﴾، وكان في سكر الخطاب، ولو كان في وقت الصحو علم أن الحدثان لا ينقاد لعزِّ ربوبيته كما يجب، فإن الحادث لا يبلغ إلى حقيقة عبوديته؛ إذ حقيقتها أن يشكر له بشيء يقابل القدم، وهذا مستحيلٌ، فوقع إذًا في الابتلاء، فالخطابان مصدرهما واحدٌ من حيث الأمر، ولكن مصادرهما مختلفة.

قال الواسطي: العلم حجةٌ، والمعرفة والغلبة غير محكوم بها.

قال الحسين: العلم الذي دعُي إليه المصطفى ﷺ هو علم الحروف، وعلم الحروف في لام ألف، وعلم لام ألف في ألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في علم الأول، وعلم الأول في المشيئة، وعلم المشيئة في علم الهو، وهو

الذي دعاه إليه، فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ﴾ : فالهاء راجع إلى غيب الهوية.

قال القاسم: أضاف المعرفة إلى الخلق، فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ .

وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ ، واختصَّ هو بالعلم علم السرائر، ويسمَّى بالعلم ولم يسمَّ بالمعرفة، وقال لأخصِّ أنبيائه وأصفيائه: ﴿فَٱعْلَمْ﴾ ؛ لقربه من مصدر الحقيقة وموردها، وإشراقه على الغيب والمغيبات، ودعاه إلى العلم، ووصفه به، ووصف العوام بالمعرفة؛ لأن العلم أتم وأبلغ.

قال بعضهم: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ من حيث الله بغيبتك عن علمك، ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ من علمك؛ لأن كل حقيقة لا تمحو آثار العبد ورسوله فليست بحقيقة.

وقال بعضهم: أدخل النبي ﷺ في عين الجمع بما دعاه إلى علم ألوهيته؛ إذ الهوية عين الجمع وفرق الخلق في سائر الأسامي والصفات، فطالع كل واحد منها قدره.

قال ابن عطاء: طلب تنـزيه العبد؛ لئلا يكون له خاطرٌ غيره في علمه بأن لا إله إلا هو علمًا لا قولاً، وهو حقيقة التوحيد حقائق تنبىء عن الموحد لا حقائق تنبىء عن العبد.

قال علي بن طاهر: إن الله أمر النبي ﷺ أن يدعو الخلق إليه، فلما دعا الخلق إليه دعاه من نفسه إليه بقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: أنت تدعو الخلق إليَّ وأنا أدعوك من نفسك إليَّ.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: إذا علمته أنك علمته فاستغفر لذنبك من هذا؛ فإن الحق علا جلَّ قدره أن يعلمه غيره.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾: وبَّخ الله سبحانه الجهلة بالقرآن والغَفْلَة عن التدبر فيه، وبيَّن أنهم لا يتدبرون القرآن، وأظهر سبب

منع تدبرهم.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي: بل على قلوبهم غطاء الغفلة، من حيث غطّاها الحق سبحانه بغطاء قهره ومنعها عن مشاهدة صفته، وأصم أسماع أسرارهم؛ لئلا تصغي إلى سقوط الإلهام، أو تفهم لطائف الكلام، فالتدبر في القرآن لغواص بحار الفهوم حين غاصت أسرارهم وفهومهم وأولياؤهم في بحر عجائب خطاب الحق، فتستخرج غرائب علومها وأسرارها، فتعبر عنها ألسنتهم الصادقة عند مجامع هموم المريدين وأولي الشهود بنعت إلقاء السمع من المراقبين.

قال ابن عطاء: قلوب أقفلت عن التدبر، وألسن منعت عن التلاوة، وأسماع صمت عن الاستماع، ومن القلوب قلوب كشف عنها الغطاء، ولا يكون له راحة إلا في تلاوة القرآن واستماعه والتدبر فيه، فشتّان ما بين الحالتين.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾: وصف الله نفسه بالقدرة القائمة والمشيئة الأزلية بأنه لو أراد أن يكشف عن سرائر الخلق وخفايا قلوبهم لحبيبه صلوات الله عليه لكان قادرًا، وذلك بعد أن ألبس قلبه أنوار غيبه وغيب غيبه؛ فإنه كان مستعدًّا بأن ينظر إلى بواطن الغيوب وضمائر القلوب، ولكن ما كان أوائل حاله عرفان بعد ترقي أحواله إلى مصاعد الغيب ورؤية أنوار الصفات، لكن أثبت في أحوالهم بالوسائط في هذا الموضع بقوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾، فإذا كمل في مشاهدة الحق أخبر عن وقوف سرّه على ممكنات الغيوب بقوله: «فعلمتُ ما كان وما سيكون»[1]، فنبّهنا الله سبحانه أن أوائل

---

(١) ذكره القنوجي في أبجد العلوم (١/ ١٣٨).

الفراسات مقرونةٌ بعلامات الظاهر، وأنها تتم بها بدا من سيماء الوجوه، ولحن القول والفراسة المحضة ما قال عليه الصلاة والسلام: «اتقوا فِراسةَ المؤمنِ؛ فإنّه ينظرُ بنور الله»[1]، وبيَّن أن ما يكون من الصدق في القول آثاره تبدو من السّماء وصدق القول وما يكون بخلاف ذلك؛ فلذلك قال القاسم في قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ﴾: أطلعناك على سرائرهم، ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ فطنة، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ ظاهرًا، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾، لا يقف على ما لهم من السعادة والشقاوة أحدٌ.

وقال أيضًا: إن عند الله الأكابر والسّادة يعرفون صدق المريد من كذبه بسؤاله وكلامه؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[2]: وصف الله سبحانه نفسه بغنى القدم واستغنائه عن الكون وما فيه وأن خزائن جوده لا نهاية لها، وغناه صفته الأزلية القائمة يحوي حواشي بحارها فقر أهل الأكوان والحدثان، فيغنيهم بغناه الذي لا فقر بعده، وحقائق معنى الخطاب للمتصفين بصفاته الذين وجدوا مقام الغنى من الله بعد أن كساهم الحق نور غناه وجرَّدهم عن مقام الفقر، الذي هو مستفادٌ من نعوت تنـزيه القدم؛ إذ كان ولا مكان ولا وقت ولا زمان أي: أنتم وإن بلغتم إلى مقام الاتصاف بصفة غنائي فأنتم بعد فقراء، إذ الوصف للموصوف لا للمتصف، وأنه لا نهاية له.

قال الجنيد: في موضع الغنى كسوة الحق.

وقال سهل: معرفة علم السر كله للفقر، وهو ستر الله، وعلم الفقر إلى الله تصحيح علم الغنى بالله.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال القشيري : والله الغني لذاته بذاته ، ومن غنائه : تمكُّنه من تنفيذ مُراده ، واستغناؤه عما سواه ، وأنتم الفقراء إلى الله ، في نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، في الابتداء ليخلقكم ، وفي الوسط ليُربيكم، وفي الانتهاء يفنيكم عن أنانيتكم ، ويُبقيكم بهويته ، فالله غني عنكم من الأزل إلى الأبد، وأنتم الفقراء محتاجون إليه من الأزل إلى الأبد.

قال الجنيد: والله الغني وأنتم الفقراء، لأن الفقر يليق بالعبودية والغنى بالربوبية، ثم بيّن وصف غناه عن العالمين في آخر السورة بقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ أي: إذا ذقتم طعم شراب وصالي وسكرتم لمشاهدة جمالي وتفقرون إلى بحار الأنائية وتستغرقون في لجج الأحوال وتخرجون منها بالعربدة فأوجد أقوامًا من المستقيمين على بساط جبروتي وساحات ملكوتي، ولا يزيغون عن سبل التمكين إلى شعب التلوين.

قال بعضهم: لا يستقر على حقيقة بساط العبودية إلا أهل السعادة، وقد يطأ البساط المترسمون بالعبودية أوقاتًا، ثم لا يستقرون عليه، ويبدل الله مكانهم فيه من أوجب لهم السعادة، ألا تراه يقول: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾.

سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: نبَّهنا الله في ذلك من سرٍّ عجيبٍ، وهو أن أبواب كشف القدم مسدودةٌ على أهل الحدثان، ولم يظهر لأحدٍ عين ذات الأزل، ففتح الله أبوابه لعين محمد ﷺ حتى رآه كفاحًا، فتح سمعه فأسمعه كلامه شفاهًا، وفتح باب قلبه وروحه وسرَّه، فعرف نفسه لها، حتى وجدت أبواب خزائن علومه الغيبية مفتوحة، وفتح الله جميع أبواب وجود حبيبه ﷺ حتى الشعرة على بدنه وجعلها عيونًا مفتوحة بمفاتيح توحيده وأنوار حقيقته حتى رآه بجميع عيون وجوده، وذلك الفتح ظاهرٌ من وجوده حتى لا يراه أحدٌ إلا ويرى نور الصمدية ينتشر من بشريته، لكن كان محجوبًا من عيون الأغيار بقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وذلك الفتح سبب غفران ذنبه الأول وذنبه الآخر، الذنب الأول سقوطه من زند الفعل على نور الصفة؛ إذ أتى في أوَّل الأول بوجود الحدث إلى ساحة القدم، ومع ما أتى به لم يأت بحقوق الأزلية عليه بكمالها، فإذا قصَّر في واجب حق الربوبية بكماله عليه صار ذلك ذنبه الأول، وذنبه الآخر وقوفه بنعت الخطاب على مدارج العبودية بعد أن غاص في بحر الربوبية، فإن من شرائط وجدانها الخروج من المرسومات، فذلك الفتح سبب غفران الذنبين، وليبلغه إلى محض

الاتصاف والاتحاد حتى تسير الربوبية في ركاب حيزوم القدم في ميادين الأزل إلى الأبد بنعت التوحيد والتجريد والتفريد، وذلك تمام نعمته التي عليه أخبرنا الحق عنها بقوله: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾، ثم بيّن أنه يهديه إلى طريق مشيئة الأزل المستقيمة بالإرادة والوحدانية، وذلك الطريق ما يسلك فيه عساكر جنود أنوار التجلي والتدلي بقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝﴾ ، ذلك الصراط للحق لا للخلق؛ لأن الحادث لا يسلك في القدم، أقامه الحق على رأس ذلك الطريق، وكان لا يعرف أين يسلك حتى بدت أنوار بريد تجلي القدم الذي استقبله، فهداه إلى مسالك الديمومية، فأذهب به الحق إلى معارج دنوه، وذلك ما أنبأنا الله من سيره من الحدث إلى القدم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، فإذا وصل إلى قلب عساكر الواحدنية وغلبت عليه سطوات جنود الفطنة استغاث منه إليه؛ حيث قال: «أعوذُ بك منك»[1]، فلبسه الله أنوار ربوبيته، وأيّده بقوته الأزلية حتى استقام بالحق في الحق، فأخرج الحق جنود رحمته الباقية، فقوّاه بها، وسكن بها قهر القدم بقوله: «سبقتْ رحمتي غضبي»[2]، وذلك قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

قال ابن عطاء: جمع الله للنبي ﷺ في هذه الآية من نعم مختلفة: بين الفتح المبين وهو من أعلام الإجابة، والمغفرة وهي من أعلام المحبة، وتمام النعمة وهي من أعلام الاختصاص، والهداية وهي من التحقق بالحق، والنصر وهو من أعلام الولاية، والمغفرة تبرئة من العيوب، وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة من الحق، والهداية هي الدعوة إلى المشاهدة، والنصرة هي رؤية الكل من الحق من غير أن يرجع إلى سواه.

وقال الواسطي: فتح عين رسوله ﷺ لمشاهدته في المسرى، وفتح سمعه لفهم كلامه كفاحًا بعد أن قوّاه لذلك وأكرمه به.

وقال ابن عطاء: كشف ذنوب الأنبياء عليهم السّلام، ونادى عليه، وستر ذنوب النبي ﷺ بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

قال أبو يزيد في قوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝﴾ : هو السبيل إلى قربه ليلة المعراج؛ حيث تأخر جبريل ؈، ولم يكن ذلك محله، فهدى الرسول ﷺ إلى السبيل الحق، وهو الصراط المستقيم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٦/ ٢٧٤٥)، ومسلم (٤/ ٢١٠٨).

وقال ابن عطاء: لما بلغ إلى سدرة المنتهى قدم النبي ﷺ وأخر جبريل ﷺ، فقال النبي ﷺ لجبريل: تتركني في هذا الموضع وحدي، فعاتبه الله حين سكن إلى جبريل فقال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

وقال أيضًا: يهدي بك الخلق إلى الطريق المستقيم، وهو الطريق إلى الحق، من جعله أمامه قاده إلى الخلق، ومن لم يقتد به في طلب الطريق إلى الحق ضلَّ في طلبه، وأخطأ طريق رشده.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ما حرم الله المؤمنين من رشاش بحار معرفته وأنوار قربه، بل خصَّهم بما خصَّ به الأنبياء عليهم السلام في أوائل أحوالهم، وتلك السكينة، وهو وقوع نور المشاهدة على أسرارهم، فقويت به في تراكم بوادي الواردات الغيبية وامتحانات إلهية، وبذلك النور تزيد أنوار إيمانهم.

قال الله في موضع آخر: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والسكينة شهود كشف الجمال في قلوب أهل الكمال، والبصيرة تورث في أسرارهم الأنس، والبصيرة كشف الجلال في قلوب العارفين، فيبصرون به نوادر الغيوب وعجائب القلوب، لذلك قال: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾، وذلك الإيمان هو البصيرة.

قال الواسطي: البصيرة مكشوفةٌ، والسكينة مستورةٌ، ألا ترى إلى قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ إلخ، فبالسكينة ظهرت البصيرة، والسكينة هدايةٌ، والبصيرة عنايةٌ، وإذا أكرم العبد بالسكينة يصير المفقود عنده موجودًا والموجود مفقودًا.

سُئل بعضهم ما أوّل ما كاشف الله به عباده؟ قال: المعارف، ثم الوسائل، ثم السكينة، ثم البصائر، فلما كاشفه الحق بالبصائر عرف الأشياء بما فيها من الجواهر، كأبي بكر ﷺ ما أخطأ في نطق.

قال جعفر: سمعت الجد يقول لينظروا إلى الإيقان وإلى مشاهدته بعين القلب، فكانت

هذه المعرفة زيادةٌ عن المعرفة الأولى ما غاب عن العيان بما شاهدت القلوب بالإيقان.

وقال سهل: هي نور اليقين، يسلكون به إلى عين اليقين، وعين اليقين هي التي تدل على الحقائق، وهي حق اليقين.

وقال بعضهم: السكينة يقذفها الله في قلوب أوليائه يسكن به نفس أوليائه عن المعارضات.

قال الأستاذ: السكينة ما يسكن إليه القلب من البصائر والحجج، فيرتقي القلب بوجوده عن حد الفكرة والسير إلى روح اليقين، وتلج الفؤاد، فتصير العلوم ضروريةً، هذا للخواصِّ، وأما عوام المؤمنين المراد منه السكون والطمأنينة واليقين.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: جنوده هم سماوات أرواح العارفين وقصور أرض قلوب المحبين، وأنفاسهم جنوده، تنتقم بنفس منهم من جميع أعدائه فيقهرهم، وذلك أن واحدًا منهم يضيق صدره من أعداء الله، فبان أنه يحترق بها أهل الضلالة، ألا ترى كيف قال سكران الطور حين دعا على الكفرة: «ربَّنا اطمسْ على أموالهم واشدد على قلوبهم»[١]، فصاروا حجارةً محماةً، وكيف قال سيد البريات في وجوه الكفرة حين قال: «شاهت وجوههم، فانهزموا»[٢] بإذن الله، وكذا حال كل صديق مع الله، يوقع نيران الهلاك بين الضلال بنفس واحد، فيهلكوا بأقل من لمحة، كما دعا نوح على قومه، فقال: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، فهلك به أهل الأرض جميعًا إلا من آمن، وكل ذرة من العرش إلى الثرى جنوده، حتى لو سلط نملة على حية عظيمة لتدمر عنها، ولو سلط بعوضة على الأكوان جميعًا لخربتها بقوة الله، ألا ترى كيف قال عليه السلام:

«لله جنود منها إليك»[٣]، وهذا محل الانفراد بالله والتوكل على الله؛ فإنه عون كل ضعيفٍ وحسب كل عاجزٍ.

قال سهل: جنوده مختلفة؛ فجنوده في السماء الملائكة، وجنوده في الأرض الغزاة، وأيضًا جنوده في السماوات الأنبياء، وفي الأرض الأولياء، وأيضًا جنوده في السماوات القلوب، وفي الأرض النفوس.

---

(١) رواه الطبري في التفسير (١١/ ١٥٧).

(٢) رواه الطبري في التفسير (١٠/ ١٠٠).

(٣) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

قال بعضهم: ما سلط الله عليك فهو من جنوده، إن سلط عليك نفسك أهلك نفسك بنفسك، وإن سلط عليك جوارحك أهلك جوارحك بجوارحك، وإن سلط نفسك على قلبك قادتك في متابعة الهوى وطاعة الشيطان، وإن سلط قلبك على نفسك وجوارحك زمَّها بالأدب، فألزمها العبادة، وزيَّنها بالإخلاص في العبودية، وهذا تفسير قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ أي: شاهدًا على توحيدهم ومعرفتهم ومحبتهم وولايتهم، وبنور الله على قلوبهم وأسرارهم، ومبشرًا يبشرهم بالوصال ورؤية الجمال والجلال، ونذيرًا من العتاب والحجاب، وأيضًا شاهدًا للعارفين، بدا من الحق لهم؛ ليروا امن مشاهدته أنوار جمال الحق، ومبشرًا للمحبين، يبشرهم بالوصال إلى قرب حبيبهم بلا علة، ونذيرًا للمقبلين إليه لئلا يميلوا إلى غيره.

قال سهل: شاهدًا عليهم بالتوحيد، ومبشرًا لهم بالمعرفة والتأييد، ونذيرًا محذرًا إياهم البدع والضلالات.

قال ابن عطاء: شاهدًا علينا، ومبشرًا لنا، نذيرًا عنا، وداعيًا إلينا، وأنت المأذون في الكل؛ لأنك أمينٌ على الكل، ولا يطيق هذه المراتب إلا الأمناء؛ فإنك الأمين حق أمين.

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: جعلك شاهدًا لهم؛ ليؤمنوا بالله ورسوله أي: ليشاهدوا بأسرارهم مشاهدة الله، ويدركوك في محل الجلال والجمال، ويعرفوا قدرك في قدري وقدري في قدرك؛ حيث سرت مرآتي، أتجلى منك لهم؛ لذلك قال عليه الصلاة والسّلام: «مَنْ رآني فقد رأى الحقَّ»[1]، ويعزروا أمري فيك ببذل وجودهم، ويوقروك بها ألبستك وقاري وهيبتي، ويوقروا كلامي وخطابي الذي أنـزلت عليك بنعت المتابعة، ويقدسوني من الأضداد والأنداد، وعن أن يجد أحدٌ سبيلاً إلى كنه معرفتي وجلال قدري، أول الخطاب توحيد بقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، وهو مقام الجمع، ثم مقام التفرقة بقوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾، ثم رؤية الصفات في الفعل وهو مقام الالتباس بقوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾، ثم إفراد القدم عن الحدوث بقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾،

---

(١) تقدم تخريجه.

فأول الخطاب والباقي واحدٌ في معاني التنـزيه والتوحيد.

قال سهل: لتؤمنوا تصديقًا بما جاء به، وتعزروه حقه في قلوبكم وطاعته على أبدانكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾: ذكرت تحقيق هذه الآية في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وصرح الله ما ذكرنا في هذه الآية؛ حيث بيّن أمر عين الجمع ومقام الالتباس وظهور العين، وظهور جمع الجمع في عين الجمع، حين جعل نبيَّه مرآة لظهور ذاته وصفاته، وهو مقام الاتصاف والاتحاد، بدا نور الذات في نور الصفات، وبدا نور الذات والصفات في نور الفعل، فصار هو هو؛ إذ غاب الفعل في الصفة، وغابت الصفة في الذات، ومن ههنا ادَّعى الحلاج -قدَّس الله روحه- حيث قال: «أنا الحق»، وقال سلطان العارفين أيضًا من هاهنا «سبحاني سبحاني»[1].

---

(١) قال: شيخ الشيوخ الشيخ شهاب الدين السهروردي في العوارف: وما يحكى عن أبي يـزيد قوله: سبحاني حاشا لله أن يعتقد في أبي يـزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى. قال: وهكذا ينبغي أن يعتقد في الحلاج قوله أنا الحق.

قال أبو سعيد بن أبي الخير: «ليس في الجبة غير الله»(١)، وأنشد الشبلي في هذا المعنى:

تـبـاركت خطـراتي في تعالائـي فـلا إلـه إذا نكـرت آلالي!

قال الواسطي: أخبر الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أن البشرية في نبيه ﷺ عارية وإضافة دون الحقيقة.

وقال: أظهر النعوت في محمد ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾.

وقال الحسين: لم يظهر الحق تعالى مقام الجمع على أحد بالتصريح إلا على أخصِّ اسمه وأشرفه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، أسقط الوسائط عند تحقيق الحقائق، فأبقى رسومها، وقطع حقائقها، فمن بايع النبي ﷺ بايع الله على الحقيقة؛ فإن تلك بيعة الله؛ لأن يده في تلك البيعة يد عارية.

قال القاسم النصر آبادي في وقت الاستنفار إلى الروم: ها قد ظهرت صفة البيعة فهل من راغب فيها، بيعة بلا واسطة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ إلخ، وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: زيادة التصريح في مقام عين الجمع ورسمه أن سنته القديمة غالبة على علل العبودية.

قال بعضهم: منة الله عليهم في الهداية إلى هذه البيعة أعظم عليهم من بيعتهم وقال الشبلي في هذه الآية: من صحت أحواله واستقامت أفعاله أخبر الله عنه بعبارة الجمع كما عبر عن المصطفى ﷺ حين استقام مع الحق في كل أوصافه، أخبر الله أن بيعته بيعة الحق، وطاعته طاعة الحق، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾.

قال الأستاذ: في هذه الآية تصريح بعين الجمع، كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾: إن الله عذر أقوامًا من المحبين والعارفين بالرمز في هذه الآية، ظاهرها مع العموم، وباطنها مع الخصوص.

---

(١) إشارته بما تحت الجبة إلى قلبه الذي وسع ربه، فإنه ليس في قلبه إلا الله. وانظر: كتابنا: سلطان العارفين، وإرشاد ذوي العقول إلى براءة الصوفية من الاتحاد والحلول.

كما قال ﷺ: «للقرآن ظهرٌ وبطنٌ وحدٌّ ومطلعٌ»[1]، إن الأعمى ههنا من طمسته سبحات وجهه حين عاين لقلبه وروحه ظهر عماه، إذ لا يرى غير الله، وعماه الحقيقي ألا يطيق أن ينظر بطون الأزل والغيب وغيب الغيب، وهذا سرُّ قوله عليه الصلاة والسلام في وصف جمال الحق: «حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[2]، فجعله معذورًا ألا يدرك حق الحقيقة وحقيقة الحق؛ إذ يستحيل أن يحيط الحدث بالقدم، وإن كان واجبًا معرفة الكل من حيث الحقوق لا من حيث التوحيد، وأيضًا هو معذورٌ باستعمال الرخص والدخول في الرفاهية، والأعرج من عرج سره وروحه من السير في ميادين الأزلية والأبدية؛ إذ كان عرجًا بضرب سيوف الوحدة ووصول إعجاز القهريات، أي: هو معذورٌ حين جلس على بساط الأنس، ولم يسر في ميادين القدس، فإن هناك طوفان الكبرياء وسطوات العظمة والبقاء، وهذا الأعرج معذورٌ؛ إذ لم يأت من مقام المشاهدة إلى مقام المجاهدة، والمريض هو الذي أسقمته محبة مشاهدته ورؤية جماله، فهو معذورٌ؛ إذ باشر الروحانيات مثل السماع واستعمال الطيب والنظر إلى المستحسنات، فإن مداواته تكون أيضًا من قبيل العشق والمحبة؛ لأن العشق أمرضه، فأيضًا يداويه بالعشق كما قيل:

تداويتُ من ليلى بليلي من الهوى ... كما يتداوى شاربُ الخمرِ بالخمرِ

فهؤلاء أهل المشاهدات لا أهل المجاهدات والرسومات.

قال الأستاذ: من كان له عذرٌ في المجاهدة مع النفس؛ فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١/ ٢٣).

(٢) تقدم تخريجه.

أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ - رضي الله عنهم- في الأزل وسابق علم القدم، ويبقى رضاه إلى أبد الأبد؛ لأن رضاه صفته الأزليّة الباقية الأبدية، لا يتغير بتغير الحدثان، ولا بالوقت والزمان، ولا بالطاعة والعصيان، فإذا هم في اصطفائيته باقون إلى أبد الأبد، لا يسقطون من درجاتهم بالزلات ولا بالبشرية والشهوات؛ لأن أهل الرضا محروسون برعايته، لا تجري عليهم نعوت أهل البعد، وصاروا متصفين بوصف رضاه، فرضوا عنه كما رضي عنهم، قال الله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، وهذا بعد قذف أنوار الأنس في قلوبهم بقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

قال ابن عطاء: رضي الله عنهم فأرضاهم، وأوصلهم إلى مقام الرضا واليقين والطمأنينة، فأنـزل الله السكينة عليهم؛ ليسكن قلوبهم إليه.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾: انظر كيف شفقة الله على المؤمنين الذين يراقبون الله في السراء والضراء ويرضون ببلائه، كيف حارسهم عن الخطرات، وكيف أخفاهم بستره عن صدمات قهره، وكيف جعلهم في كنفه حتى لا يطّلع عليهم أحدٌ، وكيف يدفع ببركتهم البلاء عن غيرهم، وفي الآية رمز إعلام ورعاية الكبرياء للمريدين.

قال سهل: المؤمن على الحقيقة من لا يغفل عن نفسه وقلبه، يفتش أحواله، ويراقب أوقاته، فيرى زيادته من نقصانه، فيشكر عند رؤية الزيادة، ويتضرع ويدعو عند النقصان، هؤلاء الذين يدفع الله بهم البلاء عن أهل الأرض، والمؤمن من لا يكون متهاونًا بأدنى التقصير؛ فإن التهاون بالقليل يستجلب الكثير.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ

كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: سكينة الرسول كشف القدس، وسكينتهم نـزول قلوبهم منازل الأنس، وكلمة التقوى كلمة الله التي سبقت في الأزل أنهم أهل السعادة لا أهل الشقاوة، وتلك الكلمة بقيت بنعوتها وأنوارها في قلوبهم، ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾؛ لأنهم سابقون بها في الأزل من غيرهم الذين حجبهم الله من رؤية نورها، وكانوا أهل الكلمة من حيث الاصطفائية؛ إذ نـزلت عند لُب التوحيد من سماء التفريد على أغصان ورد قلوبهم، فترنمت بألسنتهم الصادقة من بطنان أفئدتهم بكلمة التقديس والتوحيد.

قال أبو عثمان: كلمة التقوى كلمة اليقين، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ألزمها الله السعداء من أوليائه المؤمنين، وكانوا أحق بها في علم الله؛ إذ خلقهم لها وخلق الجنة لأهلها.

قال الواسطي: كلمة التقوى صيانة النفس عن المطالع ظاهرًا وباطنًا.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾: من أدركته عناية السبق في الأزل جرت عليه عيون المواصلة، وهو أحق بها؛ لما سبق إليه من كرامته الأول.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾: إشارة الآية مع المشتاقين إلى مشاهدة الحق بأنهم يدخلون حرم الربوبية آمنين عن جريان العبودية عليهم، آمنين من ذل الحجاب بعد كشف النقاب، والاستثار وقع على المشيئة الأزلية السابقة بحسن العناية لهم، وفي نفس الآية أنه لو يريد أن يلبسهم وصف الصمدية حتى لا يفنوا في الوحدانية لقدر، وهو هكذا يفعل، لكن رمز الاستثار يورث هيبة الحق؛ إذ صار عروس القدر غير منكشف لأهل الحدث، أدَّب الجمهور برؤية الله مع رؤية القدر السابق؛ حتى لا يسقط عنهم شروط الهيبة والمراقبة.

سئل بن عبد الله: ما هذا الاستثار من الله؟ قال: تأكيدًا في الافتقار إليه، وتأديبًا لعباده في كل حال ووقت تنبيهًا أن الحق إذا استثنى مع كمال علمه ألا يجوز له الحكم من غير استثناء مع قصور علمه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ

مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: كان بنفسه أبلغ الهداية للخلق؛ فإنه مصارف آياته وبرهانه.

قال الله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ومعه نور الصفة؛ لأنه كان قلبه مشكاة نور القرآن، قال الله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾، وقال: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، ودينه بيان معرفة الله والآداب في حضرته، وبهذه الصفة شهد الله أنه أرسله بهذه الأوصاف، وأثبت رسالته بشهادته بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[1]: شهادته أزلية شهد على اصطفائيته في الأزل، ثم وصف أصحابه وأحبائه ومتابعيه إلى يوم القيامة باختصاصات شريفة وأخلاق كريمة وعلامات صحيحة وآداب جميلة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: معه في الأزل باصطفائية الولاية بنعت الأرواح، لا برسم الأشباح، ومن خاصية صفتهم أنهم أهل الهيبة والغلبة على أعداء الله والرحمة والكرم مع أولياء الله، قال الله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾: ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: راكعين على بساط العبودية من رؤية أنوار العظمة، ساجدين على بساط الحرمة من رؤية الجمال، يطلبون مزيد كشف الذات، والدنو والوصال والبقاء مع بقائه بغير العتاب والحجاب، وهذا محل الرضوان الأكبر بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، ثم وصف وجوههم أن يتلألأ منها أنوار مشاهدته التي انكشفت لهم في السجود حين خضعوا في ملكوته من رؤية عظائم جبروته

---

(١) واعلم أنه قد اجتمع حروف المعجم التسعة والعشرون في كل من الآيتين المذكورتين، وأول الحروف في الآية الأولى: الثاء المثلثة في ثم، وآخرها: الصاد المهملة في صدروكم، وأولها في الثانية: الميم في محمد، وآخرها: الصاد أيضًا في الصالحات، وليس في القرآن آية حَوت الحروف كلها غيرهما، ومَن دعا الله تعالى بهما؛ استجيب له. والمراد: من قرأهما، ودعا عندهما؛ استجيب له؛ لأنهما لجمعهما الحروف كلها؛ كانت بمنزلة القرآن كله، وقد صحَّ أن الدعاء مستجاب، مستجاب عند ختم القرآن، ولمَّا كانت هذه الحروف مما أنزله الله تعالى على آدم ﷺ، وكان آدم قد تكلَّم بسبعمائة ألف لغة على ما جاء في بعض الروايات: كان مَن تكلَّم بتلك الحروف؛ كمَن تكلَّم بتلك اللغات كلها؛ لأن كلاً منها مشتملة على تلك الحروف، وقد ضم إليها الحروف الأربعة الفارسية التي هي: الباء، والجيم، والزاي، والكاف المعجمة التي تكلَّم بها بعض القبائل؛ ولذا كانت اللغة الفارسية ملحقة باللغة العربية؛ فجُعلت كل منها لسان أهل الجنة.

بقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾، ثم وعدهم بنيل مرادهم من وصاله، وكشف جماله لهم أبد الآبدين بلا وحشة ولا فترة في آخر السورة بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: إيمانهم رؤية نور الغيب بالغيب، وتصديق الغيب برؤية الغيب، وعملهم الصالح الخروج من الحدثان شوقًا إلى جمال الرحمن، ومغفرة الله لهم أنه غفر لهم تقصيرهم في العبودية؛ إذ لم يطيقوا أداء حقوقها كما يليق بالحق، وقصور إدراكهم وحقيقة الربوبية بالأجر العظيم بأن يجلسهم على بساط قربه، ويلبسهم لباس نور وصله، ويتوجهم بتاج المحبة، ويسقيهم من شراب الدنو والزلفى، قال سبحانه: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

قال القاسم في قوله: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: أرسل الرسول وعظَّم حرمته بإضافته إلى نفسه، فمن لم يعظِّم من عظَّمه الله فهو لقلة معرفته بعظمة الله، أرسله مبينًا للشريعة، مبينًا أحكامه، داعيًا إليه، وجعل طاعته طاعته، لم ينفصل الرسول عن الحق في الإيجاب والنفي والبلاغ والمشاهدة، ولم يتصل به من حيث الحقيقة.

وسئل الحسين: متى كان محمد ﷺ نبيًّا وكيف جاء برسالته؟ فقال: نحن بعد في الرسول والرسالة، والنبي والنبوة، أين أنت عن ذكر من لا ذاكر له في الحقيقة إلا هو؟ وعن هوية من لا هوية له إلا بهويته؟ وأين كان النبي عن نبوته حيث جرى العلم بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، والمكان عليه والزمان عليه، فأين أنت عن الحق والحقيقة؟ ولكن إذا أظهر اسم محمد ﷺ بالرسالة عظم محله بذكره له بالرسالة، فهو الرسول المكين والسفير الأمين، جرى ذكره في الأزل بالتمكين بين الملائكة والأنبياء على أعظم محل وأشرف حالٍ.

قال سهل في قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾: المؤمن من وجهه الله بلا فناء مقبلاً عليه غير معرض عنه، وذلك سيماء المؤمنين.

وقال عامر بن عبد قيس: كاد وجه المؤمن يخبر عن مكنون عمله، وكذلك وجه الكافر وذلك قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾.

وقال بعضهم: ترى على وجوههم هيبة؛ لقرب عهدهم بمناجاة سيدهم.

قال ابن عطاء: ترى عليهم خلع الأنوار لائحة.

وقال عبد العزيز المكي: ليست هي النحولة، وهي الصفوة، لكنه نورٌ يظهر على وجوه العابدين، يبدو من باطنهم على ظاهرهم، يتبين ذلك للمؤمنين، ولو كان ذلك في زنجي أو حبشي، والله أعلم.

سورة الحُجُرات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: هذا وعيدٌ لمن حكم بخاطره بغير علم بالفرق بين الإلهام والوسواس، والكشف والخيال، وهواجس النفس وخطاب العقل، ولسان السر والنور بخردل من خرافات خاطره، ويحكم بها من الجهل بكلام الله وسنة رسوله، ويلزم المستمعين من أبناء جنسه أنها هي الحق ومقصوده الرياء والسمعة، فإذا قال أحدٌ ما قال الله ورسوله لا ينفكُّ عما انتحله من إلقاء العدو وحديث النفس، فيلزم عليه وعيد الحق وتحذيره بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عن عذاب البعد وعما يقوله؛ فإنه تعالى سميعٌ لقوله، ويجازيه بأن يحرم عليه مقالة الحكمة، عليمٌ بنيته الكاذبة، ويجازيه بالنار والشنار، ولا يخلو الإنسان من هذه العلل النفسانية الشيطانية، وإن كان صدِّيقًا فإنها مواضع الامتحان من قهر الله الذي قهر به عباده، وفيه من الأدب للمريدين ألا يتكلموا بين يدي شيوخهم، خاصة أنهم يتكلمون بالمعارف؛ فإنه سبب سقوطهم من أعين الأكابر.

قال سهل: لا يقولوا قبل أن يقول، وإذا قال فأقبلوا منه منصتين له مستمعين إليه، واتقوا الله في إهمال حقه وتضييع حرمته؛ إن الله سميعٌ لما يقولون، عليمٌ بما يعملون.

قال بعضهم: لا تطلبوا وراء منـزلته منـزلة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾: أعلمنا الله سبحانه بهذا التأديب أن خاطر حبيبه من كمال لطافته ومراقبته، جمال ملكوته كان يتغير من الأصوات الجهرية، وذلك من غاية شغله بالله وجمع همومه بين يدي الله، فإذا صوت أحد بالجهر عنده خاصة أن يكلم كان يتأذى قلبه من صوته، ويضيق صدره من ذلك، كأنه يتقاعد

سره لحظة عن السير في ميادين الأزل والأبد[1]، فخوَّفهم من ذلك؛ فإن تشويش خاطره ﷺ سبب بطلان أعمالكم: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، فإن من العرش إلى الثرى لا يزن عند خاطره ذرة، واجتماع خاطر الأنبياء والأولياء لمحة أحبُّ إلى الله من أعمال الثقلين، وفيه حفظ حرمة رسول الله، وتأديب المريدين بين يدي أولياء الله.

قال ابن عطاء: زجر عن الأذى؛ لئلا يتخطى أحدٌ إلى ما فوقه من ترك الحرمة.

وقال سهل: لا تخاطبوه إلا مستفهمين.

قال الأستاذ: أمرهم بحفظ حرمته ومراعاة الأدب في خدمته وصحبته، ثم وصف الله المتأدبين بآداب الله أنهم أهل التقوى الذي هو نور من الله في قلوبهم، فقدَّس سرائرهم من العجب والخطرات المذمومة، وأنهم ينظرون بذلك النور عظم حرمات حبيبه ﷺ، وما شرفه الله به من المنازل السنية والدرجات العلية، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، ثم بيَّن أن لهم مغفرةً بأنهم مستورون عن أعين الشياطين، محفوظون من مكائدهم بما مَنَّ الله عليهم من رعايته وعنايته، وكشف مشاهدته بقوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾.

قال الحسين: من امتحن الله قلبه بالتقوى كان شعاره القرآن، ودثاره الإيمان، وسراجه التفكر، وطيبه التقوى، وطهارته التوبة، ونظافته الحلال، وزينته الورع، وعلمه الآخرة، وشغله بالله، ومقامه مع الله، وصومه إلى المهات، وإفطاره من الجنة، وجمعه الحسنات وكثرة الإخلاص، وصمته المراقبة ونظره المشاهدة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: شكا الله عن ترك آداب بعضهم في صحبة رسوله، وبيَّن أن الصبر في حفظ حرمته سبب نيل درجاتهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) شروع في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ، بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل، وإعادة النداء مع قرب العهد؛ للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه، والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه؛ أي: لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدٍّ يبلغه صوته ﷺ، بل يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهره باهراً لجهركم، حتى تكون مزيّته عليكم لائحةً، وسابقته لديكم واضحة. البحر المديد (٦/ ١٠١).

قال أبو عثمان: الأدب عند الأكابر وفي مجالس السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات الأعلى والخير في الأولى والعقبى، ألا ترى الله بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ إلخ.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾: جعل قلوبكم مستعدةً لقبول معرفته، ثم قذف فيها أنوار قربه، وزيَّنها بنقوش محبته، زيَّن عروس التوحيد بزينة المشاهدة في أعين أزواجهم، وجذبها به إلى بساتين الغيب، حتى رأوا لطائف بره وعجائب ملكه وملكوته، ثم مَنَّ عليهم بأن بغضهم العصيان والفسوق بتكريهه إليهم، كما أنه حببهم أعمال الإيمان بتحبيبه إليهم بغير علة ولا سبب بل فضلاً ومنَّة؛ حيث أرشدهم إلى نفسه، وحبَّب إليهم قربه ووصاله بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾.

قال سهل: حبَّب إليكم العمل بأوامر الإيمان، وزيَّن في قلوبكم تلك الأوامر، ثم زاد في تأكيد ما ذكرنا أن ذلك الرشد وحب الإيمان فضلٌ منه وكرمٌ بقوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾: فضله اصطفائيتهم في الأزل، ونعمته قربه ومعرفته.

قال سهل: بفضل الله عليهم فيما ابتدأهم به، وهداهم إليه من أنواع القرب والزلفى.

قال الواسطي: المؤمن يكره العصيان، ولكن يغيب عن شاهده؛ ليغلب عليه شواهد شهوته، فيأتيها، وذلك إنفاذ قضيته وتنبيهٌ على ضعفه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾: إشارة الحقيقة في الآية أن وقائع الغيب عند كشوفها في صدور الأولياء على خلاف مذاق الروح والقلب والعقل والسر؛ لوجود إتيانها من الغيب بالبديهة، فبعضها للروح، وبعضها للسر، وبعضها للعقل، وبعضها للقلب فما وقع في السر فهو أعظم مما وقع على الروح، وما وقع على الروح أعظم مما وقع على القلب، وما وقع على القلب أعظم مما وقع على العقل؛ لأن واقعة السر

كشف الأولية والآخرية من الأزل والأبد، ونوادره الشطح والعلم المجهول، وما وقع على الروح من كشف الجمال والجلال وعجائبه الشوق والمحبة والسكر والانبساط، وما وقع على القلب من كشف العظمة ولطائفه الهيبة والإجلال وعلوم الصفات وحكم الربوبية، وما وقع على العقل من كشف نور الأفعال ونتائجها الأذكار والأفكار والمعاملة والعبودية، وهذه الأحكام عند أربابها مختلفةٌ باختلاف كواشفها، ولبعضها على بعض معارضة من جهة غرائبها؛ فإصلاح بينهم لا يكون إلا بالكتاب والسنة وموازينها؛ لا أن يعلمها بفرق بيان موارد الأسرار وعجائب الأنوار، قال الله تعالى: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، وقال: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝﴾ أي: أصلحوا شأنكم في سير المقامات والأحوال بكلام الله وسنة رسوله ﷺ؛ لتستقيموا في شرائع المعارف.

قال سهل في هذه الآية: هو الروح والقلب والعقل والطبع والهوى والشهوة، فإن بغى الطبع والهوى والشهوة على العقل والروح والقلب فليقاتله العبد بسيوف المراقبة وسهام المطالعة وأنوار الموافقة؛ ليكون الروح والعقل غالبًا والهوى والشهوة مغلوبًا.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾: افهم أيها العاقل أن الله سبحانه خلق الأرواح المقدسة من عالم الملكوت، وألبسها أنوار الجبروت، فمواردها من قربه مختلفة، لكن عينها واحدة، وخلق هياكلها وأشباحها من تربة الأرض التي أخلصها من جملتها، وزيَّنها بنور قدرته، ونفخ فيها تلك الأرواح، وجعل بين الأرواح والأجسام والنفوس الأمَّارة التي ليست من قبيل الأرواح، ولا من قبيل الأجسام، وجعلها مخالفة للأرواح ومساكنها، فأرسل الله عليها جند العقول؛ ليدفع بها شرها، فإذا امتحن الله عباده المؤمنين هيَّج نفوسهم الأمَّارة؛ ليظهر حقائق درجاتهم من الإيمان والآخرة، فأمرهم أن يعينوا العقل والروح والقلب على النفس حتى تنهزم؛ لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضهم بعضًا، ثم بين أن في الإصلاح بين الإخوان الفلاح والنجاة إذا كان مقرونًا بالتقوى الذي يقدس البواطن من البغي والحسد بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝﴾، فإذا فهمت ما ذكرت علمت أن حقيقة الأخوة مصدر الاتحاد؛ فإنهم كنفس واحدة؛ لأن مصادرهم مصدر

واحد، وهو آدم ﷺ، ومصدر روح آدم نور الملكوت، ومصدر روح آدم نور الملكوت، ومصدر جسمه تربة الجنة في بعض الأقوال؛ لذلك تصعد الروح إلى الملكوت، والجسم إلى الجنة كما قال عليه الصلاة والسلام: «كلُّ شيءٍ يرجعُ إلى أصلِه»(١).

قال أبو بكر النقاش: سألت الجنيد عن الأخ الحقيقي؟ فقال: هو أنت في الحقيقة إلا أنه غيرك في الهيكل.

وقال أبو عثمان الحيري: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب؛ فإن أخوة النسب تقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تقطع بمخالفة النسب.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾: بيّن الله سبحانه أن أكثر الظنون يؤول إلى الفساد، وأنها بعينها مأثمة؛ لأنها من قبل النفس الأمّارة التي ليس لها النظر إلى العيوب؛ فتهيم في المخاييل الشيطانية، وذلك أن الشيطان يلقي فيها عيب المؤمنين، ويهيجها بظنون مختلفة، وبيّن سبحانه أن بعض الظن حقيقة إذا كان ليس من قبل النفس، بل يكون ذلك من رؤية القلب ما جرى في الغيب، فيتفرس بنور اليقين؛ ولذلك وصف المؤمنين بذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾.

قال ابن شمعون: الظن ما يتردد في النفس من حيث أملها باستدلالها على حظها بوصفها، فيتردد، ولا يقف، فيمكن من الإيواء إليه، فما كان هذا وصفه فهو ظنٌّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي: ليس الكريم من يكون ذا نسب، إن الكريم من عرف الله وهابه وخضع له، وعرف نفسه أنه خلق من التراب وما للتراب وربّ الأرباب، ولا يفتخر بنفسه على أحد بل الفخر بالله، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «أنَا سيِّدُ ولد آدم ولا فخر»(٢).

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/ ٢٩٥) بنحوه.

(٢) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٤٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٦٠).

قال جعفر: الكريم هو المتقي على الحقيقة، والمتقي المنقطع عن الأكوان إلى الله.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾: الإسلام ظاهر العبودية، والإيمان مشاهدة الربوبية، ومحله القلب، بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، والإسلام الحقيقي بنعت الخضوع، واستعمال الأمر لا ينفكُّ من الإيمان؛ فإن أصله الإيمان، وهو متولدٌ منه، أمّا ما يكون بالتقليد والأعراض فهو أوصاف أهل النفاق.

قال سهل: ليس في الإيمان أسبابٌ، إنما الأسباب في الإسلام، والمسلم محبوبٌ إلى الخلق، والمؤمن غنيٌّ عن الخلق.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم﴾: نفى الله -سبحانه- المنة عن الحدثان؛ إذ لا يصلح أن يكون لأحدٍ قدرةٌ بإنشاء شيء من نفسه، فإذا بيَّن ذلك صرف المنة إلى نفسه بأن له المنة الأزلية، حيث أوجد الخلق بلا علة، بل فضلاً ورحمة منه، فمن أقبل إليه يرجع نفعه إليه؛ لأن ساحة الكبرياء منـزَّهةٌ عن علل الخليقة، والعجب أن يكون الحدث محل منته القديمة ومنته لا يحتمل غيره.

قال الواسطي: لفظة المنة في محل التلبيس؛ لأن العباد إن لم تصحبهم رؤية المنة هلكوا؛ ولأن رؤية المنة حجابٌ كبيرٌ، وفي رؤية المنة استدراجٌ عظيمٌ، وكيف وهو لا يمنُّ على أحدٍ يعرفه، وإنما المنُّ على من حجبه ذكر المنن جواب في الحقيقة لمن مَنَّ عليه، ألا ترى إلى قوله ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾، وفي كرمه لا يجوز المنة على أحد من النّاس؛ إذ المنة تقع على من هو خارجٌ من ملكه، فالمن على [شيء] يستحيل، وما علمت أن الكريم في الحقيقة لا يمنُّ لا سيما إذا كان الممتن عليه من خدمه.

قال الحسين في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾: هذا جوابٌ لما سلف من قولهم لا أن أحدًا يستطيع حمل مننه، فكيف يمن على من خطر له عنده، ولا أثر منه عليه، وأعجب منه ألا يمن على أحد إلا بالمخلوق، ولا وزن للكون عنده، فكيف يمنُّ بمن لا وزن له على أحد؟! عجبت من مقالة أكابر المشايخ بأن منة الله على العبد حجابٌ ومكرٌ إن أرادوا بالمنة الفعل واصطناع الكريم يكون ذلك مكرًا؛ لأن العبد إذا كان في رؤية النعمة فهو محجوبٌ من رؤية المنعم، وإن أرادوا بالمنة صفته الأزلية بأنه منانٌ على كل ذرة من العرش إلى الثرى، فإن ذلك ليس بحجاب؛ إذ منانيته كشوف وصفه بنعت تعريف نفسه لعباده؛ ليعرفوه بالصفة لا بالغير؛ ولذلك قال الجنيد -قدَّس الله روحه-: إن مَنَّ العباد تفزيعٌ، وليس من الله تفزيعٌ، وإنما هو من الله تذكير النعم، وحثٌّ على شكر المنعم، ثم بيَّن سبحانه أن المتكلفين بإسلامهم على حبيبه عليه الصلاة والسلام من جهلهم بالله وبأنفسهم؛ إذ ليس لهم منةٌ؛ لأنهم عجزة أنفسهم، والمنة لمن هو منـزَّهٌ عن الخلل والنقصان، وهو محيطٌ بكل ذرة بعلم أزليٍّ، ويعلم حقائق الأشياء؛ إذ هو موجدها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ : ليس له غيبٌ؛ إذ الغيب شيءٌ مستورٌ، وجميع الغيوب عيان الله، وكيف يغيب عنه؟! وهو موجده، يبصر ببصره القديم ما كان وما لم يكن؛ إذ هناك العلم والبصر واحدٌ.

سورة ق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ﴿٧﴾﴾.

﴿قٓ﴾: قف، أقسم الله سبحانه بذاته وصفاته، قاف قاف كبرياء قدمه، الذي هو أصل وأصل كل أصل، ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾: الذي هو مخبرٌ عن جميع الذات والصفات، المشتمل على حكميات الأفعال، المقدس عن تغاير الأزمنة والدهور، الذي كشف بيان ما يقع لأرواح العارفين وأسرار الواصلين، وقلوب المحبين، وعقول الصديقين، وصدور المقربين، ظاهره ظاهر البيان من حيث العبودية، وباطنه باطن العيان من حيث الربوبية، وحرف القاف

كنايةٌ عن كل اسمٍ فيه القاف، مثل القديم والقادر والباقي والقيوم والقوي والقاهر والمقتدر والقريب أي: بقربي عن قلوب العارفين، وقرب أرواحهم وأسرارهم من مشاهدة بقائي وقدمي، وبقصد كل ذي قصد بنعت الإرادة والشوق إلى مشاهدتي، وأيضًا أي: بقيامي على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وبقيامهم بقيوميتي إلى الأبد، وأيضًا أي: بالقلم القادر الذي رقَّم القرآن على أوراق لوح الملكوت، وأيضًا أي: بحرقة قلوب العاشقين والشائقين والمشتاقين إلى جمالي، والقرآن الذي يشوقهم إلى قربي، وأيضًا أي: بقسمي الاصطفائية لأنبيائي وأوليائي والمقربين في سوابق علوم قِدمي، أنا أقرب إلى قلوب الفرَّارين مني من عروق قلوبهم، أكشف بكشف جمالي قساوة قلوبهم، وأقرِّبهم مني حتى يشتاقوا إليَّ، وأيضًا بقربك مني يا محمد يا قرة عيون الأنبياء والأولياء والمرسلين والعارفين والصديقين وما أنـزلت إليك من القرآن المجيد قف عند قوام كبريائي، ولا تغص في قاموس «قلزم» قِدمي؛ حتى لا تستغرق في قعر بحر بقائي، فينقطع منك قوافل الحدثان، ويبقوا عن محل القربان، بل قف في مقابلة قمر جمالي؛ لتشرب قهوات ودادي وعشقي في مشاهدة برقان جلالي، وتبقى ببقائي، وتلقى عجائب قرآني المجيد على قلوب القائمين في مقام الاستقامة، يا فَهِم إنما يتعلق بحرف القاف ما يكون فيه القاف من جميع كلمات الله، وما كان وما يكون في أفعاله، فهذا القاف القاسم عليه رمز جميعًا، فإذا قال سبحانه: ﴿قٓ﴾: أعلم بذلك حبيبه ﷺ جميع معانيها من خبر الذات والصفات والأفعال، وهو عرف بالله ما قال الله فيه بأقل لمحة، فإنها تنبئ عن جميعها، وهذا رمز بين المحب والحبيب، ألا ترى كيف أنشد العاشق لمعشوقه:

فقلتُ لها قفي قالت لي قاف فكنت عن الوقوف بعاشقها

والمعاني التي فيه بحرف القاف، وهو فهم بها عنها ما كان في خاطرها من الوقوف على مراد عاشقها، فإذا قال سبحانه: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ فعلم عليه الصلاة والسلام سرَّ ما بين الخافقين، وما يصل إليه في ليلة المعراج من الحق من الدنو فيما بين قاب قوسين من القرب وكشف النقاب، ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: بهذين القسمين عجب أقرباؤك أنك من بين البريات تكون حاملاً أمانات الذات والصفات، وأنت منذرهم، وأنت منهم بالظاهر، ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: شيء عجيب؛ إذ ظهر أنوار القدم مما خرج من العدم، ولو يعلموا أن الله سبحانه اصطفاه من بين البرية لحمل أمانة رسالته، وكشف جماله وقربته.

قال سهل: أقسم بقوته وقدرته.

وقال ابن عطاء: أقسم بقوة قلب حبيبه صلوات الله وسلامه عليه؛ حيث حمل الخطاب

والمشاهدة، ولم يؤثر ذلك فيه؛ لعلوِّ حاله.

وقال سهل في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ : المشرف على سائر الكلام.

وقال الحسين: المطهر لمن اتبعه عن دنس الأكوان وهواجس الأسرار.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[1]: بيَّن الله سبحانه أنه بجلاله وقدره أظهر نوره مشكاة السماوات والأرض، وبرز بنوره من نيرات السماوات ومن الجبال والبحار والأشجار وجميع المستحسنات لبصائر العارفين الراجعين إليه بنعت الشوق والمحبة، ويريهم تلك الأنوار؛ ليزيد علمهم ومعرفتهم به، ويجدد عليهم أذكار نعم مشاهدته.

قال سهل: اعتبارًا واستدلالاً على توحيدهم لربهم وشكرهم له وذكرًا لمن كان له قلبٌ حاضرٌ مع الله، وعلمه يكتسب به علم الشرع، ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: مخلص القلب بالتوبة إلى ربه وإدامة الذكر له بواجباته.

وقال الحران: المنيب المجيب القريب.

قال بعضهم: التبصرة معرفة من الله عليه، والذكرى عدها على نفسه في كل حال وأوان؛ ليشتغل بالشكر فيما عومل به عن النظر إلى شيء من معاملته.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ .

---

(١) راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له تعالى، إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله، فيعتبر، ويعلم أن مَن قدر على إنشاء هذه الأجرام العظام، قادر على إحياء الأموات وبعثها، وحسابها وعقابها .

الإشارة: يقول شيوخ التربية: بقدر ما يمزق الظاهر بالتخريب والإهمال؛ يحيى الباطن ويعمر بنور الله، وبقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن، فيقع الإنكار عليهم ، ويقول الجهلة: هل ندلكم على رجل يُنبئكم إذا مُزقتم في الظاهر كل مُمَزقٍ، يُجدد الإيمان والإحسان في بواطنكم، أَفْترى على الله كذباً أم به جِنة؟ بل الذين لا يؤمنون بالنشأة الآخرة وهي حياة الروح بمعرفة الله في عذاب الحجاب والضلال، عن معرفة العيان بعيد، ما داموا على ذلك الاعتقاد، ثم يهددون بها يُهدد به منكرو البعث، والله تعالى أعلم. البحر المديد (٥/ ١٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾: زاد تذكير نعمه على عباده بأن نـزَّل من سماء قربه مياه المعرفة، ونور المشاهدة، وبيان المكاشفة على قلوب المقبلين إليه، وأنبت فيها نبات العقول والعلوم والحكم والمعارف قوة للمريدين وقوتًا لقلوب الطالبين، قال الله تعالى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

قال ابن عطاء: أنـزلنا من السماء الفهم والعلم والمعرفة، فربينا بها قلوب أولى الألباب وأهل المعرفة والفهم، فهو الخطاب، واستعملوه، وألبسوا به، واتبعوه، فأنبت الله بذلك الماء في قلوبهم معرفته، وعلى لسانهم ذكره، وعلى جوارحهم خدمته: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾: أراد الله سبحانه ظهور نفسه لعشاقه، فخلق آدم على ما كان في علمه، ثم أظهر منه ما غاب عن الوجود من نور غيبه، وبيَّن أنه عالم بما يجري في سره وما توسوس به نفسه، وكيف يخفى عليه ما خلقه، وهو مبدئه بجوده، جلَّت عظمته من أن تخفى عليه ذرة من العرش إلى الثرى، ألا ترى أوّل الخطاب كيف قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ذكر الخلق ليعلم المخاطب أن ما توسوس به نفسه أيضًا هو مخلوقه، وتحقيق الإشارة ودقائق الرمز بيانٌ فيه أن نفسه هو، فيظهر ما كان في مكمن مقاديره الغيبية، ولو يرى الإنسان نفسه، فيرى هو أنه نفسه، ألا ترى كيف أخبر عن كمال قربه بنعت الاتحاد بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾؛ ولذلك قال سيد المرسلين ﷺ: «مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربَّه»[1]؛ إذ لا نفس إلا هو إن فهمت ما قلت وإلا فاعلم أن الفعل قائم بالصفة، والصفة قائمةٌ بالذات، فمن حيث عين الجمع ما هو إلا هو، ولا تظن الحلول؛ فإنه بذاته وصفاته منـزَّهٌ عن أن يكون له محل في الحوادث، هذا رمز العاشقين، ألا ترى إلى قول مجنون العشق الإلهي:

أنـا مـن أهـوى ومـن أهـوى أنـا نحـــن رَوحـــان حَللـــنا بَـــدنًا

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٠٨).

فَــــإذا أبـــــصرتني أبــــصرته   وإذا أبــــــصرته أبــــــصرتَنا

قال أبو سعيد الخراز في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: هم قومٌ صاروا مع الله بلا سبب ولا طلب ولا هرب؛ لأنه مدركهم، وهو معهم يعلم ما في ضمائرهم، ويشهد حركات ظاهرهم، ألم تسمع إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

وقال الواسطي في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ أي: نحن أولى به وأحق؛ إنا جمعناه بعد الافتراق، وأنشأناه بعد العدم، ونفخنا فيه الروح، فالأقرب إليه من هو أعلم به منه بنفسه.

وقال أيضًا: بي عرفت نفسك، وبي عرفت روحك، كل ذلك إظهار النعوت على قدر طاقة الخلق، فأمّا الحقيقة فلا يحتملها العبد سماعًا.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾: سائق نفس العارف شوقه إلى جمال الحق، وشاهد شوقه كشف مشاهدة شوقه بنعت الاطلاع على حرقة فؤاده، فشهد له أنه وليٌّ مقربٌ يجلسه على بساط أنسه أبد الآبدين.

قال الواسطي: سائقها الحق، وشهيدها الحق.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾: يا ليت لو علم الغافل هناك غاية أمره؛ إذ كان غافلاً عن مشاهدة الغيب، فصار له منكشفًا؛ فيرى ما يرى مشاهدة وعيانًا، وثبت له حقيقة العيان بلا علة الاستدلال؛ ليفرح بوجدانها حتى يطير من الفرح بكشفها ما يزيل عن قلبه هم العذاب وحزن العتاب، فإذا حصل المقصود فأنّى العذاب خطر؛ إذ الاحتراق بالنار بعد اليقين والعيان سهل على من يسّره الله عليه، وبيّن سبحانه أنه إذا رفع غواشي قهره عن أبصار الغافلين صارت أبصارهم نافذة في رؤية الغيوب، فيرون ما يفرح به قلوب العارفين في الدنيا من كشف عجائب الملكوت وأنوار الجبروت، فأين أنت من العذاب والعقاب عند كشف النقاب وسماع الخطاب ومن ليس بغافل عن كشف عيان العيان وبيان البيان، ومن يطّلع على حقيقة الحقيقة هاهنا حتى أتى بساط الأعظم

ومجلس الأقرب، هناك ينكشف أنوار الألوهية وسناء القدوسية، فيكحل عيون الكل ضياء مشاهدته، فيذهب من البين الدليل والاستدلال والمخاييل والمحال والإيمان والإيقان، بل يبقى العيان والعرفان أبدًا، وهذا كما قال السيد الضرغام الأمير الهمام علي بن أبي طالب -كرَّم الله وجهه-: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا»[1].

قال الواسطي: من كشف عنه خطأ الغفلة أبصر الأشياء كلها في أسر القدم.

وقال أيضًا: أي: علمك نافذٌ في المقدورات، وحكمك ماضٍ على الخلائق.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أي: لا يتغير قولي الذي سبق في الأزل بحسن العناية في اصطفائية أنبيائي وأوليائي إلى الأبد، ولا أسقطهم عن درجتهم التي اخترتها لهم في الأزل؛ إذ استحال مني كون الظلم، وأيضًا أي: لا تغير الأقوال عند اطلاعي بها، ولا يقدر أحدٌ على أن يخفى إصدار كلامه عني ما في ضميره، قال الله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، والكون ملكي أتصرف فيه كما أشاء، ولا يرجع إليَّ ظلم ولا جهل؛ إذ هما من أوصاف الحدث، وأنا منـزَّهٌ عن أوصاف الحدثان.

قال سهل: ما يتغير عندي حكمٌ قد سبق علمي فيه، فيكون بخلاف ما سبق العلم.

وقال ابن عطاء: ما يظهر في الوقت هو الذي قضينا في الأزل لا مبدل له.

وقال الأستاذ: لا تبديل لحكمي ولا تغيير لقضائي، وما أنا بظلام للعبيد، وتصرفي فيهم تحت ملكي، فلي كل ما أفعله، ولا مني ظلم؛ لأن الظلم ترك الأمر، وهو ليس بمأمورٍ.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: إن الله سبحانه وعد جهنم أن يملأها من الجن والإنس، فيملأها ثم يقول: هل امتلأت، وهي تستزيد؛ لأن ما يلقى فيها كحلقة تلقى في اليم، وإن جهنم تشتاق إلى الله كما تشتاق إليه الجنة، فإذا رأى الله سبحانه حالها من الشوق إليه يضع أثقال سطوات قهر القدم عليها بنعت تجلٍ، فتملأ من العظمة، وتصير عند عظمة الله كلا شيء في شيء، ويا رب طبب في قلوب الجهنميين في تلك السَّاعة من رؤية ظلال عظمته، ومن رؤية أنوار قدم القدم، لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ، فحينئذٍ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٠٣).

يصير نيرانها وردًا ريحانًا من تأثير بركة ظهوره لها:

يكـون أجاجًـا دونكـم فـإذا انتهـى ... إلـيكم تلقـي طيـبكم فيطـيبُ

ومـا ذاك إلا حـين خـبرت أنهـا ... تمـر بـوادٍ أنـت مـنه قـريبُ

تصديق ما ذكرنا قول النبي ﷺ: «حتَّى وضع الجبَّار قدمه على النار فتقول قط قط»[1].

﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي: فاز منه إليه حافظ أنفاسه حتى لا يتيقن إلا الله وفي الله.

قال سهل: هو الراجع قلبه من الوسوسة إلى السكون إلى الله، والحفيظ المحافظ على الطاعات والأوامر.

قال المحاسبي: الأوَّاب الراجع بقلبه إلى ربه، والحافظ قلبه في رجوعه إليه أن يرجع منه إلى أحدٍ سواه.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: هذا وصف من وعده الله جنان مشاهدته ووصاله وقربه ووصفه بالخشية والإنابة، والخشية هي العلم بإحاطته بعلمه القديم بكل شيء، ورؤية جلاله الذي ورث في قلبه الخشية والإجلال، فإذا رآه بهذه الصفات العظام رجع من وجوده إلى وجود الحق.

قال الواسطي: الخشية أرقُّ من الخوف؛ لأن المخاوف العامة لا تعاين إلا عقوبة، والخشية هي نيران الله في الطبع فيها نظافة الباطن للعلماء، ومن رزق الخشية لم يعدم الإنابة، ومن رزق الإنابة لم يعدم التفويض والتسليم، ومن رزق التفويض والتسليم لم يعدم الصبر على المكارة، ومن رزق الصبر على المكاره لم يعدم الرضا.

وقال بعضهم: أوائل العلم الخشية، ثم الإجلال، ثم التعظيم، ثم الهيبة، ثم الفناء، ثم وصف الله ما لهم في قربه وجواره من المشاهدة والوصال بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: لهم ما يشاءون مما وصل إلى قلوبهم من الأماني والعلم بوجودي، ولدينا مزيد مما

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في التاريخ (٥/ ١٢٧).

لا يطلعون ولا يعرفون مني إلى الأبد، وهذا معنى قوله ﷺ: «إنَّ في الجنة ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشر»[1].

قال عبد العزيز المكي: لهم في الجنة ما يحقق أمانيهم من النعيم، ثم نـزيدهم من عندنا ما لا تبلغه الأماني، وهو الرؤية، وذلك أجلُّ وأعلا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: أثبت الله سبحانه رؤية أنوار حكمته الأزلية وسناء الكبرياء والعظمة وظهور قهر الجبارية لمن له قلب، وله إلقاء السمع، وله شهود السرِّ، والقلب عبارةٌ عن نقطة دائرة الفطرة القدسية التي خلقها الله من نور فعله الخاص، وهو يتجلى لها من نور صفته ونور ذاته، وهناك لطيفة كبرى، وهي سر النقطة، حولها دائرة العقل، وراء الدائرة حواشي فعله، ألقي تحتها ستر الصفات، ثم تحت ذلك الستر ظهور الذات لها، فهو بذاته وصفاته حافظ فعله الخاص، أليس ستر الفعل العام على غاشيتها، وحولها عالم الملك والشهادة، وباطنها كشف الصمدية وجلال الأزلية، وبينها وبين الحق لم يبق حجاب امتناع قدمه عن إحاطتها، وذلك الكشف والعيان من بدو وجودها إلى أبد الأبد لا ينقطع؛ لذلك قال الشبلي: وقتي مسرمدٌ، وتجري بلا شاطئ، سقط عنها أضداد التجلي؛ إذ لم يبق بين الحق وبينها جريان الحوادث، ولتلك اللطيفة عيون وأسماع؛ إذ كل وجودها سمع وبصر، فجميع سمعها وبصرها مشغولٌ بخطاب الله ورؤيته، فألقت سمعها لأصوات وصلة الأزلية، شهدت أبصارها بمشاهدة القديم، ثم نورث الهيكل بالحضور والخدمة، وطلب مزيد الصفاء والقرابة، وجعلتها مركب سيرانها وطيرانها إلى عالم الملكوت، ورأت من روزنة البصر ما رأت بلا واسطة، وسمعت بسمع الظاهر ما سمعت بلا وسيلة، فإذا رأى صاحب هذا القلب شيئًا من عجائب صنعه صار خاضعًا لعظمته، خاشعًا

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٨٥)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤).

لهيبته، مطيعًا لأمره، جعلنا الله وإياكم من أصحاب القلوب، وأقرّ عيوننا بأنوار الغيوب.

قال الحسين: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ : لا يخطر فيه إلا شهود الربِّ.

وقال ابن عطاء: قلب لاحظ الحق بعين التعظيم، فذاب له، وانقطع إليه عما سواه.

وقال الواسطي: ذكرى لقوم واحدٍ، لا لسائر الناس، لمن كان له القلب أي: في الأزل، وهم الذين قال الله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ .

وقال القاسم: هم الأنبياء؛ فإن الله خلقهم للمشاهدة، يشهدون له بقلوبهم عند إقبالهم وإدبارهم بأنه المنشئ والمبدئ والمعيد.

قال الحسين: بصائر المبصرين، ومعارف العارفين، ونور العلماء الربانيين، وطرق السابقين الناجين والأزل والأبد، وما بينهما من الحدث غيره: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ .

وقال ابن عطاء: هو القلب الذي يلاحظ الحق، فيشاهده، ولا يغيب عنه خطرة ولا فترة، فيسمع به، بل يسمع منه، ويشهد به، بل يشهده، فإذا لاحظ القلب الحق بعين التخويف رعب وارتعد وهاب، وإذا طالعه بعين الجمال والجلال هدأ واستقرّ.

وقال: قلبٌ لاحظ الحق بعين التعظيم، فذاب، وانقطع إليه عما سواه، وإذا لاحظ القلب الحق بعين التعظيم لان وحسن.

وقال بندار بن الحسين: القلب مضغةٌ، وهو محل الأنوار، ومورد الزوائد من الجبار، وبها يصح الاعتبار، جعل الله القلب للجسد أميرًا، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ ، ثم جعله لربه أسيرًا، فقال: ﴿يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ .

وقال جعفر: إذا همَّ القلب عوقب على المكاره، ولا يعرفه إلا العلماء بالله.

وقال الصبيحي: خاطب أصحاب القلوب؛ لأن القلوب في قبضة الحق يقلبها كيف يشاء، وسَّعها، وصفَّاها من البين، ونقَّاها، وشرحها، وفسحها، ثم حشاها بمودته وإيمانه ويقينه؛ ولذلك خاطب القلوب بخصائص ما أودع فيها.

وقال بعضهم: للقلوب مراتب، فقلوب في قبضة الحق مأسورة وبكشفه مسرورة، وقلوب المحبين إليه والهة، فقلوب طائرةٌ بالشوق إليه، وقلوب هاجت بالشغف هيمانًا، أو قلوب اعتقدت فيه الآمال، وقلوب إلى ربها ناظرةٌ، وقلوب تبكي من الفراق وشدة الاشتياق، وقلوب ضاقت في دار الفناء وسمت إلى دار البقاء، وقلوب خاطبها في سرها، فزال عنها مرارة الأوجاع، وقلوب سارت إليه بهمتها، وقلوب صعدت إليه بعزائم صدقها، وقلوب تقدمت بخدمته في الخلوات، وقلوب مرَّت في الهدايات، وابتغت من الله العناية،

وقلوب شربت بكأس الوداد، فاستوحشت من جميع العباد، وقلوب ساقت في الطريق إليه، وقلوب انقطعت بالكلية إليه، فهذه مراتب القلوب في السلوك والقصد فهو متبع قصده.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ : أمر الله نبيه ﷺ أن يذكِّر الخاشعين من عظمته والخائفين من رؤية كبريائه بالقرآن؛ لأنهم أهله وأهل القرآن أهل الله وخاصته، يعرفون حقائق الخطاب، وهم يدركون موعظة الله، ويفزعون بها من الله، ويتابعون مواضع الخطاب بنعت العبودية، وهم بالقرآن يرتقون إلى سعادته، فيرون الحق بالحق بلا حجاب، ويصعدون به إلى الأبد.

قال أحمد بن حمدان: ألا يتعظ بمواعظ القرآن إلا الخائفون على إيمانهم وإسلامهم، وعلى كل نفس من أنفاسهم أنهم في محل البعد والهلاك، قال الله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

قال الأستاذ: إنما يؤثر التخويف والإنذار في الخائفين، فأما من لا يخاف فلا ينفع فيه التخويف، وطير السَّماء على وكارها تقع[1].

سورة الذاريات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ : أقسم الله سبحانه بعواصف تجلي عظمته وكواشف أنوار كبريائه التي تفرق أسرار العارفين في هواء القدم، والبقاء حتى لا يبقى من وجودها من صولة ظهور القيومية في سماء الهوية أثر؛ لغلبة القدم على الحدث وبشمال جماله الذي يأتي بنسيم الوصلة إلى

(١) انظر: تفسير القشيري (٧/ ٣٠٤)، والبحر المديد (٧/ ٥٣).

قلوب المحبين، وينشق طيب نسائم الدنو أرواح الشائقين ومحمل أنين العاشقين إلى بساتين الملكوت، ويطيبها بطيب الجبروت:

وإني لأستهدي الرياح نسيمكم إذا أقبلت من أرضكم بهبوبْ

وأسألها حمل السلام إليكم فإن هي يومًا بلغت فأجيبْ

وأقسم بسحائب ظلال عنايته القديمة التي تحمل ويل المعرفة من بحر الصفات، فتمطر على أرض قلوب العارفين، فينبت به أزهار المحبة وورد الألفة وياسمين المودة ونور الحكمة ورياحين العلوم اللدنية، فيا لها من برد تلك الظلال، ويا لها من تسنيم ذلك الشمال، يا لها من حسن ذلك الجمال، وأيضًا: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ : أقسم برياح أنفاس المشتاقين إلى جماله التي تصعد إلى الملكوت، وتنشر طيب نفحات العشق في بساتين الجبروت، فيطيب بنسيمها أهل الملأ الأعلى وصفائح الأدنى.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ : سحائب أرواح العارفين التي تحمل أوقار مياه علوم الغيب من بحار الصفات، فتمطر على صحارى الصدور، فتنبت فيها أشجار الحقائق وأنوار الدقائق.

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ : للسنن أسرار الربانيين التي تجري في بحار الذات القديم، يسوقها شمال العناية، ويحرسها من الفناء شرف الكفاية.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ : عقول المتمكنين في مقام الصدق والاستقامة التي تقسم أمور الإلهام في مواضع العبودية لنظام الطريقة والشريعة، أقسم الله بهذه العجائب بما فيها من لطائف الغرائب والدلالة على صفاته وذاته ومحبة أوليائه وقمع أعدائه إن مواعيد وصاله وكشف جماله لصادقةٌ، وإن ساعات القربات والمداناة لواقعةٌ، فهناك أيام المواصلة، وهناك أزمان المكاشفة والمشاهدة إلى الأبد.

قال الأستاذ في قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ : إن من حملة الرياح الصبحية تحمل أنين المشتاقين إلى ساعات العزة، ثم تأتي بنسيم القربة إلى مشام أهل المحبة، فيجدون راحة غلبات اللوعة، وفي السحاب ما يمطر بعتاب الغيبية، ويؤذن بهواجم النوى والفرقة، فإذا عَنَّ لهم شيءٌ من ذلك أبصروا ذلك بنور بصائرهم، فيأخذون في الابتهال والتضرع في السؤال استعادة منهم، كما قالوا:

أقولُ وقد رأيتُ لها سحابًا من الهُجَران مقبلة إلينا

وقد سَحَّت عَزاليها بهَطْل حَوالينا الصُّدود ولا علينا

وقال في قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ : وعد الله المطيعين بالجنة، والتائبين بالرحمة،

والأولياء بالقربة، والعارفين بالوصلة، ثم أقسم بسماء قلوب الموحدين التي شمسها العرفان، وقمرها الإيقان، ونجمها الإيمان، وصفاؤها البيان، وسحابها البرهان، ومطرها الغفران، ورياحها القربان، وحبكها لمعان العيان بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝﴾ .

قال الأستاذ: الإشارة إلى سماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان وقمر المحبة ونجوم القربة.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝﴾ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: الذين يتحرزون بهمومهم الصافية عن غبار الخليقة، يتقلبون في جنان القربة، ويعيشون بنسيم الوصلة، ويشربون من عيون المعرفة شراب المحبة ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: من لطائف المقامات وغرائب الدرجات، في الدنيا لهم الكرامات، وفي الآخرة لهم المداناة، ثم ذكر سبب وصولهم إليها، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: باذلين وجودهم لله شوقًا إلى الله، ثم زاد في وصفهم بأنهم باتوا في ظلم الليالي؛ لتفقد الواردات وطلب المكاشفات بقوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، يتهجدون في أجواف الليالي بطيب مناجاتهم وحلاوة مراقباتهم ولذة انبساطهم وعربدتهم على بساط الاحتشام؛ حيث يسمعون لطائف الإلهام والخطاب والكلام، فيا لها من عبراتهم، ويا لها من زفراتهم ويا لها من شهقاتهم، ويا لها من لذة تلفظهم بالشطحيات، وغرائب الكلمات الإلهيات، وهذا من كمال عشقهم وغلبات محبتهم وشوقهم، لا يقدرون أن يناموا في مضاجعهم؛ من لذة الأنس بالله ووجدان قرة عيونهم من نور مشاهدته، حيث قال في وصفهم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، أين أنت يا صاحبي من سقوطهم وتمرغهم في التراب؟! لو رأيت عيونهم الباكية لترى فيها دمار أكبادهم، الله يعلم أسرارهم؛ حيث هيَّجهم بشوقه وعشقه إلى قربه حتى لم يناموا على فرشهم مثل البطالين والغافلين، وأنشد:

نهاري نهار النَّاس حتَّى إذا بدا ... لي الليل هزتني إليك المضاجع

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والهم بالليل جامع

ثم وصفهم الله بأنهم مستغفرون بالأسحار، وذلك أنهم إذا رجعوا من مقام المشاهدة إلى مقام المراقبة يستغفرون الله من الزلات والخطرات قبل المداناة وبعد المكاشفات من

المعارضات بقوله: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾، ثم زاد في وصفهم أنهم بذلوا ما لهم في سبيل الله لمن سأل منهم ولمن لم يسأل بقوله: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

قال سهل: المتقي في الدنيا في جنات الرضا يتقلب، وفي عيون الأنس يسبح.

وقال في قوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾: لا يغفلون عن الذكر في حال.

وقال بعضهم: ذاقوا حلاوة الأنس في الذكر، فتهجدوا، وهجروا النوم، وقاموا آناء الليل والنهار طالبين مرضاته، متطلعين إلى ما يرد عليهم من زوائد مناجاته وفوائده.

وقال الأستاذ: الليل إما للأحباب في أنس المناجاة، وإما للعصاة في طلب النجاة، والسهر لهم في لياليهم دائم، إما لفرط أسفٍ ولشدة لهف، وإما للاشتياق والفراق، كما قالوا:

كم ليلةٍ فيك لا صباح لها ... أفنيتها قابضًا على كبدي

وقد غضت العين بالدموع وقد ... وضعت خدي على بنان يدي

وأما لكمال أنس وطيب روح، كما قالوا:

سقي الله عيشًا قصيرًا مضى ... زمان الصبى في الهوى والمحون

لياليه يحكي انسداد اللحاظ ... للعين عند ارتداد الجفون

وقال بعضهم: السائل المفتضح، والمحروم المتعرض.

وقال الأستاذ: السائل المتكفف، والمحروم المتعفف.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾: إن آيات الأرض ظهور تجلي ذاته وصفاته في مرآة الأكوان، كما ظهر من الطور لموسى، وما ظهر من المصيصة لعيسى، وما ظهر لمحمد ﷺ من جبال مكة، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «جاء الله من سيناء واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»[1]، وأيضًا يظهر لكل موقن ذلك النور والبركة، وهذا المقام مقام اليقين، وإذا ظهر بذاته وصفاته للسر والروح والقلب والعقل يكون مقام الاتصاف والاتحاد، وهذا للعاشقين، وهو مقام عين الجمع، الأول مقام الجمع، ومن شدة ظهور النفس الناطقة استفهم الحق غرباء المعرفة، ودلهم على عيان المشاهدة، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾: آيات الموقن هو الموقن، وآيات العارف هو العارف سبحانه هو المقدس من مباشرة الحدثان، والمخالطة بالإنسان.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال سهل: بالعارفين بالله يستدلون على معروفهم.

وقال في قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أي: أفلا ينظرون فيها إلى آثار الربوبية.

وقال الواسطي: تعرَّف إلى قوم بصفاته وأفعاله، وهو قوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وتعرَّف إلى الخواص بذاته، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

وقال بعضهم: فمن لا يبصرها ولا يعرفها أضاع حظها منها.

وقال الحسين: إذا عرج على نفسه بان نفسه لنفسه، ومن لم يعرج على جملته كان محتشمًا لم يبين خلقه لخلقه، فكان كما لم يزل خوطب بلسان الأزل وجميع نعوته عدم، بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾، فكان المخاطب لهم والمجيب عنهم ولا هم.

وقال أبو الحسين بن هند: العبد يعرف نفسه على قدر حضوره واستعماله للعلم، وعلى قدر رجوعه إلى الله يعرف نعمه وفضله وكلاءته؛ إذ ذاك ينجو من الاستدراج.

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: في سماء صفاتي رزق أرواحكم من مشاهدة النور، وغذاء العلم الرباني، وما توعدون من مشاهدة الذات وكشف عيانه، وفي الآية دليل التوكل على الله، وحثٌّ على طلب الحوائج منه، وأحالهم إلى رؤية الوسائط، ولو كانوا على محل التحقيق لما أحالهم إلى السماء ولا إلى الأرض.

قال إبراهيم بن شيبان: وفي السماء بقاؤكم وما توعدون من الفناء.

وقال القاسم: ما توعدون من الفناء والبقاء والهداية والضلالة والهلاك والعقوبة[1].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي: المكرمين في الأزل باصطفائيتهم وقربتهم من الله سبحانه، وأنهم ملبسون لباس نور الحضرة، وأنهم سفرة الله، أكرمهم بأنه جعلهم سفراء بينه وبين الأنبياء والمرسلين، فبكرامة الخليل والحبيب عليهما

---

(١) قال التستري: أي تفرغوا لعبادتي ولا يشغلكم طلب الرزق عنا ، فإنا نرزقكم ، ثم قال: إن الله رضي عنكم بعبادة يوم فارضوا عنه برزق يوم بيوم. قال: وفيها وجه آخر: ﴿وَفِي السمآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي من الذكر وثوابه. تفسير التستري (٢/ ٦٧).

الصلاة والسلام أكرمهم الله، ولما رآهم الخليل على هيبة الملكوت استبشر برؤيتهم فيما استنشق منهم رائحة القربة، أكرمهم بكرامة الله إياهم، فصاروا مكرمين من جهة الحبيب والخليل عليهما الصلاة والسلام.

قال ابن عطاء: ضيف الكرام لا يكون إلا كريمًا، فلما نـزلوا بإبراهيم الخليل وكان سيد الكرام سَمَّاهم الله مكرمين.

قال جعفر: مكرمين حيث أنـزلهم أكرم الخليقة وأظهرهم فتوة وأشرفهم نفسًا، وأعلاهم همة الخليل صلوات الله وسلامه عليه.

وقال يعقوب السوسي: ما تكلف لهم، ولا اعتذر إليهم، وهذا من أخلاق الكرام.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾: كمال فتوة الخليل في إكرام أضيافه التعجيل بإحضار ما حضر عنده، وتخيره بأن جاء بأسمن ما عنده، فإن من الفتوة وإكرام الضيف أن يختار من أحسن ما عنده لضيفه، كان إكرام الضيف سجية الخليل، ثم لما كان الأضياف رسل حبيبه زاد في إكرامهم، بأن خدمهم بنفسه، وقام على رؤوسهم، وأكل معهم، وهذا دأب العاشقين إكرام رسول الحبيب.

قال أبو العباس الدينوري: تعجيل القرى من المروءة، ألا ترى كيف حكى الله عن

إبراهيم بقوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا﴾: وصف الله نفسه بالقدرة القائمة بذاته والقوة الأزلية في ذاته، بأن ركَّب السماء، ووسعها، وألبسها أنوار القدرة والقوة، وجعلها مرآة لصفاته لنظر نظار الحقيقة وإبصار طلاب المشاهدات في الآيات، وبسط الأرضين لأقدام أوليائه، وجعلها مساجد أصفيائه، وأنبت فيها صنوف الأشجار وفنون الأزهار، وأثنى على نفسه في إمهاده الأرض بقوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾: ذكر ثناء نفسه في ذكر الأرض لخاصيتها بأنها مواضع أقدام الصديقين، وبأنها أصل طينة آدم وذريته، وبيَّن وحدانيته في قوله: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ، وقع الكل في القلة والكثرة، وتفرد الوحدانية بالوحدة؛ ليعرف في رؤيتها العارف وحدانيته، ويعتبر بها وجد في الكون أن مآل الكل للفناء، والحق لم يزل ولا يزال باقيًا.

قال الخراز: أظهر معنى الربوبية والوحدانية بأن خلق الأرواح؛ لتخلص له الفردانية، فلما تبين أن أشكال الأشياء مواضع علة الفناء دعا العباد إلى نفسه؛ لأنه الباقي وغيره فانٍ بقوله: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ففروا من وجودكم ومن الأشياء كلها إلى الله بنعت الشوق والمحبة والتجريد عما سواه، وأيضًا فروا إليه منه حتى تفنوا فيه؛ فإن الحادث لا يثبت عند رؤية القديم: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ عنه وعن قهر قدمه وفراقه ﴿مُّبِينٌ﴾؛ حيث تعرفون أني صادق فيما ظهر مني من سلطان هيبتي وبرهان قدرتي.

قال سهل: ففروا مما سوي الله إلى الله، وفروا من المعصية إلى الطاعة، ومن الجهل إلى العلم، ومن عذابه إلى رحمته، ومن سخطه إلى رضوانه.

وقال محمد بن حامد: حقيقة الفرار إلى الله ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «وألجأتُ ظهري إليك»[1].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٩٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٨١).

وما روى عنه في خبر عائشة -رضي الله عنها-: «أعوذُ بك منك»[1]، فهذا غاية الفرار منه إليه.

قال الواسطي: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معناه لما سبق لهم من الله لا إلى علمهم، وحركاتهم وأنفسهم كما قال النبي ﷺ: «أعوذ بك منك»[2].

سئل بعضهم عن قول النبي ﷺ وسلم: «سافروا تصحُّوا»؟ قال: إلينا تجدونا في أول قدم، ثم قرأ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾: فتول عنهم بسرك إلينا، فما أنت بملوم في إبلاغ رسالتك وإشغافك بالظاهر بهم وبإعلامهم بأسباب نجاتهم، فأنت مستقيمٌ، لا يحجبك إبلاغ الرسالة عن شهود العين.

قال الواسطي: ردهم إلى ما سبق عليهم في الأزل من السعادة والشقاوة، وأسقط الملامة عن نبيه ﷺ لما نصح وجهد وعانى بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾، فلما أمر أن يتولى عن الأعداء أمر أن يقبل على طلاب مشاهدته من العارفين، ويجدد بقوله سوابق ما أنعم الله عليهم من التوحيد والمعرفة بقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ذكرهم جمالي وجلالي وحسن اصطناعي وقربي منهم، وما خصصتهم من سني الدرجات ورفيع المقامات؛ فإن ذكرك ينفع لهيب فؤادهم ولوعة قلوبهم وأشواق أرواحهم.

قال جعفر الصادق: يعني يا محمد ذكِّر عبادي جنودي وكرمي وآلائي ونعمائي وما سبق لهم من رحمتي لأمتك خاصة، والذكرى التي تنفع المؤمنين ذكر الله العباد وما سبق من العناية القديمة بالإيمان والمعرفة والتوفيق للطاعة والعصمة عن المعاصي.

قال الأستاذ: ذكِّر المطيعين جزيل ثوابي، وذكِّر العارفين ما صرفت عنهم من بلائي.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: في هذه الآية إشارةٌ عجيبةٌ، وهو أنه تعالى إذا أراد خلق الجن والإنس أبرز من عيون الربوبية عينًا، فأوجدهم برؤية العين،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٨٠) بأوله فقط.

فلما عكس عليهم سناء التنـزيه وباشر ذلك سناء وجودهم في إيجادهم تلطفوا بلطفه، واستلذُّوا تلك المباشرة، وفرحوا بوجدانها، وسكروا بحلاوتها، فكادوا أن يدَّعون الربوبية، وذلك سرُّ النفس التي سترها في النفس الأمَّارة، وذلك ظهر الفراعنة، فادَّعوا الربوبية؛ لغلبتها على هواهم، ومن لم يغلب عليه ذلك لم يدَّع، ولكن ذلك السر مخفيٌّ في نفسه، فلما علم الحق منهم ذلك حذَّرهم منه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: أعلمهم أن ما هو عليهم كسوة الربوبية العارية لهم، فلما ارتفعت الكسوة بقوا في رقِّ عبودية الخالق الفرد المنـزَّه عن مباشرة الخليقة، أي: لا تظنوا أنها لكم، فذلك لي حقيقةٌ أزليةٌ إلى أبد الأبد، كيف لا يكونون عابديه، وهم في قبضة عزته تكوَّنوا وما يجري عليهم بغير اختيارهم، وهم بذلك مجبورون، فإذًا صحت عبوديتهم؛ لأن حركاتهم وسكناتهم تقع على وفق مشيئته الأزلية، فذلك منهم عين العبودية؛ إذ لا إرادة لهم في حركاتهم وسكناتهم ودخولهم وخروجهم وأنفاسهم وخواطرهم، فما يظهر منهم فهو محض إرادته القديمة، ما أراد منهم في الأزل فيكون منهم يظهر وهذا عين العبودية؛ إذ قامت بمشيئته الكائنات والحركات والسكنات لا بذواتها، فمن عرف نفسه بالعبودية فقد عرف ربه بالربوبية، ثم بعد ذلك لا يكون منهم نفس ولا حركة إلا ويكون ساقطًا في مشاهد ربوبيته، فبقي الحق هناك، ولم يبق العبد في البين، قال الله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: يا فَهِم إذا أمر لسان الأزل يكون لا شيء فتكون بأمره، وإذا ناداه من بطنان الأزل ودعاه من غيب العدم كيف لا يجيب المكون وهو تعالى سابقٌ بعلمه في الأزل في وجود ذلك المكون، فإذا أجاب المكوَّن المكوَّن بكل مادة إما مستحسنًا في الظاهر وإما مستقبحًا فإن استقباحه واستحسانه يكون بالإضافة إلى الخلق، وإلا في عين المشيئة كلها مستحسنٌ تكون محض العبودية لربوبية الحق، وإن خرج في لباس المخالفة من حيث الرسوم، ومن عرف ما ذكرنا من عين التوحيد قد سقط عن عينه جهد الجاهدين وتكلف السالكين، وتحير في قبضة الجبروت، واستغرق في بحار الملكوت، لا يكون منه نفس إلا ويخرج بشرط الرضا، ولا يتحرك إلا بوفق الوفاء، ولا ينظر إلا بحقيقة الصفاء.

قال جعفر: إلا ليعرفوني، ثم ليعبدوني على بساط المعرفة؛ ليتبرأوا من الرياء والسمعة.

وقال ابن عطاء: إلا ليعرفوني، ولا يعرف حقيقته من وصفه بما لا يليق به.

قال الواحدي: مذهب أهل المعاني في ذلك ألا يخضعوا لي ويتذللوا، ومعنى العبادة في اللغة الذل والانقياد، وكل مخلوق من الجن والإنس خاضعٌ لقضاء الله، مذللٌ بمشيئته، خلقه على ما أراد، ورزقه كما قضى، لا يملك أحدٌ لنفسه خروجًا عما خُلِق عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾: رزقه بالتفاوت، رزق بعضهم الإيمان، ورزق بعضهم الإيقان، ورزق بعضهم العرفان، ورزق بعضهم البيان، ورزق بعضهم العيان هذا لأهل الولاية، ورزق بعضهم من أهل الشقاوة الخذلان، ورزق بعضهم الحرمان، ورزق بعضهم الطغيان، ورزق بعضهم الكفران، فصدر الأول صدروا من مكامن أنوار لطفه، وهؤلاء المحرومون خرجوا من ظلمات قهره، وهو جلَّ جلاله ذو القوة الأزلية، وهو متين قوي عزيز، ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بعزِّه وقوته.

قال بعضهم: اعتبروا كيفية الأرزاق باللبيب الطالب وحرمانه والطفل العاجز وتواتر الأرزاق عليه؛ لتعلموا أن الرزق طالبٌ وليس بمطلوبٍ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1].

سورة الطور

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾: أقسم الله

(١) هذه الآية وأمثالها هي التي غسلت الأمراض والشكوك من قلوب الصدِّيقين، حتى حصل لهم اليقين الكبير، فسكنت نفوسُهم، واطمأنت قلوبهم، فهم في روح وريحان. والأحاديث في ضمان الرزق كثيرة، وأقوال السلف كذلك. البحر المديد (٦/ ١٥٦).

ههنا بذاته وصفاته وفعله، الطور ذاته القديم، والكتاب المسطور صفاته القديمة، والرق المنشور أفعاله اللطيفة، وأيضًا الطور قلب محمد ﷺ، والكتاب المسطور رموز ما أوحى، والرق المنشور أسراره المنقوشة بأنوار وحيه وإلهامه وغرائب علومه اللدنية، ظاهر قسمه على الطور الذي تجلى له الحق، فإذا كان ذلك محل قسمه بتجلٍ واحدٍ فما تقول في طور لا تنفكُّ أنوار تجليه منه، وهو قلب محمد ﷺ، سماه طور العظمة واستقامته في موازاة سطوات عزته، وسمى قلب غيره من الأنبياء والأولياء بالبيت المعمور، الذي عمَّره بنور القربة والمشاهدة والعلم والحكمة والمعرفة والوجد والحال والمكاشفة، ويمكن أنه تعالى أراد به صورة محمد ﷺ وصورة أبيه آدم، الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وجعله مرآة ظهوره، وجعل روحه ورق أسرار علومه التي ذكرها بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾: روح محمد ﷺ الذي رفعه الحق إليه، ومقام عنديته أرفع من كل رفيع من العرش إلى الثرى، وأيضًا يمكن أنه أراد به العرش.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: بحر سر محمد ﷺ؛ لأن ذلك البحر ملأته أنهار قاموس علومه القدمية، وأسرار كلماته الباقية، وأيضًا الطور طور سيناء الذي هو موضع التجلي والكلام.

والكتاب المسطور ما كلَّم الله به موسى، فصار منقوشًا في ورق قلبه، أقسم بالطور وبقلبه وبما فيه مما سمع من كلامه.

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾: أيضًا ما كتبه بيده على ألواح موسى.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾: أيضًا قلبه كان معمورًا بنور مشاهدته؛ ولذلك خاطب الله موسى بقوله: فرغ بيتًا لي أسكن، فلما سكن في بيت قلبه عمَّره بنور قربه.

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾: كنايةٌ عن ذاته القديم الذي امتنع بعزته عن تناول الحدثان، ألا ترى كيفما بلغ أماني موسى، فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ بعد قوله: ﴿أَرِنِي﴾.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: صدر موسى الذي هو مملوءٌ من نيران شوقه وحزنه، حين لم يدرك حقائق جلال الألوهية الذي استحال وجود الحدث عن إدراكه بوصف الإحاطة والحقيقة، وأيضًا عم في هذه الأقسام جميع العارفين والصديقين، الطور أرواحهم، والكتاب المسطور إلهامهم، والرق المنشور عقولهم، والبيت المعمور قلوبهم، والسقف المرفوع أسرارهم، والبحر المسجور صدورهم، أقسم بأرواحهم؛ لأنها مواضع تجليه، وأقسم بما خاطبهم من الوحي والإلهام، وأقسم بعقولهم؛ إذ هي ألواح علومه الغيبية، وأقسم بقلوبهم؛ إذ هي مساكن المعارف ومساقط أنوار الكواشف، وأقسم بأسرارهم؛ إذ هي تصعد إلى

مصاعد الملكوت ومعارج الجبروت، وأقسم بصدورهم؛ إذ هي مملوءةٌ من سناء العرفان وضياء الإيمان وأنوار الإسلام، قال الله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾.

قال جعفر في قوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾: أي: وما يطرأ على قلب أحبائي من الأنس بذكري والالتذاذ بحبي، ﴿وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾: وما كتب الحق على نفسه لهم من الاقتراب والقربة.

وقال سهل في قوله: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾: هو القلب، قلوب العارفين معمورة بمعرفته ومحبته والأنس به، ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾: هو العمل المرضي الزكي الذي لا يُراد به جزاءً من الله في الظاهر.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ أي: كلوا من موائد قربه، واشربوا من شراب وصله هنيئًا بلا كدورة العتاب ووحشة الحجاب.

قال سهل: جزاء الأعمال الأكل والشرب، ولا يساوي أعمال العباد أكثر من ذلك، وأما شراب الفضل فهو قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾: شرابًا على رؤية المشاهدة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: هذا إذا وقعت فطرة الذرية من العدم سليمة طيبة طاهرة لقبول معرفة الله، ولم تغيرها تأثير صحبة الأضداد، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة، فأبواه يُهودانه أو يُنصرانه أو يُمجسانه»[1]، فإذا بقيت على نعت الأول ووصل إليها فيض مباشرة نور الحق ولم يتم عليها الأعمال والعمار يوصلها الله إلى درجة آبائهم وأمهاتهم الكبار من المؤمنين؛ إذ هناك يتم أرواحهم وعقولهم وقلوبهم ومعرفتهم وعلمهم بالله عند كشف مشاهدته وبروز أنوار جلاله ووصاله، وكذلك حال المريدين عند العارفين، يبلغون إلى درجات كبرائهم وشيوخهم، ما داموا آمنوا بأحوالهم، وقبلوا كلامهم، كما قال رويم قدَّس الله روحه: من آمن بكلامنا هذا من وراء سبعين حجابًا فهو من أهله.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ أحبَّ قومًا فهو منهم»[1]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، ولا تعجب من ذلك؛ فإنه تعالى مبلغهم إلى أعلى الدرجات، فإذا كانوا معهم في منازل الوحشة يصلون إلى الدرجات العلية، فكيف لا يصلون إليها في مقام الوصلة!

﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾: وصفهم الله في شربهم كاسات شراب الوصلة بالمسارعة والشوق إلى مزيد القربة، ثم وصف شرابهم أنه يورثهم التمكين والاستقامة في السكر، لا يئول حالهم إلى الشطح والعربدة، وما يتكلم به سكارى المعرفة في الدنيا عند الحق، ولا يشابه حال أهل الحضرة حال أهل الدنيا من جميع المعاني.

قال ابن عطاء: أي لغو يكون في مجلس محله جنة عدن، والساقي فيه الملائكة، وشربهم على ذكر الله ريحانهم، ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وشكرهم على المشاهدة والقوم جلساء الله ﷻ.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٢/ ٣٣١).

ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾: هذا شكرٌ من القوم في رؤية الحق سبحانه أي: كنا مشفقين من الفراق في الدنيا والبعد في يوم التلاق، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا﴾ من ذلك العذاب المحرق، المعنى هذا في أوائل الرؤية، أما إذا استقاموا في الوصال نسوا ما كان فيهم من ذكر الإشفاق وغيره، والإشفاق وصف الأرواح والخوف صفة القلوب.

قال الجنيد: الإشفاق أرقُّ من الخوف، والخوف أصلب.

وقال بعضهم: الإشفاق للأولياء، والخوف لعامة المؤمنين.

وقال الواسطي: لاحظوا دعاءهم وشفقتهم، ولم يعلموا أن الوسائل قطعت المتوسلين عن حقيقته، وحجبت من إدراك من لا وسيلة إليه إلا به.

قال ابن طاهر: مَنَّ علينا بإحسانه إلينا بأن جعلنا من أهل دار كرامته، ووقانا من دار إهانته.

قوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: بيَّن الله سبحانه في هذه الآية مرتبتين: مرتبة التفرقة، ومرتبة الجمع، الخطاب الأول خطاب الغيبة، والخطاب الثاني خطاب المشاهدة، فإذا قال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وقع الصبر؛ لجريان الحكم في أمر العبودية، وذكر قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ بالغيبة؛ لأنه في مقام تفرقة العبودية والرسالة يقتضي حاله حال المشقة؛ لذلك أمره بالصبر، فإذا ثقل عليه أحاله من الغيبة إلى المشاهدة بقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظك من الاعوجاج والتغير في جريان أحكامنا عليك حتى تصير مستقيمًا بنا لنا فينا، انظر إلى ما قال سبحانه لحبيبه ﷺ في قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: نحن نراك بجميع عيون الصفات والذات بنعت المحبة والعشق، ننظر بها إليك؛ شوقًا إليك، وحراسة لك نحرسك بها؛ حتى لا يغيرك غيرها من الحدثان عنا، ويدفع بها عنك طوارقات قهري؛ فإنك في مواضع عيون محبتنا، وأنت في أكناف لطفنا، افهم يا صاحبي كيف قال الحق، ذكر الأعين وليس في الوجوه أشرف من العيون، انظر كيف شَرَّفه؛ إذ قال: أنت بعيننا أي: أنت على أعيننا محروسًا عن قهرنا، ورمز الرمز في قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ فإن الحبيب عليه الصلاة والسلام في مقام المشاهدة، وكاد يفنى في عظمته وجلاله، فحجبه بحكمه لحظة والصبر فيه حتى لا يفنى، والنبي ﷺ كان يريد أن يرى الحق عيان في عيان ولا طاقة له، فألبس الله بعد ذلك عينه نورًا من

أعينه، فرأى الحق بجميع العيون، فامتنَّ الله عليه، وتعرف إليه مواضع نعمه بقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بأعيننا ترانا.

قال سهل: ما نظهره عليك من فعل وقدرة تتولى جملتك بالرعاية والكلاءة بالرضا والمحبة والحراسة من الأعداء.

وقال ابن عطاء: فإنك بأعيننا أي: مغمور في حفظنا، وغريق في فضلنا، ومستور بحفظنا، ومن اختصَّ بالله كان في حفظه، ومن كان في حفظه كان في مشاهدته، ومن كان في مشاهدته استقام معه ووصل إليه، ومن وصل إليه انقطع عما سواه، ومن انقطع عما سواه عاش معه عيش الربانيين.

وقال الحسين: اصبر؛ فإن صبرك بتوفيقنا وبشهود عيوننا؛ فلذلك حصلت العيون منك عيونًا؛ إذ أنت الناظر إلينا بنا، ولم تنظر إلينا بها لنا وعنا، فتكون بذلك محجوبًا عن واجبنا.

وقال جعفر: عند هذا الخطاب سهَّل عليه معالجة الصبر واحتمال مؤنه، وكذلك كل حال يرد على العبد في حال المشاهدة.

قال الحسين في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ : وقال للكليم: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ، ليس من هو بالعين كمن هو على العين، وليس من أفنى بالشيء كمن فني عن الشيء؛ لأن الفناء بالشيء لمعنى الجمع، والفناء عن الشيء لمعنى الاحتجاب.

وقال النوري: الصنع بالعين ليس كالصنع على العين، ومحمد ﷺ كان بالعين في كل وقت وحال ومكان، ولما صبر في جريان أحكام الربوبية واستقام في مقام الجمع بالحق في الحق، وبقي بالحق للحق في الحق، ولم يحتجب بالحق عن الحق أمره بتسبيحه وتقديسه وتحميده في جميع أنفاسه، بأنه نال هذا الفضل بالله لا بنفسه، وأنه لم يدركه حقائق الإدراك، فإنه منـزَّهٌ عن إحاطة الحدثان به أي: نـزهني حين تقوم إلى موازاة مشاهدة قدمي، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ حين أطبق عليك تراكم ظلال العظمة والكبرياء نـزِّهه عما تجد من النسك به؛ فإن الأنس أيضًا حجابٌ؛ إذ هو لذة الروح، وسبِّحه عند رؤيتك الأكوان والحدثان وهي ساجدات له، فاسجد أنت لرؤيتي، ولا تنظر إلى تسبيحك وسجودك، ولا إلى تسبيح الكون، فإن النظر إلى التنـزيه احتجابٌ من رؤية المنـزَّه، وعن إدراك قدسه بالحقيقة بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ .

قال سهل: صل المكتوبة بالإخلاص لربك حين تقوم إليها.

وقال بعضهم: نـزَّه ربك عن ظلمه إياك فيما نسب إليك أي: فيما أصابك من المحن، فلا يصيبك شيء من المحن دون قضائه ومشيئته، وقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقوم إلى طاعة ربك نـزِّهه بمعرفتك باستغنائه عنك عن طاعتك.

وقال سهل في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾: لا تغفل صباحًا ولا مساءً عن ذكر من لا يغفل عن برِّك وحفظك في كل الأوقات.

سورة النجم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾: أقسم الله بالنجم، وذلك النجم إلهام قلوب الملهمين حين يسقط من صحائف الغيوب إلى معادن القلوب، وأيضًا أي: بأنوار تجلي جماله وجلاله إذا وقع على أرواح العاشقين، وأيضًا بألحان بلابل علومه اللدنية التي تترنم بحقائق ما كنـز الحق في كنوز القدم إذا جلست على أغصان ورد بساتين أسرار العارفين، فتكلموا، وأخبروا بها من مكنون غرائب علوم الصفات والذات، وأيضًا أي: بواردات الجذبية التي تبدو بأنوارها من الغيوب لفهوم المحبين، وتسقط على أسرار الواصلين، وتزعجها إلى مشاهدة رب العالمين حقائقها المواجيد والحالات والكشف والمشاهدات وأيضًا أي: بالأرواح العاشقة الشائقة إذا صعدت إلى ملكوت الغيب، وتسقط إلى بحر جبروت الرب، وتحمل مياه حياة القدم من بحر البقاء، وتأتي سكرى إلى معادن الأشباح، وتضوع نفحاتها في بساتين العقول ورياض القلوب، وأيضًا بما نبت في بساتين قلوب الأولياء من عجائب أصناف أزهار الحكم والمعارف والعلوم والفهوم، أي: بهذه المقسمات الشريفة والنيرات الواضحة ما ضلَّ حبيبي عني لمحة وما احتجب بشيء دوني لحظة، وما اعوجَّ عن طريق استقامته قط، وذلك قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، وأيضًا ما ضلَّ عني بي في ميادين عظمتي؛ حيث لا يدري الموحد أين هو، هو كان عالمًا بي بحيث سلك، وما غوى ما ستر بها وجد مني فيشغل به عني.

قال ابن عطاء: أقسم بنجوم المعرفة وضيائها وتجليها ونورها والاهتداء بها وسكون العارفين إلى أنوارها وسلوكهم بالاهتداء بها.

وقال جعفر: هو محل التجلي والاستتار من قلوب أهل المعرفة.

وقال جعفر بن محمد الصادق: النجم محمد ﷺ، إذا هوى انشرح منه الأنوار.

وقال أيضًا: قلب محمد ﷺ إذا هوى إذا انقطع عن جميع ما سوى الله ﷻ.

وقال أيضًا: ما ضلَّ عن قربه طرفة عين.

وقال ابن عطاء: ما ضلَّ عن الرؤية طرفة عين.

وقال سهل: ما ضلَّ عن حقيقة التوحيد قط، ولا اتبع الشيطان بحال.

وقال الشبلي: ما رجع عنا منذ وصل إلينا.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾: كيف ينطق عن الهوى من ليس له علة الهوى، كان مقدسًا عن شوائب الخليقة، منورًا بأنوار الحقيقة، كان نطقه نطق الحق، وفعله فعل الحق، وقلبه ميدان تجلي الحق، كيف تجري عليه الخطرات الشيطانية والهواجس النفسانية، وكان محفوظًا بعين الكلاءة وحسن الرعاية، ما نطق فهو وحي الله وكلامه وإشارة الله وإلهامه، جعله الله مصباح وجوده في العالم، وأنوار جوده في آدم.

قال الحسين: من عرف اللطائف عَلَت أخطاره وجَلَّت أقداره، وصار الشح عليه فتنة، قال لصفيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أخذته النعوت، فنبذته في شواهد شعاعها، فلا يهتم لآدم ومن دونه لقيامه عنده، ومن لبس الأولية بتيقنه وارتدى الآخرية بتوحيده ارتفع كل حادث عن صفاته وأحواله.

قال الواسطي: الوحي للأنبياء ضروبٌ، والوحي للعامة من الأنبياء بالرسل من الملائكة، والثاني آداب نفوسهم من القوة والفهم، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ بأن الوحي إلهام ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ والثالث: ما كان منه في المنامات، وهو على شيء لهم ليس لغير الله فيه معنى.

قال الأستاذ: متى ينطق عن الهوى من هو في محل النجوى في الظاهر مزموم بزمام التقوى في السرائر في إيواء المولى، مصفًّى عن كدورات البشرية، مرقًّى إلى شهود الأحدية، مكاشفٌ لجلال الصمدية، مختلفٌ عنه بالكلية، لم يبق عليه منه إلا للحق بالحق بقية، فمن كان بهذا النعت متى ينطق عن الهوى.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾[1].

---

(١) ﴿فتدلَّى﴾ أي: زاد في القرب، أو: استرسل من الأفق مع تعلُّق به. يقال: تدلت الشجرة، ودلّى رجله من =

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾: أخبر الله سبحانه عن دنو حبيبه منه، وذلك بعد أن ألبسه نعوت الصفات وأنوار الذات، وأخرجه من جميع العلل الحدثانية، فدنا الحق من الحق، دنا بالصفات من الصفات، فلما استلذَّ مشاهدة الصفات كاد أن يقف في سيره بلذة الصفات، فأدناه الحق من الذات بعد أن دنا من الصفات، واستغرق في بحر الذات، ولم يبق معه من علمه شيءٌ، ولا من بصره شيءٌ، ولا من سمعه شيءٌ، ولا من إدراكه شيءٌ، فألبسه الله أيضًا نورًا من سمعه وبصره، فرأى الحق بنور الحق، وسمع من الحق بسمع الحق، فظن أنه قد وصل بالكل إلى الكل، فأراه الحق قيمته.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: بيني وبينه قوس الحدوثية وقوس الأفعالية، فبقي بين القوسين عن إدراك العين بالحقيقة بالعين والقلب، وأيضًا ظن أنه وصل؛ إذ لا فصل هناك ولا وصل ولا قرب ولا بعد، فإن ساحة الكبرياء منـزَّهةٌ عن هذه العلل، فبيَّن له الحق أن بينه وبين الحق قوسين: قوس الأزل، وقوس الأبد، ومن يصل إلى من بعد منه من الأزل إلى الأبد أي: الحدث بعيدٌ مني بقدر الأزل والأبد؛ إذ لا قدر في الأزل والأبد، وكيف يصل إلى من تنـزيهه أبعده بالأزل والأبد من ذاته وصفاته، فإذا كان كذلك استحال قرب الحدث من ذاته وصفاته من حيث المسافة، وأيضًا رمى الحق سهم الدنو من قوس الأزل، ورمى سهم التدلي من قوس الأبد من كناية الذات والصفات إلى قلب حبيبه ﷺ، فجرحه بسهم المحبة وسهم المعرفة، فكان في تلك الليلة مطروحًا في ميدان الأزل، مجروحًا في ميدان الأبد.

قال جعفر: انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى أن الله حجب جبريل من دنوه ودنو ربه منه.

وقال القاسم: وقعت المواصلة فأشرف، والإشراف هو المشاهدة، وقاب قوسين موضع الإشكال، إشكال ليتبين العارف ويهلك الجاحد.

وقال الواسطي: من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثَمَّ مسافة، إنما التدلي أنه كلما قربه من نفسه بعده من المعرفة؛ إذ لا دنو للحق ولا بعد، فكلما دنا بنفسه من الحق تدلى بعدًا، فانقلب في الحقيقة خاسئًا وهو حسير؛ إذ لا سبيل إلى مطالعة الحقيقة.

وأما الإخبار عن الفضل أنه أخذه من إياه وأشهده إياه فكان في الحقيقة ذا نفسه

=

السرير، ودلّى دلوه، والدوالي: الثمر المُعلّق. البحر المديد (٦/ ١٧١).

مشاهدًا ذاته، وفي الأخبار أن محمدًا ﷺ شهده.

وقال جعفر: أدناه منه حتى كان منه كقاب قوسين، والدنو من الله لا حدَّ له، والدنو من العبد بالحدود.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾: أبهم الله تعالى سرَّ ذلك الوحي الخفي على جميع فهوم الخلائق من العرش إلى الثرى، بقوله: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾؛ لأنه لم يبين أي شيء أوحى إلى حبيبه ﷺ؛ لأن بين المحب والمحبوب سرًّا لا يطَّلع عليه غيرهما، وأظن أن لو بيَّن كلمة من تلك الأسرار لجميع الأولين والآخرين لماتوا جميعًا من ثقل ذلك الوارد الذي ورد من الحق على قلب عبده، احتمل ذلك المصطفى ﷺ بقوةٍ ربَّانيةٍ ملكوتية لاهوتية، ألبسها الله إياه، ولولا ذلك لم يحتمل ذرة منها؛ لأنها أنباءٌ عجيبةٌ وأسرارٌ أزليةٌ، لو ظهرت كلمةٌ منها لتعطلت الأحكام، ولفنيت الأرواح والأجسام، واندرست الرسوم، واضمحلت العقول والفهوم والعلوم، هكذا رسم العلوم المجهولة التي تنبع عن عين العشق بين العاشق والمعشوق، وذلك في سره وغيب في غيب يسقط عند ذلك حكم العبودية؛ لأن ذلك محض الانبساط وظهور كشف الكلي وغلبات سيول الرحمة الأزلية الواسعة التي تجري من بحار القدس وأنهار الأنس وبها نشق الله من نفحات نرجسها ووردها مشام المستنشقين نسائم الوصال وشمائل الجمال، فيطيرون من الفرح لوجدانها، ويضحكون، ويبكون، ويرقصون، ويصيحون من لذة ما وصل إليهم من عرفانها، ويسترون تلك الأسرار عن الأغيار، كما أنشد:

لعمري ما استودعتُ سرِّي وسرَّه	سوانا حذار أن تشيعَ السرائرُ
ولاحظته مقلتاي بلحظه	فتشهد نجوانا العيون النواظرُ
ولكنْ جعلت الوهم بيني وبينه	رسولاً نادى ما تغيب الضمائرُ

قال جعفر في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾: بلا واسطة فيما بينه وبينه سرٌّ إلى قلبه لا يعلم به أحدٌ سواه بلا واسطة إلا في العقبى حين يعطيه الشفاعة لأمته.

قال الواسطي: ألقى إلى عبده ما ألقى، ولم يظهر ما الذي أوحى؛ لأنه خصَّه به وما كان مخصوصًا به كان مستورًا، وما بعثه به إلى الخلق كان ظاهرًا.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾: ذكر الله رؤية فؤاده عليه الصلاة والسلام

ولم يذكر العين؛ لأن رؤية العين سرٌّ بينه وبين حبيبه، ولم يذكر ذلك غيرة عليها؛ لأن رؤية الفؤاد عامٌّ ورؤية البصر خاصٌّ، أراه جماله عيانًا، فرآه ببصره الذي كان مكحولاً بنور ذاته وصفاته، وبقي في رؤيته بالعيان ما شاء الله كان، فصار جسمه بجميعه أبصارًا رحمانية، فرأى الحق جميعًا، فوصلت الرؤية إلى الفؤاد، فرأى فؤاده جمال الحق، ورأى ما رأى بعينه، ولم يكن بين ما رأى بعينه، وبين ما رأى بفؤاده فرقٌ، فأزال الحق الإبهام، وكشف العيان بقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ حتى لا يظن الظانُّ أن ما رأى الفؤاد ليس كما رأى ببصره أي: صدق قلبه فيما رآه من لقائه الذي رأى ببصره بالظاهر؛ إذ كان باطن حبيبه ﷺ هناك ظاهرًا، وظاهره باطنًا رآه بجميع شعراته وذرات وجوده، وليس في رؤية الحق حجابٌ للعاشق الصادق، بأنه يغيب عن الرؤية شيءٌ من وجوده، فبالغ الحق سبحانه في كمال رؤية حبيبه ﷺ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «رأيتُ ربِّي بعيني وبقلبِي»[1]، رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه.

قال سهل: ما كذب الفؤاد ما رأى البصر.

وقال: هو في مشاهدة ربه كفاها يبصره بقلبه.

قال ابن عطاء: ما اعتقد القلب خلاف ما رآه العين.

وقال: ليس كل من رأى مكن فؤاده من إدراكه؛ إذ العيان قد يظهر فيضرب السر عن حمل الوارد عليه.

والرسول ﷺ محمولٌ فيها من فؤاده وعقله وجسمه ونظره، وهذا يدل على صدق طويته وحمله فيما شوهد به، ثم أكد الله تحقيق رؤية نبيه ﷺ ووبخ منكريها بقوله: ﴿أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، ما الرؤية الثانية أقل كشفًا من الرؤية الأولى، وما الرؤية الأولى بأكشف من الرؤية الثانية أين أنت؟ لو كنت أهلاً لقلت لك أنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه في لحافه بعد أن رجع من الحضرة أيضًا في تلك الساعة، وما غاب قلبه من تلك الرؤية لمحة، وما ذكر سبحانه بيان أن ما رأى في الأول في الإمكان، وما رأى عند سدرة المنتهى كان واحدًا لأن ظهوره هناك ظهور القدم والجلال، وليس ظهوره يتعلق بالمكان ولا بالزمان؛ إذ القدم منزَّهٌ عن المكان والجهات، كان العبد في مكان والرب فيها لا مكان، وهذا غاية كمال تنـزيه وعظيم لطفه؛ إذ يتجلى من نفسه لقلب عبده، وهو في لا مكان والعبد في مكان، والعقل هاهنا مضمحلٌّ، والعلم متلاشٍ، والأفهام عاجزةٌ، والأوهام متحيرةٌ، والقلوب والهةٌ، والأرواح حائرةٌ، والأسرار فانيةٌ، وفي هذه الآية بيان كمال شرف حبيبه عليه

---

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه.

الصلاة والسلام؛ إذ رآه نـزله أخرى عند سدرة المنتهى، ظن عليه الصلاة والسلام أن ما رآه في الأول لا يكون في الكون لكمال علمه بتنـزيه الحق، فلما رآه ثانيًا علم أنه لا يحجبه شيءٌ من الحدثان، وعادة الكبرياء إذا زارهم أحدٌ يأتون معه إلى باب الدار إذا كان كريمًا، فهذا من الله سبحانه إظهار كمال حبه لحبيبه ﷺ، وحقيقة الإشارة أنه سبحانه أراد أن يعرف حبيبه مقام الالتباس، فلبس الأمر، وظهر المكر، وبان الحق من شجرة سدرة المنتهى كما بان من شجرة العتاب لموسى؛ ليعرفه حبيبه عليه الصلاة والسلام بكمال المعرفة؛ إذ ليس بعارف من لم يعرف حبيبه في لباس مختلفة، وبيان ذلك.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله سبحانه: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾: وأبهم ما غشيه؛ لأن العقول لا تدرك حقائق يغشاها، وكيف يغشاها والقِدم منزَّهٌ عن الحلول في الأماكن، كان ولا شجرة، وكانت الشجرة مرآةً لظهوره سبحانه سبحانه، وألطف ظهوره: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بعد عرفانهم به، ثم وصف حبيبه بأنه ما التفت إلى غيره من الجنان والملكوت في رؤية جلاله بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾: ذكر هذه الآية إلى الرؤية الثانية؛ لأن في الرؤية الأولى لم يكن شيء دون الله؛ لذلك ما ذكر هناك غضَّ البصر، وهذا من كمال تمكين الحبيب في محل الاستقامة وشوقه إلى مشاهدة ربه؛ إذ لم يمل إلى شيء دونه، وإن كان محل الشرف والفضل.

قال الواسطي في قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾: أفتشكُّون في دنو مقامه منا وقربه، ولا يشكُّ في دنوه إلا من هو محجوبٌ عن علو محله ومرتبته.

وقال بعضهم: ما يرى منا بنا، وما يرى منا بنا أفضل مما يراه منا به.

وقال الواسطي: إلى سدرة المنتهى يبلغ كشف الهموم إلا لرجلٍ واحدٍ، وهو الذي دنا فتدلى، مر على سدرة المنتهى، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

وقال سهل في قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾: لم يرجع محمد ﷺ إلى شاهد نفسه، ولا إلى مشاهدتها، وإنما كان مشاهدًا بكليته لربه تعالى، يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التي أوجبت الثبوت في ذلك المحل، ثم بيَّن الله سبحانه أراه من آياته العظام ما لا يقوم برؤيتها أحدٌ سوى المصطفى ﷺ، وذلك بعد أن ألبسه قوة الجبارية الملكوتية بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ

﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾، وذلك بروز أنوار الصفات في الآيات، وتلك الآيات لو رآها أحدٌ سواه لاستغرق في رؤيتها، وكان من كمال استغراقه في بحر الذات والصفات لم تكبر عليه رؤية الآيات والأفعال.

قال سهل: رأى من آيات ربه الكبرى، فلم يذهب بذلك عن مشهوده، لم يفارق مجاورة معبوده.

وقال ابن عطاء: رأى الآيات فلم تكبر في عينه؛ لكبر همته، وعلو محله، ولاتصاله بالكبير المتعال.

قال جعفر: مشاهد من علامات المحبة ما كبر عن الاختيار عنها[1].

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾: يا عاقل احذر مما يغوي أهل العزة بالله من أشكال المخاييل التي تبدو في غواشي أدمغتهم، وهم يحسبون أنها مكاشفات الغيوب ونوادر القلوب، ويدَّعون أنها عالم الملكوت وأنوار الجبروت، وما يتبعون إلا هوسات أنفسهم ومخاييل شياطينهم التي تصور عندهم أشكالا وتمثالاً، ويزينونها لهم أنها الحق، والحق منـزَّهٌ عن الأشكال والتمثال، إياك يا صاحبي وصحبة السالوسيين الجاهلين بالحق، الذين يدَّعون في زماننا بمشاهدة الله مشاهدة حق لأولياء، وليس بمكشوفه للأعداء.

قال الجنيد: رأيت سبعين عارفًا قد هلكوا بالتوهم أي: توهموا أنهم عرفوه، وهو قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

وقال الشبلي: من تحقق في حقيقة الحق فهو نفس الحقيقة؛ لأن الله يقول: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: افهم يا صاحبي أن إشارة حقيقة هذه الآية تؤول إلى الكل؛ إذ الكل معزولون عن إدراك حقيقة الحق، وما أدركوا فهو أقدارهم، وجلَّ قدر الحق عن أقدارهم وإدراكهم.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾؛ ولذلك اجترأ الواسطي في حق

---

(١) قال سيدي عبد الله التستري: يعني ما يبدي من صفاته من آياته رآها، ولم يذهب بذلك عن مشهوده، ولم يفارق مجاورة معبوده، وما زاده إلا محبة وشوقاً وقوة، أعطاه الله قوة احتمال التجلي والأنوار العظيمة، وكان ذلك تفضيلاً له على غيره من الأنبياء؛ ألا ترى أن موسى صعق عند التجلي، ففي الضعف جابه النبي ﷺ في مشاهدته كفاحاً ببصر قلبه، فثبت لقوة حاله وعلو مقامه ودرجته. تفسير التستري (٢/ ٨٦).

سلطان العارفين أبي يزيد البسطامي -قدَّس الله روحه- بقوله: كلهم ماتوا على التوهم حتى أبي يزيد مات على التوهم.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: هل للمدعي ما يتمنى وهو غير عارف بنا، وهذا زيادةٌ في بيان جهل المتبعين ظنونهم وتمنيهم، التمني: وصف من لا يصل إليه فمن وصل إليه لم يبق له التمني؛ فإنه تعالى فوق التمني، وفي حقيقة التوحيد أن قول الخليل والكليم والحبيب عليهم الصلاة والسلام: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، و﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، وأرنا الأشياء كما هي وقعت على صورة التمني؛ فإنهم ما شربوا من بحر الوحدانية إلا على قدر مذاق العبودية، وكيف بلغوا إلى مناهم وأمانيهم إدراك الحقيقة بالحقيقة، وساحة الكبرياء منـزَّهةٌ عن درك الداركين ولحوق اللاحقين ووصول الواصلين؟!

قال الحسين: الاختيار طلب الرؤية، والتمني الخروج من العبودية، وسبب عقوبة الله عباده ظفرهم بمنيتهم.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: فأعرض عن الجاهلين بنا، والمعرضين عنا والمشغولين بغيرنا؛ فإن علومهم الظنون الكاذبة والأوهام الزائغة.

قال بعضهم: ضيَّع وقته من اشتغل بموعظة طالب الدنيا والراغبين فيها؛ لأن أحدًا لا يقبل على الدنيا إلا بعد الإعراض عن الله، قال الله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[1]: وَفَّى بها امتحنه بكلماته التي قال الله سبحانه: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وأول الكلمات الخروج مما سوى الله، ثم الخروج من نفسه لله، ثم الصبر في امتحان الله بالله، ثم إن شاهد الله بمراد الله حين أفرده عن لباس الآيات بقوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾، بعد أن قال: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾، وهناك أعظم الامتحان، ثم إنه ما وقف فيها وجد من الحق، ثم زاد طلبه في سيره في الحق.

قال الواسطي: خرج من نفسه فيما تحمل من محنة مشاهد المحن كلها نعمة في جنبه ومشاهدته.

قال ابن عطاء: وَفَّىٰ أربعة أشياء: يبذل نفسه للنيران، وقلبه للرحمن، وولده للقربان، وماله للإخوان.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: ليست الصورة الإنسانية إلا ما سعت من الأعمال الزكية عن الرياء والسمعة يؤول ثوابها إليها من درجات الجنان.

أما ما يتعلق بفضل الله وجوده من مشاهدته وقربته فهو الروح الروحاني الذي في تلك الصورة، وأنها إذا استوفت بمقام درجات الجنان التي جزاء أعمالها تمتعت أيضًا بها يجد روحه من فضل الله من كشف مشاهدته ودوام وصاله، وأيضًا أي: ليس للإنسان إلا ما يليق بالإنسان من الأعمال.

وأما الفضل والمشاهدة والقربة لله يؤتيه من يشاء، فإذا وصل إلى مشاهدة الله وتمتع بها

---

(١) إشارة إلى أن في جبلة الإنسان معرفة لله مركوزة وذلك لأن الله تعالى ذرأ ذريات بنى آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم بخطاب (ألست بربكم) فأسمعهم خطابه وعرفهم ربوبيته وفقههم لإجابته حتى قالوا بلى فصار ذلك الإقرار بذر ثمرة إقرارهم بخالقية الله تعالى في هذا العالم لكن الله تعالى لعزته لا يهتدي إلى سرادقات عزته إلا من أعزه الله تعالى بجذبات عنايته وهو العليم الذي يعلم حيث يجعل رسالاته. تفسير حقي (١٣/ ١٤٥).

فليس ذلك له، إنما ذلك لله وإن كان هو متمتعًا بها، وأيضًا: ليس كل عمل للإنسان؛ إنما بعضها لله مثل الصوم، كما قال ﷺ: «الصومُ لِي وأنَا أجزي به»[1]، فذلك لله لا للإنسان، وثوابه فضل الله، وذلك رؤيته، وهي قائمةٌ بذاته، وعند ذلك لا يبقى قدر سعايات أهل الكون، وتصديق ذلك قوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: سوف يعرف أن سعيه في جلال عزته، وما اختار له في الأزل من كشف جماله ليس بشيء؛ لأن الحادث لا وزن له عند القديم، ثم زاد فضله بأن يؤتيه فوق ما كان في سعيه بقوله: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾، فلما خرج من هذه العلل وعن الأعمال والثواب والدرجات يتباهى الكل عند بروز أنوار وجوده وجلاله بقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، ثم وصف نفسه بأنه أضحك وأبكى بطلوع صبح جماله العاشقين، وأبكى بظهور شمس ذاته العارفين، يبكون عليه منه بفقدان الكل؛ لأنهم يعرفونه بامتناعه عن إدراكهم وعن تقصيرهم أيضًا في طلب معرفتهم بربهم وقلة معرفتهم بوجود ربهم، وذلك عند كشف المعاينة، أضحك المستأنسين بنرجس مودته وياسمين قربته وطيب شمال جماله، وأبكى المشتاقين بظهور عظمته وجلاله، وأمات العارفين بنعت الفناء في سطوات ديموميته وظهور صدمات أنوار ذاته، وأحيى العاشقين بكشف صفاته، فالأولون فنوا فيه، والآخرون بقوا به، وأيضًا أمات المريدين بالحجاب، وأحيى المحبين بكشف النقاب.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: ليس له من سعيه إلا ما نواه، إن كان سعيه لرضا الرحمن فإن الله يرزقه الرضوان، وإن كان سعيه للثواب والعطاء والأعواض فله ذلك.

وقال النصر آبادي: سعي الإنسان في طريق السلوك لا في طريق التحقيق، فإذا تحقق يسعى به ولا يسعى هو بنفسه، وأنشد:

الطـرق شـتَّى وطـرق الحـق منفـردُ　　　والســالكون طــريق الحـــقِّ أفــرادُ

وقال الوراق: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ذلك في بدايتهم، ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ في توسط أمورهم، ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾، وذلك في نهايتهم، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، وذلك عند فناء العبد من إرادته وصفاته، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ النشء الثاني.

وقال الواسطي في قوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾: أنه لم يكن مما يستجلب به شيء

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٧٢٣)، ومسلم (٢/ ٨٠٧).

من الثواب.

وقال سهل: ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾ سعيه، فيعلم أنه لا يصلح للحق، ويعلم ما الذي يستحق بسعيه، وأنه لو لم يلحقه فضل ربه لهلك بسعيه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: إذا وصل العبد إلى معرفة الربوبية تنحرف عنه كل فتنة، ولا تكون له مشيئة غير اختيار الله له.

قيل للحسين: وما التوحيد؟ قال: أن تعتقد أنه فعل الكل بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ عند ذلك بطلت المعلولات، منه الابتداء، وإليه الانتهاء.

قال الله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: ذهبت المعلولات، وبقت العلل لها.

وقال سهل: أضحك المطيع بالرضا، وأبكى العاصي بالسخط.

وقيل: أضحك قلوب العارفين بالحكمة، وأبكى عيونهم بالحزن والحرقة.

وقال ابن عطاء: أضحك قلوب أوليائه بأنوار معرفته، وأبكى قلوب أعدائه بظلمات سخطه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: من كان منه مبدؤه كان إليه منتهاه.

ويقال: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾: أمات بعدله، وأحيى بفضله.

وقال النصر آبادي: يميت باستتار، ويحيى بالتجلي.

وقال جعفر: أمات بالإعراض عنه، وأحيى بالمعرفة.

وقال أيضًا: أمات النفوس بالمخالفة، وأحيى القلوب بأنوار الموافقة.

وقال الأستاذ: أمات نفوس الزاهدين بالمجاهدة، وأحيى قلوب العارفين بالمشاهدة.

ويقال: أمات بالهيبة، وأحيى بالأنس.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ : أغنى العارفين به، وأقنى الموحدين فيه، وأيضًا أغنى العارفين برؤية البقاء، وأقنى الموحدين برؤية القدم؛ إذ زاد في كل لمحة الانتقال إلى وصول الحقيقة، ولا يدركونها؛ فتنـزيه القدم يورث فقرهم أبدًا.

وقال سفيان بن عيينة: أغنى وأقنى أقنع وأرضى.

قال الجنيد: أغنى قومًا به، وأفقر قومًا عنه.

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝﴾ أي: حان وقت كشف جمال الحق للمشتاقين المحبين والعارفين الموحدين، ودنا وصاله للواصلين والأولياء والمقربين، وفي معناه أنشدوا:

دنـــا وصـــال الحبـــيب واقـــتربا وأطـــربا للوصـــال وأطّـــربا

هذه الآية بشارةٌ للمقبلين إلى الله بوصف الشوق، ونذارةٌ للمدبرين عنه[1].

قال الواسطي في هذه الآية: هذه التي أوجبت الخرس عن الدعاء والثناء والالتماس، وأذهبت المطالعات والمشاهدات.

وقال ابن عطاء: قرب الأمر القريب.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ۩﴾ أي: إذا قرب أيام الوصال فاشتاقوا، وسارعوا في بذل الوجود ووضع الخدود على التراب، واعبدوا رب الأرباب لوجود كشف النقاب، والله أعلم بالصواب.

سورة القمر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ : علم الله سبحانه انتظار أرواح الأنبياء والمرسلين وملائكته المقربين والأولياء والعارفين من آدم عليه الصلاة والسلام وجميع أولاده الصالحين، كشف رؤية الحق، وقرب وصاله والدخول في جواره، فبشَّرهم الله أنها مقرونة بقدوم محمد ﷺ، فلما خرج بالنبوة ورسالة الله شكَّ فيها المشركون، فأراهم الله صدق وعده، وأنه من أعظم آياته بانشقاق القمر؛ حتى يعرفوا أنه بريد الله إلى العالمين، يخبرهم بإتيان

---

(١) في قوله: (أزفت الآزفة) أي: قربت ساعة الفتح حين توجهت وانقطعت عنك العلائق، ووجدتَ مَن يُدخلك بحرَ الحقائق، ليس لها من دون الله كاشفة، لا يكشف لك هذه الحقائق إلا الذي منَّ عليك بصحبة مَن يدلك عليه. البحر المديد (٦/ ١٨٦).

الساعة التي فيها كشوف العجائب وظهور الغرائب من آيات الله وصفاته وذاته.

قال عبد العزيز المكي: الاقتراب يدل على معنى الأكثر، ويمضي الأكثر عن قريب.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾: كل أمر خرج من إخبار الله عباده فذلك مستقرٌّ ثابتٌ في مستقر مشيئته وإرادته الأزلية إلى وقوعه في مواضعه، لا يتغير عن مراد الله، ولا يغيره أحدٌ دون الله.

قال القاسم: كل أمر من أموري أمضيته على خلقي استقر قراره لا يزول أبدًا لا يقايضني أحدٌ بخلاف، ولا يدافع أمري بجهد، وذلك استقرار أموري قرارها وثبوت قسمي لهم.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي: الكاملة الجامعة لكل حكمة الحكماء وحقيقة علوم العلماء؛ لأنها حكمة أزلية، إذا انكشفت لعارف يراها على كمال النهايات في وضوح بينات الحقائق، فغرق من بحارها نوادر الحقائق، وغرائب الدقائق وهي لا تنتهي أبدًا.

قال أبو يزيد: كل آية تمر بالعارف له في ذلك حكمة، وأكبر آية له في الحكمة البالغة؛ لأنها ثابتة في حدود المعرفة بالغة منتهاها.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾: لو شاهد ﷺ ما وعد الله في أوائل حاله من النصر والظفر بالحقيقة لسكن في ورود الامتحان عليه، هذا لوط ﷺ إذ احتجب بالامتحان عن شهود مشاهدته الرحمن ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، وأي قوة أقوى من قوة الله، وأي ركن أشد من الله، لكن حكمته فرار نوح من الله إلى الله، وذلك معادن الأمن والانبساط والحقيقة والافتقار، والأول منزل التوحيد؛ إذ أفنى عن الدعاء صدق هو مغلوب الله، ومن صبر بالله هناك هو غالب على ما دون الله.

قال بعضهم: لولا ما أجرى الله على لسان الوسائط لتأديب العبد لضلوا ممن ينتصر بي

منك أين الغالب وأين المغلوب، إذا كان الحق صرفًا ينطق ويسكت معناه أني مغلوب فانتصر الله غالبه وهازمه.

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ﴾: كما أنزل الله الماء من سماء الظاء الظاهرة ونبع من الأرض الظاهرة فتح سماء الغيب على قلوب العارفين بمياه الكواشف والمعارف، وفتح عيون قلوبهم بمياه الحكمة والمحبة، فإذا وصل مياه المشاهدة إلى مياه المحبة استغرق فيها جنود النفس والهوى، ولا يبقى أثرها، فإذا أزاد الكشف والعيان وامتلأ بحر العيان يستشرف الأرواح على الفناء فيها، فيدخلها الله في سنن العصمة، ويجريها بشمال العناية، وذلك قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾: ألواح العناية ودسر الكفاية، وتجري بعين الكلاءة في بحار الأزلية والأبدية بقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[1] أي: تجري بعيون عنايتنا على عيون بحر الذات والصفات، يحفظها بي عني، حتى تستمع بمشاهدتي بي، ولا ينقطع عني بي، وهذا بيان محل الفناء والبقاء، وافهم أن الأنبياء والأولياء سفن عنايته يتخلص العباد لهم عن الاستغراق في بحار الضلالة وظلمات الشقاوة؛ لأنهم محفوظون بحسن عنايته، وزيّن كلاءته، ومن استنَّ بسنتهم نجا من الطغيان والنيران، ودخل في جوار الرحمن.

قال ابن عطاء: عيون الله في أرض إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وسلامه عليهم أجمعين، وهي تجري لهم وليس بينهما واسطة؛ إذ كانوا به، وكانوا له وعنه وفيه ومنه، وهم يشهدون فعل ذاته، وهو يجري بهم، تجري بأعيننا التنقل في الدرجات والمقامات والكرامات وفي المواجيد وفي الأسرار يلقون فيها تحية وسلامًا.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ

---

(١) أي: تجرى السفينة وتسير بمرأى منا أي محفوظة بحفظنا ومنه قولهم للمودع عين الله عليك وقيل بأوليائنا يقال مات عين من عيون الله أي ولي من أوليائه. تفسير حقي (١٤/ ٣٩١).

﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: ذاكر به جلاله وجماله وقربه وصاله ودارك حقائقه، كأنه استبعد كيف يدرك الحدثان حقائق صفات الرحمن.

قال الواسطي: يسَّر القرآن لمن ذكره وعلم روحه قبله.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: هل من ذاكر لما جرى منه إليه.

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾: أعلم الحق سبحانه أهل معرفته به أنه كان عالمًا بالعلم القديم، ومريدًا بالإرادة الأزلية، قدَّر المقادير بعلمه لا بفعله وبإرادته لا بتخلقه، ولم يزل عالمًا بذلك، مريدًا لذلك، فسرُّ القدر نعته الأزلي ووصفه الأبدي، فأوجد الموجودات بما سبق القدر منه في الأزل، ولا يتغير أبدًا مما قدر وقضى ولو خرج المقدر بلباس المحو والإثبات لا تبديل له من سبق تقدير الأول.

قال الله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، و﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾، فمقتضى الخطاب الرضا والتفويض والتوكل والتسليم؛ حتى تنكشف أنوار السوابق له، فيصير مشاهدًا لما سبق، مكاشفًا لما طرق.

قال القاسم: دخل في هذا المعنى نفوس الخلق وآثارهم وأعمالهم وخطرات قلوبهم وأنفاسهم في أوقاتهم وأخلاقهم المحمودة والمذمومة وآجالهم ومعايشهم؛ إظهارًا لما سبق فهم من العلم وإيجاد القدرة أنه ضبط كل شيء بتقديره، لا انفكاك لأحدٍ من ذلك تقديرًا من العزيز العليم، وقهر جميع الأشياء بإجراء إرادته عليهم وتيسيرهم على ما قدر عليهم ولهم.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾: في هذه الآية بيان ثلاث مراتب: مرتبة سر علم القدر القديم الذي كان موصوفًا به، وذلك العلم، وسر القدر مشيئته؛ إذ عينهما واحدٌ، ومن بطنان أزال الآزال، سار سر القدر إلى المرتبة الثانية، وهي الأمر وحقيقة الأمر قبل ظهوره في الفعل، فبلغنا إلى المرتبة الثالثة، وهي الفعل، فلما وصل القدر والأمر إلى الفعل ظهرت المقدرات من العدم بها بأقل لمحة أي: سيران علم سر القدر من بطون أزل الأزل إلى عالم الأمر والفعل أقل من لمحة على تقديركم إذا استحال الزمان في مشيئة الرحمن لا يكون إلا الإرادة والعلم والأمر، وأنها خارجة من علل الزمان، هو ظهور القدم للعدم، فإذا ظهر القدم للعدم صار المقدر مكونًا كينونيته بالله، فخرج على نعت صورة العلم والتقدير، كأنه مع التقدير من حيث العلم لا من حيث الوجود، فأمره علمه إرادته، فإذا أراد ما علم من نفسه تجلى من الإرادة للعلم، ومن العلم للإرادة، ومن الإرادة والعلم للتقدير والحكمة، فصار ذلك عين التوحيد، فإذا تجلها بجميعها للأمر يكون الأمر عين الجمع، وعين الجمع محل الالتباس وأهل الرسوم، سموا ذلك الخلق والفعل، وتسمى ذلك الأول ظهور القدم للقدم، وهو عين العين، ويسمى الثاني ظهور الصفة في الفعل والأمر، وهو عين الجمع.

وقال الحسين: الأمر عين الجمع، والإرادة عين العلم، ثم بين أن أفعال العباد جرت على سابق تقدير لا ومشيئته مسطورة في ألواح علمه، وزبر تقديره وحذرهم بها حتى يرقبوا انفتاح مصادر أسراره، ويروا لطائف أنواره، ويعرفوه بآياته وصفاته، ويخافوا من قهره وجبروته.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾.

قال يحيى بن معاذ: من علم أن أفعاله تعرض عليه في مشهد الصدق فإنه محاسبٌ عليها لاجتهد في إصلاح أفعاله وإخلاص أعماله، ولزم الاستغفار على ما سلف من إفراط.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝﴾.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝ ﴾: وصف الله سبحانه منازل المتقين الذين أقبلوا على الله بنعت المعرفة والمحبة، وخرجوا مما دونه من البرية، وتلك المنازل عالم بالمشاهدة ومقامات العندية جنانها رفارف الإنسان، وأنهارها أنوار القدس، أجلسهم الله في بساط الزلفى المداناة التي لا يتغير صاحبها بعلة القهر، ولا يزول عنها السر والحجاب؛ لذلك سماه مقعد صدق أي: محل كرامة دائمة وقربة قائمة ومواصلة سرمدية.

قال جعفر: مدح المكان بالصدق، فلا تقعد فيه إلا أهل الصدق، وهو المقعد الذي يصدق الله فيه مواعيد أوليائه بأن يبيح لهم النظر إلى وجهه الكريم.

وقال الواسطي: أهل الصفوة والمتحققون في أنوار المعارف الذين لا يحجبهم الجنة لا النعيم ولأثنى عنه أولئك ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾، يا أخي هؤلاء غرباء الله في الدنيا والآخرة، أدخلهم الله في أغرب منازل، وهو مقام مجالسة الحق معهم؛ حيث لا يطَّلع عليهم إلا أهل الصدق في عشقه وأهل الشوق في طلبه وأهل المعرفة به، والله بذلك مقتدرٌ قادرٌ؛ لذلك قال عند مليك مقتدر وأظن أنهم فقراء المعرفة الذين وصفهم رسول الله ﷺ حيث قال: «الفقراء جلساء الله»[1].

سئل أبو يزيد عن الغريب؟ قال: الغريب من إذا طالبه الحق في الدنيا لم يجده، ولو طالبه مالك في النار لم يجده، ولو طلبه رضوان في الجنة لم يجده. فقيل: فأين يكون يا أبا زيد؟ فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝ ﴾.

سورة الرحمن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ ﴾.

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾: بَيَّنَ هاهنا فضل محمّدٍ ﷺ على آدم عليه الصلاة والسلام؛ حيث علَّم آدم أسماءه، وعلَّم محمّدًا ﷺ صفاته، إذ الصفات لا تخلو من الأسماء، والأسماء تنبئ عن الصفات والذات، وفيه بيانٌ أنه بذاته سبحانه خاطبه بالقرآن شفاهًا عند

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل (٦/ ٣٧٧).

كشف لقائه له كفاحًا، وليس من يعلم منه بلا واسطة كمن تعلَّم بواسطة، فإذا أراد تعليم أرواح الأنبياء والأولياء حين أوجدها ألبسها نورًا من نوره، وبصرًا من أبصاره، وسمعًا من أسماعه، وعقلًا من علمه، ثم علَّمها صفاته بها خاطبها من كلامه الأزلي؛ حيث لا وسائل ولا وسائط، وليس من علَّمه الحق برسم الأرواح كمن علَّمه المعلمون برسم الأشباح، لا هناك علمهم بلا آلة الحدثية ولا علة المخلوقية، بل كان خطابًا بنعت ظهور الصفة، وسماعًا بلا واسطة، فهموا من كلامه ما استتر من حقائقه على فهوم أهل الرسوم من العلماء.

قال بعضهم: علَّم آدم الأسماء، ثم عرضهم على الملائكة، وعلَّم محمّدًا ﷺ القرآن، وعرضه على نفسه، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟

وقال بعضهم: علَّم الروح القرآن قبل الجسد، فالأجساد أخذت القرآن، وتعلَّمته تبعًا للأرواح.

قال الواسطي: أورثهم تعليم الحق إيَّاهم الاصطفائية، وهو أنه لَمَّا كان الحق يعلِّمهم أخبر عنهم، فقال: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، أي: وأورثنا القرآن من خصصناهم بتعليمنا، ومن ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، بأن تولى الحقُّ تعليمهم.

وقال أيضًا: ذكر بلفظ الماضي عنايةً ورعايةً.

قال ابن عطاء: لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾: أراد أن يخص أمة محمد ﷺ بخاصية مثله، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: الذي علَّم آدم الأسماء، وفضَّله بها على الملائكة هو الذي علمكم القرآن، وفضلكم به على سائر الأمم، فقيل له: متى علَّمهم حقيقةً في الأزل، وأظهر لهم تعلُّمه وقت الإيجاد، فالتعليم حيث كان في جملة العلم فلما كشف العلم عن الإيجاد أظهر عليهم آثار التعليم.

قال الحسين: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ مَنْ علَّم الأرواح القرآن شفاهًا ومخاطبةً، فأخذتها الأنفس، وتعلمتها بتلقين الوسائط.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝﴾ أي: خلق آدم بظهور الصفة والذات له، وإلباسه إيَّاه علم الربوبية، ومعرفة أسرار الإفعالية، وعلَّمه أسماءه الحسنى التي هي مفاتيح جميع صفاته، وذلك قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾: علَّمه بيان خطابه، وكاشف له لطائف أسراره، وعرَّفه بطون علم أفعاله، وأعطاه العقل القدسي الذي يرى الأشياء كما هي بنوره وبرهانه، و«علم البيان» أي: فصل الخطاب، وانتظام الكلام، وفصاحة اللسان في تأويل القرآن وسنة

رسول الرحمن.

قال الجنيد: خصَّ آدم بأن خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته هو تخصيص الخلافة.

وقال سهل في قوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ أي: الكلام الذي هو ذهن الخلق، ونفس الروح، وفهم العقل، وفطنة القلب، وعلم نفس الطبع.

وقال الجنيد: خُلق الإنسان جاهلاً به، فعلَّمه السبيل إليه[1].

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾: رفع سماء المعرفة والتوحيد بحيث لا يلحقها إلا أهل الاصطفائية بالولاية في الأزل، ولا ينالها كل مدَّعٍ كذَّاب، ووضع ميزان الصدق والإخلاص؛ ليزن به العبودية في بساط الربوبية.

قال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾: أقيموا العبودية بميزان العبودية، ولا تَزِنوا بميزان الربوبية؛ فإن الحادث لا يلحق إلى القديم، فإذًا لا تخرجوا من رقِّ العبودية إلى دعوى الأنانية، وزنوا أنفاسكم، وخواطركم، ومقاماتكم، وأحوالكم بموازين الشريعة والإخلاص في الطريقة.

قال ابن عطاء: أظهر الوحدانية بصدق الظاهر، وصفاء الباطن، وحقيقة السر، واستقامة العزيمة.

وقال: كن لي صرفًا أكن لك حقًّا.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ﴾: مهَّد قلوب أوليائه، وأحبائه، وعرفانه؛ ليصل منها بركته وآثار جماله إلى جميع الخلائق، وهي بساتين أُنسه، ورياض قدسه، وفواكه معرفته، وأشجار محبته، وأزهار حكمته التي هي قوت أرواح

---

(١) وقال ابن عجيبة في البحر المديد (٦/ ٢٠٣): أي: بيان السير إلى معرفته، بأن ركّب فيه العقل المميز، ونَصَبَ له مظاهر يتعرّف بها، وبعث له دالاًّ يدله، ويُعلمه أسرار الربوبية وآداب العبودية، فلا يزال يُحاذيه، ويسير به حتى يستنير قمر توحيده، وتُشرق شمس عرفانه.

المريدين، وأسرار المتعبدين، سقاها الله من بحار جماله، وأنهار جلاله، وحرسها بعيون كلاءته، وأعوان عنايته.

قال جعفر: جعل الخلق قلوب أوليائه رياض أُنسه؛ فغرس فيها أشجار المعرفة، فأصولها ثابتةٌ في أسرارهم، وفروعها قائمةٌ بالحضرة في المشهد، فهم يجنون منها ثمار الأُنس في كل أوانٍ، وهو قوله: ﴿فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أي: ذات الألوان، كلٌّ يجتبي منها لونًا على قدر سعيه، وما كوشف له من بوادر المعرفة، وآثار الولاية.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾: مشرقه أزله، ومغربه أبده، ومشرقه ذاته، ومغربه صفاته، وأيضًا مشرقه فعله، ومغربه أمره، وأيضًا المشرقان السر والروح، والمغربان القلب والعقل، تطلع منها شموس الذات، وأقمار الصفات إلى عالم العقول والقلوب، فإذا ذهب أوان التجلي استترت تلك الشموس والأقمار من العقول والقلوب، فصارت القلوب والعقول مغاربها، والأسرار والأرواح مشارقها، وأيضًا المشرقان هما الذات والصفات، والمغربان الأمر والأفعال، وأيضًا المشرقان النعوت والأسامي، والمغربان الذات والصفات، له سبحانه في كل ذرة آثار هذه المشارق والمغارب.

قال سهل: مشرق القلب ومغربه، ومشرق اللسان ومغربه.

وقال بعضهم: مشرقه توحيده، ومغربه مشاهدته.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[1]: إشارة الحقيقة بالبحرين: بحر مشاهدة تجلِّي القِدَم، وبحر الروح يكشف له بحر جماله وجلاله، ويَقْرَب منه بحيث لا تدري الروح

---

(١) هما بحر الوجوب، وبحر الإمكان، والبحر في الحقيقة؛ هو بحر الوجوب لاتساعه، لا بحر الإمكان؛ لضيقة إلا أنه لمَّا جمع معه في محل واحد عبَّر عنه بالبحر، نعم إن الوجوب، وإن كان أوسع من الإمكان؛ لكن ظهور الشيء في الشيء إنما هو بقدر قابلية المحلِّ، فيكونان سواء دلَّ عليه إنهم جعلوا دائرة الوجود نصفين، وجعلوا الخط المتوهَّم فاصلاً بين القوسين، فالوجود؛ كالقوسين أحدهما: قوس الوجوب، والآخر قوس الإمكان؛ وإنما جعلوا الخط متوهَّمًا لا محققًا؛ لأن الوجود الإمكاني اعتباري مفروض؛ لتمييز الحقائق، والمراتب، فإنه لولا الاعتبارات؛ لبطلت الحقائق. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ التقاء الروح بالجسم؛ لأن الروح في الحقيقة بحر الوجوب، والجسد بحر الإمكان، وإن كان مخلوقًا كما ورد: «أول ما خُلق روحي».

العاشق العارف أين هو؟ فترى الحق، ويفنى هو في الحق، ومن ذلك القرب والدنو عبَّر الحق بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، ولكن بين البحريْن حاجز امتناع عزةِ وحدانيته بحيث لا يختلط القِدَم بالحَدَث؛ لأنه منزَّهٌ عن الحلول في الأماكن، والاستقرار في المواطن، وذلك قوله: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: برزخ أعظم من تنزيه قدمه من تناول الحدث، ومع الحدث برزخ الحدوثية، يحتجب به عن الوصول إلى حقيقة ذاته، وعيون صفاته، بل يستمتع بالنظر إلى جماله، وكشف تجلِّي جلاله، بحر القدم عَذْبٌ من حيث القدس، وبحر الحدث مَلْحٌ من حيث علل الحدوثية، فلمَّا تمرح بها جلاله بنعت التجلي صارت عذبًا فراتًا، من حسن مجاورتها:

تَكُونُ أُجَاجًا دُونَكُمْ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَيْكُم تَلْقَى طِيبَكُمْ، فَيَطِيبُ

وَمَا ذَاكَ إِلَّا حِينَ خُبِّرْتُ أَنَّهُ يمرُّ بوادٍ أنتَ منهُ قريبُ

وتصديق هذه المعاني تجليه لجبل الطور، ومن الشجرة لموسى، وهناك مقام عين الجمع، انظر إلى البحرين: بحر الحدث، وبحر القدم كيف لا يختلطان! والحدثان بأسرهما من العرش إلى الثرى كقطرة فانية في قلزم بحار أزليته، وديمومته يخرج من بحر جلاله جواهر العلوم اللَّدنية، وأسرار الحكمية للعقل والقلب، وتخرج من بحر الروح جواهر المعرفة ولآلئ المحبة، وإن كان الكل من بحره خرج؛ لأن بحره موجد البحار، وما يخرج من بحر وجوده يكون قديمًا مثل القرآن، والأسماء، والنعوت، وما يخرج من بحر الروح المالحة بعلة الحدوث، وما يتعلق بالحدوثية من العلم والمعرفة والفطنة.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

قال الله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾: وأيضًا إذا نزلنا من هذا المقام بحرأذيان المعاني إلى عالم الأماني، فنقول بالبحرين: بحر القلب والنفس في القلب بحر الأخلاق المحمودة، والمقامات العلية الشريفة، ولطائفات المعرفة، والمحبة، والنفس بحر الأخلاق المذمومة من الظلم، والضلالة منبع بحر القلب من عالم لطفه، ومنبع بحر النفس من عالم قهره، وهما لا يختلطان أحدهما بالآخر؛ إذ لا تصير النفس قلبًا، ولا يصير القلب نفسًا؛ لأن بينهم برزخ العقل والعلم والشريعة والطريقة، ولؤلؤهما ومرجانهما هاهنا الإيمان والإتقان والصفاء والنور والطمأنينة، فهذه الجواهر تخرج من بحر القلب، فإذا صارت النفس مطمئنَّةً فأيضًا جواهر بحرها من أضعاف بحر العلوم المجهول، وهي مواضع الأسرار.

قال سهل بن عبد الله: أحد البحرين القلب، فيه أنواع الجواهر، فيه جوهر الإيمان،

وجوهر المعرفة، وجوهر التوحيد، والبحر الآخر النفس، فيها صفوف الرذائل، فيها الحقد الحسد، والكبر، والبخل، والغضب، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِّ﴾ (١) التوفيق، والعصمة والخذلان، والنقمة.

وقال ابن عطاء: بين العبد وبين الرب بحران عميقان أحدهما: «بحر النجاة»، وهو القرآن من تعلّق به نجا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، و«بحر الهلاك»: وهو الدنيا مَن ركن إليها هلك.

وقال الأستاذ: خلق في القلوب بحرين: «بحر الخوف»، و«بحر الرجاء».

ويقال: القبض والبسط.

ويقال: الهيبة والأنس.

فتخرج منها الجواهر من الأحوال الصافية، والّلطائف المواتية.

ويقال في الإشارة: البحران النفس والقلب، فالبحر العذب القلب، والمالح النفس، ومن بحر القلب كل جوهر ثمين، وكل حالة لطيفة، ومن النفس كل خلق ذميم؛ فالدّر من أحد البحرين يخرج، ومن الثاني لا يكون إلا التمساح، وما لا قدر له من سواكن النفس، بينهما برزخ لا يبغيان يصون الحق هذا من هذا، ولا يبغي هذا على هذا.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾: لو نظرت بنظر التحقيق في الكون وأهله، لرأيت حقيقة فنائه وفناء أهله، وإن كان في الظاهر على رسم الوجود؛ لأن من يكون قيامه بغيره فهو فانٍ في الحقيقة؛ إذ لا يقوم بنفسه، وكيف الحدث يقوم بنفس ولا نفس له في الحقيقة؟! فإن الوجود الحقيقي وجود القدم، لذلك أثنى على نفسه بقوله تعالى:

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾: وحقيقة البقاء لمن لا يزال باقيًا قديمًا، ومن كان أوله عدمًا وآخره عدمًا وجوده بخلاف من كان أوله قدمًا وآخره بقاءً، فإذا شاهدت مشاهدة الحق ترى الحق قائمًا بنفسه، وترى الأشياء قائمةً به، فقد علمت هناك حقيقة الفناء والبقاء، وحقيقة الوجود والعدم.

---

(١) فإذا هبت رياح العناية من مهب الهداية وتموج البحران فيتلاشى البرزخ باصطكاك البحرين ويصير الكل بحرا واحدا وهو بحر لا إله إلا هو إليه المصير فإذا كان إليه المصير، فقد طاب المسير، تفسير حقي (١٢/ ٣٤٨).

عرَّف الله سبحانه قدمه وبقائه خلقه بفناء الدنيا وأهلها؛ ليتحققوا في معرفته؛ لأن من دخل في البقاء بغير دخوله في الفناء لم يعرف حقيقة البقاء.

سُئل الجنيد عن قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ قال: من كان بين طرفي فناءٍ فهو فانٍ، وذكره جلاله ووجهه الباقي تسليةً لقلوب المشتاقين، وترويحًا لفؤاد الموحدين والعارفين، أي: أنا أبقى لكم أبدًا لا تغتمُّوا، فإن لكم ما وجدتم في الدنيا من كشفِ جمالي، ويتسرمد ذلك لكم بلا حجاب أبدًا، أيها العاشقون استبشروا ببقائي، وافرحوا بلقائي، وفيه دقيقة وإشارة إلى حبيبه أي: كلهم استمتعوا بتجلياتي، وكشف الوجه باقٍ لك أبدًا، رأيت وجهي خاصة لك، ثم العشاق أتباعك في النظر إلى وجهي، فأول الكشف لك ثم للعموم، فذَكَر الوجه خاصةً وهو صفةٌ خاصةٌ لأهل الخصوص، وإن كان وجود القدم جميعه وجهًا ألا ترى كيف قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ تعالَى يتجلَّى لأبِي بكرٍ خاصةً، ويتجلَّى للمؤمنينَ عامةً»[1]، وذكرُ الجلالِ تهيج لأهلِ المحبةِ والهيمةِ.

قال الواسطي: الذي أخفى من شاهده للخاصة لا يظهره للعوام، فَسُئل: أفرق بين الدارين؟ قال: نعم، أعطاهم في الدنيا على السرائر، وأعطاهم في الآخرة على الظواهر، استتر في الدنيا بما أظهر من عجائبه، واستتر في الآخرة بما أظهر على أقدارهم، وهو الذي لا يطيقه الخلق إلا على من تولَّاه بإسبال تغييبه عن شاهده، نظرت يا فهم في مقام التوحيد إلى تلاشي الكون في ظهور جلال وجهه تعالى، ورأيت فناءه في بقائه حين ظهر؛ وذلك لغلبة سلطان إشراق نور القدم على وجود الحدث، وذلك حين غاب العارف في المعروف، ولا يدري أين هو؟ إذ لا أين، ولا هو إلا هو.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٨٣) بنحوه.

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ : يسأله من في السماوات من الملائكة كلهم على قدر مقاماتهم، يسأله الخائف النجاة من البُعد والحجاب، ويسأله الراجي الوصول إلى محل الفرج، ويسأل المطيع قوة عبادته، ويسأل المحب أن يصل إليه، ويسأل المشتاق أن يراه، ويسأل العاشق أن يَقْرُبَ منه، ويسأل العارف أن يعرفه، ويسأل الموحد أن يفنى فيه، وهكذا أهل الأرض، يسأل الجاهل ما يحتجب به عنه، ويسأل العالم ما يعرف به ربه، وكذلك الأنبياء والأولياء والأصفياء والأبدال، يسألون منه على قدر مراتبهم ودرجاتهم معرفته، ووصاله، والتخلص بوقاية عظمته من قهره، يسأل العارف الرعاية، ويسأل المحب الكفاية، ويسأل العاشق المشاهدة، ويسأل الموحد النهاية، وهو تعالى يكون من حيث مراد الجميع، يعطي الكل مأمولهم، ويزيد من فضله، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ : مزيد قرب المقرَّبين، ووصل الواصلين، وكشف اللقاء للمشتاقين، وظهوره في كل ذرة للشائقين، يظهر في كل لحظة من أنوار عجائب ربوبيته للمستأنسين، وتلك العجائب بها لم ترها العيون، ولم تدركه العقول، ولم تعلمه القلوب، ولم يلحقه الأرواح، ولم تناولها الأشباح، ولم تشاهده الأسرار، وليس لها نهاية، يبرز كل يوم وساعة أنوار عجائب ملكه وملكوته على قدر قوة إدراك المدركين، وأفهام العلماء والعارفين، وما كان في سوابق علمه في أزل أزله، بشوق أسرارها ومقاديرها، بسوط القدر إلى مجاريها ومواردها، ولا تظن أن أحدًا يصل إلى شأنه، فإن شأنه أعظم من أن يدركه أحدٌ من خلقه. قال الواسطي: من سأل الله أعطاه سؤلَه على قدره، ومن ابتدأه بالعطاء ابتدأ بما يليق بفضله وجوده وكرمه، قال الله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، وقال النبي ﷺ: «يقولُ اللهُ تعالَى: أعطيتكُمْ قَبْلَ أنْ تَسْألونِي، واسْتَجَبْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي»[1].

قال أبو سليمان الداراني: كل يوم له إلى عبيده برٌّ جديد.

وقال أيضًا: هو إيصال نعمه إليك، ودفع الضر عنك، فلا تغفل عن طاعة من لا يغفل عن برِّك.

قال الواسطي: يغيب ظاهرٌ، وإظهار غائبٍ.

وقال بعضهم: سوق المقادير إلى أوقاتها.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٤).

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ أي: من خاف وهاب مقامه في مقام العتاب، وتغيير رب الأرباب له، وإسبال النقاب، وصرفه عن المآب، وحيائه بنعت الإجلال عند الخطاب، فترك حظوظه، وأقبل عليه بنعت الخجل والتشويش، والندم عن تضييع أوقاته جنتان: جنة المشاهدة، وجنة المواصلة، جنة المحبة، وجنة المكاشفة، جنة المعرفة، وجنة التوحيد، جنة المقامات، وجنة الحالات، جنة القلب، وجنة الروح، جنة الكرامات، وجنة المداناة.

قال بعضهم: هو المقام الذي يقوم بين يدي ربه يوم القيامة عند كشف الستور، وظهور حقائق الأمور، وسكوت الكل من الأنبياء والأولياء بظهور القدرة والجبروت.

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾.

قوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ أي: هل جزاء شوق الشائقين إلا لقاء رب العالمين، وهل جزاء الخوف منه إلا الأمن به، وهل جزاء الحزن إلا الفرح، وهل جزاء الفناء فيه إلا البقاء معه.

قال بعضهم: هل جزاء من انقطع عن الإنس المخلوقين إلا أن يوصل إلى محل الأُنس بربِّه.

قيل: هل جزاء من صبر على الله إلا الوصول إليه؟!

قال الجنيد: هل جزاء من ترك الكل لنا وفينا، إلا أن يكون عوضه عن الكل.

قال جعفر: هل جزاء من أحسنت إليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه إلى الأبد.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾: وصف الله سبحانه حواري جنانه التي خلقهن لخدمة أوليائه، وألبسهن لباس نوره، وأجلسهن على سرير أنسه في جمال قدسه، وضرب عليهن خيام الدر والياقوت، ينتظرن أزواجهن من العارفين والمؤمنين المتقين، لا يطرفن أبصارهن في انتظارهن مِن مسلك الأولياء مِن أزواجهن إلى غيرهم، ثم وصفهن الله بأنهن قاصرات الطرف لم يصل إليهن مسُّ الأغيار بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾، ثم وصفهن بأنهن خيِّراتٌ، حِسانٌ، نور حسن تجلي الحق يتلألأ من وجوههن من نظر إلى واحدة منهن بحار عقله فيها، ويغيب قلبه في جمالها، هي ريحانة الحق، يستأنس بها العاشقون؛ لأنها باكورة الجمال، لها طلعةٌ لو رأتها الشمس ما طلعت، ولو رآها قضيب البانِ لم يمس، يا لها من طيب وصالها، ويا لها من حسنها وجمالها، لو تفوح ذَرَّةٌ من نفحة مسكٍ ذؤابتها في الدنيا لتعطَّر العالم بأسره من عطر نسيمها.

تُضَوَّعُ مِسْكًا بَطْنُ نُعْمَانَ إِنْ مَشَتْ ... بِهِ زَيْنَبُ فِي نِسْوَةٍ عَطِرَاتِ

قال الحسين: حارت في رؤيتها الأبصار، وقاصرات: قصرت عن إدراك وصفها الأفكار لا يترجم عنها لفظ اللسان.

قال يحيى بن معاذ: هي التي لا يقدر أحدٌ على حكايتها، وتَعْمَى عيون المبصرين عن بلوغ حسنها، كأن ألسنة العشق تنطق بمغيِّبات العقول عن وجنتها، وأنامل الأفراح تضرب بدفوف الفتن في صورتها معشوقة، لو رآها الخلق لتحيَّروا فيها، هي التي قال الله فيها: ﴿حُور مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾[1].

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

---

(١) أي: أسرار خفية محبوسة في خيام القلوب والأرواح، والأسرار لا يَطَّلع عليها إلا أهلها؛ كالنساء اللائي تحت خيام الدنيا لا يظهرن إلا على أزواجهنَّ، وكل من هذين النداءين مستمر إلى آخر الزمان إلا أن النداء قلَّ مَن يُجيب له؛ لأن الأسماع مسدودة، والأفواه مقفولة، والقلوب مختومة غالبًا، واقتضت الحكمة الإلهية غلبة أحكام الإمكان على أحكام الوجوب في كل زمان، فلم يحصل على الحق إلا واحد من الألف، كما يقتضيه الاسم الأعظم الحاكم على ألف من الأسماء الجمالية والجلالية، فعليك بالتأمُّل في هذا المجلس، والاعتبار من الشيطان الذي هو مُظهر اسم المضلِّ في مرتبة الشريعة.

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

ما نقول في مَنْ اسمه تقدَّس عن إدراك الأوهام، وإشارة العقول، إذ اسمه نعتٌ والنعوت صفاتٌ، والصفات قائمةٌ بالذات، فمن عجز عن إدراك حقيقة اسم الموصوف القديم كيف يصل إلى العلم بوجود المسمَّى! وهو أجلُّ من أن تحيط بقدس جلاله الأفكار، أو تحوى ذرةً من نعوته الأذكار، جلاله حيَّر عقول العارفين في ميادين عِزَّته، وأغرق أرواح الموحدين في بحار عظمته، وأفنى أسرار الواصلين في شامخات كبريائه، اسمع معاني قدسه كيف فعلت بشاهد الحق في مشاهدته عليه الصلاة والسلام، حيَّرته في أدوية الجلال، وأغرقته في «قلزم» الجمال، وكشفت له عين العين، وسلسلة من الأين، فبان له ما بان من عيون الألوهية، وبهاء القديم، والبقاء ما أسكنه عن وصف قدسه؛ حيث قال أفصح العالمين صلوات الله وسلامه عليه من حقيقة الحيرة وساحات العزة بقوله ﷺ:

«لَا أُحْصِي ثَنَاءً عليْكَ أنتَ كما أثنيتَ علَى نفسكَ»[1]، ذكره سبحانه بذكر الجلال لطيب قلوب الواهين، بأن يكشفه لعيونهم، وأبصارهم، وأرواحهم، وأسرارهم، وقلوبهم، وعقولهم؛ ليريحهم من تراكم الأحزان، وظلمة هذه الأشجان، ويبلغهم إلى مجالس الإحسان، وكشف العيان .

قال بعضهم: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ أي: جل ربك، وعظم قدره عما يقول فيه الموحدون والمبطلون جميعًا؛ لأن كل شيء يثنى عليه بقدره، وكل ذاكر يذكر على مقدار طاقته، وطبعه، وعلمه، وفهمه، والحق تعالى ذكره خارجٌ عن أوهام الآدمين؛ لأن الثناء والمعارف دون الغايات، فسبحانه وتعالى ما أثنى عليه حق ثنائه غيره، ولا وصفه بما يليق به سواه، عجز الأنبياء بأجمعهم عن ذلك، حتى قال أجلهم قدرًا وأرفعهم محلًّا صلى الله عليه وعليهم أجمعين: «لا أُحصِي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ علَى نفسِكَ»[2].

سورة الواقعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾: واقعة كل صاحب قلب حين وقعت عليه أنوار المعارف،

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

(٢) تقدم في سابقه.

والكواشف من مكامن الغيب، حين أراد الحقُّ جذب قلبه بمباشرة وارد مشاهدته، فتلك الساعة للعارف واقعة القيامة، يستشرف بنوره قبل مجيئها على أمورها الغيبية، فإذا وقعت عليهم الواقعة سلبتهم من حظوظ الدنيا، وطلبها، ولذة هواها، وزينتها، وذهبت بهم إلى مراد الحقيقة، هنا تبين مسالك كل صادق، ومهالك كل مدَّعٍ.

قال سهل: إذا ظهر لكل سالك بيان سلوكه، فمن كان سلوكه على منهاج السنة والاقتداء قاده ذلك إلى مناهج الباطل.

وقال ابن عطاء: إذا تبين مراد المريد من مراده.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ : «خافضةٌ»: لظنون النفوس الأمَّارة، «رافعةٌ»: لهموم القلوب المطمئنة إلى مدارج القربة، وأيضًا «خافضة»: للنفس الأمارة عن جوار الروح الناطقة، ومطهرة من دنسها، و«رافعة»: للروح إلى معادن الأفراح من رؤية الملك الغفار، وأيضًا مسقطة للمجاهدات، و«رافعة»: للأرواح إلى المداناة، وأيضًا «خافضة»: للتكاليف، و«رافعة»: للعارفين إلى الرفاهية الكبرى في الصفائح الأعلى، وأيضًا «خافضة»: للمدَّعين، و«رافعة»: للصادقين.

قال ابن عطاء: تخفض أقوامًا بالعدل، وترفع أقوامًا بالفضل.

وقال سهل: تخفض أقوامًا بالدعاوي، وترفع أقوامًا بالحقائق.

قال الأستاذ: «خافضةٌ»: لأصحاب الدعاوي، «رافعةٌ»: لأرباب المعاني.

﴿فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: «أصحاب الميمنة»: أصحاب يمن العناية الأزلية الذين سبقت لهم في الأزل الاصطفائية بالولاية.

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝﴾

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: الذين أسقطهم قهر الأزل عن رؤية العناية، فصاروا مشئومين من مشأمة الدعاوي الباطلة[1].

---

(١) وقال الشيخ حقي: المراد تعجيب المسامع من شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة كأنه قيل ما عرفت حالهم أي شيء فاعرفها وتعجب منها فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال، تفسير حقي (١٥/ ١٥).

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨﴾.

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ﴾: الذين سبقوا بسبق اجتباء الله إيَّاهم في علمه الأزلي، وهم المقربون بأن قرَّبهم منه، وكشف لهم أنوار قرب قربه، وجمال مشاهدته أيضًا، وأصحاب الميمنة أهل الإيمان، وأصحاب المشئمة أهل الكفر والطغيان، والسابقون المقربون أهل العرفان، وأيضًا أصحاب الميمنة أهل المجاهدات، وأصحاب المشئمة أهل الشهوات، والسابقون أهل المشاهدات.

قال ابن عطاء: هم أرواح ثلاثةٌ، «فأصحاب الميمنة»: هم أصحاب الجنة، و«أصحاب المشئمة»: هم أصحاب النار، و«السابقون»: هم العبيد المخلصون، ثم يصير أصحاب الميمنة على ثلاث طبقات.

وقال سهل: «السابقون»: هم الذين سبق لهم من الله الولاية.

قيل: كونهم هم المقربون في منازل القربة، وروح الأُنس.

قال القاسم: أضاف الله الأفعال إلى عباده بقوله: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝١٠﴾، ثم قال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾، ولم يكونوا مقربين لما كانوا سابقين، ولو كانت الأفعال إليهم حقيقة لكانوا متقربين، ولم يكونوا مقربين.

صدق الشيخ فيما حالهم وجدوا السبق بأن اصطفاهم الله في الأزل بقربه، فإذا السبق والقربة من فضل الله، واختياره لهم.

وقال الأستاذ: الذين سبقت لهم من الله الحسنى، فسبقوا إلى ما سبق لهم، أولئك المقربون، ولم يقل المتقربون، بل قال أولئك المقرَّبون، وهذا عين الجمع.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾: لا يتغيرون عن حدود الاستقامة بمشارب الوصلة، ولا يحتجبون عن المشاهدة أبدًا.

قال جعفر: لا تذهل عقولهم عن موارد الحقائق عليه، ولا يغيبون عن مجلس المشاهدة بحالٍ.

﴿وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾.

﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، وما يَشْبَهُهَا، ولما كان فضله وإحسانه إلى عباده بالمشاهدة بالبصائر في الدنيا قديمًا غير مخلوق جعل ثوابها إلى ثواب تلك المشاهدة غير مخلوق، جعل ثوابها وجزاءها ما يليق بها بالأبصار، فقال هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: وقع جزاء المحدث، وما ليس بمحدث لا يقابله أعمال الثقلين، وهو مشاهدة الله.

قال الحسين: رُدَّ الشيخ إلى الشيخ، والمخلوق إلى المخلوق، لما كانت أفعالهم مخلوقة، وأذكارهم مخلوقة معلولة جعل جزاءها.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾: الظل الممدود الذي لا نهاية له إلى الأبد، هو كيف وصله الله، وظل جلاله الأزلي الأبدي.

قال جعفر: «الظل»: رحمة الله التي سبقت لأمة محمد ﷺ، و«الممدود»: فضله على الموحدين، وعدله على الملحدين.

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٠ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝٤٨ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ أي: غير مقطوعة عنهم أثمار أشجار المشاهدة، وهي ثمرات أنوار الذات، والصفات التي تثمر في قلوبهم ثمار علم العلم، وغيب الغيب، وسر السر إلى الأبد، وهي غير ممنوعة من رؤوسهم، وعلمهم، وإدراكهم أدركوها بالله من الله.

قال جعفر: لم يقطع عنهم المعونة والتأييد، ولو قطع عنهم ذلك لهلكوا، ولا يُمنعون من التلذُّذ بمجاورة، ولو منعوا من ذلك لاستوحشوا.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[1]: بَيَّنَ الله سبحانه أن حقائق الغيوب غير متناهية، وحقائقها غير مكشوفة للأعداء، ومن اختاره بالولاية وكحَّل عينه بنور العناية، يطلعه على نوادر الملكوت، وعجائب الجبروت، فهذا من كنوز الغيب التي اختار الله بها سفرة الأنبياء، والرسل، والأولياء، وأهل الصفوة بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، وبقهر القديم منع الأعداء من النظر إلى مكنون السرائر، فخاطبهم بهذه الآية أنه يخرجهم بمراده الأزلي على لباس مقاديره الأولية، إمَّا بصورة السعادة، وإمَّا بصورة الشقاوة.

قال الواسطي في قوله : ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾: من أسباب السعادة والشقاوة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ

---

(١) والحاصل: إن الآية وعد لمتوقع الخير، ووعيد لفاعل الشر، والله عند حسن ظن عبده به لكن العبد وجب عليه أن يلاحظ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، فإن عبد الكريم لا بد وأن يكون كريمًا لا لئيمًا، ثم في الآية إشارة إلى أن إنشاء المذكور لا يستلزم الاستحالة؛ وهو قلب الحقائق، فإن الإنسان لا يصير خنـزيرًا مثلاً أبدًا، وإنها يظهر في صورته، وكذا لا يصير ملكًا وإن كان ظاهرًا بصورته؛ كجبريل في صورة شاب، أو في صورة دحية، أو نحو ذلك من الصور الحسنة، وكذا الجن والمتروحنون، ومن ذلك الكيمياء فإن الإكسير لا يقلب النحاس ذهبًا حقيقة؛ وإنها يقلب صفة النحاس، فيظهر في صورة الذهب، ثم لا يرجع إلى أصله أبدًا كما أشار إليه قولهم: لو وصلوا ما رجعوا، وقد نازع فيه بعضهم من لا خبرة له بحقيقة الحال، وقس على هذا سائر الاستحالات؛ فإنها استحالات صورة لا حقيقة، وإن زعم بعضهم الحقيقة في كل ذلك.

مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لقد ظهرت أنوار صفاتي في مباشرة أمري في أطوار فطرتكم الأولية، ما رأيتم تلك المشاهدات بإسبالي ستور الغبرة على أعينكم، وكيف ينفع العلم بصورة الأفعال، إذا لم يدرك لطائف اصطناعه، ولم ير حقائق أنواره.

هذا آدم بديع فطرته، وخليفة ملكه، ظهر الحق منه ببديع الآيات، وحقائق أنوار الصفات، خلقه من ترابٍ، ثم خلق ذريته من نطفةٍ، فباشر سر الحقيقة النطفة، كما باشر التراب، يا ليت لذريته لو عرفوا منشأه ومبدأه، كما عرف آدم نفسه، لكانوا عارفين بربهم بحقيقة العرفان، لا برسم الأدلَّة والبرهان.

قال القاسم: ألم تعلموا إنَّا خلقناكم من ترابٍ، ثم من مضغةٍ، ثم من علقةٍ، ثم من ماءٍ مهينٍ، أفلا تتعظون بهذه المواعظ، وتبصرون إلى عجائب الصنع فيكم، وتستحيون من هذه الدعاوي، والأماني، والإضافات، وتلزمون الأدبَ، فإنَّ من تعدَّى طوره هتك ستره.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ : جعل الله تعالى آياته بصنوفها مرأى أنوار صفاته، يتجلَّى منها لأبصار العارفين، ويقوِّي برؤيتها أرواح الموحدين، وتستقيم بها عقول الصادقين، وتفزع من مواعظها قلوب الخاشعين، فصاروا في معابد العبودية متذلِّلين، وفي مراقد أنوار عظمته متواضعين.

قال جعفر: موعظةٌ للتائبين، وآلةٌ للأقوياء من العارفين في حمله.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ : أمرَ الله حبيبه عليه الصلاة والسلام أن ينزه نفسه عند رؤية الآية ونعمائه وظهوره، بكشف الصفات والذات من مشكاة آياته، بأنَّه منزَّهٌ عن أن تكون الحوادث محلَّه، أو أن يلحق إليه بنعت مباشرة شيئًا من الحدثين، فأمره أن ينزِّهه، ويسبحه به لا بنفسه، ألا يرى كيف قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾، والمسمَّى والاسم واحدٌ في واحدٍ أي: قدِّسي بي، فإني أعظم من أن تقدسني بنفسك، أو بشيءٍ من دوني، ألَا ترى إشارة قوله: ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ عظم جلاله، أن يبلغ إلى مدحه الخليقة، أو أن تصفه البريَّة.

قال الواسطي: سَبِّحه باسمه، فإن الاسم والمسمى هو الشيء بعينه، وهو العظيم.

قال ابن عطاء: «سبحان الله»: أعظم من أن يلحقه تسبيحك، أو يحتاج إلى شيء منك، لكنه شرف عبيده أن أمرهم أن يسبِّحوه؛ ليظهروا أنفسهم مما ينـزهونه به.

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: أقسَمَ الله سبحانه بمواقع أنوار نجوم صفاته إذا ظهرت منه، فتعود إلى معادنها من ذاته سَبَحات، منه بدأت وإليه تعود، فالنجوم صفاته، ومواقعها ذاته، لذلك قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: عظم لعظمة جلاله، وعظم جلاله، وأيضًا أقسم بمواضع نجوم صفاته من أرواح الأنبياء والمرسلين، والأولياء، والصديقين إذا تجلَّت لها، وأيضًا أقسم بقلوب العارفين أنها مواقع نجوم خطابه، وأيضًا أقسم بمواقع نجوم القرآن من أسرار حبيبه عليه الصلاة والسلام؛ لأن قلبه مسقط الوحي، وبيت الخطاب، وموضع كشف الأسرار، ومرآة حقائق الأنوار، أقسم به لعظمةٍ عند الله.

وفي هذا المعنى قال ابن عطاء: «مواقع النجوم»: هي مواقع ما يظهر على سر النبي ﷺ من أنوار الحق، وزوائد التحقيق مما خُصَّ به من الدنو، أو وقربه والزلف التي لم يؤمر بإظهارها والإخبار عنها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾: كلامه القديم إذا بدا في قلبه لا يختلط به هوى الإنسانية، ولا هواجس النفسانية، ولا إلقاء الشيطاني؛ لأن قلبه كان محفوظًا بحفظ الله، ورعايته عن الخطرات المذمومة، والأوهام، والظنون، وكلامه محفوظًا؛ لأنه صفته القديمة المنـزهة عن التغيير والتبديل، وصفه بأنه كريم؛ لأنه وصف الكريم القديم المنبع عن صفاته الكريمة، وذاته الأزلي أنزله إلى أكرم خلقه من تخلَّق بخلقه يكون كريمًا في الدارين، ومن فهم حقائقه يكون إمامًا في الثقلين.

قال بعضهم: «كريم»: لأنه يدل على مكارم الأخلاقِ، ومعاني الأمورِ، وشرائف الأفعالِ.

وقيل: «كريم»؛ لنـزوله من عند كريم، بوساطة كريم، إلى أكرم الخلق طرًّا أجمعين.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ أي: لا تنكشف أسراره وأنواره إلا للمقدسين بقدس الله عما دون الله، وهم أهل القرآن، وأهل الله وخاصته.

قال بعضهم: لا ينالُ خيره وبركته إلا من طهَّره يوم قسمته عن الشقاوة، وخَلَقَهُ يوم خَلْقِه مطهَّرًا من المخالفات.

وقال ابن عطاء: لا يفهم إشارات القرآن إلا من طهَّر سره عن الأكوان بما فيها.

وقال الجنيد: إلا العارفون بالله، المطهِّرون أسرارهم عمن سواه.

وقال جعفر: إلا القائمون بحقوقه، المتَّبِعون أوامره، الحافظون حُرماته.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾: افهم أن قربَ الله بالتفاوت، قربٌ بالعلم، وقربٌ بالإحاطة، وقربٌ بالفعل، وقربٌ بالصفة، وقربٌ بالفهم، وقربٌ باللطف والمسافة والمكان منفيٌّ عن ذاته وصفاته، لكن تجلَّى من عين العظمة لقلوب بعضٍ؛ لإذابتها برؤية القهر، ولقلوب بعض تجلَّي من عين الجمال؛ ليعرِّفها لطف الاصطفائية، وذلك القرب لا يبصره إلا أهل القرب، وشواهده ظاهرةٌ لأهل المعرفة.

قال ابن عطاء: إنما ذكر هذا ليعرفوا قربه منهم، لا أنَّ بينه وبينهم مسافة، ولكن خطاب التحذير والترهيب.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي: فأما إن كان من العارفين بالله المقربين بقرب الله إياه قلبه روح الوصال، وريحان الجمال، وجنة الجلال لروحه روح الأنس، ولقلبه ريحان القدس، ولنفسه جنة الفردوس.

قال السلمي: «الروح» لقلوبهم، و«الريحان» لنفوسهم، و«الجنة» لأبدانهم.

قال ابن عطاء: «الروح» النظر إلى وجه الجبار، و«الريحان» الاستماع لكلامه، «وجنة نعيم» هو ألا يحتجب العبد فيها عن مولاه إذا قصد زيارته، وللمقربين ذلك في دار الدنيا روحهم المشاهدة، وريحانهم سرور الخدمة، وجنة نعيمهم السرور بالذكر.

وقال الأستاذ: «روح» للعابدين، و«ريحان» للعارفين، و«جنة نعيم» لعوام المؤمنين.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: وأما إن كان من أهل السعادة هذا المتوفى ويمن العناية وصل إلى دار السلام، ولقاء جلال

العلّام، وهو في سلامة مشاهدته أمن من الفرقة والوحشة، فبشارة سلامته لك أيها الحبيب المشفق، وعليك منه سلام الاشتياق إلى قدومك، وإلى جمالك، وإلى خطابك وخدمتك وصحبتك.

قال سهل: ﴿أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ : هم الموحدون إلى العاقبة لهم بالسلامة؛ لأنهم أمناء الله قد أدُّوا الأمانة، يعني: أمره ونهيه، والتابعون بإحسان لم يحدثوا شيئًا من المعاصي والزلات، قد أمنوا الخوف والهول الذي ينال غيرهم.

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾(١) أي: خبر ما كان، وما سيكون في القرآن من الحق حق وبيان صحيح، لا يقبله إلا من شاهد قلبه بنعت حق اليقين مشاهدة الحق بالحق، وحق اليقين كشف الذات والصفات، أي: إذا أنت من أهل حق اليقين فيما وجدت من قرب الله ووصاله نزّه ذاته وصفاته عمّا لا يليق بعزته سبِّحه به لا بك، حتى يكون تنـزيهك تنـزيهًا، وتقديسك تقديسًا.

قال ابن عطاء: إن هذا القرآن لحقٌّ ثابتٌ في صدور الموقنين وأهل اليقين، وهو الحق من عند الحق؛ فلذلك تحقق في قلوب أوليائه.

قال بعضهم: «حقُّ اليقين»: النظر إلى الحق بعين الحقيقة وتلك البصيرة التي يكرم الله بها خواص عباده المقربين، وهو مشاهدة الغيب بما تريد أن تجري، وإنما يرزق ذاك من فتح بصره لمشاهدة الغيوب.

قال أبو عثمان في قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾: شكرًا لما وفّقنا أمنك من التمسك بسنتك.

سورة الحديد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: نزّه الله الأكوان، ومن فيها بلسان العجز عن البلوغ إلى ثنائه وبلسان الافتقار إليه، وفي الحقيقة هو سبح لنفسه بألسنتهم؛ لأنها أفعاله

---

(١) أي: اسبحْ بفكرك في بحار عقلك، وغُصْ بقوة التوحيد فيها تَظْفَرْ بجواهر العلم، وإيَّاك أَنْ تُقَصِّرَ في الغوص لسببٍ أولآخر، وإياك أن تداخَلَكَ الشُّبَهُ فيتلفَ رأسَ مالِك ويخرجَ من يدك وهو دينُك واعتقادك.. وإلاَّ غرقتَ في بحار الشُّبَه، وضَلَلْتَ. تفسير القشيري (٧ / ٣٧٧).

وبأفعاله وصف نفسه إذ هو قبل وجود الكون نزه نفسه بصفته القديمة ثم وصف نفسه بفعله تشريفًا للخليقة وتعظيمًا للحقيقة، فتنزيهه غالب على تنزيه الخلق وحكم بعجزهم عن تسبيحه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: ذكر الله سبحانه ملكه على قدر إفهام الخليقة، وإلا فأين السماوات والأرض من ملكه؟! والسماوات والأرض في ميادين مملكته أقل من خردلة لما علم عجز خلقه عن إدراك ما فوق رؤيتهم، ذكر ملك السماوات والأرض ملكه قدرته الواسعة التي إذا أراد الله إيجاد شيء، يقول: كن فيكون بقدرته، وليس بقدرته نهاية، ولا لإرادته منتهى، يُحيى من يشاء برؤيته، وكشف جماله له، ويميت من يشاء برؤية الملك، والاشتغال به عن المالك، وأين الملك والملكوت في عين العارف الحي بحياته، البصير بنوره التي هي فانية في الملكوت والكائنات سقطت منها بأن ليس فيها موضع إلا وفيه بحار عظمة القدم وجلال الأبد.

قال ابن عطاء: هو مالك الكل وله الملك أجمع، يميت من يشاء بالاشتغال عن الملك، ويُحيى من يشاء بالإقبال على الملك.

وقال الأستاذ: يُحيى النفوس ويميتها، ويُحيى القلوب بإقباله عليها، ويميت بإعراضه عنها.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾: افهم سرَّ تفسير هذه الآية، فإن الله سبحانه أشار بها إلى سرِّ ذاته وصفاته ونعوته وأسمائه، وأظهر باطن غيبه، وغيب غيبه وسره، وسر سره؛ لتحير أرواح العارفين في بحار قدمه وبقائه، وفناء أسرار الموحدين في صفاته وذاته، وما أفادت هذه الأسرار إلا التحير عن إدراكه وذكر سرِّه، ولم يعرف أحدٌ ذلك السرَّ، ولا يعرف أحدٌ ذلك السرَّ، ولا يعرفه أحدٌ إلى الأبد، هو ذاكره، وهو عالم به لا غير، كيف يعرف الأولية من لا أولية له؟ وكيف يعرف الآخرية من لا آخرية له؟ وكيف يعرف بطن سر السر وأصل الأصل، من لا حقيقة له في إدراك كنة كنهه اعبُر من هذا البحر العميق، ولا تقف، فإنه أغرق الأولين والآخرين في قطرة من قطراته، وهم عطاشى من بعد أفواههم عن نداوتها أين أنا من الإقبال بنعت الإدراك على قدم القدم وأبد الأبد وبطن العلم وإشراق شمس الألوهية، وسبحاتها تحرق الأبصار، وأسرارها تحير الأفكار أنا والفرار من ضرغام الأزل، وتبين الأبد ما للتراب، ورب الأرباب سقط الزمان والمكان والأوائل والأواخر

والظروف والأماكن والفهوم والعلوم عن بوادي أنوار أوليته وآخريته، وظهور سبحات ظاهريته، ولمعات أسرار باطنيته، فلم تبق لي اللسان حيث لا يبقى البيان والبرهان ولا العرفان ولا الإيقان الإيمان بمن والعرفان لمن والإيقان في من، وهو ممتنعٌ بغير جباريته عن درك الخواطر، وجريان الضمائر سبحانه سبحانه سبحانه.

قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾: إظهار الأزل في الآزال.

وقوله: ﴿وَٱلْآخِرُ﴾: إظهار الآباد في الآباد.

وقوله: ﴿وَٱلظَّاهِرُ﴾: عيانه بذاته في صفاته وصفاته في أفعاله؛ إذ الأفعال في الصفات والذات فانية، فبقي ظهوره في نفسه؛ إذ لا شيء دونه.

وقوله: ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾: استتار كنهه بكنهه وسره بسره، لا يدرك باطنه بعد الأوهام، ولا غوص الأفهام، سبحانه عما أومأ إليه الخليقة بكمالها! سبحانه عما أشار إليه البرية بنهايتها! من يعرف عقود علل الأشياء حتى يعرف أوليته، ومن يعرف عروق الأعصار حتى يعرف آخريته، ومن يعرف كينونية الأفعال حتى يعرف ظاهريته، ومن يعرف أسرار بطون الأرواح والنفوس حتى يعرف باطنيته، لو يعرف المخلوق حقيقة مائية وجوده بنعت إحاطة علمه عليها يعرف أصل كل أصل، وعلة كل علة، إذ لا يعرفها إلا من يوجدها إلا هو الذي نعته الأول والآخر والظاهر والباطن، لا تظن في أوليته عدَّ الأدهار، ولا تظن في آخريته حصر الأعصار، ولا تظن في ظاهريته بوادي الآيات، ولا تظن في باطنيته أسرار الخفيات، فإن هذه الصفات منفيةٌ عن كمال ألوهية الأولية في الأذهان تأخرها إلى قدم الزمان ولا زمان في الأزل والآخرية في الإفهام استباقها إلى دوام الأعصار ولا أعصار في الأبد، والظاهرية في العقول الظهور في الأماكن، ولا مكان عند ظهوره، والباطنية في الخيال طوية الخفيات، وهو منـزَّهٌ عن أن يكون محل جريان العلل؛ إذ لا علة في وجوده عبر من هذه الظلمات، فإنه تعالى منـزَّهٌ عن القياس والوسواس، أوله آخره، وآخره أوله، وظاهره باطنه، وباطنه ظاهره، فإذا خرجت يا نفس من رقومات المكونات، وصور الآيات، ورسم الأفعاليات، ونسيت العدم والوجود، وسقط عنك الرسم والاسم والوسم فنيت عنك، وبقيت بالحق يرى الله بالله، ولا تبقى عندك هذه الرسومات، ويثبت لك الخفيَّات الأولى للأرواح بسبق العنايات، والآخر للقلوب بحسن الرعايات، والظاهر بنعت الكشف للأسرار، والباطن ببيان علم المجهول، وانكشاف حقيقة حكم الربانية للعقول القدسية، أي: تفضل أعظم من هذا التفضل من الحق سبحانه للعارفين؛ إذ تجردت نعوته وأسماؤه وصفاته وذاته لهم، وهذا من كمال حبه لحبهم، وإرادته لمعرفتهم؛ لذلك أظهر كنز الربوبية والألوهية لهم بقوله: «كنتُ كنزًا مخفيًّا، فأحببتُ

أنْ أعرفَ»[1]، يا صاحبي كدت أن أنقل أحجار، فإن الكبرياء بنياني أو أغرف مياه قاموس الأزل والبقاء فما وصلتها رأيتها ممنوعة من إدراك الفهوم ووصول العلوم، ورجعت وما قلت إلا قول حبيبه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية: «لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[2].

قال الجنيد: نفى العدم عن كل أوّل بأوليته، ونفى البقاء عن كل آخر بآخريته، واضطر الخلق إلى الإقرار بربوبيته بظاهريته، وحجب الأفهام عن إدراك كنهه وكيفيته بباطنيته.

قال الواسطي: لم يدع للخلق نفسًا، بعدما أخبر عن نفسه الأول والآخر والظاهر والباطن.

وقال أيضًا: من كان حظه من اسمه الأول كان شغله بما سبق، ومن لاحظ اسمه الآخر كان مرتبطًا بما يستقبله، ومن كان حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته، ومن كان حظه من اسمه الباطن لا حظ ما جرى في السرائر من أنواره.

وقال أيضًا: حظوظ الأنبياء مع تباينها من أربعة أسامٍ، وقيام كل فريق منهم باسم منها، فمن جمعها كلها فهو أوسطهم، ومن فني عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، وهي قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

وقال أيضًا: من ألبسه الأولية فالتجلِّي له في الآخرية محالٌ؛ لأنه لا يتجلى إلا لمن فقده أو كان بعيدًا عنه فقربه.

وقال الحسين: هداهم باسمه الأول إلى الغيب المحيط، وعرَّفهم باسمه الآخر الشأن القائم الدائم، وبصَّرهم باسمه الظاهر النور العزيز المبين، وأوزعهم باسمه الباطن الحق والشهادة.

وقال أيضًا: هو الأول الذي لا تخرجه الأولية ولا الآخرية ولا الظاهرية ولا الباطنية إلى نعوت الحلول والافتراق، وكيف يسعه أو يدركه شيء من خلقه وهو المحيط بالأزل والآزال، والأبد والآباد من جميع الوجوه وإليه الغاية والمنتهى.

أزلي العلم، أزلي القدرة، أزلي الشأن، أزلي المشيئة، أزلي النور، أزلي الرحمة، البادئ لكل علم ومعلوم، وشاهد ومشهود جلَّ وتعالى.

وقال الجنيد: نفى القدم عن كل أول بأوليته، ونفى الفناء على الكل الآخر بآخريته،

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٧٣).

(٢) تقدم تخريجه.

واضطر الخلق إلى الإقرار بربوبيته بظاهريته، وحجب الأفهام عن إدراك كنهه وكيفيته بباطنيته.

قال النوري: الأولية هي الآخرية، والآخرية هي الأولية، والظاهرية هي الباطنية، والباطنية هي الظاهرية، كما أن الأزلية هي الأبدية، والأبدية هي الأزلية، ليس بينهما حاجز إلا أنه يفقدك ويشهدك، وفناء التجديد الملذة، ورؤية العبودية.

وقال الأستاذ: الأول لا بزمان، والآخر لا بأوان، والظاهر لا باقتران، والباطن لا باحتجاب.

وقيل: الأول بالتعريف، والآخر بالتكليف، والظاهر بالتشريف، والباطن بالتخفيف.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يعلم ما يلج في أرض القلوب من أنوار الغيوب، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات المعرفة وأشجار المحبة وأنهار الحكمة، يعلم ما يلج فيها من سنا تجليه، وما يخرج منها من صفاء التوحيد والتجريد والتفريد.

قال سهل: ليسلم ما يدخل أرض قلبه من الفساد والصلاح، وما يخرج منها من فنون الطاعات، فيتبين آثارها وأنوارها على الجوارح.

قال الأستاذ في قوله تعالى: ﴿مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: الذي في قلبه من إخلاصه وتوحيده حزنه، وما في قلب الجاحدة من شكه وشركه والأوصاف المذمومة، وما ينـزل من السماء على قلوب أوليائه من الألطاف والكشوفات، وفنون الأحوال العزيزة، وما يعرج فيها من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت، وحسراتهم إذا علت.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ﴾: ما ينـزل من سماء الغيب من قطرات الإلهام، وما يعرج فيها من أنوار أنفاس المشتاقين والعاشقين وللمحبين ومعاليهم العارفين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾: إن للعارفين في هذه الآية مقامين: مقام عين الجمع، ومقام إفراد القدم عن الحدوث، فمن حيث الوحدة والقدم تصاعر الأكوان في عزة الرحمن وسطوات عظمته حتى لا يبقى أثرها، فتسلط عظمته معها حتى أزالها بحيث لا

افتراق بين فعله وقهر قدرته، ومن حيث الجمع باشر نور الصفة نور الفعل، ونور الصفة قائمٌ بالذات، يتجلى بنوره لفعله من ذاته وصفته، ثم يتجلى من الفعل، فترى جميع الوجود مرآة وجوده، وهو ظاهرٌ بكل شيء للعموم بالفعل وللخصوص، بالاسم والنعت، ولخصوص الخصوص بالصفة، وللقائمين بمشاهدة ذاته بالذات، وهو تعالى منـزَّهٌ عن البينونة والحلول والافتراق والاجتماع، إنما هو ذوق العشق، ولا يعلم تأويله إلا العاشقون.

قال الحسين: ما فارق الأكوان الحق، ولا قارنها، كيف يفارقها وهو موجدها وحافظها! وكيف يقارن الحدث القدم به قوام الكل، وهو بائنٌ عن الكل!، ولا تراه يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، يا أخي هذه الآية مقتضية البشارة للعاشقين؛ حيث معهم أينما كانوا، وتوثيق للمتوكلين، وسكينة للعارفين، وبهجة للمحبين، ويقين للمراقبين، ورعاية للمقبلين، وإشارة الاتّحاد للموحدين.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ﴾: يولج ليل الاستتار في نهار التجلي، ويولج نهار كشف النقاب في ليل الحجاب، وأيضًا يولج ليل النفوس الأمارة في نهار الأرواح والعقول، ويولج نهار الأرواح والعقول في ظلمات النفوس.

قال سهل: الليل نفس الطبع، والنهار نفس الروح، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا ألفَّ بين طبعه ونفسه وروحه على إدامة الذكر له، فأظهر بذلك على صفاته أنوار الخشوع.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ﴾: فيه بيان شرف المتقدمين في الطريقة، والباذلين أنفسهم وأموالهم لرعاية الوفاء بالعبودية لحبيبهم؛ إذ بيان صدق الصادقين إجابة دعوة الحق في البداية لا يتقاعد عن طلبه بمانع نفسه وماله.

قال جعفر: الإرادة القوية والإيمان والتسليم للمهاجرين وأهل الصفة وإمامهم

وسيدهم الصدِّيق الأكبر، وهم الذين لم يرثوا الدنيا على الآخرة، بل بذلوها ولم يعرجوا عليها، واعتمدوا في ذلك ربهم، وطلبوا رضاه وموافقة الرسول ﷺ، فخصَّهم الله من بين الأمة بقوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم﴾.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: شكا الله بهذه الآية من طباع الخليقة المجهولة بالبخل، حيث سأل منهم القرض، ولو كانوا على محل التقديس لخرجوا من وجودهم له قبل سؤاله، ومع ذلك القرض الحسن ما أعطاه بنعت الخجل مما بذل فأين حسن الإيمان؟ يعرف إن العبد وما ملك لسيده، فكيف يقرضه وهو وماله له، فمن عرف نفسه بالعبودية، وعرف أن الكل له فما يعطي بعد ذلك، فهو القرض الحسن.

قال سهل: أعطى الله فضلاً، ثم سألهم قرضًا وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

قال الواسطي: القرض الحسن للعوام، وللخاص الخروج عن جميع الأملاك عن طيبة النفس والرضا كأبي بكر الصديق ﷺ.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾[1]: إن الله سبحانه ألبس العارفين نور عظمته وكبريائه، وأسبل على وجوههم سنا هيبته وضياء بهائه، وجعلهم مشكاة أنوار تجليه، تتناثر منهم أنوار هيبة الحق يمينًا وشمالاً وخلفًا وقدامًا وفوقًا وتحتًا، وهم

---

(١) نور المؤمن يسعى بين يديه، له هيبة في قلوب الموافقين والمخالفين، يعظمه الموافق ويعظم شأنه، ويهابه المخالف ويخافه، وهو النور الذي جعله الله تعالى لأوليائه، ولا يظهر ذلك النور لأحد إلا إن انقاد له وخضع، وهو من نور الإيمان. تفسير التستري (٢/ ١٢٤).

يمشون إلى الله بنور الله، فعند ذلك النور تخضع له الأكوان، ومن فيها من الموافق والمخالف، فالموافق يستبشر برؤيته فيعظِّمه، والمخالف يفزع منه فيها، وهذه الأنوار معه في الدنيا والآخرة.

قال سهل: نور المؤمن يسير بين يديه وهيبته له في قلوب الموافق والمخالف، فالموافق يعظِّمه ويعظِّم شأنه، والمخالف يهابه ويخافه، وهو من نوره الذي جعل الله لأوليائه لا يظهر ذلك النور لأحدٍ إلا اتقى له وخضع، وذلك من نور الإيمان.

وقال الأستاذ: كما أن لهم في العرصة هذا النور، فاليوم لهم في قلوبهم وبواطنهم نور يمشون في نورهم يهتدون به في جميع أحوالهم.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾:

هذا لقوم من ضعفاء المريدين الذين في نفوسهم بغايا الميل إلى الحظوظ حتى يحتاجوا إلى الخشوع عند ذكر الله، وأهل الصفوة احترقوا في الله بنيران محبة الله، لو كان هذا الخطاب للأكابر لقال: «أن تخشع قلوبهم لله»؛ لأن الخشوع لله موضع فناء العارف في المعروف، وإرادة الحق بنعت الشوق إليهم، فناؤهم في بقائه بنعت الوله والهيجان والخشوع للذكر موضع الرقة من القلب، فإذا رقَّ القلب خشع بنور ذكر الله لله، كأنه تعالى دعاهم بلطفه إلى سماع ذكره بنعت الخشوع والخضوع والمتابعة بقوله والاستلذاذ بذكره حتى لا يبقى في قلوبهم لذة فوق لذة ذكره.

قال سهل: لم يحن لهم أو أن الخشوع عند سماع الذكر، فشاهدوا الوعد والوعيد مشاهدة الغيب.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ

عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ أي: الذين شاهدوا الله بالله بنعت المعرفة والمحبة، وتابعوا رسوله بالصحبة، والمعرفة بشرفه وفضله، والانقياد بين يدي أمره ونهيه، أولئك هم الصديقون؛ لأنهم معادن الإخلاص واليقين، وتصديق الله في قوله بعد أن شاهدوه مشاهدة الصديقية التي لا اضطراب فيها من جهة معارضة النفس والشيطان، وهم شهداء الله تعالى، مقتولون بسيوف محبته، مطروحون في حجر وصلته يحيون بجماله، يشهدون على وجودهم بفنائه في الله وبفناء الكون في عظمة الله، وهم قوم يستشرفون على هموم الخلائق بنور الله، يشهدون لهم وعليهم بصدق الفراسة؛ لأنهم أمناء الله، خصَّهم الله بالصديقية والشهادة والولاية والخلافة.

وقال أبو علي الجوزجاني: الصديقون حزب الله، خواصهم أهل المعرفة، وأوساطهم العقلاء.

وقال: قلوب الأبرار معلقة بالملكوت مقبلين ومدبرين، وقلوب الصديقين معلقة بالرب مقبلين بالله ولله.

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: دعا المريدين إلى مغفرته بنعت الإسراع ودعا المشتاقين إلى جماله بنعت الاشتياق والأشواق، وقد دخل الكل في مظنة الخطاب؛ لأن الكل قد وقعوا في بحار الذنوب حين لم يعرفوه حق معرفته، ولم يعبدوه حق عبادته، دعاهم جميعًا إلى التطهير في بحر رحمته حتى صاروا متطهرين من غرورهم بأنهم عرفوه، فإذا وصلوا عرفوا أنهم لم يعرفوه، فيأخذ الله بأيديهم بعد ذلك، ويكرمهم بكشف جنان قربه وفراديس مشاهدته، ولولا رحمته وغفرانه لهلكوا جميعًا في أول بوادي سطوة غرته، لكن أغفلهم عنه فيه حتى يبقوا، ولو رفع عنهم غطاء الغفلة والجهل به في مشاهدته لهلكوا جمعيًا حسرة من فقدان الحق والحقيقة.

قال الحسين في هذه الآية: لما باشرت هذه المخاطبة العقول نهضت مستحضة للجوارح بحسن التوجه؛ لإقامة مائة يحطون عند من استجابوا لدعوته، فظنوا لإشارته، وأقاموا تحت العلم بقربه، وقرت عيونهم بما أورد على قلوبهم بالسرور بالخلوة، جلاسًا إناسًا أكياسًا لا يرهبون في الطريق إليه غيره، ولا يتوسلون إليه الأبد، ولا يسألونه شيئًا غير التمتع بخدمته،

وحسن المعرفة على موافقته.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: يا عجبًا من كان قادرًا أن يوصل العباد إليه بلا مصيبة ولا تعب فكيف يصيبهم المصيبة؟ أراد أن يعرِّفهم بامتحان القهر حقائق الربوبية، وأن يعرِّفهم غرائب الطريق إليه حتى عرفوه بجميع الصفات، وشاهدوا جميع النعوت، ولولا ذلك لما عرفوه بالحقيقة في معرفة غيره، فمن سمع هذا الخطاب ينصرف نظره من المصيبة إلى سوابق الامتحان حتى يكون برؤية السبق شاهد الحق راضيًا بقضائه، صابرًا في بلائه؛ لأنه هناك يحتمل البلاء برؤية المبلي.

قال الجنيد: من عرف الله بالربوبية، وافتقر إليه في إقامة العبودية، وشهد بسره ما كشف الله له من آثار القدرة بقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ إلا به فسمع هذا من ربه وشهد بقلبه وقع في الروح والراحة وانشرح صدره وهان عليه ما يصيبه، ثمّ زاد سبحانه في تأكيد طلب الرضا من عباده ويقينهم باختياره لهم والصبر في بلائه بقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾: طالب الله بهذه الآية أهل معرفته بالاستقامة والإنصاف بصفاته، أي: كونوا في المعرفة بألا يؤثر فيكم الفقدان والوجدان والقهر واللطف والاتصال والانفصال والفراق والوصال والكفر والإيمان والطاعة والعصيان؛ لأن من شرط الاتِّصاف ألا تجري عليه أحكام التلوين، والاضطراب في اليقين والاعوجاج في التمكين، لا تأسوا على ما فاتكم من معرفة الأزل؛ فإن الأزل للأزل لا لأنفسكم، فإذا سقط الأسف لا تفرحوا بما تجدون من الأبد؛ فإن الأبد للأبد، وأنتم معزولون من كلا الطرفين؛ فإن الحقيقة ترجع إلى العلة.

قال سهل: في هذه الآية دلالةٌ على حال الرضا في الشدة والرخاء.

وقال القاسم: ما فاتكم من أوقاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم من توبتكم وطاعتكم،

فإنك لا تدري ما قدَّر الله فيك وقضى.

وقال الواسطي: الفرح من الكرامات من الاغترارات، والتلذذ بالأفعال نوع من الإغفال والخمود تحت جريان الأمور زين لكل مأمور، قال الله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾إلخ.

وقال: العارف مستهلكٌ في كنه المعروف، فإذا حصل مقام المعرفة لا يبقى عليه فضل فرح ولا أساء، قال الله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾إلخ.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾[(١)]: وصف الله هاهنا أهل السنة وأهل البدعة، أهل السنَّة أهل الرأفة والرحمة، وأهل البدعة أهل الرهبانية المبتدعة من أنفسهم، ووصف الله قلوب المتمسكين بسنة الأنبياء بالمودة والشفقة في دينه ومتابعة رسوله، تلك المودة من مودة الله إياهم، وذلك بالرحمة من رحمة الله عليهم؛ حيث اختارهم في الأزل؛ لأنهم خلفاء الأنبياء وقادة الأمة، ووصف الله المتكلِّفين الذين ابتدعوا رهبانية من أنفسهم مثل ترك أكل اللحم والجلوس في الزوايا للأربعين عن الإتيان إلى الجمعة والجماعات؛ لأجل قبول العامة بأنهم ليسوا على الطريق المستقيم، بل هم متابعون شياطينهم الذين غرَّتهم في دنياهم بأن زيَّنوا في قلوبهم المحالات والمزخرفات، وما كتب الله عليهم الابتغاء رضوان الله، ورضوان الله هو الشريعة والطريقة الأحمدية المحمدية ﷺ، ثم وصف لهؤلاء بأن ما ابتدعوها من الرهبانية والمجاهدة والرياضة إذا كانت بغير متابعة السنة صارت متروكة.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ حيث خرجوا من طريق السنّة، وهكذا حال جهلة زماننا الذين طلبوا الرياسة بالزهد والتعلم والتذكر على رؤوس المنابر، وقولهم الزور والبهتان، وطعنهم في الأولياء، فلما فضحهم الله عند الخلق بما في صدروهم من حب الجاه والمال تركوا رهبانيتهم، ورجعوا إلى ما هم فيه، والرعاية عند العارفين محافظة الحال عن

---

(١) وذلك أنه لما كثر المشركون وهزموا المؤمنين وأذلوهم بعد عيسى ابن مريم ﷺ واعتزلوا واتخذوا الصوامع فطال عليهم ذلك ، فرجع بعضهم عن دين عيسى ، عليه السلام، وابتدعوا النصرانية، تفسير مقاتل (٣ / ٣٢٧) بتحقيقنا.

المحال، ومراقبة الأنوار بعيون الأسرار.

قال سهل: الرهبانية مشتقة من الرهبة وهو الخوف.

قال: معناه ملازمة الخوف ما تعبدنا هم به.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن خفيف في قوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾: المريد الحذر من مطالعة علمه يقعده عن إقامة الأحوال الموظَّفة، ويجرّه إلى دواعي المرخص بورود الفترة، ويحذر أن يورده الإغماض في مناولة الدنيا والمساحة في أخذها، فإن الله عليك رقيبٌ، وقد وصف الله القوم في كتابه بقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾: حقيقة الإشارة مع الشاهدين لله بنعت المحبة وحلاوة الوصلة، أيها المشاهدون اتقوني فيما وجدتم مني من لذَّة الوصال، والشغف بالجمال حتى لا يحجبكم عن السير في أنوار أزالي وآبادي، والسباحة في بحار ذاتي بسفن العجز، فمن احتجب لي عني فهو منقطعٌ عني، واقتدوا بسنَّة الأنبياء والمرسلين والمشاهدين والعارفين فيها وجد مني، واستقام في طلب المزيد، وما احتجب به عني حيث استغفر في كل يوم سبعين مرَّة من الخطاب الوقوف والسكون في المعروف، حين سلك مسالك الآزال والآباد بمراكب الاصطفائية الأزلية.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ نصيبين أي: عينين من عيون ذاتي وصفاتي، فتروني بالعين الصفاتية مشاهدة صفاتي، وبالعين الذاتية مشاهدة ذاتي، كما أتى حبيبه هذين الكفين، وهاتين العينين وبهما رآني، وبهما عرفني.

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾: يعطيكم نورًا من نوره يمشون بمركبه في ميادين الأزل والأبد بنعت المعرفة والمحبة.

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾: قصور إدراككم حقيقة وجوده.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: «غفور» بحيث هداكم إلى نفسه، «رحيم» بأنه يغيثكم من الاستهلاك والاستغراق في بحار عظمته، ويبقيكم به بعد الفناء فيه حتى تعيشوا في مشاهدة جماله أبدًا.

قال الجنيد: أي: يا أيها الموحدون اتقوا الله ألا يسلبكم حلاوة معرفته وسرور محبته، وآمنوا برسوله أي: اقتدوا به في محبته لمولاه واستسلام نفسه إليه يؤتكم كفلين من رحمته نورًا من نوره تقوون به في ذكره، ونور تقوون به على مشاهدته، ويؤيدكم بنوره الساطع في أرواح أهل محبته الذي به يقومون على استماع كلامه، والتمتُّع بمخاطبته، ويغفر لكم ذنوبكم ملاحظتكم أنفسكم.

قال سهل في قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾: هو السر والعين، فالسر سر المعرفة، والعين عين الطاعة.

وقال الأستاذ: نصيبين من فضله عصمة ونعمة، فالعصمة من البقاء عنه، والنعمة في البقاء به، ثم أن الله سبحانه بيَّن أن الوصول إلى هذه المقامات من النبوَّة والولاية لا يكون إلا بفضله وهدايته وإرادته وقدرته بقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾: أخرج فضله من الاكتساب وعلل الجهد والطلب، يؤتي هذه الكرامات من يشاء من عباده المصطفين في أزله بالعناية والكفاية، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾: ذو العطاء في الأزل إلى الأبد عظم فضله بعظمته، والفضل العظيم ما لا ينقطع عن المنعم عليه أبدًا.

سورة المجادلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾: بيَّن الله سبحانه في أول هذه السورة مقام الانبساط حيث انبسطت المجادلة مع الحبيب، ثم استحسن الله انبساطها ومجادلتها حين خلصت من الالتفات على غيره بقوله: ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا إلى غير الله ومنزل الشكوى مقام النجوى وبين النجوى والشكوى انبسطت إلى المولى، ثم زاد الكرم في إظهار فضله عليها حين سمع كلامها وأجابها بخطابه، فأين أنت من مقام الشكوى عنه عنده به له عليه، والنجوى في السر وسر السر وبث الحزن والعربدة في الانبساط حتى يسمع منك سبحانه نجواك وانبساطك، وأعطاك سؤلك ومأمولك أنه سبحانه إذا اصطفى عبدًا من عبيده لا ينظر إلى ضعفه وكسبه ونسبه وسببه وحسنه وقبحه وعمله وعلمه، وأنه رجلٌ أو امرأةٌ، بل ينظر إلى أسراره المنبسطة على بساط الربوبية بنعت الذلّ والخضوع، وينظر إلى طلبات سره وهيجان قلبه وحركات روحه، وتوجهه إليه بنعت الإقبال عليه، فيقبله بحسن إقباله، ويراعيه بكشف مشاهدته، ويصرف عنه هجوم عساكر قهر امتحانه ويومئ قلبه إلى قرب قربه ومعادن جوده، فيملأ من نور العرفان، وسنا الإيقان وضياء الإيمان، ويطيبه بطيب محبته حتى يطير بجناح لطفه في هواء هويته وبساتين مشاهدته، فيجتني من أشجار حقائقها ثمرات الزلفات والمداناة، فيقوى بها في حمل واردات التجلِّي والتدلِّي.

قال الأستاذ: لما صدقت في شكواها إلى الله، وأيست من استكشاف ضرها من غير الله أنزل الله في شأنها هذه الآية.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾: أخبر الله سبحانه عن عظيم إحاطته بالضمائر والخاطر وذرَّات الوجود من الأزل إلى الأبد بحيث لا يعزب عن عمله وإحاطته مثقال ذرة في السماوات والأرض.

قال الله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: شاهد الأشياء بعلمه الذي شاهده كينونتها في الأزل، فأوعد العباد، وحذرهم في مراقبته من اطلاعه بما كان وما يكون، وبَيَّن غفلة العباد عن ذلك؛ حيث نسوا ما فعلوا، وما حاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

قال بعضهم: من نسى جرائمه، ولم يكثر عليها بكاؤه، ولم يتأسف عليها بالندم، وطلب التوبة فقد ضيَّع عمره؛ لأن الله أحصى عليه أعماله وسيرتها إياه في المشهد الأعظم حين لا ينفع توبة تائب، ولا يسمع دعاء داعٍ، ولا يقبل معذرة معتذرٍ، قال الله: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ

وَنَسُوهُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾: المعيَّة بالعلم عمومٌ، وبالقرب خصوصٌ، والقرب بالعلم عمومٌ، وبظهور التجلِّي خصوصٌ، وذلك دنو دنا فتدلَّى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فإذا ارتفع الأين والبين والمكان والجهات، واتصلت أنوار كشوف الذات والصفات بالعارف، فذلك حقيقة المعيَّة؛ إذ هو سبحانه منـزَّهٌ عن الانفصال والاتصال بالحدث، لو ترى أهل النجوى الذين مجالستهم لله وفي الله لترى من وجوههم أنوار المعيَّة أين أنت من العلم الظاهر الذي يدل على الرسوم! ألم يعلم أن علمه أزل وبالعلم يتجلّى للمعلومات، فالصفات شاملةٌ على الأفعال، ظاهرةٌ من مشاهد المعلومات، فإذا كانت الذات لا تخلو من قرب الصفات كيف تخلو عن قرب الذات الأرواح العالية المقدسة العاشقة المستغرقة في بحر وجوده؟! لا تظن في حقي أني جاهل بأن القديم لا يكون محل الحوادث، فإنه حديث المحدثين، اعبر من هذا البحر حتى لا تجد الحدثان، ولا الإنسان في مشاهدة الرحمن.

قال الحسين: اصحب أقوامًا بأرواح طاهرة، وملاحظات دائمة، وأنوار قائمة.

قال: ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعهم علمًا وحكمًا، لا نفسًا وذاتًا.

قال النصر آبادي: من شهد معيَّة الحق معه زجره عن كل مخالفة وارتكاب كل ما لا يجب، ومن لا يشاهده معيَّة، فإنه مخطئٌ إلى الشبهات والمحارم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: تناجوا ببذل الأرواح لله، وتزكية الأشباح في طاعة الله.

قال سهل: بذكر الله، وقراءة القرآن، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ﴾: هذا شيطان يناجي النفس الأمَّارة، ويزين لها المعارضات والشك؛ ليحزن القلب والروح من نجواهما وإلقاء العدو وهواجس النفس، ويتقاعدان من شؤم معارضتهما والحزن وضيق الصدر من الطيران والسيران في عالم الملكوت، ونجواهما لا تضر بالروح والقلب؛ فإنهما محروسان برعاية الحق وتأييده[١].

قال سهل: هو إلقاء من العدو إلى نفس الطبع، كما قال النبي ﷺ: «للمَلك لمةٌ وللشيطان لمةٌ»[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ﴾ أي: وسِّعُوا بساط قلوبكم ومجالس صدوركم من ضيق الحدوثية، وتضائق النفوسية لموارد تجلي القدم بنعت ألا يبقى لغير نظر الحق شيء دون الحق، يفسح الله لكم بساط قربه، ومجالس أنسه وحجال قدسه.

قال فارس: وسِّعُوا لقبول الحق، يَمُنُّ الله عليكم بالحقيقة.

قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾: الإيمان محل المشاهدة، والمشاهدة محل العين، والعلم عين المعرفة، فصاحب عين العلم وصاحب عين المشاهدة في درجات، فإذا كان مع العلم عين فالعلم مع العين أقوى من العين بلا علم، وذلك العلم يكون بعد العين، فإذا كان قبل العين ليس بعلم حقيقي، إنما حقيقة العلم ما يستفاد من المشاهدة والعين لذلك.

قال: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾: وفيه إشارةٌ أُخرى أن لأهل العلم درجات، وليس لأهل العين درجات؛ إذ لا يبقى لهم مسلك في القدم لتلاشيهم فيه.

---

(١) النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا . وإذا كانت المشاهدةُ غالبةً، والقلوبُ حاضرةً، والتوكلُ صحيحاً؛ والنظرُ من موضعه صائباً فلا تأثير لمثل هذه الحالات، وإنما هذا للضعفاء، تفسير القشيري (٣٩٩/٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ إن الله سبحانه أدَّب أهل الإرادة بهذه الآية ألا يتناجوا شيوخهم في تفسير إلهام واستفهام علم المكاشفة والأسرار، إلا بعد بذل وجودهم لهم والإيمان بهم بشرط المحبة والإرادة، فإن الصحبة بهذه الصفة أزكى وأطهر خيرًا لقلوبهم، وأطهر لنفوسهم، فإن ضعفوا عن بعض القيام لحقوقهم ومعهم الإيمان والإرادة، وعلموا قصورهم عن أداء الحقوق بالحقيقة، فإن الله يتجاوز عن ذلك التقصير، وهو رحيمٌ بهم بأنه يبلغهم إلى درجات الأكابر قال الله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾.

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾: إذ رأى الشيطان أن ينبت في سبحة أرض النفس الأمّارة حنظل الشهوة يثبت إليها، ويغريها إلى إنقاذ مرادها، فتكون النفس مركبة، فيهجم على بلد القلب ويخربه، بأن يُدْخل فيه ظلمات الطبيعة وظلمات الشيطان، ولا يرى عن القلب مسلك الذكر وصفاته، فلمّا احتجب عن الذكر صار وطن إبليس وجنوده، غلب الملعون عليه، وهذا يكون بإرادة الله سبحانه، وسببه اشتراء غرور الملعون وتزيينه، بأنْ يلابس أمر الدين بأمر الدنيا، ويغويه من طريق العلم، فإذا لم يعرف دقائقه صار فريسة الشيطان.

قال شاه الكرماني: علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من

المأكل والملابس، ويشغل قلبه عن التفكر في آلاء الله ونعمه عليه، والقيام بشكره، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان، ويشغل قلبه عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها، ويمنعه أكل الحلال ويرزقه الحرام.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ أي: كتب على نفسه في الأزل أن ينصر أولياءه على أعدائه من شياطين الظاهر والباطن، ويعطيهم رايات نصرة الولاية، فحيث تبدو راياتهم التي هي سطوع نور هيبة الحق من وجوههم صار العدو مغلوبًا بتأييد الله ونصرته.

قال أبو بكر بن طاهر: أهل الحق لهم الغلبة أبدًا، ورايات الحق تسبق الرايات أجمع؛ لأن الله جعلهم أعلامًا في خلقه، وأوتادًا في أرضه، ومفزعًا لعباده، وعمارة لبلاده، فمن قصدهم بسوءٍ أكبَّه الله لوجهه، وأذلَّه في ظاهر عزه؛ لذلك قال جلَّ من قائل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: وصف الله المؤمنين المخلصين في إيمانهم الصادقين في محبتهم وإرادتهم قرب الله وقرب أوليائه أنهم لا يحبون غير من يُقْبِل بكلِّيته على الله، ولا يطيقون أن ينظروا إلى وجوه المخالفين لأمر الله، وإن كانوا آباءهم أو أبناءهم؛ لأنهم آثروا الله على من دونه، وذلك بأن الله غرس أشجار التوحيد والمعرفة في قلوبهم، وتجلى لأرواحهم من نفسه، فصار معنى حقيقة التجلي منفق شافي نفس أرواحهم وعقولهم بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[1]: كتب بصفاته في قلوبهم بنعت ظهورها في قلوبهم، فعرفتها القلوب

(١) وهو الصدق في الطلب وحسن الإرادة المنتجة من بذر يحبهم ويحبونه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإلا فمن خصوصية طبيعة الإنسان أن يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية وإن كانوا يصلون =

برؤيتها، فسكنوا إليها، واستلذُّوا رؤيتها، فأيدهم الله بتجلي ذاته لأرواحهم، وما أبقاهم في رؤية الصفات، بل أغرقهم في قاموس الذات، فوجدوا فيها جواهر أسرار الربوبية وحقائق أنوار الألوهية، وذلك الوجدان، بأنه نفخ من روح الأزل في أرواحهم روح المعارف، فصارت أرواحهم مؤيدةً بروحٍ منه.

قال الحسين: أقبل عليهم بنظره، ومَلَكهم بقدرته، وأحصاهم بعلمه، وأحاطهم بنوره، ودعاهم إلى معرفته .

قال الواسطي: هو الذي كتب الإيمان في قلوب المؤمنين؛ ليكون أثبت وأبقى لوقوع المناسبات.

وقال: الإيمان سواطع الأنوار، وله لمعة في القلوب، ومكين معرفته حملت السرائر في الغيوب.

وقال النصر آبادي: كتابه من الحق، ونُقش منه كتبها ونَقشها في قلوب أوليائه، ثم أطلعه عليها، فقرأه كل قارئٍ وغير قارئٍ لعناية الحق فيه مستترة.

قال سهل: الكتاب في القلب موهبة الإيمان التي وهبها لهم قبل خلقهم في الأصلاب والأرحام، ثم أبدأ سطوًا من النور في القلب، ثم كشف الغطاء عنه حتى أبصر ببركة الكتابة به، ونور الإيمان المغيبات.

وقال: حياة الروح بالتأييد، وحياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة الذكر بالذاكر، وحياة الذاكر بالمذكور، ثم وصفهم الله بأنهم أنصار الله في دينه الذي فازوا بالظفر في الله على نفوسهم وعلى كل عدوٍّ بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾: حزب الله أهل معرفته ومحبته وأهل توحيده الفائزون بنصرة الله من مهالك القربان ومصارع الامتحانات، وجدوا الله بالله، إذا ظهر واحدٌ منهم ينهزم المبطلون وينكسر المغالطون؛ لأن الله ألبس على وجوههم نور هيبته، وأعلى لهم أعلام عظمته، يفر منهم الآساد، وتخضع عندهم الشامخات، كلأهم بحسن رعايتهم، ونوَّرهم بسنا قربه، ورفع لهم أذكارهم في العالمين، وعظَّم أقدارهم، وكتم أسرارهم.

قال سهل: الحزب الشيعة، وهم الأبدال، وأرفع منهم الصديقون، إلا أن حزب الله هم الغالبون، وارثون لأسرار علومه، المستشرفون على معادن ابتدائهم إلى انتهائهم

=

ويصومون ويزعمون أنهم مسلمون؛ ولكن بالتقليد لا بالتحقيق، اللهم إلا من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه انتهى. تفسير حقي (١٤/ ٢٦٣).

هم المفلحون.

قال الحسين: حزب الله الذين إذا نطقوا بهروا، وإنْ سكنوا ظهروا، وإن غابوا حضروا، وإن ناموا سهروا، وإن كمَّلوا فكملوا، وإن نجت عنهم علل التخليط فطهروا، أولئك حزب الله إلى آخره.

قال أبو سعيد الخراز: حزب الله قوم علاهم البهاء والبهجة، فنعموا، ولم يحتملوا الأذى، وصاروا في حرزه وحماه، فغلب نورهم الأنوار أجمع، وغلب مقامهم المقامات أجمع وهمومهم الهِمَم أجمع، فكانوا في عين الجمع مع الحق أبدًا.

وقال ابن عطاء: إن لله عبادًا اتصالهم به دائمٌ، وأعينهم به قريرةٌ أبدًا لا حياة لهم إلا به؛ لاتصال قلوبهم به والنظر إليهم بصفاء اليقين، فحياتهم بحياته موصولة لا موت لهم أبدًا، ولا صبر لهم عنه لا تقدس أرواحهم، فعلَّقها عنده، فثمَّ مأواها قد غشى قلوبهم من النور ما أضاءت به، فأشرقت ونما زيادتها على الجوارح، وصاروا في حرزه وحماه أولئك حزب الله إلخ.

قال رويم: صفتهم أنهم اطمأنوا إلى الله، وهم أولياء الله وخاصته، وأمان بلاده فأعين قلوبهم ناظرة إلى ربهم، وآذان قلوبهم سامعة منه، وهم الذين اصطفاهم الله واختارهم وهداهم إلى نفسه، وسترهم عن خلْقه أولئك حزب الله إلخ.

سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: قدَّس الله كل ذوات الأرض والأشباح والأجسام والحياة، بلسان العقول، ووجدان نور الإيجاد، ومباشرة أفعاله؛ لأنه تعالى خصَّ ذوي العقول برؤية نور الصفات في الأفعال، وهيَّجهم ذلك إلى تقديسه وتنـزيهه من علل الحدثان، ذلك تعريف نفسه إياهم بظهور الصفة في الفعل، فعرفوه، ثم قدسوه، وخصَّ ما دونهم من ذوي الحياة بمباشرة نور الله، فوهبها منها أرواحًا مسبحةً، وكذلك الجمادات لها لسان الفعل يصف بها الحق، وتنـزهه الجمادات، وسرٌّ عجيبٌ لا يعرفه إلا من يفقه قول الله سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، ومن عظم قدر ذلك السر واللسان والوصف والتقديس شدَّد الأمر في إدراكها بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾: لَمّا تمكَّن الأعداء في شرِّ نفوسهم لم يحتسبوا أن الله سبحانه يقلعهم عن ذلك، ويخذلهم بنفسه، وذلك أضراب جسام قهريات في ظهور عظمته على وجودهم، فاستأصلهم من حيث لا يعرفون، كقوله: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أتاهم بكشف نعت قهر عظمته عن طريق الأزل الذي أنسه سبيله عن إدراك عقول الغفلة، ولو رأوه بلسان العظمة هان عليهم المصائب، لكن ليسوا من أهل معرفته، فقهرهم بقهر عزته، فأتاهم، ولم يروه، ولم يعرفوه، ولم يجدوا منه إلا مسَّ قهره في قلوبهم، بقوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾، فحجبهم الرعب عن مشاهدته، وذلك الرعب أورث لهم تخريب قلوبهم بمعول الضلالة والغباوة، فلما وجدوا طعم الرعب هربوا من سلطنته، كشف العظمة، وسقطوا في أودية الأهواء وظلماتها، وهذه سنَّة الله على من أدبر عنه بعد الإقبال عليه، يعذِّبهم بنفسه كما هداهم إليه بنفسه، وهذه أعظم العقوبة، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وفيه إشارة عين الجمع؛ لأن إتيان حبيبه إليهم هو إتيانه، فبذلك خوَّف العباد المعتبرين بمثل هذه المكريات القهريات، بقوله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾: يا أولي المعرفة بي والأبصار والبصيرة التي هي منوَّرةٌ بكحل نور مشاهدتي، وخافوني إن كنتم عارفون بي، وهذا كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: قلوبهم بالبدع يا أولي الفهم والعقل عن الله.

قال يحيى بن معاذ: من يعتبر بالمعاينة لم ينتفع بالموعظة، ومن اعتبر بالمعاينة استغنى عن الموعظة، قال الله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾: تفسيره بلسان الإشارة أن ما ينكشف بالبداهة من عالم الملكوت والجبروت، وأسرار الغيوب، وكشوف الصفات؛ لظهور الذات، ونزول الكلام والخطاب بالبداهة التي ليس فيها مراقبة العارفين، ولا ترصد قلوب المحبِّين، إلا مطالبة الشاهدين، ولا قصور المريدين، بل سدَّ بحار أنوار الألوهية، وأسرار الملكوتية، وغلبات سيول عيون الجبروتية، فللَّه منها نصيبٌ بأن يكتمونه، ولا يخبرون بذلك أحدًا سترًا على الأسرار، وخوفًا من غيرة الجبار، ألا ترى كيف وصف النبي ﷺ بعض الملائكة التي رآهم ليلة المعراج، فأمسك لسانه من الوصف، وقال: «إلى هاهنا أمرت»[1]، وما لرسولٍ منها أن يكون بعضًا من مقاماته لا يجوز أن يخبر عنه؛ فإنه محل ستر الله وغيرته على حبيبه ﷺ، وما للمكاشف الذي هو نائب الأنبياء، هو يتصرف بنفسه كما يشاء، فيؤثر لنفسه الخوالص والأسرار فيكتمها، وما يوافق قلوب أهل الصحبة يخبرهم منه وهم على طبقات.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ

---

(١) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: الذين شاركوا بعض مقاماته، وهم أهل القربة الأعزَّة في الصحبة.

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾: هم الذين تقطَّعوا مما دون الحق إلى الحق، فبقوا بين الفقدان والوجدان طلاب الوصول.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾: هم الذين لهم بلُغة المقامات، وليسوا متمكنين في الحالات.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: وهم الذين سافروا من الحدث إلى القدم، فيلاطف قلوبهم بما وجدوا من الله حتى تكون لهم عونًا في طيرانهم إلى الله، وسيرانهم في أنوار الله، ثمّ وصف من بينهم المساكين تأكيدًا وتشريفًا لهم ومحبته إياهم، بقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾: وصف المهاجرين بأنَّهم تركوا ما دون الله لله، وخرجوا من نفوسهم وحظوظهم بالله لله، ويُقْبِلون عليه بالكلِّية، يبتغون المعرفة بالله من الله، والوصول إليه بنعت الرضا، وذلك قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، ثمّ وصفهم بالصدق في آخر الآية بقوله: ﴿أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ أي: صادقون في محبة الله، وخدمة حبيبه ﷺ، ونصرة أوليائه، ما أطيب عيشهم في فقرهم؛ حيث افتقروا إلى الله؛ لطلب قربه ووصاله، والله سبحانه يراعيهم، ويجعلهم ملوكًا، ويخدمهم الأغنياء تشريفًا لهم وتقريبًا.

قال ابن عطاء: هم الذين تركوا كل علاقة وسبب، ولم يلتفتوا من الكون إلى شيء، وفرَّغوا أنفسهم لعبادة ربهم، واتباع رسوله ﷺ.

قال الخراز: من عطف بقلبه على شيء سوى ربه فليس بفقير؛ لأن الله يقول: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾.

وسُئل الحسين: من الفقراء؟ قال: الذين وقفوا مع الحق راضين على جريان إرادته فهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أثنى الله سبحانه على الفقراء، ووصفهم بأحسن الوصف؛ إذ كانوا صادقين في فقرهم، ثُمّ أثنى على الأغنياء به لصدقهم في غنائهم، ووصفهم بالإيمان والمعرفة بالله من قلوبهم، ولزومهم مواضع قربته، وخفض جناحهم لإخوانهم من الفقراء، ومحبّتهم مهاجرتهم إليهم وضيافتهم بقوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، ثمّ وصف أن صدورهم مقدسةٌ من الشحِّ والبخل والبغض والغش

والحسد وحب الدنيا بقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾، ووصفهم بالسخاوة بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: بيَّن في الآيتين شرف المقامين من الفقر والغنى، الذين هم مقام أمناء الله الذين لم يبق في قلوبهم من حبِّ الدنيا وما لها وجاهها ذرة، وهم الموصوفون في آخر الآية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: من صار حبيبه مقدَّسًا من حِرْص نفسه ظفر برؤية ربه.

قال سهل: حرص نفسه على شيء، هو غير الله والذكر له، فأولئك هم الباقون مع من أحيي بحياته.

سُئل أبو الحسن البوشنجي عن الفتوة؟ قال: الفتوة عندي ما وصف الله به الأنصار من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾.

قال ابن عطاء: يؤثرون به جودًا وكرمًا.

﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: يعني جوعًا وفقرًا[1].

وقال الحسين: من رأى لنفسه مِلْكًا لا يصح له الإيثار؛ لأنه يرى نفسه أحقَّ بالشيء برؤية ملكه، إنما الإيثار لمن يرى الأشياء للحق، فمن وصل إليه فهو أحقُّ به، فإذا وصل شيءٌ من ذلك إليه يرى نفسه ويده فيه يد غصب، أو يد أمانة يوصلها إلى صاحبها، ويؤديها إليه.

سُئل سهل عن شرائع الإسلام؟ فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

نِعْمَّ ما قال الشيخ: ما أتاكم الرسول من خبر الغيب ومكاشفة الرب، فخذوه باليقين، وما نهاكم عنه من النظر إلى غير الله، فانتهوا.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾: وصفَ الله المؤمنين بإسالة

---

(١) تقول العرب: فلان مخصوص إذا كان فقيراً، فيؤثرون رضا الله على هواهم، والإيثار شاهد الحب. وقد حكي عن وهيب بن الورد أنه قال: يقول الله: «وعزتي وعظمتي وجلالي، ما من عبد آثر هواي على هواه إلا قللت همومه وجمعت عليه ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر، وعزتي وجلالي، ما من عبد آثر هواه على هواي إلا كثرت همومه، وفرقت عليه ضيعته، ونزعت الغنى من قلبه، وجعلت الفقر بين عينيه، ثم لا أبالي في أي واد هلك». تفسير التستري (٢/ ١٣٦).

إياهم رداء عظمته، وتعظيمهم في عيون الكفرة والأضداد، حتى فزعوا من رؤوسهم، ولو أنهم تحققوا في معرفة الله لخافوه ولم يخافوا غيره، فلما لم يصلوا إلى معرفة الله صارت أقدار الخلق أعظم من قدر الله في قلوبهم، وذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعرفون عظمة الله وقدرته، فزعهم، وخوَّفهم بالواسطة من الله، وهم لا يفقهون أن ذلك الخوف من لباس عظمة الله عليهم، فما داموا لم يكونوا من أهل رؤية عظمته صرفًا ألجأهم الفزع منه بالواسطة.

قال الواسطي: لا يفقهون أن في ترك الدنيا مشاهدة الآخرة، وفي مشاهدة الآخرة رفض الدنيا، كما أن في مشاهدة الثانية وحضوره زوال عزة النفس، وفي مطالعة صفات الله سقوط صفات العبد، وملاحظة الحق لا يقاربها حب الدنيا، ولا عزة النفس، ولا رؤية الأفعال، ولا رؤية الصفات، فما دامت الشواهد والأعراض على سره أثر لم يفقهه، ألا ترى الله يقول: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾، والحق إذا تجلَّى لقلب عبدٍ أذهب عنه أخطار الأكوان وأهلها.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾: وصف الله قلوب المخالفين بالتشتت والتفرق في نياتهم وقصودهم وأرائهم، بأنهم لا يرشدون طرق المآب إلى الله، ولا يتوافقون بقلوبهم، وإن توافقوا بأبدانهم، وتلك التفرقة من عينهم عن رؤية محل الصواب.

قال سهل: أهل الحق مجتمعين أبدًا موافقين، وإن تفرَّقوا بالأبدان، وتباينوا بالظواهر، وأهل الباطل متفرِّقين أبدًا، وإن اجتمعوا بالأبدان، ووافقوا في الظواهر؛ لأن الله يقول: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾: حذَّر الله المؤمنين مما قبل هذه الآية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾،

من تضييع العبودية والتفريط في مباشرة الشهوات التي حجبتهم عن الله، ثم زاد التخويف في الآية الثانية، وأمرهم بألا يكونوا كالذين نسوا الله؛ حيث اشتغلوا بنفاذ شهواتهم، وطلبهم حظوظ أنفسهم من رؤية الملكوت، ونسوا طيب العيش مع الله وروح الأنس في مشاهدة الله، وسكنوا منه بحظوظ النفس، فلما وجدهم الله ساكنين عنه مشتغلين بغيره، فأنساهم أنفسهم؛ حيث لا يعرفونها، ولا يعرفون طريق رشدها ووصولها إلى معادن الأول، ولا يرشدهم طريق المآب إليه، وأي شيء أعظم شقاوة ممن احتجب بنفسه عن الله.

قال سهل: نسوا الله عند الذنوب، فأنساهم الله الاعتذار وطلب التوبة، وقد وقعت لي نكتة: بأن الإشارة في الحقيقة إلى المتّحدين والمتّصفين الذين غلب عليهم سكر الأنائية، ورأوا وجودهم في عين الجمع، فمن حدة السكر خرجوا بدعوى الأنائية، وذلك بأن رؤية الصفة فيهم غلبت على رؤية الذات، فبقوا في رؤية الصفات عن رؤية الذات، ثم وقعوا في نور الفعل، وبقوا عن رؤية الصفة، فطابت قلوبهم بالشطارة ودعوة الأنائية، وهذا مقام المكر، فلما سكنوا في هذا المقام ولم يرتقوا إلى مدارج الفردانية أنساهم الله أنفسهم الحديثة حتى لم يروها في البين، فبقوا بأنائيتهم عن رؤية الحق، ولولا إنساء الله إياهم أنفسهم لوجدوا مقام العبودية أعلى مما هم فيه؛ إذ فيه إفراد القدم عن الحدوث وحقيقة صرف التوحيد، وهو مقام النبي ﷺ، حين عبّر عن هذا المقام ولم يتعلق ذيل همته بحظ الالتباس والمحبة، ووصل إلى رؤية الأحدية، واختيار العبودية بقوله: «أنا العبد لا إله إلا الله»[1].

﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾ أصحاب النار في الحقيقة أصحاب المجاهدات الذين احترقوا بنيرانها، وأصحاب الجنة أصحاب المواصلات الذين وقعوا في روح المشاهدات، وفي الظاهر أصحاب النار أصحاب النفوس والأهواء الذين أقبلوا على الدنيا، وأصحاب الجنة أصحاب القلوب والمراقبات.

قال الحسين: «أصحاب النار»: أصحاب الرسوم بالعادات، و«أصحاب الجنة»: أصحاب الحقائق والمشاهدات.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ

(١) تقدمت الإشارة إليه.

ٱللَّهِۚ﴾ : في هذه الآية بعض العتاب مع أهل المآب، بأنهم لا يذوبون تحت موارد الخطاب الأزلي، ولا يفنون في مشاهدة الصفات، ولا يرونها عين الذات، فإن من حقه أن يكون المخاطب بعد متابعة فانيًا عن نفسه وعن الكون فيه، ولو كانت الجبال مقامة في الخطاب لتدكدكت الجبال، وتدرَّرت، وانفلقت الصخور الصم، وانهدمت الشامخات العاديات في سطوات أنواره، وهجوم سنا أقداره؛ إذ كل حرف من خطابه أعظم من العرش والكرسي والجنة والنار والأكوان والحدثان، وذلك بأنها عرفت حقيقته، وأقرت بالعجز عن حمل هذا الخطاب العظيم، حيث قال سبحانه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾، «ظلمه» قيامه بإزاء القدم، و«جهله»: قلة معرفته بحقائق العبودية والربوبية، ولا تخض يا أخي في بحر كلام المتكلمين أن الجبال ليس لها عقل، فإنَّ هناك أرواحًا وعقولاً لا يعلمها إلا الله، قال الله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى﴾، لولا هناك ما تقبل الخطاب لما خاطبها، فإن ببعض الخطاب ومباشرة الأمر تهبط من خشية الله، قال الله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، والخشية مكان العلم بالله وبخطابه، وفيه إشارةٌ أخرى في بيان شرف النبي ﷺ وأمته، بأنهم حملوا ما لم تحمله الجبال بقوتها، هم يحملونه بذوق الخطاب، وكشف النقاب، والسرور بالمآب، فإنهم حملوا بهذا الوجه عظائم كلمات، لو حملتها الجبال الشامخات لذابت في رياحها، كما قيل:

ولو أن ما بي بالحصا فلق الحصا وبالريح لم يسمع لهن هبوبُ

قال ابن عطاء: أشار إلى فضله بأوليائه، وأهل معرفته أن شيئًا من الأشياء لا يقوم بصفاته، ولا يبقى مع تجلّيه إلا من قوّاه الله على ذلك، وهو قلوب العارفين، فقاموا له به لا بغيره، وهو القائم بهم لا هم وهكذا.

قال الأستاذ: ليس هذا الخطاب على وجه العتاب معهم، بل هو على سبيل المدح وبيان تخصيصه إياه بالقوة، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾، لم يطق، ولنخشع، وهؤلاء خصّصتهم بهذه القوة حتى أطاقوا سماع خطابي.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾: هو إشارة غيب الغيب، والله ظهور الغيب الذي رجوع الوصف إلى الغيب، ولا نفى معارف وإله تلبيس ومكر تشغل المخاطب عنه بالاسم والرسم، وإلا هو بيان حق الحقيقة، وكشفها بنعت الهوية في الغيب، فأول الخطاب نكرةٌ، وآخر الخطاب نكرةٌ غيب في غيب؛ إذ لا يعرف الأزل والأبد، ثم وصف نفسه بأن غيبه مكشوفٌ لعينه يرى الغيب كما يرى الظاهر؛ إذ الغيب ظاهرٌ والظاهر غيبٌ، وهو قوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾: «الغيب»: ما في صميم السر ومكامن روح الروح ونفس النفس، و«الشهادة»: ما خرج من العدم عالم بالمعلومات الغيبية قبل وجودها، وبعد وجودها لا يزيد علمه بالغيب علمه بالعلانية، ولا علمه بالعلانية علمه بالغيب.

قال سهل: «الغيب»: السر، و«الشهادة»: العلانية، ثُمّ رجع إلى بيان الهوية التي هي مستورة عن الكل بقوله: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: أبرز الصفة بعد غيبوبتها، ونعت نفسه بالرحمة الواسعة بالمبالغة وتواثيرها الإيجاد وظهورها في الأفعال، ثُمّ رجع بعد الإظهار إلى ذكر الغيوب في الغيوب، والنكرات في النكرات بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثُمّ أبان الصفة بالفعل بقوله: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾، ثم أفرد الصفة عن الفعل، فقال: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: مقدَّسٌ عن مباشرة الحدوثية، ثم زاد وصف قدسه عن إدراك الحدث وعلل الكون بقوله: ﴿ٱلسَّلَـٰمُ﴾، ووصف نفسه بأنه ما من الخائفين بقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾، ثم وصف نفسه أيضًا بأنه الصادق في وعده المصدق أولياءه بقوله: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾، ثم زاد في وصفه بأنه العالي عن همم الخلائق الممتنع بذاته عن إدراكهم لا يقوم في كبريائه الحدثان بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾، ثم زاد في ذكر قدسه بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: عما يشيرون إليه بالنواظر والخواطر، ثم زاد وصف غيبه وكنه الكنه، وعين العين الظاهر بلباس الغيب، ثم ذكر تأثير ظهوره بإظهار الخلق بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾، ثم بيّن لذاته النعوت والأسامي القديمة المقدسة عن الإشراك والإدراك بقوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فلما ظهر بهذه الأوصاف ظهرت أنوار صفاته في الآيات، وألبس أرواح نوره الأرواح والأشباح والأعصار والأدهار والشواهد والحوادث، فسبَّحه الكل بألسنة نورية غيبية صفاتية بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ثم بيّن أنه منـزَّهٌ بتنـزيهه عن تنـزيههم وإدراكهم وعلمهم به بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: «العزيز»: عن الإدراك، «الحكيم» في إنشاء الأقدار تعالى الله عما أشار إليه الواصف الحدثاني، واللسان الإنساني.

قال ابن عطاء: ﴿ ٱلْقُدُّوسُ﴾: المنزَّه عما لا يليق به من الأضداد والأنداد.

قال بعضهم: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: الذي لا يخاف ظلمه، و ﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾: الحافظ لعباده وإن لم يحفظوا أوامره، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي عجز طلابه عن إدراكه ولو أدركوه ذلوا، و ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: الذي خير العباد على ما أراد، ويصرفهم على يريد.

قال ابن عطاء: المؤمن المصدق لمن أطاعه.

وأيضًا قال: لأنه أمن المؤمنين عن خوف ما سواه حتى لم يخافوا سواه.

وقال القسيم: ﴿ٱلْبَارِئُ﴾: الذي لا يتلون بتلون العباد، ولا ينتقل من صفة الرضا إلى صفة الغضب بتقبيل الكسوة.

وقال ابن عطاء: ﴿ ٱلْبَارِئُ﴾: مبتدع الأشياء من غير شيء، و﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾: المتمم تصويره على غاية الكمال، وقال: ﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ على سرائر العباد، فلا تخفى عليه خافية، و﴿ٱلسَّلَـٰمُ﴾: هو الذي سلم من النقص والآفات[1].

سورة الممتحنة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا تحبُّوا أنفسكم الأمّارة، فإنها عدوي وعدوكم مبغض عبادتي ومبغضكم، إذا لم تكونوا مطيقين لها في أنفاد

(١) قال بعض المشايخ هذا الاسم من أسمائه التى علت بعلو معناها عن مجارى الاشتقاق، فلا يعلم تأويله إلا الله تعالى، وقال بعضهم: هو المبالغ في الحفظ والصيانة عن المضار من قولهم هيمن الطائر إذا نشر جناحه على فرخه حماية له وفى الإرشاد الرقيب الحافظ لكل شيء وقال المزروقي: هو لغة الشاهد، تفسير حقي (١٥/ ٢٤٧).

شهواتها، وأنها تعارضكم في مكاشفاتكم وأحوالكم، ألا ترى كيف قال الله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾، وأصل عداوة النفس أن تفطمها من مألوفاتها، وتلزمها في حبس المراقبة والرعاية، وعلامة حب الله بغض عدو الله.

قال عليه الصلاة والسلام: «أفضلُ الإيمان الحبُّ في الله والبغضُ في الله»[1].

قال أبو حفص: من أحب نفسه فقد اتخذ عدو الله عدوه وليًّا؛ فإن النفس تخالف ما أمرت به وتعرض عن سبيل الرشد، ويَهلك بحبها ومتبعها في أول قدم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ أي: ما أضمرتم في صميم قلوبكم من الميل إلى الهوى، وما أعلنتم من الميل إلى الحق، وفي الحقيقة ما أخفيتم من دعوى الأنائية، وما أعلنتم من العبودية، وهذا الخطاب لصاحب نفسٍ، وصاحب قلبٍ.

قال أبو الحسين الوراق: بما أخفيتم في باطنكم من المعصية، وما أعلنتم في ظاهركم للخلق من طاعة.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾: أسوة إبراهيم خلة الله والتبرؤ مما دون الله، والتخلُّق بخلق الله، والتأوُّه والبكاء من شوق الله.

قال ابن عطاء: الأسوة القدوة بالخليل في الظاهر من الأخلاق الشريفة، وهي السخاوة، وحسن الخلق، واتباع ما أمر به على الطرب، وفي الباطن الإخلاص لله في جميع الأفعال، والإقبال عليه في كل الأوقات، وطرح الكل في ذات الله.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: أسوة رسول الله ﷺ محبة الله، ومراقبة الله وترك ما دون الله، واحتمال واردات الغيب بالله، والصبر في الله وبالله ولله ومع

---

(١) رواه الخطيب في التاريخ (١١/ ٣٥٤).

الله، والتمكين في رؤية الله، ولزوم العبودية بعد الاتصاف بصفة الله، فإنه محل التمكين.

قال ابن عطاء: «أسوةٌ» في الظاهر والعبادات دون البواطن والأسرار؛ لأن أسراره لا تطيق أحدًا من الخلق؛ لأنه بائن الأمة بالمكان وقع الصفة عليه؛ لذلك قال النبي ﷺ لأنس بن مالك: «احفظْ سرِّي»[1].

﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ﴾: هذه إشارةٌ إلى الرفق في مجاهدة النفس، ربما تطمئن وتعين الروح والعقل والقلب في معرفة الله وطاعته.

قال ابن عطاء: لا تبغضوا عبادي كل البغض، فإني قادرٌ على أن أنقلكم من البغض إلى المحبة، كنقلي من الحياة إلى الممات، ومن الموت إلى النشور.

قال ﷺ: «أحببْ حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»[2].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، أي: لا تأخذوا هواجس النفس

---

(١) رواه ابن حبان في المجروحين (٢/ ٢٢٣).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٣٦٠)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٤٤٧)، والصحيح وقفه على عليّ ﷺ.

والشيطان من جهة موافقتهما ومتابعتهما.

قال سهل: لا توافقوا أهل البدع على شيءٍ من آرائهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾: «المعروف»: كل طاعةٍ ونول إلى المعارف والكواشف.

قال ابن عطاء: لا يخالفنك في شيءٍ من الطاعات.

سورة الصف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: لما عاينوا آيات الله طلبوا فيها مشاهدة الله، مما وجدوا في أنفسهم تأثير مباشرة نور قدرة الله، فلما وجدوا أنوار تنزيهه، فقدَّسوه بما وجدوه أنه بائنٌ بوجوده من الحدثين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾: حذَّر الله المريدين أن يظهروا بالدعوى مقامات لم يبلغوا إليها، لئلا يقعوا في مقت الله، وينقطعوا عن طريق الحق بالدعوى الباطلة، وأيضًا زجر الأكابر في ترك بعض الحقوق، ومن لم يؤت الحقوق لم يصل إلى الحق والحقيقة.

قال أبو العباس بن عطاء: من شهد من نفسه نفسًا في الطاعات كان إلى العصيان أقرب؛ لأن النسيان من العمى عن بر المنان، وأما زجره لأهل الحق والمشاهدة من طريق

الإشارات بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾: هذا زجرٌ وتهديدٌ لأهل التحقيق والمشاهدة؛ إذ ليس للعبد فعلٌ ولا تدبيرٌ؛ لأنه أسيرٌ في قبضة العزة يجري عليه أحكام القدرة وتصاريف المشيئة، فمن قال: فصلت أو أنبت أو شهدت فقد نسى مولاه وأعرض عن بره، وادَّعى ما ليس له.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾: وصف قومًا لهم استعداد الطاعة والمعرفة، وأراهم سبيل الرشد، وخلق في نفوسهم حظوظ الهوى، فتركوا الحق، واتبعوا هواهم، فطمس الله أعين قلوبهم عن مشاهدة الغيب، وهذه فتنةٌ أهلكت أكثر القاصدين في أوائل قصدهم.

قال جعفر: لما تركوا أوامر الخدمة نزع من قلوبهم نور الإيمان، وجعل الشيطان إليهم طريقًا، فأزاغهم عن طريق الحق، وأدخلهم في مسالك الباطل.

وقال الواسطي: لما زاغوا عن القربة في العلم أزاغ الله قلوبهم في الخلقة.

قال الأستاذ: لما زاغوا عن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ﴾: بشَّرهم برؤية أحمد ﷺ وقدومه؛ لأن في وجهه شروق أنوار الأزل، وبقدومه ظهرت سواطع نور الأبد، كان أحمد في علم ما كان بحمد الله سماه أحمد، بعد أن جعله محمودًا بحمده، ومصباحًا منورًا بنوره، حمده محمودًا بلسان الحق وثنائه، وذلك اصطفائية خاصة أزلية، منتهاها المقام المحمود، وذلك المقام

دنو الدنو، والاتصاف بالحق، والنظر إلى وجهه بحد الاستقامة بلا تغيير ولا تبديل، وهناك مقام الشفاعة الخاصة الشاملة تشمل الكل بلا سبب ولا علة، وهو خاصٌّ له دون غيره من العرش إلى الثرى؛ لذلك بشَّر عيسى عليه السلام قومه بقدومه المبارك.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ : قال أحمد الحامدين له حمدٌ، وأحمد المطيعين له طاعةٌ، وأحمد العارفين به معرفةٌ، وأحمد المشتاقين إليه شوقًا على نسق قوله: ﴿أَحۡمَدُ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ : كيف يطيق الحدث أن يطفئ نور الأزل والقدم، وهو منـزَّهٌ عن أن يغيره أهل الحدثان إذا شهر نوره على أحد من أهل نوره، يزيد نوره على نوره عليه، حتى لا يبقي ذرة من العرش إلى الثرى إلا وهي مملوءة من نوره، فلذلك النور يقهر الجبارين والقهارين، ويقرِّبه عيون العارفين والموحدين.

قال بعضهم: جحدوا ما ظهر لهم من صحة نبوة النبي ﷺ، فأنكروه بألسنتهم، وأعرضوا عنه بنفوسهم، فقيَّض الله لقبوله أنفسًا أوجدها على حكم السعادة قلوبًا زيَّنها بأنوار المعرفة، وأسرارًا نوَّرها بالتصديق، فبذلوا له المهج والأموال، كالصدِّيق، والفاروق، وأجلَّة الصحابة رضي الله عنهم.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ : المساكن الطيبة مواضع كشف مشاهدة الجمال، وقلوب العارفين مساكن الأرواح العاشقة، طابت وتطيَّبت بتجلِّي الحق سبحانه.

قال سهل: «أطيب المساكن»: ما أزال عنهم جميع الأحزان، وأقرَّ أعينهم بمجاورة رب العالمين.

وقال بعضهم: «طيبة»: بلقاء الله عز وجل.

قال الأستاذ: تطيب تلك المساكن برؤية الحق سبحانه.

﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ .

---

(١) لما أراد الله سبحانه أن يظهر لعرائس مملكته، ولخاصة أوليائه من قدسية نور سره الأول، وإنسان عينهم الكامل المكمَّل، وهو النبي المصطفى الطاهر الأمجد، سماه في أهل السموات باسمه (أحمد)، إظهارًا لمنـزلته عند ربه، وعلو رفعته عند خالقه فكأنه يقول لأهل حضرته: لئن ظفرتم بالغُنم في تنـزيهي وتقديسي وذكري، فلقد زاد على حمدكم حبيبي أحمد الذي بالغ في حمدي وشكري، وفوض أمره لأمري، فهو أفضل من خلقت ومننت عليه بجميع محامدي، وأعظم من رزقته وصيرته إكسير محامدي.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾: «نصر الله»: تأييده الأزلي الذي سبق منه للعارفين والموحدين، و«الفتح القريب»: كشف لقائه، وانفتاح أبواب وصاله، بنصره ظفروا على نفوسهم، فقهروها بخدمته، وبفتحه أبواب الغيب شاهدوا كل مغيب مستورًا من أحكام الربوبية، وأنوار الألوهية.

قال جعفر: بشارةٌ إلى رؤيته في مقعدٍ عند مليك مقتدر.

وقال ابن عطاء: النصر، والتوحيد، والإيمان، والمعرفة، والفتح القريب، والنظر إلى السبل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾: أهل الإيمان القلب، والعدو هو النفس، ظفر القلب عليها بتأييد كشوف أنوار سلطان مشاهدة الحق، فصار غالبًا عليها في صباح كشفه، وطلوع أنوار قربه، فزالت ظلمها وبقي نوره؛ لأنه تعالى متمم نوره ومؤيِّده.

سورة الجمعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: تسبيحها عجزها عن حمل وارد قهره؛ حيث تسخرت لأمر القدم بوجودها، وهي كلها ألسنة أفعاله بقدسه عن محل التهمة؛ لذلك وصف نفسه بقوله: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾.

قال الأستاذ: تُسبِّح في بحار توحيد الحق أسرار أهل التحقيق بحرهم بلا شاطئ، فبعدما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح، فحازت أيديهم جواهر التفريد، فوضعوها في تاج العرفان، ولبسوه يوم اللقاء.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾: فضله معرفته ومحبته والاستقامة فيهما بنعت العبودية في مشاهدة الربوبية، يؤت هذا الفضل من يشاء من عباده المصطفين في الأزل.

قال الجوزجاني: ذلك «الفضل»: هو الأُنس بالله، إذا وجدوا نعمة الإنس نسوا كل نعمة دونه، إذا وجدوا نعمةً فوق كل نعمةٍ، بأن ربَّهم نعَّمهم في معرفته، وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وقال الحسين: جاد الجواد بجوده لغير علة، وتفضل بالفضل، وأتمها بالمنن، وغشاها بالنعم؛ إذ يقول: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، فقطع بالمشيئة ولحق الأسباب، فكان الكرم منه صرفًا لا يمازجه العلل ولا يكتسبها الحبل، جاد به في الدهور قبل إظهار الأمور.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حزب الله المدَّعين في محبته بالموت، وأفرز الصادقين من بينهم لما غلب عليهم من شوق الله وحب الموت، فتبين صدق الصادقين هاهنا من كذب الكاذبين؛ إذ الصادق يختار اللحوق إليه، والكاذب يفرُّ منه.

قال ﷺ: «مَنْ أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه، ومَنْ أبغضَ لقاءَ الله أبغضَ الله لقاءه»(١).

وقال الجنيد: المحب يكون مشتاقًا إلى مولاه، ووفاته أحب إليه من البقاء؛ إذ علم أن فيه الرجوع إلى مولاه، فهو متمني الموت أبدًا، وذلك قوله: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: لما جرى حديث البيع والتجارة دعاهم إلى ذكره بنعت السرعة والاستباق، وإلا دعا الكل في الأزل إلى نفسه، فإن الذكر عند المذكور حجاب، والسعي إلى الذكر مقام المريدين، والمحقق في المعرفة غلب عليه ذكر الله إياه بنعت تجلي نفسه لقلبه.

قال النصر آبادي: العوام في قضاء الحوائج في الجمعات، والخواص في السعي إلى ذكره لاستغنائهم بالغنى لم يبق لهم حاجة لعلمهم بالمقادير قد جرت، فلا زيادة فيها ولا نقصان، لكنهم يسعون إلى ذكره سعيَ مشتاق إلى مذكوره، يطلب منه محل قربة إليه والدنو منه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾: إذا فرغتم من مشقة العبودية فانتشروا في الأرض إلى طلب أوليائي، وجالسوهم؛ لتستفيدوا من لقائهم وكلامهم، الفوائد الغيبية، والأنباء الملكوتية، واجلسوا في مجلس السماع والقول، فهناك فضل الله من الخطاب، وكشف النقاب.

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، أي: إذا فرغتم من جميع ذلك غيبوا بأرواحكم وقلوبكم وعقولكم في بحار الأولية والآخرية، واذكروه به لا بكم، واتركوا الذكر هناك بعد رؤية المذكور.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾: أخبر الله سبحانه أنهم في أوائل إرادتهم إذا لم يبلغوا إلى حد الاستقامة في الصحبة، شغلتهم حوائج النفوس عن صحبة النبيّ ﷺ، فعاتبهم الله بذلك، وأمره بأن يخبرهم أن ما عند الله من مشاهدته ولقائه ولذّة خطابه ومناجاته خيرٌ من جميع الحظوظ بقوله: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ﴾، وفيه تأديب المريدين حين اشتغلوا عن صحبة المشايخ بخلواتهم وعباداتهم لطلب الكرامات، ولم يعلموا أن ما يجدون في خلواتهم بالإضافة إلى ما يجدون في صحبة مشايخهم.

قال سهل: من شغله عن ربه شيءٌ من الدنيا والآخرة فقد أخبر عن خسَّة طبعه ورذالة

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٥).

همته؛ لأن الله فتح له الطريق إليه، وأذن له في مناجاته، فاشتغل بما يفنى عمن لم يزل ولا يزال.

وقال أيضًا: ما ادَّخر لكم في الآخرة خيرٌ مما أعطاكم في الدنيا.

قال الأستاذ: ما عند الله للعُبَّاد والزُّهَّاد خيرٌ مما نالوه من الدنيا نقدًا، وما عند الله للعارفين نقدًا من واردات القلوب وبواده الحقيقة خيرٌ مما يؤمل في المستأنف في الدنيا والعقبى.

سورة المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)﴾.

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ﴾: من كان صادقًا تشهد بصدقه كل ذرة من العرش إلى الثرى، ومن كان مدّعيًا كاذبًا تشهد بكذبه كل ذرة من العرش إلى الثرى، وذلك شهادة الله بلسان آياته، يكذِّبه الزمان والمكان، ويفتضح عند كل صادقٍ بما يبدو من وجهه من آثار نفاقه.

قال سهل: أقرُّوا بلسانهم، ولم يعرفوا بقلوبهم؛ فلذلك سمّاهم الله منافقين، ومن عرف بقلبه وأقرَّ بلسانه ولم يعمل بأركانه ما فرض الله من غير عذر ولا جهل كان كإبليس.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن

يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾: وصف الله المنافقين بالبخل والحرص والحسد على أمر الدين من قلة معرفتهم بجاههم عند الله، وحسن عواقبهم عنده، وسبق عناية الله فيهم، وخذلان أهل النفاق، وفي كل موضع فيه نفاق، فالبخل والحسد لازمته.

قال الواسطي: مَن طالعَ الأسباب في الدنيا والأعواض في الآخرة لم يفقه قلبه وبقي في حجاب نفسه ومراده، ألا ترى المنافقين كيف احتالوا بالبخل عليهم بالدنيا، ولم يعلموا أن ذلك لا يحجبهم عن التوفيق، وكيف حكى الحق بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾، ثم بيّن الله أن له خزائن السماوات والأرض يفتحها لأوليائه، فيعطيهم من فضله، ولا يحتاجون إلى من سواه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: «خزائن السماوات»: قدرته وجبروته، و«خزائن الأرض»: ملكه وسلطانه، له في السماوات خزائن قلوب المقربين، وفي الأرض خزائن قلوب العارفين.

قال الجنيد: «خزائنه في السماوات»: الغيوب، و«خزائنه في الأرض»: القلوب، فما انفصل من الغيوب وقع على القلوب، وما انفصل من القلوب صار إلى الغيوب، والعبد مرتهنٌ بشيئين: تقصير الخدمة، وارتكاب الزلّة.

قال رجلٌ لحاتم الأصمّ: من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾: بَيّن الله سبحانه مقام عين الجمع، وهو ظهور أنوار عزته للأنبياء والمرسلين والعارفين والصادقين، وباشر نور عزّته قلوبهم، فصاروا متصفين به، متعززين بعزته، فعزة الله معدن عزتهم، وهم مكتسون بكسوة عزه، فإذا ظهر ذلك النور منهم يتدلل لهم الحدثان والزمان والمكان والإنس والجان والأسد والثعبان والمياه والنيران والأمير والسلطان، «فعزة الله»: جبروته، و«عزة الرسول»: برهان نبوته، و«عزة

(١) كل ما عند العبد من مال فهو خزانة الحق عنده والعبد خازنه فمهما تعدى خزانة مولاه بغير إجازة استحق السياسة بقطع آلة التعدي إلى خيانة خزانته وهي اليد المتعدية.

المؤمنين»: نور معرفتهم وولايتهم.

قال الواسطي: «عزة الله»: ألا تكون سبيلًا إلا بمشيته وإرادته، و«عزة المرسلين»: أنهم آمنون من زوال الإيمان، و«عزة المؤمنين»: أنهم آمنون عن دوام العقوبة.

وقابل ابن عطاء: «عزة الله»: العظمة والقدرة، و«عزة الرسول»: النبوّة والشفاعة، و«عزة المؤمنين»: التواضع والسخاء.

قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: بيان أن من لم يبلغ درجة التمكين في المعرفة، لا يجوز له الدخول في الدنيا من الأهل والمال، فإنها شواغل قلوب الذاكرين عن ذكر الله، ومَن كان مستقيمًا في المعرفة وقرب المذكور فذكره قائمٌ بذكر الله إياه، وذلك حظُّه بأن جعله محفوظًا من الخطرات المذمومة، والشاغلات المحجبة، والضعفاء لا يخرجون من بحر هموم الدنيا، فإذا باشرت قلوبهم الحظوظ والشهوات لا يكون ذكرهم صافيًا عن كدوريات الخطرات.

قال سهل: لا تشغلكم أموالكم وأولادكم عن أداء الفرائض في أول مواقيتها؛ فإن من شَغَله عن ذكر الله وخدمته عرض من عروض الدنيا فهو من الخاسرين.

سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: انظر كم قال سبحانه هذه الآية على مبادئ السور، وهذا عتابٌ مع المقصرين عن خدمته، أي: يسبحني وجودك بغير اختيارك، وأنت غافلٌ من تسبيح وجودك له، وذلك أن وجودك قائم في كل لمحة بوجوده، يحتاج إلى الكينونية بتكوينه إياه أين قلبك ولسانك إذا اشتغلا بذكر غيرنا، وفي الحقيقة لم يتحرك الوجود إلا بأمره ومشيئته، وتلك الحركة أجابت داعي القدم في جميع مراده، وذلك محض التقديس، ولكن لا يعرفه إلا العارف بالوحدانية، ومن كان محجوبًا عن رؤية الحق فهو جاهلٌ به؛ لذلك قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، فمن وقع نور التجلي في الأزل له وتكون روحه بذلك النور ورأى الحق بنور الحق فهو صادقٌ مصدقٌ في قبول ما صدر من الغيب؛ لأنه أهله، ومن كان روحه محجوبًا عن مشاهدة الوصلة يكون منكرًا على ما يبدو له من آيات الله وكراماته وبرهانه وسلطانه.

قال القاسم: خاطبهم مخاطبة قبل كونهم، فسمّاهم كافرين ومؤمنين في أزله، فأظهرهم حين أظهرهم على ما سماهم وقدر عليهم، وأخبرته علم ما يعملون من خير وشر.

قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾: بيّن الله سبحانه في هذا الآية سر مقام التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث، وسر مقام عين الجمع، إذا قال: ﴿صُوَرَكُمْ﴾ أفرد الوحدة ونعتها بالقدم وأفرد آنيتها عن العلل؛ إذ العلل بتعليله تكوّنت، وإذا قال: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لا يكون حسن الصورة إلا بتجلي حسن فعله ونعته واسمه ونوره وغيبه وصفته وذاته، فألبسها نعوت الصفاتية وأنوار الذاتية، فتصورت على رؤية القدم بنعت ما في القدم من علم الغيب وغيب الغيب؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «خلقَ الله آدم على صورته»(١).

قال الحسين: أحسن الصورة صورة أعتقت من ذل كن وتولى الحق تصويرها بيده ونفخ فيه من روحه، وألبسه شواهد النعت وجلاه بالتعليم شفاهًا، وأسجد له الملائكة المقرَّبين، وأسكن في المجاورة وزيَّن باطنه بالمعرفة، وظاهره بفنون الخدمة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾: الغبن كل الغبن ألا يعرف مكان خطابه والطاقة التي ظهرت له في الدنيا والآخرة بلباس القهريات ومكان

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٠١٧).

الامتحان، وربما زاده الحق في أوحش مقام وهو مشغول الرسم، ولم يعرف شرف حاله، فكان مشغولاً عنه برسم الاعتذار والعبودية، فيا رُبَّ صفاء في الكدورة، ويا رُبَّ مكاشفة في المعصية، اكتم يا أخي غيب الحق بستر غيره حتى لا يكون السر ظاهرًا لأهل الرسوم، فيسقطون من إيمانهم، يقع الغبن يوم التغابن لمن كان مشغولاً بالجزاء والعطاء ورؤية الأعواض ورؤية المعصية والطاعة، ومن كان شاهد الحق خرج من وصف الغبن؛ إذ الغبن من أوصاف من كان غائبًا عن مشاهدته، فإذا استغرق في بحار جماله وجلاله لا يبقى عليه فرح الغبن، ولا حزن الفوت، إذ الكل غابن له، وسقط عند ذكر ما مضى وما يستقبل، ولي لسان آخر في التوحيد أن الكل يقع في الغبن، إذا عاينوا الحق بوصفه وهم وجدوه أعظم وأجل مما وجدوا منه في مكاشفتهم في الدنيا، فيكونون مبهوتين متحيرين مغبونين؛ حيث لم يعرفوه حق معرفته، ولم يعبدوه حق عبادته، ولا يعرفون أبدًا حقيقة المعرفة، وأي غبن أعظم من هذا؛ إذ يرونه ولا يصلون إلى وجوده بالحقيقة.

قال ابن عطاء: «تغابن» أهل الحق على مقادير الضياء عند الرؤية والتجلي، و«التغابن» في رؤية القلب الأعظم وأجل من رؤية الغبن؛ لأن رؤية الغبن تذهل عن التأمل وهو مقصرٌ عما أطلق لغيره عندها يظهر لكل أحدٍ، ومَن ظهر له الحق بحقه أخرسه من جميع نطقه من منازلته أو منازعته.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾: بَيّن الله سبحانه وصف الفطرة السليمة التي فطرها على قبول ما جاء من الغيب من الأمور العالية المبغلة قلوب العارفين إلى معادنها، أي: من كان له قلب سليم يقبل قول الحق ويتبع الحق بالحق، يُعرِّفه الحق طريق الحقيقة،

ويرشده إلى نفسه حتى يراه به بلا واسطة.

قال أبو عثمان: من صحَّح إيمانه بالله يهدِ قلبه لاتِّباع سنة نبيه ﷺ، وعلامة صحة الإيمان المداومة على السنن، وملازمة الاتِّباع، وترك الآراء، والأهواء المضلة.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾: خفَّفَ الله أثقال التقوى على قلوب المتقين، وسهَّل برجاء أنوارها على قلوب العارفين حين استغرقوا في بحار جلاله ولم يدركوا حقيقة كماله، وكيف يصل الحدث إلى حقيقة القدم، والكون نزول في أول سطوة من سطوات ظهور عظمته، خاطب الكل في أوائل أحوالهم بحقيقة التقوى منه؛ لظهور تذللهم وفنائهم في عزته، وتعليمه إياهم إنها حق الحق، وحقوق الحق في المعرفة لا تَسْقط بضعف الضعفاء؛ فإن حقه باقٍ، ثم بيّن عجزهم عن البلوغ إلى منتهاه، وسهَّل الأمر عليهم، ورحمهم بضعفهم عن حمل وارد الحقيَّة.

قال ابن عطاء: هذا لمن رضي عن الله بالثواب، فأما من لم يرضَ منه الآية فإن خطابه ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

قال السري: المتَّقي من لا يكون رزقه من كَسْبه.

قوله تعالى: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾: «القرض الحسن»: يكون لمن يرى المُلك، والمُلك إلا لله، ويشاهدَ الحق بالحق في قصده، وإقباله على الحق.

قال سهل: «القرض الحسن»: المشاهدة بقلوبكم لله في أعمالكم كما قال ﷺ: «أنْ تعبدَ الله كأنَّك تراه»[1].

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨﴾: عالم غيب هموم صميم قلوب العارفين من أجله، وما يجري عليهم من آثارها، ببذل المهج على علانيتهم، وهو العزيز بأنه أعزهم في الأزل بعزته، الحكيم حيث حكم بالعبودية، وإظهار أنوار الربوبية.

سورة الطلاق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٧).

حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: خصَّ حبيبه بالخطاب، وجمع الكل في مضمونه؛ لأن السيد إذا خاطب خاطب الكل، فبان شرفه على الجمهور؛ إذ جمع الجمع في اسمه، وفيه إشارة الاتحاد، ومراد الحق سبحانه في تأديب العباد بتطليق نسائهم في زمان الطهر أداء وفاء الصحبة، ومراعاة ما مضى من زماني الوصلة والاهتمام بالفرقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾: إن الله حدَّ الحدود بأوامره ونواهيه؛ لنجاة سُلاكها، فإذا تجاوز عن حدوده يسقطون عن طريق الحق، ويضلون في ظلمات البعد، وهذا أعظم الظلم على النفوس؛ إذ منعوها من وصولها إلى الدرجات والقربات.

قال إسماعيل بن نجيد: التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالأمر.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾ تفسيره بلسان الإشارة أن العارف الصادق الشاهد جلال الحق تبقى منه بألا يصل إليه؛ لأن نعوته الأزلية ممتنعةٌ من مطالعة الخليقة، فيتقيه من فقدانه، فهو تعالى إذا رآه في يأسٍ من الوصول إلى القدم ألبسه نعوته، وأوصله إليه به، وذلك ما جعل له مخرجًا مما فيه من خوف الفقدان، ويرزقه ذوْق الدنو من حيث لا يحتسب إنه يستحق؛ لذلك فهو تعالى محمود الكرم لا يُخيِّب رجاء القاصدين إليه، ثم بَيَّن أن من ألقى زمام الإرادة لإرادته في طلبه ويطرح من بين يديه ويعتمد بقوله عليه فهو تعالى يكفي له مأموله منه، ويرضيه بنفسه من نفسه بحيث يستكمل العبد مراده منه، وذلك قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ومن أدقّ الإشارة أن الله سبحانه يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾، ولم يقل «ومن يتق من عذابه»، أو «يتق من شيء دون نفسه»، فخصَّ التقوى أن يكون من نفسه خاصة، وذلك إذا كان يتجلى بجلاله

وهيبته وعظمته وكبريائه من الألوهية القدسية، والأبدية الباقية لقلب عارفٍ من عرفانه، ويستولى على قلبه سطوات عظمته، يتقي العارف من صدمات القدوسية، وطوارقات العزة ضعفاً وخوفًا من ألا يحترق فيها فيقرُّ منه؛ لأنه علم أن الحادث يتلاشى في القدم، ولا يطيق أن يستقيم بإزاء الوحدانية، وتطلب الفرار منه مع ما في قلبه من محبة جماله، والشوق إلى لقائه، فإذا رأى الحق سبحانه ذلك منه يتجلى لقلبه من عين الجمال جمالاً، فيجر قلبه بحسنه وجماله إليه، ويعصمه من نفسه بنفسه، وذلك هو المخرَج الذي قال: ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾، يخرج من رؤية العظمة إلى رؤية الجمال، ويستقيم لرؤية الجلال، فيحتمل الحق بالحق، ثم همته همة العجز عن البلوغ إلى دنوه، يتبيَّن في نفسه من نفسه أنوار النعوت الأزلية، فتتَّصف صفاته بصفاته، فلا يرى هناك إلا عينًا واحدة، وذلك قوله: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾، هو أن يكون منعوتًا بنعت الحق في رؤية الحق، لكن يرزقه من حيث لا يحتسب أنه يصل إليه بنعت البقاء يبقى ببقاء، ويخرج من فنائه، فبان بعد ذلك في سر سره نورٌ وعرفانٌ خاصٌّ يبينِّه بأنه مخدوعٌ بما وجد، محجوبٌ منه به، فيسقط عنه قيمته، وأيس أيضًا من الوصول إلى الكل، فيعرِّفه الحق نعتًا من نعوته، ويعلمه أنه لا يصل إلى الكنه، فيرضيه بنعتٍ من جميع النعوت، وباسم من جميع الأسماء، وبصفة من جميع صفاته، ويكشف من ذاته من جميع صفاته حتى لا يبقى له طلبٌ ولا قصدٌ، بل يسكن بالحق من الحق في الحق، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[1]، أي: من يتوكل عليه حين يبقى من الفناء فيه فهو حسبه، بأنْ يُبقيه ببقائه، فيَبقى الحق له، وإن هو فني فيه فبقاء الحق له من بقائه، وعلى لسان المعاملة يبقى الله بأن يشغله شيء من دونه عنه من الأسباب، والنظر إلى غيره من الرسومات، يجعل الله له مخرجًا مما يخاف منه، ويرزقه الرضا من نفسه، ويرزقه رزق المقدر في الأزل من حيث لا مشقَّة عليه في وصوله إليه، ويأكل ويلبس بغير انتظار ولا استشراف نفس ولا تعب، فيخرج له من الغيب بالبديهة ما يكفيه من السؤال والكسب، من عَرف الله عرَّفه الله بكمال قدرته وإحاطة علمه بكل ذرة، فيلقي زمام الاختيار إليه، فهو تعالى يكفي له كل مؤنةٍ في الدنيا والآخرة وهو ساكنٌ راضٍ، وهذا معنى قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ إلخ.

قال سهل في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾، أي: يتبرأ من الحول والقوة

---

(١) هذه الآية الشريفة جامعة لأنواع التوكُّل، وأصناف الحاجات؛ فإن اسم الله تعالى جامع لمراتب الأسماء التي لا يتجاوزها حاجات الناس مع اختلاف مراتبهم، وتفاوت طبقاتهم، فمن ذكر كان أو أنثى، عبدًا كان أو سيدًا يتوكَّل على الله الرزَّاق في أمر الرزق؛ فهو حسبه فيه.

والأسباب كلها دونه والرجوع إليه، «يجعل له مخرجًا» مما كلفه بالمعونة عليه، والعصمة من الطوارق فيها.

وقال سهل: لا يصح التوكل إلا للمتقين، ولا تتم التقوى إلا بالتوكّل؛ لذلك قَرَنَ الله بينهما، فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

وقال بعضهم: من يحقق في التقوى هون الله على قلبه الإعراض عن الدنيا، ويسَّر له أمره في الإقبال عليه، والتزُّين بخدمته، وجعله إمامًا لخلقه، يقتدي به أهل الإرادة، فيحملهم على أوضح السنن وأصح المناهج، وهو الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الله تعالى، وذلك منـزلة المتقين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

وقال: ومن يَكِل أموره إلى ربه فإن الله يكفيه هموم الدارين أجمع.

قال شاه الكرماني: «التوكُّل»: سكون القلب في الموجود والمفقود.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾، أي: بعد ضيق الصدر من الاهتمام بالرزق وإنفاقه، سعة الصدر، ويسر الرخاء، والطمأنينة والرضاء بالله، وأيضًا سيجعل الله بعد عسر الحجاب للمشتاقين يسر كشف النقاب.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾: «الرزق الحسن»: من الله المعرفة والمحبة،

والقربة، والمشاهدة، والمجالسة، والمخاطبة مع الحق بلا ذل الحجاب، ولا وحشة العتاب.

قال الأستاذ: «الرزق الحسن»: ما كان قدر الكفاية، لا نقصان فيه يتعطل عن أموره بسببه، ولا زيادة تشغله عن الاستمتاع بما رُزق لحرصه.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: لو كانت للأشباح قيمة في المعرفة كالأرواح في الخطاب بلا علة في تعريف نفسه إياها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ هناك خطاب وشهود وتعريف بغير علة، فلما علم عجزها عن حمل وارد الخطاب الصرف أحالها إلى الشواهد بقوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وليس بعارفٍ في الحقيقة من عرَّفه بشيء من الأشياء، أو باسم من الأسماء، فمَن نظر إلى خلق الكون يعرف أنه ذو قدرة واسعة، وذو إحاطة شاملة، فيخاف من قهره بعلمه في رؤية اطّلاع الحق عليه.

سورة التحريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾: أدّب نبيَّه ﷺ ألا يستبدَّ برأيه، ويتَّبع ما يوحى إليه، وفيه بيانٌ أن من شغله شيء من دون الله وصل إليه منه ضرب لا تبرأ جراحه إلا بالله؛ لذلك قال عقيب الآية: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾.

قال ابن عطاء: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ كان يدعو دائمًا ويقول: «اللَّهُمَّ إني أعوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ قاطعٍ يقطعني عنك»[1].

(١) تقدم.

وقال القاسم: لا يدعو الحق أحدٌ يسكن إليه حتى يشغله بغيره؛ لأنه عزيزٌ.

قوله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾: فيه جواز إظهار الشيوخ للفراسة والكرامات لمريديهم؛ ليزيد رغبتهم في الطريقة، وفيه حَثٌّ على ترك الاستقصاء فيما جرى من ترك الأدب، فإنه صفة الكرام.

قال الحسن البصري: ما استقصى كريمًا قط، ألا يرى الله تعالى يحكي عن نبيِّه ﷺ قوله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، أي: قدِّسوا أنفسكم وأهاليكم من محبة الدنيا والاشتغال بها، وأقبلوا على الله ببذل المهج، وانصحوا أهاليكم؛ كي يكونوا صالحين بمتابعتكم، فإذا رغبتم في الدنيا فهم يشتغلون بها، فإن زلة الإمام زلة المامومين.

قال سهل: أي: بطاعة الله، واتِّباع السنن.

وقال ابن عطاء: بقبول نصح الناصحين.

قال الوراق: عَلِّموهم الفرائض والسنن؛ لتنقذوهم بها من النار.

قال أبو عثمان: في طلب الحلال لأنفسكم ولأهاليكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾: دعاهم الله بالرجوع إليه رجوعًا لا انقطاع فيه، بحيث أقبلوا على الله نادمين على تضييع الأوقات غير

مدْبرين عنه إلى شيء من دونه، حتى وصلوا إلى حقيقة الاستقامة في القلوب مع الله، ولا يقدر أن يلتفت إلى شيء سوى الله.

قال الشيخ أبو عبد الله بن خفيف: طالب عباده بالتوبة، وهو الرجوع إليه من حيث ذهبوا عنه، والنصوح في التوبة: الصدق فيها وترك ما منه، تاب سرًّا وعلنًا قولًا وفكرةً.

وقال الواسطي: التوبة النصوح لا تبقي على صاحبها أثرًا من المعصية سرًّا وجهرًا.

وقال: من كانت توبته نصوحًا لم يبالِ كيف أمسى وأصبح.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾: لا يخزي النبي أمته بذل الحجاب، وسوء الحساب، والتغيير، والعتاب، بل يكون برضاهم، ويعطيهم مأمولهم، ويقبل شفاعتهم لأهل الكبائر وللهالكين، ولا يَرُدُّ عليهم ما يسألون منه من نجاة الخلق، ويلبسهم أنوار قربه ووصاله، ويدخلهم في حجال أنسه، ورياض قدسه.

قوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾: يستزيدون منه نور القرب بقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾، أي: من نورك حتى نَفْنى بك، ونَبْقى معك أبد الآبدين.

قال بعضهم في قوله: ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾، لا يردُّ شفاعته في أمته، والذين آمنوا لا ترد شفاعتهم في إخوانهم وأقربائهم.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ إنما هي أنوار نور التوحيد، ونور المعرفة، ونور الحقيقة، يسعى بهذه الأنوار إلى محل القرار.

وقال بعضهم في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾:لا تقطعنا بك عنك، وكن دليلنا منك عليك حتى تتم لنا الأنوار، فإن تمام النور بإتمام المنور له.

وقال سهل: لا يقسط الافتقار إلى الله عن المؤمنين في الدنيا والآخرة، وهم في العقبى أشد افتقار إليه، وإن كانوا في دار العز والغنى؛ لشوقهم إلى لقائه يقولون ربنا أتمم لنا نورنا.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾: ظهر فيه نور الفعل، ثم ظهر في نور الفعل نور الصفة، وظهر في نور الصفة نور الذات، وكان بنور الذات والصفات حيًّا موصوفًا

بصفاته، ناظرًا إلى مشاهدة ذاته، لم تنقطع عنه أنوار الذات والصفات والفعل أبدًا، وهذه خاصية لمن له أثرٌ من روحه.

قال بعضهم: نفخ من نوره في روح عبده؛ ليَحيى بتلك الروح، ويطلب النور، ولا يغفل عن طلب المنور، فيعيش في الدنيا حميدًا، ويُبعث في الآخرة شهيدًا، فلما وجدت روح روح الله صدقت بظهوره في العالم، وشبَّه قلوب العالمين بأنها تكون مرآة الحق للخلق، وذلك قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا﴾، ولما باشر أنوار القدس وروح الأنس كادت نفسها أن تميل إلى السكر في العنائية، فسبق لها العناية، وأنفاها في درجة العبودية حتى لا يسقط بالسكر عن مقام الصحو، ألا ترى كيف قال: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾، أي: من المستقيمين في معرفتها بربها، ومعرفتها بقيمة نفسها أنها مسخّرةٌ عاجزةٌ لربها.

سورة الملك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾.

﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى﴾: في هذه الآية تقديس الذات والصفات عن الإدراك، وفيها إشارة غيب الهوية بقوله الذي رفع الأوهام عن ساحة جلاله، وفيها وصف العظمة والإحاطة بكل شيء، وعجز الحدثان في قبضة قدرته، وفيها سر الالتباس، وظهور الصفة عن الفعل، بقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، تعالى الله عن الأشباه؛ إذ لا شبيه له في الأزل، وتقدَّس عن الأضداد؛ إذ لم يكن له ضدٌّ إلى أبد الأبد، فرؤية قدسه للموحدين؛ إذ مبارك عليهم أنوار قدسه، وهم في زيادة القدس أبدًا، والإشارة للعارفين؛ إذ هم غابوا في غيبه، وهم منه لا يخرجون، وإشارة ظهور الصفة في الفعل للمحبّين؛ إذ يؤتيهم ملك مشاهدته، وهم في ملك قربه، لا ينقطع عنهم وصاله أبدًا.

قال بعضهم: ﴿تَبَـٰرَكَ﴾ كالكناية، والكناية كالإشارة، والإشارة لا يدركها إلا الأكابر.

وقال سهل: تعالى من يعظم عن الأشباه، والأولاد، والأضداد، والأنداد.

﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾: يقلبه بحوله وقوته، يؤتيه من يشاء، وينتزعه ممن يشاء، وهو القادر عليه جلَّ وتعالى.

وقال جعفر: أي: هو المبارك على من انقطع إليه، أو كان له.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، الموت والحياة عرضان، والأعراض والجواهر مخلوقة له، وأصل الحياة: حياة تجلِّيه، وأصل الموت: موت استتاره، وهما يتعاقبان للعارفين في الدنيا، فإذا ارتفع العجب يرتفع الموت عنهم، بأنهم يشاهدونه عيانًا بلا استتار أبدًا، ولا تجري عليهم طوارق الحجاب، بعد ذلك قال الله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، خلق الموت والحياة، يميت قومًا بالمجاهدات، ويحيى قومًا بالمشاهدات، يميت قومًا بنعت الفناء في ظهور سطوات القدم، ويحيى قومًا بنعت البقاء في ظهور أنوار البقاء، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، لولا التجلي والاستتار لا يظهر شوق المشتاقين في تفاوت درجات الشوق، ولا يتبين وَلَهُ العاشقين وتفاوت درجاتهم في العشق، هو «العزيز» يمنعه الجمهور عن الوصول إلى حقيقة ذاته وصفاته، وهو «الغفور» بأن ينعمهم بكشف مشاهدته، ويتجاوز عن قصور قصودهم في الشوق إليه.

قال سهل: «الموت» في الدنيا بالمعصية، و«الحياة» في الآخرة بالطاعة في الدنيا، بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: الذي يدركه التوفيق، فيحييه بالطاعة، ويبعده عن المعصية.

وقال: «العزيز»: المسيع في ملكه، «الغفور»: يستره بجوده.

قال الجنيد: حياة الأجسام مخلوقة، وهي التي قال الله: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، وحياة الله دائمة لا انقطاع لها، أوصلها إلى أوليائه في قديم الدهر الذي ليس له ابتداء بمراده.

قيل: إن خلقهم فكانوا في علمه أحياء ما هم قبل إيجادهم، ثم أظهرهم فأعادهم الحياة المخلوقة التي أحيى بها الخلق، وأماتهم بسره فكانوا في سره بعد الوفاة كما كانوا، ثم أورد عليهم حياة الأبد، فكانوا أحياءً، فاتصل الأبد بالأبد، فصار أبدًا في أبدٍ في أبدِ الأبد.

وقيل: «حُسن العمل»: نسيان العمل، ورؤية الفضل.

قال الواسطي: من أحياه الله عند ذكره في أزله لا يموت أبدًا، ومن أماته في ذلك لا يحيى أبدًا، وكم حيٍّ غافلٍ عن حياته وميتٍ غافلٍ عن مماته.

قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ﴾: حارت الأبصار والبصائر عن إدراك مائية استواء أفعاله؛ لأنها عاجزة عن اللحاق

بجريان قدرته الواسعة فيها، فإذا كانت كذلك في إدراك خلقه، فكيف تشاهد جلال القدم، والأبصار، والبصائر، والقلوب، والأرواح، والعقول فانية حسيرة في أول سطوة من سطوات عظمته، راجعة عنها خاسئة، ولا يبقى عليها من العلم والعرفان.

قال الواسطي: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾، أي: القلب والبصر؛ لأن الأول كان بالعين خاصةً، ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[1]: إذا لم يكن في خلقي فطور، فأنا أشدُّ امتناعًا من الاستغراق والاستحراق.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: لو سمعنا خطاب الأزل شفاهًا في مشاهدته وعلمنا حقيقته ما كنا من أصحاب البعد والحجاب.

قال بعضهم: لو سمعنا موعظة الواعظين أو عقلنا نصيحة الناصحين لاتبعناهم فيما أمروا به، ولما كنا إذًا في أصحاب السعير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾: وصف الله معرفة العارفين به قبل رؤيتهم مشاهدته، فإذا عاينوه استفادوا من رؤية علم المعاينة، وهى المعرفة الحقيقة، وخشوا منه في غيبة منه، وهى خشية القلب، فلمّا رأوه زاد على الخشية الإجلال، وهو علم الروح والسر.

---

(١) يقال: فطره فانفطر أي شقه فانشق والمعنى من شقوق وصدوع لامتناع خرقها والتئامها قاله القاشاني ولو كان لها فروج لفاتت المنافع التى رتبت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضها أو كمالها كما في المناسبات فإذا لم ير في السماء فطور وهى مخلوقة فالخالق أشد امتناعا من خواص الجسمانيات.

قال بعضهم: «الخشية» تصيب القلب، و«السر» و«الخوف» تصيب البدن.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤﴾: فيه وعيدٌ لمن يضمر في خاطره ما لا يليق بالحق، وكيف يخفى ما في القلب والعيوب من المغيبات المكنونة، وهو موجدها ابتداءً، وعالم بها انتهاءً؛ لأنه من لطفه محيطٌ بما في القلوب، خبيرٌ بما يجري في الصدور.

قال الواسطي: حجب الأشياء عن الوقوف على حقائقها، واستبعد بمعرفة الحقائق، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

قال ابن عطاء: ألا يعلم من خلق الصدور، وما يحدث فيها من حوادث العوارض.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾: ذلَّل للأرواح أرض القلوب يمشي في مناكب أسرارها، وأقطار عقولها، وسبيل أنوارها إلى عالم الغيوب، فتأكل منها موائد المعارف، وأثمار الكواشف.

قال سهل: خلق الله الأنفس ذَلولاً، فمن أذلَّها بمخالفتها فقد نجَّاها من الفتن والبلاء والمحن، ومن لم يذللها واتبعها أذلته نفسه وأهلكته.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ۝١٩ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾: إشارةٌ إلى طيور الأرواح القدسية التي تطير في هواء الأزل والأبد بأجنحة الشوق والمحبة باسطات أجنحتهن ببسط الأنس، قابضة لها برؤية عظمة القدس، فهناك محل القبض والبسط، ولولا فضله وكرمه لتفنى في بروز سبحات ذاته، وتسقط من هواء هويته إلى أرض قهره.

قال الله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾.

قال الجريري: أشار الحق إلى أن يتوكل عليه الأولياء، ويسكن إليه الأصفياء؛ لأن الطيور لما صفا توكلهن على الحق طيَّرهن في الهواء، وقبض أجنحتهن، وأمسكها صافات على ذكر الله، فإذا توكل عليه الوليُّ شوقًا إلى الملك الأعلى طيَّره بجناح الأنس في هواء المحبّة، وأجلسه على بساط المعرفة، ويقبضه الحق بقدرته، ويمسكه بعواطف رحمته.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾: شبَّه الله صاحب النفس الذي يمشي قلبه في ظلماتها لا تدري أين تمشي كالأعمى الذي يتخبط تخبط العشواء في الظلمات.

وقال: هو أهدى أمَّن تمشي روحه في طرق الملكوت، بنعت المعرفة والنيران في أنوار المشاهدة.

قال سهل: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾، أي: مطرقٌ إلى هوى نفسه بحبلة خلقه بعد هدىً من ربه.

﴿ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا ﴾، يعني: المؤمن المهتدي على صراط مستقيم، أي: على شريعة طرق التوحيد.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ : بقي مكنون علمه فيما جرى في الأزل عن الخليقة، وإن كان صدِّيقًا، أو نبيًّا مرسلاً، أو ملكًا مقربًا، فيكون عنهم مستورًا، كما كان في سر الأزل قبل الخلق، ولو أمعنت النظر يا صاحبي في العلم، فإن حقيقة العلم منفيةٌ عن الخلق؛ إذ الخلق لا يعلم حقيقته، فإن حقيقة علم الأشياء لمنشئها لا غير، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ، أثبت العلم بالحقيقة لنفسه.

قال يحيى بن معاذ: أخفى الله علمه في عباده عن عباده، فكلٌّ يَتْبع أمره على جهة الإشفاق، لا يعلم ما سبق، وبماذا يختم له، وذلك قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ .

سورة القلم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ۝١٦ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ۝٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ۝٢٤ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩﴾.

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾، أي: «بنون» صفتي وقلم فعلي، «وما يسطرون» من أحرف مقاديري على ألواح أمري، وأيضًا «النون»: هو الذات، و«القلم»: الصفات، و«ما يسطرون»: من الأفعال على ألواح التقدير، وهي تستطرها بين الكاف والنون من العدم على ألواح الإرادة، وأيضًا «النون»: نور وجهه الذي يظهر يوم الشهود، وبه يسعى جميع العارفين والعاشقين إلى الأبد، وأيضًا: نور عنايته السابقة في الأزل في اصطفائية الأنبياء والأولياء، وأيضًا أي: بنيران قلوب المحبين، ونور فؤاد المشتاقين ونصرتي للأنبياء والمرسلين والأولياء والصدِّيقين، وأيضًا أي: بنظري على قلوب أحبائي، ونظر أسرارهم إلى لقائي، وأيضًا أي: بنوادر أنوار صفاتي، وبقلم أفعالي الذي يجري على ألواح أسرار العارفين، و«ما يسطرون»: الأرواح القدسية من مخاطباتي في أوراق أسرارها، وأيضًا أي: بالنون الذي جعلت في بطنها حجال معراج يونس، وأيضًا أي: نيرات ملكوتي ونادرات عجائب جبروتي، وأيضًا أي: بنور القرآن والعلم الذي كتبته في اللوح المحفوظ في أول الأول، وما ينتسخون منه سفرتي وكرام بررتي، وأيضًا أي: ابتدائي في أول وليتي من القدم إلى العدم؛ لإسماع أسر الأرواح القدسية

الملكوتية التي خرجت من العدم بكشف نور القدم، ونداء الأزل، وندائي للقلم حين قلت بعدما أوجدته اكتب ما هو كائنٌ إلى الأبد، وبهذا القلم النوري، وما يسطرون أهل قربي من خطابي أي: بهذه الأقسام المباركة يا حبيبي يا قرة عيون العارفين، وبنون حاجبيك، وقلم لسانك، ولوح وجهك، ومايسطرون كتبته أنوار تجلاتي من عجائب سنا كشف جمالي في جمالك لنظر هلال جلالك وجمالك.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝﴾، أي: لست باصطفائيتك، ونعمة ربك من النبوة والولاية، مثلما يزعمون هؤلاء الظَّلَمة، بل أنت سيدٌ حبيبٌ صفيٌّ نبيٌّ مرسلٌ، رغم أنف الكفرة.

قال سهل: «النون»: اسم من أسماء الله، وذاك أنه إذا جمعت أوائل هذه السور الثلاث «الر»، و«حم»، و«ن» يكون الرحمن.

وقال جعفر: نور الأزلية الذي اخترع منه الأنوار كلها، فجعل ذلك لمحمد ﷺ، فلذلك قيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ أي: على النور الذي خصِّصْت به في الأزل.

وقال بعضهم: «النون»: نور القدرة، و«القلم» القضاء، و«ما يسطرون»: الملائكة كرام الكاتبين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝﴾: بَيَّن له الأجر، وليس أجره في مقابلة فعله، وليس هو بناظرٍ إلى فعله وإلى شيء من الأعراض، ارتفع قدره عن ذلك لما وصفه الله في شهوده جمال الحق، بألا يميل إلى غيره بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾، فأجره: قرْب الله ووصاله، وكشف جماله له أبدًا، وذلك غير محتجبٍ عنه، وأيضًا أجره: قبول شفاعته غير منقطعٍ شفاعته لأهل الكبائر من أمته، لا يخيب رجاءه في غفرانهم جميعًا بلا عتاب ولا عذاب.

قال سهل: غير محدود لما لم يطالع الأعواض، ولم يعتمد على شيء سوانا، كأن ذلك أجر غير ممنون، وهو ما شهدت من المشاهد والمواقف.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾، أي: ألْبَسْتك خُلُقي، فأنت على خلقي، وخلقي عظيم، ومن عظم خلقي أنه نعتي ووصفي ألبسته إياك، وخصصتك بحمله، فإن حمله لا يأتي من غيرك من العرش إلى الثرى، فإن بخلقك ذقت طعم شهود مشاهدتي، فيسهل عليك جريان القضاء والقدر، فأنت تشاهدني بنعت تحملك أثقال أمري فيك، فطابت خُلقك من خُلقي في خَلْقي.

قال الواسطي: هو لباس النعوت، والتخلُّق بأخلاقه؛ إذ لم يبق للأعراض عنده خطر.

قال الحسين: معناه: أنه لم يؤثر فيك جفاء الخَلْق بعد مطالعة الحق.

وقال: صغرت الأكوان في عينك بعد مشاهدة مُكوِّنها.

وقال: لأنك تنظر إلى الأشياء لتشاهد الحق، ولا ينظر إلى الأشياء ليشاهده ملك.

قال سهل: تأدَّبت بآداب القرآن، فلما تجاوزوا حدوده.

وقال الواسطي: أظهر الله قدرته في عيسى ونفاده في أصف، وسخطه في عصا موسى، وأظهر أخلاقه ونعوته في محمد ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ فإذا فتشت هؤلاء في الحقيقة لا تجد إلا نعوتًا قائمة بنعوت للمنعوت لا لغيره.

وقال: الخُلُق لا تحمله العوام، والخُلُق لمن تخلق بأخلاق الربِّ؛ لأن الله أوحى إلى داود «تَخلَّق بأخلاقي، فأني أنا الصبور»[1]، فمن أوتي الخلق فقد أوتي أعظم المقامات؛ لأن المقامات ارتباطٌ بالعامة، والخُلُق ارتباطٌ بالصفات والنعوت.

قال الحسين: عظم خلقك حيث لم ترض بالأخلاق وسرت، ولم تسكن إلى النعوت حتى وصلت إلى الذات، ثم فنيت عن الذات بالذات، حتى وصلت إلى حقيقة الذات، ومَن فني بالفناء كان القائم عنه غيره بالفناء.

وقال: كيف لا يكون خلقه عظيمًا وقد تجلّى الله سره بأنوار أخلاقه، وحقٌّ لمن وقعت له المباشرة الثالثة أن يكون مفضَّلاً في خلقه؟!

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٣٣ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٤١ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾: أخبر الله سبحانه أنه ينكشف يوم الشهود لعشاقه، وأحبائه، ومشتاقيه، وعرفانه عن بعض صفاته الخاصة، ويتجلى منها لهم، وهو كشف ستر الغيرة عن عورات أسرار القدم، فيشاهدونها بعيون عاشقةٍ حائرة

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (١/ ٤٦٥).

ناظرة إلى ربها، فيدعون إلى السجود من حيث غشيتهم أنوار العظمة حتى لا يحترقون في كشف ستر الصفة، فإنها موضع العظمة والكبرياء، وبدو لطائف أنوار أسرار الذات، يظهر في لباس الالتباس حتى لا يفينهم فناءً لا بقاء بعده، والمقصود منه زوائد المحبة، والنظر إلى وجود العظمة.

قال جعفر: إذا التقى الولي مع الولي انكشفت عنه الشدائد.

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾: وصف الله سبحانه في حقيقة الإشارة أهل السكر في المشاهدة، إذا وصلوا محض الاتصاف والاتحاد غابوا في غيبته، واستغرقوا في بحار ألوهيته، وفنوا من أوصاف الحدوثية بعد انتعاتهم بنعوت الألوهية، وصاروا باقين بنعته لا يرون وصفهم، ويرون وصف الحق، فكادوا أن يخرجوا بدعوى الأنائية، فإن الله سبحانه سيأخذ أنوار شموس الذات، وأقمار الصفات عن عيون أرواحهم قليلاً، قليلاً، وهم لا يعلمون من غلبة سكرهم وحلاوة أحوالهم حتى يغيب أنوار الغيب عن أبصار أسرارهم، ويبقيهم في عرصات الصحو حتى يروا أنفسهم في مقام الغيبة والاستتار.

قال الواسطي: لو كُشف للخلق لصاروا حيارى، ولكن يبدأهم بالتلبيس والسر، ثم يكشف؛ ليعرفوا قدر ما هم عليه، وأما الغاية فهو الاستدراج.

قال أبو الحسين بن هند: «المستدرج» السكران، والسكران لا يصل إليه ألم فجع المصيبة إلا بعد إفاقته، فإذا أفاقوا من سكرتهم خلص إلى قلوبهم ذلك، فانزعجوا ولم يطمئنوا، و«الاستدراج»: هو السكون إلى الذات، والتنعم بالنعمة، ونسيان ما تحت النعم من المحن، والاغترار بحلم الله ﷻ.

قال أبو سعيد الخراز: «الاستدراج»: فقدان اليقين؛ لأن باليقين تستبين فوائد باطنه، فإذا فقد اليقين فقد فوائد باطنه، واشتغل بظاهره، واستكثر عن نفسه حركاته وسعيه لغيبوبته عن المنة.

قال بعضهم: لولا الاستدراج لا يخلو العبد منه في وقت من الأوقات، ولولا الاستدراج لما عرف العبد طعم الكرامة، ولما انزجر عن العقوبة، فبالاستدراج يعرف العقوبة ويخلق المقت، وبالانتباه يعرف النعمة ويرجو القربة.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن

تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾: أدَّب حبيبه حين غلب عليه شوق لقائه، وثقل عليه رؤية غيره، وأراد أن يصل إلى جواره، فأمره بالصبر في ميادين بلائه بامتحانه؛ ليعرِّفه شرائف مقاماته في معرفة الذات والصفات، ويسرج من سراجه سراج العارفين والموحدين، فيرشدون برشده، ويرون الحق بنوره، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾، في قلة صبره عن مشاهدته، وبلاء استتاره والفناء تحت جريان امتحانه، وذلك حين نادى في ظلمات بطن الحوت، وهو مغتمٌّ تحت ذل الحجاب، فتلطف عليه الحق كاشف عنه غمة الفرقة، وأراه جماله، وذلك قوله: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: سوابق نعم الاصطفائية الأزلية، لكان في أرض الحجاب ذليلاً، ولكن أغاثته الاجتبائية والاصطفائية من ذلك الحجاب، وشرفه بكشف النقاب، وجعله من المتمكنين في النظر إلى وجهه لم يقع بعد ذلك إلى بحر الامتحان، ولا في حجاب الحرمان.

قال الله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

قال الجنيد في كتاب «صبر الأنبياء»: قال الله لنبيِّه ﷺ المصطفى وحبيبه المرتضى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: يستكشف لندائه ما مسه من ألم بلائه، ويستغيث مع وجود العزم على القيام بواجب الصبر، خوف دخول العجز، وإشفاقًا من ملامة العلم عند الإصغاء إلى الإبقاء على النفس التي لولا تدارك المنعم بالحفظ عند أول بادٍ من البلاء لدخل العجز بسلطان قهره عليها، لكن لوَّح له تعريض الخطاب: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، لما سبق عنده من حكم الاختيار في قديم العلم.

قال الواسطي: الاجتبائية أورثت الصلاح، لا الصلاح أورث الاجتبائية.

سورة الحاقة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾﴾: يوم تُحقَّق حقائق الأمور عيانًا، لا يبقى فيها ريب أهل الظنون، وينكشف الحق لأهل الحق، ولا معارضة للنفس فيها، ونُبيِّن للجاهلين أعلام ولاية العارفين.

قال سهل: اليوم الذي يلحق كل أحد بعلمه.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾: الإشارة فيه أنه لما أوجد الله الأرواح قبل الكون أتى بها شط قاموس كشف ذاته وصفاته، فشربت الأرواح زلال أنهار القربة، وشراب الوصلة، وسمعت خطاب الألوهية، وسكرت من حلاوة الجمال والجلال، وهاجت إلى لحجها، وكادت تستغرق وتفنى فيها حين علا عليها أمواج سطوات العزة، ولطمات العظمة حملها الله هناك بعض العناية لتجري بها من الآزال إلى الآباد، ومن الآباد إلى الآزال، فلما دار دور الدهر الدَّهار وجرى جري الفلك الدوَّار وخلق الكون جعل لها سفينة صورة آدم، وحمل بها الأرواح الغيبية الملكوتية، فتجري بها إلى معادنها الأولية.

قال القاسم: الأجسام لم تكن، والأرواح لا تحمل الجاري، وإنما هو جريان الحق بشرط الاتسام إذا عاينت الروح هذه المقامات عرفت سره.

قال الواسطي: أحد شقي آدم، وأخرج منه الذرية.

قال: حملناكم بشواهدنا، وأجرينا لكم الأوقات على مقاديرنا.

وقال الأستاذ: ذلك منته على خواص أوليائه أن يسلمهمَ في سفينة العافية، والكون يتلاطم أمواج بحار أشغالها على اختلاف أوصافها، وهم بوصف السلامة لا منازعة مع كل واحدٍ، ولا محاسبة مع أحدٍ، ولا توقع من أحدٍ، سالمون من الناس، والناس منهم سالمون.

قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾: حقائق أسرار الخطاب لا يعلمها إلا القلوب الذاكرة، والأرواح الشائقة، ولا يسمع أصوات هواتفها بالحقيقة إلا سماع الأسرار من

الأنوار للأرواح والعقول، تسمعها من الحق، وتفهمها بالحق.

قال الوسطي: آذانٌ وعت عن الله أسرارها.

وقال: «واعية» في معادنها ليس فيها من شاهدها شيئًا، هي الخالية عمن سواه، فما اضطراب الطبائع إلا ضربًا من الجهل.

قال جعفر: تلك آذانٌ فتحها الله للمواعظ، وشرح قلوبًا؛ لقبول تلك المواعظ، وسهَّل على نفوسها استعمال تلك المواعظ، والقيام بمواجبها.

وقال: تلك آذانٌ أسمعها الله في الأزل خطابه، فهي «واعية»: يعني من الحق كل خطاب[1].

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾: يعتد الحق لأوليائه العاشقين الذين يحملون مؤن أثقال الحجاب يوم كشف النقاب، ويقول لهم: اشربوا شراب وصالي هنيئًا لكم، بأنه وصالٌ بلا فراق، وعيش بلا كدورة، وأنس بلا وحشة، بما أسلفتم من إلقاء أزمة هومكم على أعناق مراكب أفكاركم التي صعدت عند كل نفس إلى مصاعد ملكوتي، وسادات جبروتي، كم شوقٍ تشتاقون به إليَّ، وكم غمٍّ تغتمُّون به لأجلي، وكم بذل تبتذلون به لأجلي حين بذلتم أرواحكم لضرب سيوف شوقي، وكم تمرغ من أنفسكم في تراب جناب حضرتي، لأجل مشاهدتي، هنيئًا لكم لقائي أبدًا، عيشوا في رياض قربي، واستأنسوا بجمالي، فأنتم لي، وأنا لكم، والإشارة في الأيام الخالية أيام الله الذي هو منـزَّهٌ عن دور الأفلاك، ومطهَّرٌ من الكون والأملاك، أيام قدم القدم وأزل الأزل أسلف الله لهم العناية، فتلك الأيام خالية من الأعمال والعلَّات والأسباب، كأن تلك العناية أسلفها المحبوبون؛ إذ الحبيب الأكبر قائم مقامهم قبل وجودهم، فمن حيث الاتحاد الحبيب

---

(١) أي حافظة لما جاء من عند الله. وقيل أذن سمعت وعقلت ما سمعت وقيل لتحفظها كل أذن فتكون عظة وعبرة لمن يأتي بعد والمراد صاحب الإذن والمعنى ليعتبر ويعمل بالموعظة. تفسير الخازن (٦/ ص ١٥٣).

والمحبوب واحدٌ، ألا ترى كيف قال لحبيبه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، كأنهم كانوا في الأزل وأيام القدم مع حبيبهم، إذ الحبيب كان قائمًا مقامهم، وإن كانوا معدومين، أي: اشربوا شراب وصالي من أزل الآزال إلى أبد الآباد، فأيام القدم خالية عن وجود الحدثان، وأيام البقاء لا تكون خاليةً عن شوق المشتاقين، وزفرة الوالهين، ودوران العارفين في ساحة كبريائه، وسرادق بقائه.

قال الواسطي: أي: الأيام الخالية عن ذكر الله؛ لتعلموا أنكم في فضله دون جزاء الآمال.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾: أقسمَ الله سبحانه بما ظهر من أنوار صفاته في آياته لذوي الأبصار من العارفين.

﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾: من كشف ذاته التي لو بدا نورٌ من أنواره لذابت من سبحات الكون وما فيه، وأيضًا «ما تبصرون» من معجزات أنبيائي، وكرامات أوليائي، وما لا تبصرون عما في قلوبهم من العلوم اللَّدنية، والأحكام الغيبية.

قال جعفر: بما تبصرون من صنع في ملكي، وما لا تبصرون من بِرِّي إلى أوليائي.

وقال الجنيد: بما تبصرون من آثار الرسالة على حبيبي وصفيِّ، وما لا تبصرون من سري معه الذي أخفيته عن الخلق.

قال ابن عطاء: بما تبصرون من آثار القدرة، وما لا تبصرون مما اخترن من خلقه الذي لم يجر القلم به، ولم يشعر الملائكة بذلك، وما أظهر الله للخلق من صفاته، وأراهم من صنعه، وأبدا لهم من علمه في جنب ما اخترن عنهم إلا كدرة في جنب الدنيا والآخرة، ولو أظهر الله من حقائق ما اخترن لذابت الخلائق عن آخرهم فضلاً عن حملها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤﴾: كيف التقوُّل منه، وهو مقدَّسٌ بحفظ الله وعنايته عن الشرك، والشك، والنفاق، وسوء الأخلاق، هو عالم تعالى بأن قلبه ولسانه لم يكونا موضع الاختلاف والقول لكُنْه هذه، بأنه لا يكشف بأسرار الحق التي انكشفت له من غيب الغيب، وتلك الأسرار لو ظهرت بعضها للخلق لتعطلت الأحكام، وطاشت الأرواح، واضمحلَّت الأجسام.

قال الواسطي: ما كشفنا له من الحقيقة لو نطق بها لاقينا أوصافًا، مع أن كل ذكر ليس بذكر، وليس لله وقتٌ ماضٍ، ولا حينٌ مستأنفٌ.

وقال أيضًا: علامة مجذوب الحق إذا رغب حجب، وإذا صرف جذب.

قال: لَعمرك أنه حجب، ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل جذب، وإذا أظهر نفسه حجبه، وإذا أظهره لغيره جذبه مع أن كل مثبتٍ محجوب.

وقال أيضًا: لم يلطف له بلطيفه، فقال: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٧٢﴾، وهذا الخطاب تلبيس، ولو تقوَّل تنبيه، وهو أتمُّ له في ذلك الحال.

﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١﴾: «حق اليقين»: ما بان باطنه من ظاهره، وظاهره من باطنه، وباشر نور القلب، ويحرق ما دون الحق من ذكر الخلق، وهو الحق من حيث الحقيقة التي ظهرت في لباس الآيات، إما ذاتًا، وإما صفة، وكلامه حق عيان بأنه فيه الاسم والمسمّى، وذلك من حيث الحقيقة واحدٌ، فلم يبق لعارفه شكٌّ ولا مكاشفة حجاب، ثم خاطب المكاشف المحقق بأنه منـزهه عن الظنون، والأوهام، والممازجة بالحدثان بقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾.

قال الجنيد قُدِّس سره: «حق اليقين»: ما يتحقق للعبد من معرفة بالحق، وهو أن يشاهد الغيوب، كمشاهدة المرئيات مشاهدة وعيان يحكم على الغيبات، ويخبر عنها بالصدق كما أخبر الصدِّيق الأكبر في مشاهدة النبي ﷺ، وبين يديه حين سأله: «ما أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله»[1]، فأخبر عن تحققه بالحقيقة، وقطعه عن كل ما سواه، ووقوفه معه على

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ١٠٦).

الصدق، ولم يسأله النبي ﷺ عن كيفية ما أشار إليه؛ لما عرف من صدقه وبلوغه المنتهى فيه، ولما قصر حال حارثة عن حاله لما قال: «أصبحتَ مؤمنًا حقًا»[1]، فأخبر عن حقيقة إيمانه، سأله النبي ﷺ عن ذلك لما كان يجد في نفسه من عظم دعواه، ثم لما أخبر لم يحكم له بذلك، وقال: «عرفتَ فالزم»[2]: أي: عرفت الطريق إلى حقيقة الإيمان حتى تبلغ إليه، وترى حال أبي بكر الصدِّيق ﷺ مستورًا من غير استخبار عنه، ولا استكشاف؛ لما علم من صدقه فيما ادَّعى، وهذا مقام حق اليقين.

سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾: هذا وصف أهل الأمل، والظن الكاذب الذين يظنون أنهم يُتْرَكون في قبائح أعمالهم، وهم لا يُعذَّبون.

قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾: افهم أن للملائكة والروح مقاماتٌ معلومةٌ في عالم الملكوت، فإذا عرجت الملائكة من مسقط الأمر إلى مصعد المعلوم يكون بيوم كان مقداره عندنا خمسين ألف سنةٍ، وهم يعرجون بأقل ساعة، وليس للحق مكان ومنتهى، إن الخلق يعرجون بل إن ظهور عزته وجلاله في كل ذرة عيان، فإذا رفعت القرب والبعد من حيث المسافة وأدرجت الأوهام لم يكن بين الحق وبين الروح وصول الحق بأقل طرفة، فإن الوصول منه وهى قريب غير بعيد.

قال سهل: تعرج الملائكة بأعمال بني آدم إلى الله، والروح إليها ناظر في ذلك المشهد.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾: واسى قلب نبيِّه ﷺ، وأمره بالصبر الجميل، وهو الصبر بالله لله في الله، فإن نازله العذاب لمن مؤذيك يقع عليه نعته بحيث لا يقدر دفعها من جميع الوجوه، فانظر إلينا ولا تنظر إليه، فإنه مأخوذٌ.

(١) رواه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٦٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٦٦).

قال سهل: الصبر الجميل رضًا بغير شكوى، ثم بَيَّن أن الكافرين والمنكرين يرونهم عذابًا بعيدًا، بقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾: إن المنكر لا يظن أنه مأخوذٌ قط، ولا يعلم أنه وقع في العذاب، ولا يدري.

قال سهل: إنهم يرون المقضي عليهم من الموت والبعث والحساب بعيد البعد، أما قوله: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾: فإن كل كائنٍ قريبٍ، والبعيد ما لا يكون.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾: طبْع الإنسانية خُلق ضعيفًا لا يطيق تَحمُّل البلاء، قال سبحانه: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾: وذلك الطبع طَبْعٌ ممتزجٌ بطبع الشيطاني، والنفساني والهوائي، والشهواني، فإذا أتاه مراده سكن به، ويمنع ذلك من طلاب الخير، وإذا لم يؤت إليه مراده يشتكي، ويجزع، ويضجر، ولا يصبر، فإذا أراد الله بالعبد خيرًا جعل ذلك الطبع مسخَّرًا له حتى يطمئن.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾: يعني العارفين بالله، الساكنين تحت جريان مقاديره، المستقيمين به عند امتحانه.

قال سهل: هلوعًا منقلبـًا في حركات الشهوات، واتباع الهوى.

قال ابن عطاء: «الهلوع» الذي عند الموجود يُرضى، وعند المقصود يسخط.

وقال في قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾(١): العارفين بمقادير الأشياء، فلا يكون لهم لغير الله

---

(١) اعلم أن دوام الصلاة لا يمكن بالصورة؛ بل بالمعنى؛ وذلك أن مَن سَجد قلبه لله تعالى سجدةً حقيقيةً، وخضع خضوعًا تامًا؛ فإن عبادته لله تعالى مستمرة سواء كان على اليقظة، أو على النوم؛ لأن النوم إنما يجري على صورته لا على قلبه، كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ينام عيناي ولا ينام قلبي»، فإذا كان قلب الرجل يقظانًا، سرى ذلك في جميع أجزائه وقواه؛ فإن القلب أصل القوى والجسد، فإذا صلح؛ صلح القوى والجسد كلها، كما أنه إذا فسد؛ فسد القوى والجسد كلها.

فرح، ولا إلى غيره سكون.

وقال سهل: إذا افتقر جَزَعَ، وإذا آثر منع إلا المصلين الموفَّقين من عباده.

قال الواسطي: «جزوعـًا» لِمَا يجهل من القسمة، وأما «المنع» فهو من صفة المنافقين.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ : «أماناتهم»: أمانة الاصطفائية الأزلية التي أودع أنوارها قلوب العارفين حين عاينته أرواحهم في مشاهد الأولية، و«عهدهم»: ما عهد الله بأنه لهم، وهم له لا لغيره، فهم مدخل بالمحبة فمن راعى عهده، وأمانته بشرط المحبة، والشوق، والعشق، وبذل الوجود، والطرب بلقائه، وحسن الإقبال عليه على السرمدية، ولا يتقاعد عنه بشيء من دونه، فهو من الذين﴿هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾.

قال بعضهم: «الأمانة»: سر الله عند عباده تسلوهم بها في خواطرهم، ويُسَرُّوا به باللجوء، والافتقار إليه أبدًا، فإذا سكن القلب إلى ما خطر من وسوسة النفس بإذنه الأمانة بحقها بمفارقتها، والأمانة عهد الله، ورسوله بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾.

قال الجنيد: إنما هي حفظ القلب مع الله على التوحيد، و«الأمانة»: المحافظة على الجوارح.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ، أي: الذين شاهدوا مشاهدة الله قائمين في مقام مشاهدته، مستقيمين في النظر إليه، لا يزولون عن مقامهم، وهم بشرط محبته إلى الأبد قائمون، وببذل وجودهم واقفون.

قال سهل: قائمون بحفظ ما شهدوا به من شهادة أن لا إله إلا الله، فلا يشركون به في شيء من الأفعال، والأقوال، والأحوال.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾

أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أمين الله على أوليائه الصادقين أنه يبلغهم إلى جواره؛ لأنهم خُلقوا من تربة الجنة، وخُلقت أرواحهم من نور الملكوت، وإلى مواضعها تَرجعُ، وللقائه خَلقهم، ومن نوره أوجدهم، وإن أهل الخذلان خُلقوا من عالم الشهواني، والشيطاني، ومنبعها النار، فيدخلون مواضعهم؛ لأنهم ليسوا من أهل جواره، ونحن لا ننظر إلىٰ ما خلقنا منه من النطفة والطين، ولا نعتبر بها، فنحن نعتبر بالاصطفائية والخاصية في المعرفة، فإن بهما يصلون إلى جوارِ الله.

قال الواسطي: ما يؤيسهم من دخول الجنة، أي: خَلَقْناهم للكفر، والإيمان، والثواب، والعقاب.

سورة نوح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾[1]: كان نوح عليه السلام مشكاةَ نورِ عظمة الله؛ لذلك أرسله إلى قومه

(١) أشار بنوح إلى الروح، وذلك من حيث المراتب الأربع التي حصلت للروح من حيث أولية، وآخرية، وظاهرية، وباطنية، فالروح نوح: أي سابق على قومه من القوى الروحانية، والأعضاء الجسمانية، وإذًا الفاعل قبل القائل، وقد أرسله الله إلى قومه؛ فهو المؤثِّر فيه لا غيره تعالى؛ لأنه لا غير هنالك حتى يكون هو المباشر للإرسال، وكذا كل الإرسالات الواقعة في الدنيا؛ فإنها كلها مضافة إلى الله تعالى، فإن الإرسال إمَّا من الشيخ المرشد؛ فذلك مضاف إلى الإلهام الإلهي، وإمَّا من الجناب النبوي؛ فذلك مضاف إلى الوحي الربَّاني، والكل؛ لكن المظاهر متعددة بحسب المقامات والأطوار، وقد يترقَّى =

بالإنذار، فلما عصوه أثر منه قومه من قهر الجبروت، والأنبياء، والأولياء في درجات القرب على تفاوت، فبعضهم يخرجون من نور الجلال، وبعضهم يخرجون من نور الجمال أورث قومه البسط، والأنس، والسهولة، ومَن خرج من نور العظمة أورث قومه الهيبة، والإجلال.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾: من أصرَّ على المعصية أورثه التمادي في الضلالة حتى يرى قبيح أعماله مستحسنـًا، فإذا رآه مستحسنًا يستكبر ويعلو به على أولياء الله، ولا يقبل بعد ذلك نصيحتهم.

قال سهل: الإصرار على الذنب يُورث الاستكبار، والاستكبار يورث الجهل، والجهل يورث التخطِّي في الباطل، والتخطِّي في الباطل يورث قساوة القلب، وقساوة القلب يورث النفاق، والنفاق يُورث الكفر.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾: كان الله في الأزل غفَّارًا لذنوب عباده، فدعاهم إلى رؤية غفرانه الأزلي بنعت الافتقار إليه، ورؤية التقصير في العبودية، والندم على ما ضاع من أيَّامهم بالغفلة عن الله.

قال بعضهم: الاستغفار أوائل طلب التوبة.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾، أي: إذا كنتم مستسقين من عطش الشوق إلى لقائه يُنَـزِّل من سماء قربه مطر رحمته، وهي كشف مشاهدته، ثم ذلك المطر الغزير بأنه يُنْبِت في بساتين قلوبهم أشجار المعرفة، ورياحين المحبة، ويُجري في أرض عقولهم أنهار الحكمة، بقوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾.

قال جعفر: يُزيِّن ظاهركم بزينة الخدمة، وباطنكم بأنوار الإيمان.

= السالك في بعض المواطن إلى حيث يأخذ الإذن من الله تعالى بلا واسطة، وذلك لا يلزم منه ترك الوساطة، فإن ذلك بشفاعة الواسطة، أو باستهلاك الكل في عين الجمع، وليس هناك إلا الله تعالى.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾: طورٌ من أهل المعرفة، وطورٌ من أهل الحكمة، وطورٌ من أهل التوحيد، وطورٌ من أهل الشوق، وطورٌ من أهل العشق، وطورٌ من أهل الفناء، وطورٌ من أهل البقاء، وطورٌ من أهل الخدمة، وطورٌ من أهل المشاهدة، خَلَقَ طورَ الأرواح القدسية من نور الجبروت، وخَلَقَ طورَ العقول الهادين العارفة من نور الملكوت، وخلق طور القلوب الشائقة من معادن القربة، وخلق طور أجسام الصديقين من تراب الجنة، فكل طورٍ يرجع إلى معدنه من الغيب.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾: جعل أرض الغيوب بساطًا للقلوب؛ ليسلك في طريق أنوارها الأرواح والعقول؛ لطلب مشاهدة جلاله وجماله.

سورة الجن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾.

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: خلق الله بعض أوليائه من الجن وهم أرواح ملكوتية وأجسام روحانية، وهم إخواننا في المعرفة يطيعون الله ورسوله، ويحبون

أولياءه، يستنون بسنة نبيِّنا ﷺ، ويسمعون القرآن، ويفهمون معناه، وبعضهم شاهدوا النبي ﷺ وسمعوا كلام الحق منه شفاهًا، وخضعوا له إذعانًا، واستبشَروا بروح الله وروح خطابه استبشارًا.

قال ابن عطاء: تعجَّبت الجن من بركات القرآن، لما سمعوه وجدوا في قلوبهم روحًا، وفي أسرارهم نورًا، وعلى أرواحهم راحة، وفي أبدانهم نشاطًا للائتمار بأوامره، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أي: كتابًا عجيب البركة، ثم وصف بركته بقوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾: يهدي إلى معدنه، وهو الذات القديم.

قال الجنيد: إلى الوصول إلى الله، وهو الرشد.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ علت عظمة جلاله عن أن يكون لها ضدٌّ من الأضداد، وندٌّ من الأنداد، وأن يدركه أحدٌ بنفسه.

قال الجنيد: ارتفع بشأنه عن أن يتخذ صاحبة أو ولدًا.

وقال: الذي تعالى عظمته عن أن يكون إليه سبيلاً إلا به، أو يلوثه ما أحدثه بل لا دليل على الله سواه، ولا أثر لشيء عليه؛ لأنه الذي أبدى الآثار.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: من يعرف ربه فلا يخش على نفسه السقوط من الدرجات، ولا يبقى في حجب المجاهدات، بل يبلغ إلى أنوار

المشاهدات.

قال الواسطي: حقيقة الإيمان ما أوجب الإيمان، فمن بقي في مخاوف المرتابين لم يبلغ إلى حقيقة الإيمان.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ [1] أي: لما عاينوا في أهل معارفي استقاموا في طوارقات أنوار مشاهدتي، وصبروا في واردات بحار حقائق وجودي؛ لأسقينا أرواحهم وعقولهم وقلوبهم مياه بحار أسراري وأنهار أنواري.

قال بعضهم: هو القيام على سبيل السنّة، والميل إلى أهل الصلاح؛ لكشفنا على قلوبهم ماء الوداد.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾: مساجد القلوب لزوّار تجلّيه، فلا ينبغي أن يكون فيها ذكر غير الله.

قال ابن عطاء: مساجدك أعضاؤك التي قررت أن تسجد عليها لا تخضعها ولا تذلّلها لغير خالقها.

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) الإسقاء والسقي بمعنى واحد، وقال الراغب: السقي والسقيا هو أن تعطيه ماء ليشرب والإسقاء أن تجعل له ذلك له حتى يتناوله كيف شاء كما يقال اسقينه نهرا فالإسقاء أبلغ، وغدق من باب علم إذا غزر وصف الماء به للمبالغة في غزارته كرجل عدل وتخصيص الماء الكثير بالذكر لأنه أصل السعة وإن كان أصل المعاش هو أصل الماء لا كثرته ولعزة وجوده بين العرب قال عمر -رضي الله عنهما- أينما كان الماء كان العشب وأينما كان العشب كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة والمعنى لأعطيناهم مالا كثيرا وعيشا رغدا ووسعنا على الرزق في الدنيا. تفسير حقي (١٦ / ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ : أمره بإظهار تلاشي الكون في عظمته، وغلبة قهر سلطانه على الكائنات جميعًا، وهذا رؤية فردانية الحق بنعت الاستغراق في بحار كبريائه.

قال القاسم: هذه لفظةٌ تدل على إخلاص التوحيد؛ إذ التوحيد هو صرف النظر إلى الحق لا غير، وهذا لا يصح إلا بالإقبال على الله، والإعراض عمَّا سواه، والاعتماد عليه دون ما عداه.

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ : سترَ الله أنوار غيبه من جميع الخلق إلا من أرواح النبيين والمرسلين، وعقول الصدِّيقين وقلوب العارفين، وأسرار الموحدين هم مستشرقون بالله على غيب الله، وهم أهل مكاشفات صحيحة، وفِراسات صادقة، ومشاهدات واضحة.

قال بعضهم: أخفى الحق الغيب عن الخلق، فلم يُطلع عليه أحدًا من عباده إلا الأولياء على طرف منه بأخبار صدق أو تلقف من الحق والأولياء، والأمناء أصحاب الفِراسات الصادقة، فإنهم ينظرون بنور الغيب، فيحكمون على الغيب.

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ :أظهر قهر سلطان جبروته على كل ذرة من العرش إلى الثرى، فإنه موجد الأشياء، والعالم بها قبل إيجادها، ظاهرًا وباطنًا، صغارًا وكبارًا.

قال القاسم: هو أوجدها، فأحصاها عددًا.

سورة المزمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ : إن الله سبحانه اشتاق إلى مناجاة حبيبه ﷺ، فناداه أن يقوم في أجواف الليالي بحسن الإقبال، ونعت الاستقامة في مشاهدته، فإنه المقام المحمود

الذي خصَّه الله به دون غيره، وهذا كقوله: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، وتسميته بالمزمل؛ لأنه مخفيٌّ عن عيون أهل الحدثان لا يطَّلع على ما خصَّه الله به من لطفيات قربه، وغرائبات دنوه أحدٌ من العرش إلى الثرى، أي: قم عن مكمن الغيب، وأظهر شرائفات اصطفائيتك برفعك أعلام نبوتك، ورايات رسالتك، فإنك مؤيدٌ منصورٌ، كان متزمّلاً بكساء لاطلاعه بامتناع أحدية الأزل، بألا يدركها أهل الحدثان، فمن هموم فقدانها دخل تحت كساء الحياء والإجلال من ظهور عظمة الحق له، وهو في منـزل بين رجاء الوجدان وخوف الفقدان.

قال ابن عطاء: أيها المخفي ما يظهره عليك من آثار الخصوصية آن آوان كشفه، فأظهره، فقد أيدناك بمن يتبعك ولا يخذلك ولا يخالفك، وهو أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب.

وقال القاسم: يا أيُّها المزمل بالنبوَّة، ويا أيُّها المدَّثر بالرسالة.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي: غُصْ في بحار القرآن، فإن فيها جواهر أسرار الرحمن، واسكن عند كشوف معنى أسرار خطابي من القرآن، حتى تستوفي حقائقها، فإن تحت كل حرف بحرٌ من رموز لطائف القدم، فإن مثلك يسبح في بحر صفاتي؛ لذلك أفردتك بهذا الخطاب.

قال أبو بكر بن طاهر: دثِّر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾: كيف لا يثقل قوله سبحانه، قوله قديم، وأجدر أن تذهب تحت سطوات عزته الأرواح، والأشباح، والأكوان، والحدثان هو بذاته يحمل صفاته لا غير، وكان ﷺ مؤيدًا بالاتِّصاف بالحق، فكان يحمل الحق بالحق لطائفه لطيفة على قلبه، ثقيلة على من لا يفهمها؛ إذ القرآن بجماله حيث انكشف، صار لطيفًا على أهله، وحيث لا ينكشف ثقيلٌ على غير أهله.

قال أبو بكر بن طاهر: لا يحمله إلا قلبٌ مؤيَّدٌ بالتوفيق، ونفس مزيَّنةٌ بالتوحيد، وهو قلبك ونفسك يا محمد، ومن يطيق حمل ما أطقته من تلقف الخطاب عن المشاهدة، لأنك مؤيَّدٌ بالعصم.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾: تهجد الليل وساعاته موافقة لقلوب أهل مناجاته، وأسهل من طاعة النهار من أهل مراقباته؛ لما فيها من كشوف مشاهداته لهم، وحلاوة مخاطباته، أشد ناشئة لأهل المجاهدات، وأسهل لأهل المشاهدات، وأقوَم قيلاً قول الناجي ربه عند شكواه في ظهور عظمته من فقدان كلِّيته.

قال سهل: ما ينشئه العبد من عبادة الليل، هي أشد مواطأة على السمع والقلب، من الإصغاء والفهم، وأقوم قيلاً، وأثبت رتبة.

وقيل: أصوَبُ قولاً؛ لأنه أبعد من الرياء.

وقيل: عبادة الليل، أتمُّ إخلاصًا، وأكثر بركةً.

﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [1] أي: في نهار المشاهدة، وكشفها لك في بحر الأزل والأبد، سباحة طويلة سباحة النهار غوص الروح في بحر الآيات؛ لطلب جواهر الصفات.

قال ابن طاهر: اشتغالاً بالخدمة، وإقبالاً على الله، وانتظارًا لموارد الوحي.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي: إذا أردت أن تَسْبح في بحر جلالنا وقربنا وتريد أن تلقي نفسك فيها انقطع عن حدثان، واطرح نفسك فيها بتأييد الرحمن، واعتصم باسمه، فإذا اعتصمت باسم الله لا تفنى في الله، هذا إذا ذكر قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، فكيف يكون إذا قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾، فإن في الاسم يبقى، وفي المسمّى يفنى، دعاه أولاً إلى ذكره، ثم دعاه إلى مذكوره، أي: اذكرني بذكري، ثم انقطع من الذكر إليَّ ومني إليَّ، فالأول في الذكر حظُّ العبودية، وفي الثاني حظُّ الربوبية، فإذا ظهر حظُّ الربوبية يفنى حظُّ العبودية.

قال ذو النون: سبحان من دلَّى من الذكر أغصانًا إلى الدنيا، أشجارها في الملكوت، وأطعم القلوب من ثمارها، فأشفقهم في الدنيا والآخرة، هذا فعل الذكر به، فكيف إذ بهجهم

---

(١) أي: سبحاً في أعمالك، والسبح: الذهب والسرعة، ومنه السباحة في الماء، فالمعنى: مذاهبُك في النهار فيها يَشْغَلُك كثيرةٌ، والليلُ أخلَى لك. تفسير القشيري (٧/ ٤٩٤).

الحب عليه، وأنشد لنفسه مفردًا في هواه قد ذاب شوقًا مستطارًا لفؤاد يعشق فردًا.

قال القاسم: اتصل به اتِّصالاً ما رجع من رجع إلا من الطريق، وما وصل إليه أحدٌ فرجع عنه.

وقال بعضهم: فتح الله على النبي ﷺ أولاً أسباب التأديب، ثم أسباب التهذيب، ثم أسباب التذويب، ثم أسباب التغييب، «فالتأديب»: الأمر والنهي، و«التهذيب»: القسمة والقدرة، و«التذويب»: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾، و«التغييب»: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أفرد نفسه بالفردانية عن الأضداد والأنداد، وعرف نفسه بالوحدة لحبيبه ﷺ، فلما نفى الغير أقبله على رؤية الوحدانية بقوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: انقطع عليه، فإنه حسبك على كل شيء دونه، ويعطيك ما وعدك من الدرجات الرفيعة، والمداناة الشريفة، وإدخال أمتك الجنة.

قال سهل: أي: كفيلاً بما وعدك من المعونة على الأمر والعصمة على النهي والتوفيق؛ للشكر والصبر في البلوى، والخاتمة المحمودة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾: القرآن تذكرة العارفين؛ لأنه الأنباء الصفاتية تنبع كل كلمة عن صفة الله الأزلي، ويرشده بنوره إلى معدنه من الذات، كأنه سراجُ قلب كل صادقٍ محبٍّ موافقٍ يسيرون إليه، فلكلٍّ منه إلى الحق سبيلاً يسلك فيه إلى الله وسيلة أكثر من نجوم السماء، أمرهم أن يتخذ كل واحدٍ منهم سبيله الذي اختصه الله به، فهو سبيل الهدى يبلغه إلى معادن القِدَم، وأماكن البقاء؛ لذلك قال لحبيبه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، قبل القرآن موعظة للمتَّقين، وطريق للسالكين، ونجاة للهالكين، وبيان للمستبصرين، وشفاء للمتحيرين،

وأمان للخائفين، وأنس للمريدين، ونور لقلوب العارفين، وهدى لمن أراد الطريق إلى ربه؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: إن الله سبحانه وتعالى أخبرهم في الأوائل بالمجاهدات، فلما صاروا أهل الذوق والمشاهدات لم يأت منهم المجاهدات؛ لأن أهل الأنس والبسط غائبون بأنوار المشاهدات عن المجاهدات، فتلطّفَ عليهم الحق، بأن رفع عنهم أثقال العبودية، وكاشف لهم أنوار الربوبية، ثم أمرهم بأن يترنَّموا بآيات من كتابه ما يوافق حالهم من خيرِ وصول الوصال، وصفاء الأحوال والبسط، والانبساط، والروح، والراحات بقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: ما يهيِّج قلوبكم بنعت المحبة إلى مشاهدة الرحمن.

قال الواسطي في قوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي: لن تطيق القيام بأمره، لن تضبطوا أعمالكم بالصحة والبراءة من العيوب، فتاب عليكم، فعاد عليكم بفضله، وقبل منكم أعمالكم مع أن من لقيَه بنعمه كان منقطعًا عن المنعم بالنعم، ومحجوبًا بالصفات عن الذات.

وقال جعفر في قوله: ﴿مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: قال: ما يتيسر لكم في خشوع القلب، وصفاء السر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: هذا العموم والخصوص خبر أنفاسهم التي صعدت منهم بنعت المحبة والشوق إلى الله، فهم يجدونها بكشوف أنوار الذات والصفات، ولكل نَفَسٍ من أنفاسهم لهم هناك قربٌ، ووصالٌ، وحسنٌ، وجمالٌ.

قال الله: ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي: نفس المحبة والشوق خيرٌ من جميع الأعمال الصالحة، وأجرها كشف اللقاء، ثم أمرَ الجميع بالاستغفار عن رؤية الأعراض والأعمال عند رؤية جماله وجلاله، بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: من السكون إلى الأحوال، فإنه غفورٌ

لخطرات العارفين، رحيمٌ بهم، بأن يوصلهم إليه بلا كلفة المجاهدات، ولا عسر المعاملات، قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾.

وقال بعضهم في هذه الآية: ما تنفقوه في مرضاة الله خيرٌ لكم من الإمساك والشحِّ.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾: على الوجوه كلها، فما كان ذلك خالصًا لوجه الله لا رياء ولا هواء ولا سمعة فيه، فهو عزيزٌ لا يصل إليه إلا الأبرار المقربون.

سورة المدثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أي: أيُّها الغريق في قلزم القدم قُمْ بدعوى محبتي، وأنْذِر أحبائي عن الاشتغال بغيري، وأظهر جوهر حقائق بحر عيني للمقبلين إلينا.

قال سهل: يا أيُّها المستغيث من إغاثة نفسك على صدرك وقلبك قم بنا وأسقط عنك ما سوانا، وأنذر عبادنا، فإنَّا قد هيأناك لأشرف المواقف، وأعظم المقامات.

وقال بعضهم: أزعج سره بالتجريد عن سكونه عن القيام في الطلب، وعن طمأنينته حتى ورَمت قدماه، ثم قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فدلّ ذلك على دعوته إيَّاه على التفريد.

وقال بعضهم: قُمْ إلينا بالقعود عمن سوانا.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾ [(١)] أي: كبِّره برؤية كبريائه بحيث لا يبقى في قلبك النظر إلى غير كبريائه، وطهِّر قلبك عن وقوفه على ما يجد من المداناة والقربات، فانٍ وراء الوراء.

قال الجريري: كبِّر الكبير، واعلم أنك لا تنال كنه كبريائه.

قال الحسين: عظِّم قدره عن احتياجه إليك في الدعوة إليه، فإن إجابة دعوتك ممن سبقت له الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝﴾ أي: لا تعطِ وجودك إلينا على رؤية الأعواض من غيرنا؛ لتستكثر الدرجات والأعواض، فإن هذه من سجية من لا يعرفنا.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾ في بذل وجودك في جريان تقديره، وأيضًا أي: مع ربك وفي ربك حين انكشف لك أنوار أسراره، وخاصيتك في النظر إلى جلاله وجماله، ولا تنزعج، فتسقط عن درجة التمكين.

قال القاسم: لا ترى ما أنت فيه لله كثيرًا وتستكثره؛ فإنه لا حدَّ لأحدٍ يقوم بمواجبه ولوازمه، ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾: تحت القضاء والقدر.

قال ابن عطاء: لا تمنن بعلمك، فتستكثر طاعتك، ولا تكون رؤية الاستكثار إلا برؤية النفس، فمن أسقط عنه رؤية نفسه فقد أزال عنه رؤية الأعمال والطاعات والاستكثار بها.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ

---

(١) قال سهل: أي لا تلبس ثيابك على معصية، فطهره عن حظوظك واشتمل به، كما حكت عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان لرسول الله ﷺ خميصة، فأعطاها أبا الجهم وأخذ إنبجانيته. فقيل: يا رسول الله إن الخميصة خير من الإنبجانية. فقال: «إني كنت أنظر إليها في الصلاة». التستري (٢/ ٢٠٣).

ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾: جنوده وعظمته وكبرياؤه وسلطنته وقهره الذي صدرت منه جنود السماوات والأرض، وله جنود قلوب العارفين، وأرواح الموحدين، وأنفاس المحبين التي يستهلك بها كل جبَّارٍ عنيد، وكل قهَّارٍ عتيد.

قيل: قال الله لمحمدٍ ﷺ: إنكم لا تقفون على المخلوقات، فكيف تقفون على الأسامي والصفات؟!

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ﴾: أقسمَ الله بأقمار أرواح الصدِّيقين حين تصير بدورًا في رؤية شمس جلاله وجماله، وأقسم بذهاب ليالي هجران أهل الشوق حين أقبلت إلى قلوبهم أنوار قربه ومشاهدته، وأقسم بطلوع صبح أنوار صفاته وذاته عن مطالع أسرار الواصلين، ويزيل بنوره ظلمات الطبائع والهياكل، وصارت عرصات قلوبهم صافية عن كدورات الكون، ولا يرى عيون أسرارهم فيها إلا فردانية الله التي تقدَّست من كل علَّةٍ من علل الحدثانية.

قال القاسم: كلَّا وربِّ القمر جذب عباده إليه بالإشارة.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾: ظلم السرائر إذا انكشف، وضياء الأنوار إذا ظهر على القلوب.

وقال الأستاذ: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾: ضياء أنوار الحقائق إذا تجلَّت في السرائر.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾: أنفس المحبين رهينةٌ بالمحبة، وأنفس المشتاقين رهينةٌ بالشوق، وأنفس العاشقين رهينةٌ بالعشق، وأنفس العارفين رهينةٌ بالمعرفة، وأنفس الغافلين رهينةٌ بالغفلة، ولكل نَفْسٍ عنه حجابٌ، فمن شاء أن يخرج عن الحجب فليخرج من الأنفس، وليقبل على مشاهدة ربِّ الأنفس، فإن الكل مرتهنٌ مما عنده إلا من تجرَّد مما دون الله بالله، وهم أصحاب يمين مشاهدة الحق، قال الله: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾: فإنهم في جنات قربه ووصاله.

قال القاسم: رهينةٌ بما باشرت من الأعمال.

وقال بعضهم: أين الفرار من القدر، وكيف القرار على الخطر؟!

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ : وصفَ الله حسدةَ القرّائين والمنافقين والسالوسين والمفسدين، بأنهم يتمنون مقام الولاية، وأن يكشف لهم الكرامات والآيات، ويعطيهم علوم المعارف والحقائق؛ ليعظِّم أقدارهم عند الناس، ولا يعلمون أن هذا قسمة الأزلية سبقت من الله في اصطفائية أنبيائه وأصفيائه وأحبائه، هذا كتابٌ منشورٌ من الله سبحانه معرضة على الكل، وهم لا يعلمون حقيقته؛ لأنهم أهل الشك والنفاق، وكيف يفهمون حقائقه وهم ليسوا بأهل الله وأهل خطابه.

قال الحسين: كيف لهم بهذه الإرادة، ولهم نفوسٌ خاليةٌ عن الحق، مُعْرِضةٌ عن أمور الحقِّ، غافلةٌ عن الوقوف بين يدي الحقِّ، كيف تفهم الصحف المنشورة أسرارَ خافية أبكار ما قبضتها خاطر حق قط، وأصلها أن البشرية لا تضام الربوبية.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ : حقيقة التقوى لله، فإنه تقدَّس بذاته القديم، وصفاته الأزلية من أوهام الخليقة، وبأن ليس له في العالمين شريكٌ في أزليته، أو نظيرٌ في أبديته، توحَّد بذاته، وتفرَّد بصفاته، كان فيها كان قدُّوسًا، لم يكن مع قدسه علل المحدثات، ولم يزل كما كان في الأزل، لا يماسه الحدثان بحقيقة التقوى، انفرد بفردانيته، ذكر قدْسَه، ولا عن مباشرة الحدوث، ووصول الحدوث إليه بحالٍ، ثم ذكرَ رحمته، وله الرحمة بالحقيقة بأن لو يغفر جميع الكفار، لا ينقص من بحار رحمته قطرة، ورحمة كل راحمٍ منشعبةٍ من رحمته.

قال: التقوى: هي التبرؤ من كل شيءٍ سوى الله ﷻ، فمن لزِمَ الآداب في التقوى فهو أهل المغفرة.

❁❁❁

سورة القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ : انظر كيف قرَنَ الله قَسَمَه بالنفس اللوّامة، بقسَمِه بيوم القيامة؛ لأن ما يكون في القيامة من جميع أحوالها يمكنها الله في النفس اللوامة، القيامة عالم،

والنفس اللوامة عالم، يظهر من النفس اللوّامة لحارفيها ما يظهر يوم القيامة؛ لأن الملكوت والجبروت تظهر بنورها وسناها وعجائبها وغرائبها بتجلٍ من النفس اللوامة، وغرض الكل من العرش إلى الثرى هي النفس اللوامة، والنفس اللوامة الروح الناطقة العالمة بربها، العارفة بصانعها، المحبة لمدبِّرها، المشتاقة إلى الله، العاشقة بالله، تلوم نفسها عند كل خطرةٍ تطأها بنعت الوقفة على ما يجد من الله من سنا الدرجات، ورفيع المقامات، وتلوم على قصور معرفتها بالله على الحقيقة، ولا تأتي حضرة الله إلا بنعت الخجل والحياء، وهي لا تنظر إلا الأعمال وأعواضها، فإن جميع الأعمال لا تزن عندها جناح بعوضة، بل تلوم النفس الإنسانية الحيوانية والجسمانية بما يقترف من الذنوب والسيئات، حين لم توافق العقل القدسي الذي هو وزيره، وتلك الملامة منها إذا كانت في السير، فإذا وصلت مشاهدة الحق والغاية في شهود الغيب سقطت عنه الملامة؛ لأن هناك تفنى، لا رسوم، ولا يبقى للحدثان أثرٌ، فيخرج من بحر الربوبية على نعت الطمأنينة، فإذا كادت أن تشتغل برسوم العبودية ناداها الحق، ودعاها إلى نفسه بقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾.

قال سهل: «النفس اللوَّامة»: هي النفس الأمَّارة بالسوء، وهي قرينة الحرص والأمل.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ۝ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝﴾: هذا على الظاهر جواب المنكر البعث، ولأهل الحقائق هناك وصال لا انفصال فيه، وذلك حين عاين قدس ذات القديم، فبَرِقت أبصار العارفين في سطوات عظمته، وخَسفت أقمار قلوبهم في معاينة عزته، فهناك محل الفناء في الحق حين بانت شموس الذات، وأقمار الصفات، وجمعت أنوارها في قلوب العارفين، وهم يذوبون تحت أثقال صدماتها، فيفرون منه لضعفهم عن حمل واردات القدسية، وبديهات كشوفات الألوهية، ويطلبون مقر الأنس من رؤية القدس، فأكَّد الله أمرَ بقائهم فيه بنعت الفناء حيث قال: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝﴾ أي: مستقركم بين أنوار جلالي وجمالي، لا يطَّلع عليكم غيري، وهم فيها أبد الآبدين.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾: بصيرة الإنسان هناك عارفةٌ بمعرفته، حيث عرف إيَّاه منازلها ومراتبها وجناياتها ومعاملاتها، ولا تعريف الحق إيَّاها ما اطَّلعت عليها، كما لم يطَّلع عليها في الحجبة والغربة، فإذا وقعت المعرفة وقعت البصيرة، وإذا وقعت البصيرة وقعت الخاصيَّة، والمختص بهذه المراتب شريفٌ في الدارين.

قال الواسطي: تخلُّص النحائز أورث مطالعات المعارف، وسلامة البصائر أوجبت الضياء في الضمائر، وملاحظة الكريم أوجبت النعيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي: إن القرآن كلامنا، وهو قائمٌ بنا، لا تعجل عند الوحي تحفظه، فإنه محفوظٌ عندنا بتجلي أنواره لقلبك، حتى يتَّصف بها، فتصير أهلاً للقرآن، لا تنساه أبدًا، بعد أن باشر نوره قلبك، وسرك بجميع معناه، وأسرار لطائفه في قلبك وفهمك، وتبيِّن ظاهره وقراءته وبيانه على لسانك.

قال الواسطي: جَمْعُه في السر، وقرْأته في العلانية.

وقال: أودع القرآن سرائرهم، وأودع البيان بواطنهم، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: وصفَ الله وجوه مشاهديه بالنضارة والبشارة والبهجة والسرور، وذلك أنهم يرونه راضيًا عنهم، فإذا وجدوه بوصف الرضا زال عن قلوبهم الهيبة، وعن وجوههم الصوْلة، نظروا إلى جماله، فصارت وجوههم ناظرة بهيئةٍ مبتهجة مسرورة مستبشرة، وذلك من حسن تجلّي جماله، والآية تدل على أن القوم ينظرون إلى الله وهم في حال الصحو والبسط، ولو عاينوه بوصف الجلال والعظمة والكبرياء صرفًا لهلكوا في أول سَطْوةٍ من سطواته، وصارت وجوههم دَهِشةً، يرونه بنوره، بل به يرونه، وهنالك وجود العارف كلّه عين يرى حبيبه بجميع وجوده، وتلك العيون

مستفادةٌ من تجلّي الحق سبحانه، فإذا فهمت هذا فإنه تعالى يقوم لهم بالنظر من نفسه إلى نفسه، فهناك نظر الحبيب، ونظر المحبوب واحدٌ في معنى الاتحاد.

قال النصر آبادي: من الناس ناسٌ طلبوا الرؤية واشتاقوا إليه، ومنهم العارفون الذين اكتفوا برؤية الله لهم، فقالوا: رؤيتنا ونظرنا فيه عللٌ، ورؤيته ونظره بلا علة، فهو أتمُّ به بركة وأشمل نفعًا.

قال الواسطي: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾: نضرت بالتوحيد، وابتهجت بالتفريد، وذهبت بالتجريد؛ لأن الله فعَّالٌ لما يريد.

قال الأستاذ: دليلٌ على أنه بصفة الصحو، ولا يداخلهم حياءً، ولا دهشًا؛ لأن النضرة من أمارات البسط، والبقاء في حال اللقاء أتمُّ من اللقاء، والرؤية عند أهل التحقيق يقتضي بقاء الرائي عنه، وعندهم استهلاك العبد في وجود الحق أتمُّ[1].

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾: أخبرَ الله سبحانه عن سرِّ فطرة آدم عليه السلام التي أتى عليها أحيانٌ لم تكن شيئًا يطَّلع عليها المقربون والكروبين من علمهم ومعرفتهم، وكيف ذكروه وهو على علمهم في غيب الغيب مستورًا في حجاب الأنس، ورياض القدس بنوره عن أعين أهل الملكوت، فهناك ليس بمكان ولا زمان يتجلَّى له من جميع الذات والصفات، وبقى بين أنوار الصفات وأنوار الذات حتى صارت فطرته الروحية القدسية الملكوتية كاملةً بكمال الله، عالمةً، قادرةً، سميعةً، بصيرةً، متصفةً بجميع صفاته، ولم يكن هناك صباحٌ، ولا مساءٌ، ولا زمانٌ، ولا مكانٌ، عرَّفها الله نعوته القديمة، وأسماءه الحسنى، وصفاته العلا، وسقاها من بحر الذات شربات المحبة والشوق والمعرفة، ففي كل صفةٍ لها طورٌ، وفي كل مشاهدة لها حالٌ ووجدٌ وكَشْفٌ لا يطَّلع عليها أهل البريَّة، فكيف ذكروه، وهو مذكور الله أزلاً وأبدًا لم يكشف ذكره لأحدٍ غيره على ذكره، فإذا قالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

(١) النضرة طراوة البشرة وجمالها وذلك من أثر التنعم والناضر الغض الناعم من كل شيء أي وجوه كثيرة وهي وجوه المؤمنين المخلصين يوم إذ تقوم القيامة بهية متهللة يشاهد عليها نضرة النعيم ورونقه.

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أظهَره الله لهم بصورةٍ ترابيةٍ، وفطرةٍ جسمانيةٍ، ولولا أنه ستره بالماء والطين لماتوا جميعًا في النظر إليه؛ لأنه كان خارجًا من الحضرة، منعوتًا بنعت الله، موصوفًا بصفةٍ على لباس أنوار الربوبية، فقبْل دخوله في صورته لم تكن الصورة شيئًا مذكورًا حين لم تنعكس عليها أنوار روحه، فإذا أراد أن ينفخ فيها روحه خلقها بيده، وخمر طينه لطفه، وصوَّر لها بصورةِ علمه، وجعل فيها أطوارًا من معجونات قدرته وعلمه، ثم تركها في فضاء غيبه، حتى مضى عليها دهرها، ودار عليها فلكٌ دوارٌ، ففي كل لحظةٍ وساعةٍ أبدع فيها بدائع فطرته، ولم يكشف تلك الحقائق للملائكة، ولم يروها إلا صورةً صلصاليةً، طورًا من حمإٍ مسنونٍ، وطورًا من ترابٍ وغبارٍ، وطورًا من صلصالٍ كالفخّار، حتى تنقَّشت بنقوش القدرة، ودخل فيها روح الأولية، فلما قام آدم في الحضرة سجد له كل شيء؛ لما عليه من آثار جلال الحق، وكيف تذكره أحدٌ وذكره غاب في ذاكره ومذكوره تعالى الله عن كل نقصٍ وعلةٍ، فكما خلق آدم بهذه المثابة خلق ذريته في معادن غيبه أطوارًا، وطورًا روحانيًا، وطورًا عليًّا، وطورًا عقليًّا، وطورًا نفسانيًّا، وطورًا حيوانيًّا، وطورًا شهوانيًا، وطورًا شيطانيًّا، وطورًا سرِّيًّا، وطورًا ملكوتيًّا، وطورًا ربَّانيًّا، فهذه الأطوار يغلبها الله في زمان علمه وقدرته، ويجعلها في كل أوانٍ عجبته من علمه غريبًا من قدرته مصبوغةً بصبغ أفانين تجلّيه، وذلك قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾؛ لأن كل إنسانٍ عنده آدم ثانٍ[1].

قال جعفر: هل أتى عليك يا إنسان وقتٌ لم يكن الله ذكرًا لك فيه.

وقال أبو عثمان المغربي: ابتلى الله الحق بتسعة أمشاجٍ: ثلاث مفتنات، وثلاث كافرات، وثلاث مؤمنات، فأما الثلاثة المفتنات: فسمعه وبصره ولسانه، وأما الثلاث الكافرات: فنفسه وهواه وعدوه، وأما الثلاث المؤمنات: فعقله وروحه وقلبه، فإذا أيَّد الله العبد بالمعونة قهر العقل على القلب، فملكه، واستأسرت النفس والهوى، فلم تجد إلى الحركة سبيلاً، فجانست النفس الروح، وجانس الهوى العقل، وصارت كلمة الله هي العليا، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟

---

(١) قال الفخر الرازي: فهذا تصريح بأن الإنسان شيء واحد وذلك الشيء هو المبتلي بالتكاليف الإلهية والأمور الربانية وهو الموصوف بالسمع والبصر ومجموع البدن ليس كذلك وليس عضواً من أعضاء البدن كذلك فالنفس شيء مغاير لجملة البدن ومغاير لأجزاء البدن وهو موصوف بكل هذه الصفات. واعلم أن الأحاديث الواردة في صفة الأرواح قبل تعلقها بالأجساد وبعد انفصالها من الأجساد كثيرة وكل ذلك يدل على أن النفس شيء غير هذا الجسد. تفسير الرازي (١٠/ ١٢٩).

وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾: حقيقة إشارته أنه تعالى عرَّف لهم الطريق، فمن بقي في الطريق ولم يصل إليه فمنعه لم يبلغ، ومن وصل إليه فيجد به بلغ إليه، فمن بلغ يكون بمعرفته شاكرًا له، ومن لم يبلغ إليه فيجد؛ لأنه يكون كافرًا به، إذ لم يذق طعم الوصال، ولم يرَ نور مشاهدة الجمال، مهَّد الطريق، ونصَّب الأعلام، وأوضح المنار والأدلة، ودعاهم به إلى نفسه، فمن واصل يسكن بما وجد به وهو شاكرٌ، ومن واصل لم يسكن بما وجد، ويكون معربدًا بطلب مزيد الدنوِّ، وفي كل ما وجد لم يكن راضيًا حتى وصل إلى غيبوبة الغيب، ويشرب من أنهار صرف الصفات والذات، فيخرج متحدًا يدَّعي الربوبية، ويكون كافر الحقيقة.

قال سهل: بيَّنَّا له طريق الخير من طريق الشر، إما أن يكون شاكرًا طائعًا، فمستقره الجنة، وإما أن يكون كفورًا جاحدًا، فمأواه النار.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾: وصف الله سبحانه أوساط أهل المعرفة من أهل السلوك أنهم يشربون شرابًا من كاسات قربه، يكون مزاجها كافور المعرفة مع شراب المشاهدة، لم يكن لهم شرابًا صِرفًا من المعرفة؛ لأنهم يبقون في سكر المشاهدة، يغيبون عن مطالعة الحقيقة بعيون المعرفة، فأول شربهم صحوٌ، وآخر شربهم سكرٌ، ولم يكن كذلك العارفون، فإنهم يشربون صرف شراب المشاهدة المنعوت بالمعرفة مع الصحو من أول شربهم إلى آخر شربهم؛ حتى لا يحتجبوا عن رؤية غرائب تجلي

الذات والصفات، ولذلك قال الله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، وعباده ههنا: أهل التمكين في المعرفة، وكذلك حالهم في الدنيا يشربون شراب المحبة ممزوجة ببعض الكشوفات، والعارفون يشربون جميعًا بالرؤية والمكاشفات، فلكل شربة لهم كشفٌ وعيانٌ، فالصَّافي من له شرابٌ صافٍ من غير مزج، فإن الممزوج لا يخلو من امتحان، انظر كيف قال القائل:

مالِي جَفَيْتُ وكُنتُ لا أجْفِي ... ودلائلُ الهجرانِ لا تخفَى

وآرائي تسقيني وتمزج لي ... ولقد عهد إليك شاربي صرفًا

قال سهل: الأبرار الذين هم فيهم خلق من خلق العشيرة، الذين وعدهم النبي ﷺ بالجنة.

قال الواسطي: لما اختلفت أحوالهم في الدنيا، كذلك اختلفت أشربتهم في الآخرة، بل سقت الأشربة الأحوال من قُدِّر له شرابًا طهورًا في الآخرة، طهَّره الحق في الدنيا عن رؤية السعايات بالموافقة والمخالفة، وهو من تحت قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾، بردت الدنيا في صدورهم، وانقطعت عن قلوبهم.

قيل: «الأبرار»: هم الذين سمت همتهم عن المستحقرات، فظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة، وأنفوا من مساكنهم الدنيا يشربون كأسًا كان مزاجها كافورًا.

قال الأستاذ: اختلفت مشاربهم في الآخرة، فكلٌّ يُسقى ما يليق بحاله.

وقال يحيى بن معاذ في قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾: إنها عيون يشربون منها في الدنيا، فيورِّثهم ذلك شراب الحضرة، وذلك من عيون الحياء، وعيون الصبر وعيون الوفاء.

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾: يوفون بنذورهم التي هي غرائم قلوبهم في أوائل قصود أرواحهم بحق الحق ألا يختاروا على الله شيئًا من العرش إلى الثرى، ويخافون من قهره ومكره بمعرفتهم بأنه منـزَّهٌ من وصولهم وفصولهم.

قال بعضهم: يوفون بما يطيقون، يخافون أن يطالبوا بما لا يطيقون من تمام الوفاء.

قال سهل في هذه الآية: البلايا والشدائد في الآخرة عامٌّ، والملامة خاصٌّ للخاص.

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ

أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾: أخبر الله سبحانه عن سقيه أرواح أوليائه في الأزل شراب بحار رؤية أنوار القدم؛ حيث ظهر جلال ذاته وصفاته لها، وذلك الشراب لظهور طهوريته تجلّي قدْس ذاته الذي ظهر تلك الأرواح من شرب الامتحان والقهر والحرمان، لا تتدنس أوقاتها بشيء من الحدثان بعد شربها أشربة أفانين أنوار الصفات، فتلك الكائنات المروقات عن علل الحجاب والعتاب، دارت عليها في الدنيا حتى يرجع إلى معادنها من الغيب، ففي كل لمحة لهم شراب الوصال والكشف والجمال لا مقطوعة ولا ممنوعة، ولتلك الأشربة آثار السكر في وجودهم من هجوم المواجيد عليهم حين سلبتهم جذبات واردات الغيب عن رؤية الأكوان الحدثان، سكرت أرواحهم بشراب رؤية القدم، وسكرت أسرارهم بشراب رؤية البقاء، وسكرت عقولهم برؤية نور الصفات، وسكرت قلوبهم بشراب رؤية الذات، وسكرت نفوسهم بشراب المداناة في الخلوات والمناجاة، ففي كل حالٍ لهم من ذلك الشراب وقتٌ، ووجدٌ، وشوقٌ، وعشقٌ، وهيمانٌ، ووَلهٌ، وهيجانٌ، ليس لهم في الكون سؤلٌ غير هذا الشراب، ولا لهم منىً غير هذا الوصال، به داوى جروح قلوبهم من آلام المحبة لا بشيء دونه.

تداويتُ من ليلَى بليلَى منَ الهوَى   كما يتداوَى شاربُ الخمرِ بالخمرِ

قال بعضهم: إن لله شرابًا صافيًا طاهرًا شهيًا نقيًا، ذخرها في كنوز ربوبيته لأوليائه وأصفيائه، يفجِّر لهم من ينبوع المعرفة في أنهار المعرفة، فسقاهم ربهم بكأس المحبة شرابًا طهورًا، فإذا شربوا بقلوبهم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، سقاهم ذلك في الدنيا في ميدان ذكره بكأس محبته على منابر السنة بمخاطبة الإيمان، وسقاهم في الآخرة في ميدان قربه بكأس رؤيته على منابر النور، بمخاطبته العيان.

قال سهل: فرَّق الله بهذه اللفظة بين الطهور والطاهر، وبين خمور الجنة وخمور الدنيا؛ فإن خمور الدنيا نَجِسةٌ تنجِّس ساحبها وشاربها بالآثام، وخمور الجنة طهورٌ يطهِّر شاربها من كل دنسٍ، ويصلحه لمجالس القدس، ومشهد العزة.

قال جعفر: سقاهم التوحيد في السر، فتاهوا عن جميع ما سواه، فلم يفيقوا إلا عند المعاينة، ورفع الحجاب فيما بينهم وبينه، وأخذ الشراب، ففي أخذه عنه لم يبق عليه منة باقية، وحصله في ميدان الحصول والقبضة.

وقال فارس: منهم من سقاه شراب الهداية فهداه، ومنهم من سقاه شراب الولاية فولاه، ومنهم من سقاه شراب المعرفة فقربه وأدناه، ومنهم من سقاه شراب التوحيد فستره وأواه.

قال أبو سليمان الداراني: سقاهم ربهم على حاشية بساط الود، فأراهم من صحة الخلق، وأراهم رؤية الحق، ثم أقعدهم على منابر القدس، وحيَّاهم بتحف المريد، وأمطر عليهم مطر التأييد، فسالت عليهم أودية الشوق والقرب، فكفاهم هموم الفرقة، وحيَّاهم بسرائر القربة.

وقيل: سقوا شراب المودة في كأس المحبة في دار الكرامة، فسكروا بها، فمشوا في ميدان الشوق، ولم يقنعوا بشيء غير الرؤية.

وقال جعفر: شرابًا طاهرًا مطهرًا صافيًا، ادخره في كنوز ربوبيته، سقاه أولياءه في ميدان كرامته بكأس هيبته على منابر عزه، فإذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طاشوا، وإذا طاشوا اشتاقوا، وإذا اشتاقوا طاروا، وإذا طاروا بلغوا، وإذا بلغوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا أفنوا، وإذا أفنوا أبقوا، وإذا أبقوا صاروا ملوكًا وسادة وأحرارًا وقادة.

قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: في ولايته ونبوته ومعرفته ومحبته، وفي كشف مشاهداته التي لا ينالها إلا بالاصطفائية الأزلية التي تزول عندها جميع الأسباب والسعايات وعلل الأعمال.

قال الواسطي: إن الله تعالى حكم بصفته على صفتك، ولم يحكم بصفتك على صفته، فقال: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾[1]، كما أن جميع الكون به، كذلك جميع الصفات بصفاته، وكما أنه بنفسه يصرِّف النفوس، لا النفوس تصرِّفه على ما يريدون، كذلك بصفته يصرِّف الصفات، والنعوت أجمع.

سورة المرسلات

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ

---

(١) قال ابن الخطيب: إن فسرنا الرحمة بالإيمان فالآية صريحة في أن الإيمان من الله تعالى، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئته بسبب مشيئة الله تعالى وفضله، وإحسانه لا بسبب الاستحقاق؛ لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجَهْل أو الحاجة، وهما محالان على الله تعالى، والمفضي إلى المحال محال ، فتركه محال، فوجوده واجبٌ عقلاً ، وعدمه ممتنعٌ عقلاً، وما كان كذلك لا يكون معلقاً على المشيئة ألبتة. تفسير اللباب لابن عادل (١٦/ ١٥٦).

فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾: أقسمَ الله سبحانه بالمرسلات من رياح العناية المتابعة من شمال قربه وبساتين غيب مشاهدته، والعاصفات من رياح تجلِّي العظمة والكبرياء التي تفنى قلوب الموحدين في سطواتها.

﴿وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾: صبا وصاله التي تنشر طيب الجمال على أرواحهم، فتبقيها بعد فنائها.

﴿فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ﴾: خطابات متتابعة تفرِّق بين الحق والباطل في ساحة القلوب.

﴿ فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾: كشوفات الصفات مع الخطاب والوحي والإلهام.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾: عذرًا للأرواح والعقول، نذرًا للقلوب والنفوس، عذرًا للعارفين، ونذرًا للمريدين.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾: إذا تجلَّى الحق بجلال كبريائه من عيون القدم تنطمس نجوم عقول العارفين مع نجوم معارفهم، فتنخسف أقمار أرواحهم عند شعاع عزة السرمدية، بحيث لم يكن لها عين إلا حارت، ولا معرفة إلا زالت.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾: سماء قلوبهم تنفرج عند بروز أنوار ألوهيته.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾: جبال أسرارهم تنتسف في عواصف قهر سلطان ظهور جلال عزته، لا تَبقى لها آثارٌ في الأنوار.

قال ابن عطاء: إذا انطمست نجوم ظهور المعارف، وكشفت عن سرائر المعاملات، وهو اليوم الذي يفصل بين المرء وقرنائه وأخدانه وخلَّانه إلا ما كان منها في الله ولله.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى

مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: ويل الحسرة يوم الإشهاد للمنكرين أنبيائي وأوليائي ودرجاتهم، والويل يومئذٍ لكل مدعٍ كذّاب، ليس في دعواه معنىً.

قال الجنيد: الويل يومئذٍ لمن كان يدَّعي في الدنيا الدعاوي الباطلة.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾: من لم يكن له في الدنيا نطقٌ وحديثٌ وكلامٌ، كيف ينطق عنده يوم يأتي عنده الكل يهيب، ويسكت عنده كل فصيح.

قال أبو عثمان: أسكتتهم رؤية الهيبة، وحياء الذنوب.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: هذا يوم مفارقة النفس والشيطان عن جوار قلب العارف، وينفصل عن كل محبٍّ غير محبوبه حيث استغرق في وجوده.

قال جعفر: فصل كل فصلٍ مدخولٍ، وفصلُ كل وعدٍ مأمولٍ.

سورة النبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ

ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾: النبأ العظيم كلامه القديم، عظم بعظم الله القديم، مرتفع عن خاطر كل مخالف، لا ينال بركتها إلا أهل الله وخاصته.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾: مهّد أرض قلوب الأولياء، وربطها بجبال المعارف وأوتاد العقول لعساكر تجليه، «الأوتاد»[1]: عصبة من المتمكنين من الأولياء بهم يستقيم العالم والعالمون.

قال بعضهم: الأوتاد على الحقيقة سادات الأولياء، وخواص الأصفياء.

سئل أبو سعيد الخراز عن الأوتاد والأبدال أيهم أفضل؟ فقال: الأوتاد. قيل: كيف؟ فقال: لأن الأبدال ينقلبون من حال إلى حال، ويبدل لهم من مقام إلى مقام، والأوتاد بلغ بهم النهاية وثبتت أركانهم، فهم الذين بهم قوام الحق.

قال ابن عطاء: الأوتاد هم أهل الاستقامة والصدق، لا تغيرهم الأحوال، وهم في مقام التمكين.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾: لهم فوز المشاهدة، وبغيبته المكاشفة ولذة الوصلة؛ لأنهم اتقوا مما سواه، فيعطيهم ما يكفيهم رؤية غيره في بساتين القدس، ورياض

---

(١) إنَّ هذه الآية إنَّما ذكرت ليستدلّ على وجود الصَّانع؛ والشروط فيه أن يكون ذلك أمراً مشاهداً معلوماً، حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع لأنَّ الشيء إذا رأيت حجمه، ومقداره، صار ذلك الحجم، وذلك المقدار عبرة. تفسير اللباب لابن عادل (٩/ ٣٨٠).

الأنس، لا يسمعون إلا كلام حبيبهم، ما يهيِّجهم إلا قربه ووصاله، والشوق إلى جماله؛ ليغنيهم بنفسه عن كل مأمولٍ، قال سبحانه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾.

قال بعضهم: فوزهم على قدر قصودهم ونيَّاتهم.

قال الشبلي: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: كلامًا إلا من الحق، فإنه إذا ظهرت الحقيقة خنست المقادير، وصار الكل هباءً في جنب الحقائق، ومن تحقق بالحق في الدنيا لا يسمعه الحق إلا منه، ولا يشهده سواه؛ لأنه مستغرقٌ في معادن التحقيق، قال الله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾.

قال بندار بن الحسين: الجزاء إذا كان من الله لا يكون له نهايةٌ؛ لأنه لا يكون على حد الأعواض، بل يكون فوق الحدود؛ لأنه ممن لا حد له ولا نهاية، فعطاؤه لا حد له ولا نهاية.

قال بعضهم: العطاء من الله موضع الفضل لا موضع الجزاء، والجزاء على الأعمال والفضل موهبةٌ من الله، يخصُّ به الخواص من أهل وداده.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾: من كان كلامه في الدنيا من حيث الأحوال، والأحوال من حيث الوجد، والوجد من حيث الكشف، والكشف من حيث المشاهدة، والمشاهدة من حيث المعاينة، فهو مأذونٌ في الدنيا والآخرة، يتكلم مع الحق على بساط الحرمة والهيبة، ينقل الله به الخلائق من ورطة الهلاك.

قال ابن عطاء: «الخالص»: ما كان لله، و«الصواب»: ما كان على السنة.

قال الواسطي لأهل الحق: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾، لما كان إليهم من برِّه، فمن كان مأذونًا في الكلام، كان موفَّقًا على قدر علمه.

قال الأستاذ: إنما يظهر الهيبة على العموم لأهل الجمع في ذلك اليوم، وأما الخواص وأصحاب الحضور فهم أبدًا بمشهد العز بنعت الهيبة لا نفس لهم، ولا فرحة أحاط بهم سرادقها، واستولت عليهم حقائقها.

سورة النازعات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ

وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾: ظاهره وعيدٌ، وإشارة النازعات في الحقيقة إلى صولات صدمات تجلِّي العظمة على قلوب العارفين، بنزع الأرواح العاشقة عن المعادن الحدوثية إلى معادن، وطوارقات تجلِّي الكبرياء، فتذروها في هواء الآزال والآباد، حتى لا يبقى إلا وجهه، ولا يدوم إلا ملكه.

﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾: هي الأرواح الشائقة.

﴿وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾﴾: هي الأرواح العارفة، تسبح في بحار ملكوته، وقاموس كبرياء جبروته، تطلب منها جواهر أسرار الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية.

﴿فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾﴾: هي أنفاس الشائقين، وهموم العارفين العاشقين يصاعدها لعالم الملكوت، وجناب الجبروت، تسابق كل هبةٍ.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾: هي العقول القدسية، تدبر أمور العبودية بشرائط إلهام الحقيقة[١].

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾: طير روح كليمه في وادي قدس آزاله وآباده، وطوى لها بعد إصفار القديم والبقاء، فدنا منه، وأغرقه في بحر جماله وجلاله، وأسكره شهود العين، بوصفٍ كاد أن يكون هو هو من حيث الاتحاد والاتصاف، فاستوفى جميع وجوده حظ الربوبية، وبقي سمعه من الاتصاف بصفته، فناداه حتى يكون جامعًا في الاتصاف والاتحاد، فلما كاد أن يدعي الأنائية من حدة السكر، فناداه حتى يفيق من سكر سكره، ولا يتجاوز عن حده، فناداه أين أنت يا موسى؟ أنا، أنا وأنت، أنت، وأحاله إلى

---

(١) قال القاشانى أقسم بالنفوس المشتاقة التى غلب عليها النزع إلى جناب الحق غريقة في بحار الشوق والمحبة والتي تنشط من مقر النفس وأسر الطبيعة أى تخرج من قيود صفاتها وعلائق البدن من قولهم نور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد أو من قولهم نشط من عقاله والتي تسبح في بحار الصفات فتسبق إلى عين الذات ومقام الفناء في الوحدة فتدبر بالرجوع إلى الكثرة أمر الدعوة إلى الحق والهداية وأمر النظام في مقام التفصيل بعد الجمع انتهى ثم إن النفوس الشريفة لا يبعد أن يظهر منها آثار في هذا العالم سواء كانت مفارقة عن الأبدان أولا فتكون مدبرات.

فرعون حتى يكون مشغولاً عن حدة الاتحاد، ولولا الرسالة والإبلاغ لفني في شهود الكبرياء؛ لذلك قال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾، حيث يدَّعي ما ليس له، إذ هو رأى على نفسه عكس قهر القدم، فظن أنه هو في الربوبية، ولم يعرف أن القهر يمنعه عن الوصول إلى الأزل بالاتصاف، فإغراء موسى عليه؛ ليدمر عليه بعزته، ويكذبه بالعلامة الصحيحة الإلهية الربانية مثل العصا واليد البيضاء، وإرسال موسى إلى فرعون موضع الامتحان والتعريف بالامتنان والفرقان بين العرفان والخذلان، ونجاة أهل الإيمان من بين أهل الطغيان.

قال سهل في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾: جوَّع نفسه طائعًا تعبدًا، ثم نادى؛ ليكون النداء أبلغ.

وقال أبو عثمان: طوى أيامًا قبل القصد، ثم قصد طاويًا مقدسًا، فطوى الوادي المقدس، فناداه ربه على التقديس.

قال الصبيحي في قوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: الإشارة إلى فرعون، وهو المبعوث إلى السحرة، فإن الله لم يرسل أنبياءه إلى أعدائه، ولم يكن لأعدائه من الخطر ما يرسل إليهم أنبياءه، ولكن يبعث إليهم الأنبياء؛ ليخرج أولياءه المؤمنين من بين أعدائه الكفرة.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾: فيه بيانٌ أن: المزكَّى المطهَّر هو المهدي يخشى الله لوجود علمه بالله، ومن كان جاهلاً بالله لم يخشَ من الله، وهذا امتحانٌ من الله؛ لقطع حجته، ولم تخفَ على الله سوء عاقبته.

قال ابن عطاء: هل لك أن أطهرك من الجنايات التي تلطَّخْتَ بها، وأردُّك إلى حد العبودية التي بها الفخر والنجاة.

وقال الترمذي: الخشية ميراث صحة الهداية، ألا ترى الله يقول: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾: انظر كيف أشار سبحانه رمزًا عجيبًا في هذه الآية أنه أراه آية صرفًا، ولو أراه أنوار الصفات في الآيات لم يكفر، ولم يدَّعِ الربوبية؛ إذ هناك موضع المحبة والعشق والإذعان؛ لأن رؤية الصفات تقتضي التواضع، ورؤية الذات تقتضي العربدة، فكان هو محجوبًا برؤية الآيات عن رؤية الصفات، فلما لم يكن معها حظ شهود نور الصفة لم ينل على رؤيتها حظ المحبة، ولم يأت منها الانقياد والإذعان؛ لذلك قال سبحانه: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾: ألبسَ الله نعوت قهره نفس فرعون، وظهرت تلك النعوت لها بوصف الشهوة والحلاوة من تأثير مباشرتها، فسكرت نفسه بشرب القهر، فصارت متمردة عاصية كافرة، تدَّعي الربوبية، ولم يعلم الكافر أنها لباسات عارية.

سُئل الواسطي: لماذا خلق الله المعاصي وأظهرها وأظهر هذه الألفاظ التي لا تليق بالربوبية؟ قال: لأنه لم يؤثر على الذات ما أظهر في الحدث من الصفات؛ لأن الصمدية ممتنعةٌ عن الإشارات فضلاً عن العبارات.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾: لما لم يكن صادقًا اُفتضح في الدنيا والآخرة، وهكذا كل من يدعي ما ليس من المقامات.

قال بشر: أنطق الله لسانه بالعريض من الدعاوي، وأخلاه من حقائقها.

وقال السري: العبد إذا تزين بزي السيد صار نكالاً، ألا ترى كيف ذكر الله في قصة فرعون لما ادعى الربوبية، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾، كذَّبه كل شيءٍ حتى نفسه.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾: خاطب العباد بهذه الآية في أوائل مقاماتهم حين وجب عليه تزكية النفوس عن شره هواها والميل إلى حظوظها؛ لأنهم في وقت قصودهم إلى الله لا يجوز لهم الرخص والرفاهية، فقد وجب عليهم الإعراض عن حظوظ أنفسهم خوفًا من الاحتجاب بها عن الوصول إلى الله، ولعلمهم بأنه تعالى يحيط بحركات شهوات نفوسهم الخفيّة حين تميل

بخفاياها إلى مرادها مما دون الله، فإذا جاهدوها وقهروها بتأييد الله أوصلهم الله مقام مشاهدته، وهي جنّة العارفين، فإذا بلغوا إلى درجات المعرفة لم يحتاجوا إلى نهي النفس عن الهوى، فإن نفوسهم وأجسامهم وشياطينهم صارت روحانية، فجانست الأرواح الملكوتية، فشهوات نفوسهم هناك من تآثير حلاوة أرواحهم في مشاهدة الحق، فتشتهي الأنفس ما تشتهي الأرواح، الأرواح في الغيوب، والنفوس في القلوب، فنظرهم هناك إلى كل شيء يكون للنفوس، والأرواح جناتٌ، تظهر فيها أنوار شهود الحق، وأين الكافر والمعطل والمدعي من هذا المقام؟! وهم خُلقوا من الجهالة، فيموتون في الضلالة، وأصحاب القلوب والمعارف عيش أرواحهم عيش الربانيين، وعيش نفوسهم عيش الجنانيين، والله قادرٌ بذلك، يختص برحمته من يشاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ولهذا قال ﷺ: «أسلمَ شيطاني»[1]، وقال: «نحنُ معاشر الأنبياء أجسادنا روح»[2].

قال بعضهم: من تحقَّق في الخوف ألهاه خوفه عن كل مفروح به، وألزمه الكمد إلى أن يظهر له إلا من خوفه.

وقال سهل: لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء، وبعض الصديقين ليس كلهم، وإنما سَلِمَ من الهوى من ألزم نفسه الأدب.

سورة عبس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾: بَيّن الله سبحانه هاهنا درجة الفقر وتعظيم أهله وخسة الدنيا وتحقير أهلها، وأن الفقر إذا كان نعت الصادق في المعرفة والمحبة كان شرفًا له، وهو من أهل الصحبة، ولا يجوز الاشتغال بصحبة الأغنياء ودعوتهم إلى طريق

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الفقر إذا كانت سجيَّتهم لم تكن سجية أهل المعرفة، فإذا كان حالهم كذلك لا يأتون إلى طريق الحق بنعت التجريد، فالصحبة معهم ضائعة، ألا ترى كيف عاتب الله نبيَّه ﷺ بهذه الآية.

وقوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝﴾: كيف يتزكَّى من خُلق على جبلة حب الدنيا والعمى عن الآخرة والعقبى.

قال أبو عثمان: أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بمجالسة الفقراء، وحثَّه على تعظيمهم، ونهاه عن صحبة الأغنياء، بقوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝﴾.

قال الواسطي في قوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾: استهانة بمَن أعرض عنه[1].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾: لعن الله الكافر، وعظم كفره حين لم يعرف صانعه، ولم يعرف نفسه التي لو عرفها عرف صانعها، وكذلك عرَّفه ماهية نفسه بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: قدَّره أصنافًا وأطوارًا، وفي كل صنف وطور له خلقة.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾: يسَّر له طريق الهداية والضلالة.

قال الوسطي: ما أجهله بالمعرفة، وذلك لجهله بالموارد والمصادر.

قال ابن عطاء: يسَّر على من قدر له التوفيق طلب رشده واتباع نجاته.

وقال أبو بكر بن طاهر: يسَّر على كل أحد ما خلقه له وقدر عليه.

قال جعفر: ما أجهله، وأعماه عن الحق.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: لم يفِ بالعهد الأول حين خاطبه الحق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، ولم يأتِ بمراد الله منه، وهو العبودية الخالصة.

قال القاسم: ذكَر أوائله وأواخره وإرادته، وإن كان ذلك من عنده، ثم أمره بالتبتل إليه

---

(١) أي: وليس عليك بأس في ألاَّ يزَّكى بالإسلام حتى تهتم بأمره، وتُعرض عمن أسلم وأقبل إليك، وقيل: «ما» استفهامية، أي: أيُّ شيء عليك في ألاّ يزكّى هذا الكافر. البحر المديد (٧/ ٨).

ورؤية منته.

قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾: صب ماء المعرفة على قلوب العارفين، وشققها نبات الحكمة، وأزهار المحبة.

قال ابن عطاء: صبَّ من ماء معانيه على قلوب أهل معاملته صبًّا، فانشقَّ منها معرفةً ووجدًا، ثم أنبت فيها محبة وحكمًا وفهمًا.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾: أكَّد الله أمر نصيحته لعباده ألا يعتمدوا إلى من سواه في الدنيا والآخرة، فإن ما سواه لا يفقده من قبض الله، حتى يفرَّ مما دون الله إلى الله.

قال الأبهري: يفر منهم إذا ظهر لهم عجزهم، وقلة حيلتهم إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنهم، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد سوى ربه الذي لا يعجزه شيء، ولكن من فسحة التوكل، واستراح في ظل النفوس.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾: لكل واحدٍ منهم شأنٌ يشغله، وللعارف شأنٌ مع الله في مشاهدته يغنيه عما سوى الله.

قال يحيى بن معاذ: إذا شغلتك نفسك في دنياك وعقباك عن ربك، أما في الدنيا ففي طلب مرادها، واتباع شهواتها، وأما في الآخرة فقد أخبر الله عنها بقوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾، فمتى تفزع إلى معرفة ربك وطاعته؟

قال الأستاذ: العارف مع الخلق، ولكنه مفارقهم بقلبه، وأنشد:

ولقــدْ جعلــتُكَ في الفــؤادِ محدِّثِــي ... وأبحـــتُ جـــسمِي مَـــنْ أرادَ جلـــوسِي

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾: وجوه العارفين مسفرةٌ بطلوع أسفار صبح تجلِّي جمال الحق فيها، ضاحكةٌ من الفرح بوصولها إلى مشاهدة حبيبها، مستبشرةٌ بخطابه، ووجدان حسن رضاه، والعلم ببقائها مع بقاء الله.

قال ابن طاهر: كشف عنها ستور الغفلة، فضحكت بالدنو من الحق، واستبشرت بمشاهدته.

قال ابن عطاء: أسفرت تلك الوجوه بنظرها إلى مولاها، وأضحكها رضا الله عنها.

قال سهل: منورةٌ بنور التوحيد، واتباع السنة، ثم وصف وجوه الأعداء والمدَّعين وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾: عليها غبرة الفراق يوم التلاقي، وعليها قترة ذل الحجاب، وظلمة العذاب، نعوذ بالله من العتاب.

قال السري: ظاهرٌ عليها حزن البعاد؛ لأنها صارت محجوبةً عن الباب مطرودةً.

قال سهل: غلب عليها إعراض الله عنها، ومقته إياها، فهي تزداد في كل وقتٍ ظلمةً وقترةً.

وقال الأستاذ: عليها غبرة الفراق، وترهقها قترة ذلِّ الحجاب.

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾: الإشارة في هذه الآيات إلى ظهور تجلِّي الذات والصفات في قلوب العارفين، فهناك تكوَّرت شموس أرواحهم من غلبة نور عظمة الذات، وانكدرت نجوم عقولهم من صولة أنوار الصفات، وسُيِّرت جبال قلوبهم من أثقال واردات محبتها، وتعطَّلت نفوسهم في سطوات جلالها، فهناك سُجِّرت بحار التوحيد، وحشرت طيور التفريد، ولا يبقى إلا وجه ذي الجلال والإكرام، ولكل عارفٍ في كل حالة من هذه الأحوال له قيامة.

قال الحسين: تطمس الشمس بعد تنويرها، وتغور البحار بعد تفجيرها، وتنسف الجبال بتسييرها، وتدرس العشار بعد تعطيلها، وتُخمد الجحيم بعد تسعيرها، وتطوى الصحف بعد النشر، وتحشر الوحوش من القبر، وتزلزل الأرض، وتخرج أثقالها للعرض على الجبَّار، وذلك أصعب مقام المخالفين، وأهون مقام الموافقين، فطوبى لمن أثبت في ذلك المقام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾: زُوِّجت الروح الناطقة بالنفس المطمئنة، فتكونان في جنان القرب أبدًا، كما تكونان في الدنيا في مقامات المراقبات، وصفاء المعاملات.

قال سهل: تآلفت نفس الطبع مع نفس الروح، فمرحت في نعيم الجنة، كما كانتا

متآلفتين في الدنيا على أدائه الذكر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾: قُرِّبت جنان المشاهدات لأهل المداناة، ووصلت حجال الوصلات بأهل الحالات.

قال القاسم: زُخرفت بسرور البقاء واللقاء، وحسن الجزاء، ورضا المولى، ومواصلة العطاء.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾: علمت نفوس العارفين بتعريف الله إيَّاها حقيقة أنفاسها التي صدرت منها بنعت الأشواق إلى جمال القدم أي شيء صنعت في الملكوت، وكيف حرقت حجاب الجبروت، وكيف وصلت إلى قرب القرب ودنو الدنو، وكيف فعل بها الحق من إرادتها في ميادين الذات والصفات، وتعريفها عين العين، وحقيقة الحقيقة، وعلمت أن ما صدر من الحدثان يرجع إلى الحدثان، فإن الحدوثية لا تليق بجناب الربوبية، وهكذا.

قال الواسطي: أيقنَت تلك الأنفس أن كل ما عانت واجتهدت وعلمت لا تصلح لذلك المشهد، وأنه من أكرم بخلع الفصل نجا، ومن قرن بجزاء أعماله هلك وخاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾: أقسمَ الله بنيرات عالم الملكوت إذا شاهدت عرائس الصفات في روازنها، ونظرت إلى قلوب المشتاقين، وجذبتها بنورها إلى أعلى عليين، فلما بلغت الأرواح إلى سرادق الدنو تخنس باستتارها بعد تجلِّيها، وتكنس باحتجابها بعد انكشافها؛ لذوبان الأرواح في نيران الأشواق، وهيجان الأشباح إلى عالم الأفراح، وأقسمَ بظلمة ليالي الهجران في وقت الاستتار في قلوب العارفين، وبطلوع صبح أنوار مشاهدته بنعت الوصال في فؤاد المحبين، وأيضًا أقسم بطيران الأرواح القدسية بجناح المحبة والمعرفة في هواء الهوية، وهذا كنوسها إذا هامت بوجوهها في غيب الغيب، فإذا وصلت إلى قاف القدم، وتذورت بسطوات الأزلية تخنس، وتفر من صدمات القيُّومية إلى

عالم الأمر والحكم؛ لأن الحدوثية تزول عن موازاة القدم، وأيضًا أقسم بسير هذه الأرواح العاشقة في طرقات العلوم المجهولة، فتستفيد منها ما يكون بخلاف العلوم الرسومية.

قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: أين تمضون مما بيَّنتُ لكم في كتابي من طرق السعادة والمواصلة والمداناة وكشف المشاهدات، تذهبون من هذا الطريق المبارك، وتهلكون في أودية الظنون والحسبان، هذا رشدٌ، فاسلكوا مسلك الرضا بالطاعة، وسيروا في ميادين الموافقة.

وقال الواسطي: الخلق كلهم مقبوضون تحت رقِّ الملك، محجوبون لعزة الملك على قوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وهو الذي يطمس الرسوم، ويعمى الفهوم، ويترك الأجسام قاعًا صفصفًا؛ لأنه لا يلحق الإشارة، فإن الكون أقل خطرًا وأضعف أثرًا من أن يكون لها سبيل إلى تحقيق الإشارة، فأين تذهبون من ضعف إلى ضعف، ارجعوا إلى فسحة الربوبية؛ ليستقر بكم القرار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: أغرق الحق مشيئة الحدثان في بحار مشيئة الأزلية؛ إذ مشيئة الخلق صادرةٌ من مشيئة الأزل، هو منـزَّهٌ عن أن يكون في مشيئته مشيئة غير مشيئة الأزلية، فإذا سقطت مشيئتة الحدث ارتفعت الاختيارات والتدابير، واستنارت طرق الرضا والتوكل والتفويض، وبانت حقائق الفردانية؛ إذ الحدثان اضمحلت في جناب عزة الرحمن.

قال الواسطي: أعجزك في جميع أوصافك وصفاتك، فلا تشاء إلا بمشيئته، ولا تعمل إلا بقوته، ولا تطيع إلا بفضله، ولا تعصي إلا بخذلانه، فماذا يبقى لك، وبماذا تفتخر من أفعالك، وليس من فعلك شيء.

سورة الانفطار

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾: إذا ظهر سلطان كبريائه تنشق سماوات القلوب، وتتناثر

نجوم العلوم، وتتفجَّر بحار الأرواح والعقول، ويخرج ما في القبور والصدور من معاني الحقائق، ولطائف الدقائق، علِمت النفوس الروحانية ما قدمت من بذل وجودها بنعت السوق، وما أخَّرت من بقايا رمقاتها لاصطياد طيور التجلِّي والواردات.

قال أبو عثمان: ما قدمت من خيرٍ، وأخَّرَت من شرٍّ.

وقال بعضهم: ما قدَّمت من حقٍّ، وأخَّرت من باطلٍ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾: عجبتُ من هذا الخطاب الذي فيه تهديد المخالف، ومواساة الموافق كيف يخاطب بخطابٍ مع المخالف الذي فيه مواساة الموافق، فيه ما فيه من إشارات علومه المجهولة، ورموزات كنوزه الغيبية التي لا يعرفها إلا دَهِشٌ في الوحدانية، هائمٌ في رؤية الفردانية، مشرفٌ بالحق على ما للحق من مكنون سره، ولطائف برِّه التي بحلاوتها يغر كل مغرورٍ، وينشط كل مجترئٍ في اقتحامه في شاقات البليَّات، وبيان ذلك ظاهرٌ في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، يلقيهم جواب سؤاله؛ ليقولوا: كرمك يا ربنا غرَّنا.

قال ابن عطاء: ما قطعك عن صحبة مولاك.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: لو قيل لي ما غرَّك بي؟ قلت: جهلي بك غرَّني لا غير.

قال منصور بن عمار: لو قيل لي ما غرَّك بي؟ قلت: يا رب ما غرني إلا ما علمته من فضلك على عبادك، وصفحك عنهم.

وقال يحيى بن معاذ: لو قيل لي ما غرك بي؟ قلت: برُّك بي.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾: خلقك فسواك بعلمه عليك في القدم، فخرجت على وفق ما علمت، فصرت مستويًا بما يعلم الأزل متَّصفًا بصفاتي؛ إذ كل صفة مني أورثت صفة فيك، وبصورة الروح الناطقة الأولية ركَّبك، وهي تنورها منك لا يتفاوت بين صورتك وروحك في الخليقة والصورة، فإن صورتك الظاهرة منقوشةٌ بنقش صورة الروح، وأيضًا: ركَّبك في صورة المحبة والولاية والخلافة والمعرفة والجهل بحقائق وجودي ووجودك، الذي لو عرفته عرفتني، وأطعتني بمعرفتك لي.

قال الجنيد: تسوية الخلق بالمعرفة، وتعديلها بالإيمان.

وقال ذو النون: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾، فأوجدك، فسخَّر لك المكنونات أجمع، ولم يسخِّرك لشيء.

قال الواسطي في قوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾: صورة المطيعين

والعاصين، ومن ركَّبه على صورة الولاية ليس كمن صوَّره على صورة العداوة.

قال الحسين: من قصده بنفسه صرف عنه حظه، ومن قصده به فهو المحجوب عن نفسه؛ لأنه يقول: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾: في أي حالة ما شاء أنشأك؛ لأنه خلق آدم بألطاف بره، وباشره بإعلاء قدره، وأظهر الأرواح بين جلاله وجماله، وخصَّه بنفخ الروح فيه، وكساه كسوة، لولا أنه سترها لسجد لها كل ما أظهر من الكون، فمن راداه برداء الجمال فلا شيء أجمل من كونه، ومن راداه برداء الجلال أوقعه الهيبة على شاهدٍ.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾: الأبرار في نعيم الوصال، والفجَّار في جحيم الفراق.

قال جعفر: «النعيم»: المعرفة، و«المشاهدة»، و«الجحيم»: النفوس، فإنَّ لها نيرانًا تُفقد.

قال ابن الورد: «النعيم»: الذكر والمعرفة، و«الجحيم»: المعصية والسكون إلى النفس.

وقال الخواص: طاب النعيم إذا كان منه، وطاب الجحيم إذا كان به.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾: دعا الله بهذه الآية العباد إلى الإقبال عليه بالكلية بنعت ترك ما سواه، فإن الملك كلَّه لله في الدنيا والآخرة، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

قال الواسطي: ذهبت الرسالات والكلمات والسعايات، فمن كانت صفته في الدنيا كذلك فقد أفرد التوحيد.

وقال أيضًا: الأمر اليوم ويومئذ ولم يزل ولا يزال لله؛ ولكن الغيب بحقيقته لا يشاهده إلا الأكابر من الأولياء، وهذا خطاب العام إذا شاهدوا الغيب تيقَّنوا أن الأمر كلَّه لله، فأما أهل المعرفة فمشاهدتهم للأمر اليوم كمشاهدتهم يومئذ، لا تزيدهم مشاهدة الغيب عيانًا على مشاهدتهم له تصديقًا، كقول عامر بن عبد العيس: لو كُشف الغطاء ما ازددت يقينًا، وكحارثة أخبرَ لحضرة النبي ﷺ قوله: «كأنِّي أنظرُ وكأنِّي وكأنِّي»(١).

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٧٣).

سورة المطفِّفين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦) كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢١)﴾.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾: هذا وعيدٌ للمطفّفين كلام الأولياء في مجالستهم يسرقونه ويتبعونه في سوق سالوسهم، فويل الحرمان له من البلوغ إلى درجاتهم، وتفتضح عنده الخلق، وأيضًا هذا خطابٌ مع النفس الأمَّارة تسترق من ديوان حقائق القلوب حظوظ الأرواح المشاهدة غيب الحق، وتبدلها بهواجسها الشيطانية.

قال أبو عثمان: حقيقة هذه الآية والله أعلم عندي: هو من أحسن العبادة على رؤية الناس، ويمشي إذا خلا.

قال الله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤)﴾ أي: أنهم لا بدّ لهم من المحاسبة، والرجوع إليَّ بأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾: وصف الله قلوب المخالفين بالقسوة والرين، وذلك ميراث متابعتهم شهوات أنفسهم، والشهوة إذا غلبت على القلب أطبقت القلب بغاشية الغفلة، فصار القلبُ محجوبًا من أنوار الذكر، مملوءًا من الخطرات المذمومة التي تحجبه عن مشاهدة الغيب، فمن كان هاهنا من الغيب ورؤية الحق محجوبًا فزاد حجابه عند يوم القيامة؛ لذلك وصفهم الله بقوله سبحانه وتعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[1]، حجبهم عن الله ظنونهم وحسبانهم

---

(١) لا يقتضي الحجاب مطلقًا، فإنه يُقيَّد بيوم القيامة، فقد ينكشف عنهم عماهم، وإن كان ذلك دون =

وتشبيههم وخيالهم وشهواتهم وغفلاتهم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾: الطاعة على الطاعة حتى يحجب قلبه عن مشاهدة المنة؛ لأن العجب والرياء بالطاعة يورثان نسيان المنة وترك الحرمة.

قال الواسطي: الكافر في حجاب لا يرونه، والمؤمن في حجاب يرونه في وقت دون وقت، ولا حجاب له غيره، وليس يسعه سواه ما اتصلت بشرية بربوبية قط، ولا فارقت عنه.

قال سهل: حجبتهم عن ربِّهم قسوة قلوبهم في العاجل، وما سبق لهم من الشقاوة في الأزل، فلم يصلحوا لبساط القرب والمشاهدة، فأُبعِدوا وحُجِبوا، والحجاب هو الغاية في البعد والطرد.

قال ابن عطاء: الحجاب حجابان: حجاب بعد، وحجاب أبعاد، فحجاب البعد: لا تقريب فيه أبدًا، وحجاب الأبعاد: يؤدب، ثم يقرب كآدم عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾ : كتاب الأبرار كتاب مرقوم برقم الله، رَقَّمه بسعادتهم الأزلية، وولايتهم الأبدية، وذلك الكتاب عنده لا يطَّلع عليه إلا المقربون المخاطبون بحديثه وكلامه، المكاشفون لهم حقائق الغيبة.

قال أبو عثمان المغربي: «الكتاب المرقوم»: هو ما يجري الله على جوارحك من الخير والشر، رقمها بذلك الرقم، وهو لا يخالف ما رقم به، وذلك الرقم معلَّق بالقضاء والقدر والقدرة بمشيئته عليه، ولا رجوع له عن ذلك، ولا حيلة له فيه، فهو في ذلك معذورٌ في الظاهر غير معذورٍ في الحقيقة، هذا لعوام الخلق، وأما للخواص والأولياء وأهل الحقائق فإنه رقم الله على كل شيء أوجده، لم يشرف على ذلك الرقم إلا المقرَّبون؛ فهم أهل الإشراف، فمن شاهد ذلك الرقم من المقرَّبين عرف صاحبه بما رقم به من الولاية والعداوة، فيخبر عنه وهو الإشراف والفراسة، كما كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «كان في الأمم متكلمون فإن يكُ في أمَّتي فعمر»[1] أي: ممن أشرف على حقائق الرقم، وعلى معاني

=

انكشاف بصائر أهل النعيم؛ لأن محلَّ أهل النعيم؛ وهو الجنة، وكذا أبدانهم لطيف قابل لكل نور ذاتي، ونعيم صفاتي، وأمَّا محلُّ أهل الجحيم؛ وهو النار، وكذا أجسامهم، فكثيف ليس بمقابل لذلك، فليس لهم نعيم صفاتي أصلاً من المطعم، والمشرب، والمنكح ونحوها، وأمَّا النعيم الذاتي فبقدر تصفية ذاتهم وصفاتهم؛ وإنما: قلنا النعيم الذاتي من طريق المشاكلة، وإلا فلا نعيم هناك أصلاً؛ لأنه عالم الفناء عن الحسِّ، وليس عنده ذوق، وبرد وسلام فاعرفه، واجتهد أن تكون من الذين ابيضَّت وجوههم في جميع العوالم، فإن النور الدائم لا يلحقه الظلمة.

(١) رواه أحمد (٦/ ٥٥)، والديلمي في الفردوس (٣/ ٢٧٨).

الكتاب المرقوم، فمن كان بذلك الحال فهو تكلم من جهة الحق بلا واسطة.

قال الحريري: رقَّم الله به قلوب عباده بما قضى عليهم في الأزل من الشقاوة والسعادة، فذلك رقمٌ خفيٌّ في أسرار العباد، وظاهر على هياكلهم، كما قال النبي ﷺ: «كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له»[1].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: يشهد على أسرار الأولياء والأبرار من المقربين.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: هم في نعيم الوصلة ينظرون إلى المشاهدة، وذلك النظر أورث وجوههم نضرة ونورًا وبشارة يعرف صاحبها بها؛ لذلك قال الله: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

قال ابن عطاء: على أرائك المعرفة ينظرون إلى المعروف، وعلى أرائك القربة ينظرون إلى الرؤوف.

وقال جعفر في قوله: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ﴾: تبقى لذة النظر تتلألأ مثل الشمس، في وجوههم رضا محبوبهم عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ليبادر في طلبها المبادرون إلى القربات والمشاهدات بسني المعاملات، وتطهير الأسرار من الخطرات.

قال ذو النون: علامة المتنافسين تعلُّق القلب به، وطيران الضمير إليه، والحركة عند ذكره، والهرب من الناس، والأنس بالوحدة، والبكاء على ما سلف، وحلاوة سماء الذكر، والتدبر في كلام الرحمن، وتَلقِّي النعيم بالفرح، والشكر والتعريض للمناجاة.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٧٤٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٤١).

قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾: بيّن الله سبحانه أحوال المقربين والأبرار، وفرّق بينهم فرقًا عجيبًا، إن الأبرار يشربون من أنهار أنوار الصفات، والمقربون من بحار الذات، ومزج شراب الأبرار من سواقي أنهار المقرّبين، ولو شرب الأبرار صرف ما يشرب المقرّبون لذابوا جميعًا، فالأبرار في مقام الأنس، والمقرّبون في مقام القدس.

قال بعضهم: قال بها المقرّبون صرفًا، ونمزج لأصحاب اليمين، فليس كل من احتمل حمل الصفات قوي على مشاهدة الذات والصفات، وشراب المقرّبين لحملهم الذات والصفات جميعًا.

قال الجريري: يشرب بها المقرّبون على بساط القرب في مجلس الأنس، ورياض القدس بكأس الرضا على مشاهدة الحق تعالى.

سورة الانشقاق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾: إذا أراد الله قلع الكون يلقي على السماوات والأرض أثقال هيبة عظمته وكبريائه، فتنشقُّ السماء، وتُمد الأرض من عكس تجلِّي عظمته وكبريائه، وحق منهما أن يقصد عالمًا عليها من أثقال قهريات جبروته؛ حيث شققهما وهما طائعتان لربهما، وكيف لا يكون منهما طاعته، وهما في قبضة قهر جلاله أقل من خردلة، ألا ترى كيف قال ﷺ: «الكون في عين الرحمن أقلُّ من خردلة»[1]، وكذلك تتجلّى السماء بأرواح العارفين، وأرض قلوب المحبين بنعت العظمة والكبرياء، فتنشقُّ الأرواح، وتزلزل القلوب من وقوع نور هيبته عليها، وبهذا الوصف وصف قلوب المقرّبين عند نزول خطاب الهيبة، قال الله:

(١) هو من الأحاديث التي تفرد بذكرها المصنف في كتبه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾.

قال بعضهم: خطاب الأمر إذا وقع على الهياكل فمن بين مطيع وعاصٍ، وخطاب الهيبة إذا وردت تفنى وتعجز والإقرار معه، كقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾: ورد عليها صفة إلهيته، فانشقت وأذنت لربِّها، وأطاعت، وانقادت، وحق لها ذلك، وهو الذي أوجده.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾: هذا خطابٌ فيه حثٌّ على ائتمار الأمر، والقصد إلى بذل الروح، فإذا بلغ إلى نهايته فملاقيه أنها وأعمال الثقلين لا تليق بعزته وجلاله.

قال أبو بكر بن طاهر: إنك معامل ربك معاملةً ستعرض عليك في المشهد الأعلى، فاجتهد ألا تخجل من معاملتك مع خالقك.

قوله تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩﴾: مسرورًا بلقاء ربه، وما نال من قربه ووصاله، وهذا للمتوسِّطين، ومن بلغ إلى حقيقة الوصال وصار أهلاً له لا ينقلب عنه إلى غيره.

قال ابن عطاء: مسرورًا بما نال من رضا الحق.

قال عبد الواحد بن زيد: مسرورًا بتحقيق ميعاد اللقاء.

وقال إبراهيم بن أدهم: مسرورًا بدخول الجنة، والنجاة من النار.

وقال أبو عثمان: مسرورًا بإنزاله في منازل الأولياء والصدِّيقين.

ويقال: بأن يلقى ربه، ويكلمه قبل أن يدخل الجنة.

﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ۝١٥ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ۝٢٥﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ۝١٥﴾: كان في الأزل بصيرًا فيما قدره، وقضى عليه قبل إيجاده، فعدمه عنده كوجوده، ووجوده كعدمه، لا يخفى عن بصره فيه شيء من أوله وآخره وظاهره وباطنه وشقاوته وسعادته وحياته ومماته، حتى لا يختفي نَفَسٌ من أنفاسه منه إلا هو سبحانه بصير به قبل الإيجاد، وكيف لا يبصره وهو موجده.

قال الواسطي: كان بصيرًا حين خلقه، لماذا خلقه؟ ولأي شيء أوجده؟ وما قدر عليه

من السعادة والشقاوة، وما كتب له وعليه من أجله ورزقه.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾: أقسمَ الله سبحانه بما بقي من عكس أنوار شمس جماله على قلوب المحبين والعارفين دليل الاستتار بعد غيبوبة شمس تجلّيه، وما يضمه من هموم متفرقة في مقام القبض، وقبر مشاهدته إذا استوى في سماء القلوب حين طلع من الغيوب، فلا يبقى فيها آثار ظلمة الطبيعة، والنفس الأمّارة إن حبيبه وجميع أحبائه يركبون على مطيَّات أنوار قربه، ويسيرون فيها إلى ميادين أزلياته وأبدياته، ففي كل نفس لهم منزل وحال وكشف ومشاهدة ووجد ووصال إلى الأبد، وذلك قوله: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾﴾[1].

سورة البروج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾﴾: السماء ذات البروج سماء قلوب العارفين ذات الأبراج من العلوم والحِكَم والحقائق، تسري فيها الأرواح والعقول؛ لوجدان أنوار وجود الحق؛ ولتربية عجائب الخَلق والخُلق.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾﴾: يوم اللقاء والكشف.

﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾﴾: الشاهد هو، والمشهود هو، يرى نفسه؛ إذ لا يراه أحدٌ

---

(١) قال التستري في تفسيره (٢/ ٢٥٤): باطنها لترفعن درجة فوق درجة في الجنة، ولتحولن من حال إلى حال أشرف منها وأسر، كما كنتم في الدنيا ترفعون من درجة إلى درجة أعلى منها، من طمع وخوف وشوق ومحبة.

بالحقيقة، وأيضًا الشاهد هو، إذا تجلَّى بتجلِّي الجمال والحسن، والمشهود كله مستحسن جميل بجماله، وأيضًا الشاهد هو، والمشهود قلوب العارفين شاهدها بنعت الكشف، وأيضًا الشاهد قلوب المحبين، ومشهود لقائه هو شاهدهم، وهو مشهودهم هو شاهد العارف والعارف شاهده.

قال الواسطي: الشاهد هو، والمشهود الكون لا يقال متى شهدهم، ولا يحدث لله شهادة، فحيث كانت الربوبية كانت العبودية؛ لأنه شهدهم قبل خلقهم علمًا وقدرة ورؤية، وتصريفًا في الإيجاد والإبقاء والإفناء، لم يحدث له في إحداث الخلق أحداث؛ لأنه لا فصل، ولا وصل، والوجود معدوم، والمعدوم موجود لم يحضر آباد وقته، وأحضرهم أحداث أوقاته، ولما ثبت الشهود بالمشاهدة وجب أنه لم يكن عنده مفقودًا أبدًا، أو يستحيل أن يكون الباريء مفقودًا.

قال الفارس: كلاهما عائدٌ عليه هو الناظر، والمنظور إليه، وهو الشاهد لخلقه، والمشاهد لهم بوجود الإيمان وحقائقه.

قال الحسين: في هذه الآية علامة أنه ما انفصل الكون عن المكوِّن ولا قاربه.

قال سهل: الشاهد نفس الروح، والمشهود نفس الطبع، وقد وقعت لى نكتة في التوحيد: أنه تعالى لم يزل شاهدًا، فلو ثبت مشهودًا غير نفسه من الحدثان، فإذًا تقول بقدم الحادث والعلم بوجود المحدثات على الحقيقة كان مشهود الحق إذا كان في علمه علم كينونية المكوِّنات، وكيفية وجودها، فإذًا وجودها وعدمها سواءٌ في شهود الحق.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾: يبدئ المفقود من العدم بنور القدم، ويعيد الموجود بقهر استيلاء الوحدانية حتى يصير الموجود معدومًا، ثم يعيده يوم الميثاق للحكم والقضاء، يبدئ بالتجلي قلوب العارفين، فيفنيها ثم يعيد بالتدلِّي فيحييها.

وقال ابن عطاء: يبدئ بإظهار القدرة، فيوجد المعدوم، ثم يعيد بإظهار الهيبة، فيفقد الموجود.

قال جعفر: يبدئ فيَفنى عمَّن سواه، ثم يعيد فيَبقى بإبقائه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤﴾: «غفور» للجنايات، و«الودود» بكشف المشاهدات.

قال الواسطي: «الغفور»: بما يرتكبونه من أنواع المخالفات، و«الودود»: بما أبدئ

عليهم من آثار فضله.

وقال سهل: «الودود» المجيب إلى عباده بإسباغ النعم عليهم، ودوام العافية.

قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾: وصفَ نفسه بإيجاد أعظم خلقه وهو العرش، ثم وصف نفسه بالشرف والتنـزيه والقدس إعلامًا بأنه كان ولا مكان، والآن ليس في المكان؛ إذ جلاله وجماله منـزَّهٌ عن مماسة المكان والحاجة إلى الحدثان.

قال الواسطي: هو أعلى من أن يكون له فيه، وإليه حاجةٌ، بل أظهر العرش إظهارًا للقدرة، ولا مكان للذات.

قال سهل: «العرش»: جماع جلال الشرف.

قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾[1]: كان مريدًا في الأزل بإرادته، منـزَّهًا عن أن يحدث فيه إرادة ثانية، والإرادة مقدمةٌ على الفعل؛ إذ الإرادة قديمةٌ، والفعل منه إيجاد الخلق لا شريك له في إرادته، ولا في إيجاد خلقه، فإذًا الإرادة زائلةٌ، والخواطر عليلةٌ، والتدابير مضمحلةٌ عند ظهور إرادته، يختص برحمته من يشاء بمعرفته، وإنْ كان فارًّا من بابه، ويخذل من يشاء من قربه، وإن كان متزهدًا بزهده.

قال بعضهم: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾: في إظهار ربوبيته وألوهيته.

سورة الطارق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا

---

(١) قال القشيري: إنْ أراد أن يجعل أرباب الأرواح من أرباب النفوس فهو قادر على ذلك، وهو عادل في ذلك، وإن أراد عكس ذلك فهو كذلك فلذا كان العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره، هل أتاك حديث الجنود، أي: جنود النفس التي تُحارب به الروح لتهوي بها إلى الحضيض الأسفل، ثم فسّرها بفرعون الهوى، وثمود حب الدنيا ، والطبع الدني، بل الذين كفروا بطريق الخصوص في تكذيب ، لهذا كله ، فلا يُفرقون بين الروح والنفس ، ولا بين الفرق والجمع ، والله من ورائهم محيط ، لا يفوته شيء ، لإحاطة المحيط بالأشياء ذاتاً وصفاتاً وفعلاً، بل هو أي: ما يوحي إلى الأسرار الصافية، والأرواح الطاهرة قرآن مجيد في لوح محفوظ عن الخواطر والهواجس الظلمانية ، وهو قلب العارف.

نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾﴾: أقسمَ بسماء قلوب الصدِّيقين وما يطرق فيها من نجوم تجلِّي الذات والصفات.

قال سهل: وما طرقَ على قلب محمد ﷺ من زوائد البيان والأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾: أقسمَ بسماء ذات القدم إذا أمطرت أمطار أنوار تجلِّي الكبرياء والجلال والجمال، وأرض قلوب العارفين التي تتصدع بنبات المعرفة، ورياحين المودة، وأزهار الحكمة.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾: أعلمهم الكيد، ولم يعرفهم حقائقه، ولم يعلمهم أن الكيد المحدث عند كيد القدم، وكيده مكره، ومكره منـزَّهٌ عن الخلل؛ إذ هو منـزَّهٌ عن العجز، كيده سبق شقاوة الأشقياء منه، هذا كيده مع الأعداء، وكيده مع الأولياء ظهور الصفات في نعوت الأفعال؛ لتعزيزهم بالأوقات الصافية، وجذبهم إلى رؤية صرف القدم، وتقديسهم عن رؤية العلة بكشف الوحدة.

قال ابن عطاء: «الكيد»: استدراجك من حيث لا تعلم.

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ أي: نزِّه اسمه باسمه عن أن يكون له سميٌّ من العرش إلى الثرى حتى يكون بقدس اسمه مقدَّسًا عن رؤية الأغيار، ويصل بقدس اسمه إلى رؤية قدس الصفات، ثم إلى رؤية قدس الذات، بدءًا بتنـزيه الاسم رفقًا به بألا يضمحل لله في سبحات الصفات وتجلِّي الذات.

قال بعضهم: نزِّه لسانك بعد ذكرك ربك عن لغوٍ وكذبٍ.

قال الحريري: أي: فرِّق أوهام الخلق عن كل ما يتوهمون ؛ إذ العرش حجابٌ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾: خلق آدم ونفخ فيه من روحه، فسوَّى بين تجلِّي

صفته وتجلّي ذاته هناك بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾: مهّد سبيل الأرواح، والقلوب إلى مشاهدته، فهدى من يختصّ منها بالهداية إلى جماله ووصاله.

قال بعضهم: خلق الخلق، فسوّى بينهم في الخليقة، وميّز بينهم في اختصاص الهداية.

قال الواسطي: قدّر السعادة والشقاوة عليهم، ثم يسّر لكلٍّ واحدٍ من الطريقين سلوك ما قَدَّر عليه.

وقال الأستاذ: هدى قلوب العارفين إلى قدس نعته، فراقبوه، ثم شاهدوه، وهدى الموحدين إلى علاء سلطانه في توحيد كبريائه، فتركوا ما سواه.

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ أي: فلا تنساني بقراءتك، فإن العبودية والاشتغال بها حجابٌ عن شهود العين.

قيل: كان يغشى الجنيد في مجلس أهل النسك من أهل العلوم، وكان أحدُ من يغشى ابن كيسان النحوي، وكان في وقته رجلٌ جليلٌ، فقال يومًا: يا أبا القاسم ما تقول في قوله ﷻ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾، فأجابه مسرعًا كأنه تقدم السؤال قبل ذلك بأوقات.

قال الجنيد: لا يَنسى العمل به، فأعجب ابن كيسان إعجابًا شديدًا فقال: «لا تفضض الله فاك منك من تصدر».

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾: السر والعلانية عنده سواءٌ؛ إذ هو يبصرهما بالبصر القديم، ويعلّمهما بالعلم القديم، وليس في القدم نقصٌ بحيث يتفاوت عنده الظاهر والباطن؛ إذ هناك الباطن هو الظاهر، والظاهر هو الباطن؛ لأن الظاهر ظهر من ظاهريته، والباطن بطن من باطنيته، يعلم ما جهر من بكاء العارفين وزفراتهم، ويعلم خفيات ضمائرهم من تلهب نيران فؤادهم شوقًا إلى جلاله وجماله.

قال محمد بن حامد: يعلم إعلان الصدقة، وإخفائها.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾: تذكيره وصف جماله وجلاله، كان

يجذب به قلوب العارفين إلى جمال مولاهم، وهم الذين وصفهم الله بالخشية بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠﴾ أي: من يخشى فراقي، فيسلك مسالك وصالي بنعت الإقبال عليَّ.

قال أبو بكر بن طاهر: عِظْهم، فلا يتَّعظ بموعظتك إلا أهل الخشية، ألا تراه يقول: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝١٣﴾: هذا وصف أهل الدهشة تحت طوارق قهر ظهور الأزليات.

قال ابن عطاء: لا يموت، فيستريح من غمِّ القطيعة، ولا يحيَى فيصل إلى روح الوصلة.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾: أفلح برؤية الله من زكَّاه الله في الأزل من خذلانه.

قال الجريري: أفلح من ظهر من شهوات نفسه، ومتابعة هواه ورعونات طبعه.

قوله تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦﴾: أقبل الخسيس على الخسيس، والشريف على الشريف، والرفيع من أقبل على الله، وترك ما سواه، فهذه وصية الله في كتبه لأنبيائه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨﴾[1]: في صحف إبراهيم الخروج مما سوى الله بنعت التجريد، كما قال: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝١٩﴾ أي: الإقبال على الله بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾. وفي صحف موسى سرعة الشوق إلى جماله، والندم على الوقوف في المقامات عند تعريف الصفات، بقوله: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

سورة الغاشية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠ لَّا تَسۡمَعُ

(١) إن هذا الوعظَ لفي الصحف المتقدمة، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى وغيرهما؛ لأنَّ التوحيدَ، والوعدَ والوعيدَ، لا تختلف باختلاف الشرائع. تفسير القشيري (٨ / ص ٧٠).

فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾: وصف الله ظهور أفعاله العظام يوم يبرز أنوار عظمته ويبدي سطوات عزته، فتغشى القلوب والأبصار، وذللها تحت أنوار كبريائه، وقهر جباريته، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾، ثم وصف وجوه المتكبرين الذين اتقوا من عبادة الله بالإخلاص، ومن محبة أوليائه، وتقشَّفوا على ظاهر العبادة بالرياء، والسمعة بالذلة والخسارة، بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾.

قال بعضهم: خشوع الظاهر نصب الأبدان لا يقربان إلى الله، بل يقطعان عنه، ألا تراه يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾! وإنها يقرب منه سعادة الأزل، وخشوع السر من هيبة الله، وهو الذي يمنع صاحبه من جميع المخالفات، ثم وصف وجوه أوليائه بالنعومة والنضارة بما نالت من مشاهدة ربها، بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾: نعومتها بما نوَّرها الحق من ظهور أنوار جماله لها، راضية لما سعت من بذل وجودها لربها حيث صارت مقبولة برضا الأزل، مقرونة بسعادة الأزل والأبد.

قال الحسين: شاهدت بمشاهدته حقيقة عين الحق.

قال الجنيد: جعل الله الطاعة الخدمة على الأشباح، وخصَّ المعرفة بالأرواح.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾: في جنان قربه التي علَت أوهام المخلوقين.

قيل: في كوامن القدس مقربةٌ.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾: آذان المقربين والعارفين مشغولةٌ بسماع كلام الحق، لا يقع فيها كلام غيره بالحقيقة.

قال بعضهم: لاستغراقه في سماع الحق.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾: عيون أنوار الصفات جاريةٌ في جنان قلوبهم.

قال الحريري: تجري بأربابها إلى معادن الأنوار.

قال الحسين: جريان الأحوال عليه يجري به عين إلى عين، حتى يحصله في عين العين.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ

إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾: سرر أرواحهم مرتفعةٌ من الأزل إلى الأبد، لا تنحطُّ في المقاومات، ولا في المداناة، بل سيَّارةٌ من الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الذات.

قال الخراز: هي سرائر رُفعت عن النظر إلى الأعواض والأكوان.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ أي: أفلا ينظرون إلى أحوال الأرواح وهي حاملة الأبدان، وإلى سماء القلوب التي تبرز فيها أنجم الغيوب كيف رفعت عن استراق أسماع الخواطر والهواجس، وإلى جبال العقول التي تستقيم بها أرض النفوس، وإلى أرض النفوس التي بسطت مهاد العبودية مراكب الأنوار الربوبية، انظر كيف حالهم إلى رؤية الأفعال، ولو كانوا على محل تحقيق المعارف والكواشف لكانوا مخاطبين بما خاطب حبيبه ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

قال بعضهم: تَعرَّف إلى العوام بأفعاله، بقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾، وتَعرَّف إلى الخواص بصفاته، بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وتَعرَّف إلى الأنبياء بنفسه، بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، وتَعرّف إلى نبيّنا ﷺ بأخص التعريف، بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾: إشارةٌ إلى قلوب العارفين كيف طاقت حمل المعرفة.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾: أى إلى الأرواح كيف تسمو بأربابها إلى محل القدس.

وقيل: إلى الأرواح كيف حالت في الغيوب.

قال الحسين: إلى الأسرار كيف أشرقت بالمكاشفات.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾: إلى العقلاء كيف احتملوا مؤنة الجهال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾: انظر كيف نفضّل بعد الوعيد بأن جعل إلى نفسه مأواهم ومماتهم، وتكفَّل بنفسه حسابهم، فينبغي أن يعينوا بهذين الفضلين أطيب العيش في الدارين، ويطيروا من الفرح بهذين الخطابين.

قال أبو بكر بن طاهر: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾: في الفضل، ثم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾: في العدل.

سورة الفجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾.

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾: أقسمَ الله بأشياء عجيبة، وآيات غريبة، أقسم بفجر أنوار كشوف صفاته في قلوب العارفين التي منابعها مشارق الذات الأزلي الأبدي، فتفجرت في أسرارهم أنهار المعارف والكواشف، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾: منها ستُّ ليالٍ في أيامها خلق السماوات والأرض بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، وفي ليلة خلق في يومها آدم، والليلة التي يومها يوم القيامة، والليلة التي كلَّم الله موسى، والليلة التي أسرى بالنبي ﷺ فيها، و«الشفع»: القلب والعقل، و«الوتر» هو الروح، وأيضًا «الشفع»: العقل والروح، و«الوتر»: هو السر المنفرد عما دون الله، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾:أي ليلة قبض الأرواح إذا سارت عنهم بسطوع نور بسط اليقين.

قال ابن عطاء: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾:هو محمدٌ ﷺ؛ لأن به فُجِّرَت أنوار الإيمان، وغابت الظلم،

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: وليالي موسى التي أكمل بها ميعاده في قوله: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾، ﴿وَالشَّفْعِ﴾: الفرائض، ﴿وَالْوَتْرِ﴾: السنن.

وقال: «الشفع»: الخلق، و«الوتر»: الحق.

وقال سهل: «الفجر»: محمدٌ ﷺ منه تفجَّرت الأنوار، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: هم العشرة من أصحابه الذين حُكِم لهم بالجنة، و«الشفع»: الفرض، و«الوتر»: الإخلاص لله في الطاعات، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ قال: أهل التوحيد في أمته، هم السواد الأعظم.

قال الأستاذ: و«الفجر»: قلوب العارفين إذا ارتقوا من حد العلم، وأسفر صبح معارفهم، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان مما تجلَّى في قلوبهم من البيان.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾: هي الروح التي صدرت من نور خطاب الأول الذي أوجدها من العدم بنور القدم، واطمأنت بالحق وبخطابه ووصله، فدعاها إلى معدنها الأول، وهي التي ما مالت من الأول إلى الآخر إلى غير مشاهدة الله، راضيةً من الله بالله، مرضيةً عند الله بنعت الاصطفائية الأزلية.

قال القاسم: أي: يا أيَّتها الروح المتَّصلة بالحق اطمأنت ورضيت بما قضى لها وإليها ارجعي إلى الذي زينك بهذه الزينة العظيمة، حتى أصلحك للرجوع منه إليه.

قال الحسين: ﴿النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾: هي النفس الواحدة، و«النفس الشاكرة»: هي النفس المرحومة، و«النفس الخاصة»: هي النفس العارفة، و«النفس العاقلة»: هي النفس الراضية، و«النفس الأمارة»: هي النفس الجاهلة.

قال أبو عبد الله بن خفيف: النفس المطمئنة ألبسها الحق أوصاف الهداية، وصارت نفسًا لوامة.

وقال ابن عطاء: النفس المطمئنة العارفة بالله التي لا تصبر عن الله طرفةَ عينٍ.

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾

أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾﴾: أقسمَ الله سبحانه بمكة التي فيها بيته الذي فيه آيات شروق أنوار صفاته فيها، لمشاهدي الحضرة، وطلاَّب القدرة، أقسم مما يبدو منها من أنوار تلك الأسرار.

قال الواسطي: أي: يُحِلُّونك بهذا، أقسم فيك أعظم البلد، كما سماها طابة طابت به وبمكانه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ أي: في استواء العقل، واعتدال الحسن.

قال ابن عطاء: في ظلمةٍ وجهلٍ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾: عين الروح، وعين القلب، وعين السر التي تبصر بها عجائب المشاهدات والمكاشفات.

قال ابن عطاء: عينٌ في رأسه يبصر بها آثار الصنع، وعينٌ في قلبه يرى بها مواقع الغيب.

قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾: طريق الشريعة، وطريق المعرفة، والطريق إلى الصفات، والطريق إلى الذات.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾: العقبة مقام المجاهدة، ومحاربة النفس الأمَّارة التي تحارب صاحبها بآلة قهر الحق، واقتحامها لا يكون إلا بفكِّ الرقبة، وفكُّ الرقبة عن المنة والأذيَّة، وإطعام الطعام في تجوُّع النفس، والحاجة إلى إيثار الله.

قال القاسم: العقبة نفسك، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، وهو أن تعتق نفسك من رقِّ الخلق، وتشغلها بعبودية ربك.

قال بعضهم: تلك العقبة هي مجانبة الاختيار، والرضا بتصاريف الأقدار.

قال الواسطي: فكُّ الرقابِ من أربعةِ أشياءٍ: من نفوسهم، وأفعالهم، ورؤية الفضل، وطلب القربة.

قوله تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝﴾[1]: «اليتيم»: المنقطع عن مقام المواصلة، و«المسكين»: العاشق المتحيِّر الذي يتمرَّغ في تراب بابه.

قال جعفر: هو ما يتقرَّب به إلى ربك في تعهد الأيتام، وتَفقُّدهم.

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝﴾.

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝﴾: أقسم الله بشمس جلال قدمه إذا ارتفعت من مشارق قلوب العارفين، فنوَّر بسناها أسرارهم، وأيضًا أي: وشمس عرفانهم حين أشرقت بنور الإيقان، وأورث لهم لطائف العيان والبيان، وقمر صفاته إذا تتابعت أنوارها عقيب كشوف أنوار ذاته في فؤاد المقرَّبين، وأيضًا أي: بقمر الإيمان إذا تلا شمس العرفان، ونهار صباح الأزل إذا تجلَّى لأرواح الموحدين والصدِّيقين، وليلُ تحيُّر أهل الفناء في ميادين وحدانيته؛ حيث لا يدركون منافذ درك الحقائق، وأيضًا أي: بليل قهريات عظمته إذا تغشى بعين الامتحان أفئدة الطالبين والمطلوبين؛ لأن الكل في ضرب هذا البلاء، حتى قال سيد الورى ﷺ: «إنَّه ليغانُ على قلبي»[2]، وسماء قلوب المحبِّين فيها أبراج الغيوب تسري فيها نيِّرات كشوفات الملكوت والجبروت وما بينهما، أقسم بالفعل، ثم بالصفة، ثم بالذات، وجميعها خبرٌ عن عين الجمع في الحقيقة، وفي عين التفرقة من حيث رسم الحقيقة، وأرض عقول العارفين التي هي مساقط شروق أنوار المشاهدة، بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، والذي بسطها لنزول مهاد

---

(١) أي: ذا فقر، يقال: ترِب فلان: إذا افتقر والتصق بالتراب، ومَن قرأ «فكَ» و«أطعمَ» بصيغة الماضي فبدل من «اقتحم».

(٢) تقدم تخريجه.

الربوبية عليها، وبالذي باشرها بنور الفعل والصفة والذات؛ ليجري فيها أنهار الكواشف والمعارف، وينبت فيها أزهار المحبة، وأثمار الحكمة، ورياحين الشوق، والعشق وياسمين المودة، والزلفة، والنفس الناطقة العارفة التي صورها بصورته، وألبسها نعته، ووصفه في مدارج الغيوب، وأسكنها في بطون القلوب، ومن سوَّاها بتسوية الصفة، ورقَّمها بنور الأزلية، سبحان المقدس عن كل شوبٍ من العرش إلى الثرى! ثم بَيَّن أنه تعالى عرَّفها طرق لطفيات الذَّات، وقهريات الصفات بنفسه بلا واسطة، بقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾، عرَّفها أولاً طريق القهر حتى عرفت المهلكات، ثم عرَّفها طريق اللطف حتى عرفت معالجتها من المنجيات، والمقصود منها: عرفانها عين الحق بطريق القهر واللطف حتى تكلَّ في معرفة صانعها.

قال القاسم: ألهمَ أهل السعادة التقوى، وأهل الشقاوة الفجور.

وقال الواسطي: ألهمها فجورها وتقواها من غير تعلُّمٍ من المخلوقين من غيبٍ إلى غيبٍ.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ أي: فرَّ عن العذاب والحجاب من زكَّاه الله في الأزل من خذلانه بفوز مشاهدته، وخاب من أحمله في الأزل بالشقاوة والحرمان عن مشاهدة الرحمن.

قال ابن عطاء: أفلح من وُفِّق لمراعاة أوقاته.

قال أبو بكر بن طاهر: أفلح من طهَّر سرَّه عن التدنس بالدنيا، وخاب من أشغل سره بها.

وقال بعضهم: أفلح من أقبل على ربِّه، وخاب من أعرض عنه.

وقال الواسطي: أفلح مَن زكَّاه الله بالإلهام، وخاب من دسَّاها بالإبعاد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾: الخوف لمن لا يعرف عواقب الأمور، وهو منـزَّهٌ عن أن يكون في حكمته خللٌ، أو لذاته وصفاته ضررٌ، فإنَّه تعالى من خصَّه بالاتصاف بصفاته، والتجلي بأنوار ذاته، قد أسقط عنه خوف الدارين، فلا يخاف من الله بالله؛ لاستغراقه في الله.

قال الواسطي: من ألبسه نعوته لا يخاف عقباها، كما لا يخاف الحق عقبى ما أجرى على خلقه، فإذا اعترض عليه معرضٌ يخاف الخوف من خوفه.

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ أي: وليل قهره إذا يغشى قلوب المحرومين عن مشاهدة الحق، ونهار أنوار مشاهدته إذا تجلَّى لأرواح العارفين، نوَّرها بضياء قدسه، ولطائف أنسه.

قال الأستاذ: وليل أصحاب التحيُّر يستغرق جميع أقطار أفكارهم، فلا يقتدون إلى الرشد، ونهار أهل العرفان إذا تجلَّى بضيائه لقلوبهم.

قال سهل: أقسمَ الله بنفس الطبع، ونفس الروح، وهو الضوء مثلٌ في إشراقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾: سعي البعض بالنفوس؛ لطلب الدرجات، وسعي البعض بالعقول؛ لطلب الكرامات، وسعي البعض بالقلوب؛ لطلب المشاهدات، وسعي البعض بالأرواح؛ لطلب المداناة، وسعي البعض بالأسرار؛ لفنائها في أنوار الذات وبقائها في أنوار الصفات، فسعي البعض بالإرادة، وسعي البعض بالمحبة، وسعي البعض بالشوق، وسعي البعض بالعشق، وسعي البعض بالمعرفة.

قال ابن عطاء: باطن هذه الآية أن يرى سعيَه قسمته من الحق له من قبل التكوين والتخليق، بقوله: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، وأن السعي له مراتب كمراتب المتَّصلين بالسلطان والواصلين إليه والندماء والجلساء وأصحاب الأسرار، كذلك سَعْي المريدين والمرادين والعارفين والمحبين والمشتاقين والواصلين والفانين عن أوصافهم والمتَّصفين بأوصاف الحق هذا إلى ما لا عبادة له ولا غاية.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ أي: بذَّل وجوده، والكونين، وتبرَّأ من الدارين؛ لمشاهدة الله، ووصاله ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾: من رؤية الأعواض، ومعارضة النفس، والنظر إلى

غير الله.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦﴾: بكشف جماله وجلاله للعارفين، وقربه من الموحدين، وترى ما وعد الله له في الأزل بوصوله إليه، ولا يجري على قلبه خاطر الشك.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾: يسهِّل له طريق الوصول إليه، ويرفع عنه الكلفة والتعب في العبودية.

قال بعضهم: أعطى الدارين، ولم ير سيئًا في طلب رضا الله، واتَّقى اللغو والشبهات، و«صدَّق بالحسنى»: قام على طلب الزلفى.

قيل في قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾: يعني وعدًا صادقًا من الله أن يسير عليه ما خلقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢﴾: جرَّد التوفيق عن الاكتساب، وأسقط عن المعرفة الكلفة.

قال سهل: المعرفة.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾: هذا الرضا لا يكون من العارف حتى يفنى في المعروف، ويتَّصف بصفاته، ويتَّحد به حتى يكون نعته في الرضا نعت الحق.

قال الجنيد: يصل إليه أنوار الرضا، ويتحقَّق له مقامه برضانا عنه، فإنه لا يصل إلى مقام الرضا عن الله أحدٌ إلا برضا الله عنه.

قال الواسطي: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ بنا عما أنفق، فما خسرت تجارةُ من كنت له عوضًا عن تجارته.

سورة الضحى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾.

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ أي: وطلوع شمس جلالي عليك بنعت عرفانك، يا محمد في أيام الوصلة وليل النكرة، حيث كنت في ليل الحيرة من غلبة ليل امتناعي

عن إدراكك كنه القدم؛ حيث قلتَ: «لا أحصي ثناءً عليك»[1].

قال ابن عطاء: بمكاشفات سرّك بنا، واشتغالك بالدعوة نظر إلى الخلق.

وقال الجنيد: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾: هو مقام الأشهاد ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾: مقام العين الذي قال النبي ﷺ: «إنه ليُغانُ على قلبي»[2].

قيل: ويوم أسرار العارفين، وظلمة أفعال المخالفين.

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾: أقسمَ الله بهذا القسم أنّه تعالى ما ترك محمدًا ﷺ في محل الإنسانية من مشاهدة الأزلية في الأزل، ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾: حين اصطفاه بالقدم، وكيف يدخل في اصطفائيته وسوابق محبته الأزلية خللٌ من جهة الأفعال؛ إذ هو منـزَّهٌ عن الصغائر.

قال ابن عطاء: ما حجبك عن قربه حين بعثك إلى خلقه.

وقال الواسطي: ما أهملك بعد أن اصطفاك.

قوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾: ما وجد العارف في الدنيا من كشف الجمال بالإضافة إلى يوم الوصال كقطرةٍ في البحار أي: لك من الدنو عندي من المعاملات السنيَّة، والدرجات العلية، لو انكشف لك ما نظرت إلى ما وجدت منا في الدنيا، فإن أمر القرب والمشاهدة على مزيد في كل نفس شوق حبيبه إلى نفسه، ورفع قدره عن الأكوان وأهلها، وأخبره عما له من ذخائر المكاشفات، وعجائب المشاهدات.

قال سهل: ما ادَّخرت لك في الآخرة من المقام المحمود ومحل الشفاعة خيرٌ مما أعطيتك في الدنيا من النبوة والرسالة.

وقال بعضهم: ما لك عندي من مخزون الكرامات أجلُّ مما يشاهده الخلق؛ لأنك الشفيع المطاع، والناطق بالإذن حين يُؤذَن لأحدٍ بالكلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾: هذه بشارةٌ لأمته المرحومة، فإنه لا يرضى حتى يدخل الله جميع أمته الجنة بلا حساب ولا عتاب ولا حجاب، وكيف يرضى العاشق من معشوقه حتى يكون هو المعشوق يصير هو هو، ولا يكون ذلك إلا بعد فناء نعوت الحدث في نعوت القدم.

قال ابن عطاء: كأنه يقول لنبيه ﷺ: أفترضى بالعطاء عوضًا عن المعطي؟ فيقول: لا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

فقيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ أي: على همةٍ جليلة؛ إذ لم يؤثر فيك شيءٌ من الأكوان، ولا يرضيك شيءٌ منها.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ أي: كنت يتيمًا منقطعًا عنا فينا، فآواك عنك بنا إلينا، ووجدك متحيِّرًا عن إدراك حقيقتنا، فكحلناك بكحل أنوار ربوبيتنا حتى أدركتنا بنا، ووجدك عائلاً من كنوز علوم القدم، ووصال الأبد، فأغناك بهما، فإذا كان كذلك فلاطف كل منقطعٍ عنا وهو يتم الفراق بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾، ولا نكتم شرفك ورفعتك عن كل سائلٍ طالبٍ، وقل له حقائق لطفنا باللطف، ولا تمنعه بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾، وظهر بعض ما كوشفت من أسرارنا وأنوارنا ولطفنا ورحمتنا لكل مشتاقٍ إلى لقائنا، وحبِّبهم إلينا بحديثك عنا بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾: معناه: وجدك اليتيم فآوى بك، ووجدك الضال فهدي بك، ووجدك العائل فأغنى بك، ولا يكون الوجدان إلا بعد الطلب، وكان طالبًا له في الأزل، فوجده، ثم أوجده سفيرًا بين خلقه.

وقال جعفر في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾: كنت ضالاً عن محبتي لك في الأزل، فمننت عليك بمعرفتي.

قال الحريري: وجدك مترددًا عن غوامض معاني المحبَّة، فهداك بلطفه إلى ما رمته في ولهك، وهذا مقام الوله عندنا.

قال بندار بن الحسين في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾: كنت قائمًا مقام الاستدلال، فتعرَّفت إليك، وأغنيتك بالمعرفة عن الشواهد والأدلَّة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: وحيد الأمثل لك، ولا نظير في شرفك وهمتك، فآواك إليه.

وقال بعضهم في قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾: لا تعلم قدر نفسك، فأعلمتك قدرك.

قال جعفر في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أي: العارين عن خلعة الإسلام، ولا تقنط من رحمتي، فإنِّي قادرٌ ألبسه لباس الهداية، والسائل إذا سألك عني فدلَّه عليَّ بألطف دلالة، فإنِّي قريبٌ مجيب.

وقال ابن عطاء: المؤمنون كلهم أيتام الله في حجره، فلا تقهرهم أي: لا تبعدهم عنك،

وسؤالهم أسرار الله، فلا تنهرهم ولِنْ لهم وألطف بهم.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ : حدِّث به نفسك؛ كي لا تنسى فضلي عليك قديمًا وحديثًا.

قال بعضهم: حدِّث بنعمة ربك عليك، فإنك لا تبلغ أقصاه؛ لتعلم بذلك عجزك عن تعداد نعمه عليك؛ لذلك قال النبي ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك»[1].

سورة الانشراح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ .

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ : شرحَ صدره- صلوات الله وسلامه عليه- طلوع شمس جلال الحق فيه، فأضاء منه روحه وقلبه وعقله، وطار روحه في الأزل، وطار عقله في الأبد، وطار قلبه في الجبروت، ونفسه في الملكوت، فتولَّى الحق شرح صدره بنفسه لا بغيره، وذلك حين ظهر لسرِّه ذاته القديم، وصفاته الأزلية، فصار موسعًا مبسوطًا بوسع الذات والصفات، فشرْحُه يزيد إلى الأبد؛ لأن جلال الحق لا نهاية له، وكان صدره محل تجلّي الحق، فبقي مع الحق في ساحة الكبرياء حيث لا حيث ولا زمان ولا مكان، بل نور الذات في نور الصفات، ونور الصفات في نور الذات، فهو بين النورين محتجبًا بأنوار الحقيقة عن أوهام الخليقة؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ : رفع قدره عن إدراك كل إدراك، وأعلى ذكره بذكره عن ألسنة كل وصَّاف، لا يصفه الأولون والآخرون بكمال وصفه؛ لأنه كان منسلخًا بأنوار الربوبية من أوصاف الحدوثية؛ لذلك قال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ ، وتلك الحدوثية أثقلت جناح همَّته العلية الربانية؛ حيث منعته عن الوصول بالكلِّية، بقوله: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ ، فلما خَفَّته عن ذلك جعله رفيع القدر بقدره؛ لذلك قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ، وسَّع صدره أولاً بكشف المشاهدة، فلما وصَّل إليه أثقال سطوات الربوبية وثقَّل

---

(١) تقدم تخريجه.

عليه صدمات القدوسية كاد أن يفنى تحتها، فبدَّلها الله له، وأنوار الكبرياء بأنوار البقاء، وأنوار الجلال وأنوار القدس بأنوار الأنس، وجعله متَّصفًا بصفاته، فقوى بالحق، وحمل الحق بالحق، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، إلى قوله: ﴿ذِكْرَكَ﴾.

قال سهل: ألم نوسِّع صدرك بنور الرسالة، فجعلناه معدنًا للحقائق.

وقال ابن عطاء: ألم نوسِّع سرَّك لقبول ما يَرد عليك.

وقال في قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾: أعباء النبوَّة والرسالة، فكنت فيها محمودًا لا حامدًا.

وقال جعفر: ألم نشرح صدرك لمشاهدتي ومطالعتي.

وقال القاسم: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾: ألم أزِل ملاحظة المخلوقين عن سرِّك.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾: جعلتُ تمام الإيمان بي بذكرك معي.

وقال أيضًا: جعلتُك ذكرًا من ذكرى، فكان من ذكرك ذكري.

وقال ذو النون: هِمم الأنبياء تحول حول العرش، وهمَّة محمد ﷺ فوق العرش؛ لذلك قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

قال سهل: أزلنا عنك الهمَّة إلا لنا، والفكرة في سوانا، والحركة والسكون إلا بأمرنا.

قيل في قوله: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: هو الرجوع من حالِ المشاهدة إلى حال بلاغ الرسالة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾: مع عسر المجاهدة يسر المشاهدة، ومع عسر الانفصال يسر الاتصال، ومع عسر القبض يسر البسط، وزاد يسرًا على يسرٍ على يسيرٍ، وجعلها يسرين بعد عسر، «العسر»: هو الحجاب، و«اليسر»: كشف النقاب، ويسر آخر رفع العتاب.

قال الجوزجاني: مع الصبر عن الحرام، وشبهات الاسترواح إلى عزِّ التوكل.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾: فإذا فرغت ما دون الله فابذل نفسك لله، ثم ارغب مما لله إليه، فإنه درجةٌ لا تليق بغيرك.

قال جعفر: اذكر ربك على فراغ منك عن كل ما دونه.

وقال ابن عطاء: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب بطلب الشفاعة.

وقال القاسم في قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾: يكون رغبتك فيه وإليه.

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾: أقسمَ الله بمواضع تجلِّي جماله وجلاله، أما «التين»: فشجرة آدم التي نهاه عن قربها وهو متجلٍّ عنها له، و«شجرة الزيتون»: التي تجلّى منها لموسى، حيث قال: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، وقال: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، وطور سيناء الذي تجلَّى عنده أيضًا لموسى، ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾: هو الذي بَيَّته فيه، وهو محل آياته، وكشوف صفاته، بقوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾؛ لذلك قال ﷺ: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»[1]، وأيضًا ﴿وَٱلتِّينِ﴾: أي: شجرة الروح القدسية، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾: شجرة العقل القدسي، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾: هو القلب العارف بالله، ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾: صدر المحبِّ المتمكن.

قال الجنيد: «التين»: بمسجد إيليا، «والزيتون»: مسجد بيت المقدس، «وطور سنين»: مسجد طور، و«هذا البلد الأمين»: المسجد الحرام، وإنما هذه مساجد عظَّمها الله؛ لأنها بقاع الله؛ لأن الله جلَّ ذكره يُذكر فيها، فأقسم بها.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: أقسمَ الله بهذه المكرَّمات أنه خلق آدم في أحسن منظر، وأكرم خلقه؛ إذ سوَّاه بنور كشف صفاته، وإلباسه إياه سنا ذاته.

قيل: في أحسن صورة. وقيل: في أتمِّ معرفة.

وقال بعضهم: «حسن التقويم»: وصف قائمٌ بالحق لا عبارة عنه، وكل عبارة عن تمام تقويمه من تفسيره، وليس لنهاية العبارة عند لفظ.

---

(١) تقدم تخريجه.

سورة العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾: كان ﷺ شاهدًا في الحضور، غائبًا عن الرسوم، تحوَّل حول الحقائق، وتكتَّم أسرار المعرفة، لا يتحدث بحديث العشق، ولا يرمز بلطائف الحب، كان مستغرقًا في القرب، كأنه جعل نفسه في جانب عن الأجانب، في حواسٍ عن تلك القصة، معرضًا مراقبًا عاشقًا، كأنما كان لم يكن له خبرٌ، وهو كان في محل العيان؛ لكن لم يكن في البيان، أقبلَ بالسرِّ نحو المراد، وإن لم يكن هناك في المراد قرعَ الحق باب قلبه؛ لأنه هو المريد، والحبيب هو المراد، الأحد طالب، وأحمد المطلوب، لا جرم الطلب منه نداءٌ؛ إذ أوحى إليه قبل طلبه، فقال: ﴿ٱقْرَأْ﴾، كأنه كان قارئًا؛ إذ شاهد الأدنى الحق بالحق في الأزل؛ ولكن كان غائبًا عن المحضر الأعلى لشهوده الأدنى، فقال: «ما أنا بقارئ»[1]: يعني: أنا لا أقرأ غير الثناء عليه، قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أخذه بالاسم، وكشف على ظاهر المعرفة، ثم بان المسمَّى له، بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾، ثم غيَّبه في الغيب، وحيَّره في الهوية بتحقيق الإشارة، بقوله: ﴿ٱلَّذِى﴾، فلمَّا غاب في الغيب أخذ يده من استغراقه في بحر الأزل، وأحضره ساحة أنوار الصفات في مشاهد الأفعال، بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، هكذا فعل بالمرادين، وجعل الطالبين حيارى في طلبهم، ألا ترى شأن موسى ﷺ كيف أقبل عليه في طلبه، فناجاه بعد أربعين يومًا؛ لأنه كان مريدًا، والمصطفى ﷺ كان مرادًا؛ لذلك ناجاه بالبديهة، إظهارًا لحبه البالغ، واصطفائيته الكاملة.

قال الخليل: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾، والكليم قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤)، ومسلم (١/ ١٤٠).

وحيث ظهر كمال المحبَّة قال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾.

قال بعضهم: أهلِ الإرادة في الطلب، والمرادون مطلوبون، ألا ترى أن إبراهيم كان طالبًا بقوله: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾، ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾، ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، والمراد مطلوبٌ، وذلك صفة الحبيب صلوات الله وسلامه عليه، ألا ترى أنه لما قيل له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، استقبله الأمر من غير طلب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: علَّم بعضًا بالأفعال، وعلَّم بعضًا بكشف الصفات، وعلَّم بعضًا بظهور الذات، علَّم أهل الملكوت بالعلم ما بان عن علم القدم، وعلَّم آدم الأسماء بغير العلل، علَّم الإنسان ما لم يعلم من نعوت القدمية، وأسمائه الأزلية حين عاين الحق له بالصفة، حيث قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، ثم عاين له بالذات، حيث قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، علَّم العارف ما لم يعلم من أسراره المكتومة، وأنبائه العجيبة، وكلماته السرمدية التي كل حرف منها دليلٌ إلى عيان عيانه، وبيان بيانه.

قال سهل في قوله: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾: أثبتَ في اللوح ما جرى العلم والقلم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾: الإنسان الخسيس يطغى برؤية الدنيا الدنيَّة، وأي الإنسان هذا من الإنسان الذي استغنى بالله، واستغرق في جمال الله، واتصف بصفات الله، وصار متحدًا بالوحدة، وسكرًا من شراب العزة، وغلبت عليه الأنائية، فيطغى برؤية أنوار الاتصاف، ولا يعلم أنه في حواشي بحار عظمته، ولم يذق منها قطرةً بالحقيقة، فلما أعلمه الحق بأنه لا شيء وفي لا شيء من الربوبية أحوجه إلى مقام الإرادة برجوعه إليه بنعت الافتقار بعدما رجع بالصفة إلى معدن الذات، وهذان المعنيان في قوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾.

قال ابن عطاء: رؤية الغنى تورِّث الطغيان والبطر؛ لأن الغنى يورِّث الفخر، والفخر يورِّث الطغيان:

قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾: لما انكشفت صفات القدم لتحبيب كان أن يسكر وشطح، وغلب بما رأى في نفسه من إحاطة أنوار الربوبية، جرَّه الحق من مقام الربوبية إلى معدن العبودية، بأن نصَّب له في سجوده حجال الأنس، ومهَّد له فيه بساط القدس؛ ليدنو به منه، ويقطع مفاوز الآزال والآباد في سجدةٍ واحدة، ليس الاقتراب بالاكتساب، إنَّما أراد خلو سره عن الدارين وتربيته في مقام العبودية؛ حتى يكون إمامًا للصديقين والمتمكنين من

العارفين، وأهل الإرادة من المؤمنين إظهارًا للتواضع والتذلُّل لجبروته وملكوته.

قال ابن عطاء: اقترب إلى بساط الربوبية فقد أعتقناك من بساط العبودية.

وقال الواسطي: العوام منقلبون في صفات العبودية، والخواص مكرمون بأوصاف الربوبية، ولا يشهدون غير صفات الحق؛ لأن العوام بمحتمل الصفات لضعف أسرارهم، ويعدهم عن مصادر الحق.

قال جعفر: اقترب من حيث العبودية فقد قرَّبتك من حيث الربوبية.

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾: تلك الليلة من كشف جماله للعارفين، وأهل شهوده من المقرَّبين، قدَّر منازلهم في مقام المعارف والكواشف، وقدَّر مقادير الغيوب، وأبرز أنوار ملكوته وجبروته لأهل القلوب؛ لذلك تتنزَّل الملائكة والروح في تلك الليلة، يبشرونهم بالوصال، وكشف الجمال أبدًا.

قال سهل: ليلةٌ قدَّرتُ فيها الرحمة على عبادي.

وقيل: نزول الملائكة في تلك الليلة؛ لاسترواح قلوب العارفين.

قال الأستاذ: ليلةٌ يجد العابدون فيها قدر نفوسهم، ويشهد العارفون فيها قدر معبودهم، فشتَّان بين وجود قدرٍ، وبين شهود قدرٍ!

قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ﴾: لما بشرَّهم بأعالي الدرجات وسني الكرامات وسلامتهم من جميع البنيات، يسلِّم عليهم ويصافحهم؛ لتصل بركات بعضهم إلى بعض.

قال سهل: سَلِم من انقطعت أوقات العارفين القائمين معه على حدود الأحكام من الأوامر والنواهي.

سورة البينة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾: وصفَ الله النفس الأمَّارة وأعوانها من الشياطين أنها عارضت بيِّنات كواشف الملكوت للأرواح والقلوب والعقول، وأشد إنكارًا إنكارٌ من عين البيِّنة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾: الإخلاص في العبودية: تجريد السر عما سوى الله، و«الحنيف»: من حنفَ عن غير الله من النفس والدنيا.

قال بعضهم: «الإخلاص»: ألا يطَّلع على عملك إلا الله، ولا ترى نفسك فيه، وتعلم أن المنَّة لله عليك في ذلك حيث أهَّلك لعبادته، ووفَّقك لها، ولا تطلب من الله ثوابًا.

وقال رويم: «الإخلاص»: إفراد الله بالعمل.

قوله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: «رضي الله عنهم»: في الأزل حين اصطفاهم قبل إيجادهم، «ورضوا عنه»: لما عاينوه وآثروه على من دونه عشقًا وشوقًا ومعرفة، وهذه الدرجات لمن عَرِف الله، ودأب في إجلاله، ورؤية عظمته، بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾، وأصل الرضا الاتصاف بصفة الرضا من الحقِّ.

قال الواسطي: الرضا والسخط نعتان قديمان يجريان على العبد بما جريا في الأزل، يُظهر أن الرسم على المقبولين والمطرودين، فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم كما بانت شواهد المطرودين بظلمها، فأنَّى ينفع مع تلك الألوان المصفرة، والأقدام المنتفخة، والأكمام المقصَّرة؟!

وقال: استعمل الرضا جهدك، ولا تَدَع الرضا يستعملك، فتكون محجوبًا بلذَّته عن حقيقة ما يطالع بعد درجته.

قال سهل: الخشية سرٌّ، والخشوع ظاهرٌ.

وقال عمرو المكي: اشترط الراضين بالخشية في رضاهم عنه؛ لذلك أوجب لهم رضاه عنهم بأن يرضوا عنه ويخشوه في رضاه عنهم، ولا يكون ذلك إلا باجتناب المحارم، وعقد موافقتهم لموافقته، أن يكرهوا ما كره، ويرضوا ما رضي.

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾: إذا انكشف جمال القدم عيانًا تزلزلت أرض قلوب العارفين بوصول سطوات العزة إليها، تحركت بنعوت المواجيد؛ حيث باشرتها أنوار العظمة والكبرياء، وعاينت ما في صميمها، وأخرجت أثقال أسرار معارفها وعلومها المجهولة الربَّانية إلى بساط الحضرة، وصاحبها يتعجب من تلك الأشكال الحقيقية، بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾، فتشهد الأرواح عليها، وعرفت مكنون سرائرها إياه، فعند ذلك عرف الإنسان نفسه حين ألهمه الحق بما ألهم روحه، بقوله: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

قال الحسين: تزلزَل الأرض، وتخرج أثقالها للعرض، فتقول ما لها، وتحدِّث أخبارها، وتُظهر أسرارها، فيسألها ما قدَّمت من [فطها كيميا غيب نبذهت]، من عظم ما عاينت، وشاهدت مذعنة قد خُضعت، ونُكست رؤوسها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾: يجيبون بنيَّاتٍ مختلفة، ومأمولاتٍ متفاوتة، فالناس الحقيقيُّون يصدرون من مقام المكاشفة إلى مقام المشاهدة، ومن مقام المشاهدة إلى مقام الوصلة.

قال أبو بكر بن طاهر: معتمدًا على فعله وطاعته، ومستحييًا من مخالفته ومعصيته، وراجيًا شفاعته ﷺ، ومعتمدًا فضل الله عليه، وأهل الصفوة واقفون بلا علة من هذه العلائق

إلى أن يصلوا إلى مأمولهم ومرادهم[١].

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾: العارف يرى جزاء عمله من الخيرات، ولا يكون مقيَّدًا بها؛ إذ هو مشغولٌ بالحق عن غيره، ويرى ما فعله من الحركات المذمومة؛ ليعرف فضل الله عليه بأنه تعالى لا يجازيه بها.

قال جعفر: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾: في الدنيا إذا كان مؤمنًا، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾: في الدنيا إذا كان مشركًا.

قال الواسطي: إذا كان من أهل الإسلام، إن الأعراض لا ترى، ولا تبقى وتبين، وكيف يجوز أن يرى؟

قيل: القرآن صفة الله، وأن الصفة لا تبين من الموصوف، وهو يرى في الأرض مكتوبًا، كذلك الأعمال.

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾.

﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾: أقسمَ الحقُّ سبحانه بأفراس قلوب المحبِّين إذا صُحبت بأصوات الوصلة من تراكم مواجيد المشاهدة في ميادين الوحدة، حين عاينت مشاهدة السرمدية، وهي الموريات أنوار المعارف من قداح الكواشف، ثم أقسم لواردات كُشوف صفاته حين أغارت أرواح العاشقين عند طلوع صباح مشاهدته.

---

(١) قال ابن عجيبة: متفرقين، جمع شَتّ ، نزلت في بني ليث بن عمرو، كانوا يتحرّجُون أن يأكل الرجل وحده، فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل، فإذا لم يجد من يؤاكله من الضيفان أكَل أكْل ضرورة. وقيل: في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم ، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا. وقيل: في قوم تحرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض، فخيّرهم. وقيل: كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته، ودعاه إلى الطعام، فيقول : إني أتحرج أن آكل معك، وأنا غني وأنت فقير، فأباح لهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾: شهد الحق على أسرار الخلق في الأزل قبل إيجادها، لا يعزب عن علمه ذرةٌ من العرش إلى الثرى، والإنسان لا يعرف ما أعطاه الله من نعمة بالحقيقة، وإنه لكفورٌ؛ إذ لا يعرف منحه.

قال القاسم: هو الذي يشهد بأحواله وعلى أحواله؛ لأن الحق تولَّاها في أزليته قبل أن يخلقها، وسيَّرها بتقديره، وأخرجها إلى الكون بتدبيره، وفي عرصة القيامة يسوقها إلى المحشر كما ساقها في الأزل والأبد دون غيره، فانطلق ما شاء بما شاء في يسيره في الدارين، وأخرس ما شاء عما شاء بتدبيره.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾: بعد منَّه من الطاعات، وينسى ما منَّ الله به عليه من الكرامات.

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝﴾.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾: «القارعة»: ساعة كشف جمال العظمة الذي يفنى الحدثان في سطواتها؛ لذلك قال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾، ذلك من وصول قوارعات قهر جبروته.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾[1]: فمن ثقلت موازين قلبه بمعرفة الله وتوفيقه

---

(١) اعلم أن ثقلة الموازين عبارة عن: وجود الأعمال الرزينة لها التي لها وزن عند الله، وقدر دلَّ عليه العيشة الراضية؛ لأن عيشة الرجل في الجنات؛ إنما هي بأعماله؛ لأن درجاتها ونعيمها مقسومة بقدرها؛ فهو إنما يدخل بثقل الموازين جنة الأعمال، وخفة الموازين عبارة عن: عدم الأعمال المقبولة دلَّ عليه قوله: فأمه هاوية؛ لأن الله لا يقيم لَمن خفت موازينه يوم القيامة وزنًا ومقدارًا؛ فيهوى في النار التي هي أصله؛ لأن كل ظلمة، وظلماني؛ إنما هو من النار، كما أن كل نور، ونوراني؛ إنما هو من الجنة، وفيه إشارة إلى أن =

الأزلي فهو في عيش مشاهدته الأبدية.

قيل: قال الواسطي: هل يجوز أن تُثقل الموازين بأعمالنا؟ قال: لو جاز ذلك لا من كل من كَثُرت أعماله وُصفت، بل الله يثقل موازين من شاء، ويخفِّف من شاء، ألا ترى النبي ﷺ يقول: «الميزانُ بيد الله يخفض أقوامًا ويرفع آخرين»[1]، رفعهم في أزليته، ووضع آخرين في أزليته قبل كون كل كون.

قال سهل: فمن ثقلت موازينه بالإخلاص فهو في عيشة راضية، في رضا الله ينقلب في جواره، ومن خفَّت موازينه بالرياء والسمعة فأمه هاوية، فإنه ينقلب في سخط الله ومأواه النار.

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾: شغلكم النظر إلى أحوالكم وأعمالكم، والاقتداء بالتقليد على السلف عن مشاهدتنا وقربنا.

=

الأعمال تتجسَّد يوم القيامة؛ فيكون لها ثقل وخفة، كما ذهب إليه أهل الشرع؛ لأن الأعراض لا تُوصف بذلك، وكان الظاهر أن تكون ثقلة الموازين بسيئات الأعمال؛ لتهبط بصاحبها إلى النار التي في الأرض السافلة، وأن يكون خفتها بصالحات الأعمال؛ لتصعد بصاحبها إلى الجنة التي في السماء العالية؛ لكن أُعتبرت الثقلة بالصالحات، والخفة بالطالحات؛ لأن الجسم هو الذي يتَّصف بالثقل، والخفة، فوجود الصالحات مما يقتضي جسامتها، ووزنها، وقدرها، وصعودها ليس من حيث وجودها، وثقلها في نفسها؛ بل من حيث حال عاملها، فإن العامل لا بد وأن يكون مخلِصًا بالكسر؛ بل مخلَصًا بالفتح، والمخلص لا وجود له في نفسه؛ لأنه فانٍ عن أعماله، والتعلُّق بها، فاجتمع ثقيل؛ وهو العمل، وخفيف؛ وهو حال العامل؛ فارتفع ميزانه إلى جانب العُلو؛ كالروح مع الجسد؛ فإنه لولا الروح لم يكن للجسد قيام بنفسه.

(١) رواه الطبراني في الكبير (٧/ ١١٧).

قال بعضهم: شغلكم التكاثر بموتاكم عن الحياة بذكري.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾: تعرفون أنكم لا تعرفونني حق معرفتي، حين وقفتم بها وجدتم مني عني.

قال: سيعلم من أعرض عني أنه لا يجد مثلي.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾: بَيَّن الله سبحانه أن علم اليقين قبل الرؤية والمشاهدة يكون، فإذا حصلت الرؤية والمشاهدة صار علم اليقين عين اليقين، بقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾، و«حقيقة اليقين» و«حق اليقين»: أن يعرف العبد أنه يرى جحيم قهر القدم الذي كان الحق موصوفًا في الأزل، ولم يصل إلى بطنان كنهه؛ لأنه الحدث والحق قديمٌ، وأنَّى يصل الحدث إلى القدم أبدًا؟!

قال يحيى: «اليقين»: كشف الغطاء عن القلب.

وقال فارس: «علم اليقين»: لا اضطراب فيه، و«عين اليقين»: هو العلم يُودِعَه الله الأسرار.

قال الخراز: «عين اليقين»: هو أن يرفع الحجب عن قلوبهم بتجلٍّ لأرواحهم وأسرارهم، ويكشف عن أوهامهم حتى يروه عين اليقين، فيرجعوا عنه سكارى، وينتهوا عنه حيارى.

قال بعضهم: «عين اليقين»: عين البقاء.

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ .

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ : أقسمَ الله بآزاله وآباده التي هي أعصار الأولية والآخرية التي قصر منها الدهر الدَّهار عن تعدادها، وأيضًا: أقسم بزمان العارفين حين تابوا بجماله، وفرحوا بلقائه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ، إذا احتجب بنفسه عن نفسه، وأنه لا يبلغ إلى وصله، ثم استثنى أهل شهود القدم الذين تركوا أوصاف الحدوثية على باب الأزلية،

واتصفوا بأوصاف الربوبية، بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ : «تواصوا بالصبر»: بالله في الله، «وتواصوا بالحق»: بالإقبال على الحق.

قال بعضهم: «التواصي بالصبر»: هو ألا يشهد البلاء بحالٍ.

قال بعضهم: «التواصي بالحق»: هو مقام مع الحق، والقيام بأوامره على حدود الاستقامة.

سورة الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾ .

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ : ويل الحجاب لمن لا يرى الأشياء بعين المقادير السبَّاقة حتى يكون وقيعه في الخلق بالحسد، وهو مقبل إلى الدنيا بالجمع والمنع.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ .

قال بعضهم: جمع المال: من علامة الجهل، وحبُّ المال: من علامة النفاق، والبخل بالمال: من علامة الكفر.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ : وصفَ الجاهل بالله بأن ماله يوصِّله إلى الحق، لا والله لا يصل إلى الحق إلا بالحق.

قال أبو بكر بن طاهر: يظنُّ أن ماله يوصِّله إلى مقام الخلد.

قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ ، «ناران»: نار القهر، ونور اللطف، «نار قهره»: إبعاده قلوب المنكرين عن ساحة جلاله، و«نار لطفه»: نيران محبته في قلوب أوليائه من المحبِّين والعارفين.

قال جعفر: النيران شيءٌ مختلفٌ، فمنها: نار المحبة، ونار المعرفة تتَّقد في أفئدة الموحدين، ونيران جهنم تتَّقد في أفئدة الكافرين، ونيران المحبة إذا اتَّقدت في قلب المؤمن تحرق كل همَّةٍ غير الله، وكل ذكر سوى ذكره.

❁❁❁

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾: إنَّ الله واسى قلب نبيّه ﷺ بذكر هلاك أصحاب الفيل الذين اتّكلوا على الفيل بأنه يدمر على أعدائه كما دمر على أصحاب الفيل، الذي هو أعظم الحيوان بأضعف الطيور، وذلك تعريفه صفته بواسطة رؤية فعله.

قال يوسف بن حسين: من كان اعتماده على غير الله أهلكه بها اعتمد عليه، كأصحاب الفيل اعتمدوا على أقوى خلقٍ من خلق الله، فأهلكه الله بأضعف خَلقٍ من خَلْقه ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾[1].

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾: هذا تعداد نعمه لحبيبه ﷺ وأصحابه وعشيرته والمؤمنين، أهلك أعداءهم ببركته وصفوته؛ لئلا يُشَق عليهم الوقوف في مقامٍ واحدٍ، فيرتحلوا في الشتاء والصيف؛ ليروا آيات الله في بلاد الله، ثم أمرهم بعبوديته حتى أمنهم من فزع الحجاب والعتاب والعذاب، وأطعمهم من موائد كشف النقاب.

---

(١) قال عكرمة: قال: طير نشأت من قبل البحر، لها رؤوس كرؤوس الأفاعي. وقيل: كرؤوس السباع، لم تر قبل يومئذ ولا بعده، فجعلت ترميهم بالحجارة لتجدر جلودهم، وكان أول يوم رئي فيه الجدري. تفسير التستري (٢/ ٣٥٦).

قال بعضهم: من لَزِمَ طريقة التوكُّل على الله أغناه الله عن الحركة بالرزق، وأغناه عن السعي والطلب كما قال في: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[1]: من اشتغل بالعبادة أمنه الله مما يخاف وأطعمه من جوعه، بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝﴾.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾: من لم يكن من أهل الشهود في الدين فهو منكرٌ يوم كشف اللقاء.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾: وصفَ الله أهل الرياء والسمعة الذين لم يجدوا في صلواتهم لذَّة المناجاة وأنوار المشاهدات.

قال بعضهم: الذين لا يحصرونها بشهود قلب رعاية حقوق المناجاة، وخشوع الأرواح فيها؛ ألا يعلمون أن الصلاة مواصلةٌ بين العبد وبين ربِّه، فإذا لم يراعِ حقوقها كانت مفاصلة.

قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾: وصفَهم بالبخل عن بذل وجودهم في الله.

قيل: له يبخلون ببذل المال، والمُهجِ في رضا الحق.

---

(١) قال القشيري: مصدر آلَفَ، إذا جَعَلْتَهُ يَأْلَف، وهو أَلِفَ إِلْفاً، والمعنى: جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريْش، أي لِيَأْلَفوا رحلتهم في الشتاء والصيف، وكانت لهم رحلتان للامتيار: رحلةٌ إلى الشام في القيظ، ورحلة إلى اليمن في الشتاءِ والمعنى: أنعم اللهُ عليهم بإهلاكِ عدوِّهم ليؤلِّفَهم رحلتيهم. تفسير القشيري (٨/ ١٠٦).

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾: «الكوثر»: حقيقة استغراقه في بحر جماله، ودنوِّه في منازل قربه، وله كوثر القلب يجري فيه أنهار أنوار مشاهدة الحق من بحار الأزل، والأبد يزيد في كل نفسٍ سواقيها إلى الأبد.

قال جعفر: نورٌ في قلبك دلَّك عليَّ، وقطَعَك عما سواي.

وقال: الشفاعة لأمتك.

وقال ابن عطاء: الرسالة والنبوة.

وقال: معرفةٌ بربوبيتي، وانفرادٌ بوحدانيتي وقدري ومشيئتي.

وقال الجنيد: أعطيناك نور المعرفة، وانفراد الوحدانية.

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي: اتَّصل بنور الربوبية بخالص العبودية، وانحر نفسك قُربًا لكشف مشاهدتي.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي: منقطعٌ عن الوصول إلينا.

قال القاسم: المنقطع عن خيرات الدارين أجمع.

سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: قل إنِّي وقعت في بحار القدم والديمومية، ولا أشتغل بغيره أبدًا.

قال بعضهم: عبادتكم له عبادة طمعٍ، وعبادتي له عبادة حقيقةٍ، وعبادتكم له عبادة منوَّةٌ بشركٍ، وعبادتي له عبادة حقيقةٍ وحقٍّ[١].

سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾.

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾: نصرُ الله لحبيبه ﷺ وجميع أحبانه إفرادهم بفردانيته عما دونه، وأنجاهم عن جنس النفوس، وإبلاغهم مقام الأنس نظفرهم على كل بغيَّة لهم، وأداء ما عليهم من حقوق العبودية، و«الفتح»: انفتاح أبواب الوصال، وانكشاف أنوار الجمال والجلال، وبلوغهم عين الكمال، وأيضًا «نصرُ الله»: كشف غطاء النفس، و«الفتح»: وقوع نور القدس في القلب إذا ذهب قتام الحدثان، فجاء النصر، وإذا انكشف جمال الرحمن قام الفتح، وذلك بشارة الله لحبيبه ﷺ بوصوله إليه، وتخلُّصه من أعباء النبوَّة، ومشقة الرسالة، ورؤية الأغيار، فأمره بتقديسه لنفسه، والاستغفار منه لأمته بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾، إذا كمل في المعرفة، واستقام في التوحيد، وأقبل بكماله بحق الحق عند رجوعه من نفسه إليه كان معه بحار الثناء، والعرفان والإيقان والإيمان، فأبرز الحق نورًا من قدس قدمه له، فسقط عنه ما معه من جميع الثناء، فأمره باستئناف ثنائه به لا بنفسه، وأعلمه طريق الثناء عليه في أيام الوصول إليه، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: نَزِّهه عما جرى على قلبك في طول عمرك، فإنه أعزُّ من أن يلحقه وصف الواصفين وحمد الحامدين، فالله سبحانه بحمده لا بك، ألا ترى كيف قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: بحمد ربك، فسبِّحه الحمد الذي حمد نفسه في الأزل، وأيضًا أي: سبِّح بحمد ربك الذي بحمده ما وصل مدحه مدح المادحين، ولا حمد الحامدين، ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ من حمْدِك وثنائك وجميع أعمالك له، وعرفانك به، فإن لكل معلولٍ إذ وصف الحدثان لا يليق بجمال الرحمن، فإنه كان موصوفًا

---

(١) الإشارة: إذا طلبت العامةُ المريدَ بالرجوع، إلى الدنيا والاشتغال بها، يُقال له: قل يا أيها الكافرون بطريق التجريد، والتي هي سبب حصول التوحيد والتفريد، لا أعبدُ ما تعبدون من الدنيا وحظوظها، أي: لا أرجع إليها فيما يُستقبل من الزمان ، ولا أنتم عابدون ما أعبدُ من إفراد الحق بالمحبة والعبادة، أي: لا تقدرون على ذلك، ولا أنا عابد ما عبدتم من الدنيا في الحال. انظر: البحر المديد (٧/ ١١٦).

بوصفه لا بوصف الغير، وكان ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾: في الأزل، ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾: والمنة على عباده؛ حيث قَبِل ثناءهم وتسبيحهم وتوبتهم، إذا كانت بنعت العلم بالعجز عن إدراك كنه قدمه، والاعتراف بالجهل عن المعرفة بحقيقة وجوده.

قال ابن عطاء: إذا اشتغلت به عما دونه فقد جاءك الفتح من النصر، والفتح هو النجاة من السجن، والبشرى بلقاء الله.

وقال الواسطي: أي: فتح عليك العلوم، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ على ما كان منك من قلة العلم بما أريد منك؛ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾.

وقيل: إذا فتح الله قلبك برؤية منه عليك أقبل الله قلوب عباده إليك حتى يأتوك فوجًا فوجًا.

قال بعضهم: احمد الله بحيث جعلك سبب وصل عباده إليه، واستغفر الله من ملاحظة دعائك، إن من أجابك هو الذي أجابنا وقت الميثاق، وكتب له السعادة في الأزل ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾: وبَّخ الله من لا تصل يدُ همَّته إلى وثقى عروة نبوّته والإيمان برسالته والمعرفة بكمال شرفه خسرت في الأزل يده؛ إذ قطعها الحق عن مصافحة حبيبه صلاة الله وسلامه عليه، والأخذ بعروة متابعته، ذلك الخسران من خذلان الحق إيَّاه، فإذا كان محجوبًا عن طريق الرشد لا ينفعه أعماله ولا أمواله.

قال الله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: ظهرَ خسران من لم ينزِلك المنزلة التي أنزلناك من القرب والدنو والنبوّة والمحبة خسرانًا ظاهرًا، وضلَّ ضلالاً بعيدًا.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾: علمك ألا يصل إليه إلا به وبعنايته السابقة، فما أغنى أبا لهب ماله، ولا ما رآه من قوته؛ حيث حرم سوابق الأول من الخير.

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: كان الله جلَّ جلاله مستترًا بنفسه في أزل أزله، قال: «كنتُ كنـزا مخفيًا، فأحببت أن أُعرف»[1]، فإذا أوجد أعلام ظهور أفعاله تُعرف نعوته بفعله، فلم يعرف أحدٌ بالحقيقة؛ إذ الوسائط حجابٌ، فأراد إظهار كنوز ذاته وصفاته، فاختار من خلاصة الوجود خاصًّا خالصًا، فألبس لسانه فصاحة الربوبية، ونوَّر قلبه بنور المعرفة، وظهر لعينه عين الحقيقة، فأمره بتعريفه لعباده العارفين، بقوله: ﴿قُلْ﴾: ظاهره سرٌّ، وباطنه سرٌّ، حرفٌ تحته بحرٌ من غوامض علوم الربوبية، فالقاف: إشارةٌ إلى قهر عظمته على الحدثان حتى لا يصل إلى ذرَّةٍ من حقيقة العرفان بألوهية الرحمن؛ لأن على وجه القدم وقاية الغيرة، وهناك في الأزل قلزم الحيرة، واللام: إشارةٌ إلى لا النفي أي: لا يصل إلى كنه الألوهية أهل الحدوثية أمره بالإشارة إلى الإشارة، وغوامض سرِّ الذات؛ إذ قال: هو أوقع قلوب الراسخين في أودية الهوية الغيبية في تيهِ غيب الغيب بنعت الوله والحيرة، فلم يصلوا إلى هاء الهوية، فانصرفوا إلى واو الوصف، فعجزوا عن الوصف؛ إذ لم يصلوا إلى الموصوف، فاحتجبوا بالغيب وبُعد بطون الهوية، وانصرفوا حيارى سكارى عطاشى والهين غير مدركين أوائل الحقائق، فاعترفوا بالعجز عن الإدراك، وإدراك الإدراك، فلما علم الحق عجْزهم عن إدراك سر الهوية أظهر لهم أنوار الذات والصفات، رحمةً ولطفًا بهم لكيلا يُحرموا من نصيب عرفانه وإيمانه، وقال الله أي: الذي لو تركوه، ولم تدركوه بعد طلبكم هذا، هو الله الذي بان بنعت الوحدانية والجمال والجلال من قرار الهوية، وأيضًا لما غاصوا في بحار الهوية بانت لهم أنوار الألوهية، فانصرفوا من صدمات الصمدية، وسطوات الأحدية، ووقعوا في تيه الحيـرة، ونسوا ما بان لهم، وفرُّوا، ثم طلبوا، فلم يجدوا، فأظهر الله ما ظهر لهم في الغيب، فقال: أين أنتم مما رأيتم هذا هو الله، فظهر لهم في الظاهر كما ظهر لهم في الباطن، فلمّا رأوه عيانًا فنوا في أول ألف الفردانية، ثم بقوا في لام جماله، وهابوا من عِظَم لام جلاله، ثم سقطوا في بحر هويته، أيضًا منه بدأ وإليه يعود، الأول: إشارةٌ وغيبٌ، والآخر: إشارةٌ وغيبٌ.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾، وفي البين بدا وخفا بقوله: ﴿وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾، فلما عاينوه سكروا بجماله، واتَّصفوا بجلاله، واتَّحدوا بفردانيته، وصاروا وحدانيين، كادوا أن يدَّعوا الوحدانية، فقطعهم الحق عن سرِّ الأحدية[1].

وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، فانحسمت أطماعهم عن الوحدانية حين بانت لهم أنوار وحدته، فسَبَحوا في بحار ذاته وصفاته، وطلبوا الخروج إلى سواحل العرفان، فناداهم أين أنتم لو تَسْبحون أبدًا في بحر الذات وبحر الصفات، لم ينتهوا من بحر حقائق الألوهية، فإن بحر الذات والصفات واجد الكل في حيِّز سرادق وحدانية الأفعال، غائبة في الصفات

---

(١) اعلم أن (هو) مبهم ما لا تعيُّن له في الخارج؛ بل عهديته في الذِّهن، وإنما يُريد إبهامه ما بعده من تفسيره؛ وهو الله أحد، فهو قبل التفسير مبهم في الخارج، ومفسَّر في نفس الأمر، وإنما جاء الإبهام من حيث المراتب، ففيه إشارة إلى قوله تعالى: «كنت كنـزًا مخفيًّا، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»، فإنه تعالى كنـزًا مخفيًّا قبل خلق الخلق، فكان ظهوره بذاته في ذاته؛ فكان خلق الخلق كالتفسير له بحيث كان ظاهرًا لغيره أيضًا، فالأول: مرتبة الجلاء، والثاني: مرتبة الاستجلاء، فمَن قصر نظره؛ لم يرَ العالم إلا كالضمير المبهم، ومَن كاشف عن حقيقة الحال؛ لم يكن عنده مبهم، فإن الحق تعالى كشف عن ذاته وصفاته وأسمائه؛ ولذا قال: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فالهَوِيَّة كانت ظاهرة للحق قبل خلق الخلق، وباطنة للخلق، وبعده كانت ظاهرة للخلق أيضًا، فباطن الحق ظاهر الخلق، وبالعكس على هذا نفس الإنسان الكامل؛ فإنه بمنـزلة ضمير هو في إبهامه وتفسيره، وليس تفسيره إلا الكرامات العلمية المتعلِّقة بحقائق الذات، والصفات، والأفعال؛ وهو القرآن الفعلي، والضمير المفسَّر، والهَوِيَّة الظاهرة بآثاره، والباطنة بحقائق ذاته. ومَن أنكره؛ فقد أنكر القرآن، ومَن أنكر القرآن؛ فقد أنكر الحق بذاته وصفاته، فإن القرآن ذات وصفة، فإن الصفة لا تقوم إلا بالذات، ولا تنجلِّي إلا بالمحلِّ؛ فلذا قال بعض الأكابر: أنا القرآن والسبع المثاني، ففيه أسرار الحروف والكلمات، والآيات والسور، فإنه حرف عملي روحانية، وآية مثالية، وسورة جسمانية. وهذا مراد مَن قال: مَن أراد أن يجلس مع الله تعالى (واصطنعته لنفسه) وجعله مجلى لصوَّر كمالاته، فمَن رآه فقد رأى الحق، ومَن عمى عنه فقد عمى، وكم ترى في كل عصر مَن يُقبِّل المصحف صباحًا ومساءً بناءً على أنه كلام الله، ويستحقر الإنسان الكامل مع أنه سرُّ ذلك المصحف، ولو كان عالمًا به فاستحقره؛ لُمسخ مسخ الأمم الأولى؛ لكن قد يعذر بالجهل، وذلك من رحمة الله تعالى بعباده؛ ولذا ستر الله الأقطاب في كل عصر إلا عن أهل المعرفة. فالمحجوب ينظر إليهم وهو لا يبصرهم؛ وإنما يبصر البشر، والمكاشف ينظر إليه ويبصرهم على أنهم صورة الحق تعالى. وليس لله تعالى تجلٍّ إلا في مرائيهم وعلى صورهم، ومن ينظر إلى الله وهو مجرَّد عن النعوت، فقد طلب المحال، كما أن مَن أرد أن ينظر إلى الروح بدون توسُّط مرآة البدن؛ فقد ضرب حديدًا باردًا، فإنه لا يتيسَّر إلا بالمرآة، ومرآته الجسم. ومن هذا ظهر أن الإنسان الكامل رداء الحق، فهذا الرداء لا يزول عن المرتدي أبدًا، وهو ليس بحجاب له، كما أن المرآة كذلك مع القناع، فعليك بفهم هذا المقام، وكُن مع أهل العافية والسلام. واعلم أن الله ليس منه أثر على الكون في الحقيقة، وكذا الكون ليس منه أثر على الحياة في نفس الأمر، وهو غنيٌّ عن العالمين.

والصفات في الذات، فمن عين الجمع هو هو، ومن حيث الحقيقة هو الله، ومن حيث الفردانية أحيد وحيد لا غير؛ إذ الغير يفنى في بقائه، ثم زاد في نبوية فردانيته، بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: «الله»: ظاهر بنعوت الجلال والجمال والفردانية والوحدانية، باطن بالهوية، «والصمد»: انقطع عن إدراك الخواطر والضمائر، وغابت في مهمة صفاته الأسرار والأرواح، وتاهت في تيه هويته القلوب والأشباح، وهو تنـزيه جلاله وصمديته حجبهم من نفسه، ثم أبرز من نعت صمديته نور تنـزيهه، ونشقهم روائح قدسه وأنسه، وجعلهم مشتاقين إلى لقائه عاشقين جماله، فيصمدون إليه بنعت الفناء والبقاء، فلما علم عجزهم عن رؤية حقيقة هويته وصمديته ووحدانيته وفردانيته تجلّى لهم بنعوت الجمال من لباس الأفعال، فهاموا بعشقه في بيداء أنوار جماله وجلاله، سكارى متبسِّطين، وطابوا بكل مستحسن من عالم الأفعال، فلمّا سكنوا بالمستحسنات ورؤية الجمال في الأفعال أمال أزمن قصودهم إلى فضاء الوحدانية، وأعلمهم أنه منـزَّهٌ عن مباشرة الحوادث، بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: لم يكن هو محل الحوادث، ولم تكن الحوادث محله، التجلِّي ظهور الصفات، والالتباس ظهورها في الأفعال، وهو منزَّهٌ عن التمثال والجبال، ألا ترى كيف حقق التوحيد لمن شاهد مشاهدته في أهله، بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾: غلطَ النصارى واليهود والكفرة والمجوس حين رأوا من الأشخاص أنوار الأرواح، ومن الأرواح سنا روح فعله، ثم نور صفته، ووقعوا في ظلمات الحلول حين لم يعرفوا أصل الأصل، وحقيقة الحقيقة، وعين العين وفردانية الذات والصفات عن مباشرة الأمثال والتمثال، سبحان المنـزَّه بذاته عن رؤية كل راءٍ، ومعرفة كل عارفٍ، وتوحيد كل موحدٍ، وعبادة كل عابدٍ، وجحود كل جاحدٍ، وجهل كل جاهلٍ، ووصف كل واصفٍ، كلهم في نكرة النكرة، معزولون من حقيقة المعرفة.

قال ابن عطاء: «الهاء»: تنبيهٌ عن معنىً ثابتٍ، و«الواو»: إشارةٌ إلى ما لا يدرك حقائق نعوته وصفاته بالحواس، و«الأحد»: المتفرد الذي لا نظير له، و«التوحيد»: هو الإقرار بالوحدانية، و«الأحدية»: هي الانفراد.

وقال الواسطي: «هو»: حرف ليس باسم ولا وصف، ولكنَّه كنايةٌ، وإشارة كناية عن الذات، وإشارة إلى الذات، عَلِمَ الحق من يلحد في الأسماء والصفات، ويفرِّق بين الصفة والموصوف، فقال: لا يكون فرقًا بين هويته، وهو ذاك لم يكن فرقًا بين هويته، ولم يكن فرقًا بين أسمائه وصفاته.

قال ابن عطاء: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: هو المنفرد باتحاد المفقودات، والمتوحد بإظهار الخفيَّات.

وقال الحسين: «الأحد»: الكائن عنه كل منعوتٍ، وإليه يصير كل مربوبٍ، فيطمس من مساكنه، ويطرح من نازله أن أشهدك إياه، فإنك وإن غيَّبك عنه راعك.

قال بعضهم: توحد ثم وجد لا سبيل إلى ذلك إلا أن يوجدك الحق له.

وقال جعفر: «الصمد»: الذي لم يعط الخليقة من معرفته إلا الاسم والصفة.

وقال الواسطي: امتنع الحق بصمديته من وقوف العقول عليه، وإشارتها إليه، ولا يعرف إلا بألطاف أسدائها إلى الجوارح.

وقال ابن عطاء: «الصمد»: المتعالي عن الكون والفساد.

وقال جعفر: «الصمد»: خمسة حروف: «الألف»: دليلٌ على أحديته، و«اللام»: دليل على ألوهيته، وهما مدغمان لا يظهران على اللسان، ويظهران في الكتابة، فدلَّ ذلك على أن أحديته وألوهية خفيّة لا تُدرك بالحواس، وأنه لا يقاس بالناس، فخفاؤه في اللفظ دليلٌ على أن العقول لا تدرك، ولا تحيط به علمًا، وإظهاره في الكتابة دليلٌ على أنه يظهر على قلوب العارفين، ويبدو لأعين المحبّين في دار السلام، و«الصاد»: أنه صادق فيما وعد فعله صدق، وكلامه صدق، ودعا عباده إلى الصدق، و«الميم»: دليلٌ على ملكه، وهو الملك على الحقيقة، و«الدال»: علامة دوامه في أبديته وأزليته، وإن كان الأزل والأبد؛ لأنهما ألفاظٌ تجرى على العواري في عباده.

وقال ابن عطاء: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: ظهر لك منه التوحيد، ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: ظهر لك منه المعرفة، ﴿لَمْ يَلِدْ﴾: ظهر لك منه الإيمان، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾: ظهر لك منه الإسلام، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾: ظهر لك منه اليقين.

قال الأستاذ: كاشفَ الواهين بقوله: ﴿هُوَ﴾، وكاشفَ الموحدين بقوله: ﴿ٱلله﴾، وكاشفَ العارفين بقوله: ﴿أَحَد﴾، والعلماء بقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: والعقلاء بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1].

---

(١) لأن الولد نتيجة، والنتيجة فرع الأصل؛ فكان آدم أبو البشر ﷺ من أهل هذا المقام؛ لأن الله تعالى خلقه لا عن أبوين، فكان على صورة خالقه؛ ولذلك كان مسجودًا وليست السجدة إلا لله تعالى؟ ومن هنا قالوا: ظاهر الكون خلق، وباطنه حق، ومَن صفا قلبه؛ كان كأنه لم يلد ولم يولد، وإن كان والدًا ومولودًا.

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾: في هذه الكلمة سرائر حبيبه بالاستعاذة به، ثُمَّ ذكر وصف تربيته بقوله: ﴿بِرَبِّ﴾، ثم ذكر وصفه وصفته وفعله بقوله: ﴿الْفَلَقِ﴾. و«الفلق»: انفلاق صحور العارفين بمياه المحبّة والمعرفة من تأثير انكشافات سبحات الغيرة عن جمال المشاهدة، وطلوع صباح الوصلة من مشارق الأحدية، أمره بالاستعاذة به منه حتى لا يكون بين الوصل والفصل محجوبًا عن عين العين، وإدراك حقيقة الحقيقة بعوارض البشرية، وهو قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: شر ظلمات قهره إذا غطّى قلوب أهل الحرمان، وطار على أسرار أهل العرفان في زمان الامتحان.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾: «الحاسد»: النفس الأمّارة، والشيطان الملعون حسدًا على روح جزّالة في الملكوت، سيّارة في أنوار الجبروت، فحسدهما مرامِ سهام غيرة قهر القدم، ألا ترى كيف قال ﷺ: «العين حق»[1]؛ لأنها سهمٌ من سهام قهره.

قال بعضهم: «الفلق»: فلق الكمون من القلوب، فأدارها على الألسنة.

وقال محمد بن علي التهذي: عطف الله على قلوب خواص عباده، فقذف فيها، فانفلق الحجاب، وانكشف الغطاء، وهو قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

قال الحسين: إشارة الحقّ أن جميع خلقه في معنى القطيعة عنه بكلمة واحدة، وهي من لطائف القرآن.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾﴾: فالق الإصباح، وفالق الحبِّ والنوى، وفلق البحر لموسى، وفلق الأسماع والأبصار، وفلق القلوب حتى انكشف له الغيوب.

قال ﷺ: «سجدَ وجهي للذي خلقه وشقَّ سمعَه وبصرَه»[2]، وفلق الصدور وفتقها وشرحها؛ لتدارك ما جرى فيها من المباشرة؛ إذ في ذلك صحة التحير، وصفًّاها من شر ما

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢١٦٧)، ومسلم (٤/ ١٧١٩).

(٢) رواه مسلم (١/ ٥٣٥).

خلق أن يكون مربوطًا، وإن علَت أحواله وعَظُمت أخطاره، فإن الانقطاع علامة الارتباط بما دونه من خلقه وفلقه.

قال محمد بن حامد في قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾: أعلمك أن الخلق كلهم موصوفون بالبشرية، وأن الخير الذي لا شر فيه هو الذي خلق الخلق على هذه الصفة.

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾: أمرَ حبيبه صلوات الله وسلامه عليه بالاستعاذة به، وبَيّن أن مربِّي الناس مزيِّن آدم وذريته بزينة أنوار صفاته.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾: بأنه أعطاهم مُلكًا أوّله معرفته، ومَلكَ قلوبهم بجمال مشاهدته.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾: حيث أرواحهم بسنا قدسه في رياض أنسه.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾: للوسوسة مراتب: الأولى: هواجس النفس الأمّارة، والثانية: وسوسة الشيطان، والثالثة: وسوسة جنود القهريات، وموضع هذه الوساوس الصدر؛ لأن القلب موضع العقل، والروح اللطيفة والتجلّي والخطاب والمشاهدة، وهو مصونٌ برعاية الحق، فأمّا «وسوسة النفس»: فتكون في طلب الشهوات والحظوظ، وأما «وسوسة الشيطان»: فتكون في الكفر والطغيان والبدع، وأما «وسوسة القهر»: فتذر وسوسة النفس والشيطان ألقاها الحق في أرض الصدور؛ لامتحان عباده وغيرة الأزل، منعهم بهذه الوساوس عن مشاهدة الكل، فإذا أراد بلطفه وصولهم إليه ينكشف لأسرارهم سبحات جمال عظمته، فيهب في صحاري قلوبهم مثال جماله، فيكشف عن قلوبهم وصدورهم الوساوس، وظلمة الهواجس، وذلك قوله: ﴿ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

ثُمّ بَيّن أن الوسوسة تأتي من الشيطان تارة بلا واسطة، وتارة بالواسطة؛ إذ لم يقْدِر الملعون أن يوسوس في صدره من غلبة نور التوفيق والمشاهدة، وظهارة الكفر وصفاء الذكر، وعار عليه في مقام غراة بعض شياطين الإنس، ويدعوه بلسانه إلى بعض الشهوات أو البدع والأهواء، فيوقعه إلى الحجاب، فأمر الله حبيبه أن يستعيذ به من وسوسة شياطين الإنس

والجن الذين وصفهم الله بقوله: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، واحذر يا صاحبي من هذه الوساوس، واعرف شأنها وأصلها وفرعها، فإن الوساوس تأتيك في جميع المقامات، وفي بعض المواجيد والأحوال، فينبغي أن تعرف مكائده وأسلحته ومواقعه ووساوسه، واستعن بالله في جوابه وعلاجه؛ حتى تبلغ إلى مقام مشاهدة الحق بالحق، ويغني عنك بشريتك وأوصافها، ويكون نورًا بنوره، مقدّسًا بقدسه عن كل خاطرٍ وعارضٍ، فإنْ عرفت حقيقة ما ذكرتك فصرت إمامًا للمتّقدين، وسراجًا للمقتبسين.

قال عمرو المكّي: الوسواس من وجهين: من النفس، والعدو، «فوسواس النفس»: بالمعاصي التي يوسوس فيها العدو كلّها غير طبعي، فإنّ النفس لا توسوس بها، أحدهما: التشكيك، والآخر: القول على الله بغير علم، قال الله في وصف الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

وقال يحيى بن معاذ: «الوسوسة»: بذر الشيطان، فإنْ لم تعطه أرضًا وماءً ضاع بذره، وإن أعطيته الأرض والماء بذر فيها، فسُئل ما الأرض والماء؟ فقال: الشبع أرضه، والنوم ماؤه.

وقال يحيي: إنما هو جسمٌ وروحٌ وقلبٌ وصدرٌ وشغافٌ وفؤادٌ، «فالجسم»: بحر الشهوات، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، و«الروح» بحر المناجاة، و«الصدر»: بحر الوسواس، قال الله تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، و«الشغاف»: بحر المحبّة.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، و«الفؤاد»: بحر الرؤية، قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾، و«التقلّب»: بحر العمل.

وقال سهل: «الوسوسة»: ذكر الطبع.

وقال: إذا كان القلب مشغولاً بالله لم يصل إليه الوسواس بحالٍ.

وقال عبد العزيز المكّي: يوسوس في فؤاد العامة، وقلوب الخواص لو دنا منها إبليس لاحترق.

صدق الشيخ فيما قال، ولكن في سر السر، وغيب الغيب، ونور النور، وسنا السنا، ولطف اللطف، وشهود الشهود، ودنو الدنو، ووصال الوصال، وبقاء البقاء وعيان العيان تكون قلوب العارفين والموحدين والمحبّين والمريدين والمؤمنين في قبض العزة منقلبة بين

أصابع الصفة التي هي أنوار آزال الآزال، وآباد الآباد، طالِبه يوصل الوصل، وعرفان العرفان، وحقيقة الحقيقة، كالفراش حول الشمع كمال شوقها الاحتراق بنيرانه، كذلك قلوبهم محترقة هناك بنيران الكبرياء، فانية في سطوات الجلال، باقية بسبحات الجمال، مصونة عن ذل الحجاب، محروسة عن طيران العذاب، كيف يخلّلها قتام الوسواس، فهواجس بالنفس، وحديث الناس، سبحان من صفاهم بصفاته عن كل كدور، وبراهم بقدسه عن كل علة، الوسواس في الصدور، والقلوب في الحضور والنور والسرور، كيف يصل حركات الإنسانية إلى من استغرق في بحار الوحدانية، لا بأس بأن طوى على الصدور وسواس وهواجس من محل الامتحان، فإنّ الأرواح في يمين الرحمن، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، والحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة، ألا ترى كيف شكا عنه خواص الصحابة إلى حبيب الله وصفيّه صلوات الله وسلامه عليه، فقالوا: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلَّم به»، فقال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: «ذلك صريحُ الإيمان»(١).

وقال أبو عمرو البخاري: أصل الوسوسة ينتجها من عشرة أشياء:

أولها: «الحرص»: فقاتله بالتوكل والقناعة، والثانية: «الأمل»: فاكسره بمناجاة الأجل، والثالثة: «التمتع بشهوات الدنيا»: فقاتله بزوال النعمة وطول الحساب، والرابعة: «الحسد»: فاكسره برؤية العدل، والخامسة: «البلاء»: فاكسره برؤية المنة والعوافي، والسادسة: «الكبر»: فاكسره بالتواضع، والسابعة: «الاستخفاف بحرمة المؤمنين»: فاكسره بتعظيم حرمتهم، والثامنة: «حب الدنيا والمحمدة من الناس»: فاكسره بالإخلاص، والتاسعة: «طلب العلو والرفعة»: فاكسره بالخشوع، والعاشرة: «المنع والبخل»: فاكسره بالجود والسخاء، والحمد لله حمدًا لا انقطاع له ولا انتهاء، والصلاة والسلام على سيد الرسل وخاتم الأنبياء، وعلى آله وصبحه وسائر الأولياء، ما دامت الأرض والسماء.

تم بحمد الله وتوفيقه

---

(١) رواه مسلم (١/ ١١٩).

فهرس المحتويات